منصف
المرزوقي

الرّحلة

مذكّرات آدمي

الدار المتوسطية للنشر
MEDITERRANEAN PUBLISHER

د. منصف المرزوقي



الرّحلة

مذكّرات آدمي

النص طبعة مزيدة ومنقحة يعوّض طبعتي دمشق سنة 2002 و 2010

الدار المتوسطية للنشر

إلى حرّة وهناء وكل الأطفال المشاغبين

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الــرّحلـــة – مذكّرات آدمي

الكاتب د.منصف المرزوقي

مدير النشر عماد العزّالي

تصميم الكتاب والغلاف نجلاء العياري

الترقيم الدولي للكتاب 978-9938-864-33-5



الطبعة الأولى

2015 م – 1436 هـ

الدار المتوسطية للنشر

العنوان : 5 شارع شطرانة 2073 برج الوزير أريانة - الجمهورية التونسية

الهاتف : 216 70 698 880

الفاكس : 216 70 698 633

الموقع الإلكتروني: www.mediterraneanpub.com

البريد الإلكتروني : medi.publishers@gnet.tn

فضاء القارئ

أغرب ما في هذا النصّ ليس أنه وصلنا بتظافر صدف تكاد تكون من قبيل المعجزة وإنما إصرار البعض على أنه مزحة بعض الشباب والحال أن كل الدلائل تثبت صحّته.

نعم علينا اعتبار حجج من ينبّهون لصعوبات فهمه ومعالجته فما بالك بتحقيق المهمّة التي تعهّدنا بها، لكن أليس من واجبنا رفع أضخم تحدّي وُضع أمام مهنتنا ؟

المعلّق

الكتاب الأوّل

الإحرام

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا أن شئت هذا أم أبيت

إيليا أبو ماضي



يقــول الــراوي فــي مـقـدمــة النصّ

كم من نقاش يبدو تبادل أفكار وهو صراع بين ديكين غيورين... أو تسوّل حبّ!

هـذا عشاء انتهـى دون خصومـة بـل شـهد تبـادل عواطـف صامتـة أشـد رهافـة وعمقـا مـن كل الـتي نتبادلهـا إبـان اللقـاءات النـادرة الـتي تجمعنـا دوريـا وقـد صرنـا شـبه أغـراب نتقابـل كل مـا سمح بالأمـر تقاطـع طريـق جديـد.

إنها الفرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوما على طرحه على أي من البنتين.

– تفاحـة وأنـت تفيحـة، قبـل رفـع الجلسـة بعـد المصادقـة بالإجمـاع علـى كل آرائـي في كل المواضيع، لـي سـؤال أخـير: هـل كنـت الدليـل الـذي يكتـب الزبائـن رسـالة شـكر بخصوصـه وتوصيـة أكيـدة وملحّـة وعاجلـة بترقيتـه؟

تبتسم تفيحة لذكرياتها:

– أصوّت لفائـدة رسـالة الشـكر والتوصيـة بالترقيـة لا لشـيء إلا لأنـك غمرتنـا بالحـب، هـل ثمـة شـيء آخـر يطلـب مـن دليـل؟

أسلّط نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:

– ادفع الفاتورة وسأقول رأيي.

– يا بنت...!؟

تفتعل غضبا يتستّر على فيض من الحنان:

– نسـيت مـا كلّفتنـا! لم تصل تقاطعـا مخـيّرا بـين طريقـين إلاّ وفرضـت علينـا الأطـول والأخطـر. تريـد بعـد هـذا شـهادة أحسـن دليـل مـن زبائـن كم أرهقتهـم وأنـت لا تعـي!

تصرخ تفيحـة تفتعـل المزايـدة علـى أختهـا: ثـم هـل نسـيت أنـك رفضـت لـي كلبـا وأنـا في العاشـرة وأنـك يـا شـرّير تمسـكت برفضـك رغـم الإلحـاح والبكـاء بـل وسـخرت مـني قائـلا أنـك مسـتعدّ لأن تشـتري لـي حيوانـا شـريطة أن يكـون معـزة.

محكوم علينـا أن نصـوغ وتصوغنـا الـذوات الأخـرى ولا أحـد يـدري كيـف يحصـل الأمـر... كـم مـن كلمـات قلتهـا أثّـرت في هـذه البنـت وفي غيرهـا...كـم مـن أقـوال ومواقـف لعبـت أخطـر الأدوار في حياتـي ولا أعـرف لمـن أديـن بهـا.

– كلـب في البيـت والحـال أنـه لا أحـد نجـح منـذ بدايـة التاريـخ في جلـب حيـوان كهـذا. !... عـودي يومـا لقريـة أجـدادك وسـترين وجـبن المعصـورة في فمـك أفضليـة الماعـز علـى الـكلاب.

تضحـك تفيحـة. تعـد أنهـا سـتعود يومـا للواحـة لتلقـي التدريـب الـذي فاتهـا، خاصـة وأن الأزمـة الاقتصاديـة والمصرفيـة العالميـة بصـدد التفاقـم هـذه الأيـام وقـد تفـرض بعـض التأقلـم

والمراجعات الموجعة على باحثة لا تتقن أصابعها إلا مسك القلم والنقر على الحاسوب. تحدّق في الفراغ تبتسم لذكريات لا تتضح حلاوتها إلا بمرور السنين.

– كنت تردّد دوما كم أنا فخور بك يا ابنتي. هذا الفخر هو الذي شجّعني دوما على التحمّل ومواصلة الطريق.

يمدّ الدليل يده للبقشيش. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تفيحة عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية هذه. طيري يا قبلة. أعبري كل الفضاءات. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركتني وباركت في ذريتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنقلّي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبّدوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحوّاء محبة وامتنانا لأنهما فضّلا إرهاق الوجود على راحة العدم.

يفيض القلب حبّا للسابقين واللاحقين. أعود للهجة الحزم لأخفي تأثّرا عزّ عليّ دوما تركه يبرز .

–تفيحة، سؤال قد لا تتذكرينه، ألقيته عليّ وأنت في الرابعة: "با" ماذا يفعل هنا كل هؤلاء الناس؟ آن الأوان لأسمع ردّك؟ نعم ماذا تفعلون في هذا العالم؟ ماذا تفعلون به، ماذا تفعلونه فيه؟

– حين أراك، يبدو لي أن أهمّ فعل للآدميين هو فعل «بحَثَ».

– كيف لا يغري فعل كهذا رجلا ضيّع نصف عمره في البحث عن نظاراته والنصف الآخر في البحث عن مفاتيح البيت والسيارة... فعل دسم أقبله مرحليا حتى ولو أنني أشعر أن فعل الأفعال الذي أبحث عنه غيره.

تعود تفاحة للاستفزاز:

– كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان طفل فضولي نافذ الصبر خرج يوما من بيته يبحث عن فعل مجهول آمن أنه سيّد الأفعال، والآن من يقود القصّة ؟

يشرد نظر تفيحة :

– كان يا ما كان، طفل يصرخ بالمتعة وبالألم، همّه الأوحد الكشف عن كلّ الأسرار وهمّه الأوحد الآخر ألا يكتشف شيئا لتبقى كل الأسرار أسرارا.

– برافو يا تفيحة. فهمتني أخيرا. أليس أفظع ما ينتظرنا أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبدا أو أنه سرّ حقير لا يستأهل كل المشاق التي تكبّدناها... أو أنه حقّا استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل الآن بوقتنا وقد كشفناه ؟

تستعدّ تفاحة للنهوض وهي دوما في عجلة من أمرها مثل والدها، وقبله الذي كان أبا لأبيها. تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها للكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبر باب خروج المطعم الصغير.

– يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة وسيسند لك من قبلي هذا الصيف.

– تقصدين!

– ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدا في يوم من الأيام.

يا الهي لا أصدّق ان كل هذه الأعوام مرّت و بهذه السرعة.

تمرّر تفيحة يدها أمام وجهي:

– «با»، يكفي ما أمضيت من الوقت داخل قوقعتك.

تتوجه لأخت تواصل التحديق فيّ بعينين مبتسمتين.

– إنها الصدمة. أمور لا تحصل إلا للشيوخ وهو ليس منهم.

أتوجه لطفلتي التي ستصبح «ما» وقد عاد النص إلى نقطة السطر.

– تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الاحرام بتأريخ مسيو فيدال وقومه شتاء... الموافق في تأريخ «ما» وقومها ل... طيب سنرى فيما بعد ...الوصول تقريبا في...

تفلت مني الجملة.

– آه، إذن هذا عالم عبثي، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم. تتدخل تفيحة :

– كفى ضوضاء على قارعة الطريق، «با»، اترك هذه الحسابات للنساء. أنصحك بأن تغتنم الزمان الباقي لتجديد مخزونك من القصص.

تضحك تفاحة .تأخذ في تقليد صوتي:

– كانت الأميرة دوما ملآنة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقق كلّ ما عزمت عليه.

تعود تفيحة لهوايتها القديمة في افتكاك الكلمة لتقود قصة لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

– وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعمّ الخير.

– اعترفا أنها كانت قصصا مسلّية وأنني لم أضع فيها إلا ما من شأنه إعانتكما على مصاعب الحياة.

– لسنا ضدّ مبدإ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة قديمة.

– خشية في غير محلّها. لا أكره عندي بعد التبلّد إلاّ التكرار. تصبحان على خير.

تضع تفيحة قبلتها على وجنتي وتفضل تفاحة طبعها على جبيني هامسة في أذني

– «با»، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

اللعينة، كم كلّفتني! لكن هل ثمة شيء في هذا العالم له قيمة ولا يكون باهظ الثمن!

أي طريق أطول للبيت حتى أبقى ماشيا ساعات وفي وجهي الريح والمطر؟ لست في عجلة للرجوع و«ح» على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها حتى لا تزيد في أوجاعي.

مسكين هذا الجسد الذي كنت أولّع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته التراتيم... الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان جنتي وجهنمي، الذي كان مدخلي للذات الأخرى ولأعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، مؤخرة لا تغري مراهقا بقرصها، أسنان صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان مثل قريتين افرغتا من كل لبن، لم يعد يشتهيهما فم نهم لرضيع أو عاشق ولا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض همّه اكتشاف بداية سرطان.

نحن في العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنت أستفزّ به طلبتي: وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير... العمر الذي تكفّ فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت...العمر الذي يتسارع فيه خراب هذا الذي كان مطيتنا على طول الطريق. كأنّ الحياة إبحار على محيط تسلمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر صواريها وتدافع الماء من ثقوب حفرنا الكثير منها بأظافرنا.

تحضرني كلمات أغنية شائعة في شبابي فأرفع عقيرتي لا يهمّني أن أزعج هذا، أن أضحك ذاك أو أن أبكي ثالثا.

المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويل... ومع هذا... ومع هذا.

سأستجمع كل شجاعتي المزعومة. سآخذ "ح" بين ذراعيّ أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد. سأهمس في أذنها ما رفضت أن أبوح به حياة كاملة أغلب الظن عن حياء في غير موضعه: أحبّك . كم نخلط بين الحب والشهوة لا يتضح الفرق إلا والحبيب فقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.

كائن على وشك الرحيل،كائن على وشك الوصول....على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الآدمي، على فراش الولادة نسخة جديدة له... تواصل مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يعصى لها أمر.

ماذا قالت تفاحة ؟ إن ولدت بنتا ستسميها حرّة. ! فأل طيب... ماذا أيضا ؟... يجب أن أعدّ قصة خاصة بها وأن تكون على قدر المقام . أيعصى أمر كهذا ؟ ...من حسن الحظّ أنّه ما زال أمامي بعض الوقت لأصقل مقاطعها حتى تكون أروع قصة رُويت يوما لطفل...قصة القصص...الرؤيا...

في انطلاق التدوين وأسبابه

اللّهم أتمم هذه الرّحلة على خير.

همس الرجل بالجملة ساهماً، ثمّ تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل .كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء. أذكر أنّني توقّفت عن كتابة الوصفة، أنّني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

غدوت مع الأحياء مذ حان مولدي إلى اليوم ما ننفكّ في دأب سفرا

وقوله:

وردنا بلا وفر ديار حياتنا ونترك فيها يوم نرتحل الوفرا

وقوله:

إنّ الحياة كجسر بين موتين أوّل وثان وفقد الشخص أن يعبر الجسر

وقوله:

عشنا وجسر الموت قدّامنا فشمّر الآن لكي تعبره

وقوله:

أنا باللّيالي والحوادث أخبر سفر يجدّ بنا وجسر يعبر

وقوله:

وهوّنَ ما نلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ، فما بالك لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار، تشارَكَ فيها الأميون مع الفلاسفة وأكثر من شاعر

هيا لندع غمّ غد يا صاح **(عمر الخيام، ترجمة صالح الجعفري)**
ولنغتنم العمر ببشر وهناء
إن نمض غدا فنحن في رحلتنا
والعائش بالألوف في الدرب سواء

الحياة رحلة...رحلة في الدنيا (مما يجعل الموت آليا رحلة في الآخرة؟!)

من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل العالم والآدميون يتدافعون فوق الأرض و فوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعون العالم في كل اتجاه بكيفية لم تعرف في أيّ من العصور السابقة. السفر أيضا قدر قطعان الغزال تركض من

السهول الصهباء إلى البراري الخضراء، قدر طيور تمخر عباب السماء من قطب لآخر، قدر وطاويط ترتحل بالملايين لغابة دون أخرى، قدر جحافل حيتان تجوب المحيطات بلا كلل، قدر كم من كائنات أخرى تذرع إلى ما لانهاية ركضا وطيرانا وسباحة أرجاء عالم يبدو بلا حدود.

لا غرابة أن اقضّي العمر ككل الكائنات في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.

أول حافز لتدافع الآدميين نحو الأفق خوف أن يؤكلوا أو الطمع في أكل لم توفّره لهم عين المكان. هكذا ضرب الأوائل في الأرض ذات العرض والطول آلاف السنين جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. واقع لم يتغير كثيرا، وكل ما تغيّر أشكال الصيادين والطرائد، ومن ثم ارتحالي ردحا من الزمان هربا من رجال غلاظ سمّمت حياتهم وسمّموا حياتي جريا وراء أمان توفّره أراضٍ لا تعرفني ولا أعرفها.

للرحيل وازع آخر هو الحجّ لأماكن اصطفاها الآدميون وشددت الرحال إليها كالكثيرين ، الهاجس لقاء من ضرب لنا فيها موعدا لا يخلف...ربما أيضا لالتقاط الأنفاس فيها لحظة وهي الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقل طيلة الحجّ.

ثمة أيضا الفضول. تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم: هناك وراء هذا البحر جبال تلامس قممها السحاب! هناك وراء هذه الجبال بحر لا يعرف له ضفاف! هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! هناك داخل هذه الغابات الخانقة كائنات أغرب من كل ما ينسج الخيال! هناك على ضفاف نهر أبلاه الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف أيّ آلهة علّمتهم صنع الجبال! هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتدّ آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاهيهم بشر في التوحّش والتحضّر! هناك وراء هذا السور أو تلك الجبال الشامخة بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب

هكذا تدافعت مع المتدافعين ،فارّا ، متشرّدا ، حاجّا ، مستكشفا، سائحا أشدّ الرحال لكلّ فجّ عميق اسمع عنه همّي أن أملأ عيني من العالم كما يملأ الجائع بطنه من الطعام أو التاجر الجشع جيبه من المال.

عاجلا أو آجلا ترتطم بالتحدي الأول: اتساع الفضاء وبالتحدي الثاني: ضيق الزمان الذي خُصّص لنا لاستكشافه.

عالم لا تستنفذه رحلة بطول الأبدية ولا يمنحك إلا قبسا من الزمان! أما كان بالإمكان أن تُوفَّر لشخص مثلي حياتان أو ثلاث!

تتقدّم القراءة كنوع من الحلّ ، كسفر بالوكالة والآخر من يحقق لك ما لم تمكّنك الظروف الظالمة من إنجازه ،لا تدري هل يجب أن تشكره لأنه هو الذي تكلف مشاق وأخطار الطريق أو أن تحسده لأنه هو الذي...تكلّف مشاق الطريق وأخطاره .

داخل ملفاتي المتراكمة كم من رحلة عشتها ولم اعشها، أنا أكبر مغامر امتطى يوما ظهر النصوص .

هكذا ارتحلت مع مغامرين لا خارطة لديهم ولا أدوات ملاحة موثوق بها، على مراكب أشبه بقشور الجوزة يتقاذفنا محيط يسمّى بـ«الهادئ» وما هو بهادئ ونحن في صحاريه السائلة كالفئران بين براثن الأسد.

كنت مع مغامري قبائل النيت نستكشف الصحاري البيض على طول وعرض سيبريا... مع قبائل البيجمي نشقّ الطريق داخل غابات حوض الكونو الخانقة... مع أجدادي البدو في مجاهل الربع الخالي نبحث عن مداخلها ومخارجها إن قبلت بإطلاق سراحنا... مع هردوت وأدوكس في سفرهما لمصر الفراعنة ... مع بحارة حتشسبوت نستكشف بلاد كوش وبونت... مع حنون على طول شواطئ إفريقيا.

بديهي أنني لم أترك رحلة مسلّحة إلا وكنت من الروّاد . هكذا ارتحلت مع اسكندر المقدوني من جبال ماسيدونيا إلى جبال الهندوكوش ، مع حنبعل من قرطاجنة إلى ضواحي روما عبر جبال الألب ومع جنكيز خان من سهول منغوليا إلى ضفاف أنهار الصين.

من غزواتي السلمية أذكر أنني ارتحلت مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميّمما وجهه نحو الشرق... مع ابن جبير إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام... مع الشيخ الأكبر والشريف الادريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزي وابن الخطيب وهم يتلمّسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة ، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مرّ القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

ارتحلت مع المجريطي إلى بغداد والبصرة أنقّب عن الرسائل أعود بها أثمن غنيمة أنشرها في قرطبة وغرناطة... مع ابن فضلان لأتأمّل معه مشدوها أراضٍ بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف... مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة... مع ابن البيطار من مالقة إلى دمشق عبر القيروان منقبا في أسرار النبات... مع البيروني ابحث معه عبر ربوع الهند في معتقدات آدمييها المقبولة منها والمرذولة. مع روبروك في فيافي الصقيع والريح ...مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان... مع ياو بحثا عن جزر هو-تشيو الخمس... مع هوان-شن-تاي ركضا وراء جزيرة الحقيقة... مع شنغ-هي في سفراته السبع نحو شواطئ الجنوب والغرب... مع فاكسيان بحثا عن تعاليم بوذا نعود للصين بدين جديد.

ارتحلت مع ماتيو ريتشي في ربوع الصين أترجم علومها للغات الغرب وأترجم علوم الغرب للغة امبراطور أحبّ هداياي ورفض لي لقاءه لاعبا معي دور الربّ الذي لا يكشف وجهه لعباده.

في ملفات أخرى، انخرطت في قوافل الخيل والبغال المحمّلة بشاي «بوير» تمشي بحذر على امتداد آلاف الكيلومترات على أصعب وأخطر طريق ارتحل عليه الآدمي والحيوان؛

طريـق يتلـوى كالثعبـان مـن الوديـان الرطبـة إلى سـقف الأرض: وطـن الجليـد الأزلـي. يـا للمغامـرات الـتي عشـت وأنـا أعـبر الأنهـر الجبـارة وأتسـلق الجبـال المرعبـة وأواجـه قطـاع الطريـق والكواسـر لأصـل أخـيرا سـالما منهـكا، مرتعبـا ومنبهـرا مدينـة اسمهـا لاهـاسـا أكـبر سـوق لشـرابنا الأول بعـد المـاء : الشـاي.

ارتحلـت مـع كولومـب شـعاري شـعاره : أروع السـفرات تلـك لا نعـرف ونحـن في بدايتهـا إلى أيـن سـتقودنا.

ارتحلـت مـع فزبوشـي وماجـلان وإلكانـو وبارتوليميـو ديـاز والقرصـان فرانسـيس دراك وجـون سميـث وكـوك وبوقنفيـل ولابـروس وكل مـن حركهـم الجشـع للذهـب والتوابـل أو لـدرة صفـراء اسمهـا العنـبر سّماهـا الأوائـل دمعـة الآلهـة

ارتحلـت مـع بحـارة نانتيكـوت في أخطـر وأبعـد وأصعـب بعثـات الصيـد، نجـري وراء الحـوت المسـكين، نخرجـه داميـا مـن الأمـواج نقطـع أطنانـا مـن لحمـه، نغلّـي شـحمه في قـدور شـيطانية، نعـود ببقايـاه، نتقاسـم أقـذر الأربـاح.

مـع قـودان وبوجـي ولاكوندامـين، تسـلّقت قمـم جبـل الانديـز نضـع علـى أعلاهـا علامـات علـى امتـداد مئـات الكيلومـترات، نحـاول قيـاس قطـر هـذا الكوكـب الـذي حكـم علينـا أن نذرعـه طـولا وعرضـا ونحـن لا نعـرف شـكل هـذا الـذي نرسـم عليـه الطريـق.

علـى مـتن السـفينة "البيجـل" راقبـت مـا يخطـه بعصبيـة رجـل اسمـه «داروين» . مـع هانـس صُلـوان بحثـت في جزيـرة الجامايـيك عـن أغـرب أنـواع النباتات.مـع هوكـر نقّبـت في أبعـد جـزر الهـادي عمـا بقـي منهـا غـير موثّق.مـع شـتلّر وبيرنـج صارعـت الشسـاعة المرعبـة لسـيبريا ومـع بـيري وامندوسـن ونوبلـي وشـاكلتون أستكشـفت القطبـين.

كنـت أيضـا مـع نانسـن، علـى مـتن السـفينة "فـرام" ثـم صاحبتـه علـى القدمـين بعـد أن تركنـا الباخـرة حبيسـة الجليـد لنفتـح طريـق القطـب الشـمالي. لم يكـن رفيقـه الـوفّي المـلاح النرويجـي الـذي تذكـره الشـهادات، وإنمـا كاتـب هـذه السـطور يعيـش معـه لحظـة بلحظـة ملحمـة بطـل مـن خـيرة الأبطـال. كـم صارعنـا داخلنـا الرهبـة والتهيـب والإحبـاط واليـأس والألم، وصارعنـا خارجنـا الـبرد والريـح والـدب وتحـرك الجليـد تحـت أقدامنـا.! كنـا نظـن الطريـق الخبيـث يتقـدم بنـا وهـو يـراوغ تـارة نحـو الخلـف وتـارة نحـو اليمـين كأنـه أقسـم ألا يصـل بنـا يومـا إلى الهـدف. يـا لطـول هـذه الشـهور الخمسـة؛ لا نـرى فيهـا وجـه الشـمس... يـا لطـول هـذه السـنوات الثـلاث ونحـن تائهـان وسـط صحـارٍ بيـض متراميـة الأطـراف كالصفـراء فتّاكـة الجمـال !

مـع هـيرام بنجهـام نقّبـت في جبـال البـيرو عـن آثـار ماشـو بيشـو واسـطورة"الأنكـا".مع مـارش وكـوب بحثـت في سـهول غـرب أمريـكا عـن رميـم الديناصـور، أحـاول عبثـا التوفيـق بـين رجلـين أرهقـني تنافسـهما المحمـوم مثلمـا أرهقـني نـزاع ماهلـر وتومسـون وهمـا يتخاصمـان حـول مـن أول مكـتشف معـابد وقصـور شـعب المايـا في غابـات أمريـكا الوسـطى. مـع أوقسـت

باقي استكشفت– مشيا على الأقدام– مجاهل الهند الصينية، وبعدها أو قبلها سافرت مع هكسلي وولاّص أُعِدُّ وأستعدُّ معهما لأكبر ثورة في تصورات الآدميين لعالمهم.تتّبعت مع برتون وسبيك منابع النيل وتبعت خطى بلزوني وكارتر وقد أصبح التنقيب عن آثار بني فرعون رحلة في الفضاء وفي الزمان.مع سيسيليا وإدوارد سلّر في جريت وراء أسرار المسكين مونتزوما...مع طور هايّاردال ورفاقه الخمسة، ركبت أغرب مركب عرفه المحيط، نقتفي آثار فرسان الريح، نحاول إثبات نظريّة خاطئة .

ارتحلت مع نبي صغير اسمه لويس ترجاردت هارب بقومه من أرض هوان باحث هو الآخر عن الارض الموعودة. همت على وجهي سنوات طوال وراء عربات تجرها الخيل والثيران، أشق مع جحافل من النساء والأطفال والشيوخ الطريق في قارة ظنناها عذراء. صارعت معهم اتساع الفضاء وضراوة الوحوش وبأس المحاربين الأفارقة وكادت طفيليات الملاريا أن تفنينا. وحدي من كنت أعرف أنها رحلة عبثية، أن عشاق الحرية سيضعون أسس أبشع أنظمة الاستعباد وأن الأراضي التي سيفتكّونها ممن هم أضعف منهم سيفتكّها الذين هربوا منهم، لحقوا بهم أين ظنوا أنهم بمأمن ...وكأنّ للآدمي في هذا العالم مكانا آمنا .

مع جاك كيرواك كانت الرحلة ضربا من التشرّد طيلة سنوات سبع بدأناها بالبحث عن بداية الطريق رقم 6 في الشمال وفي الجنوب وهو يتجّه غربا. تلك إحدى مشاكلنا مع كل طريق إذ لا نعرف لا أين يبدأ ولا أين ينتهي.

مع مارجاريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس كان هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات ومعتقدات "البدائيين" و"المتوحشين" هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بعد، أم هل هي حالة "التطور" الذي توقّف عندهم واكتمل عند المستكشف الهمام وقومه الذين موّلوا رحلته.

بالطبع ارتحلت مع أوليس وسندباد وآكاب وكان ذلك داخل فضاء خيال الماضي .

داخل فضاء خيال المستقبل عشت عبر نصوص إسحاق أزيموف وفيليب ديك وفرانك هربرت، رحلات في قمة الغرابة والخطر. مع أرثور كلارك كنت أنا من صرخ مبهورا مرتعبا عند مغادرة السفينة الفضائية "ديسكوفري" وقبل التوغل داخل الجسم الأسود الغريب: يا ربّ كم ثمة من نجوم !

من مزايا مثل هذه الرحلات أن بوسع خيالك المزايدة على خيال الكاتب. هكذا جعلت «ديسكوفري» سفينة نوح جديدة محملة بكل الناجين من آخر الحروب النووية. في مراجعتي للنص جعلت تمردا ينشب داخل السفينة وأي غرابة وهي لا تحمل إلا عينة من نفس الأشقياء الذين دمّروا عالما بأكمله . لم أترك خيارا للقبطان غير قتل كل الركّاب وهو ما أدى بالحاسوب كارل لتنظيم انقلاب جعل منه السيد الوحيد وصفّى فيه آخر آدمي في

الكون. ولما اعترضه على حدود الكون الجسم الأسود الغريب أفرغ فيه حمولته من برامج ذكية حُفظت فيها أحسن صفات الآدميين. هكذا تحوّل الجسم المجهول إلى رحم ولدت منه ما لا يحصى من آدميات استعمرت ما لا يعدّ من الكواكب والنجوم.
تنويع آخر على نفس النغم وأنا ارتحل داخل أكبر سفينة فضائية يموت فيها الركاب ويولدون قرونا لا تحصى إلى أن يلحق جيلا منهم بالصدفة أرضا توأما لتلك التي دمّر آباؤهم وأجدادهم من فرط الغباء والجشع . ها هو الآدمي الجديد يجثو على ركبتيه طالبا من الكوكب المجهول أن يحتضنه فيداه خاليتان من راية خفاقة وسلاح قاتل وكتاب مقدّس وهو لم يأت لا فاتحا ولا مبشرا أو مستعمرا، إنما ضيفا وحاجا.
إنها بعض القصص وأنا في مزاج رائق وعلاقاتي بالآدميين على أحسن ما يرام.
ثمة أيام أخرى وعلاقات أخرى ومن ثم قصص مختلفة منها الذي يؤخذ فيه القرار بعدم اعطائهم فرصة جديدة لن يفعلوا سوى تضييعها مرة أخرى. هكذا ارتحلت إلى كوكب أزرق كان يسمى الأرض قبل بضعة ملايين من السنوات لم أكتشف إلا سماء خضراء وبحارا راكدة تغلي وأزيز إشعاعات قاتلة وغابات تبرز منها بقايا ناطحات سحاب. بحثت عن كائنات حية وبي خوف مبهم أن يكونوا قد تركوا بقايا ربما انقلبت إلى شياطين . لحسن الحظّ لم اكتشف إلا كائنات من الحديد والأسلاك الكهربائية تحاكي أجسام الآدميين. ذات يوم وأنا أتجول في الخرائب التي تعيش فيها وجدت مسرحا تُعرض فيه تمثيلية عن كائن غريب ينتظره بفارغ الصبر ممثلان واجمان وهو رغم تكرّر الوعود لا يأتي أبدا. انفجرت ضاحكا، الشيء الذي كشف وجودي فإذا ببني روبوت يمسكون بتلابيبي صارخين بجذل مخيف : إنه هو،.....الهادي المهدي ... الذي وعدنا به انجيل الأوائل ... من ننتظر منذ بداية التاريخ ليقول لنا من نحن، من خلقنا وماذا نفعل هنا...!!!!.
..Godot..Godot..Godot..Godot..

*

يواصل العالم، مهما سافرت بالجسد أو بالخيال، تحدّيك باتساعه الأخرق وتعقيده المخيف.
سؤال لا أريد له ردّا : كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأملأ العينين منها وهي تتلاطم في أشداق البراكين ! كم من أعاصير وصحارٍ وجبال وغابات وسهول لن أتفاعل معها أبدا !كم من جزيرة ساحرة تختبئ في أعماق المحيط لم ألجأ إليها ولم أغادرها مودّعا ببكاء كل السكان لأن من يبتلعه الموج يحسب في عداد الأموات ! كم من كائنات بقصصها المثيرة جانبتها وجانبتني لا التفت إليها ولا تعيرني أدنى اهتمام !
كم من آثار كدسها الآدميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها ! كم من دير على قمم جبال اثيوبيا لم أدخله ،لم يستقبلني فيه الرهبان بالترحاب يفتحون لي أبواب الحكمة والإيمان ، يغسلون قدميّ المنتفختين، استريح اخيرا من مشاق ومخاطر الطريق ! كم من ديانات وفنون وعلوم وأشعار وجدت أو ستوجد، لم ولن أتذوّقها يوما ! نعم كم من روائع لم يقيّض لي تأملها فما بالك بالتمتّع بها ؟ لمزيد من الاحباط : كم من روائع

مرّت أمامي تمدّ إليّ عطاءها لكنني لم أنتبه لها ؟ كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى ؟

تسلّم يوما أنك لم ترتحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.

ومع هذا... يا للحصاد! يا للوليمة !

وليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى ،شعر الحبيبة، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر .

وليمة والعالم روائح الحبق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسل عن عطر النساء .

وليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون ، الخبز الساخن للجوع والماء الزلال للعطش.

وليمة والعالم خرير ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعد، الرقيق للناي ، نداء عشق جدجد اعتلى شجر التوت ، ضحك النسوة والأطفال ،غناء هامس لجدّة تغزل، آذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد.

عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها، والفنان الأعظم يضع على ذمتهم، مجانا، في كل لحظة، النماذج التي يقلدها أنبغ الرسامين. قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجّة الظلام، يختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلّل... هضاب متموجة من الصحاري الصفر والبيض... أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد... نهر جبار يشقّ طريقه بحذر بين الأدغال والرمل... بحيرة صافية تكتشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور...ورقة خريف ركبت ظهر الريح جاءتها شهوة السفر... سهول شاسعة ملتحفة بالأبيض أيام وصالها مع الثلج، أو بالخضرة المرصعة بكل ألوان الزهور أيام موعدها مع الربيع، وبصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشبق... جبال متكبرة توّجت قممها بالسحاب وبالثلج... أدغال كثيفة تتصبب عرقا تحت سماء بلون الرماد... بدر يرسم على صفحة البحر نهرا براقا موجه من ساطع النور... سماء تتلألأ بجواهرها ليلا.

كم من كائنات عجيبة تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، تمشي على طرفين وعلى أربعة، وكلها تتنافس في الطرافة والإعجاز. لتسعفني الأقدار بزمن كاف لأتفحّص أجنحة الفراش. كأنّ الخطوط والبقع والنقط والأشكال والألوان مادّة خام تمّ مزجها بكيفية مدروسة تلقائية لتجود بما لا يحصى من روائع الفنّ. اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام الأشكال والحالات ، أمام طفرة اللامتناهي صغرا واللامتناهي كبرا واللامتناهي تعقيدا.. أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأنّ صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الروتين والملل.

كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي جرّبت ! كل هذه الأفكار التي تلاطمت داخل ذهني أمام حركة لا تتوقف أبدا ،تغيّر، تضيف، تحسّن، تعيد باستمرار خلق ما خلقت...كل هذا التعجّب والاعجاب والذات تنتقل من مفاجأة لمفاجأة ، تتقلّب بين الرهبة والخشوع، بين الحيرة واليقين...من المهد إلى اللحد، من يدري ربما حتى قبل وبعد.
نعم، يا للحصاد الذي تعجز عن وصفه أكمل لغة طوّعها أفصح لسان لأنبغ مفكّر أو شاعر.

*

تأتيني يوما رغبة التدوين.

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تروى ؟ أليست أفشل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر.ألم أعد تفاحة بأن أروي لابنتها قصة لم ترو من قبل ؟

التدوين نعم ، لكن لأي رحلة ؟ الرحلة بمفهوم ابن فضلان وماركو بولو أو بمفهوم مريضي والشاعر الذي تقاسم معه نفس الصورة؟

طبعا بالمفهوم الأوسع والأعمق. ألم أجعل شعاري في الحياة: "عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ "؟

أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها أحبط الفكر لمجرّد تخيّل ما يتطلّبه مشروع كهذا. من أين للسرد أن يجدّد في رواية قصة رويت قبلي بألف لغة وألف أسلوب؟ من أين للوصف أن يصف ما لا يستنفذه وصف؟ من أين للتعليق أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سفّه كل ما قيل فيه من آراء؟

أسارع لرمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفلّت ظروف الحياة بوأده باكرا بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدجّجة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج. لم لا المحافظة لأحفادي على قصة سيذهب بها النسيان وقد يجد فيها ولو واحد منهم ما يسهّل عليه اختراق الأوقات الصعبة؟ ألم أجد في ما خطّه لي كبار رحّالة الماضي ما أبعد عنّي أخطارا كثيرة ووفّر عليّ كم من مشقات؟ نعم لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين «خرائط» العالم ؟ ثم لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تؤرّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق ؟ ربما آن الأوان لتنظيم ذاكرة امتلأت وبدأت تفيض بصور مفككة، لعلّ صورة أوضح له تنبثق وذلك لاستعمالي الخاص لا غير؟

يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرهبة. يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود

السجال بذرائع أخرى. ألم يحن الوقت للتوقف عن محاولة تغيير عالم لا يكره شيئا قدر محاولة تغييره؟. لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزف طاقاتي طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن في ما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لزيارة الوداع قبل آخر منعرجات الطريق، لتصالح الذات مع ذاتها ... للتطهُّر ؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة، و الفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟ ربّما حصل الأمر لتجدّد طموح الانتصار على الفناء بالحرف، للذّة رفع تحدّ أخرق ألقيته على نفسي، لتزايد حدة الشّعور باقتراب الآجال المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهدّدة بالتفكّك، أو لسبب تحرّكه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

متى كنا بحاجة لأسباب، والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير!

يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحّص ملفات تراكمت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حدب وصوب وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 14 060

* * * * *

عالم ... عالمان ... عوالم ؟

التدوين ، نعم ، لكن لأي رحلة ؟

رحلة اليقظة أم رحلة المنام ؟ بأيهما أبدأ ،على أيهما أركّز ؟

كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نسافرها كل ليلة كلنا دون استثناء .

ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك ، بلا طريق ، بلا دليل ، بلا ذكريات ملموسة نعود بها نثبت أننا لا نكذب عندما نروي بعض الغرائب التي شاهدناها فيه !؟

لتفادي تهرّبهم الجبان من الصعوبة ومن المسؤولية سيبدأ النص هو الذي يطمح ليكون جامعا لكل مستويات الرحيل، بتفحّص الإشكالية الضخمة.

نعم أين نرحل كل ليلة ؟ من أين نرجع أو نطرد؟! لماذا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا ؟!

وفي أقدم الملفات، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الردّ على كل استفزاز ويعرض عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه ليتأكّد أنّه ما زال حيّا، والسؤال بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم ؟

يضحك الكل من سؤاله وتتملّص حتى "ما" من الردّ عليه. لما تفضّل يوما "با" بالردّ، تفاقمت حيرته واندلعت فيه أولى المخاوف وأعمقها. ماذا لو تاهت هذه النفس التي يتحدّث عنها في الأماكن المجهولة؟ ماذا لو ضلتّ الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أمّ غير التي رضي بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شفّاف متين تربط "ما" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. ماذا لو تقطّع الحبل وبقيت النفس سجينة العالم الغريب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الخطر.

ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الآمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدّة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومنّي المشاكسة. أشعر به- من هو؟- قد غيّر اللّهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام. يسقط

الرأس- المرة تلو الأخرى- على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنّني أرفع صخرة إلى عنان السماء. إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلّف نفسها شرح الأسباب. يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبّر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة و الرّأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ النّور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيّا الأمّ ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيهات أن تنفع في صدّ الكوابيس.

يسلّم هذا الطفل كما يسلّم الكهل الذي سيصبح أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعتها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا- إن طال المنع- إلى نهاية الحياة نفسها.

محكوم علينا أن نغادر ديارا معروفة ولو نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تماما . محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ...وذلك إلى آخر منعطفات الطريق .

للرحلة الغريبة -التي سنسمّيها ببعض التبسيط رحلة الليل - استعداداتها الخاصة ولها ظروفها وطقوسها كما هو الحال مع رحلة النهار .أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأ آمنا تستودعه- بكل ثقة- جسدا فقد تأهبه للكرِّ والفرِّ دفاعا عن وجود مهدّد على الدوام. من هذه الطقوس أيضا التخفف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب أنه يتطلب شمسية أو معطفَ فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا. حقّا، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيّادون في «الواقع" لا تحسّبا لما سيلقونه من أعداء على الضفة الأخرى .

ثمة ضرورة التخفّف من صدى هموم هذا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نودُّ.

يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الآدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.

تعطّل المصعد الذي يرفعنا عادة دون جهد إلى الأعالي المجهولة. مصعد ؟ تغزوني - صورة أكثر حداثة .

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية، وراكب نافد الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص محكمة رحمة بالمرأة بالجيران وبي .

يتوجه المراقب المشرف على عملية إطلاق الصاروخ :

– هنا برج القيادة. الأحوال داخل هذا البلد ؟

– كلّ المؤشرات في الأحمر.

– استحضار الصور البلسمية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي ...شعر كالحرير يداعب خدّي...تنفّس بطيء يبعث فيّ هدوءه... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

– تقرير فرق الإطفاء ؟

– بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

– استحضروا صور الطفلة.

تتسلّل تفاحة أو تفيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المتشنّج . تتحرّك شفتاه بحثا عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المتزايدَ الارتخاء قشعريرة برد لذيذة فيحكم حوله الغطاء.

– التقرير.

– انطفاء أغلب المؤشّرات الحمراء... لكن...

– استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.

تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة ، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية «إيتي» تتوسّط الأجساد الحيّة، تبعث فيها وتمتصُّ منها ببالغ الحذر شيئا ليس للّغة مصطلح عنه ولا للقصّة حاليا فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية :

– كل شيء على ما يرام.

– إقلاع...

محاولة وصف حالة المسافر وحالة هذا الذي «نحطّ" عليه وما نعيش فيه من تجارب.

ثمة طبيعة الذات التي تتبلور في الفضاء الغريب . قال واحد من أنبه الرحالة: حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟ السؤال داخل السؤال ماذا لو كان الحالم –أكان لاوتسو أو الفراشة– هو نفسه حلم يحلمه

حالم قد يكون هذا الذي تسميه بعض الرؤى الله ...حالم يحلمنا نحن جميعا مما يجعل منا مخلوقات حلم تحلم بدورها مخلوقاتها

أصبحت الذات "الآن" و"هنا" شكلا لا شكل له ...شكلا تخفّف من خصائص الشكل... فكرة مبهمة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن...شكلا ضاعت ملامحه الأصلية يتخبط في فضاء فقد هو الآخر تلك الخصائص التي جربتها في الفضاء التي تركت وراءها.

كأنّ هذا "الفضاء" الذي ترحّل إليه صنع من ضباب الفجر، من سحاب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة ، للأضلع الحادّة .كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجال وماقريت.

الفن! صدى لما تكتشفه الذات وهي في حالتها ، في تجربتها العجيبة هذه ؟ لم لا؟ ألم نهرّب من فضاء الحلم أيضا فكرة الآخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" و نحن لا نعي.

أغرب ما في الفضاء الغريب أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى. تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرّة ثانية بأربعة شموس وأحيانا بنصف شمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد. صحيح أن له بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم.

اللهم إلاّ...!

ربما دخلت «ح» حلمي تلك الليلة صدفة، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسر خروجها من بين جحافل الأغراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوفا ومعتذرا وهي لا ترتمي بين ذراعيّ ؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقني بحيرة كأنها تعتصر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟

في الفضاء العجيب أغلب الوقت أشلاء قصص لا يربط بينها رابط.

الذات وسط بعض المغازات الضخمة وسط حشود من... الدمى . تحدّق في دمية تلبس حلّة العرس ثم تغمزني وهي تبتسم. تصرخ فيّ دمية أخرى مخضّبة الشفتين بالأحمر القاني أن أغتنم موسم التخفيضات. أي تخفيضات ؟ هل أنا أيضا دمية كهذه الدمى؟ تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقاقيع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوّي في أرجاء العدم. الديكور الآن نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتذر عن فيضان المرحاض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني- أيها الغبي- ليس

هـذا وإنمـا أن أعـرف أيـن أنـا. لا تقلـق- يـا سـيدي- سـتأتي سـيارة لتأخـذك. إلى أين؟ لا تقلـق، السـائق يعـرف، وفي كل الأحـوال يكفـي أن تضغـط علـى زرّ مكتـب المحامـي في الطابـق الثالـث؟ المحامـي ؟ نعـم إنـه الـذي تعـرف وتثـق فيـه . جريـدة اليـوم جريـدة البارحـة وقبـل البارحـة ومتصفحهـا راكـب قطـار يتوقـف دومـا عنـد نفـس المحطّـة ليحيّيـه نفـس المجهـول علـى نفـس الرصيـف بنفـس التحيـة تحـت صـورة ضخمـة لنفـس الإشـهار. وجـه معـوّج لآدمـي مسـك بصدغيـه يصـدر صرخـة محملـة بـكل مـا في العـالم مـن رعـب ثـم يغـرق في بحـر مـن الـدم. دمـي. النرويـج ! أيـن يوجـد هـذا البلـد ؟ تتعـالى مـن اللاّمحـدّد همهمـة أصـوات. يرتفـع مـن فـوق سـطح المـاء رأس آدمـي. تنطفـئ النجـوم لأنّ يـدا ضغطـت علـى زرّ كهربـاء ثبّـت في أشـداق الحـوت. يصـرخ فيّ البحـر أن أرهـب غضبـا غـير محـدّد المصـدر. ترعبنـي قهقهـة تتصاعـد مـن حنجـرة كلـب أعـرج. أنحـني لألتقـط شمسـا وقعـت علـى سـطح الأرض كمـا لـو كانـت عصفـورا جريحـا سـقط لتـوّه مـن العـش. أنفـخ عليهـا لتلتهـب مـن جديـد، ثـمّ أرميهـا في الفضـاء فتنفجـر بالضحـك. تحضـر الـذات مجـدّدا أنّهـا أخفقـت وأنّ عليهـا إعـادة الفـرض. تتمـرّد علـى عبـث ممتحـن لا يرحـم وامتحـان لا نجـاح فيـه أبـدا. . تصـرخ ذات كائـن مـا أرفـض، أرفـض، أرفـض. كـم مـرّة يجـب أن أعيـد هـذا الفـرض اللعـين؟ يأتـي الـردّ صمتـا سـاخرا ومهـدّدا مـن مصـدر قريـب بعيـد، معـروف مجهـول: مـا تتطلّبـه المهمّـة مـن مـرّات. المهمّـة ! أي مهمّـة؟ لتذهـب المهمّـة إلى ألـف جحيـم. يحـرّك الرجـل الماشـي رجلـين مـن حجـر ثبّتتـا بالإسمنـت علـى الطريـق. يـبرز مـن الضبـاب وجـه أب يجلّـل وجهـه الجميـل شـعر بلـون الكفـن. يرتسـم علـى وجـه امـرأة مجهولـة ربـع ابتسـامة شـاحبة. يبقـى الوجهـان مُعَلقـيْن في الفـراغ. يتّجـه الطريـق نحـو فـم ثعبـان مرعـب. أواصـل الطـواف حـول البركـة. يعـوي كلـب مشـرف علـى حافـة البئـر. يشـعر الطفـل أن لا مهـرب لـه مـن براثنـه. يركـض هربـا والكلـب وراءه وكذلـك البئـر. يتصاعـد مـن المسـجى علـى الفـراش أنـين مـن يرفـع أثقـالا لا قبـل لإنسـان بحملهـا. تنتصـب العمـارة البيضـاء الـتي تناطـح النجـوم، أمشـي علـى سـقفها متجّهـا للهاويـة. فجـأة تـبرز شـجرة سـنط شـاهرة شـوكها في وجـه غـزال بحجـم حصـان، فيركـض فزعـا طالبـا النجـدة. تصـرخ جحافـل النمـل المتطيـة ظهـر الخناجـر البيـض بـأن يبقـى الحـالم خـارج اللعبـة وإلا فإنـه هـو القتيـل. يتّسـع ربـع ابتسـامة الشـبح. يهمـس في الأذن : يـا إلهـي، كـم أنـت موجـوع يـا طفلـي الصغـير. يقطّـب الشـبح الأشـيب جبينـه مسـتنكرا ضعفـا مشـينا . ينـزاح الثقـل مـن الرجلـين. يشـعر الطفـل أن القيـد انكسـر، أنـه يمشـي طليقـا، أنـه يركـض خببـا، أنـه يقفـز قفـزات جبـارة في الهـواء. كـم يبـدو الطريـق سـهلا والهـدف قريبـا. يتراجـع الوالـدان بعـد أن أعـادا ولادة مـن ولـدا. تتعطّـل محـركات الطائـرة ويبـدأ السـقوط نحـو البحـر.

أي ملاذ وقد حضرت الساعة ؟

أنهـض مـن فراشـي مبلّـلا بالعـرق وأنـا بـين المنـام واليقظـة كالمسـتجير مـن النـار بالرمضـاء ومـن الرمضـاء بالنـار.

*

اللعنة أين كنت؟ على الضفة الأخرى لهذا العالم أم في عالم مختلف؟ أين يوجد؟ خارج ذهني أم داخله؟ وفي هذه الحالة، ما معنى أن أسافر داخل ذهني ليلا ولا أسافر داخله نهارا؟ ربما لا أسافر حتى إبان اليقظة إلا في ذهني. ربما لا وجود للعالم إلا كمعطى من معطيات أذهاننا ؟

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة لأخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا. نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم يمشي فيه كل واحد منا على طريق لا يشبه طريق أحد آخر...عالم خاص بكل مسافر...عالم يتلاشى بالسرعة التي ظهر بها .

لا نية لي أنا نفسي في رواية رحلة كهذه لن تكون إذا اصررت عليها إلا أشلاء جمل في نص مبعثر عن شبح ليس له شكل قارّ أو طبيعة ثابتة يعيش أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط ولا تعني شيئا.

القارئ المجهول: هل لديك على الأقلّ نظرية طريفة بخصوص طبيعة هذا الفضاء ولا تحدثني رجاء عن مخاوف وشهوات تفوح بنتنها ولا عن رسائل مشفّرة تبعث بها الآلهة.

تكديس مزيد من مثل هذه السخافات! مستحيل .لكن أمام إلحاحك –الذي تتحمل وحدك مسؤوليته –سأستعرض بعض الأفكار التي تراودني كلما فكّرت في الموضوع ولا تقل لي أنها أسخف من التي تهجّمت عليها.

نحن لا نستطيع مواصلة السير إذا طال الغياب عن "الفضاء" الغريب. ماذا لو جعلنا منه إذن "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه كل ليلة للراحة وأشغال الصيانة الضرورية . تصوّر أياد خفية تستلم الذات حال دخولنا الغيبوبة لتفرك هنا أوساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح . بعد نهاية الحمام يأتي أمر الرحيل والعودة للصراع.

فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه يتمّ فيها– كل ليلة– صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الظواهر والكائنات لنجد كل صباح عالما جديدا معافى من تجدُّد العطب جاهزا لأحسن استعمال؟

تقول ولماذا يحرّم علينا التمتع بمنظر المنظف لتشجيعه وربما لبعض الاقتراحات ؟ يا عبيط لأن المنظف الكوني لا يريد مزعجين يتدخلون كل لحظة في العملية ويضيعون وقته بشهواتهم الغبية. حجة لن تقبلها إلا النساء وهن أحسن من يعرفن ازعاج الرجال عند دخول المطبخ للتدخل في ما لا يعنيهم.

ثمة فكرة أخرى تجعل اليقظة قاعة الانتظار والمنام العالم الذي نعيش فيه أهم أحداث الرحلة ونحقق فيه هدفها الخفيّ.

أخـر الامكانيـات وبعدهـا نغلـق ملفّـا يتجـاوز بداهـة قـدرات الفكـر والخيـال . نحـن نعيـش جـزءا مـن الرحلـة ككائنـات حسـية في فضـاء الوضـوح والنـور... وككائنـات جـدُّ مختلفـة تعيـش أحداثـا وقصصـا مـن طبيعـة أخـرى في فضـاء الإبهـام.

هنـا يُطـرح السـؤال: هـل نرتحـل في عـالم واحـد بوجهـين مختلفين أم في عالمـين مختلفـين وربمـا في أكثـر مـن عـالم ؟

إشـكالية بالغـة الازعـاج وقـد تعطـي لخصومـي حجـة للتنقيـص مـن قيمـة عملـي بالادعـاء أنـني لم أدوّن إلا لرحلـة منقوصـة اضافـة لـكل نواقصهـا الأخـرى . لهـذا سـأعتبر– دون أدنـى حجـة مقنعـة أو برهـان متـين –أن مـا نسـميه «العـالم» عـالم اليقظـة لا غـير ، تحديـدا الجـزء الـذي تيسّـر لـي إدراكـه بمـا توفـرّت عليـه مـن زمـن. أمـا رحلـة المنـام كمـا تعيشـها دوريـا ذاتـي الأخـرى أو ذاتـي في حالـة أخـرى ، سـواء حصلـت في عـالم آخـر أو علـى الضفـة الأخـرى لهـذا العـالم، فهـي مسـؤولية ظـلّ لـي –أتصـوره– بشـيء مـن الشـماتة– منهمـكا في الكتابـة لقـرّاء مـن الأشـباح، شـاكيا مثلـي مـن مصاعـب مهمّـة عبثيـة لم يكلّفـه بهـا أحـد.

* * * * *

البدايات الغامضة

بناؤنا لتاريخنا الشخصي، أو لتاريخ جماعتنا، عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوفّر إلا على أقل قدر ممكن من المعطيات ومع هذا يحاول اكتشاف تصميم البناية المجهولة مما يضطره أحيانا لتجنيد الخيال وحتى لصنع قطع مزيفة تملأ الثغرات.

وفي ملفّ أمكن ترميمه بالحقيقي والمزيف من الذكريات، يتوجه الطفل لأمه:

- «ما»، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القشّ:

- لا أحبّ شيئا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما" حدثيني عنه، متى عرفته أوّل مرّة، كيف أصبحت له ابنا وأصبح لي أبا؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش على الدوام:

- ذهب شيخ قريتنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب للأطفال ثمّ... لكنني حكيت لك هذه القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن «با»؟

يتحرّك الشيخ ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكّانها. يصل إلى الجامع الأعظم فيسأل الكثيرين ولا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات حاجته. العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في «با». الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. كأنّ الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحقّ في نسيانه على شدّة استخفافه بالمواعيد. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حتّى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديدا. هو لم يكن يتمرّن على السلاح أو بصدد نقله من مخبإ إلى آخر، ولم يكن على الطريق هاربا. نعم، كان الرّجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته... حاضرا بين يدي القدر. ومع ذلك ترى هل تردّد الشيخ؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب. هل أرهبته جرأة كانت تطبع حركات الطّالب الطموح وسكناته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوقّاد الذي كان يستهوي حتى ألدّ أعدائه؟ أم هل اختاره- رغم حدّة طبع واضحة- لأنّه كان وسيما؟ يأخذ العم إبراهيم قراره، وحسنا فعل.

مـاذا؟ كأن الرجـل الـذي سـأسميه "بـا" يـتردّد أم أتوهّـم؟ وإنـنّي الآن كالطفـل الـذي يلعـب بإخافـة نفسـه وهـو واثـق أنّـه لا خشـية عليـه مـن لعـب كهـذا. يحتـدم أول نقـاش بيننـا مـن وراء أسـتار زمـن تداخلـت مسـتوياته واتجاهاتـه.

– ستذهب مع الشيخ، وإلا كيف أكون ؟

– أنـا أعيـش مـع الفلاّحـين ! أنـا أذهـب إلى قريـة غارقـة في الوحـل شـتاء وفي الغبـار صيفـا؟ أنـا الـذي أشـرِّف الاسـم الـذي أحملـه، أنـا الـذي...

– قلنا: كفى.

– يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنا مؤدّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

– حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

– مـاذا تقـول يـا قليـل الحيـاء ؟ ألا تعـرف مـن هـذا الـذي ستتشـرف بانتسـابك لـه؟ الكرامـة قبـل الخبـز، يـا فتـى.

اللعنـة، هـل يمكـن أن يركـب الرجـل رأسـه؟ مـن يعـرف أكثـر مـني عنـاده؟ هـو يغالـب تلـك العنجهيـة البدويـة الغريزيـة وذلـك الاحتقـار التاريخـي لأهلـه، ركاب الخيـل، تجـاه الماشـين وراء أذنـاب البقـر.

– يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لآدمي مثل «با».

هـا هـو الرجـل الـذي سيشـغل حيـزا كبـيرا مـن قصـتي، أخـيرا مؤدّبـا لأطفـال الفقـراء، يقرؤهـم بعـض مـا تعلّـم في الجامـع الأعظـم وكلّـه سـخط علـى الأقـدار الظالمـة الـتي مـا انفكّـت تضحـك منـه، جاهـلا أنـه لم يخـصّ وحـده بالاسـتخفاف مـن قبـل عـالم يسـخر منـا باسـتمرار، لا يضحكـه إلا مـا يبكينـا. ثـمّ هـا هـو وجهـا لوجـه مـع امـرأة قـررت القريـة تزويجهـا لرجـل لا يجـوز أن يعيـش بينهـم أعـزب. لا ترقـص طربـاأيهـا الشـبح فمـا زال الممكـن غـير ممكـن ومـا زال اللاّممكـن ممكنـا. أيرضـى الشـاب المتعجـرف بفلاّحـة أميـة لا تقـول الشـعر ولا تحفظـه، هـو الـذي عـاب علـى زنّوبيـا أنّهـا أتـت الوجـود قبلـه، هـو الـذي رثـى لشـجرة الـدرّ لأنّهـا لم تعرفـه بعـلا، هـو الـذي سـخط علـى الخنسـاء لأنّهـا لـو عرفتـه لقالـت فيـه وحـده الشـعر ولـو كان شـعر العـزاء، هـو الـذي كان يقـول لأصحابـه: البارحـة كانـت سـهرةلم يعـرف لهـا الليـل مثيـلا: المغنيـة كوكـب الشـرق، وكلمـات الأغنيـة لأمـير الشـعراء، والمسـتمع عبدكـم المتواضـع.

ادخلـوا جحوركـم يـا عتـاة النرجسـية، أيـن نرجسـيتكم مـن نرجسـية رجـل حفّظـني باكـرا قصيـدة تفـوح بكبريـاء سـخيف :

قومي استولوا على الدهر فتى	**ومشوا فوق رؤوس الحقب**	**(مهيار الديلمي)**
وأبي كسرى علا إيـوانـــه	**أين في الناس أبٌ مثل أبـي**	
قد قبست المجد من خير أب	**وقبست الدين من خير نبي**	
وجمعت المجد من أطرافـــه	**سؤدد الفرس ودين العــرب**	

هكذا لم أذكر "با" في حديث إلا وقلت: السيّد «أين في الناس»، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

للحقيقة هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الآدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرّد وباقي فضائلهم التعيسة. كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غشّ، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم. كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتنمحي بينها الحدود. كانت شجاعته تهوّرا، وكرمه إسرافا، وصراحته سلاطة لسان، ونرجسيته مثيرة للغثيان، واحتقاره نارا حارقة، وعنفه لا يطاق. كان غروره، كذكائه، كوسامته، كأناقته، كجرأته، كفصاحته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المألوف. كان لا يحبّ شيئا أكثر من تكديس الأصدقاء وزيادة عدد الأعداء، شعاره قول الشاعر الأندلسي:

عداتي لهم فضل عليّ ومنّة   فلا أذهب الرحمن عنّي الأعاديا

همُ بحثوا في زلّتي فاجتنبتها   وهمْ نافسوني فاكتسبت المعاليا.

لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خالطت من الرجال وأشباه الرجال. لكن لنترك المسكين وشأنه، فسنعود له أكثر من مرّة في النص، ولنلتفت للطرف الثاني الذي لا بدّ منه لهذه البداية المحيّرة.

هل تردّدت وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب لتوفِّر له- برخصة من سلطات السماء والأرض- متعة عابرة وخادمة بلا أجرة ؟ يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟. هل أذاب أخيرا ربعُ ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها ذكاء حادّا بهره ولو أنّه كان من قوم لا يبحثون عن الذّكاء عند النّساء ؟ ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبّئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلّم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صدقت، وقررت مع ذلك أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ذلك. كانت «ما» تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلاّ ما أراده كائن لا مردّ لإرادته أملى نصي ونصك وكل النصوص، بل كل سطر وحرف وكل فاصلة، وعهد لمثل اسمه «القدر» بقراءتها على الدمى لتتحرك وفق المخطط المرسوم من الأزل. من أين لها أن ترفض أمرا ضمنيا سطره لها الله ممثلا في هذا الغريب الذي حكم عليه هو الآخر من أين يدري ولا يدري أبا لأطفالها . كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث. أتصوّرها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتغلّب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألاّ يصل بتاتا، لكنّ

ذلك لم يحصل... كان بوسعه أن يولد مشوّها، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء اللّعينة ذلك الصيف المشؤوم، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الآخر المشؤوم ، لكن ذلك لم يحصل... إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحبّ. في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النّازلة من أعلى شلاّل الزّمان اتجاها أوصلها إلى شفتيها بالرّغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية. أنظر اليوم من موقعي ومن رؤيا أخرى، إلى القطرة، أتابع تدحرجها المضطرب من أعلى الشلال، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه في أي لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تتجمّد قطعة ثلج، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن يدفعها الريح خارج السيل.

تتعطّل أدوات التفكير وأنا أوسّع مجال البداية إلى كل تقاطعات الطريق التي تردّدت أمامها أقدام بني آدم وهم يتّجهون للأرض التي كانت مسقط الرأس، وقبلها لتردّدها عند الزحف الأول الذي يقال أنه انطلق منذ مائة ألف سنة من القرن الأفريقي، وقبلها لتردّد القرد الأوّل من الغابة، وقبلها لتردّد الحجرة الضخمة الآتية من أعماق السماء والتي يقال أنها ارتطمت بالأرض قبل ستين مليون سنة فقضت على الديناصورات مما سمح لغصن الحياة الذي أثمرنا ألا يذبل أو يتكسّر.

قريبا منا زمانا ومكانا، ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي أولد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر ؟ أليس المصطفى هو الذي كان سبب نهوض أمة ووراء تحركها في كل اتجاه وأنني واحد من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من شظايا البركان الذي فجّر ؟

ألم يكن بوسع الأحداث أن تتوقف حتى قبل أن تبدأ ؟

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان. ها أنّ أكبر المجرمين يقتربون من بابه ، يحومون حوله، والفناء يتهدّد ألف ذات وذات، فتمسك كم قصةً على وشك الولادة النفس ترقّبا وهلعا. ينصرف القتلة وقد خدعهم أروع عنكبوت ولدته أروع قصة. لكن أي دليل لي على أنّ الخيانة لم تحدث؟ أن العنكبوت لم تتحرّك تلك اللّحظة سهوا أو عمدا؟ وأنّ القتلة فهموا أنّ الغار ليس مهجورا؟ ربما انقسم مجرى التاريخ عند ذلك الغار، أنّهم قتلوه ولم يقتلوه، مما يعني أنّ ذاتي تبخّرت في قصّة موازية، أنّ عليّ أن أتشبث بالتي أولدتني حاملا حداد تلك التي لم تعرف أي بداية؟ ترى أي مجرى كانت قصة الأمة، ومن ثم قصتي وقصة الملايين، تتخذ لو انجب المصطفى بدل البنات ولدا عاش... أو ولدين...

أو ثلاثة؟ أي مسار كانت تتخذه قصتي لو خسر غزاة الصحاري معركة واحدة ضدّ أجدادي الآخرين: سادة الجبال المتكبرة؟ كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب. كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا. كان بوسع تلك الجدّة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا؟ ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي «عام القنطرة» بعدد كاف من حلقات السلسلة؟ أهناك قصة موازية لـ«ما» تنتقل فيها من رجل إلى رجل بعد أن هجرت "با" الرجل الطيب الذي قصر حياته على تربية خمسة أطفال رمتهم في عنقه وهربت لتدير ماخورا كما وقع الأمر في قصة من أشهر قصص الأدب الأمريكي ؟ ترى كيف أنا «الآن» في مثل هذه القصة؟ وما الذي فعلته بعد اكتشاف الحقيقة الرهيبة؟ ربما قتلت"ما» بيدي العاريتين؟ ماذا لو كان لي – دوما في إطار الرؤيا التي تتبلور بصعوبة في ذهني – ألف أنا وكل واحد يعيش هذه اللحظة قصته؟ أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال بعضها.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب «الجيلاتي» وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستنقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية. تفتح عينيها على الأقصى، تحدّق باندهاش في النادل الأسمر المقترب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم المورّدين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبا وافرا من السوط وهو- لسبب يجهله- متّهم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرّد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، و المرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعوّد عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أناملها تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حنينا غريزيا لهذه الجدائل الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين :

– عفوا يا دكتورة، هل ضايقك هذا العبد السامي في شيء ؟

– لا أبدا، أبدا.

– أحببت «الجيلاتي»؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئا !

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفتيها. تجمع حوائجها لائذة بالفرار وفي عينيها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنائسها عن صدى أنغام رجل اسمه «فيفالدي». يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو

راكضة نحو القنال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أورو–أفريقآسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطان وبركات الربة فريكا. يفيق على صراخ سيده وهو يركله: «أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا **untermensch**، يا ما تحت الإنسان».

ربما ثمة قصة مناقضة تماما، وعلينا اكتشاف نقطة تقاطع استراتيجي تفتح لها المسار. مثلا تلك التي يكتشف فيها باني امبراطورية أورو–أفريقآسيا أنه لم يبن شيئا والقصة كلها جزء من حلم جميل... أو التي يفيق فيها مذعورا من كابوس يرى فيه شعبه يتواصل ويتجدّد على أنقاض خرائب هائلة ودمار واسع وإجرام منقطع النظير كان هو سببه. الكابوس داخل الكابوس وقوف الشباب في عاصمته الأبدية مهلّلين لزعيم أسود يدعو لوقف الحرب بين الشعوب والحضارات. ربما جاءته أزمة قلبية وهو يكتشف أنه كان هو الـ«ما تحت الإنسان»، طبقا للقانون الأزلي القاضي أنك لا تكره أكثر من الكائن الذي بداخلك، تعكسه وترميه على الآخرين.

لا، لا، غبي خطير كهذا المجرم ليس بحاجة للتواصل حيا وقد أظهر كم هو عدوّ للحياة. لننصب له كمينا قاتلا في قصة قد تكون تمت في مستويات مجهولة لدينا من عالم ننزلق على سطحه كقطرة الماء على سطح المحيط.

يتعالى الصراخ من ممرضة عنبر الرضّع :

– النجدة، النجدة !

تتدافع زميلاتها لتتسمّرن مذهولات أمام المشهد البشع.

– يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم !

– أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

– انظروا، إنه المجرم يتسوّر الحائط لائذا بالفرار!

يدوّي عويل يصمُّ الآذان من المرضة المكلفة بالملاك المذبوح .

يصرخ فيها المفتش :

– كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع ؟

– سميناه للمداعبة على اسم قط القسم....هتلر ، آه يا صغيري !

ثم تتقيّأ المرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع الضحوك المفضّل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبنّي اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يمت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص!.. في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدّا من ضفّة النجاة!..

يمكن الآن للقصة الثانية أن تتقدم. يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشاب الأسمر المتعجرف:

– أرجو يا دكتور أن «الجيلاتي» أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئا! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

– أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

– لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسيادَنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوما مع زوجها وطفلتيها. حذار.

طفلتان! تفاحة وتفيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟

ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سببا، قاصدا النافورة الشهيرة التي تتوسّط الساحة الأشهر، ثمّ يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحدّق فيه بملامح تعلوها دهشة طيف كآبة. هراء كل هذا... طبعا في عالم صنعته رؤى غير متقنة. أما في رؤياي فهناك بدايات مبهمة لما لا يحصى من القصص الممكنة التي نجا بعضها ليشق طريقه غير المعروف وغير المعترف به في فضاءات لا قبل لنا بتصوّرها. لنسلّم– دون قدرة إثبات الأمر– أن البداية بدايات لا عدّ لها ولا حصر، منها التي أصبحت نصا، ومنها التي بقيت أفكارا مبهمة ومشاريع لم تتحقق... أو تحققت في مستويات مجهولة من عالم هو دوما أغرب من أغرب صورنا عنه.

المهم أن ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وحالة الطقس على الصين في مقطع من مقاطع التاريخ وتردّد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا ، ونجاح الاستعمار بفرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها «أفريقيا»، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من الأحداث الأخرى– أغلبها لا علم لي به– قد تثير فيّ موجة عارمة من الضحك لو عرفت دورها، كل هذا إذن، تظافر لكي تنجو بداية واحدة تواصلت في قصة هي التي أنسجها وتنسجني.

العالم الذي نتحرّك فيه مؤطّر ببعض القوانين وداخل الإطار لا شيء سوى ارتطام الصدف بالصدف وتولّد الصدف عن الصدف.

كم يعجبني أنني انبثقت من تسلسل أحداث غير قابلة للتوقّع، وأن تتواصل الرحلة على هذا المنوال إلى نهايتها

* * * * *

أولى الخطوات

يواصل الطفل جمع كل ما يستطيع من الأحجار بانتظار زمن التفكير في شكل الهيكل.

– «ما»، أين كنت قبل ولادتي ؟

– في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

– «ما»، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام ؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميز دوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه «ح» يوما: لو طلب منك ألا تفعل شيئا لفعلته على عجل.

– «ما»، أنت لا تقولين لي شيئا أبدا! ماذا فعلت داخله طول هذا الوقت و كيف دخلته؟

من أين لفاقد الشيء أن يعطيه، ولفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر ثم ّهناك أشياء لا تقولها أم لابنها.

لا خيار للنص، إذن، لإكمال ملفاته ، غير القفز على ذاكرة الطفل والاستنجاد بمعلومات رجل يعتقد أنه يعرف كيف تبدأ الرحلة. نعم كيف بدأت رحلتك ورحلتي ورحلتنا جميعا؟

من الوثائق المنقوشة في الذاكرة، أن الأمور تنطلق عندما يأخذ مجهول ببثّ أفكار عن ضرورة تواصل البشرية، عن دورك الهام في العملية، وكيف أنّ القادم الجديد سيحقّق ما رفضته لك الأقدار الظالمة.

ثمة الآن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج ويترك وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل. أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علّها تؤدّي إلى اختفائه أو حثّه على البحث عن قنطرة أخرى يعبر عليها. أصرخ فيه أن لا يجرّب معي من الآن حيله، وأنني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أمّ جميلة فخورة. هل تدخّل لديها لتقنعني؟ هل تدخل لديّ لأقنعها ؟ أم هل قلبنا الحقائق و كذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا؟.

تنهار يوما كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفا ومحض عناد. وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهّما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة. تتسارع دقّات قلبيْ النائميْن. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي المتأهب للمغامرة الكبرى من المبهم الغامض إشارات

رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح الفكرة فعلا...الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من العدم للوجود.

تبتسم الممرضة وهي تمدّني بنتيجة الفحص. تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة . الإنذار الأوّل، الوعد الأوّل.ترتسم الابتسامة على محيا المارة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متثاقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب تترصّد نظرات الغيرة. عالم متجدّد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطّحها لتنتفخ من جديد في نسق منتظم كلهث الراكض. عالم لا همّ له إلاّ الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

حلا لبعضهم تصوّر أن آدميِّي العصور القادمة لن يصدّقوا حمل الإناث الجنين في أرحامهن طوال «العصور المظلمة»، أن الأجنة كانت تتطور داخلهن كالورم شهورا طويلة، أن الخلاص كان موجعا، بل وأن جهابذة البحاثة سيكتبون أطروحات معقدة لنفي الإشاعة. في انتظار أن يكتشفوا وسائل أرقى لوصولك، لا أحد فينا– وخاصة أنا– يشعر بالتقزّز من تناميك داخل الأحشاء الدافئة بالحب والشوق.

عن معجزة المعجزات القيل والقال ولا أحد يعرف اليقين.

كمّ هائل من الأسئلة . أصحيح أنّك يقظ تتابع كل ما يجري ؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنّه هو الذي يقودك من الحلم إلى اليقظة.، أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه ...أنّك تمسك بلجام من تركب بقفّاز من حرير، توجّهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي واعية غير واعية، متبرّمة سعيدة ؟

مثلي لا يقنع بالقيل والقال. تقسم «ما» أنها لا تعلم أكثر مني . ربما تستفرد بك. ربما تفتح لك ذاكرتها. المرأة المتهورة! قد تنكص على الأعقاب. سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق مع الشريك الآخر. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي آذان صاغية. تكلّم لأسجّل لقرائي كيف ينطلق الطريق.

أمام صمتك ...الفكر والخيال.

هذا أنت ! سوائل لزجة. كرة ككرة التنّس ! سمكة ! ضفدعة ! بدأت تأخذ شكلا مقبولا. على فكرة لماذا تلبس وتخلع هذه الأقنعة؟.

المهمّ أن أيادي خفية عليمة بالتفاصيل و السياق والنسق تتراقص لتصنع بداياتك المبهمة. كأنّي بمهندس عبقري ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة، يعطي ما يلزم من أوامر: اصنعوا، قيسوا شذبوا، لا تغفلوا ،قفوا واصلوا ،هنا جدّدوا، آخر اللمسات هناك.

لا أخطر من خطإ الأيادي الماهرة في عزف نوطة يتيمة أو رسم حرف واحد، فما بالك إن نسيت أو أخطأت قراءة جزء كامل من وصفة الصنع.

منزعج من أسئلتي ومن قلقي! . تبثّ في فكري المشوّش أنه لا خوف فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلّم الصنعة وما عليّ إلا أن أتركه وشأنه لأهتمّ بشؤوني . يا شبح، استح؛ أنا أبوك وعليك إرضاء فضولي . إذن، صرّح لنا السيد الجنين بأنه، وهو في هذه المرحلة من الطريق، أحسّ وشعر ب... آه، هذه مصطلحات سابقة لأوانها. إذن، كيف هي أحاسيس ما قبل الأحاسيس، مشاعر ما قبل المشاعر، أفكار ما قبل الأفكار ؟. هذا كل ما لديك من تصريحات ؟ خيبت آمالي، انتظر، سترى عاقبة عقوق الوالد. على فكرة كم مرة سأقول لك: لا تضع إصبعك في فمك.

ماذا؟ يكفى من نصائحي البائرة وما عليّ لمداواة عصبيتي إلا الاهتمام بنصيبي من الاعداد . وهل تركت لي أمك شيئا أعدّه وهي تفلسني بكل ما تشتري . ثم ماذا استطيع تقديمه والعالم نفسه من يجّهز لك الديكور الذي سيستقبل سيادتك. صقل الشمس لتبدو كأنّها لم ترم أحدا بأشعتها قبلك. تلميع القمر. نفض الغبار عن الأشجار. طلي قبّة السماء وتلوين البراري بأحلى الألوان. غسل البحر من كل الأدران. مكان خاصّ بك وقد غصّت الساحة بالمسافرين.

داخل الكهف السحري، تواصل تجميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

اكتمل التمثال. استقامت السمفونية والقصيدة. وضع الفنان الأعظم توقيعه على اللوحة.

لم يبق عليك وقد أخذت أخطر القرارات غير أن تصلي :

أماه أنت التي تحملينني في أحشائك **(مانويل دونوفاس)**

امنحيني حقّ أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حق أن أحيا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوائي لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح

تدخل القصة فصلا جديدا.

يقال أنّ المعجزات التي يتمخّض عنها دوما هذا العالم السحري، قد تجعل الواحد منا يحضر يوما مراسم وصوله، أو بالأحرى وصول نسخة طبق الأصل منه. لكنني لم آت زمان أحفادي وأحفاد أحفادي، بل وصلت متخلّفا عن زمني نفسه بما يزخر من إمكانيات لتسجيل الحدث العظيم. لذلك اكتفيت بعينيّ وبشغاف الفؤاد لمتابعة وصولك، لا أعرف ما أفعل بجسم يحتّل فضاء لم يبرمج للزوار والفضوليين أمثالي.

تأخذ الأيادي البارزة على عاتقها مواصلة مهمّة الأيادي الخفيّة . تسترق آلة وضعت على البطن المكوّر دقّات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخبط خبط عشواء. تتعثّر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصبّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الآلام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق الأبيض وأعضّ على نواجذي لأمنع الصّراخ الذي في داخلي، فتهتزّ لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنّك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرّا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزا... أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاظم كلما اقتربت الساعة ؟

هل تتلكّأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه وربما عما اختارته لك الأقدار من دليل.؟ هل تسارع بالخروج لو أقنعتك أنني لم أخيّر ولم أختر، أننا لو خيّرنا لما أجدنا الاختيار، أنّه لا زمان أفضل من زمان، ولا مكان آمن من مكان، إنها مجرد ظروف مختلفة لقصّة متساوية في نصيبها من اليسر والعسر ، من الخير والشرّ؟ ما الذي تريده بالضبط؟ قصرا من النور؟... مهدا من الشعاع؟... أمّا لا كأيّ أنثى ؟... أبا بطلا خرافيا ملهما وباني إمبراطوريات مجالها مجرّات السّماء ترثها بعده! ربما كنت تتمنى أن تكون الذي تنتظره كل الأجناس الحية وخاصة جنسنا، ليبرّر كلّ الآلام، ليغفر كلّ الخطايا، ليواسي كل الذين توهّموا أنهم فشلوا، ليبعث كلّ الأموات، ليجدّد كلّ قديم ليتلاقى فيك وداخلك كلّ من ارتحلوا... كلّ هذا وقد اكتمل الزمان وأوفى بجلّ الوعود. هيهات، هيهات! لا بدّ أن تدخل عالما ناقصا لتحاول بدورك دفع الأمور خطوة إلى الأمام، وإلا ما مبرّر المجيء ؟ ثم ّهل فضّلت نفسي على سيادتك لتبدي كل هذا الدلال ؟ ألم أدخل الحياة من أضيق باب وفي أخطر زمن؟ كانت نقطة وصولي، قل نقطة الارتطام، آخر مكان يرغب فيه آدمي، فلا هو قلعة على قمة جبل شاهق تطلّ بكبرياء على السهل، ولا هو خيمة سوداء تشرف على كثبان الرمل، ولا هو قصر من المرمر خاطف للأنظار، ولا هو ناطحة سحاب في مدينة ليس للظلام عليها سلطانا. كلا، كان عليّ أن أقنع بكوخ متواضع في قرية من الطّين على أرض محتلّة في قارّة أهمّ صادراتها العبيد. لم يكن الزمان بأحسن من المكان والآدمية خارجة لتوّها من حرب، لمع في سمائها، لأول مرة في تاريخها الحافل بالفظائع، سلاح جهنمي راكم الجثث تلالا على تلال. يا الله كفى دلالا... ماذا لو نزلت سلحفاة تبرز من حفرة مطمورة في عمق رمل شاطئ مترامي الأطراف حيث باضتها أمها ونسيتها لا خيار لها- وقد حفزها الرعب البكر- غير الركض متقطعة الأنفاس نحو الموج الحاضن من طيور كاسرة تتربص للظفر بلحم طريّ. لا تصل الماء حيث النجاة من مخالب السماء إلا وينغلق عليها المحيط بأنيابه التي لا تحصى، باتساعه الأخرق، بأخطاره التي لا يتصورها عقل سويّ... وما عليها إلا تدبّر أمرها «لا والي، لا تالي »... نعم إنها إحدى بدايات الحياة وبعدها تتدلّل وتتشكى أنت الذي سيجد طاقما كاملا في انتظاره لا يريد شيئا غير خدمته ورضاه... آه، حتى مثل هذه الضمانة لا تكفي. هل هالك ما في أعماق

ذاكرة «ما» وأنت تتجول في قصّتها والقصص التي انغلقت عليها قصّتها هذه؟...هل انفجر في وعيك العويل المتعالي من كل مسافر وقد أطبقت عليه أشداق الحياة ؟. هل اقتنعت أنّك لن تأتي بجديد، أنّك ستتراكم فوق من تراكموا، أنّك ستضيف للفشل فشلا.؟ .هل قرّرت أن الصفقة لا تستأهل تضحيات بهذا الحجم ؟

ربما معك حق لأن أخطر من عدم الوصول ...الوصول . أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول : قف، لا تخط خطوة أخرى، اذهب، لا تأتيا، لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي ستُدفَّع.

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية .تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكا. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيادي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخا مشوّها.

آه، وازنت بين الربح والخسارة وقرّرت أن تعود من حيث أتيت...يا مجنون، الضريبة مهما غلتْ لا شيء بالمقارنة مع ما ستجني...ألم تفهم أن هديّة الميلاد عالم بأسره لا أكثر من هذا ولا أقلّ ؟ ...عالم خُلق للجميع وخُلق لك وحدك ...عالم سحري فيه كل الممكن، كل الامكانيات وما لا تجرؤ على تخيّله ...عالم باهر الجمال يريدك أن تُبهر بالجمال لتضيف لجماله جمالا... عالم هائل التعقيد والاتساع ليترك لك كل المجال للاستكشاف... عالم ملتحف بالأسرار ليستفز فيك الشوق لهتك الأسرار... عالم لا يستقر على حال حتى لا تعرف فيه يوما الملل... عالم حقّا مشبّع بالصعوبات لينمّي فيك الصمود وحبّ رفع التحدّي... عالم حقا معلّم صارم لكن كم صبور مع كل مبتدئ ... عالم وان بدا بالغ القسوة ، أيضا بالغ الحنان والرفق...عالم وإن بدا بالغ البخل لا اكرم منه حين يفيض عطاء... عالم مترع باللذات يكافؤك اين تستحق وأحيانا اين لا تستحق... عالم يترك لك الحرية لتعيد تشكيله على هواك...عالم قديم أنت جديده... إنها الهدية التي تنتظرك... إنها الهديّة التي تنتظر أن تكون بها جديرا!

تقطع عليّ حواري الصامت معك أصوات نافذة الصبر.

– ادفعي... ادفعي!

تتصبّب "ما" عرقا. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها: إنني لميّتة.

لوجه الله، افعلوا شيئا. أطفؤوا هذه الأضواء، إنها تؤذي عينيه حتى وهو وراء الباب المهيب. اصمتوا أو اهمسوا فأصواتكم كدوّي ألف مدفع.

اللعنة، ألم يكن بوسعك أن تتفتّح كوردة الربيع، أن تأتينا دون كلّ هذا الهول. لكنّك ثمين والثمين دوما باهظ التكاليف. آه، التكاليف! ماذا سنفعل لو ركبت رأسك أو تغلّب عليك الجبن بالملابس التي اختارتها لك "ما" وكأنّها تعدّك لمعرض أزياء؟ تريد أن يضحكوا مني وقد كدست في خزانتك ما استطعت من مصاصات خوفا من ليالي شتاء سأرمى فيها خارج الفراش للبحث عنها في صيدليات الحراسة. ثم ماذا عن تشوّق

اللعب إليك وهي تنتظر بفارغ الصبر يديك البضّتين وأصابعك المرتبكة ولا أحد يدري من يلعب بمن ؟

هل بمثل هذه الحجج أقنعتك بالمواصلة ؟ أهكذا زال آخر تردّدك ؟ يبدو كذلك ودقّات القلوب تنتظم والأيادي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود لشفتي القابلة. تتحرك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقاوم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين العوالم. أستحثّك مبتهلا مشجعًا ناسيا قراري بأن أتشمّت فيك في أوّل مناسبة.

تطلق الأم الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك- في نفس اللّحظة- باب الزمان على مصراعيه.

تنفصل كالثمرة الطازجة، كتفاحة لذيذة، قطفت من غصن أقدس شجرة. في نفس اللحظة، في العراء ، بين الأعشاب ، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط ، داخل ألف مغارة، ، على الأرض تحت ألف خيمة ،على ألف فراش داخل أفخم القصور....وبينما مشيّعو الجنازات في ذهاب، تواصل القابلة الأزلية استقبال أفواج القادمين.

انظر لتفتّح الوردة وستراه...انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر للحمل حال خروجه من الرحم وستراه. انظر للمولود الجديد وستراه...كم غريب ألا أحد يركع ويسجد و،هو لا غير، الذي أمامنا يتجلّى .

أفتح القوسين هنا للفت انتباه القارئ المجهول إلى أن النص يفخر بكشف سرّ السؤال الذي دوّخ العلماء والفلاسفة والشعراء على مرّ العصور؟ ابشروا جميعا فالنصّ يعرف الردّ، بل الصحيح الذي لا يجادل فيه غبيّان. نعم وبكل تأكيد، نحن نأتي من امرأة، لا من فمها ولا من سرّتها وإنما من فتحة بين فخذيها. صحيح أن لا أحد يعرف من أين جاءت المرأة التي ولدت المرأة التي ولدت أول حلقة السلسلة. ربما فيكم من يعرف السرّ ويرفض البوح به خوفا من الضرب بالأحذية؟

الاكتشاف الهائل الثاني الذي نفخر بإزالة الستار عنه لأول مرة هو أننا لا نخرج كهولا مكتملي الأوصاف بالشارب والحذاء وربطة العنق إن كنا ذكورا، وبفستان و"ماكياج" وحقيبة يد إن كنا إناثا. كلا ثم كلا، اعلم يا آدمي أنك تصل عاريا، ضعيفا مثيرا للضحك بل و للشفقة. يجب أن أقول لك- وهذا مع كامل احترامي- أنك تصل أيضا في مظهر أقل ما يقال عنه أنه مخيّب للآمال. آه، يا تفاحة .كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبيّة قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. للأسف لم يكن هناك أيّ هالة من نور حول رأسك الأصلع. في الواقع لم ينقصك إلاّ ذيل طويل أسود لأجول بك أسواق المدينة، والدفّ بيميني، أجرّك لترقصي في الحلقات فأربح شيئا قليلا من النفقات المرتقبة لتربيتك. هنا عليّ الاعتراف بأنني

تسرّعت وفي استعراض إمكانية رفض تسلّم الطرد وإرجاعه إلى الباعث. لم أكن أعلم آنذاك أنّني سأراك، بعد ليلة تسكع في الشوارع المقفرة، تضعين على وجه القردة العجوز قناع الملاك المنتظر. قرد، إله أم ملاك. المهمّ ألا تكون شيطانا، يكفي ما في هذا العالم من شياطين. كن الرهان الرابح لهذا الذي يرمي– منذ بداية الملحمة العظمى– بكل رضيع، كالمقامر اليائس، يرمي آخر فلس له على طاولة القمار.

اللعينة ! لا أحد يعرف كيف تشتغل ولا من ورائها ...كل ما نحن متأكدون منه أنها هي التي تحدّد لك مكان الوصول وزمانه...هي التي تقرر ميزانيتك منه وهل ستموت طفلا أم في أرذل العمر... هي التي تختار ما القصص التي ستتابع ... هي التي ستمنحك الصحة أو أخبث الأمراض... هي التي ستضع على ذمتك أحسن الأدلة أو أسوأهم.. هي التي ستأخذك على أضمن مقاطع الطريق أو تدفع بك من هاوية لأخرى.

الصرخة الأولى. مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية ؟ ليدّعوا ما يشاؤون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة. ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم ؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ هل أرعبك أنّك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبة ؟ أداهمك الوعي أنك لن تكون نذيرا وإنما أغلب الظن قربانا ؟ ربّما رفعت عقيرتك لتنذر وترهب. كم مضحك أن تتوجّه بالتهديد لعالم مدجّج بالسلاح، وأنت الأعزل من كلّ سلاح !.. صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة أيها النهم الذي لا يشبع أبدا ؟ ربما الأمر مجرّد لفت انتباه تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز : ها أنا.

أيا كان معنى صرختك الأولى هذه، فالمؤكّد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتمازج فيها صراخ كائنات لا تحصى بدويّ الرعد ،بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلاّلات ، بصفير الريح... والكل يسجّل حضوره ويهدّد، أو يحتج صارخا بالمتعة وبالألم. على كل حال لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعني وسط كل هذا الصخب المقدّس : مرحبا في عالم الانبهار والرعب... وكن على أشدّ الحذر.

* * * * *

الإفاقة

قيل عن الردى أنه يغيب لما نكون حاضرين ويحضر عندما نغيب. كذلك عن بداية الرحلة.

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق.

لتمثّل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية.

تبلورك كقطرة الندى على عشب الفجر.

تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل من الأغراب ليسوا أقلّ ضياعا.

تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: «نعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن الاستقبال في البهو رقم 1». يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاد صبر: «الرجاء من الراحلين التوجه حالا لقاعة الرحيل رقم 5». لا أحد يعبأ بذهولك أو يبدو مستعدّا للردّ على أولى الأسئلة. فجأة تسلّم عليك امرأة بحرارة مهنئة بحسن القدوم. يدفعك غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُقحم في صفوف متراصة تدفع بعضها البعض قدما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل العرمرم ولا فعل أهمّ من البقاء طافيا على سطحه.

ثمة أيضا صورة الإفاقة . أفضل الصور عندي.

تستيقظ أنت البحّار شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دويّ الموج، على صفع الريح .لكنك لا زلت ملتحما بالعالم لا حدود واضحة بينك وبين الزورق والسماء والبحر. ثم تنفصل شيئا فشيئا عن كل هذا لتجد نفسك واحدا ووحيدا وسط العاصفة في عرض المحيط.

أفضل الصور جماليا لكنها صعبة القبول لأكثر من سبب.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة.

لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخبط داخله أو يتخبط داخلي، فيقظة ما بعد النوم تتمّ وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف لمستيقظ، مألوف لنفسه. أضف لهذا أننا نفيق من «فضاء» دخلناه أكثر من مرة ونخرج منه سالمين كل صباح . ممّا نفيق عندما نفيق للحياة ؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل الرحلة ؟

كل الصور عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية لكنني سأواصل استعمال التي أفضّل ليس لي أحسن منها.

المولود الجديد الذي هو بصدد الإفاقة بين ذراعيّ لأوّل مرّة . يسترعي انتباهي صغر رأسه. تعبر فكري صورة خاطفة لمكتبة ما زالت رفوفها فارغة، لكنها ستمتلئ- لسوء الحظ- بملفات كان على أغلبها أن تذهب مباشرة لسلة المهملات. هل الرفوف فارغة حقا أم تفيض بملفات تجربة الحياة على مرّ ملايين السنين ؟

تطلب القابلة مني- وهي تصرخ ضاحكة- أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنظر إليّ باسمة نافذة الصبر لاحتضانه. أمدّك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها : أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

نسيت أن أقبلّك من فرط انشغالي بتفحّصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يبتلي بها البعض لأن الأيادي الخفّية أخطأت في شيء ما. برافو ، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما ، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا !كلّ الباقي !!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لآخر سيوجّه دفّة رحلتي في اتّجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أوان الندم. ثم جذل غريب . أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن ،كلّ هذه المسؤولية ! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم ؟ آه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قافلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسّعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليات المخيفة ؟ هل آخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجرّه إليه مشيا وركضا؟ سأدعوه لمطعم، نتبادل الأخبار؛ هو يحدث عمّا ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بدّ أنه ما زال يتذكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى...كلّ ما أحتاج للنصّ.

تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعلّلا بحجج واهية فطردوني يبتسمون. أذكر أنّ النوم كان مضطربا، أنني أفقت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن آخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأوّل.

أذكر أنّني وضعته بكثير من الرقّة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنّني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت، ألقي عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة ربما هو بصدد فسخ الملفات التي تعنيني!

أذكر أن الأم الأزلية نهرتني كي أبقى منتبها لأخطار السياقة وأنّني افتعلت سببا للتوقّف لا صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذته بين ذراعيّ لأفاجئ بعينين بالغتي الاتّساع مسمّرتين على عينيّ المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنّه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوّة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخّل في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجرّب فلا أكثر ابتذالا من المعجزات

– مرحبا.

لا أحظى بردّ وأكاد أغضب لقلة الأدب.

– قلت : مرحبا.

كأنّي بصمته تكثّف بل مع شيء خفيف من التقريع ونكهة من التهكم.

كل الأجوبة مضمنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز الوجع... ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين... لم أعرف منهم من أتى مسلما معانقا ومصافحا... لم أعرف منهم من حدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام... لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهرّبة من عوالم ما قبل العالم يقايض بها شيئا ثمينا... وهذا الآدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشذّ عن القاعدة.

مواصلة العبث.

عفوا، أعد ما قلت ، سهوت لحظة .كيف ؟ لا فائدة من الالحاح السمج ؟ أنا ألحُّ! أدردش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. آه، لا تقبل تهديدا. مرحى، من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنّي. هل هذا حقا أول أيام رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية ؟ ، هل هذا أوّل لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل ؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر ؟هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها ؟ هل تواعدنا على تجديد اللّقاء الآن وهنا ؟ باختصار هل أنت حقا مولود جديد أم انّك والد كل قديم وكل جديد ؟

يحدق فيّ الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحديك السافر لأبيك، سأنطقك في نصي بما أريد وما أنا بأمسّ الحاجة لسماعه.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون جُرِّب في عالم آخر.

محكوم عليك أن تدخل هذا العالم غير محمّل بآلام قديمة وعادات لا فائدة منها ... أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة.. أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف.

*

مما بقي منقوشا في أقدم الملفات أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول، أو سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرُّم بحدود غير مفهومة. لا أكرهَ عندي إلى اليوم من النوم في فراش مغلق الطرف ولو في أبرد غرفة. لا بدّ أن تجد أصابع الرجلين المنفذ الذي افتقدته يوم كان الجسم الصغير ملفوفا في قماط مشدود محكم الغلق على عادة الذين نزلت بينهم. وأنني كنت لا أكفُّ عن الصراخ في أوج تجدد المغص. آه، أيها المسكين؛ محكوم عليك أن تأتي الوجود جائعا، أن تجرِّب منه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على أشدِّ الجوع...على جوعك الأوّل.

يدرك العالم المنكبُّ فوقك أنّك ما زلت هشا غضا قابلا لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلا. يتجدّد مغص الفراغ وكأن لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشبع. تشعر أنّه لم يعد لك من طاقة على تحمُّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى مغارة النوم لتبرأ من هول الوصول. أنظر لبني سفر وقد وصلوا لتوّهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقوه كأنّهم يتمرنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. المشكلة أنه لا نكوص من الآن على الأعقاب. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجل الذي يعذبه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا وثب داخلها وقد فاجأه البرق والرعد.

عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكانا جديدا إلا وشدّك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمئنّ إلى ما أتيته إلا إذا كنت واثقا أنّ ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى تشاء.

أنت دوما داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمطى بمنتهى البطء والحذر. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه!

ثتنتظم التجارب وتتّضح بعض العلاقات المتواترة ومع هذا تفاجأ كل مرة بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادّة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أهوج مرح، يداهمك بكلِّ حيويته، من كلِّ المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج. ثم تدرك يوما أنك شيء مختلف عما يثير فيك هذه الحالات، أنك مصدر بعض الحالات والأحداث. شيئا فشيئا تتضح الحدود وتنفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها شكل الكائن الأول...الذي كان المغارة السحرية... والقنطرة...وهو الآن مدير التشريفات،الحارس والخادم الأمين... قريبا المرآة التي تعكس لك أوّل صورك.

يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الآدميين تفهم تلقائيا منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشعُّ الملامح بالنور وهو منكبّ عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامة، وتفهم تلقائيا معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود للصراخ فتصدر منه كم من إشارات أنْ تريّثْ بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوما على نفس الشكل لتنقش أولى صور كائن عجيب، يتحرّك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرّك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلاّ برفق فيه خشية الإيذاء... وكل الوجود مرتبط بوجوده.

تتعلّم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدِّد. ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأبدية، والشيء المنقذ من الورطة التي تتخبط فيها مُصِر على غيابه المرعب.

قد يكون أهمُّ انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه– بكل كرم– ما هو بأمس الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب الضروري لمواصلة الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم، وآنذاك لا بدّ من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكّل باكرا في أعمق أعماق الذات، في أحاسيسها وصورها الأولى، دعامة الأساطير والأديان وما تفرّع منها وضدها من فلسفات.

ما أغرب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرضّع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

*

يجب الآن إخراج هذا الرضيع من وضع متلقّي المعلومات السلبي إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات. ويجب أن نفعل ذلك سريعا لكثرة ما يحتاج ولأن كل لحظة من الزمن هدية ملكية لا تضيّع عبثا. يتطلب الأمر أن يكتسب الآدمي خاصية جديدة ولا حرج أن تكون بالغة الإزعاج للآخرين: الفضول.

– «ما»، هل مشيت منذ البداية؟ أم كنت أحبو مثل الأطفال الصغار؟

تضحك «ما» إلى أن يتملكها السعال. تستعيد بسرعة وقارها.

– أنت طفل مبكّر في كل شيء، لكن ليس إلى درجة أن تولد متأهبا للمشي والركض. طبعا كنت تحبو ككل رضيع.

– هل كنت أطوف في كل الأرجاء؟ هل كنت تجدينني بسهولة؟

– بسهولة، لا. لكنني كنت أجدك دوما في مكان أقل توقُّعا من الآخر. كل من عرفوك آنذاك أطلقوا عليك نفس الاسم: الفأر.

الفأر! إنه نفس الاسم الذي سيطلقه الطفل على ابنته يوم يكتسب هو الآخر لقب «با»، ونفس الاسم الذي ستطلقه البنت على بنتها يوم تكتسب لقب «ما».

ثمة معلومات ناقصة في ذاكرة الطفل، لكنها متوفرة في ذاكرته وقد أصبح الجدّ.

تفلت مني الصرخة :

– حذار، البنت، البنت !

تضحك تفاحة :

– تظنني كنت سأدوس على يدها.

– لو فعلت لخنقتك.

لا تنتبه حرّة للخناقة الضاحكة، مواصلة زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجناها من الفضاء المطوّق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنا نسميه «قوانتنامو»..

– «با»، ستجنّني هذه الطفلة.

– أتركي الأمر لي، سأراقبها بمنهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

– تقصد بمنتهى التهريج وكأنها اللعبة التي جادت بها الأقدار.

– كفى وقاحة لا تقلقي سأجد ما ألهي به الطفلة، والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تنسحب تفاحة مسلّطة عليّ نظرة فيها حنان وإشفاق وشكّ واضح في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته «البعبع».

يحدّق فيّ الكائن الغريب باحتراز لا يخفيه من غريب جديد. لا بدّ من رسائل طمأنة لأحظى بالثقة الغالية.

– ها قد أخرجتك من «قوانتانامو». أنت الآن حرّة يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم.

تجلس رضيعة التسعة أشهر على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق فيّ مطولا. يلمع في عينيها المتسعتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب. ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنطلق كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة. تنتصب على ساقين مرتجفتين. تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب .تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدويّ فتسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي. ترفع قامتها، أو قل تتسلّقها من جديد، إلى حيث يمكن مواجهة بريق شيء يلمع. يتبيّن أن الشيء يستعصي على المسك والجذب. تتركه حرّة. تدير وجهها بحثا عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف الأربعة أمتار مربعة من عالم سيرهبها يوما اتساعه. يفترُّ ثغرها عن ابتسامة أول صبح لأول عالم. أنفجر ضاحكا ومعلقا على فم ليس فيه إلا ناب واحدة. تعود أدراجها . تمسك

الكتب أنفاسها كأنها تعلم . تمسك حرّة بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تقلّبه ببالغ التركيز. تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضاحك بالتوقف. تغيّر الرضيعة اتجاهها وتقصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها. تتوقّف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرّف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرّة ؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوّق العالم؛ فاللّسان– بعد العينين– أهمّ أدوات الاستكشاف.

في هذا العمر، يتشكّل الموجود كمعطى مباشر... كجملة من المظاهر الموضوعة حولنا وأمامنا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة. ربما هكذا تتفاعل مع العالم الكائنات التي تسميها اللغة الحيوانات والنباتات.

تنتبه حرّة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص. ترمي الرضيعة من جديد براحتيها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها مترنحة لتبدأ العبث بفنجان القهوة.

– ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني. ستتعلمين سريعا أن الاستكشاف أيضا اكتشاف الموانع داخل فضاء محمّل بكل الإغراءات والأخطار.

تلاحظ البنت تغيّر النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي بصعوبة على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعجزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية. تسلّط عليّ نظرتها الثاقبة. كأنها لم تر فيها هذه المرّة منعا وتقريعا فيشتد الخبط. آه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئا، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أزرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت ! هذا شيء اسمه الثلاجة. يستحيل عليك فتحه وأنت في هذا العمر ولا بد من الانتباه حتى لا نجدك يوما مجمدة داخلها. الحلّ إرجاعك ل"جوانتانامو" لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاق الجري وراءك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومرة أخرى من جرّ نباتات أمك على الأرض. ستحتجّين لحظة متشبثة بالقضبان الخشبية تمارسين عليّ الضغط والابتزاز ببكاء فيه كثير من التكلف. سريعا ستجلسين لمواصلة أبحاثك المعمقة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء والدمية الصامتة. لا، لن أحبسك وقد جئت لأبصرك في أولى مراحل الغزو وأهمها. كوني بنتا طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتي بانتظار أن أدوّن بعض الملاحظات والخواطر على حاسوبي النقّال.

ماذا ؟ تريدين النقر. لكنك لا تعرفين الكلام فما بالك بالكتابة. آه، من قال لي هذا؟

كل شـيء في هـذا العـالم ممكـن. علـى كل حـال، هـل لـك في هـذا العمـر مـا يسـتحق التدويـن؟ مـاذا ؟ هـل لـي أنـا شـيء يسـتحقه ؟.. يـا بنـت، «بـلاش قلـة أدب»! طيـب، اكتـبي تقريـرا ضافيـا عمـا يشـعر بـه آدمـي وصـل منـذ أقـل مـن سـنة، وكيـف كانـت بدايـة تجربتـه، وكيـف يـرى الأشـياء والكائنـات، ومـا رأيـه في الغرائـب والعجائـب الـتي تحاصـره، وكيـف تنتظـم كل هـذه المظاهـر، ومـا معناهـا بالنسـبة إليـك. تعرفـين مـا أريـد. خـذي راحتـك، أمامنـا متسـع مـن الوقـت قبـل رجـوع أمـك. أرجـو تعاونـا أكثـر ممـا أظهـرت هـي يـوم طلبـت منهـا نفـس الخدمـة.

تنقر الرضيعة بحماس : تاءللسغلءغغل نائشلئغشبئفبشف تلالغشبغفئبشفئب...

ما هذا ؟ طيب، واصلي.

تالتبيقسثن ىتؤؤشبؤءب شتنتاعلل.

يـا بنـت، لا أفهـم هـذه اللغـة، ولا أظـن أحـدا مـن قـراء «الرحلـة» قـادر علـى فهمهـا حتـى ولـو تكلمـوا كلهـم بهـا يومـا.

بيصشييسييضسسضض. نتلغبفلبفئبتاغلغانتلاتخالسبفبيخىالافتىعغ7فققققق

يا بنت، النقر على مفاتيح الحاسوب يكون عادة بالأنامل لا بالقبضتين.

ؤيشؤشؤسشءؤؤسشؤثيثيضضنةنتهاعاعالعللغللغالغبفقق6ف8ع9حه.

فهمـت. سـبق فلسـفي سأحسـد عليـه طويـلا. حقـا إنهـا معلومـات مهمـة. سأسـتعملها لاحقـا. وفي الانتظـار، الرجـاء إيقـاف الاعتـداء علـى هـذا الحاسـوب المسـكين. آه، تريديـن طبـع مـا تمخضـت عنـه عبقريتـك لتبقـى للأجيـال الصاعـدة. لم لا؟ اللعنـة علـى هـذه الطابعـة الغبيـة. لا تتعطـل إلا عندمـا احتاجهـا. قـد تكـون غـير مرتبطـة بالحاسـوب. يجـب أن أبحـث عـن السـلك في هـذا التشـابك الفوضـوي المخيـف حـول قدمـيّ. انتظـري، سـنعود للاسـتجواب لاحقـا. آه، يـا ظهـري!

تصرخ تفاحة ضاحكة: ماذا تفعلان تحت الطاولة؟

تفعـلان! ألتفـت خلفـي لأكتشـف حـرّة ورائـي، وهـي علـى أطرافهـا الأربعـة تحـدّق في شـخص مجهـول يفعـل أشـياء مجهولـة في مـكان مجهـول أفاقـت فيـه؛ لا تعلـم لأي سـبب.

– «بـا»، البنـت تكـبر بسـرعة رهيبـة. هـل فكّـرت بالقصـص الـتي سـتطلبها منـك قريبـا. تذكّـر أن تفيحـة حذّرتـك مـن إعـادة اسـتعمال القصـص الـتي كنـت ترويهـا لنـا. هـي خاصـة بنـا ولا نرضـى بهـا حتـى لأطفالنـا.

روايـة قصـة لم تـرو مـن قبـل ! مـن أيـن لـي هـذا وقـد اسـتنفذ القصاصـون قبلـي كل الأبطـال وكل العقـد!؟ لا مجـال للإحبـاط قبـل رفـع التحـدّي... لأشـارك رهـين المحبسـين في وقاحتـه مدّعيـا مثلـه أنـني سـآتي بمـا لم تسـتطعه الأوائـل.

– تفاحة، انتبهي لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى منك أنت لما كنت في عمرها.

– أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنتها الأولى وآنذاك: يا ويلي من هذه الفأرة!..

تتنهد «ما» والبصر شاخص نحو الأفق :

– يوم وقفت على رجليك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغردت ثم قلت: يا ويلي من هذا الفأر.

إنه يوم أغرّ حقا، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتنطلق الزغاريد وتنصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟.. كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجّعا ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنّها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشّة التي تقصم ظهر بعير كهذا.

ها أنت تحرّك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق صلب لا تعلم أنه متحرّك يطفو منذ القدم على أنهار من النّار. تواصل تحسّس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل كبوات. ثم ينزاح عنك الخوف تدريجيا وقد فهمت الدرس، وفهمت أن المشي فقدان توازن ثم تداركه. ويوم تتأكد من فهمك لقواعد المشي، يرفع الحاجز في وجهك كما يرفع في وجه نهر حبيس انهار أمام دفعه السدّ.

* * * * *

العالم عندما يتجلّى

لو تابعنا كل طفل وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهقنا وهو لا يكفّ عن الركض والرقص والنطّ والتسلّق والهرولة كأنه يبحث دون كلل عن شيء أو عن أحد. ولو دخلنا وعيه وسجّلنا ما يمرّ به من مشاعر، لأرهقنا وصف ما يمرّ به من حالات.

إنها المرحلة التي يضع فيها هذا الطفل الحجر في الفم ليختبر صلابته، يرفعه إلى الأنف ليتأكّد أنْ ليس له رائحة، يرميه إلى فوق ليشعر بمقاومته للرمي... المرحلة التي يتحسّس فيها الأواني والأدوات ليعرف ما تثيره من أحاسيس لا يخشى لمسها حتى وهي تلتهب نارا... المرحلة التي يجرِّب فيها الكتابة بالفرشاة والأكل بالقلم ليقبل أن للأشياء استعمالا واحدا لا غير... المرحلة التي يخطِّط فيها لصبغ صخرة بباب الدار بالأحمر فتنهاه الأمُّ برفق، لكنه لا يتراجع عن مشروعه إلا لعدم توفره على الأصباغ الكافية لتلوين كل أحجار الطريق.

لو طلب منا اختزال تجاربه، لقلنا أنه – حتى وهو يغطُّ في النوم – في حالة دائمة من الفعل في العالم ومن التفاعل معه.

بالعودة إلى ملفات أولى هذه الأفعال والتفاعلات والتي حفظت بكل حرص مكانها وزمانها هذا ما وجدت الكتابة.

بخصوص المعقل الأول ثمة صورة غرفة يتيمة تقع بجانب غرفة الجدِّ تسكنها المنفيّة مع طفليها، تطلُّ على نخلات عجاف تتوسط ساحة الحوش. لنفتح القوسين هنا للتذكير ببعض القواعد العامة المتعلقة بالمكان الأول. إنه الذي نفيق فيه أو نقضي فيه الزمن البكر، وله مكانة خاصة في قلوبنا تجعلنا نعود إليه دوما إن لم يكن بجسدنا فبذاكرة خيال أو بخيال ذاكرة لا تحافظ إلا على أجمل خصائصه، وكيف أنه كان دعة وراحة وطمأنينة وخدمات مضمونة، وخادمة مطيعة تحت الذمّة يمكننا إرهاقها بكل أصناف الدلال. غالبا ما تمحو الذاكرة أنه كان مجرّد امتداد للرحم يتصرف وفق نفس القانون. يقبل بك زمنا ثم تتقلص عضلاته فتلفظك خارجه. الويل، كل الويل، لو تمسكت بالبقاء فيه، لأن مآلك نفس الذي كان ينتظرك لو تشبثت بجدران الكهف السحري: الموت تعفُّنا. انتبه إلى أن كل الأماكن التي تتلقفنا بعد طردنا من الملجأ الأول تتصرف وفق نفس السيناريو، لاعبة نفس الوظيفة: الحماية المؤقتة والإعداد للجزء الآتي من الطريق الخطر.

بخصوص الأشياء الأولى التي تتزاحم داخل نقطة الانطلاق هذه، ثمة الحصير والبطاطين على الأرض، والقربة على الحائط، والقلة أمام الباب، وكانون الشاي والبراد الأزرق وكيس

الفحم والطاولة الواطئة التي فوقها قصعة الأكل... كل هذا مصفّف بنظافة وعناية النساء لتزيين أبسط وأفقر البيوت.

بخصوص الكائنات الأولى التي تمّ رصدها ، ثمة العنزة والدجاجة والديك والقط والحمار والجمل. سنرفض أي حديث عن الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزعج خاصة أيام جني التمر حتى لا نشرفه بالتواجد في كتابنا والإشهار له بالمجّان. كذاك الأمر عن نوع ثالث من الكائنات لا يوجد أي مبرّر مقنع لوجودها وهي تثير في «ما» هلعا شديدا. إنها الأفاعي التي من بين عاداتها المقيتة، الدالة على سوء نيتها وقلة تربيتها، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طيات البطاطين لتلسعنا وليس فقط كالذباب لمجرّد الإزعاج.

بخصوص الأحداث الأولى، ينتبه الطفل سريعا لوجود مبهم يقع وراء حيطان الحوش، ولا بدّ أن يكون فيه كائنات وأشياء أخرى لا يعرفها وعليه أن يكتشف ماذا يجري بالضبط داخل الحيشان المغلقة الموجودة ووراء الزقاق وأين هوالغوط الذي يقصده الجدّ كل صباح بمسحاته القصيرة، يأخذ معه حماره عنتر غير قابل به على ظهره. نعم يجب أن يخرج وفي أسرع وقت ليلحق بهما. لكن عبر اي طريق وكيف مغافلة «ما» وهي تصرُّ على حبسه في الغرفة بدعوى أنه ما زال صغيرا ؟

تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدّة غير معهودة فيها :

– ألم أقل لك مرارا : لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح ! ألا ترى أن هذا رمل خبيث، يريد بنا الشرّ ؟ أدخل الغرفة بسرعة. لا تخرج إلى أن أسمح لك.

يفلت الطفل هاربا لوسط الحوش، راقصا، صارخا في وجه الريح، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا. ثمّ كيف يضيّع فرصة تأمُّل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟

هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السّماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالى بعصبيّة متزايدة كأن إلها يقدح ولاّعة تعاكسه، أو كأنّ عفريتا أشعل في كبد السماء مصباحا من «النيون» يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفّي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه. يتصبّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط في مثل هذه العاصفة. تعبره لحظة فكرة رهيبة، هي أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال– خاصة هو– من حماقات. تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته وراء النخلة يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوّة للغرفة، تحميه من نوبة جنون الريح.

– هل تشعر بحرقة في عينيك؟

– اتركيني، أريد أن أرى وأريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرني.

– ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

– جدّي سيجدني. هو أحسن من يقتفي الآثار.

– لا تجادل. ممنوع الخروج وحدك وقت العاصفة تحت أي ذريعة.

تختبئ الأم وطفلها من غضب الريح، والرمل يصفع الباب الخشبي كأنه يريد الإجهاز على صيد محاصر.

– يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

الصحراء بوابة جهنّم ! الرأي الوحيد لأمه الذي رفضه الطفل .

يا لحظّ هذا الطفل وقد سحبت له طاولة القمار أروع أبواب الدخول. هل ثمة مكان أقدر من الصحراء على اعتصار أحدِّ الأحاسيس والمشاعر وأعمقها وأعقدها وأرهفها وأرقها وألذّها وأكثرها وجعا ؟ فيها يلفحك وهج كوهج النار. لكن أين برد بلدان الجليد والثلج من بردها ليلة شتاء متجهّم. يلتهب الجسد ويغرق في مائه وأنت تمشي خببا على جمر رملها ظهرا، لكن يا لرقّته وأنت تتسلّق الكثبان. جاء المساء ومعه وعد النسيم!

ما زال الطفل جاهلا أنه لا يسكن إلا جزءاً بالغ الصغر والضيق من المكان، أنه لا يرى إلا معلما من معالم العالم، أنه سيظل– إلى آخر منعطف في الطريق– يركض وراء البقية، والعالم يضع على وجهه قناع النهر والبحر والسهل والجبل، فتنطلق كل مرة صرخة الانبهار من المحب المفتون بجمال حبيب لا يفنى له جمال.

هو يجهل أيضا أنه لا يستحم إلا في جزء بالغ الصغر والضيق من نهر الزمان. لو قيّض له أن يرى كيف كانت هذه الأرض القاحلة يوما جنة فيحاء، تتدافع فيها الأنهار وترعى فيها الفيّلة وتسبح التماسيح في أنهارها، لأزداد ذهوله.

ويوم يأخذه جدّه ليبذرا القمح في مكان بعيد عن القرية يسمى «طينية»، سيكتشف منبهرا وغير مصدق أن بوسع الصحراء أن تصبح بساطا أخضرَ يمتدّ في كل الاتجاهات، تزينه أزهار من كل الألوان، عجز دوما عن تذكّر أسمائها.

يا لهذه الأرض التي يبدو وكأن الله سخط عليها فجرّدها من كل زينة وغطاء. ومن الغد يحوّلها لجنة، لا غير. إنها إحدى معجزات الصحراء تختزلها البراعم المخفية تحت الرمل والصخر. ربما لم تلعب صورة للعالم دورا في تشكيل ذهن الطفل والكهل قدر صورة هذه البراعم وهي تحت سطوة لهيب الشمس، تنتظر بضعة قطرات من المطر لتورق وتزهر وتجعل الجرداء خصبة. هذا ما جعله يستبطن قدوة الجدِّ ويؤمن يوما بأن لا دور له في الحياة غير بذر البذور ولو في سبخة... والباقي متروك لمشيئة السحاب.

تبقى الأم مصرّة على بغضها لأرض النخيل هي التي رأت النور وعاشت في أرض التين والزيتون والعنب . مشكلتها الآن حماية الطفل من عشق لا يقدّر مخاطره ومنها حبّه حتى لعواصف الرمل.

لمغالبة عصبيتها وعصبيته، لا تجد من خيار أسوأ من رواية آخر ما في جعبتها من قصص القرية عن عواصف الربيع وعن عدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

– خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيّام ميّتة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق. وهل حدثتك عن «با» لما كاد يهلك وقد ضاع بين كثبان الرمل!

وفي ملفّ آخر يؤكد «با» ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكشّر عن الأنياب: لمّا هبّت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الآثار. ولمّا بدأت الشمس ترميني بأشعتها كالصيّاد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلّني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا و أمشي ليلا إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرنّك– يا بني– من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها لحظة تقطّب الجبين... ويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.

تواصل الأم حديثها الهامس مشبّعا بالرجاء والقلق :

– احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفّف من أحزاني ؟

كيف يمكن الطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جئنا أصلا لغير متعة الضياع!

هذه المرة لن يخرج لتسلّق العِرْق ولن يجلس على رمله الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى أن ترتطم بالأفق في كل اتجاه، لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر عائدا إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمه تعده أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكثبان؟

كان يتسمّر كل مرّة مشدوها على قمة الهضبة التي تسميها لغة أهله «العِرق» يغالب رغبته في الركض نحو الأفق. من أين له مقاومة إغراء المساحات الشاسعة الممتدة أمامه ، وكل كثبانها تدعوه إلى ولوجها هو أيضا عبر طريق يرسمه بخطاه!.. يكتشف الكهل، وهو يتأمّل صور الطفل يتأمّل هضاب الرمل، كم حاول التشبه بما في الصحراء من مهابة، من تحفّظ، من تجرّد، كأنها ليست امتدادا من الفضاء المرهق للجسم، وإنما أولى مدارس الروح تتلقى فيها أقسى الدروس وأبلغها.

وفي هذه الصفحة من «ألبوم» الذكريات، يغمض الطفل عينيه داخل ذاكرة كهل أغلق عينيه هو الآخر ليرى أجدادا يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائلُ، الغزاةُ الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع. هنا تأتيني مشاعر بالغة الغموض والاضطراب، فيها إعجاب وفيها غيرة ثم حفيظة واضحة. هم لم يتركوا لنا غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر؟.

كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة، تبثّ عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء، لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

ثمة أيضا مكان آخر لن يقبل مماطلة في حق وصوله والعودة إليه مرارا وتكرارا، زأرت العاصفة أم لم تزأر.

– أريد أن أذهب للعين حالا... حالا... الآن... الآن، أريد السباحة... أنا أسبح مثل الكبار وسأملأ القلة مع جدي.

– نعم ستذهب للعين شريطة أن تعدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لليوم.

– وهل يجب أن أقبّل الماء كما تفعلين عندما تلثمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ربع الابتسامة. تنفجر "ما" ضاحكة إلى أن تسعل:

– حقا أنت"حلّوف" كبير، لا يفوتك شيء. ليس عليك أن تقبِّل الماء، أكرمه فقط بعدم تبذيره. انظر ما يتكلفه جدُّك حمد وعنتر من عنت ليكون هناك دوما في القربة والجرة ما تشرب.

تهمس "ح" في أذن حبيب قادم من صحاري ما وراء البحار وضعته الصدف على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:

– كفاك تأمُّل هذا الشلاّل.

ترفع من صوتها، تهزُّ الحالم اليقظان من كتفيه:

– تعال؛ داهمنا الليل.

– لن أتحرّك من هنا حتى...

– حتى ماذا؟

– حتى ينتهي تدفُّق هذا الماء. لا أصدِّق أنه سيسيل دون توقف...اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه

تضحك "ح" إلى أن ينهمر الماء من عينين بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

أحدّثها عن طقس مارسته «ما» دون علمي سنينا إلى أن كشفت السرّ أخت لها كل طيبتها: كانت، رحمها الله، تأخذ القدح وأنت تنهض كعادتك راكضا نحو الباب لتنثر الماء في ظهرك قبل أن تختفي. كم كانت تخشى أن تنتبه لما تفعل فتسخر منها. لحسن الحظ، لست من النوع الذي ينظر وراءه.

– لن تموت من العطش فترة الانتظار ...جوعا بالتأكيد. تعال الآن.

في البيت، يعود نفس الموضوع لمزيد من المشادّات الضاحكة.

- كم مرة ردّدت لك: لا تتركي الحنفية تسيل هكذا. هل تتصورين ما تتكلفه حمير المدينة لملْء صهريج هذه العمارة؟

كيف لا تتشنّج أعصاب الرجل، وهو الذي استبطن من نظرات أمه أن تبذير الماء كتبذير الخبز الذي تسمّيه "النعمة".. حرام.

- أخرج إلى الشرفة أنظف الصحون بالمطر؟

- نلحسها ونوفّر ماء المطر للشجر وللحمام.

تتنهد «ح»:

- آه، لو أفهم يوما العلاقة الغريبة التي...!

العلاقة الغريبة! طبيعي، وهل ثمة شيء أغرب من الماء أو أعجب منه ؟

هل النوتات التي تنطلق من البيانو والقيثارة غير محاولة لتقليد موسيقاه! ...أليس صاحب أروع الأصوات وهو زمجرة الشلال، رقرقة الجدول الشادي، خرير نافورة وسط الدار، صرير الثلج تحت الأقدام، نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم... يقولون أنه بلا طعم ولا أطيب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون أنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان...يقولون أنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء...ويقولون أنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشمّ...مصدر الأحاسيس الأشدّ عمقا ...الأبقى في الذاكرة منذ بدأت تسبح فيه داخل الرحم... الذي خلق الله منه كل شيء حيّ...رمزنا للقداسة هو الذي يستحم فيه الحجاج وبه يعمّد الأطفال...معلّمنا لمفهوم تدفق الزمان وهو النبع والنهر والبحر...قدوتنا ونموذجنا لكل مكارم الأخلاق....

وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه فلا يبتغي شكرا ولا يدّعي فضلا (إيليا أبو ماضي)

وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا

تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزجر الابلا

ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحى ولا طهر ذا يبلى

أنظر إلى الماء إن البذل شيمته يأتي الحقول فيرويها ويحييها

فما تعكّر إلا وهو منحبس والنفس كالماء تحكيه ويحكيها

تعود الأم لدورها تدلّ وتحذّر من أخطار الوحش الرقيق.

- يا بني، لا تغتنم فرصة القيلولة للّعب، يجب أن تقدّر خطورة الحرّ الشديد عليك في عزّ الظهيرة. ثمة من مات بضربة شمس، لا تخرج حاسر الرأس أبدا، إلخ.

من سمع يوما نصائح دليل ؟

– يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.

هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فقط، وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينكّسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

– "ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا ؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار رده وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها فهوت من عليائها كالطير الجريح. يمدُّ يده بحذر نحو صيده ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر «الكانون». الحلُّ أن يريق على الجمرة الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الآفاق.

– اسم الله على ابني. كلمني. ما بك ؟

– لا شيء، لا شيء، قلت لك : لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاته الشمس، لاعنا ما سبّبت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران. قد يكون جرّب يومها أعمق مخاوف الآدمي، وقبله داوى أطفال كبروا خوفهم من ذهاب الشمس إلى غير رجعة بكم من قرابين وصلوات تبتهل لعودة واهبة النور كل فجر واعد. ما من شكّ أن الذين أخذوا ما يلزم من الاحتياط– إضافة لما يجب لحضرة الشمس من أضرحة وأدعية– هم بناة ماتشوبيتشام. لا أحد يعرف بالضبط كيف كانت تربط الشمس إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الوتد عند الغروب. يبقى– أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب– أننا ربما ندين لهم بثبات الشمس على الشروق بعد كل غروب، وبعدم لياذها بالفرار رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات. حقا ما أحكم بناة أعظم مدن القمم وفيها الطريقة المثلى لحلّ أكبر مشاكل الرحلة. تصوّر كل ما كنا نجنيه لو استطعنا أن نوثق إلى صخرة مقدسة إبليس وعزرائيل، ناهيك عن العبيثة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقا. بالطبع نيتي غير نيتهم، والقصد ليس إطلاقهم على ألدّ أعدائي بين الفينة والأخرى، وإنما كفّ شرّهم عن الآدمية المسكينة والتشمت بهم دوريا، وأنا أدعو أصدقائي لحفلات رميهم بالحجارة والبزر. المشكل لو أكتشف بقية البشر سرّ عقل كل ما لا يريدون. تخيّل تبعات شيء كهذا. لنطلق إذن سراح إبليس وعزرائيل والقدر والعبيثة، وإلا كيف تكون الحياة مغامرة المغامرات، لنكون فيها نحن أبطال الأبطال.

قـد يكـون أحسـن تعريـف للصحـراء أنهـا جهنّـم في عـزّ الظهـيرة الجنّـة عندمـا يأتـي المسـاء. الظـلام أخـيرا بعـد طـول الترجّـي ونفـاذ آخـر مخـزون الصـبر :

– «ما»، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل ؟

عقـود سـتمرّ علـى الطفـل وهـو مـن دهشـة لأخـرى ، مـن حـيرة لحـيرة أعمـق، مـن إجابـات خاطئـة عـن أسـئلة سـيئة الطـرح إلى معطيـات قليلـة متفرقـة لا تكفـي أبـدا لرسـم الصـورة الجامعة–الـتي سيسـمّيها كهـلا الرؤيـا– أو لنسـج روايتـه، هـو ، لملحمـة الآدمـي في العـالم وملحمـة العـالم في الآدمـي.

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

– يا بني، ألا يكفينا ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

– أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

– لا أحبها فقط ! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يسـتبطن الطفـل الشـدّ والجـذب في المعلومـات المبهمـة الـتي يتلقاهـا باسـتمرار... بغـض أمـه للصحـراء وهيـام أبيـه بهـا. يختـار باكـرا صفـه لجانـب أبيـه ضـدّ أمـه... للمـرّة الأولى والأخـيرة.

تستدرك «ما» وقد فهمت أن طفلها لا يحبّذ قدحها في شمس الأب والجد:

– لا أجمـل مـن غروبهـا وشـروقها حتـى هنـا... آه، وهـي علـى وشـك الـبروز! لكـن... لمـاذا تنقلـب فيمـا بعـد إلى...

تصمـت «مـا» لحظـة، تصيـخ السـمع للضوضـاء المتصاعـدة مـن الركـن الغربـي للحـوش حيـث يرقـد الماعـز خلـف سـتار مـن سـعف النخـل. تبتسـم وهـي تسـمع ثغـاء الجـدي المولـود الجديـد. ثـم تشـخص ببصرهـا نحـو الأفـق، تحلـم مفتوحـة العيـنين.

– آه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي ألطف وأرحم!

– هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

– لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يسـتوعب الطفـل معلومـة هائلـة سـتطبع إلى النهايـة تصـوره للعـالم: إن لـه ثوابـت يعرفهـا النـاس جميعـا ويتشـاركون فيهـا.

كأنّ الجـوّ السـحري رفـع عـن روح «مـا» تحفظـا بقيـت إلى آخـر نفـس تخفـي وراءه حساسـية مرهفـة وخجـلا دفينـا. بصـوت يـكاد لا يسـمع، تأخـذ في الـترنم بأغنيـة لمغنيـة لا يحبهـا إلا الفلاحـون والفقـراء.

– «مـا»، مـن بنـت المحاميـد هـذه ؟ ولمـاذا اسمهـا «عيشـة» ؟ هـل تعرفينهـا ؟ لمـاذا لم يكمّلـوا نقـش "بخنوقهـا "؟ هـل كان سـحرا تختفـي داخلـه فـلا يراهـا أحـد ؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

– "ما" أريد أن تروي لي أطّطططول قصّة في الدنيا، أنا أحبّ القصص لكنك...
– نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدّتك التي...
– لا، لا، تعرفين لكنك لا تريدين...
تضحك "ما" بحرج.
– صحيح أنني لا أحبّ القصص... قد يكون لأن جلّها للتخويف أو لتزيين الواقع.
هل نطقت "ما" حقا هذه بهذه الجملة أم أن النصّ يقوّلها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع ؟ ربما قالت شيئا من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعادت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. ربما هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الآدميين فوضعها على لسان أحكم من عرف منهم.
هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولتقل "ما" ما تشاء.
– أنا و«با» وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضا تحبّينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.
– قد يأتي متأخرا هذه الليلة.
– لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.
– أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهرني إذا حلا لك النوم.
قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي اللّيالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المكشّرة التي يتخذها عندما يتسربل بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف اللّصوص و العشاق.
هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق وبقية الكائنات، وأنه لولاه لدارت الأرض على نفسها بثلاثة أضعاف سرعتها فإذا بسطحها مسرح أبدي للريح الصرصر والعاصفة الهوجاء، ولا قدرة لكائن حيّ على البقاء.
أيضا من مشاكل الطفل، في هذه الليلة القدسية، الصلة التي تبدو وثيقة بين هذا القمر وبين الهلال.
– «ما»، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.
تحاول الأم التصحيح :
– هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه «القمر».

– لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه جرم آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال للشمس .

تبتسم «ما» ، تداري حرجا. أيكون للشمس هلال لم يتفطن له إلا طفلها ؟

–«ما» كم عمر القمر.

تصمت «ما» والردّ لن يجده الطفل إلا عند أحد أكبر أصدقائه من الشعراء

كم عمر القمـــر؟ (إيسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقريبـــــــــــا

– «ما» ، لماذا يوجد قمر واحد وشمس واحدة ؟

– لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

– «ما» ، من ماذا صنع الله القمر والشمس ؟ لا ، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. القمر مصنوع من الفضّة كالتي حول معصمك، أما الشمس فهي من ذهب قرطيك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

– فكرة مثيرة، لكن صدّقني، يا بني، لا أدري.

– سأقول ل"با" عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنع الشمس والقمر. سيكون متّفقا معي في ما أقول.

– أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقول هو.

آه على فكرة . أكنّا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلّم؟ من علّم الآدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهمّ الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على «ما» دون إثارة ضحكها، وغدا على «با» لإثارة إعجابه.

أولى النظريات تلك التي تؤكد له أن القمر كوّة كبيرة قد تمكّن جسمه النحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمسك به الكائن العطوف الذي تصلي له أمّه، يهش به على العفاريت التي تملأ أحلامه، وبغيابه تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصّد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحوّر– بكيفية جذرية– وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الآثمة لقضاء عقوبة اسمها «الحياة». يصبح مصباح اللّيل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعوّ في قصص قومه «إبليس».

رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية لم تكن هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مرّ العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيرّ ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتّبعوه إلى أن حطّوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعداء وهم يشاهدون بأمّ أعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترنّح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو. لا الطفل ولا أمه يعرفان أنها تخفي وراء وقارها الخادع دوّي انفجار شموس أين منه دويّ ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظّ أو من سوئه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج.

ليلتي هذه عروس من الزنج   عليها قلائد من جمان   (المعري)

ينتبه طفل، نصف نائم بين ذراعي أمه، لبريق هذه النجوم. يرفع رأسه مجيلا بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. كم في السماء من نجم؟ يبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. ثم تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته ل"ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور. لكنه سينتقي منه بلا خوف لؤلؤة لطفلة كبرت وما تزال تفاخر أن والدها أهداها يوما نجما من أفخر مجرّات السّماء.

سؤال آخر يرهق به ذهنا مشغولا بمصارعة النوم: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها– في ظلمة الليل– عن طريق إلى حيث النهب والسلب ؟ إنها فكرة ستخيف «ما» لذلك لا مجال لمصارحتها بها . لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقوبا في ستار داكن أسدل بين عالمين : العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردّد دوما أنه نور يوجد في السماء ؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لرآه جالسا على عرشه. آه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا !

كم استفزّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تناجيه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولا جارفا! كم صورا مشوّشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن

صوره في فكر الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل «ما»، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مرددة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكّد من الأمر إلا بالرحيل إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة ؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلّم، يوضع على سلّم، يوضع بدوره على سلّم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسّع الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع.

الحلّ بالطبع : فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون. بدأ الطفل التسلّق وكل درجة يعتليها تزيده خفة وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدّد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولا التمعّن في ملامح وجه مشرق بالنور.

يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر- وهو جالس على ركبتيه- بأنفاسه الهادئة على عنقه.

– ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حبّ! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربة ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أمّ يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد «ما»، وعن مسحاة جديدة للجدّ، وعن جحشة جميلة يزوجها عنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلللللللّ أسئلته ليفهم كلللللللّ شيء. تتّسع ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

– «ما»، لقد كلّمت الله وقلت له...

ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

– إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إيّاك!

تضع «ما» يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط ؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأوّل مرّة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلّغها.

– «ما»، لكنه قال لي...

– يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

– الشمس في الموعد ومعها مفاجأة أخرى، انظر.

– اتركيني، أعرف عنها كل شيء.

– قلت لك : انظر.

يفرك الطفل عينيه. يأخذ كل وقته للتثاؤب. يتسمّر أمام حالة يتخذها العالم الطاووس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مأدبة الحياة. بداهة لم يدّخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبهرنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوّضنا عما سنلقى في دار ضيافته هذه؟ أم لسبب آخر لا ترقى له أفكارنا وصورنا الصبيانية؟

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلوّن ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحوّل إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا، إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصفّى لم يتجمّد بعد في سبائكه. تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتابع وجه الله يبتسم. تفرغ الأمّ من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

– لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمّر الطفل أمام معجزة جديدة، والقمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النّهار نصف الزمان، ولفانوس اللّيل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء. يجيل البصر بين الشيئين، لا يكاد يصدّق عينيه. ثم ينفجر صارخا راقصا، داهمته فرحة صاخبة لن يفهم سببها إلا وهو كهل يسترجع وينظم ذكرياته، دامع العينين منقبض الحلق. ورغم أن اللغة تؤنّث الشمس وتذكّر القمر، فإن الطفل كان على أتمّ الثقة أن فانوس النهار لا يكون إلا ذكرا والأنثى هي القمر، وإلا كيف يفسّر ما في بدر الدجى من رقّة وما في الشمس من حدة وعنف.

على كل حال، ألا تؤنّث لهجة القرية فانوس الليل فتسميه "القمرة» (القاف منطوقة على طريقة البدو). هو نسج لنفسه قصّة، البدر فيها الزوجة الهادئة والشمس بعلها الصاخب، وتجافيهما الدّائم فصل من سرّ لا بدّ أن يسبر يوما أغواره. يجنح به خياله لتصوّر أسباب الجفاء. أي كارثة دهت سيّدة الليل لكي تصبح بمثل هذه الدّعة الشاحبة والهدوء الحزين ؟ هل نور الضحى عرق الشمس ونور الظلمات دموع «القمرة»؟ هل أعرض عنها بعلها السماوي مفضّلا زوجة أخرى لأنها أغضبته يوما لسبب تافه؟ قد تكون أتت

من الآثام ما دعاه لهجرها ؟ لا، لا. إنه هو المخطئ بالضرورة. ها قد عذّبه الندم على فعلته الشنيعة فأتاها هذا الصباح يطلب الصلح والعفو.

نعم كنت طفل آدميين افترقا على الأرض، وكان لي في السماء أب وأم على نفس الجفاء لا يتلاقيان- هما أيضا- إلا نادرا.

* * * * *

النسق والإيقاع

ينتبه الطفل باكرا أن لليوم تقسيما لا يتغيّر، فالنهار للّعب والليل للنوم، والموانع القاهرة لأي تغيير تأتي من الداخل ومن الخارج... ثم أن للأيام- وإن تشابهت- نكهة مختلفة. الغريب في هذه الأيام الهامة أنها تأتي بمواعيد يعرفها الكلّ بل حتى هو. أي دهشة كانت تصيبه لو أقيم السوق الأسبوعي عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس.

سوق القرية ! المكان الذي سيطبع ذاكرة الطفل إلى الأبد وهو يختزل آنذاك كل ما في عالمه من روائح وألوان وخصب وبهجة الحياة... المكان الذي سيختزل في ذاكرة الكهل كل ما في عالمه من قحط وشقاء هو الذي شهد آدميا- أسرف عليه الدهر بالقهر والفقر- يعرض بين الحمير والغنم أطفاله الثلاثة للبيع .

ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب تسارع لإعداد عصيدة السكر والسمن .إنه يوم ميلاد الإنسان الذي تحبّ أكثر منه. ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحلّ أسعد ليالي الأطفال وأشقّ أيام الكبار، والكل فرح راض بما أمر به الهلال.

– «ما»، لماذا يذهب رمضان ؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

– لا تقلق يا بنيّ، إنه عائد السنة المقبلة.

– أنت متأكدة ؟

– رمضان لا يخلف وعده أبدا.

– أنت متأكّدة، متأكدة، متأكدة !

– كل التأكّد.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الشمس تلبس ذلك اليوم أحسن ما عندها، حتى الهواء مشبّع بروائح الحبور والحبّ والأمل.

ينتبه هذا الطفل الذي لم يفكّر أب في بيعه علّ شاريا يضمن له لقمة العيش، أن العالم لا يثبت على حالة وأن عليه مواجهة مشاكل القرّ بعد أن عانى من مشاكل الحرّ . ها هو في فراشه أو جالسا قريبا من الكانون يرتعش تحت أثقل البطاطين.

– «ما»، لماذا هناك شتاء و صيف؟

– إنها فصول السنة، يا بنيّ.

– ما معنى فصول ؟

– إنها...كبرى التغيّرات التي يعرفها الطقس... أي الجوّ... أي...

– لكن، لماذا على الطقس أن يتغيّر ؟

– هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

– «ما»، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف ؟

تقول "ما" للطفل، تغريه بالطريق:

– نعم هناك في أرض جدك الآخر، بعيدا نحو الشمال. نسيت أنّك ولدت هناك حتى وإن كبرت هنا ؟ إنها أرض مباركة كم ستحبّ الاختفاء داخل أعشابها العالية، يمشي المرء فيها أياما بين حقول البرتقال والزيتون والعنب إلى أن ينتهي به المطاف إلى البحر. آه البحر الذي كنت أذهب إليه طفلة مع جدّتك وخالاتك لغسل الصوف بداية كل خريف! يا إلهي، كم ينقصني هو الآخر! نعم يا حبيبي هناك يوجد فصلان لا تعرفهما هذه الأرض القاحلة . ما أحلى الخريف فيها واللهب يشتعل في دوالي العنب. ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيضاء.

يشرد بصرها، تحلم بالأرض التي نفيت منها، والزوج مصرّ على ألا تنتظر رجوعه إلا تحت مراقبة الأهل ولو سكنوا على مشارف الجحيم.

– "ما"، إذا كان هناك فصلان آخران فلماذا لا يأتيان لزيارتنا؟

– هذه أرض سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف، مبتليا إياها بلهب جهنّم أغلب الوقت وبليالي الصقيع ما بقي من الزمان.

تطأطأ الأم رأسها، تخفي ما بها من كآبة عابرة. يبادرها الطفل بأول سؤال يخطر بباله لا يطيق صمتها.

– «ما» هل هناك أماكن فيها خمسة فصول ...أو ستة أو سبعة ...ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم .

– ممكن ، لكنني لا أعرف إلا أربعة أرض جدّتك مني .

– «ما» لكن لماذا اربعة ، لماذا أربعة فقط ؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال . لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد ؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه ...الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته ... سحر الأرقام وسطوتها .

يغيّر الطفل وجهة الحديث.

– «ما»، أيهم الأول ؟ أيهم المفضّل عند الله ؟ أنا متأكّد أنه الفصل الذي خلق فيه كلللللل شيء .

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

– الأجمل طبعا...الربيع.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخلق مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهش– نافد الصبر– بعصاه وببعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتنصرف متأفّفة متوعّدة برجوع قريب. ثم يمرّر خرقا لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على ذكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجدّدا عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جل المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوفّر على الدوام. صحيح أنه كان بوسع الفنّان الأعظم أن يظهر مزيدا من الكرم أي مزيدا من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتّى نتسارع كلّ صباح للنافذة لنصرخ مرّة : ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفّ، ما هذه الصفرة الغبيّة التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنّه سيكون يوما بطعم القرع. نقول وأنت على ألف حق كفى دلالا يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحليّ والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتتدافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أوّل نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أوّل عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقيّة الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

هذا الربيع «إيسا»

حتى ظلّي

مفعم حيوية

آن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبثّه الحشائش والأزهار من رسائل الحبّ. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنّها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنّها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاد صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها– عبر مختلف الفضاءات– بصورة أنف عبّأ فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع النحلة

لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتمّمان صفقة لا تريدان- ظلما- طرفا فيها.

آه، كاد «السيد ربيع» أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينطّ ويطير ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لّذة الجماع.

نعم، ما من شكّ أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام :

- لا، لا. أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحّبا بالصيف ومهنئا بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتثاقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلا؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقا.

يطرد القادم الجديد بفظاظة ما بقي متردّدا من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلاّ من شمس كأنها قدّت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرّة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيرا ذراعيه فيدخله الطفل سعيدا بلقاء موج عاد مضيافا بعد طول التمنّع. تتّخذ حركة الكائنات حدّة غير معهودة وكأنّه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالآدميين من شبق. يعرّي الصيف الأجساد أو يفتعل تغطيتها لأنه هو- لا الربيع- موسم الإغراء والحبّ. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترحّب وتتمنّى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شكّ أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- «ما»، أنا متأكّد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم :

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكدّ.

يجمع الصيف حوائجه متأففا من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخريف مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتثل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تدثرّت بالأوراق الميتة سمادا لتجدّد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة لنخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيها دوما حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصيّاد رصاصة الموت. تمتلئ السّماء بأشلاء بقاياها وببقايا أشلائها. تتحرّك نباتات بأغصانها المحمّلة ورودا حمراء كأنّها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح . تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتثّني. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صفيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردّد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبّة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلّم الأبكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الآذان ؟ من يحرّك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الرّيح ؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء ؟

يصرخ الطفل : «ما»، المطر، المطر، المطر!

حتى يتواصل فيك انتباهه، اخرج للعاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنّك أنت الذي دوّت الطبول تدعوه للترحيب بالرعد. افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمّل- عبر ومضات البرق الخاطفة- ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال. لا تغفل عن متابعة تشكل نهر من نور يقسّم فجأة سقف السماء إلى جزئين. إنّها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا من قنطرة فوق شرخ النور والنّار. اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلّل بين الثياب والجلد. تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألذّ قشعريرة. أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى. وهناك في أعمق أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم. شيئا فشيئا تتباعد الومضات، تضعف الزمجرة، يتباطأ اللّهث والصفير. تستعيد الكائنات الهيفاء وقارها. تنتصب من جديد ترنو شاخصة إلى الأعالي. تكفّ أذرع الإخطبوط النباتي عن صراع مع حيّ غير مرئي. يعود حفيف الأوراق همسا لا يكاد يسمع. تستعيد الملامح العابسة إشراقها المألوف. تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء لتقول إن فانوس النهار لم يعبأ كثيرا بهذا اللّغط. تعود السّماء لصمتها على استحياء كأن الزعيق الذي ملأت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمت التعالي. تخرج الطيور من مخابئ لا يعرفها أحد. تسترجع الكائنات المتحرّكة رغبتها المحمومة في الحركة. تطلق عقيرتها بالصراخ لتعوّض ما فاتها لمّا فرض عليها دويّ الطبول أن تخرس إجلالا لقوى ممنوع حتى الهمس في حضرتها.

يتسلّق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج. إنه قوس النصر مرفوع بلا أعمدة، يمشي تحته الآدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد. ثمّ يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سبّورة السماء؛ لا تريده- لسبب مجهول- علما ثابتا كالشمس والقمر.

نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء ؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلكأ حبّات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوّة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفقدة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاسي كما يقولون ؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتخمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟.

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

حتى لا يتعطل الكلام، يبادر الطفل أمه بأول سؤال يتدافع على لسانه :

- «ما»، طبعا الفصول الأربعة إخوة، من أحبّهم عند أبيهم ؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستفزّ يوما فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تفاديا اتخاذ أي موقف، الأول مكتف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّا في أذن الربيع : أنت الأوّل وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الصيف:

اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء : أفضلهم أنت وثلاثتهم وراءك.

إنها دائرة الزمان التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرّر نفسها بثبات عبثي مملّ، وقد تكون الشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهاية أن تكون بداية لمشروع عنيد بالغ القدم على الدوام جديد.

* * * * *

الدليلان

تورّق الذاكرة الملفّات المخصصة لأول من نعرف من البشر، فتتدافع صور عديدة لأناس أدرك الطفل باكرا أنهم ينقسمون إلى صنفين : الأقارب والأغراب. لنبدأ بتفحص ملف الصنف الأول، وهو ملف مكتوب عليه بالخطّ الأحمر الغليظ مقولة كان "با" يردّدها ولا أحد يعرف إلى أي مدى كانت تنمّ عن قناعة، أم كانت تترجم لغضبه المتواصل على الآدميين :

«الأقارب كالعقارب فاجتنبها.
فكم عمّ أتاك الهمّ منه
وكم خال من الخيرات خالي».

الحكم على الأقارب و الأباعد سابق لأوانه، ونحن في بداية هذه الشهادة. لنركّز على تفحّص الصور الصفراء للألبوم وأهمها لرجلٍ طويل، نحيف، حفر الزمان في وجهه من تجاعيد الألم أعمقها وأعقدها شكلا، يمشي دوما مرفوع الرأس، واثق الخطى، يحفّ به وقار هادئ، حاملا مسحاته القصيرة المحدودبة وكأنّه يحمل سيفا ، عائدا من "الغوط" حيث أمضى يومه في تعهّد نخلات عجاف.

يا ما سمعت "ما" تردّد قصّة وصوله بيتنا ليلا قادما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف نام تحت حائط المنزل والبرد على أشدّه، وكيف عاتبته على فعلته لمّا اكتشفته عند بروز الشمس مقرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنّه خاف إرعابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر. هذا الرجل كان أبا لشخص يصل البيت في آخر هزيع من اللّيل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمثلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبّلوا كتفه الأيمن ويحمدوا اللّه على عودته سالما. ثم يأمر "ما" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزبد لتلكّؤها.

كيف لا يواصل الكهل محبة الطفل لجده وهو الوحيد الذي مدحه بقصيدة عصماء لا يقدّر أدبنا المسكين عمق خسارته بفقدانها، إذ لم يبق منها إلا البيت اليتيم الذي حفظته ذاكرة الأخوات والعمات الكسولات :

المنصف زي الشهد في القرجومه (الحلق)
يعلّيه ما على السماء ونجومه

كان يواجه دوما كل ما تتفتّق عنه مخيّلة الطفل من أنواع الشقاوة بابتسامة تقول واصل ولا تهمّك اوامر الزجر. لكن الأمر بالصمت كان صارما لا يقبل جدلا وهو يجلس لترتيل جمل من كتاب أصفر رثّ من النوع الذي تخفيه "ما". هكذا تعلّمت- وأنا لم أتجاوز الرابعة- أن عليّ أن أصمت حين تحضر القراءة. أذكر أنني كنت أغافله وهو يبدأ حركاته الغريبة وقوفا وركوعا وسجودا وجلوسا لأفتح كتابه هذا أورّق الصفحات ببطء، ثم أبدأ الترتيل بلغة لم يسمعها من قبل جن أو إنس، ولن يفكّ يوما رموزها عالم لسانيات، وكلّي أمل أن تتواصل حركات الشيخ إلى ما لا نهاية حتّى أواصل لعبتي. كم كنت أحبّ مرافقته في أوّل هزيع من اللّيل، خاصة في تلك الفترة الرّائعة من السنة المسماة «رمضان»، إلى حيث يلتقي الشيوخ لمواصلة الترتيل والأطفال لمواصلة اللعب. وفي ساحة ضريح جدّ الأجداد الذي كان أول من حطّ الرحال في هذا المكان، كنّا نمرح بانتظار فراغ الكبار من صلاتهم، وكان الرهان الاستيلاء على قطع النقود التي ترميها العجائز فوق قبر الوليّ. كان الشيخ يخرج عند انتهاء التراويح من حلقة الشيوخ، يأخذ يدي برفقه المحبّب ميمّما الحوش نقطع كثبان الرمل، والنجوم هي التي تضيء لنا الطريق ، تكثّف الصمت داخله وداخلي. لم أعرف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرةٍ من رأيتهم يفتعلون أمرا كان عنده فطرة وغريزة.

وفي ملفّ من أقدم الملفات، ينكبّ هذا الآدمي على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن «ما»، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- صيف الصحراء والحصباء- يا بنتي- أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم إلى أهلك في الشمال على مسؤوليتي، وسأبلغ ابني بقراري وسيقبله وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

وفي قرية «ما» يستطيع الطفل مواصلة استكشاف عالم دوما أغرب مما كان يتصوّر. ينتبه للفرق بين الامتدادين وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا. إذن هذه هي الأرض التي تتحدث عنها «ما» بخشوع مردّدة أنها الأم الحنون التي تعطي أطفالها لبنها ممزوجا بالعسل، شريطة أن يتعهدوها بالعناية والحب.

أمّ حنون! أحيانا...جلّ الوقت زوجة أب تقايض القليل الذي تعطي بالأقصى من الدم والدمع والعرق.

تغمر الطفل روائح العشب والزهر فيصاب بشيء يشبه السكر. هل ثمة رائحة أطيب من رائحة الأرض بعد المطر ؟ حقّا ما أروع بلاد «ما»! هي لم تكذب عندما كانت تمنيه بها وتنهاه عن الإفراط في حب الصحراء. يتوقف أخيرا عن الركض، ثم يعود للنط والرقص وقلبه يقرع في الصدر كطبل العيد. يسقط بجسده المشدود بكل عضلاته على أديم الأرض مستلقيا على بطنه.

وككلّ طفل، سنراه يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا داخلها عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين أمثاله . لا شيء من هذا القبيل، وإنما قطرة ندى مكوّرة شفافة بقيت عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء. يخرج الطفل الأزلي لسانه بشديد التأني يدفعه باتجاهها علّه ينجح، على صغر حجمها، في التقاطها بذبابة اللسان. لا ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. آه، العشب! يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ- محاذرا ألاّ يستعمل يديه- برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل. كلا، لا شيء في مذاقه يثير الرغبة في مواصلة الأكل. يبصق ما في فمه وقد قرّر أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز بالتمر. ثم يتجه ببصره للسماء مستلقيا على ظهره يتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات.

الاكتشاف المذهل. سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقاه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض. ها قد داهمته من جديد بعض هذه الأسئلة التي تلاحقه مذ وجد. أين يفرّ السحاب ...هل ثمة جن وعفاريت تركض وراءه تريد به شرّا... هل من وسيلة ليجلس فوقه يأمره بحمله إلى حيث يريد؟. يتسلل الهدوء إليه شيئا فشيئا فتثقل جفونه بالنوم غير منتبه لعصبية امرأتين تتحركان بقلق متزايد بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

تصرخ الجدة في ابنة متقطعة الأنفاس: تعالي، هو هنا راقد. خذي بالك دوما منه، إنه سيرهقك كثيرا.

تفتح الذاكرة ملفّ جدة كانت في بعض الأحيان أحب للطفل حتى من الجدّ بل ومن «ما». وفي أقدمها تجلس العجوز المرحة على الدوام على الحصير البالي تعدّ الشاي وهي في قمة السعادة بعودة ابنتها وبرؤية بعض من أحفاد أرهقت كثرتهم ذاكرتها فبقيت تخلط بين الأسماء إلى نهاية العمر.

كانت أم «ما» فارعة الطول، ثرثارة، مرحة تبرز من قريتها لتفقّد أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بالخيرات التي كانت تحملها، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها. تتصاعد من جمرات الكانون رائحة احتراق قطع خشب تقول الجدة أنها جاءت من أرض النبوة ولا أنجع منها لإبعاد الأشباح والجن. كانت تخرج علبة معدنية صغيرة تفتحها بمنتهى الوقار، تتناول منها مسحوقا أخضرَ داكنا تمسكه بين إصبعين ماهرين، ترفعه بتمهّل إلى أنفها لتستنشقه بلذّة واضحة. يغافلها الطفل ليسرق بعضا منه يدسّه في أنف فيباغته الالتهاب والعطس.

تضحك الأمّ وأم الأم إلى أن تستلقيا على الظهر ثم تتسابقان لتقبيل الطفل الغاضب. إلاّ أن ما كان ينتظره بفارغ الصبر هو أن تنزع الجدّة المحبوبة عن رأسها وشاحا بالغ القدم تعتمره وتتدلّى ذوائبه على كتفيها تخفي في طيّاته كنوز الأرض قاطبة. كانت تفتح عقدة في هذا الوشاح، تخرج منه قطعة نقد هي ضريبة تتخلّص بها من طفل مشاكس تحبّه وتضيق ذرعا بكثرة شغبه. كان الطفل يلتقط القطعة أو قل يخطفها مطلقا ساقيه للريح وكلّه مشاريع حول ما سيشتري بها من ملذات الدكّان القريب، تاركا نصيبه من الحلوى تحت حماية المرأتين، عالما أنه يستطيع الثقة بهما... في مثل هذه القضايا على الأقلّ. ثم كان يركض مجدّدا للجلوس بالقرب منهما على الحصير الخشن مصيخا السمع لحديث هامس عن فـــرَج آت لا ريب في الأمر. تصرخ الجدّة في الطفل الهائج وقد نفد صبرها من ضجيجه ومن إلحاحه بخصوص موعد حضور الرجل، ولماذا سموه «فرجا»، وماذا سيفعل في بيتنا عندما يصل.

– إن لم تكفّ هرجك فإنَّ العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما سترى.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما هدّدته عمّات وخالات بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سليطي اللسان. العبيثة ! الكائن الذي تتجمّع فيه كل شرور البشر وكل تهديدات الآدمي للآدمي الآخر.

يتوسع عالم الطفل لكائنات موجودة لكنها أصعب اكتشافا على البصر حتى من أفاعي الصحراء. لم يبق عليه إلا تخيلها ورسمها ليخفّف من خوف مداهم.

– «ما» من أخطر ؟ العبّيثة أم الأفعى ؟

– أولاد الحرام.

– أولا د الحرام ؟!

تصرخ الجدّة ضاحكة تريد تدارك زلّة لسان ابنتها :

– اسمع بقية قصة البارحة، لكن كفّ عن القفز على هذا السرير. إذن: وقف علي بابا على باب الغار.

ذهن الطفل الآن مشغول بأولاد الحرام أكثر مما هو مشغول بالقصة.

العبيثة

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونوا أخطر من العبّيثة ؟

يغمض الطفل عينيه، يترصّد قلقا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يتعمّق صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها. يغرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يصدر الباب صريرا ويتحرّك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هرّبها معه للفراش ملء راحته

والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم؟ أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجارتك دوما في الجيب.

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة :

– ماذا تفعل واقفا في الظلام ؟ أي عبّيثة ؟ آه، العبثية، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنّا. أمّك ساهرة على الباب، سأترك لك النور.

يتنفّس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنّه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل «با» جنّا أو إنسا وأنّه سيشجّ رأس العبّيثة بحجارته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجئا لفراش أم تقرّر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

فرصة ثمينة لمواصلة الاستجواب والأم لا ترفض شيئا لطفل مختبئ بين ذراعيها يرتجف من الخوف.

– "ما"، إذا كان لك أمّ فلا بدّ أن يكون لك أب مثل "با". أليس كذلك؟

– طبعا يا حبيبي. أنا أيضا لي أب، إنه جدّك وهو زوج جدّتك مني.

– لماذا لم يأت لاستقبالنا. هو أيضا في السجن؟ هل سيأتينا بعد إطلاق سراحه؟

– لا يا حبيبي. سافر جدّك إلى جنة الخلد قبل سنتك الثانية.

يداهم الطفل شعور مزعج أنّه يكلف هذه المرأة ما لا تحبّ. أليس من حقه أن يعرف كل التفاصيل عن هذا الغائب الآخر؟ ما سبب ذهابه إلى «الآخرة» و كيف كان شكله وطوله ولباسه وطبعه لوضع بعض الملامح على الوجه الغائب الحاضر.

– وماذا أيضا ؟

– كان يلبس برنسا أبيض ويضع في عبه الحلوى التي يأتي لك بها خصيصا.

– وماذا أيضا ؟

– كنت تضع يدك مباشرة داخل العبّ لأنك تعرف أنه زاخر بما تنتظر.

إذن هذا الشبح الذي لم أره قطّ هو الذي علمني ألا أدخل بيتا فيه طفل إلا والحلوى ملء جيوبي. كانت هذه لمسته في تشكيل ذات عركتها من الأيادي ما عرفت وما أجهل.

– وماذا أيضا ؟

– يا بني، قلت لك كل ما تريد سماعه عن جدّك.

كلّ ما يريد سماعه! لا يبقى على الطفل سوى استدعاء العجوز في المنام ليقول له هو مباشرة ما كان بأمسّ الحاجة لمعرفته.

أواجه الرجل الذي لا شكل له ولا ملامح، فإذا به ملاك ملتح مغال في الوداعة والطيبة ملتحف ببرنسه الأبيض. لا أقبّله، لا أرتمي في أحضانه، ولا أتركه يلاعبني ويدغدغني. لا أقبل منه أن يناديني بأحلى الأسماء، بل أرفض أن أمدّ يدي إلى برنسه لأجد المكان الذي

يخبئ فيه الحلوى. ها هو ذاهل أمام سيل من التهم يفاجئه بها طفل شيخ تقاذفته موجات الزمان وأخرجته من التتابع المألوف للقصص.

– كفى تهريجا وتمثيلا أيّها العجوز، لا أريد حلواك وإنّما أن تقول لي ما نحن بصدده. هل اتّفقنا على أن الغياب أهمّ قواعد اللّعبة؟ أم هل غافلتني فأضفت هذه المادة السمجة تظن كل قصة بحاجة إلى عقدة ؟

يتعمّق صمت الشيخ ويهدأ غضب طفل لتعود القصّة إلى نسق التتابع المألوف.

تتسارع النسوة لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين مريضين.

– آه، هذا هو الكبير. «الله يخليه لك». نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحمّت على عبد. «الله معافينا». يا لعينيه! كأنه يقرأ في الأذهان، ما اسمه ؟ لكنه ليس اسما من أسمائنا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمّنا بملكنا الطيب!

أي مسار كانت تتخذه الرحلة لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محملا بتعليمات وأمانٍ صامتة غير التي حملها الاسم الذي فرضته «با لمتابعة ملحمة بطل اختاره هو ليكون النموذج لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار.

تتنهّد جارة بصوت عال. تهمس في أذن «ما» لا تعرف أنني أفتعل النوم:

– يتيم الأب يتوسّد الركبة ويتيم الأم يتوسّد العتبة.

تردّ عليها «ما» بحدّة.

– أبوه حيّ يرزق وسيعود قريبا.

يثب الطفل من الحضن صارخا :

– لا أريد أن تموتي، أتسمعين ؟ إذا متّ لن أكلّمك أبدا!

تجمع الجارة حوائجها تتلعثم ببعض عبارات الاعتذار لائذة بالفرار.

تحكم الأم ذراعيها، تمسح الدمع المتهاطل من عينيه ومن عينيها:

– اطمئن. لن أموت، هدّئ من روعك.

– و"با"... هل... هل مات؟

– يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.

– إذن لماذا لا يأتينا أبدا. ألم تقولي لي انه بانتظارنا هنا؟ لماذا تركنا جدي والصحراء ؟ لماذا جئنا لهذه المدينة البشعة ؟ لماذا يتركنا وحدنا دوما هنا أو هناك؟

– يا بني إنه مطارد ...وله كثير ... ممن يريدون به الشرّ.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها.

يعلم أن أمه تخفي عنه سرّا له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهامس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنا أو عفاريت، إنما بشرا كالذي يعرف، لكنهم، لسبب يجهله، يريدون الشرّ به وخاصة بـ«با».

يا للطفل المسكين لو علم موعده معهم تلك الليلة!

يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تتشنج يدا الدليل الذي لا ينام إلاّ متحفّزا حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب : نحن أصدقاء الأب، بعثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدّة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلّمكم إيّاه. يتردّد زوّار اللّيل. يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تنشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جثّة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفّع أبرياء ثمن أفعال الآثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أياما عند الجيران.

تقبل أخيرا نصائحهم وقد فهموا كم تتأرجح على هاوية بلا قرار فتدخل علينا امرأة قالوا لها أنها تعلم الغيب وتعرف تعرف يوم رجوع "با". تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوّنة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلاّ في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنّة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق .

– خفّفي عنك يا عزيزة. ما ثمّة إلا الخير.

تنطلق "الدقازة" في خطاب لا يفهم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.

– وهذا الطفل ؟

– انتبهي، إنّي أرى عينا شرّيرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تتهدّده!

تعود الأسارير إلى تجهّمها.

تتدارك «الدقازة» ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

– لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبيّ. ضعيها في كيس صغير واربطيه حول عنقه. لا تتركيه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمّام. إنهم يريدون به وبوالده شرّا عظيما، قبّح الله سعيهم.

– قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصيبة.

- قلت لك : لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا فتى حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.
يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلاّ بعد عقود ردّها الواجم :
- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني بعض ما أحتاج وأعطيها بعض ما تحتاج.

*

الأغراب لحدّ الأن في ذهن الطفل كائنات خطرة تسميهم «ما» أولاد الحرام وكائنات مزعجة مثل جلّ الجيران أو كائنات طريفة مثل الدقازة تتحيّل علينا بالأماني والوعود الكاذبة مقابل آخر درهم في البيت.
ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه «ما». تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها:
- أبوك في مكان لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء... هذه الليلة فقط..جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون و كلّ ما تحبّ..
تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها... ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: «ما» لست جائعا. وأقسم لك برأس «با» أنني لن أجوع أبدا، أبدا، أبدا. تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كان بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجر الضحك. تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتلّ على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخا وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى:
- «ما»، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ الوجع الذي في بطني.
تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدور وصفير الثعبان يرمي بآخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش. يلقي ليل بهيم محمّل بتهديدات غامضة بكلكله على امرأة وطفل سيبيتان هذه الليلة (وكم آدميين آخرين) على الطوى.
لا شيء مأساوي في كل هذا، والكائنان مختبئان داخل مغارة دافئة مخفية في أعماق الذات يضيئها نور ساطع ثابت دافق اسمه الحب. النوم أنفع ضدّ المغص من الماء. تتخلل أحلامه صور لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا مرأة عجّلي؛ ابني جائع. فجأة يشعر بأمه تهزه ّوبها شيء كالجذل: هيا. انهض. الجارة- جازاها الله ألف خيرا- أتت لنا بقفة فيها ما يكفينا لأسبوع، وبعدها يفتح الله. آه إذن ثمة جيران...
يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفطور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما فطور. تلتحق بهما نسوة الحيّ. جئن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط مدينة صغيرة أفاقت على حصار الدبابات.
فصل جديد من الصراع الأزلي بين الآدميين وهم دوما في صراع على مبتدإ الخبر ومنتهاه.

الموضوع الآن ليس هذا الصراع وإنما طبيعة العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير. هو مختزل في جدة وأم وخالات وعمات وجارات وكلهن يردن تقبيله واللعب معه أو قل به . عالم انثوي بامتياز بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقّة ونعومة وليونة وطراوة... عالم سكري المذاق، مشبّع بالألوان الصاخبة، بروائح البخور والطيب... عالم يبعث فيك الدفء والاسترخاء واللّذة وشعور الأمان... ثمّ- سريعا- الاختناق. تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفّ كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرّك البطيء، ليحتدّ ما هو خافت، ليكتسب المكوّر المستدير أضلعا حادّة. لا تعجل، يا فتى . يوم تعركك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتدّ الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلّل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمنّي النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحور العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها . لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجها .

*

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا. ها هو مرابط اليوم بطوله أمام المحطّة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسودَ كثيفا. كم كان يحبّ رائحته الخانقة تعده برائحة عطرة لطربوش أحمر بذوائب سوداء! ألم تقل له "ما" أن «با» سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحّص الطفل الآدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه و لا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً. يعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس دامع العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب.

لا ينفع توسّل "ما" ونهيها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم، ولا تزيد إلا الطين بلة والطفل يتعلم تصرفا جديدا وهو ينفّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يولّد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما. ترى، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الآدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرّد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار ؟

تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا.

لا يزيد ذلك الطفل إلاّ غيظا لا يعرف لمن يوجّهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم. تغلبه حيويته. لا بدّ لكل مشكل من حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو– هذه المرة– عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجه من لا صورة له ملامح وعلامات. لم لا يكون هذا أيضا حل المشكلة؟ ألم نصنع أساطيرنا وعلومنا وأدياننا بهذه الطريقة، نضع على الغائب الأزلي اسما وصفة، نتعلم انتقاء الحلول التي تلائمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمنا صحتها؟ ثم يعاوده الغمّ. لا أحد من آبائه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلقى منه إلا الصدّ والزجر. ينتهي الطفل بالإقرار بعبث طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أوّل إضراب له... ضدّ من ؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداعي، مصمّما ألاّ يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل... وما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البتّ في القضيّة.

تقترب الأمّ من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلّة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الآدمي الذي يتحرك دوما وكأنّه مصنوع من الضباب. ترتفع يد الأمّ ببطء شديد. يخيّل له لحظة أن اليد بقيت معلّقة في الفضاء، أنّها تتردّد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعجه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلّقة. كان لا يشعر بالأمان إلاّ واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنّه– على صغر سنّه– صنع من خشب جفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر «ما» راحتها عليه بمنتهى الحنوّ. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

– ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب ؟

– ليظنوا ما شاؤوا، أريد «با» حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

– لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير فرحا عند مجيئك ؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شكّ أنّه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطّع الأنفاس، آخذا القادم الجديد بين ذراعيه وكلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنّه لم يتكلّف من العملية إلا أسهلها. كأنّني به يتنفّس الصعداء وهو يتأكّد أنّ القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ

فيها على مهدي وقد تملّكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول عيوب الرجل وقلة أهليته للمهمة. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامّة وأن حديثا بشفرة «المورس» أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل باستراق المكالمات السرّية.

– ما هذا الدليل ؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات :

– نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

– قلت : لا أريد هذا الدليل. سيتركني. غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه.

– نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

– النجدة !

– نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

– الرحمة !

لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون الدليل.

أتخيله، وأنا ما زلت أتفنّن في إطلاق صرختي الأولى، آخذا بزمام الحديث عجولا، نافذ الصبر، متوتّر الأعصاب، مستنفر الحواسّ، كأنه داخل أو خارج لتوّه من صراع مع ما حملت الأرض من كواسر.

– انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدّار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. ! هيّا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيّع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين.

– «با» : لو تزحزح جنابكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلاّ ظهركم الموقّر.

– وفي هذا العالم اللّعين، يجب أن يكون سلاحك دوما مشهورا في وجه من يعضّ باليد اليمنى و باليد اليسرى، سوطك مرفوعا في وجه من ينبح. وفي هذا العالم اللّعين، يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلّمك ما يجب أن تتعلّم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظّ أن أكون له أبا. لا أسمعك تنشد : «أين في الناس أب مثل أبي» !

– اسمعني أنت ولو مرّة.

– وفي هذا العالم اللّعين، يجب أن تكون صيّادا حتّى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الآدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. وفي هذا العالم اللّعين، حذار من الأدلة المزيّفين، يقودونك إلى صحارٍ بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف فليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق.! احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أي ضربة حظّ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبّر أمرك وكن جديرا بي. آه، يا طفلي الحبيب حقّا أين في الناس أب مثل أبيك!.

– رحماك أسمعني لحظة! توقّف، توقّف!

لكل هذا ولأمور أخرى ستبقى مجهولة إلى الأبد، حكم على طفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار، وأن يعتصم بالشارع جالسا هو وأمه على عتبة الباب يأمر الله والعبيثة والجن والعفاريت وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه– ككل الأطفال– من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

تواصل الأم مناورة التهدئة:

– تريد الآن بقية قصة البارحة ، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له أنه لن يحارب لأنّ...

– لا، لا عنترة ليس جبانا.

– انتظر البقية...

– لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثمّ يعود للصراخ:

– أريده أن يأخذني لحمّام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

– سيأتي وستذهب معه لحمّام الرجال لأنك كبرت فعلا .

– لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن.

– تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

– قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

– إذن سننتظر سويّا.

لنغتنم فرصة الصمت الثقيل، المرفرف على الطفل الغاضب وأمه المتزايدة حزنا لإلقاء مزيد من الضوء على الدليل الأنثى لا لشيء إلا لأنه نادرا ما يتخلّى عن واجباته كالدليل الذكر.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبّدا له وتبرّكا! على مرّ العصور أوما أمّ الكون، وسدنا أمّ

الحيوانات، وقايا أمّ الحياة، وعشتار أمّ الحبّ، وارشكيجال أمّ الموتى، وإيزيس أم الربيع، والعذراء أم المخلّص! كيف لا تعترف أنت الآدمي (أي أكثر الكائنات نكرانا للجميل) ببعض الجميل لكائن هو المغارة السحرية التي اختبأت داخلها تستعد وتتأهّب للموعد المثير؟... هو الجسر الذي حملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود؟... هو السفينة وأوّل مرفإ تنزل به؟... هو مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات؟... هو متعهّد الخدمات اليومية، ناهيك عن كونه أول مرآة تكتشف فيها ذاتك. أين لك خادم كهذا الخادم يؤدي كل هذه المهامّ لا يستقيل ولا يتهرب ولا يطالبك يوما بأتعاب متخلّدة بالذمّة وببقشيش الساعات الإضافية التي يحرّمها قانون الشغل! أنه لنا أساطير لا تحصى عن قتل الأب، لكن ولا اسطورة واحدة تجاسرت على تخيل قتل الأم. طبعا الأمر ليس صدفة.

عيبه الأكبر هذا الكائن العجيب أنه لا يوجد منه إلا نسخة واحدة. لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلاّ وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمّك؟ لا صدر حنون أضع عليه رأسي المثقل بهموم السنين إلاّ ويقول لي صوت جرسي نافذ الصبر: وهل تعتقد أنني أمّك؟ لا أتمنى بعض ما كانت تجود به الأمّ دون حساب إلا ويعوي نفس الصوت: اذهب، ابحث عنّ أمّك عند غيري. آخر ما سخروا به منّي لافتة قاعة الاجتماع: «اغسل فنجان قهوتك يا هذا، فأمّك لم تعد تسكن هنا من زمان».

أعود لصور «ما» في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتذالا. هل من المعقول أن...؟ كلاّ ثم كلاّ. تستوقفني سرعة الرفض وعنفه. تقرع داخل ذهني أجراس الخطر. ترى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما «الطابو»؟ ثمة شوائب لا يخلو منها كائن؟ يا ما تعلّمت عن الآدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم؟ كم منهم يتقدّمون كأطهار وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة؟.

تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد، بالغة الغموض، بالغة الحرج، فيها غيرة باهتة وحرج متوارٍ وإنكار ساذج أن يكون هذا الآدمي ضالعا في أمور فيها سوائل لزجة ودماء متدفّقة وجلد ولحم وأنّات لذّة وأنّات ألم، وأن تكون الذات نتيجة كلّ هذا. ماذا أيضا عن بعض أحداث صغيرة أخرى لا تتماشى مع صورة القديسة. لا أكره لديّ من أن أكون متعبدا أو أن يصوغ ذاتي صنم حتى ولو كان صنم "ما".

تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعزّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجافّ.

- كانت... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحيانا... تضربني.

ما العيب في أن تفضّل أم أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتزّ إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من عليائه والتهشّم إلى ألف قطعة. ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا آدميا بنواقصه على التعلق بصنم طلي

بريقه بالذهب المزيف؟ قاعدة لا يحسن تجاهلها إذا أردت فهم الآدمي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه الأظلم، وإن واجهك بسحنته المكشرة ابحث عن النور المطمور داخله. حتى الأمّ الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.

ثمة تماثيل تبدي فهما لطبيعة دليلك الأول. تتأملها من جهة فترى وجه كومار ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت كالي تنظر في وجهك مكشرة ومهدّدة تتلوّى راقصة على جسد طفلها المرمي تحت قدميها وقلادة الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها الأخطبوطية تتدلى رؤوس تقطر دما....إنها نفس الأمّ لكن الأسنان مثبتّة في أشداقها كخناجر الجزّار.

تقول كفى هذرا. هذر! يبدو أنك لم تضع مثلي أنفك في خبايا العائلات وما يفعله بأطفالهم نوع من الآباء ونوع من الأمهات. لا يقدّر الطفل- إلا وقد أصبح كهلا- أن كالي بقيت طوال الحياة مخفية في أعماق «ما» لأن كوماري كانت أقوى منها. تصوّر ما كان ينتظره، مثلما حدث لأكثر من مسافر تعيس الحظ، لو كان العكس ما شاءته الأقدار!

عفوا ، غيرت رأيي ، لا داعي أن تتصوّر.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخانقة. تجد المرأة الذكية مخرجا سيحفظ ماء وجه الطفل و يقيها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

– لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك اللّيلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. الوجه المرعوب المرعب الذي رسمه ادفار مونش يغرق في بحر من الدم. دمي. تضيع صرخته الصامتة في فضاء مبهم. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفّر وحش أسود صفير الرحيل. تبصر أم مطلّة بحنوّ فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تنبسان بكلمة واحدة. هي تعلم أنّ اللّقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق نهائيا ليذهب كلّ في حال سبيله.

* * * * *

انقشاع الضباب عن الأفق

يشعر الطفل النائم بوجه جاف خشن التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس صاخبة تأتيه من تداخل الكلمات والضحكات وروائح العطر والتبغ والعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود. قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلّبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة لتستجيب للشهوة الجامحة.

تهمس الأم :

– ألم أقل أن لك موعدا قريبا مع أبيك ؟

يصرخ الأب :

– يا مغفّل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدّك.

– ونأخذ «ما» معنا.

– أمّك لا تحبّ واحتنا وشبعت من الصحراء.

– أذهب وأترك أمي !؟

– الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وإن لم يرحل.

تسرّ «ما» في أذن ابنها أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمّه.

إنها الخاصية الرئيسية لكل طريق يحترم نفسه ويحترم مستعمليه .

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدّئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق. تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت عده لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدقّ تفاصيل الملبس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسّر الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاخب بآخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا .يفتعل «با» الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

– كفي يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضيّعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضيّع وقتك أنت ننفق منه ونبذّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلمّت أن أبعث لمن استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذّره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضّة. تنفتح أخيرا قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. وعلى رصيف المحطّة، والفجر في أولى وعوده، تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات.

– «با»، هل هناك آدميون في الأماكن التي ذهبت إليها أم هل هي مسكونة بالعفاريت؟

يتنحنح الرجل مستعدّا لإلقاء الدرس على طفل لا صبر له على انتظار الجواب.

– هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟

يجيل «با» البصر حوله بعصبيّة مشيرا للطفل بغلق فمه.

– إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟ هيا نقتلهم. هيّا.

ينقذ وصول القطار "با" من خطر نظرات فاحصة ومستغربة، و ينقذه أكثر أن ابنه غيّر موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه.

ينسى الطفل– وهو لأوّل مرّة في جوف الوحش الأسود– ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه. يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أي آلة إلاّ وأنفه فوق الزجاج. يتحرك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهن أمام أنوفهنّ ضاحكات متأففات. تتسّع حدقتاه وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبأ أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الصراخ المتصاعد داخل العربة المكتظّة إلى هوايته القديمة: التفحّص. عدد البشر أكبر مما كان يظنّ، ترى كم هم؟ سيسأل "با"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوا بها أبدا. يومها شعر بفخر عارم بأبيه...فخر لن يفارقه أبدا.

كان "با" مقتنعا أنه نزل خطأ في غير الزمان الذي كان مبرمجا له وفي غير المكان الذي كان عليه أن يصل وأن الترحال مصيره لأن قدر "النفيس أن يكون غريبا حيثما كان". كان

الحلّ والترحال عنده حاجة ضرورية قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوما على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتا وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له:

«تغرّب عن الأوطان في طلب العلا **(الشافعي)**

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهمّ واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الأسفار ذلّ ومحنة

وقطع الفيافي واكتساب الشدائد

فموت الفتى خير له من بقائه

بدار هوان بين واش وحاسد»

ربما كان على حكيمنا إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين ؟

تلتقط أذن الطفل مقاطع من كلام هامس لوالده حول شيء اسمه «الوطن» ومحنته. ثم يعود للتركيز على نافذته متعجّبا من إعراض الناس عمّا يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوما كل المسافرين، أنّه سيجلس يوما مثلهم غير مبالٍ بغروب شمس أو بطلوع قمر. يستحوذ على لبّه التغيّر البطيء، والثعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراض موحشة غبراء اللون تميل- كلّما تقدّم الركب- إلى حمرة قانية. تغرق المناظر العجيبة شيئا فشيئا في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمرا بالجلوس أو الأكل. أخيرا يتوقّف الثعبان الأسود عن الصفير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يشعر الطفل باستياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار متثاقل الخطوة، يحرّك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار.

- «با»، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبيت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزل. أنا ميّت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرّها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسبّ والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلّما هوى السوط وكأنّ ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أنّ بوسع الثعبان الأسود الجري نهارا كاملا لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التثبّت من الأمر.

– وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جدّا جدا؟

– لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بنيّ.

– وهل ستسافر إلى كلللللل أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

– لا، لكنّني أحاول.

– سأحاول أنا أيضا؟

– وهل أمامك خيار آخر؟

يتهالك الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله صهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطير.

ينهض صارخا هاربا من السوط، يهزّ الدليل النائم جنبه:

– استيقظ و إلا فاتنا قطار الصحراء.

– لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:

– استيقظ، سيفوتنا القطار.

– ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:

– استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.

يثب الرجل رافعا كفّه. يفهم الطفل أنّه في خطر. يسلّط الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثمّ ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدّد.

– اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟

يجرّ الطفل دليله المندهش يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.

– هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.

– لا قطار هنا!

– سنركب آلة أخرى أصغر اسمها «الحافلة» وستعجبك هي الأخرى.

– هل فيها نوافذ؟

– نعم.

– هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟

– تماما.

– أريد المقعد الموجود قرب النافذة.

– هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.

– سأقول ل"ما" انّك أردت أن ترميني من النافذة.

– وأنا سأقول لها أنّك أخرجتنا من النزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنم قليلا عليك اللّعنة.

– وأنا ماذا أفعل؟

– نم.

– لقد نمت.

– لم تنم بما فيه الكفاية.

– بلى.

يشعر الطفل بتجدّد الخطر ثمّ بانحساره السريع و المحطّة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.

– ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟

– نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقت.

– في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!

يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ.

– أريد أن أراها.

يسقط في يد الرجل.

– تعال، عليك اللّعنة.

تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجرّ الدليل.

– لا أحبّ هذه المدينة.

– ألم اقل لك أننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.

– أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.

– إنّه بعيد من هنا.

– البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.

– إذا ذهبنا إلى البحر فاتتنا الحافلة.

اختيار صعب جديد.

– هل سنرجع من هنا؟

يتنفّس الرجل الصعداء.

– أعدك أن آخذك للبحر عند رجوعنا من الصحراء.

– أريد فطيرة.

– كلّ ما تريد.

– الآن...الآن...الآن!

– نعم الآن. الآن، لكن كفّ عن النطّ والصراخ.

– بالعسل؟

– بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف «سخطة" على رأسك من فوق.

أخيرا الرحيل. يتكدّس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له «با» بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق. يحار لبّه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

– لست مطالبا بالوقوف طوال السفرة.

– لا أحبّ الجلوس.

– افعل ما تشاء.

– لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟

تدوي قهقهة الأب.

– ستتعبني كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبّة.

تصل الحافلة قرية تتلخص في شارع مغبرّ تتكدس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات «با» عن المكان وحمّاماتة الطبيعية العجيبة التي تبرئ بمائها الفوّار كل الأمراض. ثم تغوص الحافلة مجددا في المبهم الممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

– انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير».

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء وواحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

يجذب الطفل كمّ أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه «با»: هذا جمل يا جحش، وليس حصانا.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألاّ يعرف بدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان ال نعم، هو يعرف أن اسمه «الجمل» ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأغبياء... وخاصة يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا عىى جرح بسيط وحوله العالم بكلللللّ غرائبه.

- «با» انظر. انظر!

- إلى ماذا؟

- لساقيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرّك.

يضجّ الجمع مجدّدا بالضحك.

- إنّها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد اللّه أنّها تصل بنا.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر!

- اللّعنة على هذا المغفّل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟

- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟

يلتفت «با» إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

- الحرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقّى لي من عقل.

يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقّفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنّهم رفضوا الانتظار. يفاجئ الطفل خوف مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

– اسكت، يا مغفّل.

يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمعَ صمت متجهّم. يأتي الطفل لأوّل مرّة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعالم. تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي بسلام. تعود الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى النفوس. يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل: إنّها بركة هذا البريء.

– «با»، أين جدّي؟ قلت أنه سينتظرنا عند باب الحافلة.

– أعدك أن هذه القرية آخر محطة قبل الوصول.

يضع مجهول لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

– أنت، تعال معي.

يتوجه الأب لابنه الخالي الذهن:

– انتظرني هنا حتّى أكمّل الإجراءات.

– أي إجراءات ؟

– لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة لأمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

– اسكت يا مغفّل، وإلاّ أرجعونا من حيث أتينا. لا تتحرّك حتّى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حرّاس الطريق. يخرج «با» أخيرا، يده على خدّه، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه «كسرولة» وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم. ما الذي حدث يومها؟ ملفّ خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي .بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما عن النزيف.

– سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

– لا، لن يرجعوني هذه المرّة ...لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

– لماذا؟

– هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.

– هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

– هؤلاء! من بلّغ عنّي واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تذكّر دوما– يا بني– أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال و...

- أتحدّث عن الرجال؛ فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى الرجولة عندهم التبوّل وقوفا.

تتدافع على لسانه أبيات للشاعر الذي ارتضاه قدوة ونموذجا ضجّ بالشكوى مثله من قوم لا تجد فيهم «كريما تزول به عن القلب هموم" أو «صحبة لا يعوزها الصدق في الأخبار والقسم"، أو "مكان يسرّ بأهله الجار المقيم»، أو ثغرا مبتسما عن محبّة لا عن خوف أو طمع. ها هو يغلي بالتهكّم المرير وبالسخط على قوم«استدجحوا»و«استبقروا»و«استنعجوا»وجعلوا من الخروف واستكانته للمقصّ والسكّين نموذجهم الأعلى.

- خاصية أشباه الرجال الجبن. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم "إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحرّ المتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوما جبانا وإلا تبرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلما بنسبي. إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقبّلون اليد التي تخفضهم ويعضّون التي ترفعهم.

يواصل زمجرته وهو يجذبني يكاد يخلع كتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! آه وآه

لقد أسمعت لو ناديت حــــياً

ولكن لا حياة لمن تـــــنادي

ولو ناراً نفخت فقد أضاءت

ولكنك تنفخ في رمــــــاد

كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمر أو طاغية حقير. كل هذا الصخب كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغي شيئا قدر التباهي بأهله على عادة البدو، إلاّ أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد أتاهم في عصر تخلّوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمّة أخرجت للناس.

يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفرّ من حوله .

- اللّهم لا تقبرني في أرض جبناء! اللّهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور- يا فتى- جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع تواري في الرمل جثة الأسد!

هذا الرجل هو نفسه الذي كان وسيظلّ يردّد لابنه :

– يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر «بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام. «أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيا إلا لأرض الآباء والأجداد مهما جافتك وظلمتك...

تدبّر أمرك، يا فتى لتفهم أي أمر تطيع .

تتواصل نوبة الغضب ، وهل الغضب إلا جنونا صغيرا من حسن الحظّ أن الناس تشفى منه دون حاجة لطبيب.

– اللعنة، اللعنة على هؤلاء البشر، اللعنة اللعنة على هذه الأرض وما حملت. !

– «با»، لكن كل الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدّا جدّا !

– الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. هو مثلهم: صغير... مدنه... قراه... جباله، صحراءه نفسها صغيرة،

وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم.اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة .إن لم توفّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهجرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كان الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها ؟

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة الرجل وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية والوطن والمنفى. هي ستطبع تفكير ابنه طفلا ومراهقا وكهلا، إلى لحظة اكتشافه كم كان والده غارقا في قصة تافهة لا يعي أنه في أرضه وهو بين أغرب الأمم وأنه غريب عابر في أرض الآباء والأجداد. كم يبدو لي اليوم ضيّق الأفق وهو متمسّك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. عاش الرجل المسكين ومات لا يفهم أن الوطن هو الأرض التي نعطيها نحن ما تحتاجه هي، لا الأرض التي تعطينا ما نطلبه منها. كيف لم يكتشف– هو الباهر الذكاء– أننا، معشر البشر، أينما وجدنا دوما في وطننا وفي منفانا، لأن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطنا ومنفى. ربما ليس من طبيعة العالم أن يكون وطنا أو منفى وإنما هي أوصاف نضفيها عليه تعبّر عن حالات تمرّ بها الذات في رحلتها. حين يأتيها الإرهاق ترى نفسها منفية فتنسج أساطير نفي الأفراد والشعوب لتبكي على حالها. حين تطمئن ترى كل مكان لها وطنا تسعد به وتشبّب. أجزم أن الوطن هو العالم في أحلى حالاته العابرة، والمنفى اختزالنا له وهو معرض عنا بوجهه المتجهّم. ربما كان صراعه مع ومن أجل الوطن بمفهومه ، الوتر الحساس الذي كان يتعهّده وينقر عليه باستمرار ليستل من أعماق ذاته أحدّ الأحاسيس والمشاعر، تلك التي يبحث عنها الآخرون جريا وراء الجنس أو المال.

يجرّ الأب الغاضب من بشر لا يغفر لهم ضعفهم ومن وطن لم يقدّ على مقاسه طفلا مندهشا. يتوقف في طريقه إلى مربض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم.

– أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدّك.

أحسن ما في الآدميين نزعة التمرّد إذ لولاها لما وجد تجديدا.

– لا أريده. لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرّد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.

– قلت لك: البس. بكم السروال، يا رجل؟

– لا أريده، لا أحبّ لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه "با" بغلق فمه و إلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوّة.

– والآن البس بسرعة، وإلا فاتتنا الحافلة.

– لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

مشهد لا أكثر منه ابتذالا في علاقة الآدميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.

القانون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد... لتفويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرّف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون والخالق يريد تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر والالتجاء لربّ آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط باستراتجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرقة، ، الصدّ والوصال.

هذا الرجل الذي يريد تطويع ابن يريد تطويعه، جاهل بما في فيه على صغر سنه من عزم على أن يكون هو الرابح دوما في هذه اللعبة. أضف لهذا عدم توفّره على مهارات أم الطفل، والمسكين لا يملك، كأغلب الذكور، إلا وسائل بدائية وخطرة، لا فقط على ضحيتها وإنما على مستعملها الساذج.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقّف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدّي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها الآن على الأقلّ. يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه. ثم تتباطأ

سرعته وقد جاءه التردّد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كالنسوة والصغار.

– لا أريد أن تقول لجدّك أنني ضربتك، وإلا فأنني سأضربك مرّة ثانية.

– بل سأقول له أنك ضربتني بشدّة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول ل"ما". نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!

– فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جّدّك.

– وسأقول أيضا لله.

– لا تقحمه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟

يتمسّك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تتدافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.

– بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر وكلللللل الأماكن التي سافرت إليها؟

– موافق.

– كلمة رجال؟

– شريطة ألا تقول لجدّك أنني ضربتك.

– كلمة رجال. قد تفوتنا الحافلة إذا ذهبنا للمرطبات!

يعرض الأب على ابنه إمكانية قضاء الليلة عند قريب، ليواجه برفض قاطع.

– لا، لا جدّي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ "با" وقد تبخّر منه مجدّدا كل حسن استعداد:

– لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصبتني بالدوار. كفّ عن الجري، كفّ!!

وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملا أن يطغى صوته على صراخ الريح:

– «با»، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

– إنّه أمامك، يا مغفّل.

– أين ؟

– في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا .

– "با"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

– تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكّرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "با" لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرّة.. وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي خرج من الصحراء، وخرج عليها، ناقما، ساخطا، لا يحلم- وهو منفيّ عن أخطارها- إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشي ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدّث عن كثبانها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع ! كم سمعته يردّد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانيّ أن امدّد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرّة الأخيرة في «العِرق»... أن أجيل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذهوله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل سترى جدّك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب. حقّا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللّحظة المباركة تنعكس في مرآة العالم أجمل حالات الآدمي، وتنعكس في الآدميّ أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحقّقت فيها مرامي هذا من ذاك وتحقّقت فيها أهداف ذاك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلّى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبّر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.

يتلقف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، دامع العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستبطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلّم من سفرة ستطبعه إلى الأبد...أنّ الواحة محطّة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وحدودا وعسسا يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنّه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهام، لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

وفي حافلة تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلع الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجدّه واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه كما وعد إلى «طينية» ليبذرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر... نعم، سيعود أول أيام الربيع وسيأخذه ليمرح بين زهور الصحراء، لأن هناك عشبا وزهورا في الصحراء، وليس فقط حجر ورمل.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسى والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

– تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

– يا بني إنها ضرورات... عمله.

– أي عمل؟ أنا لا أحبه، لا أحبه.

– أما أنا فأحبّك كثيرا وأكثرنا حبّا لك «با».يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدّك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظّ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

حقا يومها فرّ «با» من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاؤوا لذبحه ليلا. حقا كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤولية: مواجهة الذات لذاتها. كانت "ما" تصدّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

– إلى قرية جدتك.

– وبعد قرية جدتي؟

– إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوما لتتعلّم كلام الله.

– وبعدها؟

– أعتقد أنه يصل البحر.

– وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "ما"، تداري خجلها:

– تكبر، و إن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

– سأذهب حتى الى ما وراء الأفق لأجد «با» وأعود به.

يـا للطفـل المتهـوّر! أقـول لـه كـم في الطريـق مـن عقبـات، مـن ألغـام ومـن وحـل... أن أخطـر مـا ينتظـره علـى تقاطعاتـه بنـو جلدتـه !

أقول أو لا أقول ، ما الفرق ؟. رمي النرد .

تبتسم "مـا" برفـق فيـه نكهـة مـن السـخرية ولسـان الحـال يقـول: لا تسـتعجل الأمـر، سـيأتي الوقـت لتضـرب في الأرض ذات العـرض والطـول، هائمـا علـى وجهـك مثـل كل بـني آدم، تبحـث عمـا لا يوجـد وتجـد مـا لم تبحـث عنـه قـطّ.

يركب بطلنا الصغير عصا القصب مستعدّا للإقلاع ليعرف كلللللّ ما يوجد وراء الأفق.

قبلـه ركـب الأب سـعف نخلـة والبصـر شـاخص إلى البعيـد لاستكشـاف كلللللـ ّمـا يحفـل بـه العـالم مـن خـوارق ومعجـزات.

تواصـل الطفلـة المتقطّعـة الأنفـاس القفـز بالحبـل بـين أشـجار الزيتـون، تضحـك مـن غبـاء الطفـل الـذي سـيصبح بعلهـا والطفـل الـذي سـيصبح طفلهـا.

لا يبقـى لنـا إلا رفـع العينـين لمـن تتوجّـه إليـه كل الصلـوات: اللّهـم اتمـم هـذه الرحلـة علـى خـير، إنّـك السـميع المجيـب... أحيانـا.

* * * * *

الكتاب الثاني

العالم

ما أن يعود الربيع
إلا وأنا متيّم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟
هايكو " لشاعر مجهول "

مفهوم العالم-إن تناولناه من زاوية المطلق كالحاوي لكلّ المكان والزمان، لكل الكائنات والأحداث -غير قابل للإدراك إلا من قبل كائن كامل وأزلي كالذي يشير إليه الراوي تحت اسم الله.

إذا تناولناه من زاوية النسبي- كتجربة ذات فريدة تعيش قبسا من الزمان في جزء متناهي الصغر من المكان-غير قابل للفهم من قبل ذات لا تشاركها نفس الخصائص.

نحن إذن أمام مفهوم يطمح ليعني كل شيء وهو لا يعني شيئا، مفهوم فارغ من كل مضمون هو الذي يطمح لاحتواء كل المضامين.

لم المواصلة إذن ؟ لأن هناك تحدّيات للمعالجة أكبر حتى من هاتين الصعوبتين.

المعلّق

في 99-9-9، اليوم 19710 من الرحلة.

يثير في رقم هذا اليوم رهبة خاصة تفرض التوقف عنده. نعم، منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. تقول لكنه يوم روتيني وردّي يا ساذج هل ثمة أحسن من الألفة للتغطية على ما ينتظرنا أو ما ربما حدث من أخطر حدث؟

تضيف لتهدئة روعك وروعي : ما الداعي للقلق، فنهاية العالم مبرمجة، حسب البعض، لبداية القرن والألفية، أي بعد شهور معدودات ؟

المشكلة أن الآدمي أكثر من رمى التواريخ جزافا وأن من شأن تكرار هذه الإنذارات الكاذبة عدم الانتباه لوقوع أقصى ما يخشاه البعض... وأقصى ما يتمنّاه البعض الآخر. يبقى أنه لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم هو الذي يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة المسكين مصاب بأكثر من مرض خطير ؟ ربما قرّرت السلطات العليا التستّر على الأمر. تصوّر حالة الفوضى هذا النهار لو أعلمتنا نشرة أخبار المنتصف أنّنا نعيش آخر أيامنا، وأنه يجب إخلاء المحل حيث لا تمديد في عقد الكراء بأي ذريعة كانت.

ربّما حصل المحظور وقامت القيامة البارحة مثلا ، ممّا قد يعني أن النص حلم يحلمه ميّت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجي منه أغرب من عدم انتباهي لبدايته ودخولي فيه؟

نعم لا قدرة لأحد على التأكيد أن هذا اليوم ليس آخر الأيام. لذلك قرّرت وضعه تحت المراقبة الصارمة منذ انطلاقه حتى لا أفاجأ أو أخدع...نعم أن أخدع لا لشيء إلا لأنه لا يختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيه القادمون الجدد بنفس التهوّر، وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة، وتخبّط الماشون في الصعوبات المبتذلة التي جربوها جيلا بعد جيل.

أنظر لساعتي بشكّ حذر بين الفينة والأخرى فيتأكّد لدي كل مرّة أن عقاربها تتقدّم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي- لحدّ الآن- تحت قدميّ، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ بصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالك السواد.

على كل حال، ما يزال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علما أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من القرّاء والنقّاد، فلو فكّرت في جدوى أفعالي لما قمت بأي عمل باستثناء سماع الموسيقى. لا أطيل عليكم. ابشروا جميعا بتواصل العالم. كأنّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكأن الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظّ (أو لسوئه)، فاليوم- بالتأكيد- ليس النهاية حيث ولّى الأدبار منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتي، والعالم ما زال موجودا.

حتّى لا أتهم بترويج الأوهام والآمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبت من الأمر. يسعني الآن- دون أن يسعدني ذلك كثيرا- تأكيد ما كتبت سابقا، فقد مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعتني نفس الهوام المجهولة، وتصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة، ووتّرت أعصابي أعراس الجيران، ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر، المشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم الحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفا عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الآدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلق. كلّ هذا يؤكّد انطباعي أنّ العالم ما زال قائما. المؤكّد أيضا أن إصبع الدهر على مسبحة الزمان تسرع في «التسبيح» ولسان حال المسبّح المخفي يقول: هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب . عجّل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع !

أن استجمع شتات فكري، أن اتفحّص حصاد الرحلة علّني أردّ أخيرا على أسئلة الكهل: ما العالم الذي عبرت وأسئلة الطفل : مما هو مصنوع وهل قدّ القمر حقّا من فضة خلخال "ما" وهل صنعت الشمس من ذهب قرطيها فعلا ؟

* * * * *

فضاء الحواسّ

تهمس "ما" في أذن طفل يفرك عينيه.

– أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض سيأخذك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه.

يصرخ «با» في المرأة بالكفّ عن تنغيص يومه، وفي طفل فاغر الفم دهشة انتصب واقفا فوق السرير.

تتدافع الأسئلة عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "با" خروج الجني من القمقم.

– «با» أين كنت، أين كنت؟

– أفتح لك الطريق.

يرقص الطفل على سريره جنّ من الفرح. ثم يعاوده القلق.

– هل ستسافر مجدّدا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى. أليس كذلك؟

– كأنك تريد إغضابي! هيّا، لا تضيّع وقتي. إنه اليوم الوحيد الذي أستطيع أن أخصّصه لك لزيارة العاصمة. سنبدأ بالحمّام والحلّاق ثم نتوجه للجامع المعمور لحضور صلاة الجمعة. لا بدّ أن أبحث عن كتاب هام قبل آخر قطار. تعال. حثّ الخطى. لن يكفينا اليوم.

المدينة الكبرى! إن زيارتها أهمّ ما في البرنامج. أليست أبعد نقطة في الاتجاه المعاكس لطريق قرية الجدّ؟

يتبع الطفل رجلا ولد على عجل، وعاش على عجل، ومات لا يلوي على شيء، وكأن له مواعيد هامّة حتى في الآخرة.

تتلّقفنا نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.

– وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

– لا توتّر أعصابي من الآن.

– أسرع، أسرع، أريد أن أرى كلللللل شيء.

– تمهّل، وإلا فقدتك حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه وسط جحافل آدميين يتدافعون في الشوارع الضيقة وكأنهم أمواج نهر على وشك الفيضان. إلى أين والحيطان سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم السيل.

تتتابع المناظر وتتغيّر بسرعة مذهلة، وهو ينقل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة أو واردة.

- «با»، من هذا، وماذا يفعل ؟

- شيخ ينسج الجيب. سأشترى لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كففت عن الصراخ.

- انظر "با"، إنّه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح ! !

- نحن فعلا في سوق الشوّاشين، لكنه ليس هذا الرجل بالذات هو بالضرورة من صنع شاشية خالك -، الصنّاع بالعشرات.

- با»، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت كذلك الطفل.

- اسكت يا حمار. أريد لك مستقبلا أفضل.

- "با"، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء بـــــــ"سفساري" أبيض؟

- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء «سفساري»أحمر اللون.

- "با"، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمونه «الكنسترو».يوم نغشّ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- "با"ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

يداهم الطفل قلق مبهم.

- بخصوص الحمّام والحلاّق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشعر فوق رأسك؟ أخشى- إن أهملنا قصّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

نصل حمّاما اسمه «القشّاشين» يقول عنه "با" إنّه أفضل وأرخص حمّامات المدينة العتيقة.

- «با»، لماذا صبغوا عمودي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنت أفضّل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدّى!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيع الأشكال والألوان في ضباب تتهادى داخله أجسام مترهّلة تحمل حول الخصر فوطة باهتة اللّون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. هو الآن بين يدي «الطياب» كالفأر بين مخالب القطّ. يسلم جسمه مكرها ليديْ

المهني الخشنة، تعركانه، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك و تقريع.

إنّها لحصّة تعذيب مستوفاة الشروط من تسليم الجسم لقوة لا تقاوم، وتمرّد الجسم على ما يلحق به من أذى، وصراخ المعذّب في أذن المعذِّب بالطاعة، والفرق الوحيد أن الجلاد لا يستحي أن يطالبك بالبقشيش وبعبارات الامتنان والشكر. ما أغرب حبّ الكبار لهذه الأماكن التي يبغضها كل الصغار خاصة عندما يتهدّدهم الحلاق في مدخلها! لا يبقى للطفل غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمته الجسدية.

– "با"، لا أرى إلاّ الرجال هنا ؟ لماذا لا يوجد نساء ؟

يضحك الرجل إلى أن يتملكه السعال. أفاجئ «الطيّاب» وهو يغمزه.

– ملاحظة صائبة. هذا الولد له أفكار عبقرية ولا بدّ من الأخذ بها.

– اسكت يا رجل. لا تشجّعه، أتعبتني عبقريته المزمنة.

ليس في هذا الحمّام اللّعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمّل وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة «الشامبو».

– عيناي تحرقاني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

– شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. اترك لي الوقت على الأقلّ لأنشّفك. المرّة المقبلة اذهب للحمّام مع أمّك ككلّ الأطفال الصغار.

– أريد الخروج، أريد الخروج.

– أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "ما".

يأخذ الطفل الثمرة، يقرّبها من عينيه مطيلا النظر وكأنّه يرى برتقالة لأوّل مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمّام.

– ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

– بلى، إنّها جميلة جدّا، خاصّة اللّون. ألا ترى كم هو جميل؟ "با"، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا بمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟

– يا لك من طفل غريب. والآن كلْ برتقالتك واتركني أغفُ بعض الوقت.

يغرق الأب في إغفاءة قصيرة معرضا عن طفل لا يجد به ما يتلهى غير الانكفاء على ذاته بانتظار تجدّد الصلة. يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكرا لعبته المفضلة زمنا طويلا، وكم كانت أمه تكرهها لسبب غير مفهوم.

ومن الملفات المطمورة بعناية يتعالى صراخ غاضب: يا بني، كفّ عن هذه اللعبة. ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يحاول الطفل مسك الأنين المتصاعد من داخله وقد دهمه الحريق والمغص.

تصرخ "ما" في قمة الرعب:

– ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ يا إلهي أنت تدمى، النجدة، النجدة! كفى من هذه اللعبة الغبية. أتريد أن تمرضني؟

يخضع الطفل للأمر؛ لا يريد أن يمرض "ما" ممنّيا نفسه بالعودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينيها. أليست اللعبة، الغبية كما تصفها "ما" ظلما، بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومن معجزات؟ كيف يمكن للطفل الأزلي أن يستكشف العالم والأوامر طول الوقت: لا تلمس، لا تتذوّق، لا تركض، لا تتسلّق، لا تقترب، لا تبعد، لا ترم، لا تكسر، كفّ عن الحراك!

هو يتذكّر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

"ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

– إنه من المبصرين يا بني. تلطّف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.

– مبصر؟

– يجب أن تسمّيه «مبصرا» حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

– هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

– نعم، هو لا يرى...إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصرا" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو يستنشق روائح يتضوّع بها شجر النخل، هو الذي لم يعرف للنخل يوما روائح. بل ها هو يسمع دبيب النمل على الأرض كأنه ركض الخيل بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان. ربما كان ذلك الاكتشاف انطلاق عادة رافقته طوال الرحلة: ألا يسمع الموسيقى أو يستنشق عبير النساء إلا مغلق العينين.

السؤال الذي شغل بع باله تلك الأيام كيف يفسّر للضرير لون الحليب ولون الفحم ولون الرمل ولون السماء ولون الدم ولون سعف النخيل؟

يحتفظ الكهل بطعم الفشل لينقل حيرته يوما لطلبة يريدون منه وصفات جاهزة وهو لا يريد منهم إلا تجدد الانتباه: الامتحان اليوم، تفسير اللون الأخضر لأعمى من الولادة. لا أكثر من أربعة أسطر. يفتح الطلبة عيونهم على أقصى اتساع، ويمدّ الطفل يديه نحو وجه الشيخ المبتسم يفسّر له بكل ما تسعفه المصطلحات التي يعرفها كيف أن الحليب لا يكون أسود، وأن الدم ليس أخضر، وأن الألوان جد جميلة، وأنه يعلم أن الشيخ سيصبح

قادرا على رؤيتها جميعا إذا صلى كثيرا لله الذي لا يرفض طلبا لعباده الصالحين، والعهدة على «ما» التي لا تكذب أبدا.

ثمة مسألة أخرى شعلت باله كثيرا هي الأخرى.

– تقصدين أنه لا يراني.

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

ها قد وضع الإصبع على مشكلة عويصة والبشر لا يستمدون وجودهم إلا من نظرة الآخر. هو سيعاني مثل بقية الآدميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تمسحه ولا تبصره لأنها شاخصة إلى الأفق أو لأنها منعكسة لا اهتمام لها إلا بذاتها. هو أيضا سيبقى يلهث دوما لتتوّجه إليه كل الأعين كأن كثافة رؤية الآخر تكثّف من الوجود. هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار.

هو سيجرّب مراهقا نصيحة آدمي يدعى «بيكيت» بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين علّ الذات توجد أخيرا خارج سطوة من لا وجود له إلا بوجود الناظر.

وراء اللعبة الخطرة الممتعة قلق ينمو داخل الطفل .

– "ما"، هل سأكون مبصرا يوما ما... اقصد مبصرا دوما ؟

– سبعة ألطاف وبعد الشرّ على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عينيّ.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة الصوت، تنبئ برعب تخفيه ولا تنجح. كيف لا يأتيها التطيّر وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟

كم سمعها تهمس في أذن إحدى العمات وهي تظنّ أنه نائم.

– هل هو الرمد؟ إنه الرمد...أليس كذلك؟

– يا عزيزة، صلّي على النبي.

– لكنه يقرّب كل الأشياء إلى عينيه. أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى...ذلك أخشى ما كانت تخشاه «ما» تلك الأيام... والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

نعم، أي رحلة، وفي أيّ عالم كنت ترتحل، لو أفقت فيه وحاسة الرؤية غير التي أعطيت لك كاملة وبالمجان؟

أي عالم كنت تجرّب لو ولدت بعاهة تعرف في الطب تحت اسم "الدالتونية»، محيت من الدماغ قدرة تمييز الألوان فإذا بك كمن لا يعرف من الأفلام إلا التي مثلها شارلي شابلن، ليس للمناظر والأشياء والكائنات إلا طيف لون الرماد ؟

أي عالم كنت تعبر وتجرّب وحتى الرمادي ممنوع لا حق لك إلا في لون السواد.

والأن تصور في أيّ عالم كنت ترتحل، لو أفقت فيه أعمى وأصمّ ؟

في أيّ عالم كنت ترتحل، لو أفقت فيه أعمى، أصمّ وأبكم ؟

أي رحلة لك، لو أفقت أعمى، أصمّ وأبكم، وبلا حاسة الشمّ ؟

تتعطل كل أدوات الخيال والفكر في محاولة تصور هذا العالم الفارغ حتى من الفراغ.

المهمّ أن هناك عالم آدمي لا يعرفه إلا المبصرون، وآخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش، وآخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشم.

كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه لا يعرفها إلا هم!

أرتعد فرقا اليوم وأنا أتصور أن طاولة القمار كان بوسعها أن تسحب لي سفرة في عوالم كهذه.

لا وجود للعالم خارج نطاق الحواس الخمس وأنه لا استكشاف له بدونها. ثمة من يقسّمها لحاستي الرؤية والسمع للتعامل معه من بعد وثلاث حواس هي اللمس والشم والتذوّق للتعامل معه عن قرب: . لماذا ؟ لأنه عالم خطر لا بدّ من رصد أخطاره عن بعد (بالعين والأذن) حتى لا تعمل مخالبها وأنيابها في أجسادنا. بعد الاطمئنان نستطيع الإمساك بأشيائه وتقريبها من أنوفنا ووضعها بين الأسنان دون خوف لمواصلة الاستكشاف. ثمة من يقول مثل الرجل المسمى «ديدرو» أنه ليس لنا إلا حاسة واحدة هي اللمس، كل ما في الأمر أننا نتلمس العالم بالعين والأنف والأذن واللسان والجلد.

أحاول إلى اليوم حلّ مشكلة الطفل بتخيّل عالم وكل زادي لاستكشافه حاسة اللمس بمفهومها الضيّق لا غير.

ربما عرفت هذه الحالة يوم كنت دودة تشق طريقها في دهاليز الأرض لا تنتبه إلا للخشونة والليونة، للحرارة والبرد للجفاف وللرطوبة ... دودة يحلم داخلها الحالم الكبر بفتح أبواب ماتزال براعم أفكار.

يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر.

تصوّر عالما ارتفعت فيه حدّة الأحاسيس إلى أعلى درجة ممكنة. ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفافيش، تشمّ ما تعجز عن شمّه الكلاب والقطط، أو ترى بعين النسر والصقر. النجدة، لقد بهرتني الأنوار! النجدة، لقد جرحتني الأصوات! النجدة، جاءني الدوار من عنف الروائح!

تستحثّ فيّ الفكرة كل طاقات التخيّل. رؤية ما وراء البنفسجي؟ تحسّس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟

تتعطل مجدّدا أدوات الخيال والفكر عند الكهل مثلما تعطلت عند الطفل. وللترويح عن النفس، يخلصان لنفس الموقف: ماذا كنا نفعل بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي تلك التي خلقنا بها؟

لا علينـا، فالطفـل مـا يـزال بعيـدا كل البعـد عـن التنظـير، وشـغله الشـاغل تجميـع معطيـات متنافـرة علمـا وأنـه كان مـن العـدل والإنصـاف مـدّه بعينـين إضافيتـين، وربمـا بأنـف ثـانٍ وأذن ثالثـة، وهـو بـكل هـذا الانتبـاه والنهـم.

علـى كل حـال، هـو يتوفـر علـى الأدوات الدنيـا وربمـا القصـوى، أو قـل: الضروريـة أو قـل: الكافيـة، لكـي ترتسـم داخلـه حـالات العـالم، وهـو زرقـة البحـر وخضـرة الغابـات وبيـاض الثلـوج تكلـل هامـات الجبـال، وهـو خريـر المـاء ورائحـة الفـل وطعـم القهـوة المـرة والخبـز السـاخن ومـا تبثـه في راحـة اليـد يـد «بـا» تضغـط بلطـف. نعـم، يـا لحظّـه وهـو مسـلّح بمـا يلـزم مـن الحـواس للانبهـار بحركـة الشـمس والسـحاب، للتوقـف عنـد اختلاجـة عابـرة في نظـرة «مـا»، للتعجـب غـدا أمـام ملامـح الهيبـة والقـوة في نظـرة الصقـر والأسـد، للإعجـاب بمـا ترسمـه، مـن لوحـات غـير مرئيـة، الراقصـة الروسـية تتسـلق قامتهـا، والبولينيزيـة تحـرك عجزهـا، والشـرقية تتثنـى تهـز صدرهـا، والهنديـة ترسـم في الفضـاء بحاجبيهـا وقدميهـا وأصابعهـا ملحمـة رامـا وسـيتا.

*

يفتح الطفل عينيه ليكتشف والده يراقبه باستغراب ثمّ يهز كتفيه: هيا لبقية يومنا.

يخرجـان مـن بهـو الحمـام، والطفـل يفتعـل النظـر إلى الخـارج لكـي لا يـرى الحـلاق الناصـب لـه الكمـين.

– «با»، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

– قلت لك: لا تتهرّب من قصّ الشعر.

– أسألك عن المبنى، لا غير.

– لا أعـرف، الـذي أعرفـه أنـك سـتجلس علـى هـذا الكرسـي علّ الحـلاق المسـكين يسـتطيع لـك شـيئا.

يجلس الطفل لحصة التعذيب الثانية. اليوم الذي كان ينتظره بفارغ الصبر؟

يتفطن لوجهه الذي في المرآة. يطيل إليه النظر كأنه يراه لأوّل مرّة.

ترجـع لـه المـرآة وجهـا مسـتديرا أسمـر، بأنـف صغـير مذبّـب، وجبـين مرتفـع، وعينـين واسـعتين يلمـع فيهمـا دومـا بريـق غريـب يفضـح العواصـف الـتي تعتمـل داخـل ذهـن لا يهـدأ لحظـة واحـدة.

يثير فيّ الوجه الغريب العابس الملامح مع مسحة من كآبة، قلقا غامضا.

– «با»، أنظر، هل هذا حقا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

– ماذا تقول؟

– انظر. هذا أنا.

– لا يكفيني أن أتحمّل منظرك على الطبيعة، وتريدني أن أتأملك في المرآة أيضا.

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلاقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

– "با"، هل تدري...؟

– لا أدري. قلت لك: لا أدري. لا أحد يدري شيئا. أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب وتفجّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج. يعود لتأمّل أدوات الحلاّق من موسى ومشط ومقصّ وصابون وقوارير العطر. ثمّ يشدّه ثانية الوجه العابس في المرآة.

المرآة! لماذا يمنعونها في السجون؟ خشية الانتحار؟ ليس فقط.. كم من آدمي مسكين تراه في مستشفيات الأمراض العقلية جالسا الساعات الطوال أمامها لا يفارقها لأنه إن فعل تفكّكت ذات لم يعد ممكنا حضورها لذاتها إلا عبر الرؤية المباشرة.. لهذا نعود دوريا للمرآة لتؤكّد لنا أن الخيط الرفيع الذي يربط حبّات عقد الذات ما زال متماسكا.. لهذا اخترع الآدميّون هذا الشيء الذي أوحت لهم به صفحة الماء الهادئ.

تتواصل حصة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفت للنظر غير صورته تتأمّله بإلحاح. يغمض عينيه ثم يفتحهما آملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحدّق فيه كل مرّة. يستفزّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان. يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

– "با"، هل الذي في المرآة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب:

– هيا يا رجل، أسرع، نفد صبري منك ومن هذا الفرخ.

ينفض الحلاق عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها"با". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

– حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

– جميل، آه، نعم، أمه تدّعي هذا أيضا. ...كما يقول المثل: «كل قرد في عين أمه غزال».

ينطلق السؤال كالرصاصة الطائشة:

– "با"، هل أنت أيضا قرد في عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفعة كهذه. يا إلهي، لم يجرب مثلها على كثرة ما عرف خدّه الغضّ من الصفع! ترى هل ستترك- كالمرّة الفائتة- آثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشنّج طفلا قرّر ألاّ يكلّم أباه مدى الحياة. وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، أتاه الهدوء ومعه الندم.

قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا لتعويض الضحايا. كان «با» على الأقل من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعذبه أحيانا.

إذن الخطأ، بل الخطيئة، ثم محاولة التكفير.

– أكملنا المنغصات التي توتّر على الأعصاب. آن الأوان لنشرع في ما تحبّ. هل تريد أن اشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

– ...

– شيء نشتريه لأمّك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سآخذك لأحسن خيّاط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. ما من شكّ أنّك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها للمطعم.

– ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...،

– تصمت عندما أريدك أن تتكلّم، وتصمّ أذنيّ عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج «ما» ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرّات الأخرى العديدة، مجرّد ابتزاز وتهديد. ثم هو لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمّام.

– المطعم! نبدأ به؛ إنني أموت من الجوع.

– إذن إلى المطعم، يا فتى.

وهذا معلم أثري من معالم المدينة العتيقة بقي ثابتا على شكله و طقوسه وألوان الطعام التي يقدّم على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتبة الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد. ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاع الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيّق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأسقف المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل. يجلس الطفل حذو أب ساهم يجيل النظر حوله بشديد البطء ليضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل «ما».

يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبة تتوجه إليها الجحافل. لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

– أنـا أعـرف، هـذا هـو الجامـع الأعظـم الـذي تعلمـت فيـه كلللللّ كلام الله، وحيـث سـنصلي معا .

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

– الجامع الأعظم.. القلعة... الوطن!

قد يكون المبنى شيئا هاما، الأهمّ منه كل ما حوله.

– «بـا»، مـن أيـن يخـرج هـؤلاء النـاس؟ وإلى أيـن يذهبـون؟ لـماذا تنظـر هكـذا لهـذه المـرأة؟ لـماذا هنـاك نسـاء لا يلبسـن السفسـاري؟ لـماذا يبـدو هـذا الرجـل حزينـا؟ لـماذا يمـدّ هـذا الآخـر يـده للنـاس؟ لـماذا قلـت لـه «ربـيّ ينـوب" ولم تعطـه شـيئا؟ لا أحـبّ الطريقـة الـتي كلّمتـه بهـا. هـل رأيـت النـادل. إنّـه إنسـان ظريـف حقّـا، يهـرول بخفّـة بـين الطـاولات. إنّـه محبـوب علـى مـا يبـدو فـكلّ النـاس يمزحـون معـه.

– اترك الرجل وشأنه. كلْ، الصلاة عما قريب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه ؟

– قلت لك: كل. أتريد طبقا آخر؟ ألم يعجبك المشوي ؟

– «با»، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية.

– هل ستأكل هذا الطبق اللّعين؟ أم أسكبه على رأسك ؟

– أريد الذهاب لبيت الراحة.

– ركضا.

يعـود الطفـل راكضـا مـن بيـت الحمـام، يرفـض الاعـتراف أنـه يفضـل الاحتفـاظ بمـا بداخلـه علـى البقـاء لحظـة في مـكان زاخـر بقـذارة تأتيـه ذكراهـا بالتقيـؤ. يرتمـي علـى الكرسـي جنـب أبيـه، يواصـل التمعـن في مناظـر أعجـب مـا فيهـا تجددهـا المتواصـل. ثـم ينتبـه إلى أن قدمـي والـده موضوعتـان علـى الأرض، بينمـا تتـدلّى قدمـاه هـو في الفـراغ. يشـعر بشـيء مـن نفـاد الصـبر أمـام زمـان يتلـكأ بـه في طفولـة كأنهـا القفـص المطبـق علـى العصفـور.

يتوقّـف مجهـول، ينقـض عليـه بالقبـلات، وعلـى أبيـه بالسـلام الحـار، والسـؤال الأزلـي مـلء الفـم: كيـف حالـك؟

علـى فكـرة، هـل ثمـة سـؤال أخطـر مـن هـذا الـذي يلقـى بألـف صيغـة: كيـف أنـت، كيـف الأحـوال، مـا أخبـارك، كيـف تفعـل وهـل هي»ماشـية» (أمـور الدنيـا).

نعـم إنـه أهـمّ سـؤال يلقيـه الآدميـون علـى بعضهـم البعـض.. مـا أصعـب الـردّ وفي كل إجابـة فـخّ. إن أنـت تبحـرت في مصائبـك ضايقـت السـائل وهـو قرفـان مـن كثـرة الـتي يعيـش. وإن أنـت أسـهبت في وصـف مـا أنعـم بـه الله عليـك مـن الطيبـات أثـرت غيرتـه. وفي الحالتـين إن أطلـت في هـذا الاتجـاه أو ذاك ضيعـت كل الوقـت الـذي يريـد اغتنامـه ليقـص عليـك مصائبـه هـو أو آخـر نجاحاتـه. أمـا إن اختصـرت الـردّ، أو حتـى تجاهلـت السـؤال، كمـا سـيفعل هـذا

الطفل المتهوّر عندما يكبر، فسيحسب ذلك على تكبّر فطري وحتى على تخريب مقصود وأنت تمنع السائل من فرصة الشكوى أو المباهاة. أقل الأجوبة خطرا وركاكة أن تتنهد وتقول أحوالي كأحوال العالم «ماشية» و«مش ماشية»، «الماشية» تعوّض «المش ماشية» و«المش ماشية» تنغّص على «الماشية». اليوم وغدا إلى آخر منعطف في الطريق.

لا شيء في الأفق غير تواصل الأمور على هذا النحو لذلك لا تصدّق أبدا من يتشدقون بنصف حقيقة تدّعي «أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن» فالنصف الآخر أن الرياح تجري أيضا بما تشتهيه السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم ذرعناه طولا وعرضا وبيننا وبين أشداق المحيط سنتيمترات من الخشب.

ينصرف الصديق فيتنفس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال طعامه. فجأة يجلس لاهثا لنفس الطاولة شيخ بدين ببرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه الطفل للقادم الجديد.

– "با"، انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنّه يعرف أحسن منك كلام الله. "با"، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "با" ضحكة صفراء. يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيد بضة بيضاء لا ينقصها إلا الحنة و «المانيكور» على الأظافر.

– إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل الكبوس وجبة "قمراية" مثل أبناء المدن.

يهبّ «با» واقفا. يجرّ الرجل ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

– هيا يا ولد، حان وقت الجمعة. كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

– لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، بالعكس أنا أحببته؛ فهو رجل طيب.

– يا مغفّل، لم تنتبه للهجته. الرجل كان يتهكم علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل مدينتك الجميلة هذه: الآفاقيون!

– "با" ما معنى آفاقيون؟

– القادمون من الآفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس السبة لا يفرقون بين جنوبي أو شمالي. لا يرون في قدومنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهددها... آفاقيون، أفّاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

– من الصعب أن نقنع أحدا منهم أنهم هم سكان الآفاق بالنسبة لجدّك، لا مركز لهذا العالم إلا واحته وغوطته.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل آلامه ذروة لا تحتمل.

– اللعنة! سنحتلّ هذه المدينة، سنستعبد من فيها من أشباه الرجال، سنسبي نساءها، سننهب أسواقها، سنحرق بيوتها. أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجدّ الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وأنا كهل: أورثنا الخدم لخدمهم وحتى للصوصهم! لصّ يحكم البلاد وأنت تتفرّج ثمّ تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لتعالي أمر المؤذّن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. ترى، هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، أعمدة الاتصالات المكلّفة ببثّ وتلقي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض.

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود لسياق النصّ. هذا الآذان الذي يتعالى من المئذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة، ذلك لأنه لا يوجد مكان، أكان من صنع الآدمي أو من صنع «الطبيعة»، إلا وله إمضاء حسي يمتاز به، أكان صوتا أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى آذان المدينة التي تطلّ على مضيق اسمه «البوسفور» والمطلة على نهر اسمه «النيل»، وكيف يتلوّن في هذه وفي تلك، وكيف هي رنة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها وهي تقرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه «الراين» أو نهر يدعى «السين».

آخر التوصيات العقيمة.

– أنبّهك أننا سندخل الجامع الكبير. لا مجال للصراخ في صحنه أو لإلقاء الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله. وإن لم تطعني فستكون هذه آخر مرّة آخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنّما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلوّ! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحمام الطائر الراقص الماشي القافز الذي يملأ أرجاءها!

لكن لماذا يرى حيطانا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتونة المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما" الأصفر الرث. ثم أين الزيتونة التي قال له رفاق اللعب أنّها تتوسط الصحن، أنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير أو صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه– وإلى الأبد– من الشائعات

وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطّب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

– انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته. لا تترك يدي و إلاّ فقدتك في هذه الزحام.

يتكثف ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراصة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا. على الأقل هذا ما كان يعتقده ، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدر الجري للوصول للصفّ الأوّل حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر للمصلّين تحت قدميه ، يرفعون إليه العيون المندهشة. لكن من أين له التحرّك ولو قيد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة. كم هو صغير، ضعيف! لماذا هذا القلق المباغت والدليل بجانبه لا يكفّ عن استراق النظر إليه وكل نظراته الباسمة تقول: لا تخشَ شيئا؛ أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمله طفل في الخامسة وهو يقلّد الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثمّ ركوعا وسجودا. الحقيقة أنه لم يكن مشغولا بمن تتوّجه له العبادة، إنما كان شغله المشهد لا غير. قد يكون ذلك اليوم الأغرّ الذي بلور عنده استعدادا فطريا تواصل طوال الرحلة: تأمّل الأشياء كما هي بغضّ النظر عن هاجس الوظيفة والمعنى.

يتسمّر بصره على قدمي الراكع الساجد أمامه ، فإذا به يغالب ضحكة على وشك الانفجار. لا أهم الآن من هذين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزّق يبرز منه كعب القدم كأنّه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ "با" من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثمّ ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلاّ انتهاء الصلاة من صفعة جدية ورجل نسيت امرأته أن ترقع جواربه من ابتسامات ساخرة . يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيّا ، أسرع ، البس حذاءك ، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على بعض النقط وخاصة آخر ما استرعى انتباهه.

– "با"، هل جواربك مثقوبة أيضا، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهّد "با":

– بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرآة، الجوارب...والبقية، يا ترى!

يستأهل "با" حرمانه من القصة الطريفة. ها أنا أتلكّأ وأتباطأ أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب و الطفل لا يمشيان إلا وواحد يجرّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه ، أما جنبا لجنب فذلك ما سيأخذ زمنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

– تحرّك، يا مصيبة ابتلاني بها الله دون ذنب.

– سأقول ل»ما» أنني صلّيت في أكبر جامع في العالم.

– الجامع الكبير ليس أكبر جامع موجود.

– (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهّد "با" من جديد فاهما أخيرا أنني أريده أن يحادثني لأشعر بما لي من قيمة عنده. ربما فهم أيضا أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.

– يا بنيّ، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق. إن شاء اللّه تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الشيخ الحقير، وسينادونك في كامل المدينة: «سيدي الشيخ الحاج».

– هيّا نعود إلى المطعم. أنا جائع.

تختفي النبرة الحنون بالسرعة التي ظهرت بها.

– لم تلمس صحنك طوال الغداء، وتريد العودة إلى المطعم الآن! لا مجال لهذا الدلال، تحرّك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهمّ شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

– لم أكن جائعا آنذاك، بينما أنا جائع الآن.

– تتصوّر أنني خادم سيادتك، أن المطعم ينتظر متى تجوع ليفتح أبوابه. ما عليك إلاّ أن تأكل جواربك.

– لكن يجب أن نتوقّف وأنت تركض كالمجنون.

يضحك الدليل إلى أن يسعل.

– أريد منك وعْدَ رجال بألاّ تأكل الجوارب فهي مستعصية على الهضم حتى بالنسبة لحيوان مثلك، والآن هيا لبائع مرطبات.

آخر ما يهمّ الطفل المرطبات، وكل ما يريد ألا يتوقّف المشي أبدا في فضاء ساحر كهذا، وأن يتواصل الطريق إلى ما لا نهاية، وقد نسي حتى وجود «ما» وأنها تنتظره بفارغ الصبر ليعيد عليها– ما لا يحصى من المرّات– تفاصيل اليوم الأغرّ. لا هاجس له الآن إلا مواصلة الركض لاستكشاف كلللللّ أزقة المدينة العتيقة، كلللللّ جوامعها وحوانيتها ومطاعمها ومقاهيها، أنسته ألوانها وروائحها حتى ألوان وروائح الصحراء. هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة له عاهرة عجوز تحمل من كل مغتصب، تلد اللقيط وراء اللقيط، تربيهم كالقطة التي تتغذّى بفلذات أكبادها... وأنه سيواصل حبها حتى وبشاعتها لا تخفى على القلب الولهان.

مـــدينتنـــــــا...   (نزار القباني)

تظل أثيرة عنــــدي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتهــا

أزقتهــــــــــا

أغانيهــــــــــا

مآذنها...كنائسهــا

سكاراها... مصليها

تسامحها، تعصبها

عبادتها لماضيهــــا

مدينتنا- بحـمد الله

راضية بما فيهــــا

ومن فيهــــــــــا

بآلاف من الأمــوات

تعلكهم مقاهيهــــا

لقد صاروا مع الأيـام

جزءا من كراسيهــا

صـــــراصير محنطـة

خيوط الشمس تعميها

فلا الأحـداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيهـــا

لـن يعـرف الرجـل الـذي سيواصل هـذا الطفـل مكانـا علـى بعـده أو غرابتـه اسـتخرج منـه أحاسيس ومشـاعر كتلـك الـتي اعتصرتهـا منـه أزقّـة المدينـة العتيقـة وهـو ابـن يجـرّ أبـا يتلـكّأ أو يركـض للتخلـص مـن قبضـة أب متوتّـر علـى الـدوام.

يـوم سـيجلس- بعـد أكثـر مـن نصـف قـرن- لترتيـب ملفاتـه عـن توغّـل الطريـق في الفضـاء الحسّـي، سـينتبه أنـه لم يطلـب مـن هـذا الطريـق إلا أن يحملـه إلى أبعـد مـكان عـن تلـك المدينـة... وأن يرجعـه إليهـا بأسـرع مـا يسـتطيع وقـد حكـم علينـا الاّ نصـل المـكان الـذي نريـد إلا وشـدّنا الحنـين للـذي غادرنـا، ألاّ نعـود لمسـقط الـرأس إلا وشـدّنا الحنـين مجـدّدا إلى مـا وراء الأفق...ربمـا لنتأكّـد أن لهـذا العـالم ثوابـت ...ربمـا لنـبرأ مـن صدمـات المفاجـأة تلـو المفاجـأة...

ربما لنروي لمستمع منتبه كيف كان اللقاء بين الذات والوجوه الأخرى لعالم لا يستنفذ.
الطريق تارة خطّ يتوغّل بلا تردّد أو رجعة في ضباب المجهول، لا يقبل إلا بالأفق وكل محطة تسلم لمحطة، نقطة وصول ظرفية هدية من الله أو مصيبة من الشيطان... تارة أخرى دائرة، كل نقطة فيها تبعّد وتقرّب من نقطة الانطلاق التي هي نقطة الرجوع... هو آنذاك لا قطع ولا قطيعة مع ما نغادر وإنما حنين جارف إلى تجدّد اللقاء وتعويض عمّا فوّته الغياب....عادة هو هذا وذاك ..الأفضل وهو دائرة فالرحلة أيضا قصة لا بد لها من راوٍ و مستمع ، وإلا كانت هي والعدم سيّان.

* * * * *

على تخوم الفضائين

يلمع المرح في عينين بلون العشب بعد عطش الصيف. تنفجر رفيقة المقطع الجديد من الطريق ضاحكة:

– نعم، أتصوّر كم أتعبت ذلك الرجل المسكين. لم تتغير كثيرا رغم مرور كل هذه السنين؟

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتهبا بعد خمسة عقود كمن ينفخ على الرماد ليلتهب ما بقي تحته من الجمر. يفاجئ المرأة تحرّك اليد وسرعة تقطيب الجبين ثم بروز بداية ابتسامة على الوجه المتجهّم.

– تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها. بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر، لا تطلب مني تفاصيل أدقّ. لست إلا هاوية.

كانت هي الأخرى من عشّاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية. ولم يكن من باب الصدفة أن نلتقي، أن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

– هنا كان سوق العبيد، وهذه مقابر الملوك، وهذه دار لوزير سابق. أما هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود. هنا كان الحجز الصحي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجنود الأتراك؟ هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياما. إرهاب دولة ذلك العصر.

– جئت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمام ووظيفتها التي كان "با" لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها صلة أو قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم تثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟. هذا هو الحمّام، لم يتغيّر منذ ذلك العهد، ما يزال الحلاّق ناصبا في بابه كمينا للأطفال. والآن اتبعيني، سأريك مدرستي العتيقة من الداخل، إذا سمح لنا البواب بالدخول. آه، المدرسة مغلقة ولست مهتمة بمعلوماتي التقريبية عن هندستها والملك الصادق الذي أمر ببنائها.

– كم كان ظالما أن تنفردوا، أنتم الذكور، بأفضل مدارس البلد!

– من حسن الحظّ أنها كانت وقفا على الذكور. من أين لنا– ونحن في ذلك العمر– التركيز على السبورة وعلى النهود والقدود في نفس الوقت؟ هل تعلمين أن الذين جعلوا منها مدرسة مثل كل المدارس وحتى أقلّ، كانوا الأطفال الذين لم يستطيعوا دخولها، ولما

كبروا وتحكموا انتقموا منها لأنها لم ترض بهم. كيف يفعلون هذا بالمدرسة التي كتبت فيها أولى نصوصي ؟

– وما الذي كنت تكتب ؟ الشعر ؟ القول الفصل في معضلات الفلسفة الوجودية ؟

– ملاحظات لا أكثر... عن كل شيء...كل شيء في هذا العالم مثير للانتباه، إذن موضوع للملاحظة ومنها ملاحظة الملاحظ وهو يتخبّط في فوضى مظاهر لا يفهم جلّها... ثمة من قال «أنا أفكّر فأنا موجود». كان شعاري وما يزال: «أنا ألاحظ فأنا موجود».

– لهذا لا تنفكّ عن الخريشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن استعيره منك بعض الوقت.

– لست متأكدا أنك ستستخرجين منه شيئا... هذا على فرض قدرتك على فك رموزه... أنا نفسي لا أستطيع أحيانا قراءة ما كتبت.

– خطّ الأطباء ؟

– ظروف الكتابة ،أحيانا وقوفا وسط حافلة مكتظة وحتى مشيا.

كم من دفاتر رميت على صفحاتها هواجسي العابرة كلّما أتاني الحكاك الفلسفي ...كلّما ألحّت علي فكرة مبهمة تشغلني أياما وشهورا علّها تستقيم لتعني شيئا جديدا.. كلما انتبهت لجلال السحاب، للنور يزين حواشيه عند الغروب ....والقلم يحاول بالكلمات رصد دهشة اللحظة التي يحاول الرسام رصدها بالفرشاة والألوان.

– مادّة لنصّ جديد في الأفق ؟

– نعم، لأهمّ نصوصي. ربّما آخرها. الوحيد الذي أخذ هذا العدد من السنوات .لست متأكّدا أنه لن يأخذ بقية العمر. شرعت فيه منذ حاصروني في بيتي فارضين عليّ السجن على حسابي. من يومها لم أتوقف.

– إلى أين وصلت ؟

– إلى كم هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها. كم بودي أن أنشرها كما هي... النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذوق الزبون وخوف الرقيب. لكن أي ناشر مجنون قادر على نشر مادة خام من آلاف من الصفحات بما فيها من تشطيب ومن فوضى. خاصة أي قارئ قادر على الصبر عليها؟

– نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستفزاز.

– استفزاز ؟ يا امرأة أحسن كتابة التلقائية... التي لا تتصنّع ، التي يختلط فيها الشعور بالفكر، الخاصّ بالعامّ، الجدّ بالهزل، الحابل بالنابل، الغثّ بالسمين، التي تتعامل مع العالم كما هو... التي تعكس زخم الحياة.

– أرجو أنك لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظّهم العاثر لتشرف على أطروحاتهم. تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه في موضوع مثل "عوامل خطورة الأمراض الشريانية، في منطقة القلعة الكبرى عند الأقلّ من الثلاثين"،

جاء دوري لأنفجر بالضحك وأنا أتصوّر.

– هم ليسوا بحاجة لأي توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي لا للعلم ولا للأدب.

– طيب، وموضوع النص ؟

– قصة إفاقتي للوجود... تعرّفي البطيء على العالم... استكشافي لما فيه من آدميين وكائنات وأشياء...

– أوف، سيرة ذاتية أخرى! ألا يكفي طوفان النرجسيات الذي نعاني منه ؟

كم سأردّد للأغبياء : هذا النصّ ليس سيرة ذاتية ، هذا النصّ ليس سيرة ذاتية ، هذا النص ليس سيرة ذاتية، فيتهامسون وراء ظهري: بلى ، بلى ، بلى ...لن يكونوا مخطئين تماما ...لن يكونوا مع هذا على صواب...من أين لهم فهم مقاصدي ؟

– يا ناقصة عقل ودين، أحدثك عن نص فيه أدقّ الوصف وأمتع السرد وأعمق التعليق بخصوص رحلتنا في هذا العالم الذي ابتُليَ بنا، وتحدثيني عن نصوص دعاية موضوعها التمويه على الآخرين.

كأن في نيّة المرأة إحباط المشروع... ربما من باب الإشفاق عليّ.

– طيب، هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حساب أعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وما تكتب.

– طول عمري وأنا في مرحلة صعبة. أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوما. سيستخرجون جملا من سياقها، سيقوّلونني عكس ما قلت. سيتهمونني بالإيمان وبالكفر، بالشيء وبالنقيض...كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب... المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تغيّر مرافقتي زاوية الهجوم.

– لا تقدّم للمعرفة إلا بعالم أو فيلسوف أو أديب عاكف على الحفر في ميدانه. لماذا لا تلزم اختصاصك بدل التطفل على اختصاصات الآخرين ؟

الموضوعي في واد ، الذاتي في واد آخر...الجدّ أين لا مجال للهزل ، الهزل أين لا مجال للجدّ.....الفلسفة في خانة، الشعر في خانة ثانية... العلم في ميدانه ،كل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة ...الأفكار على اليسار، المشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة ، الدنيئة خلف الستار...أي تصوّر ثري بهكذا منهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل !... لهذا أريد للنصّ أن يفسح كلّ المجال لمشاعري ، لمزاجي ، لعلمي ، لجهلي ، لخيالي ، لتدافع خواطر لا رابط بينها ، للتفلسف عندما تأتيني حاجة

التفكير المركّز ...ربما ينجح شيئا ما في أن يكون صدى باهتا لنبض الذات في العالم ونبض العالم في الذات.

تمرّر مرافقتي يدها أمام عينيّ مبتسمة:

-كلّي آذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد... ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدئين في الشكوى من الدنيا كم يغالب السامع نفاد صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفي منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطر لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إلي أبدا.

- أحيانا، أوقات الانتباه... وهي جد نادرة.

- عد للنص، أشعر أنك تحب الحديث عنه حب الأم للحديث عن طفلها.

- أعتقد أنه سيكون أضخم حتى من "البحث".

- آه، بدأت تقرأ بروست خفية عنّي ؟ أرجو ألا يحبطك الكتاب وأنت تكتشف صحة مقولة "كل شيء قيل ووصلنا متأخرين".

- وإني وإن كنت الأخير زمانه، لآت بما لم يستطعه بروست. على فكرة بي نوع من الإحساس أنك ستجرّيني يوما لقرية هذا الرجل وحتى إلى غرفة نومه، أنك ستحرجين الدليل بسعة علمك، أن بعض الحاجين مثلك لبيت كاتبهم المعبود سينظرون باستغراب لهذه الأجنبية التي تعرف التفاصيل التي لا يعرفون. من يدري ربما سيحجّ يوما نقّاد مثلك لغرفة نومي يحاولون سرقة ما لم يسرقه السواح والعسس.

- إيه والله، ما يعجبني فيك تواضعك.

- التواضع ! الكلمة مشتقّة من نفس الأصل اللغوي لوضاعة. ما يهمني ليس أن يقال عني متواضعا وإنما أنني عنيد يرفع كل التحديات وأولها التي وضعها لنفسه.

تشرد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحبّ مطربة :

كتبنا و يا ما كتبنا

و يا خسارة ما كتبنا

كتبنا ميّة مكتوب

ولهلاّ ما جاوبنا

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا و يا ما سيكتبون.

سل من شمخوا بفضلهم والأدب (عمر الخيام)
في الكشف عن العلوم لاحوا شهبا
ماذا اكتشفوا وراء هذي الحجب
جاءوا بأساطير وناموا حقبـــا

-إذن لمـــاذا ؟

– هـل تعرفـين قصـة الشـخص الـذي جـاءه في المنـام كلّلللللـل فلاسـفة البشـرية وأنبيائهـا وعلمائهـا، كل واحـد بمعتقداتـه حـول الله العـالم والآدمـي وبقيـة الأسـئلة اللعينـة الأخـرى. كان يدمّرهـا الواحـدة بعـد الأخـرى بجملـة لا غـير فينصـرف الفيلسـوف أو العـالم سـاخطا. وفي غمـرة الحلـم انتبـه الرجـل أنـه سينسـى الجملـة الـتي مكنتـه مـن تهديـم أعظـم الفلسـفات وأكـبر الأديـان وأعقـد النظريـات العلميـة، فقـرّر أن يسـارع لكتابتهـا حتـى يتذكرهـا عندمـا يسـتيقظ. هـذا مـا فعـل. وعنـد قراءتهـا انفجـر ضاحـكا: كلام جميـل، لكـن هـذا مـا تدّعيـه أنـت!

أريد أن أدّعي مع كل من ادّعوا ...هكذا للمتعة لا غير.

-شريطة أن تجد من يسمع أو حتى من ينتبه لصوتك داخل كل هذه الضوضاء.

-أخشـى مـا أخشـاه ليـس أن يغـرق نصـي مـع كل النصـوص الـتي غرقـت وإنمـا أن تطفـو بعـض مقاطعـه لتسـميم عيـش تلامـذة وطـلاب أبريـاء وقـد أصبحـت– و يـا للمصيبـة– جـزءا مـن الثقافـة الرسميـة. مـا أريـده حقـا وبـلا حذلقـة ؟ أن يكتشـف النـصّ ثعبـانٌ فضـي جـاء مـن أعمـاق الفضـاء في بعثـة حفريـات آلاف السـنين بعـد نهايـة كل هـذا السـيرك فيترجمـه وينـال درجـة الدكتـوراه بامتيـاز في آداب الأجنـاس المنقرضـة.

– دوما وهم التغلّب على الفناء بالحرف.

-الخلود! طُعـم كالـذي تلـوّح بـه الحيـاة للعشـاق : المتعـة لكـم ، لـي البنـون والبنـات. السـؤال مـا الـذي يريـده منـا هـذا الوعـي الجماعـي الـذي يلـوّح لنـا بطعـم الشـهرة لنكتـب ؟

أهدافه "هو!"...لتكن ما تكون ، لكن ما أهدافي أنا ؟...على ما أعي به ثمة استحضار خلاصة تجربتي والرحلة تقترب من نهايتها. ثمةاستعراض ما توصّلت إليه من آراء في المواضيع، الكبيرة منها والصغيرة ، التي شغلت بالي وتشغل بال جلّ المسافرين، لا لإقناع أحد بها وإنما لتوضيحها لنفسي ...والكتابة فرصة لالتقاط الانفاس وأداة لتفحّص الحصاد.

صمت طويل وكل طرف داخل قوقعته يترصّد بنفسه وبالآخر.

– طموحـي غـير هـذا حتـى لا أقـول أكـبر بكثير...إنـه الانكبـاب علـى القصـة الوحيـدة الـتي أعـرف علّـني أفهـم قصـة الآدمـي. أليسـت المعرفـة الدقيقـة بجسـد واحـد معرفـة بـكل الأجسـاد حتـى وإن تباينـت التفاصيـل داخـل التفاصيـل داخـل التفاصيـل؟ هـل تسـاءلت يومـا لمـاذا نقـرأ؟ أليـس لأننـا نبحـث عـن قصتنـا في قصـص الآخريـن ؟ أليـس لأننـا نبحـث في قصتنـا وفي قصـص الآخريـن عـن قصـة القصـص، القصـة الكـبرى الـتي هـي قصتنـا جميعـا ؟

– طيب ، متى ستشرفني بأن أكون أولى قرّاء قصتك ...أقصد قصتي ...أقصد قصتنا ؟

– لا أعرف، بل لا أعرف أصلا هل سأغامر يوما بنشر النصّ.

– الخوف من الرقيب ؟

– من تقديم عمل يجب أن تصل فيه أوجها مهارات عديدة لست متأكدا من امتلاكها.

– مثلا :

– مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة متوحشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات...مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش...مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقا...مهارة الفنّان والنصّ لوحة فنية يجب أن تسطع فيها الألوان أو قطعة موسيقية يجب ألا تعرف النشاز... مهارة سقراط وهو يستفزّ في السامع أو القارئ طاقاته الذهنية ليكون الشريك وليس الزبون .

– المسكين ، كم سيتحمّل منك .

– أكثر مما تتصورين والهدف ليس طمأنته أو خداعه أو إنارة السبيل أمامه وإنما لخبطة تصوراته للعالم، رجّه كما رجّني لاو تسو بنصّ "طاو-تي-كنج».

– سأفتعل تصديقك وأن الهدف ليس ارضاء رغبة مطمورة عند كل الكتاب: إعادة صياغة العالم الذي يعبرون وحتى خلق عوالم أخرى يرونها أجدر بالوجود. والآن ماذا عن العنوان؟

– رحلة الحياة أو كتاب الرحلة، ربما الرحلة.

– إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان فيا خيبة المسعى!.

– هل هي غلطتي و البشر لم يتركوا عنوانا لكتاب إلا واستعملوه نكالة فيّ ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد الحيطة قرونا قبل أن أولد ؟

– بصراحة الصورة قديمة ومبتذلة .

–كيف ؟ ألا أننزل من بين فخذي امرأة كمن ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟ ألا نخترق العالم زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟ أليس صحيحا أن الحياة استكشاف ما يحتويه العالم من ظواهر وأشياء وكائنات ومنها الذات، وأوفرنا حظا من ينهي حياته مالئا جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس، عائدا لصمت العدم بمعنويات السائح الذي اغتنم كل الفرص ولم تغشّه وكالة الأسفار؟...ومع هذا اعترف أن هناك فعلا شيء في الصورة لا يستسيغه فكري .

–قل وعليك الأمان.

– رحلـة الحيـاة تجـارب حسـية شـعورية فكريـة قوامهـا الفعـل في العـالم والتفاعـل معـه لا مشـيا على طريـق يربـط بـين نقطـة وصـول اسمهـا الـولادة ونقطـة نهايـة اسمهـا المـوت. رحلـة الحيـاة أيضـا استكشـاف الـذات لذاتهـا، وهـذه ليسـت سـفرة في مـكان وزمـان وإنمـا غـوص بالفكـر والخيـال والذاكـرة في الأعمـاق المجهولـة الـتي يطفـو الأنـا الواعـي علـى سـطحها. هنـاك أيضـا طبيعـة العـالم الـذي نعـبر. فيـه حقـا مـا يُستكشـف بالجسـد، لكـن جـلّ استكشـافي لـه كان لقمـم الفـن والفكـر والموسـيقى والأداة الذهـن، لا غـير.

ثمـة أيضـا أن الطريـق ليـس المسـار الـذي نشـقه بمحـض إرادتنـا نحـو هـدف نحـن مـن حدّدنـاه فأغلـب تحركاتنـا عليـه كتشـرّد ورقـة خريـف تطـوّح بهـا الريـح في كل اتجـاه... ومـع هـذا ثمـة مـن يعتقـد أن ورقـة الخريـف هـذه هـي الـتي ترسـم مسـار الريـح الـذي تركـب.

– لـي اعـتراض آخـر. المسـافر في رحلـة الحيـاة مضطـرّ للبحـث علـى طـول الطريـق عمـا يسـدّ بـه الرمـق، والدليـل الجشِـع القاسـي لا يكـف عـن التهديـد والاسـتنزاف، يـكاد لا يـترك لـه بعـض اللحظـات لينعـم فيهـا بتأمـل جمـال المناظـر. هـو علـى مثـل هـذا الطريـق في أحسـن الأحـوال سـائح سـاذج رحـل لـيرى، ولم يـر شـيئا وأغلـب الوقـت صيـاد جائـع، متشـرد منبـوذ، محـارب دمـوي، تاجـر جشـع، حـاج مهـووس، مستكشـف تائـه، فـارّ مثخـن بالجـراح، لاجـئ مثقّـل بالهموم.

– اتركيـني أزايـد عليـك. في رحلـة الحيـاة نحـن نرتحـل كالبحـارة علـى سـطح المحيـط الأهـوج وفي الظـروف الـتي وصفهـا ويلـز: سـجناء باخـرة تتلاعـب بهـا العاصفـة، داخلهـا يتقاتـل الـركاب، مآلهـا يومـا لا مفرّ منـه الارتطـام علـى صخـور جزيـرة مجهولـة حيـث ينتظرهـا الهمـج لسـرقة مـا لم يسـرق، لذبـح مـن لم يذبـح.

–ما المتبقّي إذن من شرعية استعمال صورة كهذه؟

–لنقـل أنهـا علـى نواقصهـا أفضـل مـن منافسـاتها، خاصّـة تلـك الـتي تشـبّه الحيـاة بمحنـة وامتحـان أو بعبـث شـرّ مـا فيـه أنـه لا يـدرك أنـه عبـث. أليـس مـن الأحسـن لتوازننـا النفسـي أن نتصـوّر العـالم سـاحة استكشـاف والحيـاة رحلـة فيـه ولـو في أصعـب وأخطـر الظـروف بـدلا مـن تصـوّره منفـى ووجودنـا فيـه محنـة وامتحـان وحتـى عقوبـة علـى جـرم ربمـا لم نقترفـه؟

والآن كفـى مـن هـذا الموضـوع. لم تتركيـني بمقاطعاتـك المسـتمرّة أقـصّ عليـك بقيـة اليـوم التاريخـي.

– إذن بعـد المطعـم والجامـع، كان الأب المسـكين يحـاول إكمـال بقيـة أشـغاله وهـو لا يعـرف كيـف يتخلّـص مـن مشاكسـات «الفـرخ»، مقسـما بأغلـظ الأيمـان أنـه لـن يعيـد نفـس الغلطـة ثانيـة.

– كنـت تسـمعينني إذن! برافـو. اتبعيـني الآن إلى المـكان الـذي كان في عجلـة للوصـول إليـه. مـا أزال أتذكـر الطريـق إليـه. كيـف أنسـى المنطقـة الحدوديـة الـتي كانـت مدخلـي لأغـرب فضـاء مـن فضـاءات العـالم.

– لا أفهم، فسّر.

– حتى أفسّر يجب أن أكون نفسي فاهما. هذا هو المكان.

أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع كدسا من أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين .

– هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو مخصص لأشياء يبيعها محتالون لأغبياء! انظري ما فعل أبناء الكلب بأوّل مكتبة أخذني لها «با»... جعلوا منها هذا ال...هذا المكان الذي يبيع أدوات الطبخ والغسيل والساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدعي أنّ لها بالفن وبالقداسة صلة.

تدفعني مرافقتي إلى الأمام.

– تعال وتماسك نفسك. لا أريد لك السجن بتهمة إحراق محلّ تجاري.

تتدافع الصور إلى سطح الذاكرة وكأن الأحداث وقعت البارحة وليس منذ أربعة عقود.

كانت هذه المكتبة آخر محطة زيارتنا للمدينة وأهمّها في ذلك اليوم المشهود، المكان الذي كان يركض له «با» متأففا من طول الحلاقة والأكل وخطبة الجمعة. يذهل الابن أمام اتساع المحلّ والكمّ الهائل من الكتب التي تتسلق كل حيطانه. لا تعرف للآدميين رائحة ألطف من شعر المرأة وعليه عطر خفيف، ولا للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتضوّع به الكتب. أشعر أنّ «با» يتنفّس هو الآخر بعمق الرائحة المحبوبة. يغفل عنّي لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري..

– "با"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

– نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

– "با" أريد أن أدخلّ كللللّ المكتبات الموجودة، وأريد أن أقرأ كللللّ الكتب.

– ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين، بالمناسبة ما رأيك في نطق كلّ كبقية الناس. ممنوع من الآن تمطيطها بهذه الكيفية السخيفة.

يعرض عنّي«با» منغمسا في تفحّص الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني. ثم ينتبه لوجودي.

– تعال، قل لعمّك ما تريده أنت.

ألمح زاده موضوعا على الطاولة في شكل كوم من الكتب الرثّة والمجلّدات الفخمة والمجلاّت زاهية الألوان والجرائد الرمادية...وأنه يتعالى دقيقة بعد أخرى. متى سأكبر وأقرأ الكتب التي يقرأها «با»؟..متى أنشد الشعر مثله فتتعالى صرخات الاستحسان؟ متى أجادل مثله فأفحم الصغار والكبار ؟ متى أجوّد القرآن كما يجوّد فيتعمّق الصمت والخشوع من حولي؟...

– أريد آخر عدد لمجلّة سندباد وكلللللّ القصص الهنديّة لكامل الكيلاني وكتب جورجي زيدان و...

يفتح البائع فمه:

– كم عمره! من أين يعرف...؟

يغالب "با" زهوه:

– هات له ما عندك من قصص الأطفال حتى لا يقرأ كتبي فيفهم منها أكثر مما أفهم.

مؤكّد أن للآدميّ نهما للرموز مثلما له نهم للماء والطعام والجنس، إن أنت حرمته منها، حرمته من إحدى أهم ضرورات الوجود. لا شكّ أن هناك أمراض فقر الرموز كما هناك أمراض فقر الغذاء... أن الذات التي تتغذّى بالرموز المنعشة في صحّة أحسن من تلك التي تعيش على جوع الصور والأفكار... أن هناك نصوص مجعولة لبناء بعض «الأعضاء» الرمزيّة للذات وترميم البعض الآخر منها أو للدفاع عن تماسكها ضدّ جراثيم لغويّة قد تكون أشدّ فتكا من تلك التي تقتل في فضاء الحواس. قد ينتبه الباحثون يوما لضرورة علم جديد يكتشف خصائص الأغذية الفكرية والروحية ذات الوحدات الحرارية المرتفعة والتي يؤدّي غيابها إلى وهن الفكر كما هو الأمر عندما ينقص الجسم فيتامين أو آخر.

يتعالى كومي وألاحظ أنّه لم يصل إلى مستوى كوم «با»، فما بالك بالارتفاع فوقه. يصرخ الرجل وقد امتقع لونه:

– أتريد إفلاسي وأن نرجع إلى البيت مشيا على القدمين؟

يتدخّل البائع بلطف:

– لا تحمّل والدك فوق طاقته. ما أخذته زادٌ لأشهر قراءةً.

يأخذ «با» في تقليد لهجة البائع الحضرية:

– ولا تحمّل والدك فوق طاقته...

يعود للصراخ بلهجته البدوية:

– ما دام والده حيّا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه. سيلتهم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا...الخ

يدخل «با» في خطبة طويلة عن القراءة، وكيف أنها عشق الأب والابن، أن من شابه أباه فما ظلم. يفتح البائع فمه مجدّدا. كان «با» لا يحبّ شيئا قدر حبه للخطب، وكان- والحق يقال- خطيبا مفوها. كم رأيته يفحم خصومه في أي جدل أو يستلّ من القضاة براءة مذنب، حبّا في التحديات لا حبّا في مال المجرمين.

أعود للكوم أعلّيه وقد قرّرت تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند «با» وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، وغير مبال بالبائع يخفي سروره وشماتته. يأتيني

إنذار صامت يعلمني أنّه من الأحسن أن أتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير، فأتوقّف. نخرج من المكتبة، هو يضحك من فرط الغيظ وفي عجلة من أمره للاختلاء بكنزه، وأنا أضحك من فرط المرح في عجلة من أمري للاختلاء بكنزي. نتّجه للمحطة وقد بدأ ظلام الليل يزحف على آخر مارة يسرعون لبيوتهم، هذا النقاش أو ما يشبهه داخل عربة قطار شبه فارغة.

– "با"، هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلوماتك. من أكرمنا؟

– النصراني حاتم الطائي.

– من أشجعنا ؟

– الأسود عنترة بن شدّاد.

– وأوفانا ؟

– يهودي اسمه السموأل.

– وأشعرنا ؟

يرسم «با» على محياه ابتسامة التهكّم ثم يصرخ.

– قطعا ليس ذلك الأخرق الذي قال «إذا الشعب يوما أراد الحياة». لو قال على الأقل "إذا هذا القطيع يوما أراد الممات «، لكان من الصادقين... طبعا أكبر الشعراء هو...

– أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.

– هل ثمة غيره يا مغفّل؟

– «با»، أريد أن أكون مثله لما أكبر.

ينفجر الرجل ضاحكا :

– فقط!

ثم يستشيط غضبا كالمعتاد.

– إياك ثم إياك. كن شجاعا كعنترة، كريما كحاتم، وفيّا كالسموأل. حذار أن تصبح شاعرا ولو كهذا الرجل الذي عقرت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كثّر الله فيها من شعراء، بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحها شعرهم.

– ماذا أكون إذن؟

– مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلا. كن طبيبا والآن اتركني أقرأ جرائدي.

هكذا قرّر الرجل وجهة حياتي في لحظة خاطفة ثم عاد لقراءة جرائده .

نصل أخيرا بيتنا ليس فيه عدا بعض الأثاث البائس إلا السلاح والكتب. لا نكاد ننتبه للعشاء المتواضع التي قضّت «ما» يومها في إعداده. تفتعل السرور بما أتينا لها به من الحلوى. يسارع «با» إلى كتبه ويرحل. أسارع لكتبي وأرحل بدوري. تشيح المرأة ببصرها عنّا وهي تغسل الصحون. صورة لها لن تمّحي وهي تورّق، ببطء وبانتباه شديد، كتابا أصفر رثّا، تطيل فيه النظر، ثمّ تغلقه بعصبية، تشيح برأسها، لا تنبس ببنت شفة، ولا أحد منا منتبه إلى أنها مثل عصفور في قفص علّق في سقف زنزانة... والمفتاح شيء سحري لا تملكه، آن الأوان لرواية ظروف سطوي عليه.

* * * * *

فضاء الحروف والكلمات

قدرنـا أن يرتطـم استكشـاف الفضـاء الجديـد بمطبـات ومصاعـب لا تقـل عـددا وخطـورة عمـا نلاقيـه ونحـن نستكشـف فضـاء الحـواس لأن القاعـدة في هـذا العـالم كانـت وسـتبقى : لـكل ثمـين ثمـن باهـظ .

تهمس أمّ في أذن طفلها النائم وبها عصبية غير معهودة :

– انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

– أين سنصل متأخرين ؟

– الكتّاب، هيا، لا تتثاقل!

– الكتّاب! لكنّني ذهبت إليه البارحة.

تغالب "ما" نفسها حتّى لا تنفجر ضاحكة.

– ستذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيّام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنهـا نبرتهـا عندمـا تتحـدّث عـن الذهـاب إلى الحمّـام، أي أن الموضـوع غـير خاضـع للابتـزاز والمسـاومة. ومـع هـذا المحاولـة ضـرورة .

– لماذا؟ ألا تكفي مرّة واحدة ؟

– لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلكأ.

تجـرّ الطفـلَ امـرأة بهـا حمـاس مبالـغ فيـه غـير مباليـة بحمـاس طفـل أقـلّ مـا يوصـف بـه أنـه كان فاتـرا. كل هـذه العجلـة للعـودة إلى مـكان ليـس هـو مركـزه!

– أردّد لـك مـا قلتـه البارحـة: لا تتشـاجر مـع الأطفـال، لا تتشـيطن كعادتـك، انتبـه لمـا يقولـه المـؤدّب، قـل لـه: «سـيّدي» عندمـا تتوجّـه إليـه، كـن شـديد الاحـترام لـه، لا تعـص لـه أمـرا، اجلس قريبـا منـه، اسـتوعب مـا يقـول، قبّـل يـده عندمـا يدعـوك لتمثـل أمامـه، لا تكـن وقحـا، لا تتكلّـم صارخـا أمامـه، أطعـه في كلّ شـيء، لا تنـس أنّ الفلقـة دومـا بجانبـه، لا تعـرّض نفسـك لمـا أكـره ولا ترضـى، لا تنـس أنّـه هـو الـذي سـيقودك مـن الظلمـات إلى النـور، أنـه هـو الـذي سـيعلمك كلام اللہ.

عـادة الأم الأزليـة المسـتحكمة في إغـراق الطفـل الأزلـي بنصائـح لـو كان لهـا أدنـى تأثـير لتحسّـن الجنـس البشـري منـذ زمـن طويـل...والدليـل أن ذلـك لم يحصـل بقيـة الحـوار والنـصّ

– لا أريـد أن أتعلّـم كلام اللّه. أريـد أن أذهـب إلى غابـة الزيتـون لاصطيـاد الحجـل بمقلاعـي الجديـد.

تجذب «ما» يد الطفل بشدّة وهي تنظر حولها بانزعاج :

– لا تكرّر أبدا مثل هذا الكلام، خاصّة على مسمع الناس.

يصلا الكتّاب وهو ركن من جامع المدينة الصغيرة التي رمتهما على ضفافها أمواج النزوح. تدفع الأم طفلها لتخطّي الباب... وتتمسّك بيده بقوة، جزء منها يحثّ على الفراق وآخر يرفضه.

توصية عقيمة إضافية بخصوص عدم الكلام مع المؤدّب بوقاحة وعدم الصراخ في وجهه أبدا وبالجلوس قريبا منه وحتى بجنبه للتبرك والنهل المباشر من نافورة العلم.

تسترجع الذاكرة صورة عجوز، يلتحف ببرنس من الصوف البنيّ وعلى رأسه شاشية حمراء يلفّها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيرا لوهج شمس الفلاّحين، ويدان بضّتان لرجل لم يمسك في حياته سوى القلم والورق.

كان يفترش سجادا مهترئا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار وكلهم جالسون أمامه صفوفا متراصة في أعجب فوضى. يومها غامر بالجلوس قريبا من الشيخ ليبصره عن كثب. فوجئ بنظرته الجانبية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدّر حظوظه– خطأ كما هو الأمر في أغلب حسابات الآدميين– في استعمال الآخر لمآربه. يداهمه شعور بالتهيب. ألم يسمع من "ما" أنّه يحفظ كلللللّ كلام الله، وأنه يعرف ما لا يعرفه حتى "با"؟ قد يكون الخوف ثاني أقوى المشاعر إذ كانت للرجل عصا طويلة يلوّح بها طول الوقت، ومن ثَم قراره السريع بالبحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفيّة ليكون أبعد ما يمكن عنها...وعن جهاز رهيب تسمّيه اللّغة «الفلقة» وكان الشيخ يحفظها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكل العيون، جاهزة لكل الاحتمالات.

الفلقة! أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روضت أمّة برمتها كما لم تروضها جيوش الغزاة على مرِّ التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخوف والطاعة وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لتجعله يسير في قوافل المروَّضين.

للمدافعين عن حقوق الطفل والمستنكرين لكل عنف ضدّه، أقول لهم نعم ، نعم ، كل حججكم هذه أعرفها عن ظهر قلب ورددتها في أكثر من محفل بل وعن قناعة. لكن بيني وبينكم وبعيدا عن الآذان المتطفلة وعلما أنني ذقت الفلقة أكثر منكم وبكثير ...أي وسيلة أخرى للتعامل مع أطفال فيهم هذا الكم من النزق والطيش والغباء والعنف، مع هذه الكائنات التي لا أكثر منها توحشا والتي فشلت الأديان والسياسية وحتى الفلقة في جعلها كائنات عاقلة ومسالمة؟ تصرخ فيّ أنني خيبت ظنّك.

طبيعي أن يصرخ فيّ الطفل الذي كنت : يا خائن القضية... وأن اضحك منه بشماتة وأنا أراه في أكثر ملفاتي طرافة وحلاوة يعود للبيت بقدمين كأنهما طليتا بالفلفل، يمشي على الجمر لا على الأرض، وكل همّه دخول البيت محافظا على مشية لا تلفت الانتباه. لكن، كيف تفادي حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار «ما» على هذه العادة

البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، لم يكن من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها. كيف يعترف ل «ما» أنّه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع ؟ أنّه قام ليجلس بعيدا عن الفلقة والعصا لا يستأذن إلاّ من نفسه؟ أنّه لم يقل للعجوز : «سيّدي الشيخ» وهو يخاطبه؟ أنه لم يظهر له من الاحترام إلاّ أقلّه ؟ أنه لم يقبّل يده بعد حصّة العقاب، بل عضها؟ أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك. ثم ماذا لو سألته عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها ؟

تتظاهر «ما» بأنّها لا ترى مشيته. لا تلقي أيّ سؤال. تغفل- على غير عادتها- حصّة غسل القدمين الإجبارية، مظهرة مزيدا من الحنان. يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويف، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصا طويلة وقدمان داميتان فوق سحاب كثيف وشيخ بدين يركض وراءه، يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ويصبح فيها عصفورا.

تهز اليد الرقيقة الطفل بحزم :

– انهض. حان الوقت.

– اذهبي أنت إلى هذا الكتّاب العزيز عليك. تعلّمي فيه كلام الله وكلام من يعجبك. نادي العجوز الكريه «سيّدي». قبّلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أمّا أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود للكتاب مهما قلت وفعلت.

– يا بني لا بدّ أن تذهب كل يوم للكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان في شبابه مؤدّبا؟ كم سيكون رائعا أن تشبهه، وكم سيكون بك فخورا يوم تصبح مؤدبا، تعلم صبية قريتنا كلام الله.

– لا أريد أن أكون مؤدبا، أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرجل، ولن أعود للكتّاب أبدا، أبدا ! !

تأخذ "ما" طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلا موجوعا وإنما الرجل النائم داخله.

– رأيتك في المنام عالما بارعا باللّسانين ؟ نعم، جاءني في المنام- وأنا حبلى بك- ملاك بشّرني بهذا. هل تكذّب ملاك اللّه وتخزيني؟ هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة أنت الذي جبلت على حبّ الصراع ؟ كم هو طويل الطريق أمامك لتصل المراتب التي يريدها لك "با" والتي حلمت بها!

هل أتاها الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجمر؟ المهمّ أنّه أتاها واتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطفل عالما بارعا باللّغتين. لم يعد مطلوبا سوى التطبيق إذ لا حقّ له في إفشال مخطّطات سرّية تتوارى داخلها أحلام وردية للأم ورغبة

عارمة عند الأب في الثأر. إنها القاعدة في هذا العالم. محكوم عليك أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في الدّور الذي حدّدته لك طاولة القمار.

يستمرّ الطفل في عناده رافضا مواجهة تجدّد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم «ما» وهو في بداية البداية ؟ تستخرج الأمّ من خوفها المفاجئ الحجج التي لا تقاوم.

– تعلّمت بعض الحروف من أخويّ، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيني بالبقيّة. آنذاك سأقرأ كلام الله وسيّدنا. هل ستخذلني؟

يتوجه الطفل لأمه ببالغ الاستغراب وبانتباه جديد:

– أنت لا تعرفين القراءة ؟

– في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات للكتّاب .نعم أنا لا أعرف.

تضع الأم يدها على رأس الطفل؛ تداعب وتتلطف وتبارك :

– سأعرف عندما تعود إلي محمّلا بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه وقد تغيرت كل المعطيات:

– سأذهب لآتيك بها. وسأتوقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

– كلّ ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.

في ذلك الصباح لم يجر صبيّ في الخامسة وراء العصافير، وإنما قصد- بمحض اختياره- مكانا كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشدّه... كل ذلك لأن الأقدار الظالمة ألقت على كاهله الغض بمهمّة حمل مفتاح باب السجن لسجينة كانت أهمّ مخلوق عنده.

وهذا عالم نادرا ما تحصل فيه على ما تريد دون دفع ثمن باهظ كأنّ فيه نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات مملّة يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردّدا خلف المؤدّب كلاما لا يفهم منه شيئا، ولا أظنّ أن أحدا كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه. تداهم الطفل، وهو يردد كالببغاء، أسئلة فيها كثير من الثورة والاستياء: ما الحمد؟ ما الربّ؟ ما العالمين ؟ ما معنى كل هذا الكلام الغريب؟ ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟ وما معنى الخنّاس ؟

يغلبه التهوّر فيتجاسر :

– سيّدي، ما معنى خنّاس ؟ ولماذا يوسوس الشيطان في صدور النّاس ؟ وكيف يفعل ذلك ؟

من أين له العلم أنّه دخل عالم الفكر، وهو في مثل هذا العمر، من باب المطالبة بالحجة؛ أي من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. يجب أن يتعلّم هذا الصغير أنه لا مجال للسؤال وإلاّ كان الردّ ضربة عصا بارعة، وأمرا لا يقبل نقاشا بالسكون ومواصلة الترديد. كأنّ هذا الشيخ تفطّن أن الطفل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوما بأقبح ما يكرهون،

فأراد أن يقوّم هذا الخطأ في تركيبته الذهنيّة بأشدّ العقاب علّه يكتسب أجرا في الدنيا وثوابا في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرّة والشيخ أحسن مزاجا :

– سيّدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخنّاس؟ ولماذا تبّت يداه ؟ وما معنى تبّت ؟

أخيرا يستبطن أهم ما يعلّمه الكتّاب والحياة بصفة عامة، أنّ تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول. يتعمق كرهه للمؤدب وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان مجعول لمنع ظهور السؤال ؟

كان الشيخ ينهض من فراشه الوثير لقضاء حوائج كثيرة، يختفي ساعات، يسلّم إبّانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون ككلّ سلطة إلاّ بالفلقة والعملاء. كان همُّ العميل هذا (وهو أطول الأطفال قامة وأكبرهم سنّا) أن يصفّي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضّل. لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسّف العريف، عقوبات كافية لتثنيه عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

لكن هذه الحروف اللعينة ما زالت ترفض الحضور بين يدي من هو بأمسّ الحاجة إليها.

أعود إلى حبيبة الدار كلّ مساء مثقّلا بآلام غير مفهومة السبب، أردّد عليها ما علق في ذهني من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كم كانت تطرب لسماعها.

– «ما»، لا حروف في هذا الكتّاب، لماذا لا نبحث عنها في كتّاب آخر؟

– صبرا أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كل صباح مع العصا والصخب والحصير، وكل مساء مع حرقة الشعور بالذنب والقهر. ها قد بدأت «ما» تتخوّف بجدّ من صدق وعد الملاك. تتشنّج أصابعها وهي تمسك بكتفي ابنها :

– لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي في هذه الحالة. انظر إليّ مليّا. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير ابني خالتك هنا ؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أو رعي الأبقار والغنم عند الأخوال. لا أريد لك هذا أبدا، هل تسمع؟

– ...، ...، ...، ...، ...،

– لا يجب أن يحصل هذا أبدا. أبدا ! !

– ...

– كم سأكون فخورة بك وقد حفظت الستّين حزبا. كم سيكون «با» فخورا بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تيسّر منها.

– ...

– برأس والدك، كفكف دموعك، إنها تمزّق قلبي. غدا يفتح الله. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكّر والسمن. وأنت لا تكن سليط اللّسان كعادتك. لا تركب رأسك طول الوقت، فلست دوما على حق. سأصلّي الليلة كثيرا ليهديك الله.

ولأنّنا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء–أو هكذا نتصوّر–، فإنّنا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصا وأكبر فلقة تضعها حول قدمي البشريّة جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات (في إطار سياسة كلّ سلطة تصنّع الاهتمام ببعض التظلّمات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدفّق العصيدة بالسكّر والسمن)، قرّرت إصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يركب الطفل رأسه ويتّخذ له طريقا قد يقوده ليصبح عالما بأحد الرَّعْيَيْن أو بكليهما حسب تهديد أمه.ربما تدخّل حليف «ما» بحزم وإلحاح لدى مكتب التظلمات الكونية. قد تكون علاقاته الشخصية مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطفل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم. ربّما لم يحصل شيء من هذا، وكلّ ما في الأمر أن الطفل وجد أخيرا ضالته...كالعادة بتلاقي الصدفة والضرورة .

ذات صباح يتنحنح الشيخ بوقار :

– والآن إلى لوحاتكم لتعلّم الحروف الأولى التي كتب بها كتاب الله.

أهم متطلبات استكشاف الفضاء الحسي، جسم سليم، حواس نشطة، ثياب تقي من البرد والحرّ وحذاء متين من المستحسن ألا يكون ضيّقا. أما لاستكشاف فضاء الحروف والكلمات، فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة، وعلى الأقل أربعة أشياء توفرت كلها يومها للطفل: قصبة مذبّبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوحة من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء لتمحى الكتابة وتعاد. حاسوب ذلك الزمان. يا للأدوات المتواضعة لغزو أفسح فضاءات عالم الآدميين! من أين للطفل–وهو راكع منكبّ على لوحته، يكاد يلاصق وجهه خشبها– الوعي بأنه وضع أولى خطاه على طريق مجهول سيقوده إلى مستنقعات الفكر وقممه الشماء. كم كان بعيدا عن تصور شساعة ذلك الجزء من العالم الذي دخله ذلك اليوم وكم كان سيصاب بالإحباط لو قيل له أنه سيقضي في استكشافه جلّ زمن الرحلة وأنه سيكون كمن يبحث عن اللؤلؤ المنضود في أعماق البحار. كم كان بعيدا عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعرا وغناء... وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كل تصوراته لذاته وللعالم.

مستكشفنا الصغير منهمك الآن، مبهور بهذه الأشكال الهندسية التي تصبح أصواتا، فكلمات، فجملا، فصورا، فأفكارا تتزاحم داخل فكر نهم يقظ. يشهر قلم القصب وهو يقطر صمغا كسيف دامي في وجه عدوّ شرس اسمه «الجهل».

يبدأ كتابة الأشكال التي أمر بها الشيخ، أو قل رسمها. لا بدّ من التحكّم في تشنّج اليدين حتى لا تنطلق العصية الواقفة إلى الجزء الأعلى من اللوحة. كم تبدو محبّبة لما فيها

من سهولة الرسم ! يتعلم الطفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصية قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مخالف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقط. ما أسهل الحروف وما أجملها! يرمي لوحته ليرقص طربا. لقد تعلّم من سيدي الشيخ خمسة حروف دفعة واحدة. ها قد اكتسب ترديد الجمل غير المفهومة معنى آخر وكذلك ألم العصا. أليس ضريبة الحصول على الحروف التي تنقص "ما"، وأهمّ حتى من هذا، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو ؟

يشعر الطفل لأوّل مرّة بأنّ للشيخ قيمة لم تقدرها إلا "ما" العارفة بكل ما يصلح ويفيد. يغمره التهيّب. تتغيّر نظرته للمؤدّب العجوز حتى وإن لم يفهم بعد أنه أول حلقة في سلسلة أدلاء سيقودونه في فضاء غير الذي فتح فيه عينيه وتفتحت فيه بقية الحوّاس. عشنا تسعة أعشار المائة ألف سنة من تاريخ الجنس الآدمي والذي يفتح لنا الطريق في الفضاء الحسّي دليل مسلّح. الإضافة الكبرى للحضارة، خلقها لفضاء مصنوع من الرموز ندخله وراء دليل سلاحه القلم.

*

الآن وقد فرغ الطفل من اكتشاف معجزة العصيّات والنقط، لا بد من وضع الدوائر تحت السيطرة. تداهمه من جديد أفكار غريبة. لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرته وعصيته الراقدة على ظهرها ونقطته وكل هذا التعقيد غير الضروري الذي ستواجهه «ما». أليس من الأسهل للحصول على ف وضع نقطة على الألف وعصيته الواقفة خالية من كل تنقيط ولا تنتظر هي الأخرى إلا حقها من النقط. بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاث نقط لنحصل على الكاف وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف؟.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لا يبق إلا عرض اكتشافه على المؤدب .

– سيّدي الشيخ! سيّدي الشيخ! سيّدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهّل كثيرا على «ما» حفظ الحروف!

– ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصبية الحمقى حماقة.

يضع الطفل يده على خدّ التهب، لا يفهم لماذا صفعه الشيخ وصبّ عليه كلّ هذه اللّعنات. يعود إلى لوحته، ولسانه بين أسنانه يواصل تجاربه مأخوذا. ما أغبى هذا الشيخ وكل من وضعوا الحروف. مهلا، سيأتي الكبر ومعه حرّية كتابتها بما يشاء من النقط. هو في سنّ لا تمكّنه من فهم وقبول أنّ من وصلوا قبله ثبّتوا الرموز في فضاء الفكر كما ثبّتوا العلامات في فضاء الحواس لا خيار له، غير اعتمادها في انتظار أن...

– سيّدي الشيخ، سيّدي الشيخ!

– اخرس يا كلب، قلت لك: لا وجود لحرف فوقه أربع نقط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم هل رأى ما أرسم خلسة؟!

كم ظلمت الرجل المسكين عقودا عندما جعلت منه مثال كلّ تخلّف! مما يزيد اليوم في تسامحي معه أنني لم أعد متأكّدا أنّ من تتلمذت عليهم في أرقى جامعات الدنيا يعرفون أكثر منه بخصوص الأسئلة الوحيدة التي تهمني أجوبتها ؟

وفي كل الأحوال لا تخش يا شيخ من ثأري، رغم كثرة ما توعدتك به في الجهر وفي السرّ. لقد غفرت لك منذ زمن طويل ما ضيّعته علينا من فرصة ثمينة لنخترع سويّا أبجديّة جديدة للغة الضادّ أكثر اقتصادا وأناقة بل وغفرت لك حتى ثلاثين صفعة وأربعا وعشرين فلقة وما غفلت عن إحصائه من ضربات عصاك النشيطة تلك المصنوعة من غصن الزيتون وليست الأخرى القصيرة المصنوعة من القصب.

على ذكر طول العصيّ وقصرها، عن الجاحظ : «كان معلم يعلم الصبيان ومعه عصا طويلة وأخرى قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق فسألته ما هذه ؟ أجاب : عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفّر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالطويلة فيفرّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارّة ذلك فيسارعون إليّ ويخلصوني منهم».

الاقتراح : الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور لهذا الكتّاب ولهذا الشيخ طيب الله ثراه وأسكنه في أفخم «سويت» في الجنّة. أقيس مدى خسارتي . شبه متأكّد أنه كان سيقبل بتحسيناتي للغة الضادّ وأن مصير هذه الأخيرة كان سيأخذ بفضله وبفضلي مسارا آخر ، المهم أن الطفل تحصل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن بقي–إلى اليوم– غير مقتنع بضرورة رسمها بذلك الشكل . كم سيثير إعجاب أمّه بحصيلته هذه.

– «ما»، اليوم تعلّمت كلللللل» الحروف. إنها أجمل من كلام الله.

– قلت لك: كم من مرة ألا...

– الصمت؛ الليلة سأعلمك فقط ثلاثة منها. أجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس "ما" فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أنّ صديقها الملاك جدّي موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. التقط عود حطب رقيق ألوّح به في وجهها، إذ كيف أكون معلّما ومهابا إن لم يكن بيدي رمز المهابة والعلم ؟ ثمّ أبرز لوحتي من وراء ظهري كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهديّة الهدايا.

– انظري مليّا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. ألاحظت الفرق ؟

– نعم.

– نعم يا...؟

– نعم يا سيّدي الشيخ.

– انظري جيّدا إلى هذا الحرف الذي هو عصا واقفة. إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاث أين حرف الألف؟

– هو هذا يا سيّدي الشيخ.

– حسن جدّا. والآن الحرف الثاني. انظري مليا ولا تتبسّمي . إنّه عصا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلا إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

– هذا الألف وهذه الدال، يا سيّدي الشيخ؟

– والآن هذا حرف ينطق ذ، وليس د؛ لأنّ فوقه نقطة. فهمت الفرق؟

– نعم، يا سيّدي الشيخ.

– والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

– لا أعرف، يا سيّدي الشيخ.

لا بدّ من التروّي، فهذه التي ستنال العصا هي «ما»، وعلى كلّ حال هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصة، علما وأن الله نفسه لا علم له بوجودها والدليل أنه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرثّ، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبدا؟

– طيب؛ لنراجع كل ما علّمتك.

الإجابة صحيحة كلّ مرّة. أقرّر أن أنتظر إلى الغد، فلا بدّ أن تنسى حرفا أو حرفين وآنذاك سأستطيع عقابها دون أن أظلمها، مع العلم أنّني لم أكن أنوي الضرب إلاّ بكثير من الخفّة ولمجرّد أن أستشعر ما لي من سلطة جديدة.

ترفع الأم إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادرا.

– إياك أن تبوح لسيّدي الشيخ، أو لأحد آخر، حتى لوالدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمّك وأن يقولوا: مجنونة تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتّفقنا، أليس كذلك؟

– بالمقابل أريد...

– كل ما تريد، كل ما تريد.

ينتظم تهريب الحروف من الكتّاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ "ما"، والطفل مسكون بهاجس طبع بقيّة الرحلة. إنّه لا يتعلّم لحسابه الخاصّ فحسب... إنه صاحب رسالة ومسؤولية.

تمرّ أيّام الطفل سعيدة وهو بين صمغ وطين ولوح، وأشكال تبرز وتختفي، تنطق بأقدس الكلمات.

– «ما»، لماذا هي مقدّسة كلمات هذا الكتاب؟ وما معنى مقدّسة؟

– إنها كلمات فيها... أقصد لها...لا تشغل بالك بهذه الأمور.

يقرر الطفل– على العكس– أن يشغل باله بموضوع الكلمات. لماذا هناك المقدّس منها وغير المقدّس ؟ وما الفرق ؟ ولماذا تلعب كلمات معيّنة الدور الهائل الذي تلعب في حياة "ما" ومن ثمّ في حياته؟ لا بدّ أن يكبر وأن يكبر كثيرا، ليفهم يوما أن العالم الآدمي مصنوع من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الأحاسيس والمشاعر... أن الزمان والله والموت والآخرة والعفاريت والعدالة والقانون والتقدم والبيئة والحضارة، لبنات لها من الأهمية في تشكيله ما للألوان والأشكال... أننا نعبره تحت تهديد الحرّ والقرّ والجوع والمرض... وتحت تهديد كلمات بأنياب ومخالب تخرج علينا من أدغال الأوراق وشاشات الحواسيب.

*

تغتنم «ما» لحظة هدوء لتعلم الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

– غدا سيكون يوما أغرَّ في حياتك، يا بنيّ. ستذهب إلى المدرسة العصرية لتتعلم فيها المزيد. إنها قريبة من محطّة القطار ولن تتعب كثيرا في الذهاب والإياب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكرّاسة وكتاب قراءة جميل.

– لن أذهب إلا للكتّاب.

– أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، وهذا عمر الذهاب إلى المدرسة.

– لكن هناك أطفال أكبر مني في الكتّاب!

– أبوك وأنا نريد أن تذهب إلى المدرسة. سترى أنها أحسن بكثير من الكتّاب.

أحسن من الكتّاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحته وعن الماء والطين والصمغ؟ كيف يتنازل عن متعة معابثة الشيخ والسخرية منه، خاصّة عندما يرتفع شخيره في حصّة الظهر؟ كلاّ، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما لا يعلم.

تتواصل المفاوضات الصعبة وحجر العثرة خوف مبهم أن تكون عصا الشيخ الجديد أطول من التي تعوّد عليها والفلقة أكثر وجعا. تواصل «ما» عملية الإقناع غير منتبهة لمخاوف الطفل وإنما لمخاوفها هي:

– لن تذهب بعيدا بالزاد الذي يوفره الكتّاب. هو لا يخرّج إلا رعاة القرية.

تأخذ الأمّ حجج الطفل الواحدة بعد الأخرى، تقلّبها، تنظّمها، توضّحها، ثمّ تفنّدها، تخاطب في ابنها كائنا له عقل. يتسلّل إلى عقله أنّ العرض قد يكون في مصلحته حقّا، خاصة أنه يأتي من «ما». ثمة أيضا أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة و إمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها "ما" بحرص شديد؛ لا تخرجها إلاّ نادرا تمسح عنها الغبار وتقبّلها.

– سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا عدت للكتّاب.

تسأل "ما" الطفل بعد أيام وقد اتّسع ربع ابتسامتها:

- والآن ماذا قرّرت؟ هل تواصل في المدرسة أم تعود للكتّاب ؟

لا يفهم الطفل للسؤال معنى ولا يكلّف نفسه عناء الردّ عليه.

تكتمل ابتسامة الرضا عند الأم، تظنه أغرم بالمدرسة، وكان مغرما بالمدرّسة.

يصرخ المارّة في طفل في عجلة دائمة للقائها كل صباح.

- يا فرخ، يا مجنون، يا غبيّ، يا أحمق ! !

غريب ما سبب هذه الضوضاء، ولماذا يشتمه المجهولون وكل ما فعله الانسياب تحت القطار الواقف يسدّ عليه طريق المدرسة ! آه، هو سبقهم في حين بقوا ينتظرون تحرّك القطار. يحدّق الطفل في المعلّمة، وهو تحت وقع انبهار اليوم الأول نفسه، لا يسمع شيئا مما تقول وكله تركيز منبهر على أصابعها وعريها المدهش وغرابة وجودها في مثل هذا المكان. كيف يمكن للأنثى أن تحلّ محلّ سيّدي الشيخ والحال أنّه من المعروف عن الإناث أنّهن جاهلات أميات مثل "ما" لا يخرجن من بيوتهنّ إلا للعائلة والحمّام والقبر. يفرك عينيه؛ يريد أن يتثبّت هذه المرة انّه يرى فعلا ساقين عاريتين إلى مستوى الركبة. يسقط قلمه عمدا، يفتعل البحث عنه تحت الطاولة. ومن ذلك المرقب يأخذ وقته ليتأمّل الساقين المصقولتين، يتابع بخياله تواصلهما تحت الثياب حيث تنتهيان بأشياء مختبئة لا يدري ما هي بالضبط، ولا يجوز حتّى التفكير فيها.

- ماذا تفعل تحت الطاولة ؟

- أبحث عن قلمي ولا أجده يا سيّدتي.

- هل تنوي التفتيش عنه الصباح كلّه ؟

يعود الطفل إلى استقامة الجلوس والقلم تحت قدمه للبحث عنه مرة أخرى.

كيف التركيز والذهن منشغل بسيدتي؟ أين تسكن؟ وهل تسكن مع أحد؟ هل لها زوج؟ وهل تقبل به زوجا إن حملت لها «ما» كثيرا من الهدايا في «الكنسترو» ؟ هل ستبرّر رفضها بحجة أنه ما زال صغيرا ؟ ولماذا لا يتزوّج الصغار الكبار ؟ وهل ستعطيه أحسن العلامات إذا تزوّجها ؟

همّه الأوحد الآن الفوز برضا الحبيبة وقد استبطن سريعا أن عليه أن يكون أوّل من يتجاوب في لمح البصر مع الرغبة المعلنة والمخفيّة، ليمنع عن التلميذ الآخر رضا لا يريد فيه شريكا. إنها معركة أخرى بين الأطفال رهانها هذه المرّة الظفر بسيدتي .كم ترى على مرّ السنين من رياء، من خبث، من تصنّع الحبّ، والهدف دوما التخطيط عبثا لامتلاك ذات أخرى والحال أنه لا قدرة لأحد على امتلاكها وهي لا تملك نفسها !

تواصل المرأة المرهقة تزويد القافلة الجديدة بالأدوات الضرورية لخلق عالمها وشقّ الطريق فيه.

- فهمتم، يا أطفال، أننا نستطيع بوضع الحروف جنبا لجنب كتابة كلمات كثيرة. وعندما نتعرّف عليها نستطيع قراءة كل ما هو مكتوب في الكتب. انتبهوا جيدا لأنني سأطلب منكم قراءة التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يكون ذلك بنظافة تامّة.

يصرخ الطفل المتهوّر:

- إنها كلمات سهلة، أعرفها كلها، سيدي الشيخ علّمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلّمة ابتسامة صفراء :

- طيب، اكتبها إذن وتذكّر أنك تكتب على الورق ليس على اللّوح.

أضع لساني بين أسناني وأنفي على الصفحة البيضاء. أبدأ برسم حروف كلمات سيدتي السهلة، وهي كما وعدت "ما" بنفس حروف سيدي الشيخ.

- حسنا، حسنا، اكتب على السطر دوما، وبنظافة.

يسجّل الطفل أن «سيّدتي» أطالت النظر إلى بقعة من الحبر، لكنها لم تصرخ ولم تنزل عصاها على الظهر. كل هذا بشير خير.

يفرغ بسرعة من إعادة كتابة الكلمة مستوية مع السطر دون بقع حبر.

يا لهؤلاء الأغبياء، من أين لهم قصب السباق وهم يتهجّون كلمات بمثل هذه البساطة! ماذا يفعل في الأثناء؟ طبعا كتابة كل الكلمات التي يعرف لإهدائها لسيدتي والفوز بإعجابها.

- سيّدتي، انظري قائمتي؛ إنها طويلة، لكن هل فيها كلللللّ الكلمات؟ سيدتي، كم هناك من كلمات؟ وهل سأحفظها يوما ؟

إنها بداية بروز توجّه جديد عنده لن يضعف، بل سيزداد قوة بتقدمه في العمر: الحرص الشديد على تجميع أكبر عدد ممكن من الكلمات وإنفاق أقل قدر منها بالثرثرة الفارغة.

تحدّق المعلّمة في الطفل بدهشة. تردّ بعصبيّة لا يفهم سببها مشيحة البصر عن الورقة المرفوعة إليها كباقة ورد :

- أريد أن يأتي وليّك معك غدا، والآن كفّ عن الصراخ. بالمناسبة أريدك من هنا فصاعدا أن تجلس في آخر القسم. تحدّق الأم في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتسع ربع ابتسامتها وفي عينيها يلمع البريق الذي يحبه الطفل.

- أريد أن تعدني بعدم مضايقة سيّدتي. إنها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم على عملها.

- حفظت كلللللّ الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي تفسّر لهؤلاء الأغبياء.

- لا تقل أبدا عن أقرانك إنهم أغبياء وإلاّ كرهوك وآذوك.

يبلع الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمه ولا امتعاض «سيدتي" منه وهي لا تبتسم إلا للأطفال الآخرين.

ذات يوم يزداد الوضعُ سوءا والمعلّمة تطالب القسم بالتمرين الجديد.

- والآن انقلوا في كرّاستكم الجملة المكتوبة فوق السبّورة.

الجملة؟ أين هي؟ لا شيء سوى أشكال باهتة داخل ضباب بعيد لا يستطيع من مكانه التعرّف عليها.

يغالب الطفل تردّده، ثم يستجمع شجاعته وقد أدارت» سيدتي» ظهرها فينهض من مكانه متوجّها للسبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بقهقهة السخريّة وبالطباشير المتطاير. ثمّ يصلّي لإله مبهم أن تحفظ ذاكرته الجمل الطويلة وهو في غدوّ ورواح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبّورة، كأنّه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك دون إذن.

- لكن يا سيدتي...، ...،

- اذهب إلى مكانك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.

يدخل الطفل مجددا في قوقعته.

تصرخ «سيدتي» في قمة الهيجان:

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أو غبيّ أو لا أدري ماذا...

- سيدتي ! !

- كفى، . لا تتحرك أو تفتح فمك.

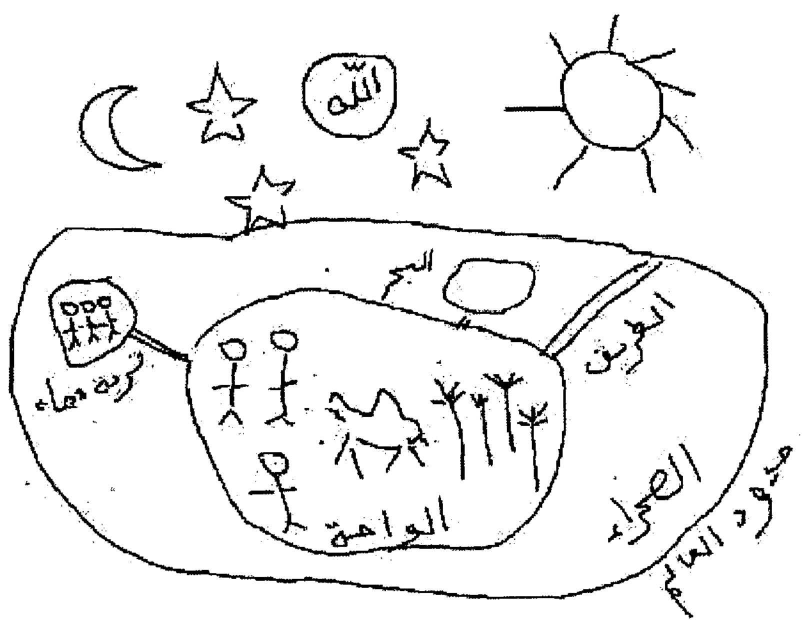
ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لتذهب سيدتي نفسها إليه. على كل حال هو قرّر طلاقها بالثلاثة حتى بلا زواج.

ها هو يدير ظهره لمن حوله بكبرياء ينزف .

سوء الفهم المزمن بين البشر وهذا بالرغم من عدد كلمات التخاطب والتوضيح والتدارك والتقييم... نتيجة تركيب الذات وهي طبقات كطبقات الجيولوجيا...السطح ما تظهر وما تدّعي لتموّه به وتخادع.... تحته طبقة ما تخفيه بمهارة وبوعي... تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي...الطبقة الحاملة لكل الطبقات ما تجهل حتى وجوده... محكوم على الوعي أن يكون مثل اشعة الشمس التي لا تضيء إلا سطح البحر لكن الأعماق المظلمة محرمة عليها... من أين لفاقد الشيء أن يعطيه ولمن لا يعرف أو يفهم نفسه فهم الآخرين ؟

حتى الوضعية التي يتخبط فيها طفل تجاوزته الأحداث لها بعض الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغّص عليه عزلة موجعة لذيذة. ومن مشاغله ذلك اليوم الذي عرف فيه لأول مرّة تجربة النفي، بلورة أولى نظرياته عن العالم.

هو استوعب باكرا وبلا وعي صورة قومه له لخّصها في رسم كان يعود له طول الوقت بالتلوين والتحسين .

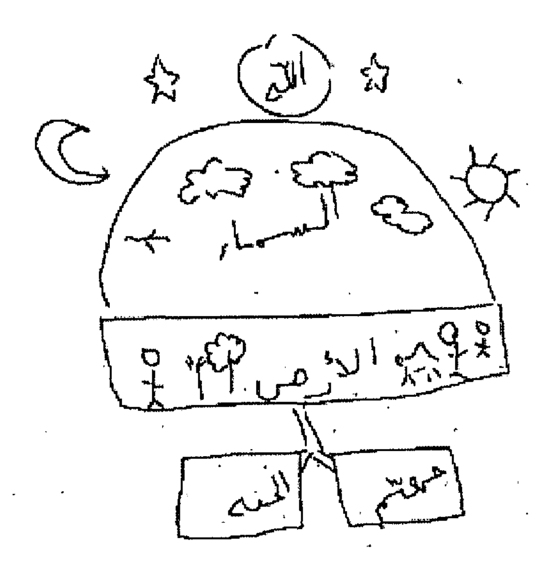


العالم إذن - وبما يلا يدع مجالا للشكّ في هذه المرحلة من رحلة الطفل -طبق صلب أفقي جلّه أصفر اللون، باستثناء بقعة زرقاء هي البحر، وبقع خضراء صغيرة متناثرة هي غابات زيتون أرض جدّته ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء، ثمة قبّة السماء ، وضعت عليه كما تضع أمّه صحنا أجوفَ من البلّور على طبق الطّعام لتقيه من الذّباب. على سطح هذه السماء تتجول الشّمس والنّجوم والقمر. فوق السماء يجلس على كرسي ضخم اسمه «العرش» شيخ كل الشيوخ الذي هو اللّه. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، مما يترك الأرض للبشر الذين منهم "با" و "ما" والجد والجدة والعمات والأخوال والجيران وركاب الحافلة والقطار تصحبهم القطط والكلاب والماعز والحمير والبعير والخرفان والبقر، وهم أنواع خاصة من الجيران والأقارب. من مركز العالم الذي يشكّله حوش الجدّ، ينطلق وينتهي الطريق الذي يأخذه كل ذاهب وكلّ راجع. على حافتيه ثمة مدن وقرى لا يعرف لها عددا، لكنها كثيرة وحتى بأعداد تفوق كل توقع. أما الحدود فنهاية الطريق عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يعرف بالضبط ما الذي يوجد داخلها...ربما العفاريت والأشباح وخاصة العبيثة.

يتمعّن الطفل طويلا في رسمه فيعود له الشكّ اللعين ينغّص عليه متعة النصر. ثمة شيء هام ينقص، ماذا؟ آه، الآخرة طبعا! هل يعقل أن ينسى معلما كهذا؟ أين موضعها من الرسم؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ يجرّب فكرته ثم يسارع للتخلي عنها إذ لا تستقيم مع بقية المعطيات. أليست الآخرة كما تقول «ما» المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم؟ ألا يحفرون للميت حفرة في أديم الصلب؟ الآخرة موجودة إذن تحت الأرض.

لا أسهل الآن من مواصلة وضع النموذج الذي ربما لا يعرفه حتى «با». فالآخرة كما تقول «ما» وهي لا تكذب أبدا ،مكوّنة من الجنة ومن جهنّم. يرسم الطفل مربعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان الإقامة الأخير. المربع الأول أخضر اللون لأن الجنة كما تقول واحة خصيبة، ولو أنها أكبر ونخلها أعلى ومياهها أوفر وأعذب، يذهب إليها من فعلوا الصالحات. المربع المقابل، أحمر بلون النار المخصصة لشواء لحم الكفار والمعلّمات الشريرات.

يجيل الطفل البصر في عالمه راضيا عن عمله وقد اكتمل ووجدت فيه كل المكونات مكانها.



هذا الشكّ اللعين ، دائما وأبدا. أين يوجد المكان الذي يرحل إليه عند النوم ؟ هل هو جزء من الآخرة أم من الدنيا؟ يغرق في تساؤلاته ثم يغلق الموضوع مرجئا حلّه إلى حين يكبر ويستطيع وضع مكان دنيا الكوابيس والأحلام على الخارطة.

للصراحة يجب أن يعترف الكهل أنه لم يجد لليوم مكانا مقنعا يحسّن به رسم الطفل ومن ثم عزوفه منذ بداية النصّ عن التبحّر في الموضوع موصيا تلامذته بألا يجدوا له حلاّ وكل حلّ سيثير عاصفة من النقد هم بغير حاجة إليه.

لم تبق إلا مشكلة الزمان وينتهي الطفل من الموضوع ليتفرّغ لما هو أهمّ : الهروب إلى مكان في هذا العالم الفسيح لا وجود فيه لفلقة ومعلّمة لا تحبّه لسبب غير مفهوم.

الشريرة ، الغبية ، الكذّابة! لم تنتبه لتضارب معلوماتها .ما معنى أن يكون لليوم تاريخين: واحد هجري وآخر مسيحي ؟ كيف يكون هناك زمنان، والحال أنّه ليس هناك شمسان وقمران ؟ كيف تبدأ السنة مرّة من "الهجرة النبوية" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثمّ، ما معنى الحديث عن أفعال قبل الهجرة ؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟

لتذهب هذه الجاهلة إلى الجحيم. مؤكّد أنها لا تعرف متى ستقوم القيامة؟ وهل سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعا؛ فإلهنا هو الإله الحقيقي. أي سنة بعد الهجرة ؟ إجابة متروكة للكبر . أي يوم ؟ بالضرورة الجمعة لوجود كل الناس في الجوامع ، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم بالجملة.

والآن متى بدأت البداية ؟ طبعا كما تفاهم مع «ما» أول يوم في الربيع ،أو أول يوم في الصيف، أو أول يوم في الخريف ، أو أول يوم في الشتاء. لكن أي يوم بالضبط. الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيام بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحد منها يستأهل أن يكون يوم بداية العالم. بقي يوم الاثنين. إنه دون شك يوم الخلق؛ خاصة وهو أول أيام الأسبوع.

لكن ما الذي كان موجودا قبل أوّل اثنين ؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان سيدهش وربما سيحبط لو أسرّ أحد في أذنه أنه لن يكفّ، حتى وهو جالس على حافة الطبق ينتظر الرحيل النهائي، عن تدبيج نماذجه وتمزيقها لا يرضيه أي منها.

نعم، ما أصعب وضع الفكر الآدمي وهو يعتصر كل ما بداخله من طاقة التفكير والتخيّل لتصوّر شكل هذا العالم اللعين... وهو كطفل يلهو بقطع من الورق المقوى لتجميع صورة «بوزل» تفنّن راسمها وصانعها في تقطيع أوصالها لمزيد من التشويق... مع الفارق أن الفكر هنا أمام أعقد «بوزل» ممكن... وأنه لا أحد قادر على الجزم بأنه مستقل عن فكر اللاعب، أو أن هذه الفكرة نفسها ليست قطعة من قطعه.

*

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه . يكثر الهمس حوله. إنها بداية تهمة بالجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود. تهزّ الأم طفلها من كتفيه، تجّره للنور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله. تتوجه إليه كل مرة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".

– كيف تقرأ كتب والدك ومجلاّته في البيت وترفض حفظ دروس المعلّمة مستغرقا في خربشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأفسّر له أنك الأخير في القسم؟ يا إلهي، متى يعود علّك تعود أنت إلى رشدك!

يرفض الطفل الاستماع لأمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائب المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلّمة وعن كل ما تقول. تطأطئ "ما" رأسها، تنكفئ على حزن كأنه بئر بلا قاع، والطفل الغريب رافض لكلّ حديث، فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.

– يا بني، أفق من ذهولك. كنت أظنّ أنني لا أتحمّل صخبك، والحال أن صمتك هو الذي لا أطيق. تكلّم. قل بماذا سأدافع عنك هذه المرّة. المطلوب حضوري غدا عند مدير المدرسة، الله يستر!

ها هو على تقاطع جديد للطريق وكذلك امرأة متماوتة من الخوف، تمسك يدها المبللة عرقا بيد طفل يتملّص ضامّا يده الطليقة للصراع. مع من ولماذا؟ اللعنة، ما الذي يبرّر أن تكون آلامنا بمثل هذه الحدّة والعمق؟ و لماذا يجب أن ندفع كلّنا مثل هذا الثمن الباهظ لرحلة الحياة، خاصة في هذا العمر؟ ربما فتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوّار، وإلا كيف نفسّر تعذيب الأطفال بآلام لا يعرفون لها سببا أو معنى؟.

يتوجّه الرجل الفظّ للمرأة باحتقار لا يتكلّف إخفاءه :

– طلبت حضور والده.

– أبوه... غائب يا سيّدي المدير.

– غائب أم فارّ ؟ أم في السجن ؟ معادٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟ بل ويقال إنّه إرهابي متطرّف خطير ومسلّح.

– يا سيّدي...

– اسمعي يا امرأة. ابنك غير صالح للدراسة. إنه متخلّف ذهني. يضايق المعلّمة ويعطّل القسم. لا فائدة أن يكرّر سنته. سمعت أنّ والده نازح من الآفاق ومن الصحراء بالتحديد. خذيه ليرعى الجمال هناك، فهذا أفضل لك وله.

– أقسم، يا سيّدي، أنّه يقرأ طول الوقت كتب ومجلات أ...

– كفى. إنّه متخلّف ذهني. لا فائدة في أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

– رحماك، أعطه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهارا. إنّه شبه يتيم، يا سيّدي.

– طيّب، طيّب، لا فائدة من البكاء. يقال إنّ لأخوتك زيتونا جيّدا ينتج أحسن الزيوت. ليكرّر سنته، لن أعطيه فرصة أخرى.

يبلع الطفل دموعه ويتبع أمّا تغالب دموعا فيها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمة في أقدم الملفات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

– طلبت حضور والده.

– أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيّدتي. هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أن ابنك لا يرى جيّدا. انتبهت للأمر وأنا أراه ينتقل من مكانه إلى السبورة لينقل ما أطلب كتابته. حقا إنه طفل غريب! لماذا ينتظر أن أدير ظهري ليفعل ذلك؟ لماذا لم يقل لي من البداية إنه لا يرى الحروف من مقعده. سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. خذيه إلى طبيب عيون في العاصمة. ستتحسّن نتائجه حالما يلبس نظّارات.

يصرخ كهل لم ينس الحادثة في مساعديه الأطباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصر النظر. أولى أولويات القسم- هذه السنة- الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في كامل مدارس المدينة.

ثم تهاجمه آلام اعتقد أن الزمان فعل فيها فعل الريح في الرمل، لكن الذاكرة الماكرة أبت إلا الحفاظ عليها كالنقش على الحجر. لماذا نُبقي بكل هذا الحرص على بعض آلامنا نرفض فراقها ونحن كمن يطبق راحته بإصرار على الجمر؟

بتصفّح ملف الحادثة يستوقفني شعور غريب. أين الحدّ بين الذاكرة والخيال، بين الصدق والكذب؟ حقّا أتذكّر ممشى الآلام وأنا في غدو ورواح من السبّورة إلى الطاولة ومنها إلى السبّورة. حقا قالت لي يوما «ما»، يتقاسمها الاستغراب والفخر: هل تتصوّر؟ قالوا لي قبل أن نتفطّن لعينيك، أنّك قد تكون متخلّفا ذهنيّا. هل كنت فعلا مهددا بالطرد، قاب قوسين أو أدنى من أن أصبح راعي أغنام عند الأخوال أو راعي إبل عند الأعمام؟ هل وقفت «ما» أمام مدير فظّ فاسد أهانها أم أمام مدير وطني كرّمها وانقذنها وأنقذني ؟ تراني أقوّل الذاكرة ما ليس فيها لتكتسب قصتي رونقا أكثر ومزيدا من التشويق؟ أليس من ثوابت السيناريوهات التي نحبّ أن يتعرّض البطل لأظلم وأقسى المحن، أن يشق طريقه في العالم متحدّيا التنين والساحر والشيطان، أن يكون قاب قوسين أو أدنى من الفشل الذريع،... ثمّ أن تحصل المعجزة التي تمنحه النصر المبين؟

القصة التي أرويها لنفسي مصنوعة من خيال الذاكرة أو ذاكرة الخيال، على الأقلّ في بعض مقاطعها ؟

لم لا والأمر قاعدة، فالذاكرة ليست خزانة تتراكم فيها ملفات جمدها الزمان ثم يمحوها النسيان، وإنما تنظيم مستمر، يصقل فيها الحاضر ملفات الماضي، يعيد تكوينها وترتيبها وإضفاء معانٍ جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإنما تواريخ تتشكل من تضارب الملفات ومما أضيف إليها عمدا أو بلا وعي. من يصدّق سيرة ذاتية لشهير- كتبها بنفسه أو كتبوها عنه- مطالب بالكفّ عن القراءة، لأنه لا يفهم شيئا في وظيفة الكتابة، وأنها مجعولة للإبراز بقدر ما هي مجعولة للإخفاء والتضليل مكوّنها الثابت الغالب.

وفي قصتي - بما فيها من حقيقة ومن خيال- يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما :

– ابني، أنا متخلّف ذهني يوصي ببعثه للصحراء ليرعى الجمال! ابني أنا يعامل هكذا! ابني أنا يهمل سنة لا يلتفت إليه أحد!

– إنّه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

– الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّموني يوما في رقابكم لترحّمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تذلّ وتهان ولم تذبحوا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلاّ الإعدام رميا بالبصاق وأنتم معه. هذا بلد لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا مستقيل منكم، اذهبوا انتم لتحرّروا المزرعة الكبرى. كلكم خونة بالأعمال أو بالنيات!

– يا رجل، اتقّ الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن وعميل؟

– بالتأكيد أجنبي متخفّ فضحته أخلاق انقرضت من هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفرّوه خارج الحدود. من المتخلّف الذهني؟ هو أم الفاسق الذي نصبّوه مديرا لأنه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلّف ذهني!؟ اسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟

– في الفالوجة.

– نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج رب النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لّما ذهب مهنّئا ومساندا؟

– قلت له: جئناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلاح نقهر به أعداءنا وأعداءكم.

– أسمعتم المتخلّف الذهني؟ والآن اذكر لهم قائمة قادة الثورة التي ستعيد لأمّتنا سالف مجدها.

– زيد وزيدان وعمر وعمران.

– أسمعتم؟ يعرفهم واحدا واحدا. أيّهم طيّار؟ أنت الذي تريد أن تكون طيّارا؟

– عبد اللّطيف البغدادي، وهناك طيار آخر.

– ما اسمه؟

– حسين الشافعي.

– ومن منهم يضع دوما غليونا في فمه؟

– اللواء نجيب. لكن القائد هو بطل الفالوجة.

– أيّهم ذهب إلى حيث يوجد العبيد ليرقص معهم نصف عار؟

– صلاح سالم.

– آه يا رعاة الشياه والبقر. والآن علّم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

– جومو كينياطا.
– واسم كمشة الهمج الذين يقودهم ؟
– الماو ماو.
– أتسمعون؟ هذا الطفل كاد يوما أن يفلسني بطلباته من الكتب. أسمعتموه؟ أتعرفون أنني وجدته البارحة مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلّف ذهني يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنه يلتهم كل ما في مكتبتي ويقرأ حتى التي لا يقدر على فهمها.
(وصلة أخرى من نفس النغم) ابني أنا يرعى الإبل؟ ابني أنا، يفعلون بابني أنا ما فعلوا.. إلخ
ثم يلتفت إليّ ...يا رجل رحماك، انظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم ، انسى وجودي .هيهات ،يجب أن أدفع مع البقية :
–وهذا المغفّل الذي بقي صامتا عوض أن...
يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود:
– اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟
– ابني أنا يبكي. ثمّ ماذا أيضا؟ تعتقدون أنه من طينة أطفالكم! ربيّته على أقصى الشدّة حتّى لا يشبهكم يوما يا من إذا حكمكم كلب مدحتم الكلاب وإذا ساسكم بغل تغنيتم بفضل البغال على الكلاب. سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف. سبحان من جعلني واحدا منكم! إلخ .الخ.

*

من يوم وضعت على عيني الطفل نظارات صارت الدنيا أكثر حلاوة وإشراقا وأصبح كالأرنب تُفرض عليه مسايرة السلحفاة. كما الأمر دوما لم تتبخّر مصاعبه وإنما تغيّر منها الشكل.
يصرخ المعلّم الجديد: اكتبوا موضوع الإنشاء: جاءتك فرصة للقيام برحلة يوم الجمعة، صف ما فعلت وما شاهدت ذلك اليوم. ينكبّ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقع حبر.
وفي أول نصوصه يفيق الكاتب الصغير على همس الشمس تقول له أما زلت نائما انهض أيها الغبي ثمة يوم أغرّ أمامك ثمّ هو أمرها ألا تفرط في الحرّ ولا في الشحوب لأنّه على سفر ثم خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكل الإمكانات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها والأمّ في قمّة الإعجاب والأب في قمّة العجب. ثم ركضت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق فقال للبحر لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنحّ عن طريقي فقال له البحر ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني فقال له الطفل يا بحر أنذرتك فكفى هزلا فخاف البحر وأوسع

لـه الطريـق. ثـم تسـلقت السيارة كبـد السـماء تمشـي فـوق السـحاب الشـمس علـى يمينهـا وعلـى يسـارها القمـر وفوقهـا الله يبسـط حمايتـه عليـه وعلـى الجميـع . عنـد الأصيـل وقـد خضّبـت دمـاء الشـمس هامـات النخيـل توقّفـت السـيارة حـذو فـراش الجـدّ فنزلـت العائلـة منهـا سـالمة وكان الجـدّ المحبـوب مريضـا والمرضـى يجـب أن يكونـوا دومـا في فراشـهم يتأوّهـون ويصرخـون ويطلبـون مـن أمّهـم أن تأتـي لهـم بمـا يريـدون مـن المرطبـات إلاّ أنّـه لم يكـن للجـدّ أمّ لأنّهـا سـافرت إلى بـلاد بعيـدة وتركتـه وحـده لذلـك جاءتـه "مـا" بالحلـوى فقـال لهـا شـكرا يـا ابنـتي مـع العلـم أنّهـا ليسـت ابنتـه وإنّمـا ابنـة أبيهـا جـدّي الآخـر صاحـب البرنـس الأبيـض الـذي تـوفّي وأنـا صغـير. ثـم قـال الشـيخ المريـض آه إنـني مريـض جـدّا فقـال لـه الطفـل ولمـاذا أنـت مريـض يـا جـدّي فقـال لـه الأب اسـكت يـا مغفّـل ألا تـرى أنّـك تضايـق جـدّك فقالـت الأمّ أطـال اللّه عمـرك يـا عمّـي إن شـاء الله يكـبر هـذا الصبـيّ ويصبـح طبيبـا يعالجـك مـن كل سـوء فباركـه وادع لـه فقبـلّ الجـدّ الطفـل ودعـا لـه وللجميـع وهـو مسـموع الدعـاء مـن الله مثـل "مـا" ، فقـال لـه الطفـل وهـو يقفـز حـول السرير جـدّي! جـدّي !جـدّي !سـأصبح أكككككبر طبيـب وسـآتيك بكلللللّ الأدويـة الـتي تحـبّ وسـتروي لـي كللللـلّ قصـص الجازيـة وأبـو زيـد الهلالـي وعنـتر وعلـي بابـا وسـندباد فضحـك الجـدّ وبكـى وبعـد أكل المرطبـات وشـرب المشـروبات قبّـل الجميـع يـده وقالـوا لـه لا بـدّ مـن الرجـوع إلى بيتنـا فدعـا لهـم بالسـلامة وبكـت الأمّ لأنّ النسـاء يبكـين دومـا عنـد الـوداع لكـنّ الطفـل الـذي هـو رجـل في السـابعة مـن عمـره لم يبـك ولـو أنّـه كان يريـد أن يبكـي لأنّـه يحـبّ جـدّه حبّـه للحلـوى وربّمـا أكثـر ولا يريـد لـه أن يمـوت أبـدا أبـدا أبـدا.

يختـم الطفـل إنشـاءه بالجملـة الشـهيرة الـتي ختـم بهـا أجيـال مـن الكتّـاب الناشـئين أولى نصوصهـم: ورجعـت إلى البيـت فرحـا مسـرورا.

يضـع الطفـل قلمـه لاهثـا ماسـحا عرقـه وكأنـه خـارج لتـوّه مـن معركـة اسـتنزفت كل قـواه. هـو فعـلا خـارج مـن معركـة سـتتواصل طـوال حياتـه والرهـان فيهـا التحكّـم في الجمـل تركيبـا وترابطـا وتسلسـلا وتشـذيبا . مـا النصـوص مـن أبسـطها إلى الـتي توصـف بالمقدّسـة ؟ كـمّ مـن الجمـل نحمّلهـا بنجـاح متفـاوت أفـكار العقـول ومشـاعر القلـوب نحـاول عبرهـا ترويـض الفوضـى الـتي بداخلنـا والـتي تحـفّ بنـا مـن كل حـدب وصـوب.

يلوّح المعلّم بأول نص للطفل ساخرا ومهدّدا:

– طلبـت منـك أربعـة أسـطر وليـس أربـع صفحـات، مـا هـذه القصّـة عـن سـيّارة تتسـلّق السـماء؟ هـل رأيـت يومـا سـيّارة تمشـي فـوق السـحاب والمـوج؟ متـى أصبحـت الشـمس تأتمـر بأوامـر سـيادتك؟ كيـف تتكلّـم عـن الله بهـذه الكيفيـة؟ ألا تعلـم أنـه كفـر مبـين. لا تعـد إلى مثـل هـذا الـكلام أبـدا.

ثم يتنهّد بصوت مسموع : هؤلاء البدو! كلّهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم.

يكظـم الطفـل غيظـه واعـدا نفسـه أنـه سـيكتب يومـا إنشـاء أطـول مـن الـتي رفضهـا هـذا الغـبي، أنـه سـيقول فيـه كل مـا يريـد وبالكيفيـة الـتي يريـد، فـلا المعلّـم ولا حتـى أعـداء "بـا"، قـادرون

الآن على افتكاك الحروف وكلها داخل ذهنه... ملك نهائي غير قابل للاسترجاع. ما من شكّ أن هذا النص مواصلة الفرض الأول، والتلميذ الذي كبر كثيرا وبقي نفس الطفل هو الذي اختار بكل حرية موضوع إنشائه : أفقت في عالم الآدميين، صف كل ما شاهدت وفعلت، وما رأيك في هذا السيرك العظيم ؟

الرحلة" إذن فرضي، والأمل أن يحصل على علامة أحسن من علامة المنافسين، وما أكثر الذين كتبوا وسيواصلون الكتابة في موضوع لا يستنفده إنشاء طفل أو شيخ.

*

ذات صباح يبدو عاديا– وكم من أيام تظنها كالأخرى وهي منعطفات وأحيانا منزلقات لن تقدر خطورتها إلا بعد زمن طويل– يشرع المعلّم في الخطّ على السبورة أشكالا غير معهودة.

– انظروا جيدا لهذه الحروف.

أحكم نظّاراتي حول عينيّ؛ لا أفهم ما أرى. هل من المعقول أن "ما" التي لا تكذب، كذبت؟ ألم تؤكد له أن حروف المدرسة هي حروف الكتّاب؟ كلا «ما» لا تكذب. لا بدّ أنها تجهل وجود هذه الحروف العجيبة . يا له من خبر ستفاجأ به وسيزيد من قدره عندها!

يواصل المعلّم :

– إنها اللّغة الثانية، ويجب عليكم تعلّمها ابتداء من هذه السنة.

يخفت حماس الطفل بسرعة وهو يفهم أنها حروف لغة الأعداء الذين يضعون "با" في السجن كلّما وضعوا عليه أيديهم ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلم لغة أعداء أبيه والوطن؟ ألن يكون هو أيضا واحدا من الخونة الذين يتوعدهم "با" بالويل والثبور. مبدئيا هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، بل على العكس... لكن تعلّم لغة الاستعمار، حتى ولو أنه لا يفهم بالضبط ما الاستعمار! ؟ ها هو أمام أزمة سنسميها تعاطفا معه «أزمة ضمير». لا، لا، ليس لأحد الحق بمطالبته بشيء كهذا. يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليدخل أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة بأكثر من تمرّد عقيم. يفغر المعلّم فمه وهو يسمع تلميذا في السابعة يعلمه بقراره: لا أريد تعلّم اللّغة الثانية ولن أكتب هذه الحروف. يكتشف المغفّل كما كان والده يسميه دوما أنّ المسطرة على الأنامل لا تقلّ أذى عن فلقة سيّدي الشيخ.

كلا ثم كلاّ، لن أبكي ولن أضعف. كلاّ ثم كلاّ، لن أتراجع قيد أنملة عن قراري. لن أقبل أبدا بالتعامل مع هذا المعلّم والخونة أمثاله في الأقسام الأخرى الذين لا يخجلون من تدريس لغة الاستعمار لثني الأطفال عن حبّ الوطن المفدّى. نعم، سأصبر على الأذى كما فعل الصحابة عندما آذاهم المشركون. كم سيكون «با» فخورا بي!

ما أسخف عقل هذا الطفل! وكم من صفعات محكمة كان يستأهلها!. الأدلّة يقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضة كلللللل حروف لغته الأمّ فيزعج من أهداه أغلى وأثمن الهدايا. يقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلللللل حروف اللغة الغريبة فيتأفف ويعلن

الاضراب. هو لن يقدّر كم كان محظوظا ولن يشعر بالخجل من نفسه إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصر غير عصره وبلد غير بلده وعرف باكرا مثله قسوة الحياة . بدأت مصائب هذا الطفل بضربة سيف لجندي غازٍ مخمور شجّت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيّا خلافا لأبيه الذي قضى نحبه تحت عينيه . عقدة القصة أن والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الحروف وأن المعلّم، الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا، ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف. جنّ جنون الطفل، يريد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف i. ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك- يا أبتاه- ماذا بعد حرف i؟ فيركله الأبتاه صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟. يتوجه لعشيقة القسّ: من فضلك- يا سيدتي- ماذا يوجد بعد حرف i؟ فتركله صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟. يتوجه لمن يعرف ولا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف i؟ فيصفعه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ شيء بداخله مدرك أنه إن بقي بثلث الأبجدية، فسيكون كمن يحكم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلث عين لا ترى إلا ثلث الألوان. يجد أخيرا من يستمع إليه يمسح على شعره بتأثر: يا بني، اسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة. لا تقول القصة كيف وضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة j،k،l، وأصحاب الجلالة m،n،o، وأصحاب القداسة p،q،r،s، وأصحاب السموّ t،u، وأصحاب العظمة w،x،y،z. المهم أنه تحصل عليها؛ الشيء الذي مكنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب الأمور... وحده.

آه، كدت أن أنسى. بطل القصة نيكولو تارتاجليا... أحد عمالقة الرياضيات...الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال... مؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ.

يصرّ إذن الطفل الغبيّ على عناد لو تواصل لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

لا، لن أتعلّم حروف هذه اللغة ولو قتلني الخائن بالضرب. أبدا. أبدا. أبدا... ولو أنّه... لا... أبدا، أبدا... الموت شهيدا ولا الرضوخ للاستعمار وعملائه. لكن... ألم يعد الملاك "ما" أنني سأكون بارعا باللّغتين؟ أليست هي التي أصرّت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقا، وكانت كميّة الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن أترك الملاك يستبله "ما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتهمه بالغشّ والتحايل وحتى مطالبته باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلّم أنني المذنب فتحتقرني لأنني جعلتها تتهم بريئا. ليكن والمسؤولية أمام الله و «با» تتحملها الأم وصديقها الملاك.

كم من قرارات هامّة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق.

المهمّ أن المناضل الصغير وجد مخرجا من ورطة جديدة مكّنه من الانتهاء بصفة مشرفة من صراع غير مجد وميزان القوى ليس في صالحه وهو في ذلك العمر.

أنهمك إذن في تعلّم لغة الأعداء وكلّي استهجان لتسرّع زوجة «با» في إبرام الصفقات المشبوهة وراء ظهري.

ها أنا أجهد يدي لتكتب من اليسار إلى اليمين؛ لأنّ هذه اللّغة الغريبة تضيف الصعوبة للصعوبة والحماقة للحماقة حيث تكتب في الاتجاه المعاكس، عاكس الله من خلقها ومن كتب بها ومن أجبر الناس على تعلّمها. نعم، لماذا يكتب صُفر الشعر من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسل عن بخلهم بالنقط لحروفهم. ما أغباهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفّة والسرعة التي تسمح بها النقط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيّدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عصيّات تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصيّة ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأم إلاّ عصيّة واحدة منتصبة مكتفية بذاتها. يتزايد الانزعاج والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وشكل. فالحرف الأوّل منتفخ تارة كالطاووس بعصيّاته الثلاث بالغة الطول والتعالي، ومرّة أخرى هو مجرّد نصف دائرة هزيلة بذيل قصير كذيل فأر قضمته أنياب القطّ. أقرّر أنه لا داعي لإضاعة الوقت في تعلّم لغة غبية كهذه، وأن عليّ افتعال الاهتمام حتى لا يفرطوا *بالضرب والنفي إلى الركن*. لا شكّ أنّ الملاك تنبّه سريعا إلى ضرورة تدخّل حاسم سريع. حسنا فعل، لا لأنه حافظ على الكعك ومصداقيته عند "ما" فقط، وإنما لأنه فتح أمامي أبوابا جديدة على مصراعيها لن أقدّر- إلا وقد كبرت- خطورة بقائها مغلقة.

يتحرّك الطريق في الاتجاه الذي لم يكن «مكتوبا» يوما في أي سجلّ، يدفع إلى ساحة القصة بدليل سيلعب فيها دورا محوريا.

كان "مسيو فيدال" صغير الرأس، يخفي صلعته تحت قبعة في شكل فطيرة سوداء اسمها "بيري". كان لا يفوتنا كثيرا ارتفاعا عن الأرض نحن أطفال قسمه الذي حوّلوني إليه للتخلص مني. كانت له عينان بلون السماء والبحر تشعّان ذكاء وطيبة تحت نظّارتين سميكتين مستديرتين كنظّاراتي. كان بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثّر، يقوّم اعوجاج أشباه الجمل. كان حقا المعلّم الجدير بلقب المؤدّب، يردّ على السؤال المحرج تلو السؤال الغريب تلو السؤال السقيم تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجّع على السؤال؛ لا يملّ ، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يغتنم الطفل الفرصة للتخلص من بعض الهواجس المتراكمة؟

– سيدي! سيدي! سيدي! هل هناك قرآن بلغتكم؟ على فكرة، لماذا أنتم كفّار؟ وما معنى كفّار؟

يبتسم المعلّم برفق ثم يهزّ كتفيه:

– انتظر قليلا، ثمة مشاكل لكل عمر. أنت ولد فضولي وأنا أحبّ الأطفال أمثالك.

ها قد أصبح تعلّم اللغة الجديدة وما تزخر به من كلمات غريبة لعبة جديدة ممتعة. يأتي يوم يمتلك الطفل منها ما يكفي لتتشكل في ذهنه صور مشوشة ثم متزايدة الوضوح تخرج من تتابعها صور لبلاد توجد وراء البحر، خضراء على مرّ الفصول، منازلها مبنيّة من الخشب، سطوحها حمراء وشكلها كحدبة الجمل، ينطلق منها أنبوب مستطيل يخرج منه الدخان. وفي فصل الشتاء، ينزل من السماء مطر ليس كالمطر لأنه أبيض ومتماسك كالقطن يفرح بقدومه الأطفال. داخل البيوت يوجد مكان اسمه «المدفأة»، فيه توقد النّار ويلتفّ حوله الكبار والصغار، تحكي لهم جدّة كجدّتي قصّة جميلة عن رجل طويل بدين، له لحية بيضاء وثوب أحمر وعلى رأسه الأشيب طاقية بنفس اللون. هو يأتي مرّة في السنة فقط عندما يشتدّ البرد ويغطّي قطن السماء الجبال والبراري، ممتطيا عربة تجرّها حيوانات رشيقة كالغزلان مثقّلة بالهدايا. ينزلق الجني الطيب داخل المدفأة محملا بخيراته، ليكتشف أن الأطفال انتظروه طول اللّيل، لكن النوم أثقل جفونهم ثمّ أغلقها، فحملتهم الجدّة واحدا واحدا إلى فراشهم لا تعبأ باحتجاج ضعيف، محكمة الغطاء فوقهم وطابعة قبلة خفيفة على الجبين كما تفعل كل الجدّات. ها أنا أراقب الجني الطيب متسلّلا عبر أنبوب المدفأة، أفاجئه يضع اللّعب والحلوى والأقلام الملوّنة في جراب الأطفال النائمين. أراه ينسحب على أطراف القدمين يواصل جولته حتى يحصل كل طفل في المدينة على حقه من الهدايا والحلوى. هل أغتنم فرصة نوم أخوتي للاستيلاء على هداياهم؟ لا، هذا لا يجوز؛ فأنا كبيرهم والوصي عليهم في غياب "با". طيب، لكن ماذا عن النظر في هداياهم والتأكد أن الجني الطيب لم يخطئ فأعطاهم أحسن مما أعطاني؟ ألست الطفل الذكر الأكبر، ومن ثمّ نائب الرئيس، ولي حقوق خاصة منها اختيار ما يعجبني من الهدايا تاركا للبنات والصغار ما لا أريد؟ لن أفعل شيئا كهذا فقد تنتبه "ما" للأمر فلا تثق فيّ مستقبلا.

أذكر أنني سألت أيضا «مسيو فيدال» هل يعرف بابا نويل سندباد وعلاء الدّين؟ وهل سيأتي يوما بلدنا؟ وهل سيدخل بيتنا من النافذة حيث ليس لنا مدفأة؟. يومها طمأنني قائلا: يا بني، كل شيء وارد في مثل هذا العالم.

متى قلت لـــــح» بلهجة التحدّي: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة بابا نويل. كان ردها متوقعا، بل يمكن القول أنني قرأته في ذهنها وهو يتشكل: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة شهرزاد.

*

فضاء غريب مسالكه كلمات ومحتوياته كلمات وحدوده كلمات وكل لبناته هذه مادة خرائط ذهنية وتصورات تكدّسها أجيال المرتحلين في سعيها لفهم ما هذا العالم الذي تبلورت فيه ، ماذا تفعل فيه وماذا يجب أن تفعل به.

يواصل الدليل الماهر فتح الطريق فيه لزبونه الصغير.

– هذه القصة بلا صور، قل لي، بعد أن تكملها، ما الحماقة التي ارتكبت العنزة الطائشة؟.

ومن الغد ينقضّ عليه الطفل.

– سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجئت لك بقائمتها....سيدي، سيدي، سيدي، سيدي! ! كم هناك من كلمات في لغتكم؟

يتنحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

– لا أعرف، يا بني.

– سيدي! سيدي! سيدي! هل يمكن ألا تعرف أنت؟

– نعم يا فتى، الكبار لا يعرفون كلّ شيء.

الكبار لا يعرفون كلّ شيء! يفهم الطفل أخيرا لماذا كانوا يضيقون ذرعا بأسئلته، يلهبون أنامله بالمسطرة ثم يبعثون به لقضاء اليوم واقفا وجهه للحائط. الكبار يجهلون وليس فقط الأطفال! يا له من سرّ هائل أخفاه عنه سيّدي الشيخ وسيّدتي ومن تبعهما من أسياد وسيّدات... حتى هذا الدليل الذي وضع فيه كل ثقته ! من أين لي أن ألومه حتى اليوم على جهله بكللللللّ الكلمات، هو الذي فتح عيني على ما كان الآخرون يموّهون به عليّ عن خجل في غير موضعه... هو الذي أهداني اللغة التي سأتصيد بها "ح" وأغازلها وأعابثها وأدخل معها في نقاشات لا تنتهي عن مبتدأ العالم ومنتهاه.

– سيدي، سيدي، سيدي، فرغت من كل الكتب التي أعطيتني، أريد كللللللّ التي عندك.

– أكيد أنك ستكون من فئران المكتبات وستتعلّم الكثير من الأشياء التي تسرّ والتي لا تسرّ.

كم كان حدس الرجل صائبا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدس وتوسّم خير، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدتها "ما" وهي تروي حلمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيحاء بدل الصراخ والأمر. ألسنا كلنا كائنات متخيِّلة ومتخيَّلة نصوغ الآخرين ويصوغوننا بالأوهام والأحلام؟

تصرخ تفاحة في إحدى ملفات الذاكرة :

– «با»، كم هناك من الكلمات؟ ومتى سأتعلمها كلللللّها لأعرف كللللللّ شيء؟

يحدّق الطفل الذي أصبح أبا في ابنته بدهشة، تدافعت من أعماق الذاكرة كل الأسئلة الغريبة التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال العالق بلا إجابة منذ أكثر من ثلاثة عقود.

الإفلات بحيلة أو بأخرى؟ أم الثبات والمواجهة؟ فرصة للبتّ في الإشكالية اللعينة؟ في آخر المطاف مما تتكوّن التصورات وحتى الأسئلة ؟ أليست الكلمات اللبنات التي تشكل الجمل التي تشكّل النصوص التي تشكّل رؤانا للعالم ولذواتنا ؟

– سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. اكتبي كلماتك وسأكتب كلماتي وسنرى هل سنحصي كللللللّ الكلمات.

تكتشفنا تفيحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض. تحتجّ باكية لا تدري من خان ثقتها الأول ولمن ستتوجه بالتقريع.

– «با»، تفاحة شريرة تأخذ دوما أقلامي الملوّنة، أنت تحابيها دوما لأنها الأكبر.

وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك ساكنا، هي التي تتهمني دوما بأنني أحابي تفيحة لأنها الأصغر.

– تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيّا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين فكّ الرموز.

تصرخ تفاحة:

– لا أريدها أن تقرأ كلماتي، لتقرأ كلماتك أنت فقط.

– كلماتي ليست...أخشى أن ...طيب كل واحد يكتب قائمته وسنرى من الأطول.

تمسح تفيحة دموعها وتبتسم للّعبة الجديدة، تعلم أنها ستفوز بعلامات الإعجاب والحب... على الأقلّ من طرف»با». تضع إصبعها في فمها، تحكم نظارتها فوق أنفها وتتوكل على من يجب الاتكال عليه عندما يصعب الاستغناء عن خدماته. تأخذ في الخربشة وهي على ثقة أن قائمتها ستكون أطول قائمة.

ثم تتوقف معلنة العصيان.

– "با"، هذه لعبة غبية.

غبية؟ قطعا لا، عبثية؛ نعم لأنها بلا نهاية.

تفرك تفاحة عينيها وتأخذ في التثاؤب.

– «با»، لماذا لا نحصي كلمات القاموس فهي كلها موجودة فيه؟

– فكرة رائعة لكنها لا تحلّ مشكلتنا إلا جزئيا، فهذه الكلمات اللعينة كالبشر، لا تكفّ عن التكاثر. لنواصل الاعتماد على أنفسنا لمجرّد معرفة أين يمكن أن نصل.

يستهوي التحدّي تفاحة. تستعيد حيويتها.

– نعم لكن ليس من الضروري على تفيحة المشاركة بما أنها خربشت بعض الكلمات في القائمة السابقة.

مفاوضات صعبة تنتهي بالاتفاق على السماح لتفيحة بالمشاركة.

تريني تفيحة أخيرا قائمتها: بابا، ماما، لعب، جري، هرولة، كتاب، ضحك، دمية، عصا، رسم، أكل، نوم، خوف، حلوى، شكولاطة حليب، ماء طفلة شريرة، أخت كذابة، قط، حديقة، شجرة.

تصرّ تفاحة على عدم قراءة قائمة أختها وإخفاء قائمتها. تمسك بالورقة بقوة وراء ظهرها ترفض تسليمها لغيري. بنفس القوة أرفض لتفيحة وتفاحة قائمتي ولو لدوافع غير التي تحرك البنتين.

يجب أن أؤكّد هنا على أن هوايتي– منذ نعومة الأظافر– جمع أطرف الكلمات وأغربها وأطولها وأجملها... آه، لو قيض أن أفتح لها بيتا أنظمها في قوائم حسب ذوقي... قائمة أسماء كلللللّ الآدميين الذين تتابعوا قبلي على الطريق... الذين يزاحمونني عليه... الذين سيتسارعون فوقه عندما أترك لهم الزمان والمكان... قائمة أسماء كللللّل الأشياء والكائنات... قائمة كلللللّل الأفعال والتفاعلات والمواقف والتصرفات... قائمة كلللللّ الكلمات التي لم يبلورها بعد فكر هذا الزمان...قائمة كللللّل الكلمات التي ستبقى إلى الأبد خارج وفوق نطاق قدرة الفكر على الرصد... ألن يكون لديّ آنذاك وصفة العالم الآدمي... أو قل: العالم كما يعبره الآدمي... أو قل: العالم وقد وعى بنفسه من خلال الآدمي... أو قل:...

تصرخ البنتان : القائمة ، القائمة! . طيب لكن على مسئوليتكما .

انبطاح، جبن، خيانة، غدر، بوليس سري، كذب، نفاق، ذبح، هجوم، بناء، تدمير، اختلاق، تأوّه، انتظار، بكاء، سخرية، تجنّد، تبلّد، تحجّر، تكلّس، تطاول، تراجع، تقدّم، حبّ، بغض، انتقام، نحر، انتحار، عبادة، عبودية، استعباد، عبيد، عباد، كفر، صلاة، مقدّس، مدنّس، مطهّر، ملوث، يأس، جنون، سعادة، مرض، فشل، موت، استبداد، ظلم، تعذيب مخابرات، فساد، حماقة، غباء، هدر، ضياع، سلوى، موسيقى، جمال، هدوء، أمل، سراب، وهم، خديعة، عبث، غريزة، وحشية، تكرار، حلقة مفرغة...، ...

تعود تفيحة للصراخ:

– أكثر كلماتك قبيحة لا أحبها، لنحتفظ فقط بالكلمات التي تعجبني.

فسخ الكلمات التي لا تروقنا؟ إعدامها؟ منعها من الوجود؟ فكرة أكثر من رائعة!

بربّك أي كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك أن ذلك يعني آليا إلغاء ما تشير إليه من الوجود ؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوّث، حزب، قائد، إمبريالية، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب. بربّك، أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل وأنها تزيد الطين بلّة.

تقول لو خيّرتُ ماذا كنا سبقي من الكلمات لعالمك النظيف ؟ طبعا: دفء، نسيم، ماء، هواء، غذاء، طبيعة، جمال، صحة، موسيقى، حبّ، أطفال، تعاضد. تعال اسكن عالما لا توجد فيه إلا هذه الكلمات و أخواتها اختفت كلّ الكلمات البشعة لغياب كل الذي تسمي. «دخيلك» لا تذع السرّ لأتمتّع وحدي وإياك بإعادة صياغة واقعنا المقيت.

السؤال: لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلّفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الآفات التي خلصته منها بجرّة قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الآدميين وخوفه من أن يقوّضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو. قد تكون هناك أسباب أعمق، فالكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلاّ وانهار الصرح بأكمله. ربما ثمة سذاجة صورة النصّ نفسه للكلمات وعلاقتها بما تشير إليه؟

هي تفترض أن العالم لا ينبثق في الوعي ولا يصبح موجودا إلا عبر الاسم لأن القاعدة أن العين لا ترى إلا ما تسمّي ولا تسمّي إلاّ ما ترى. نحن لا نبصر فقط بخلايا قرنية العين وإنما أيضا من خلال "قرنية» اللغة. ينظر البدوي للصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والثلج. أعابثه بدوري: يوم تزور صحاريّ الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها.

أنظر من علوّ الجبل لصفحة الماء الخضراء تحت قدمي وسط غابة استوائية مترامية الأطراف، فلا أرى إلا بحيرة جبلية أعبث برميها بحصاة حتى أرى تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا. لكن رجل «المايا» يرى في هذا المكان باب «الشيبالا» أو العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. من هذا العلوّ كان أجداده لا يرمون صفحة الماء إلا بالأطفال والعذارى قربانا للآلهة. هذا الرجل يرى العالم، أو على وجه التحديد يفهمه ويفسره في أهم علاقاته معه، بغير الطريقة التي أتفاعل فيها معه لأن شبكته من الكلمات التي تسمّي وتصف وتشير إلى الأشياء غير التي أملك.

الآدمي الذي يعيش في جزء محدود ومتناهي الصغر من الفضاء الحسي ، يعيش أيضا في جزء محدود ومتناهي الصغر من الفضاء الرمزي بحكم سقوطه منذ الولادة في شبكة اللغة الأم والثقافة الم وهي واحدة من آلاف اللغات الثقافات.

قدر الآدمي أن تكون له عن هذا العالم صور متشابهة وتصورات متباينة. شمس آدمي اسمه «أخناتون» إله يُتوجه له بالعبادة ونفس الشمس جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة لآدمي آخر اسمه «اينشتاين».

كيف نمرّ من الصور المتشابهة إلى التصورات المتباينة ؟ دوما دور اللغة التي ندخلها وتدخلنا باكرا وكل كلماتها مشبعة بتصورات الأجيال التي عبّأتنا بمفاهيم واعية وأخرى لاشعورية وهي في في غياب المعطيات لا خيار لها غير إحضارالمعنى قسرا بفضل قدرة الفكر على تخيّل ردّ يسدّ به نقصا لا يطاق.

ثمة التفاعل بين تصورات تنتج أصنافا جديدة تتجاوز تصورات الأوائل بالإضافات والتحسين.

تقنية أخيرة هي التزييف حيث يتمّ بكل وعي إسقاط معلومة قديمة واختلاق معلومة أخرى وإعادة تنظيم المعلومات بإبراز البعض والتعتيم على البعض الآخر. أكبر الأخصائيين في هذه "الرياضة» مؤرخو الملوك والقضايا «المقدسة». هكذا فبركوا تصورات مكّن تسويقها من خلق شعوب مختارة وأمم خير ما أخرج للناس، وأعراق صافية وأوطان ودول ما كان لها أن ترى النور لولا سحر التصورات التي كانت وراء ولادتها.

عامل آخر: المزاج. شتّان بين تصورات المصاب بالكآبة الحادة وبين ما يخلق ويشيع العاضّ بنواجذه على الدنيا. ثمة أيضا مزاج المجتمعات في لحظة ما، وهل هي في فترة بناء أم هدم، مدّ أم جزر، تفاؤل أم تشاؤم.

التصوّرات، إذن، هي مواد مصنعة ورائها فكر يعالج المعطيات التي نتلقاها من العالم. هي تنظيم معيّن لمعلوماتنا عن شيء أو كائن أو حالة ما. هي ما نعتقد في لحظة ما بخصوص ما نرى وما نسمع وما نشعر به وما نعيش من أحداث. هي منبع أفعال وتفاعلات كلها مرتبطة بها حتى وإن كانت كل تصوراتنا لا تتحول ضرورة لأفعال. هي ما نكره تغييره حيث في الأمر كلفة كبرى تتطلب إعادة تنظيم جذري لملفاتنا كما يحدث عندما نعتنق ديانة جديدة، أو عندما تضطرنا تجارب أليمة لمراجعة نظرتنا لأنفسنا أو للآخرين. تفرض الضروريات أن نصدّق تصوراتنا كما نصدّق الصور التي تنطبع على قرنية العين، وإلا استحال القرار أو تغير طول الوقت بصفة تزيد من أخطار الطريق. لا غرابة في ما نظهره من شراسة للدفاع عنها وهي زادنا في مواجهة التعقيد.

مؤكّد أن هناك عوامل أخرى تتضافر بكيفية تستعصي على التحليل لصنع هذه «النظارات» التي نرى بها العالم وأنفسنا من خلالها والتي بدونها لا نرى إلا عجينة من الأشكال والأحداث.

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل اي داخل لغتهم أي داخل تصوراتهم، لكنت تسمع – خاصة ليلا– حفيف أجنحة الجنّ والعفاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرابين والصلوات، ولا أتحدّث عن العبيثة... واليوم أنت لا تسمع إلا طنين البعوض.

قمر من طحيـــــــن (محمد برهان)

ونجوم منثورة كحبات السمسم

إنها السماء للجائـــــــع

فضاؤنا الحسي إذن ليس معطى مجردا وواحدا بالنسبة لكل الآدميين، وإنما فيه اختلافات جذرية تتعلق دوما بما "تراه" بصيرة صنعتها اللغة . تسألني هل أقصد أن الأمّي الذي لا يملك مفتاح الحروف، ومن ثَم القدرة على رؤية الكلمات التي ترى العالم، أعمى لغوي يعبر بالضرورة عالما مبتورا كعالم المبصر الذي كنت أريد أن أشرح له الألوان. بالضبط. تمعن في المعاني الغنية لرواية تشيكية هي الوحيدة التي تناولت بصفة جدية موضوع العمى أو الصمم اللغوي.

أنت أكبر عالم لسانيات تنزل نتيجة خطإ تقني ما مطار مدينة لم تقصدها وتكتشف أنك لا تفهم لغة أهلها. في البداية تظنّ أنك ستجد بسرعة من يتكلم لغة مشتركة فتصلح وضعك. تكتشف غير مصدّق أن لا أحد يفهم كل اللغات التي تعرف وأنك لا تستطيع تحديد أصل هذه اللغة التي لا تشبه لغة معروفة والحال أنه لا اختلاف يشدّ الانتباه لا في طبيعة المدينة الغريبة ولا شكل البشر الذين تلاقي. مدينة من العالم ...ناسها ككل البشر لكن لهم لغة لا تشبه لغة بشرية. المهم في النص متابعتنا الدقيقة لك وأنت تغوص في كابوس وكل الأفعال التي تقوم بها تؤدي إلى تعقيدات لا متناهية، وكل الأفعال التي تأمر بها تؤدي إلى مضاعفات أغرب. رويدا رويدا، تنتبه أن الأشياء التي تعودت عليها، تبدو محملة بمعانٍ لا قدرة لك على فكّ أحاجيها. ثم تدخل في حالة شلل فكري حادّ وفوضى حسية شعورية تقربك بأسرع مما تودّ من الجنون. المخرج ما ينصحك به كاتب النص؛ وهو الفرار بجلدك وبما بقي لك من توازن بحثا عن عالم لا يكون إلا شراكة بين البشر، والأداة الوحيدة هي اللغة.

إنها أسهل المهمات. ثمة ما أهمّ وهي المشاركة في خلق العالم . فوظائف الكلمات الأساسية تثبيت المظاهر التي تبلورها الحواس باستخراجها من المبهم الأصلي.....جرد ما استطعنا من هذه المظاهر ... إضفاء الوظيفة والمعنى عليها انطلاقا من خصائصنا ورؤانا وتصوراتنا وحاجياتنا... إضافة حالات جديدة على شمس الشاعر كأن نجعلها تدمي من جنبها عند الغروب ...نفخ الروح في كائنات مبتكرة كالآلهة والشياطين لا وجود لها في فضاء الحواس.

قد تحتجّ عليّ بأنه الموقف الذي ينعت بالمثالي عند نمط من المفكرين وأن هناك من يقولون بالعكس ويسمون أنفسهم بـــــ«الموضوعيين» لاقتناعهم بأن العالم موجود كواقع

مستقل عن اللغة والدليل على ذلك أن «الشيء» لا يتبخّر إن نحن ألغينا من القاموس الكلمات التي تعرّفه ، وإنه موجود وإن جهلناها وحتى بعد رحيلنا.

الكلمات في تصوراتهم كأوراق النقد التي نحبّ أن تملأ بها حافظاتنا... مجرّد علامات رمزية اتفقنا على معناها وظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخّر الذهب الذي في البنوك أو المواد التي نتبادلها بها.

تصوّر منطقي ، ومع هذا يبقى هذا الباقي بعد الحرق ، دوما بحاجة لواسطة ما ليصبح موجودا بالنسبة للمتكلّم وقادرا على التأثير عليه ، وإلا لكان وجوده - بالنسبة لكائنات أخرى أو لفكر كامل كالذي نتصوره خاصية من خصائص الله- والعدم سيّان. هذه الواسطة دوما كلمات. القانون كان وسيبقى أن ما تبلوره حواسنا وما تعيد خلقه اللغة انطلاقا منها أو اختلاقه باستقلالية عنها ، هو عالمنا وما عداه... إما بلا وجود فعلي وإما كلمات أخرى لا غير.

إذا كانت اللغة الحاسة السادسة فلا بدّ من إقحام معطى جديد في محاولة فهم طبيعة العالم الذي نخلق و نختلق : دقة الحاسة ومداها. بما أنه ثمة قصر نظر عند الكثير من الآدميين وعلى رأسهم كاتب هذه السطور ، فلا بدّ أن منهم من يعبر العالم بقصر نظر لغوي. أي نظارات غير مزيد من الكلمات ؟ وفي المقابل ، هل ثمة أخطر من السراب الذي تصنعه الكلمات ؟

اللغة ليست مسجّلة ترجع الصدى الذي تعكسه الحواس الخمس الأولى . هي طاقة خلاقة إضافية للفكر تعيد صياغة انطباعات الحواس وتضيف للكائنات الحسية التي ترصدها بالاسم كائنات فكرية وبنايات رمزية مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدينة الفاضلة والنسبية العامة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود...وكلّها معطيات لا نتصوّر أن لها وجودا في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر. هكذا تهندس اللغة عالمنا الآدمي في جزء كبير وهامّ منه ، تحسّن وعينا به، لا لشيء إلا لأنها توفّر لنا مصطلح الوعي نفسه...نعم ، اللغة مثل شبكة الصياد... لكنها شبكة تعيد تشكيل السمكة التي علقت في حبالها... بل وتخلق أحيانا الأسماك التي تصطادها.

يتم الاتفاق على أنه ليس بوسعنا نحن الثلاثة ، حتى وإن تركنا المهاترات جانبا، جرد كل كلمات القاموس وإضافة التي فاجأته بعد آخر طبعة. يجب المرور لإشكالية أخرى قد تكون أسهل فهما.

- «با»، لماذا تسمي "ما" الشمس «صولاي» وأنت تسميها «الشمس»؟ لماذا هناك لغتان وما هو الاسم الصحيح

من حسن الحظّ أن خصام الآدميين لم يصل بهم إلى حدّ فرض الاسم «الحقيقي» لمصباح النهار، وهل هو شمس أو صولاي. تكفي خلافاتهم العبثية الأخرى مثل صراعهم الدامي حول اسم من خلق هذا العالم، وهل له صفات الحيوان أو البشر.

– لا أعـرف، يـا بنـتي. مـا أعرفـه أن هنـاك آلاف اللغـات. تصـوري وجـع الـرأس لـو حكـم علينـا جمـع كلللـلّ كلمـات كلللـلّ اللغـات.

– لكن، لماذا توجد أسماء مختلفة لشيء واحد؟

– ربمـا لتنبهنـا الأشـياءُ بهـذه الطريقـة الخبيثـة إلى أننـا نسـتطيع أن نطلـق عليهـا كل الأسمـاء الممكنـة ولا يسـتنفدها أي واحـد منهـا ، أنهـا دومـا فـوق وخـارج الأصـوات الـتي تشـير لهـا.

– «بـا»، أنا أفضل كلمات لغتنا فهي أسهل لأننا لسنا بحاجة لحفظها وتذكّرها.

– فعـلا «شمـس» كلمـة سـهلة في لغتنـا، وهـي كذلـك بالنسبة للأطفـال الذيـن ينطقونهـا "سـان" في لغـة أخـرى. هـل انتبهـت لمغزى قولـك أن شمـس كلمـة... سـهلة؟.

تصرخ تفيحة وقد فهمت قصدي حتى قبل أختها الكبيرة:

– الكلمـات تحـبّ أن تجلـس مـع بعضهـا البعـض لأنهـا تخـاف أن تبقـى وحدهـا ولا تجـد مـع مـن تتكلّـم وتلعـب وتتخاصـم.

حقا، ما ألذّ التفلسف طفلا! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!..

«عندما تعود الكلمات إلى بدايتها **(روبرتو جيواروز)**

يعود الإنسان إلى أصولـــــــــه

ويبدأ كل شيء من جـديـــــــــد»

– نعـم، الكلمـات كائنـات أليفـة بالطبـع لا تعيـش إلا بالجـوار، بمنافعـه وأيضـا بمشـاكله. تفاحـة، مـا رأيـك في لعبـة اكتشـاف كل الكلمـات الـتي تقبـل بمجـاورة كلمـة طقـس مثـلا؟

– الطقـس جميـل، الطقـس بشـع، الطقـس بـارد، الطقـس حـارّ، الطقـس جـافّ... «بـا»، أنـا فهمـت، الكلمـة الثانيـة تزيـد مـن توضيـح الكلمـة الأولى!!

– بالضبط، إنه الوصف وهو بعض الحالات الممكنة للطقس.

تتدخل تفيحة، تحاول استعادة الكرة :

– نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل تفاحة الترفع عن المهاترة مع حمقاء لا تتجاوز سنتها السادسة. ثم تنفجر:

– تفيحة ركيكة غبية، شريرة. «با»، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

أكتـب أم لا أكتـب: الحيـاة مدبـرة، الكائنـات مفزعـة، المصائـب ممطـرة، الأخبـار مضلّلـة، الأوهـام متكاثـرة، الغبـاء مسـتفحل، الشـرّ مزمـن. إنـه يـوم مزاجـي فيـه بالـغ السـوء كأحـوال هـذا الوطـن الـذي ابتليـت بـه وهـذه الأمـة الـتي أصابـني الانتمـاء إليهـا بالإحبـاط، وهـذا العـالم الـذي لا أفهـم كيـف يتواصـل بهـذه الحيويـة الصاخبـة وهـو مثخـن بـكل هـذه الجـراح.

تتطور الخناقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكاذب. يا إلهي، لم أغفل عن الشقيتين إلا بضع دقائق لتدخين سريع في الحديقة. يجب العودة لبدء المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...

– والآن، ما الذي ينقص الكلمات المتزوّجة لتنقلب أحداثا نصنع منها القصص ؟

– الأفعال، الأفعال ! !

تبدأ كل طفلة قائمتها وهي مديرة الظهر لأختها. تصرخ فيّ تفاحة أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عليها. نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟. ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي؟: جرى، ركض، صارع، ناضل، صرخ، غضب، سافر، ناقش، خاصم، صالح، كذب، نافق، أخفى، موّه، صارح، شتم، قرأ، كتب، حاضر، فاوض، كابر، فرض، تنازل، قاوم، ، تراجع، تقدّم، قيّم...

قيّم!... يمكن للمرء أن يقيّم صحته صوابا فلا يكثر على الأطباء ولا يقلق نفسه، ويمكنه أن يقيّمها غلطا فإذا به مرض الوسواس... يمكنه أن يقيّم حالة علاقاته الاجتماعية فيفرز بين الأصدقاء والأعداء لا يمزج أبدا بينهم، كما يمكنه أن يقيّم خطأ ما يهدده من أخطار أولئك وهؤلاء فإذا به مرض البارانويا... بوسع كل فعل إذن أن يكون صائبا فيصيب مرماه وأن يكون خاطئا فلا يصيب إلا الرامي.

على فكرة . أليس بديهيا أننا لو كتبنا كللللّ الأفعال التي نفعلها في العالم وكللللّ التي يفعلها فينا لحصلنا على قائمة العلاقات المكنة التي تربطنا بذاتنا وبالذوات الأخرى وذات العالم نفسه ...على فرض أننا أمام ثلاثة مظاهر مستقلة .

أليست هذه الأفعال والتفاعلات حالات طيف خارطة ما يسميه البعض «الطبيعة البشرية» بما هي قائمة الاستعدادات الفطرية والثابتة لتفاعل الآدمي مع العالم... مما يعني أن اغتصب، حرق، دمّر، استبدّ، حارب، نكّل، عذّب أفعال لن تتبخّر بقدرة قادر في العصور الذهبية التي تحلم بها الرؤى المتفائلة، وأنها باقية بقاء الأفعال الجميلة التي يحبها أهل الأخلاق والدين. من الأحسن هنا أيضا عدم مصارحة الطفلتين بالأمر... على الأقل ليس الآن.

فجأة تصرخ تفيحة : «با» ماذا يفعل كل الناس هنا ؟

سيد الأسئلة وهذه البنت تلقيه بنبرة: متى تأخذني للسيرك ؟

أنفجر من الضحك إلى أن يتملكني السعال. تترك تفيحة يدي غاضبة.

– عدت للسخرية مني. أنت شرير وأنا سأقول لـــ"ما"...

صدق من قال : لا أحسن من أطفالنا للأخذ بثأر والدينا منّا. كيف أفسّر لطفلة في هذا العمر أنها تلقي سؤالا أبحث له عن ردّ منذ انتباهي لغرابة الآدميين. ربما برز السؤال اللعين في وعيك لحظة ما وأنه فاجأك بغرابته... ربما سارعت لنسيانه معتبرا

إيـاه معضلـة لا ينتـج التفكيـر فيهـا إلا مزيـدا مـن الصـداع... نعـم، مـاذا يفعـل كلّ هـؤلاء البشـر هنـا جيـلا بعـد جيـل؟ مـاذا نفعـل كلنـا هنـا، أنـا وأنـت ونحـن؟

- «بـا» سأكتب كلللللللّ الأفعال حتى لا تدعي تفاحة أنني نسيت أي واحد منها

آه يا بنيتي، كم من أفعال لا أتمني لك معرفتها، لا اليوم ولا في أي من الأيام!

أتـرك الطفلـة تخربـش بقيـة أفعالهـا لم تنتبـه أن وكل الأفعـال الممكنـة الـتي نسـتطيع رصدهـا لا تسـاعد في الـرد علـى سـؤالها.

هـل يمكـن تطويـق الصعوبـة بتنظيـم الأفعـال إلى فرعيـة وأساسـية؟ هـل هنـاك بينهـا فعـل هـو زبـدة الزبـدة وبالتالـي هـو الـذي فيـه الـردّ علـى السـؤال؟ عمومـا مـا أهـمّ الأفعـال في قائمـة القوائـم لـو استطعنا فعـلا رصدهـا كلّهـا. تأتيـني تلقائيـا صـورة الشجـرة، وهـي الـتي أسـتنجد بهـا كلمـا تشـعّبت سـبل الفكـر والخيـال. تسـتحوذ علـيّ صـورة فعل-بـذرة تفرعـت عنـه كل الأفعـال.

إنـه بطبيعـة الحـال أول فعـل. هـل هـو وُلـد؟ حتـى أول فعـل حصيلـة جملـة طويلـة مـن الأفعـال. مـا الـذي فعلـت الـذات قبـل أن تولـد؟ مـا الـذي سـتفعل بعـد أن تتوفّـى ؟

غريـب أن تبـدأ قائمـة الأفعـال بفعـل غامـض وتنتهـي بفعـل لا يقـلّ غموضـا! علـى كل حـال لا يمكـن اعتبـار وُلـد الفعل-البـذرة لسـبب آخـر هـو أن كل الكائنـات تتشـارك فيـه، ونحـن نريـد الـذي يجيـب علـى سؤال مـاذا يفعـل الآدميـون بالتحديـد، أي في آخـر المطـاف بمـاذا يتميـزون ومـا الـذي يضيفـون.

فكّـر، تكلّـم ؟ أي دليـل أن الكائنـات الأخـرى لا تفكّـر أو أنهـا لا تتبـادل بينهـا المعلومـات بغيـر الـكلام ؟

ماذا لو جربنا ضحك، عذّب، ضارب في البورصة... ربما.

تعـضّ تفيحـة علـى لسـانها وهـي تصفّـف علـى كراسـها الأفعـال. يصفّـف الأب علـى كنّاشـه، بأوراقـه المتماسـكة والممزقـة، حصيلتـه هـو منهـا. يعـضّ علـى لسـانه هـو الآخـر وقطـع «البـوزل» مفروشـة أمامـه تتحـداه بالفوضـى المنغلقـة علـى نظـام مـا يـزال للاكتشـاف .

تتنـاثـر النجـوم في السـماء في فوضـى رهيبـة فيطوّعهـا الخيـال لـيرى المنجمـون طيـورا وأسـودا بـل منهـم مـن يـكاد يسـمع صهيـل الحصـان يتعـالى مـن جـزء محـدد مـن قبّـة الليـل. لا ألبـث أن أرى مثلهـم أفعالـي تصطـف وفـق شـكل مـا زال يتلمـس الشـكل ثـم تنتظـم كالكواكـب حـول الشـمس... حـول بـذرة كل الأفعـال... أولهـا وأهمهـا والـذي دونـه لا تنطلـق السلسـلة.

نعـم، لا مجـال لغيـر هـذا الفعـل الزاخـر بـكل الإمكانـات. مهـلا، فالنـص مـا زال في بداياتـه وعلـيّ أن أوال الاستكشـاف قبـل أن أنشـره بـين المـلأ وأن أعلـن بـكل ثقـة أن فعـل الأفعـال بمـا لا يـترك مجـالا للشـك والجـدل هـو...

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعال لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه لغرفة النوم، وبصفة عامة الكفّ عن الهرج مع رجل يموّه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار.

قرّع ... أمر ...فرض ، أفعال أعدكم أن اضعها هي الأخرى على قائمة الاعدام ، المشكلة ماذا سأفعل يوم أكون بحاجة لها ؟

*

تتداخل الملفات وفي إحداها تتوجه طفلة باكية لا تتجاوز الخامسة إلى أبيها تتشبّث بأهدابه تشبث الغريق بالقشّ :

– لن تسافر مجدّدا، أليس كذلك؟... «با»، ستبقى معي دائما، وتقصّ عليّ هذه الليلة قصة جديدة.

القصص!... أي غرابة في نهمنا إليها أطفالا وكهولا وشيوخا وهي توجه دفّة حياتنا من حيث ندري ولا ندري....أليست هي التي تعطينا مادة صدى المحاكم في الجرائد التي تتاجر بغرائز البشر وتعطينا كبرى الأساطير التي تحرك شعوبا بأكملها .

تضع الأخت الكبرى يديها على خصرها لتعطي أوامرها الجديدة، هي التي لا تحبّ شيئا قدر الأمر والنهي.

– «با»، هذه الليلة القصة عن الأميرة والضفدعة.

تتدخل تفيحة:

– نتناوب عليها كالعادة، وعندما تنام تفاحة نواصل أنا وأنت وحدنا.

تصرخ فيها تفاحة:

– لن أنام أبدا وأنت التي ستنامين وأبقى أنا و"با" نروي قصة الأميرة إلى الصبح، هيّا، عجّل، لقد لبست البيجاما وغسلت أسناني.

تقاطعها أختها مسلطة عليها نظرة الاستفزاز :

– أنا أيضا غسلت أسناني.

تنتبه تفيحة لأمر بالغ الأهمية.

– انتظر لحظة. نسيت "ايتي". يجب أن تسمع القصّة وإلا فسأضطرّ لروايتها لها.

– "با"، تفيحة تغسل أسنان "ايتي"!

– وما دخلك أنت ؟ إنها دميتي الآن وأفعل بها ما أريد.

لا بد من تدخّل السلطات الأبوية العليا. لمجرّد المحاولة.

– أعقل واحد في هذه العائلة العصبية "ايتي"، والآن أريد منكما انتباها وصمتا. سأبدأ أنا كالعادة، وتأخذ كل واحدة دورها كلما جاءتها فكرة. لكن رجاء: دون مقاطعة أختها. إذن، كان يا ما كان، في قديم الزمان وسالف الأوان، أميرة صغيرة اسمها تفيحة، وتفاحة

عندما كبرت، وكان لها عيون مثل...

تصرخ الأختان بنفس الحماس وقد تغلّبت الحيوية المكبوتة على ثقل الجفون:

- المها، المها!

إنها بداية كل قصصنا والويل لـــــ"با" إن لم يحترم تقاليدها الراسخة.

تعطي تفاحة إشارة انطلاق الأحداث وهي تعطي لنفسها الكلمة.

- أرادت الأميرة الخروج للغابة لقطف الأزهار لكنها كانت خائفة من الساحر...

تصرخ تفيحة: أنا أقود القصة الآن، دائما تفاحة هي التي تقود.

تردّ تفاحة بعصيبة: لا، «با» هو الذي يقود.

المسارعة إلى القصة ننقذها من تجدّد خصومات الآدميين.

- إذن شجّع "با" الأميرة على رفض الخوف لأنه أكبر مفشل للرحلة فخرجت للغابة دون تردّد تبحث عن...

- وخلف الأشجار كان الساحر الخبيث يترصّد وهو عاقد العزم على مسخها ضفدعة لينتقم من الملك الذي...

أهمس في أذن تفاحة: الآدمية كلها- وحتى تفيحة- سمعت بقصة مسخ الأميرة إلى ضفدعة، وكيف خلصها الأمير بقبلة مدوية. الرواية ممجوجة ولم يعد فيها أي تشويق. يجب أن تجدي شيئا آخر.

تهمس في أذني: في أي شكل نمسخها؟ ثم كيف سنخلّصها فيما بعد؟

أهمس في أذنها: لنبدأ بموضوع المسخ، ثم سنرى فيما بعد كيف نخلّص المسكينة.

تصرخ تفيحة: أريد أن أسمع ما تتهامسان به.

- كنا نقرّر في أي شكل سيمسخ الساحر فيه تفاحة ليواجه الأمير بأكبر صعوبة في إرجاعها لشكلها، فتشغلنا القضية بضع ليالٍ.

تفتح تفيحة عينيها على أقصى اتساع فهمت حجم التحدي. تضع إصبعها في فمها ثم تصرخ:

- بعوضة!

- البعوضة أنت!

- قردة! سيمسخك قردة!

- «با»، واصل أنت وقل لهذه البليدة ألا تتدخل في قصتي.

طيب، لكن من أين لي تصوّر أي شكل يجب أن يمسخ فيه الساحر هذه البنت وقد استنفدت المخيلة الجماعية كل الأشكال المرعبة والمقزّزة التي يمكن للآدمي أن يمسخ فيها؟ تأتيني فكرة لم تخطر على بال قصّاص. أليس الآدمي مصنوعا من الأفكار مثلما هو

مصنوع من الدم واللحم؟ لم لا أمسخه في صورة كائن من الحروف ؟... لماذا لم يفكر أحد بهذا الحل، الشيء الذي كان سيسهل علينا عمليات القصّ والفسخ والفرك والرمي في سلة المهملات لإعادة كتابة نصّ أمتع من الذي نقرأ والذي نكتب.

– أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحر الخبيث فكرة مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف. هكذا ذهلت الإنس والجن وهم يرون طفلة تمشي في الغابة، والرأس كلمة رأس و فوقها كلمة دماغ، ومكان الصدر كلمة صدر، ووراءها كلمات قلب ورئتين وكبد وطحال ومعدة وأمعاء، والأطراف الأربعة مصنوعة من أسماء العضام والعضلات والأوردة والشرايين والأعصاب التي تشكلها.

يذهل الأمير، هو الذي خرج من رحم قصة أعدته لضفدعة يبعث منظرها على التقزز. ها هو يحكّ رأسه لا يعرف ماذا يفعل. هل يقبّل كلمة وجنة؟ من هذا الغبي الذي تدخل في السيناريو وجاء بمثل هذه الفكرة؟ أنا غبي؟ استح يا ولد، وإلا سترى هل سأزوجك تفاحة، وما المهر الذي سأدفّعك إن رضيت بك أبا لأحفادي.

تحتج البنت:

– "با"، لا تقل عن الأمير أنه غبي، إنه جميل وأنا أحبه.

– لا أغبى منه حتى ولو لاءم ذوقك. ألا ترين أنه لم ينتبه إلى أن الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهر في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر!

تدرك تفيحة بذكائها الحاد أن أختها مهددة بهذا الذي أنقذ به الأمير حياتها.

– يا غبية، ستبتلّين ويسيل حبرك... سقف، شمسية.

يجب تحويل الانتباه بسرعة قبل تجدّد الشجار.

– أشهر الساحر كلمة مقص. لنهرب جميعا، نركب كلمة زورق.

تصرخ تفيحة: ونضعه على كلمة نهر.

ترقص تفاحة على السرير صارخة: فتأخذنا كلمة تيّار.

تأتي نفس الأوامر البائخة من نفس المطبخ الصغير بوقف كل هذا الضجيج المعتاد. تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقلد الرقص. تحتد لهجة أوامر نافذة الصبر فأنصح البنتين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبية من وراء الباب يقترب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشة وقرصا وتجاذبا بالأيادي.

تهمس تفاحة وعلامات التآمر على وجهها: «با» أين سنصل بزورقنا؟

سؤال وجيه. نعم أين يحملنا الطريق الذي رسمناه بالكلمات وبدأنا استعماله منذ تعلّم فكّ الحروف؟

ثـم يتصاعـد التنفـس البطـيء مـن البنتـين. أغـوص في الأريكـة واضعـا رجلـيّ علـى فـراش البنتـين، مسـتمعا لتنفسـهما ورافعـا عـن ذهـني كل القيـود، فأهـمّ الأفـكار لا تأتيـني إلا وأنـا علـى تخـوم النـوم واليقظـة.

جولـة شـبح في فضـاء جبالـه نصوص...غاباتـه نصـوص... أنهـاره نصوص...مسـتنقعاته نصوص...والمـادة المصنـوع منهـا الأحـرف والكلمـات.

في هـذا الفضـاء صيحـات آلامهـم نثـرا وشـعرا... زبـدة علومهـم الصحيحـة و المغلوطـة سـحرا وتنجيمـا وشـعوذة.. قوانينهـم الـتي تعكـس لهـم صـورة محتالـين، لصـوص، قتلـة، خونـة مسـتغلين، زنـاة، مغتصبـين مرتشـين.... تواريخهـم المتنافسـة قـل اساطيرهم الـتي يموهـون بهـا علـى انفسـهم وعلـى الآخريـن... مخططاتهـم للسـيطرة علـى عـالم لا مجـال للسـيطرة عليـه... رؤاهـم المتناقضـة المتنافسـة عمّـا يسمّونه العـالم يجهلـون كل شـيء تقريبـا عـن المسـمِي والمسمَى.

آه هـذا مركـز الفضـاء العجيـب ...كمـا هـو الحال في السـاحات الكبرى للفضاء الحسّـي، الواجهة للمقاولـين القدامـى الذيـن نمـت ثروتهـم عـبر العصـور ونجحـوا في فـرض بضاعتهـم .أجيـل البصـر أقـرأ لافتاتهـم الضخمـة : مؤسسـات أفلاطـون وأولاده ، فاليكـي للملاحـم الفلسـفية، هـرودوت دار التاريـخ العريـق ، البيثاغوريـون لعلـوم الكهانـة والحسـاب، هومـير للأسـاطير.

يخرجـني مـن ذهولـي الصـراخ المتعالـي مـن كل حـدب وصـوب . صـراخ باعـة المنتـوج الجديـد وهـو لا يكـفّ عـن التدفّـق والـكل يحـاول استغلال جهـل المسـتهلك وجوعـه لغـذاء الفكـر والـروح : مـن هنـا الصـورة الصحيحـة للعالم...تخفيـض هـام لديـن الخـلاص الحقيقي... الفلسـفة الصافيـة غـير المغشوشـة... طـازج ، علـم نفـس طـازج ، الوحيـد الطـازج الخـارج لتـوّه مـن الفرن...آخـر وصفـات الخـلاص الفـردي والجماعـي ، مسـكين مـن لا يشـتري بمثـل ضماناتنـا... مـن هنـا الـردود الجدّيـة علـى الأسـئلة اللعينـة... لا غـشّ عندنـا في الأمـر مثلمـا يفعـل الآخـرون!

يقترب أحدهـم هامسـا في أذنـي: لا تـتردّد، عندنـا برنامـج للرحلـة وكيـف تؤديهـا علـى أحسـن وجـه وبأرخـص الأثمـان. تعـال، مـن هنـا الصـراط المستقيم. لم لا أتبعـه ؟ قـد أعثـر أخـيرا عمّـا بحثـت عنـه منـذ إفاقـتي.

هـذا سـرادق الآلهـة المكشـرة وكهنتهـا الذيـن يعاملوننـا كالأطفـال، يصرخـون فينـا دومـا: افعلـوا الخـير وسـتكافئون بكثـير مـن الشـوكولاتة وإن عصيتمونـا سـلخنا جلودكـم دنيـا وآخـرة. لا، شـكرا لسـت معنيـا بمثـل هـذا البرنامـج. هـذا سـرادق الأنبيـاء المبتسـمين. لألـق نظـرة علـى الرجـل الجالـس تحـت شـجرة الشـاي يتأمـل، وعلـى ذلـك الآخـر الـذي نـزل لتـوّه مـن ظهـر الثـور ليسـلمنا أثمـن الكنـوز قبـل الاختفـاء في الضبـاب. كـم مؤسـف أنهمـا همـا أيضـا يبيعـان نفـس البضاعـة، الفرق بينهمـا وكهنـة الآلهـة المكشـرة أنهمـا أكثـر لياقـة مـع الزبائـن واحترامـا لذكائهـم. هـذا سـرادق ديمقريـط وبروتاغـوراس وابيقـور وإبيكتـت وكل مـن أحـب مـن الفلاسـفة الذيـن لا يحبـون ولا يحبهـم أفلاطـون. هـم أيضـا يريدونـني خيـّـرا وحكيمـا ومعتـدلا وعاقـلا وصبـورا ونافعـا! لمـاذا يصـرون كلهـم علـى أن أضيـع وقتـا ثمينـا في مهمـة بعبثيـة استئصال جـزء

من ذاتي ولو كان حقا الأظلم ؟ هل جئت لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي ؟

هل سيجد الحالم ضالته في الأزقة الخلفية ؟ مؤكّد أنها تعجّ بمزوري النصوص وبمهربيها، أنني سأجد فيها أشدّ من تتشوّق لهم نفسي. قد أسقط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمرت أيادٍ مجهولة جلّها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بهدي وتوفيق من الشيطان. آه لو أمكنني ملاقاة الاخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم -ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة- أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض سبّه وإعلامه بأنني سأختم به نصّي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلّف ألف ليلة وليلة؟... أمر مشكوك فيه والرجل - اللهم إلا إذا كان امرأة - تدبر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إماطة اللثام عن هويته(ها). كتاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام.

من يدري ربما سألاقي صاحب مخطوطة "فوينيتش". كم من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستميتون ستة قرون لفكّ رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر. آه هذا أنت! أي وقاحة هذه ؟ كل الذين يكتبون يفعلون ذلك لتُخلّد أسمائهم وليتناقل الناس كلامهم ويعملون به وأنت! لا، لن أزيل القناع عن وجهك ولن أطلب منك ترجمة. هكذا يكون الكاتب وهكذا يكون أحسن ما يفعل.

ربما أكبر مقاول السوق- بساحاتها الكبرى وأزقتها الملتوية- ذلك الذي كتب أعظم نص، ولما أعاد قراءته ضحك ثم بكى ثم مزّق الورق ورمى بالقلم بعيدا عنه وتوقف عن التنفس إلى أن جاءه الموت. نصوص لم تر النور أو لم تكتب أصلا أو كتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية ! كل الفضاء الرمزي الفائض بكل هذه الثرثرة مجرّد قمة جبل الجليد! أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الآدميون الافصاح عنها ويمنعونها حتى من التبلور على تخوم الوعي!... هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور ؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا ؟

يا للطفل المسكين الذي حكمت عليه الأقدار أن يضيّع جلّ عمره في الجري وراء المعرفة طمعا في اكتشاف طبائع الأمور ومعدن الأشياء وسرّ الوجود ومبتدأ الخير ومنتهاه. كم من العقود سيتيه في هذا الفضاء ليكتشف أنه لم ولن يعرف من الواقع إلا تصورات تراكمت على تصورات، إنه كمن يزيح غبارا بخرقة من غبار على شكل لم يصنع يوما إلا من الغبار.

نهـــــــاية إقدام العقول عـقــال وأكثر سعي العالمين ضلال- (الإمام الرازي)
وأرواحنا في وحشة من جسومـنـــا وحاصل دنيانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنـــا سوى أن جمعنا قيل و قـالوا

نعـم يتضـح - مـع كل الاحـترام لمسـيو فيـدال وأشـباهه مـن المربـين السـذّج- أنـه ربمـا كان مـن الأجـدى للطفـل أن يجـد مـن يوجّهـه ليكـون مضاربـا في البورصـة، أو مهـرّب أسلحة، أو "كابـو» مافيـا... علـى الأقـلّ رسـاما أو موسـيقيا... لكـن فـأر مكتبـة!

هـل كان سيرمي بالكتـب في المزبلـة وهـو يقـرأ في صفحـات كتـاب الزمـان كـم سـيكون سـخيا حاصلـه مـن الأذى والوبـال لجهلـه وتجاهلـه أن البشـر يكرهـون الحقيقـة قـدر مـا يحبونهـا، يفـرون أمامهـا بأسـرع مـا يجـرون وراءهـا، أن أكاذيبهـم حقائقهـم وحقائقهـم أكاذيبهـم، أنـه لا أثمـن لديهـم مـن خرافاتهـم وأسـاطيرهم؟

هـل كان سيصاب بالهلـع وهـو يكتشـف بعـد عقـود أن المعرفـة تضـع الـذات أمـام المـرآة فتصطـكّ فرائـص الـذات مـن الرعـب...أنهـا تعـرّي «حقائـق» وحقيقـة القديسـين والشـيوخ والأبطـال والقادة والغوغـاء الـتي يسـميها البعـض «شـعبا». هـل كان بوسـعه تصـوّر انزلاقـه التدريجـي نحـو الخيانـة لـكل مـا شـحنه بـه مسـيو فيـدال مـن قيـم وقـد بـدأت تداهمـه في آخـر عمـره أفـكار مخيفـة حـول أفضليـة التجهيـل علـى التعليـم والتعميـة علـى التوعيـة والمغالطـة علـى المصارحـة؟ وأنـه مـن الممكـن أننـا لا نحتـاج طـوال عبورنـا العـالم إلا لأكـبر قـدر مـن الجهـل المريـح والكـذب المفيـد والنفـاق البنّـاء والتضليـل القويـم ؟

نعـم كـم صـدق ذلـك الـذي يسـمونه الجاحـظ : «**ومذهـب صحصـح في تفضيـل النسـيان علـى كثـير مـن الذكـر، وأن الغبـاء في الجملـة أنفـع مـن الفطنـة في الجملـة وأن عيـش البهائـم أحسـن موقعـا مـن النفـوس مـن عيـش العقـلاء ....ومتوقـع البـلاء في البـلاء وإن سـلم منـه والغافـل في الرجـاء إلى أن يدركـه البـلاء**».

تصرخ البنتان بالاحتجاج :

- "با"، لا تتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا.

ماذا ؟ أنا واحد من الباعة ولم انتبه !

إنّهـا حقـا لمغامـرة أن تجـد في هـذه السـوق موقـع قـدم لعربتـك المحمّلـة ببضائعـك الـتي لم يسـمع بهـا شـار أو سمسـار، يحـدوك- مـع هـذا- أمـل كل المبتدئـين أن تتحسّـن الأحـوال يومـا فتفتـح لـك دكّانـا صغـيرا ثـمّ أوّل مسـاحة كـبرى عندمـا تتحسـن أكثـر، ولم لا أن تصبـح أنـت أيضـا مـن كبـار مقاولـي الفضـاء .

نعـم، لأزاحـم أنـا أيضـا لعـرض أحححححسـن الأجوبـة عـن أسـئلة لا يهـمّ أن تكـون فاسـدة الصياغـة أصـلا.

ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصيح مغنّيا أو أغنّي صائحا : "الرحلة"، "الرحلة "، آخر وأجمل الرؤى عن العالم وفيها تقنيات عبوره والخروج منه سالما ومظفّرا. كل من يشتري "الرحلة" نعطيه مجّانا "المدخل إلى الطبّ "شرط ألاّ يستعمله للفّ السمك أو لإسناد طاولة المطبخ العرجاء.

تنخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "با" مات غبيا، ها هي تفاحة تغنّي: تعالوا، اسمعوا قصّة بينوكيو ترويها لكم أحسن راوية، وأختها تصرخ بصوت أعلى: بل تعالوا لسماع قصّة سندريلا والأمير الجميل ترويها لكم تفيحة المشهورة.

طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الآدميين الملاعين يحرّك عضلة إلاّ لحسابه الخاصّ. أمّا ما يدّعونه من أثرة وعمل لوجه «با» أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايضة تجارية بحتة يخرجون منها بسرعة إذا لم تغطّ المكاسب ثمن تحريك العضلة آنفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا شاري أغشّه. إن بارت البضاعة حتى في الأزقة الخلفية فما عليّ إلا تركها للفئران.

تصرخ تفاحة داخل حلمي اليقظان :

- «با»، انتبه ! ! !

أنتبه، لكن أين المخبأ وشلالات التصورات المتضاربة تتدافع من كل حدب وصوب لتغرقني في مزيد من الارتباك.

أيا جغرافيا لفضاء يتغير طول الوقت تعيد تشكيله كلمات تبرز من المجهول لا احد توقعها : النازية ، الشيوعية ، الذرّة ، الفاكس ، التلفزيون ، الهاتف ، السيارة ، الطائرة، الإنترنت ، الثلاّجة ، الحاسوب الصاروخ والقمر الصناعي. أي كلمات لا زالت في طي المجهول ستحمل لنا أجمل الهدايا وافظع الشرور ؟

إن ثمة ملجأ ففي عين الإعصار ...المنطقة من الفضاء التي تنطلق منها الحركة الهوجاء الخلاقة المدمّرة...نافورة لا تنضب. ترمي لنا باستمرار بما تصنع : السؤال وما أدراك ما السؤال.

سيد هذا الجزء من فضاء اللغة رمز له شكل منجل و وظيفته القص أو التهديد وليس ذلك من باب الصدفة . تقول أن الله موجود. رأي محترم، لكن ما دليلك ؟ تقول الله غير موجود ؟ رأي محترم ،لكن ما دليلك ؟ لا غرابة أن يكون ألدّ أعداء كل أصحاب القناعات يطمئنون بها أنفسهم ويموّهون بها على الآخرين. كم رائع ألا حيلة تنطلي عليه ولا قوة قادرة على إسكاته. إنه الساهر الأكبر على سلامتنا الذهنية والأداة التي تمكّن هذا الفضاء الرمزي من البقاء حيا متجددا وإن كنا لا نجد فيه إلا ما نضع ولا نضع فيه إلا ما نجد .

داخل الجزء الذي يقتطعه من فضاء الرموز ولدت وترعرعت أسئلة الفلسفة والدين والعلم والتاريخ وكل المواضيع التي تشغل البال. «هنا» أسئلتي : كم تعاقب من بني آدم على الوجود؟ وكيف يسعني أن أعرفهم واحدا واحدا وباسمهم الصغير وأن أتمعّن في قصة كل فرد منهم؟ لماذا أتوه بهذه الكثافة؟ لماذا يرفضون مغادرته على أهواله؟ هل وجدوا قبل الوجود؟ وهل سيوجدون بعده على شكل آخر؟ هل هم حيوانات أفرزتها قوة عمياء اسمها «الطبيعة»؟ أم كائنات نورانية خلقها إله لم تخلقه قصصهم؟ هل رمت بهم الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم ؟ هل هم تائهون في محيط اسمه «الكون» ينتظرون بعثة إنقاذ لم تسمع بالغرق ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأوا إليها؟ هل هم مستكشفون بعثتهم العتمة في مهمة بالغة الخطورة ؟ لماذا نتقدّم في ربوعه ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننطقه ولا نظفر منه إلاّ بصدى صوتنا؟ ما الخلق؟ ما الخالق؟ ما المخلوق ؟ إن قلنا أن العالم ليس بحاجة لخالق لأنه يتطوّر بصفة عفوية وبلا مخطط مسبق انطلاقا من مكونات أساسية ووفق معادلات حسابية بالغة البساطة، فمن أين أتت المكونات والمعادلات التي تتبع تعاليمها؟ لماذا تتبعها هي لا غير؟ ما هذا الكائن الذي تجسدنا فيه؟ ما هذه الأداة التي ارتحل بها أو من خلالها أستكشف عالما لا أفهمه ولا يفهمني؟ من هذا الذي ظعنت وارتحلت من بداية الرّحلة إلى نهايتها موثقا إليه؟ من هذا الأعمى الذي أقوده ويقودني في مسالكها؟... هذا الذي أسميّه ولا أعرف من هو، أوّل من قابلت من الكائنات وآخر من أودّع عند الرحيل النهائي. لماذا تعرف الذات شرخا بين علمها الواعي المحدود وعلمها غير الواعي الذي يبدو لا محدودا؟ كيف حصل الشرخ الذي قسم ما كان وحدة صمّاء إلى ذات تشاهد الذات، وذات موضوع المشاهدة، وكأنّ المشاهد وموضوعه عين تحاول رؤية نفسها وهي تبصر؟ لماذا أشعر بأنّني أنا ولست أنا؟ كيف يمكن لنفس الدماغ أن يتمخض عن كل هذه العبقرية وعن كل هذا الغباء؟ ما القاعدة وما الاستثناء؟ أم هل أن الخاصيتين متلازمتان ضرورة تلازم الاوكسيجين والهيدروجين في جزئية الماء؟ كيف يتجاور في نفس الكائن الشيطان والملاك؟ هل هو خطأ عابر ارتكبه العالم وسيمحيه من الوجود ومن ذاكرته كما فعل قبلنا بملايين الأجناس؟ هل نحن مثل أبقار وأغنام نُسيت في المراعي، فإذا بفيلسوف بأربع قوائم يقول لها إنها خلقت لاستكشاف الحقل ورسم خريطة الإسطبل والتعجّب من روعة البرسيم، لا لأغراض الراعي والجزّار؟ أخيرا لا آخرا هل ثمة إمكانية لعالم مثالي فيه كائن مثل الآدمي ؟

الأهمّ الاسئلة التي تتعلّق بالآلة التي تولّد ...الأسئلة. ما الذي يحدث بالضبط داخل فكري عندما ألاحظ وأحلّل وأسمي وأقارن وأقيس وأستنتج وأرفض وأراجع وأقرّر وأشكّ وأفنّد وأنقد وأسخر وأجرّب وأحتار وأطمئن؟ هل التفكير انعكاس العالم في مرآة الذات؟ هل تتعرف هذه الأخيرة عندما تفكر على أشياء رأتها قبل تعرّف الأمّ على طفلها الضائع

أم هـل تختلـق وترسـم علـى لوحـة بيضـاء مـا بداخلهـا؟ هـل هنـاك أفـكار أزليـة موجـودة في الفضـاء معلّقـة في سـطح الموجـود، والتفكـير هـو السـلّم الـذي نصنـع درجاتـه لنرقـى إليهـا أم هـل نصنـع أفكارنـا كمـا نصنـع ملابسـنا وأحذيتنـا لقضـاء الحاجـة ثـم نرميهـا في سلّة مهمـلات عندمـا تبلـى ؟ هـل التفكـير اكتشـاف أثـر العـالم في الـذات كاكتشـاف آثـار السـارق علـى الرمـل؟ هـل مـن الممكـن أننـا، عندمـا نكتـب أرقـى المعـادلات الحسـابية، نتوغّـل داخـل قـدرات جديـدة للـذات ولا نكتشـف شـيئا خارجـا عنهـا ؟ هـل يسـتطيع الفكـر البتّ في شـرعية الأسـئلة الـتي يطـرح بغـضّ النظـر عـن اكتشـاف الـردود ؟ لمـاذا حكـم علـى كل سـؤال أجيـب عليـه أن تتولّـد عنـه رزمـة مـن الأسـئلة الجديـدة ؟ أخـيرا لا آخـرا : مـاذا لـو كانـت كل الأسـئلة الـتي نطـرح والأجوبـة الـتي نعطـي (ومنهـا أننـا ضحيـة ممتحـن قـاسٍ) مـرة أخـرى تصوراتنـا، لا أكثـر؟ هـل نخلـق حيرتنـا بأيدينـا ونبـني بهـا شـقاءنا، لأن العـالَم لم يكـن يومـا لغـزا للفلـك أو فضـاء للغـزو، وإنمـا لوحـة فنيـة للتأمـل وللرسـم علـى حواشـيها ؟

كيـف لم ينتبـه المفكّـرون أن أهـم مـا في فضـاء الرمـوز السـؤال وليـس الجـواب ؟ كيـف لم يخلقـوا علمـا مسـتقلا يبـوب الأسـئلة، ينقـب في تاريخهـا ويواكـب تطورهـا ؟...ألـن يكـون هـذا العلـم أصـدق علومنـا وهـو يعكـس أدق مشـاكلنا وهـو يعكـس حيرتنـا وهـو سـجل إخفاقاتنـا وانتصاراتنا؟

علـم أوصـي ببعـث أسسـه سـريعا ولا أرى مانعـا مـن أن يطلـق عليـه اسمـي بـدل تسـمية سـخيفة مثـل «السـؤالوجيا».

* * * * *

فضاء الخيال

في ملفّ محفوظ بمنتهى العناية عن بداية استكشاف الفضاء السحري، يصرخ «با» : هذا الولد سيذهب بعقلي، يا امرأة هكذا تربين أطفالي!

متوجها لي بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلت لك : أخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس في طرف منها «ما» مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس "با" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب وضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للفأر ومن ثم كانت أولى محطات الإقلاع التي وجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ والملاذ.

يصرخ الأخ الصغير في أمه: "ما"، إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأشخّ في سروالي. قولي له أن يخرج حالا. تدقّ «ما» على الباب بإصرار، فيخرج الطفل مكرها من مكان كان يظنه آمنا بعد طرده من "الوكر".

حتى أعصاب «ما» قادرة على التوتّر.

– كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك. هو في عهدتي، ركضا إلى المدرسة ، تأدب مع المعلّم وقل له : سيدي ، أطعه... الخ.

يستشيط المعلّم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

– تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مصادر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مكرها، يواصل ووجهه إلى الحائط أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.

تتدافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها «الهند» لا يعرف عنها شيئا. ولأنّه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن له فكرة عمّا هي القصور التي تتحدّث عنها القصّة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل جدرانها السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا طفل يعرف كلمة السرّ.

أخيرا البيت. يلوذ الطفل بفراشه متنفسا الصعداء، تخلص أخيرا من المتصدّين لحقّه في الاختلاء بنفسه وبالكتاب... الحبيب الوحيد الذي لن يخونه طوال حياته والذي لن

يلقى منه إلا نفس الوفاء. اللعنة على هذا النوم الذي يثقل جفونه... لو يستطيع مواصلة القراءة وهو نائم.

يرتفع صوت «ما» فيه الآن نفاد الصبر :

– يا بني، هل تريد أن افتكّ منك الكتاب بالقوّة. النوم. حالا.

عبثا. لن تمنعه حتى «ما» من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه راما رحل مع زوجته سيتا وأخيه لاشكمنا إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيبها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي دنكا تبكي سيتا قومها ووطنها، لا تخفي رعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين. ما أغرب عالم ترتحل في جزء كبير منه ممتدا على الظهر والعيون وحدها التي تتحرك

سيتا! سيتا! خطفوا سيتا، خطفها رافانا اللعين!

إنه أوّل امتحان للطفل وقد تقمص الدور، أو قل تقمصه الدور. نعم، هو الذي سيحرّر الفضيلة ويعيد الملك لصاحبه والأمور لنصابها والعالم لتوازنه المفقود.

– "ما"، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأوّل على الأقلّ، أرجوك.

– طيب لكن قل لي...ماذا تفعل ؟ رأيتك تقبّل الكتاب...!

يصمت الطفل؛ لا يريد الاعتراف لأمّه أنه واثق أن قبلاته عبرت حاجز الورق وتسللت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد.

آه يا سيتا، يا «جاناكي»، يا ضفائر سود على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمة الحياء والخجل، يا رقّة الفجر، يا وداعة، يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى... يا أوّل حبّ (سيدتي كانت مجرّد هفوة صبا).

– كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سيتا في أسرها! إنّ "ما" لا تدرك ما تقول. ألا تعلم أن الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكمّمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقه وتوهّم ما شئت. سآتيك بالخبر اليقين. تبدأ المعركة المصيرية ولا بدّ من حليف قوي موثوق به، هو العالم ذاته أو على الأقل الجزء السويّ منه اتخذ الآن شكل ملك القردة. إنه هانومان الذي قبل بإعانة الطفل وبعث بجنوده ينقبون في الوديان والجبال والغابات ليكتشفوا أين خبّأ الشيطان ممثلّة الفضيلة والطهر والجمال. أخيرا استطاعت وحدات الاستكشاف رصد المخطوفة المحتجزة في غابة موحشة من جزيرة ساحرة تقع وراء البحر. يقفز هانومان، ومن خلفه جنوده، فوق المضيق الفاصل بين أرض بهاراتا وأرض لانكا، متوجهين إلى القصر الذي جعله الشيطان (صاحب الرؤوس العشرة)سجنا لملكة قلبي... ويعبر الطفل على

ظهره ملقيا نظرة خاطفة على بحر فاتح أشداقه ليبتلعه هو ومطيته القرد الذي يحسب نفسه عصفورا. تطبق الأمواج فكيها على الفراغ، المرّة تلو الأخرى. يقهقه البطل الصغير في قمّة الجذل. يخرج لسانه للبحر الصاخب المتوعّد ليصرخ ألما وجذلا وهو يرتطم بأرض جزيرة كل الوعود والأخطار.

– يا بنيّ، الكتاب لن يهرب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربّما تتهدّدها أشياء أخرى أفظع بكثير؟ بداهة لا تقدّر «ما» كم هي حرجة هذه اللّحظة.

– يا بني، أنت لا ترى جيّدا، والقراءة باللّيل تتعب عينيك، ولا بد لك من النوم.

– إذا كان النوم عزيزا عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي ؟

– لا تكن سليط اللسان حتى مع أمّك. أتريد أن أمضي كامل الليل أترجّاك ؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن «ما» تفهم أحسن منه. هل كانت تقبل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من «واقعها»: لا تقلقي، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتا، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركيه... على كل حال هو لن يسمعك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تقدّر الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرا ككل «الأبرياء»، وهم من نجحوا أحسن من غيرهم في إخفاء ما بهم من مكر وخبث.

كانت تعتقده نائما وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان مخبّأ لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة والطفل هو المخرج والمنتج والممثل، يتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماء يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذنيّ يحاول إرهابي، أصرخ فيه فتصطكّ فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيّق عليه الخناق في كل مجرة. تكشّر السماء عن أنيابها وقد توسطتها شمس بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف فيصوّب لها السهام القاتلة دون تكلف الالتفات. ترنّ في الفضاء البعيد موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصورة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيالة الولايات المتحدة ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر تصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان. آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفّ فليس لي رافانا واحد أطهّر منه عالما موبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تتركان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: آه يا راما، قتلتني لكنه شرف عظيم أن يأتي الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرّجا بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسما مديرا رأسي يمنة وشمالا أبحث عن المصورين ونظرات إعجاب البنات. أستلّ رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثمّ أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في القصص الأخرى لمسيو فيدال. أوووووووه...، ...، أوووووه...، أنا راما. أنا سيّد الأسياد !!!

أسارع لأحرّر سيتا و...على فكرة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة ؟

المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلاّ الجزء الجميل من الملحمة، أنّهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة لأن قصص الآدميين دوما مصنوعة من أنصاف الحقائق والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمك نتنها. ويوم يكبر ويبحث في تفاصيل القصص التي هيكلت باكرا فكره ومشاعره، ومن بينها هذه القصة، سيكتشف أن راما لفظ سيتا بعد تحريرها لأنّه لم يكن قادرا على تحمّل فكرة غواية الشيطان لها وربّما تمتّعه بها... أنه ندم على فعلته ثم استرضاها فلم ترض... أنه قسّم ملكه بين طفلين ولدتهما له ثمّ أنهى آدميته عائدا إلى السماء لأنه لم يكن آدميا إلا بالمظهر وإنما الإله فيشنو نزل العالم بعد أن استأسدت فيه الشياطين علّه يعيد له بعض التوازن... أخيرا أن المظلومة استجارت بالغابة، هي وطفليها، فكفلهم ناسك اسمه «فالميكي»... أن هذا الرجل هو الشاعر الفذّ خالق الأسطورة التي خلقت أمة كبرى ودينا عظيما... الدليل الذي لا يغالط، العارف أننا لا نسافر إلا في عالم واقعه تقاطع حواس ولغة وخيال.

*

يكتشف الطفل يوما بوابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجّه المعلّم لأطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر:

– يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة السينما.

عرض ؟ سينما ؟

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عمّا يوجد داخلها. من أين لطفل في السادسة أو السابعة من العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبّعة مهرّج ضخم اسمه «العالم» لا ينفكّ عن إظهار عضلاته ليزداد به الآدمي تعلّقا وإعجابا. يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلين للمحراب. يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيّا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ الصبية، لا ينفع فيه صراخ المعلّمين طلبا للهدوء والصمت. فجأة يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحرّكه. يواجه الطفل المشدوه بحائط شاهق مغطّى من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميّين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتي يقرأ في الكتب. ترتسم على الحائط مناظر لحقول وجبال خرجت من اللاّشيء

ثم لآدميين خرجوا هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه العفاريت وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجّب. هل ثمة ألذ من الصياح جماعة؟

يتضح لي اليوم، وأنا جالس وحدي أمام صندوق سحري حقّق الآدميّون عبره حلما سخيفا بأن يكون لكلّ واحد قاعته المظلمة الخاصة، أن جمهور طفولتي ومراهقتي كان جزءا من العرض بل أهمّ ما فيه. صحيح أنني لم أعد أتكلّف جهد الصراع مع طابور طويل لا أدفع أحدا ولا يمشي على قدمي آدميّ معتذرا أو غير مبال، ناهيك عن كوني لا أخرج من جيبي مليّما واحدا.لكن أين متعة الفوضى والخناقات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعة السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فرض الصمت في مثل هذه القاعات، هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في أماكن عرض أخرى .تأتيني أحيانا فكرة الوقوف بباب داري لدعوة المارّة لدخول الصالون والتفرج معي على آخر القصص، شريطة افتعال معركة حول احترام منع التدخين والالتزام بالصمت وعدم التعليق السمج على القبلة المطوّلة بين البطلين وتبادل الآراء بصوت عال حول هويّة القاتل قبل أن يكشف عنه المفتّش الذي لا تنطلي عليه حيل مجرم.

يشارك الطفل إذن، في الفوضى الجميلة بالرقص فوق المقعد والصراخ لأنّه لا يفلت فرصة كهذه لينفس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنّها العدوى. تتوقّف الصرخة وقد فاجأه قلق مبهم. هل سيثب الفرسان من الحائط على القاعة؟ هل سيجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة ذراعه آليا يحمي بها رأسه من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمرّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا يثيرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتائم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز وقد انتبه لترابط بين الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسارعا بالاختباء خلف الصخور وشاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم ينبّهون الفارس المختبئ وراء الصخرة ليحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. كأنّ غرائز قديمة قدم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات، عبقت في القاعة تذكّر الآدميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتلة ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهددين بالقتل. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أي أهمية لآلام بالوكالة . هو مشغوف، متحمّس ،جذلان، ومنغمس في الأحداث ، جزء منها ، فاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصياد والصياد لحيل الطريدة. قد تكون تلك التجربة الأولى هي التي علّمته أن يتعاطف مع الجلاّد ومع الضحية، أن يرثي للظالم رثاءه للمظلوم، أن يتألّم للقاتل تألّمه للمقتول.

تعود الأضواء للقاعة ويجد الطفل نفسه مشدوها واقفا على كرسيه وكأنه أفاق من حلم في أغرب وضع. ها هو يمشي في الطريق مسلما جسده لآليات مجهولة تتكفّل بقيادة خطاه والذهن شارد لأننا أغلب الوقت كائنات موزعة الحضور، نودع جسدنا في فضاء، وروحنا في آخر، تعوزنا الحيلة لجمع ما تفرّق.

لا شكّ أنّ «ما» لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشية جديدة وهي عمياء عن حصان أبيض كان أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض وهلع يفرّون من كرّ طفل مغوار يعمل في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهنّد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومن حوله: أين البشر والخيل الذين رآهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغبيّ هو أم هذا الذي يقول إن الكائنات التي رآها بأمّ عينيه مجرّد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إدمان جديد يضاف لإدمان الكتاب... والحاجز في الحالتين المال.

تضع الأمّ الدراهم القليلة في الجيب وكلّها إشفاق على ابنها الذي لن يعود من المعهد في المدينة الكبرى إلاّ بعد غروب الشمس وهو على حالة متقدمة من الإرهاق. تستغرق في ربط الوشاح حول عنقه مرددة نفس النصائح البائرة.

– هذه الدراهم لغذائك في أقرب مطعم شعبي. لا تبتعد عن المعهد. بعد حصة ما بعد الظهر اقصد مباشرة المحطّة. لا تترك القطار يفوتك وإلا لحقك الظلام.

يضع الطفل وقد أصبح على أبواب المراهقة الدراهم في جيبه ناسيا أن يتغذّى ليجمع في نهاية الأسبوع ثمن دخول القاعة المظلمة، مفضلا جوع الجسد على جوع الروح.

أيّ طريقة غير التكتّم والخداع و«ما» مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض، على ما كانت تسمع، قصص نساء سافرات متبرّجات وعنف و قتل. كل ما تكره... كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسي، كفضاء الرموز، زاخر بما لا يتصوّره عقله والآدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.

يتهامس الأطفال أنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه «دراكولا» يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر بعد تفقّد من لهم أعناق جميلة وشرايين فيها دم ساخن لذيذ يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على التي لا تكذب بخصوص

المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذه في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على «ما».

يحتلّ مقعده المفضل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر يزفر من الغيظ على الانسحاب. أخيرا سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريت التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو العبيثة التي ما زالت الجدّة تهدّده بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه، تجري وراء ما تفتعل الهروب منه... والحدود بين ما تحبّ وتكره متحرّكة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض وأخرج مع أخي من القاعة نفتعل اللاّمبالاة والاستهزاء من خوف بقية الأطفال. المشكل الضاغط الآن هو ماذا سنقول لـ«ما» بخصوص أين كنا وسبب ارتعاش الصغير وارتباك الكبير ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الإخلاد إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما. يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش «ما». تأتيني رغبة عارمة أن ألتحق أنا الآخر بالفراش الآمن. لكن هل يعقل أن ألتجئ إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار. أقرّر، انصياعا للأمر الأبوي الصارم: التحلّي بالشجاعة، أو على الاقلّ افتعالها. لا خيار غير الذهاب إلى فراشي وتنظيم وسائل الدفاع بنفسي. أبدأ بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله «ما» ولا يفهم لغتنا، ومن ثم لا يمكن أن تشكّل الفاتحة رادعا له. هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. أخون إله الآباء والأجداد مستنجدا بخدمات إله أجنبي!؟ ماذا ستقول «ما» لو اكتشفت الصليب على باب غرفتي وأنني أصبحت نصرانيا؟ لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يفرّ، لأسباب يعرفها هو وحده أمام الثوم. لكن أين تضع "ما" الثوم المنقذ؟ ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ كيف سأردّ وهي تضبطني حافيا في الظلام ويديَّ ملآنتين بالثوم؟ أسلّم أمري لمن تسلم له الأمور عند حضور المشكلة وغياب الحلّ. يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطّى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيذ القمر بالله. ترتجف الأشجار فرقا وتتبرأ البوم من التمرّد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للآدميّ. ينطلق الكائن اللعين من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شلاّلا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت.

هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته وكلّهم تحت ذمّته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسسه بسوء وفتّش عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته. نعم، ممكن.

القاعدة أن الخوف من الخطر ليس دفعا له وإنما دلّه على أقصر طريق إليك... أنّك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما.

لا غرابة أن يجد دراكولا منفذا لطفل جالس على فراشه ورأسه على صدره فيتدفّق شلاّل دم من عنقه وهو بين أنياب الفكّ المرعب. يحاول فتح فمه، فلا تخرج من حلقه سوى حشرجة صامتة. يهبّ صارخا والبول- لا الدم- هو الذي أغرق الفراش.

أهم ما تفصح عنه الذات في خلقها للخرافات سواء كان ديكورها القصور المهجورة في سكوتلندا أو جبال رومانيا هو رعبها من الأموات الذين يطرقون الباب بقوة إما محملين بخصائص ستزيد من شرّهم أو بالأخبار السيئة عما ينتظرنا جميعا على الضفة الأخرى... رعبها من الموت بما هو عملية اغتيال لا يفلت منه أحد.

أذكر أنّ منظر وجهي ذلك الصباح أثار قلقا كبيرا في «ما»، خاصّة وأنّ وجه طفلها الآخر الذي احتمى بفراشها، لم يكن أقلّ مدعاة للقلق. كم أثار ذلك فيّ بعض العزاء وشيئا من السلوى وقسطا لا بأس به من الشماتة.

تجربة أخرى للرعب لكن الغنيمة على قدر الثمن : اكتشاف الطفل أن هناك بجانب الكائنات المحسوسة وكائنات المنام، كائنات أغرب.

بعد انحسار الخوف عودة الأسئلة قل الهواجس: هل تنجح الكائنات حبيسة القاعات المظلمة أحيانا في الفرار كما كان سيحاول لو كان مكانها؟ ربما تخرج عند حلول الظلام من علبها لتتفسّح وتختلط بالآدميين ولا ينتبه لوجودها أحد!

أهمّ سؤال : هل من الممكن ان يعود اللعين ؟ لكن لماذا أصف العفريت بـــــ«اللعين» وما هذا الاستنكار المنافق بخصوص فعل نعيبه وهو القاعدة؟ أليس العالم، كما عرّاه الشريط، مغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض، ولا نتحدث عن دم بقية الكائنات؟ ما كان الطفل عاجزا عن فهمه آنذاك أن الآدمي يثبت عبر أسطورة دراكولا رفضه القاطع لمغادرة العالم على أوحاله وأهواله، أنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة. لماذا التجني إذن على العفريت ووصفه باللعين والحال أننا كلنا ذلك الكائن المسكين ؟

ما سيكتشفه الكهل يوما أنه لا وجود لشيء أو فكرة في هذا العالم إلا ووجد النقيض. فتّش عن الرغبة المعاكسة للخلود وستجد ألف أسطورة وألف حدث للتدليل على رعب الآدميين من العودة إلى هذا العالم بعد أن خلّصهم منه الموت. ستسمع أن منهم من أوصى بحرق جسده وأن آخرين طالبوا بأن يوثقوا إلى القبر بالسلاسل. ثمة من الأحياء من يفتحون القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمص الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

*

تتواصل البعثات المثيرة والطفل يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفّازه محكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سلّم الطائرة النفّاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع وأطيب التمنيّات بنجاح المهمّة. تركب

الذات مطيّة الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف، يواجه لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن وإنّما الشمس هي التي تغض الطرف. يخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواريها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات المشرفة على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهوّر أنه أُنقذ مرة أخرى، أنه ما زالت للرحلة بقية من طريق. تنزل المظلّة بمعدّاتها بالضبط فوق القارب فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراهة وكله امتنان لبعل ولدعوات «ما» وللطيار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا للقاعدة فهناك مهمّة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة ...بركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرّت لحلّها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرّفها رضاك.

يواصل الآدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقّل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرة ينزل أعمق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفّرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة يتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

من أين لنا الانكار أننا لا نعيش حياة واحدة كما تقول الرؤى غير المتقنة وإنّما «حياتات» ، منها التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة...منها التي نقضيها في فضاء الحواس وأجملها التي نعيشها في هذا فضاء الخيال ؟

تنبت يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية من نوع جديد تعذبه بحاجيات مبهمة.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سيتا وبنت الجيران: الحبّ أجمل من الحرب. يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات. عد إلى معاركك. أنت تستبق الأحداث.

- كفى من المعارك، لم أعد طفلا.

يشعر المراهق بالنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكّمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبل لك بتصوّر متاعبها . بالتقدم في العمر ترفع حواجز

الحياء والحرج. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص. يصرخ الخليفة المراهق في قهرمانة الحريم وقد شده هيجان الجمال والفيلة والأسود عند موسم الإناث: إليّ بكل ما في جنّتي من ملائكة... هل يريد مولاي استهلاكهن زرافات أم وحدانا؟... بل بالجملة واللعنة على التفصيل... أريد هذا الملاك جاهزا للاستهلاك... أمرك سيدي... أريد ذلك الملاك الآخر الذي أطلّ عليّ بوجهه الصبوح من تلك القصة فأصابني تشهّيه بما يشبه المرض... أمرك سيدي...أريد الجمع، الأولى على يميني والثانية على يساري... فليكن حسب مشيئة سيدي... وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وواحدة للصباح، وواحدة لبعد الظهر، وأخرى لبداية الليل، السوداء المكتنزة الصدر لمنتصفه، الشقراء النحيفة لطلوع الفجر... لا تعليقات سخيفة على تأثير هذا الإفراط على صحتي، أنا أدرى الناس بمصالحي... سمعا وطاعة سيدي... هل يريد سيدي شيئا آخر؟...كل الإناث قبل أن يأتيهن المشيب حاضرا وماضيا، حتى مستقبلا... كل ما يمكن أن تحمله المكتبة العظمى من مشاريع الوجوه والقدود والنهود والبطون والسيقان والعيون والنظرات والابتسامات وأعذب الأصوات... صعب، لكن سنرى ماذا يمكن فعله. سباحة رائعة وما أحلى الغرق في أمواج متلاطمة من النهود والأفخاذ. ويا زمن توقّف ويا موت إن أردت تفضّل الآن. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

ماذا هناك أيضا ؟ ليطمئن سيدي...كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر... الأربعة الكبار؟... الجنس والمال والشهرة والسلطة. نعم، نعم، كل الاحتياطي العالمي من الجنس والشهرة والمال والسلطة... حذار من ترك أي فتات للآخرين.

يا لها من كارثة لو لم يكن لنا فضاء نلهث فيه وراء رغباتنا ولا نصلها... و يا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوّض فيه حرماننا المتواصل. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة . فضاء الخيال، إذن، هو الذي تحقق فيه الذات رغبات يرفضها لها الفضاء الحسّي. ثمة من يرفضون مفارقته، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية . إياك ثم إياك من طول المكوث وإلا كنت كمن يرفض مغادرة الرحم والنتيجة الموت نعفّنا.

هذا فضاء وظيفته الأولى إذن رفع مؤقت لاحتقان ذات تفضح فيه أعمق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها...فضاء يسمح لك براحة لا بدّ منها... براحة متقطّعة...براحة موعودة وكل المطلوب عدم الإدمان.

يهمس فيّ الصوت الساخر :

وبعد المفتّحات، ماذا يريد سيدي؟ المزيد ؟ كلا إنها التخمة. خلاص جاءني الغثيان...

يبدو أنني كبرت... ما الذي تزخر به قصص المنعطف الجديد وما الذي يحثّ عليه بأساليبه الملتوية ؟.

طبعا أن أكون من ينقذ البشرية المسكينة من ورطتها. المخلّص! هل هناك أحسن مني للقيام بأخطر الأدوار؟

يتوجّه الشاب لمتعهّد الفضاء المبارك بآخر أوامره : أريد المدينة الفاضلة وألاّ يفسد فضيلتها الفاسقون الذين يتسللون دوما لأعلى مناصب القرار... صعب جدا، لكن أمر سيّدي لا مردّ له...إذن لنبدأ بتصفية التعذيب والبوليس السياسي وقضاة هم نفس البوليس لكن بزي مضحك وبطقوس يخفون وراءها مهمتهم الحقيقية. آه يجب أن أصفي أيضا العدوانية وعقدة النقص وعقدة التفوق والحرب والمرض والقبح والغباء والمذاهب والليبرالية المتوحشة والمتمدّنة وذبح البقر والجمال والخرفان والماعز وخنق البط والدجاج والتصفية الجماعية للأشجار والصراع من أجل البقاء والبقاء من أجل الصراع والصراع من أجل الصراع والبقاء من أجل البقاء... طبعا يا مولاي، كل هذا مشمول في المدينة الفاضلة وإلا كيف تكون مدينة وفاضلة؟... لا شكّ أن مشروعك أحسن مشروع وأنك أنت الآتي بما لم تستطعه الأوائل.

أفتعل عدم الانتباه لربع ابتسامة برزت لا تخفي نكهة خفيفة من استهزاء رقيق.

بالمناسبة، ومرّة أخرى: من الذي يكتب داخلك كل السيناريوهات ويخرجها مراقبا بانزعاج أو بسخرية جودة أدائك لأدوار الحبّ والمجد والانتقام، وقصص اكتشافهم لك واعترافهم بك واعتذارهم عن تقصيرهم في حقك وتسارعهم لتلبية كل ما تطلب.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزيدة ومنقحة. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس نذيرا ومبشرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنه« لا نبيّ في قومه» وأن تسمير النبي على الخشبة المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما...هذا إذا كانت ورقته الرابحة في اليانصيب والسّوق زاخرة بالمتقدمين لأقدم المهامّ والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يضطر السيناريو السرمدي نبينا المبتدئ للهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدّت له الخشبة والمسامير وعيّن الجلاد الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالّين. يقرّر الإنقاذ لأنه أصعب من التدمير ولأنه لا بدّ من تواصل القصص. يغيب المصطفى عن الأنظار ونواح حواريه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظار: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف ملحق صحفي يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر في مصبات الزبالة. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السرّية لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا

علـى أكـواخ المعذّبـين في الأرض، غـير عابئـة بمـن يسـقط منهـم في براثـن البوليـس السياسـي. لا يلبـث أن ينتشـر في الأرض كالنّـار في غابـات الصيـف المحـرق، فـلا يطلـع علـى القـوم ثائـر إلاّ وكتـاب الكتـب في يـده ،لا يدخـل الرجـل علـى امرأتـه إلاّ و يـده علـى أقـدس الكتـب، لا تفتـح المـرأة فخذيهـا إلاّ و تتمتـم ببعـض عباراتـه، لا يأتـي الصـرع طفـلا إلاّ وسـارعوا لـه بتمائـم مأخـوذة مـن جمله المباركـة.

وفي مثـل هـذه القصـة الـتي تكـررت علـى مـرّ التاريـخ في ألـف إخـراج، يكتشـف الطغـاة أنـه مـن الأجـدى تفويـض الكتـاب الأزرق بـدل محاربتـه، فـلا أسـهل مـن اسـتبلاه النـاس بكتـاب فيـه وعـود. يتسـلّل داخلـي حـزن دفـين علـى كـم مـن ملهـم وكـم مـن برنامـج طمـوح فشـل وسيفشـل في إصـلاح هـذا الجنـس اللعـين، ربمـا لأنـه هـو أيضـا لا يَصلـح ولا يُصلـح.

هـا قـد داهـم خريـف الحيـاة بطلنـا فـإذا بالـذات المثخنـة جراحـا تلبـس شـكل فـارس طويـل، نحيـف، بالـغ الكآبـة يمتطـي ظهـر حصـان عجـوز أكثـر منـه نحافـة و حزنـا، ووراءه يركـض علـى حمـار سـيء المـزاج أصلـع بديـن. تتسـاءل الـذات الراكبـة علـى الحمـار بسـخريّة وعطـف وهـي تنظـر إلى جزئهـا الراكـب فـوق حطـام حصـان:

– أمـا آن الأوان للخـروج مـن أحـلام لا خـير يرجـى منهـا إن لم تتحقّـق ولا خـير يرجـى منهـا إن هـي تحققـت؟ عـد إلى الواقـع. ضـع حـدّا لهـذا التيـه.

يهزّ العجوز الكئيب كتفيه:

– عـن أي واقـع تتحـدث أيهـا الغبي؟ تريدنـي أن أخـرج مـن حلمـي الجميـل لأسـكن كوابيـس الآخرين؟

هذا رجل حكيم فهم أن خيال الجماعة حقيقة مقدّسة وخيال الفرد جنون.

تلـوح في الأفـق جحافـل الشـياطين والجـنّ وعلـى رأسـها العبيثـة. تهمـز الـذات في شـكلها النحيـف حصانهـا عاودهـا الجـذل لمعركـة جديـدة مـع هذيانهـا. إنّهـا كتائـب كبـير الشـياطين تنكـرت في شـكل قطعـان غنـم. إليهـم يـا سـيّد فرسـان الخيـال. صـوّب رمحـك نحـو قلوبهـم، لا تأخـذك بهـم لا رحمـة ولا شـفقة. تصـرخ الـذات البدينـة وهـي تهمـز الحمـار بدورهـا:

– لأعملنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفي من خلق هذا الكابوس المسمّى «الدنيا».

ثـم يرمـي بسـلاحه مقـررا الخـروج مـن هذيانـه هـو لينخـرط في الهذيـان الجماعـي مكتسـبا بالأمـر صفـة السـويّ والواقعـي، بينمـا يتوجّـه دون كيشـوط لمبـارزة الطواحـين مصليـا أن يصـاب بضربـة في الـرأس تحملـه إلى حيـث الراحـة الأزليـة.

يتنهّـد الحمـار الفيلسـوف ويهـزّ الحصـان العجـوز رأسـه. يعـودان إلى اجـترار ذكرياتهمـا عـن عـالم يركبـان فيـه عربـة مـن القصـب الأخضـر، تجرّهـا حيوانـات منتصبـة القامـة لم يعـرف لهـا مثيـل في القسـوة والغبـاء وهـي، لا غـير، الشـياطين الـتي تتخيـل.

لم يبق والعالم على ما هو عليه وكل الملذات تصيب بالتخمة وفي كل الأحوال دوما إلى زوال غير تحقيق الرغبة التي تخلصنا من كل الرغبات : العودة من حيث اتينا بدل مواصلة طريق عبثي .هل ثمة رغبة أعمق في الآدمي من عكس مسار الزمان ؟ نعم للنكوص على الأعقاب. الآن سأدير لجام الزمان نحو لحظة ما قبل الحياة. ها هو يسيل من المصبّ إلى المنبع. غدي البارحة وبعد الغد ما قبل البارحة. عيد ميلادي المقبل الذي احتفل فيه بتناقص سنة لا الذي يوضع فيه على كاهلي عبء سنة إضافية. عما قريب سأقول للشباب ما فعل بي المشيب.

يوم ناقص بعد يوم ناقص يستعيد الجسم ليونته، خفته، قوته. ذهبت آلام الظهر والركبتين. ذاب الشحم الذي في البطن وفي الأوراك. نبت الشعر على الرأس فاحم السواد. عادت للحواسّ قدرة رصد أدق اختلاجات المحيط.

تتدافع من المصب إلى المنبع سنوات الكدّ والجدّ...، سنوات متراكمة التجارب...، سنوات اللقاءات الأولى مع الآدميين، مع فظاعاتهم وروائعهم.

يا إلهي هكذا كانت "ح" وهذه الصبية هي "ما" وهذا الشاب الوسيم هو الذي كان في قصتي "با"!...كل هذه الوجوه التي تمعنت فيها يوما والتي اختفت بلا أثر!...

وفي هذا الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات يتخفّف الزمان من خصائص الزمان وأولها ركاكة آلية الانطلاق من ماضي مجهول إلى مستقبل غامض عبورا بلحظة عابرة اسمها الحاضر. هو قادر «هنا» على الانفجار إلى أزمنة تتحرك في كل الاتجاهات مما يعطينا إمكانيات جديدة لكم من الأحداث. مثلا مشهد طفلة خجولة حافية القدمين تأخذ بيد عجوز أنيقة متعالية تعينها على عبور طريق مكتظّ بعربات مسرعة تجرّها زرافات متهوّرة . عند الفراق تقول العجوز للطفلة دامعة العينين شكرا يا أم جدّي فتقبلها البنت الصغيرة تخفي تأثرها قائلة لها حظّ سعيد لما بقي لك من الطريق يا طفلة حفيدتي. البنت الصغيرة هي «ما» لها من السنين ثمانية والعجوز حرّة تجاوزت الثمانين يا إلهي هكذا كان الوقع في النفس لرباعيات الخيام وشوبرت، لكلمات لاوتسو، إيسا والحلاج، أول مرة عثرت فيها على هذه الكنوز!... يا الهي هذه هي الأحداث التي عشت كما وقعت لا كما أعدت تركيبها. وهذه التي حاولت فسخها من ذاكرتي عبثا!

يجب الآن عبور أخطر عواصف وضعت الذات أكثر من مرة على محك الموت تختبر منها قدرة الصمود... أزمات المسؤولية القاصمة للظهر، معارك الساحة القذرة، سنوات النفي والاضطهاد والسجن، موت "ما"، فراق "حا"، مرض تفيحة. أما وقد عكس الزمان مساره فبداية العاصفة نهايتها ونهايتها بدايتها. أتابع مذهولا تلبّد السحب وأفهم- بعد أو قبل فوات الأوان- لماذا دوّى الرعد ولمع البرق وأنا لا أستطيع للأحداث دفعا. ثم تدخلني الأفراح والانتصارات أو أدخلها، تتركني أو أتركها ورائي كأنها مناظر يخترقها قطار فائق السرعة لا مبالٍ بما يتحرك خلفه أو أمامه.

وهـذا عـالم علـى عادتـه لا يعطـي باليمنـى إلا ليأخـذ باليسـرى. مـن جهـة اسـترجاع نضـارة التجـارب القديمـة كمـا وقعـت لحظـة وقوعهـا، مـن جهـة أخـرى نسـيان يمحـو تدريجيـا كل المعـارف والتجـارب، وآلـة الزمـان الرهيبـة تنـزع مـن الرفـوف المكتظـة الملفـات، تمـزق- واحـدا بعـد الآخـر- الكتـب الـتي كانـت غـذاء العقـل والـروح. الـدور علـى النصـوص بـدءا بآخـر مـا كتبـت وصـولا إلى أول سـطر خُـطّ بالصمـغ علـى لوحـة الكُتـاب. لمـاذا التحسّـر والـذي تراكـم في الذاكـرة شـبيه بمـا يتراكـم في قمامـات تفتـش داخلهـا طويـلا علّـك تعثـر علـى مـا لوجـوده تبريـر؟

يصـل الزمـان الراكـض القهقـرى منعطفـا ضروريـا. تقصـر القامـة شـيئا فشـيئا. تنسـحب القـوة مـن عضـلات لم تعـد مفتولـة. يتقـدم الطفـل المشـدوه بخطـى حـذرة نحـو المـوج بـين فضـول جـارف وخـوف داهـم لا يـكاد يصـدّق مـا يـرى. كـم هـو عريـض، كـم هـو متّسـع وكـم فيـه مـن مـاء. هـل سـتصدقه "مـا" وهـو يـروي لهـا كيـف هـو البحـر؟!

إنهـا مرحلـة تأجّـج الانتبـاه والعـالم كأنـه خـارج لتـوّه مـن ورشـة الفنّـان الأعظـم يعـرض مفاتنـه علـى أول زائـر. هـي أيضـا مرحلـة الانخـراط في أولى قصـص الوجـع والطفـل جالـس سـاعات عنيـدة علـى بـاب المحطـة يكفكـف دموعـه ينتظـر مـن القطـار الأسـود الـذي أخـذ والـده أن يرجعـه لـه فـورا.

يتلعثـم اللسـان، تتفـكك الجمـل وقـد فقـدت الكلمـات انضباطهـا ومعناهـا. ترتبـك القدمـان والرجـلان لا تقويـان علـى حمـل. أنـا الآن علـى أطـرافي الأربعـة أحبـو، تركـت المشـي ورائـي مـع كل مـا تركـت مـن مكتسـبات زمـان الاتجـاه المعاكـس.

يتعـالى صـراخ الرضيـع وهـو يدفـع بقدميـه البضتـين قماطـا يقيّـد حركتـه. إنهـا المرحلـة مـن الرحلـة والـذات كالإسـفنجة تمتـص معطيـات محيـط غريـب متقلـب، تتفاعـل معـه أحاسـيس بأحاسـيس، مشـاعر بمشـاعر، لا تشـوش علـى تفاعلهمـا لغـة قـد لا تكـون إلا تعويـض خلـل أفلتـت منـه بقيـة الكائنـات. يطـلّ عليـه وجـه مشـفق يتسـاءل: مـن هـذا الكائـن الغريـب الـذي يلمـع في عينيـه شـيء كأنـه حضـور جـنّي أو كهـل.

فجأة، صرخة الانبهار والرعب... الأخيرة هذه المرّة لا الأولى .

يبـدأ تسـلق النفـق المظلـم للارتمـاء أخـيرا في مسـبح المـاء الدافـئ. مـا الـذي دهانـا لنغـادر مكانـا كهـذا نصـرّ علـى الخـروج لعـالم كانـت تبلغنـا منـه كـم مـن إنـذارات التهديـد وكـم مـن صرخـات الألم؟

ينحسر الوعي أو قل: يدخل طبقات لم نخلق لها إلى الآن مفاهيمها وصورها.

تتفـكّك أجـزاء كلّـي ويتبخّـر كل أجزائـي. تتدافـع مـا كانـت مكوناتـي نحـو نجـم يسـترجع مـا لفـظ يومـا. يعـود هـو الآخـر سـحابا غامضـا مـن الاحتمـالات المتدافعـة نحـو "المـكان" القصـي الـذي يجعلـه النـصّ المنبع-المصب لـكل موجـود: العتمـة.

آخـر نقطـة في فضـاء الخيـال، الحـدّ الـذي نرتطـم بـه لا قفـز فوقـه؟ طبعـا لا، هـذه جملـة لكاتـب منخـرط في الـرؤى القائلـة بوجـود حقيقـة للعـالم تختبـئ وراء جـدار نتسـلّقه بالعلـم فيصبـح العـالم

الموضوعي، المطلق، غير الخيالي، غير الوهمي، يوما ما (عش يا فؤادي بالمنى) مكشوفا للبصر وللبصيرة. لا علاقة للنص بتصور كهذا، علما أنه لا يجد حرجا أن يؤمن به من يعجبهم، فعالمي مشروع تبنيه الذات باستمرار وأهم ورشة فيه فضاء الخيال.

*

مشكلة المشاكل بالنسبة لمن يريد استكشاف فضاء الخيال اتساعه الأخرق وتوسّعه المجنون. حقّا يمكنك التجوّل في أساطير اليونانيين والهندوس والأفارقة و «ساجا» السكندنافيين أو الغوص في سحر ألف ليلة وليلة المسلمين ... ستصاب حتما بالإحباط وأنت تدرك أنك بحاجة إلى أعمار لا عمر واحد لمواصلة الاستكشاف. يمكنك أن تسافر مثلي في عوالم الخيال العلمي وهي تتوالد من بعضها البعض كخلايا السرطان. ثم ستصاب حتما بالاحباط وأنت تدرك أنك بحاجة إلى أعمار لا عمر واحد لمواصلة الاستكشاف .هذا عما يمكن تسميته بالفضاءات العامة. تصوّر الفضاءات الخاصة التي يحملها كل آدمي داخله وأغلبها محرّمة على الزيارة لأن أغلب ما يعتمل داخلها ليس دوما مما تستطيع الذات المفاخرة به.

الاستثناء صاحب النص الذي سيقبل بمواصلة استضافتك في أجزاء من فضاء خياله لم يفتحها لأحد قبلك لأنها تحتوي على آخر اختراعاتي لتحسين مردود عالم يؤسفني أن أقول أنه ما زال بحاجة لبعض التحسينات وأحيانا لشيء من تسليط الضوء على ما يدبّر ضدّنا من مشاريع لامسؤولة.

تفضل اتبعني. الفسحة مجانا، لكن رجاء، المجالس بالأمانات، يكفيني ما لديّ من أصدقاء ومن خصوم.

تصرخ فيّ متشبثا بجلبابي : من هذا المجرم وما الذنب الذي اقترف وما العقوبة التي يجرّ إليها ؟ إنه مثقّف مرتزق ارتضى لنفسه دور كلب ينبح ويعضّ كل من يتهدّد سلطان سيّده. ولأنه تعلم في مدارس الشعب الغلبان وجامعاته واستعمل علمه في خدمة طاغية يسرق ويضطهد ويقمع ويحتقر هذا الشعب، فإن المحكمة العادلة حكمت عليه بسبعة حصص ارتشاف. آه لا تعرف ما الارتشاف وما الآلة التي يضعونها الآن فوق رأسه .سميتها المرشاف وهي مصاصة مهمتها استرجاع كل المعارف من ذهن رجل لم يكن جديرا بها. تقول: هذا يعني أن المسكين!... بالضبط، مُسحت ذاكرته وعاد دماغه مثل الصفحة البيضاء.

من هذا المجرم الآخر ؟ إنه صاحب الكلب وملفّه أثقل بكثير لذلك حكمت عليه المحكمة العادلة بالعقوبة القصوى.

تعال معي إلى حيث يوجد اختراعي الآخر : «الأفورتوار». لا تسألني عن سبب هذا الاسم الغريب، فلست مضطرا أن أقول لك كل شيء وما عليك إلا أن تشغل دماغك وتتعلّم الكلام بلغة مسيو فيدال. الرجاء التزام الصمت، فهذا مكان له رهبة خاصة لأنه نهاية الطريق بالنسبة إلى من ثبت ضدهم أنهم اعتدوا على الحياة ودنّسوا قداستها.

وحيث أنه لم يعد ممكنا وضع حدّ لأي حياة بشيء همجي مثل الإعدام شنقا وخنقا وتسميما وقطعا للرؤوس بالخنجر والسيف والمقصلة، فإنه تقرر اعتمادي جهازي هذا للتخلص من عتاة المجرمين مثل الذي جاءوا به للتو واللحظة من المحكمة. إنها ضربة حظ حقا لأنك ستشاهد كيف يعمل «الأفورتوار».

هذه غرفة تنفيذ الحكم. وهذه الأنثى هي والدة المحكوم عليه. انظر كيف يمددونه برفق على الطاولة المصممة للغرض والرأس متجه نحو فرج العجوز الراقدة بدورها على الطرف الآخر من الطاولة. تشاهد الآن دخول الرأس واختفاءه شيئا فشيئا بين الفخذين ثم دخول الكتفين والبساط المتحرك للطاولة يدفع بشيء من الصعوبة بقية الجسم، والأم تصرخ بألم الوضع المعاكس وتشتم القانون الذي حكم عليها باسترجاع ما ولدت بعد أن تبيّن أنه غير صالح للوجود. تسألني لماذا لم يخلعوا له الحذاء وهل من الإنصاف أن يعود الرجل إلى رحم أمه بحذائه وبقية الثياب؟ اعتراض وجيه لكنه ثانوي جدا فالأيادي الخفية التي صنعت الرجل هي الآن بصدد نزع الملابس والحذاء وإعادة تفكيك كل ما قامت به طيلة الحمل. هكذا يعود الجسم الضخم جنينا ثم نطفة ثم تفترق البويضة والحيوان المنوي الذي أخصبها ويذهب كل في حال سبيله، ثم يتواصل الطريق العكسي حتى العتمة حيث يقع تفحص الخطإ بتمعّن من قبل المهندسين المختصين.

ماذا قلت؟ كان بودّك أن تراني الممدّد على هذه الطاولة! عيب، أنا الذي لم يكفّ منذ بداية النص عن ملاطفتك. آه منكم يا أولاد حواء. والآن إياك من الأسئلة البليدة حول ما الذي كان يحصل لو لم يكن للمجرم أم حيّة، وماذا لو كانت الأم هي المجرمة، فأنت تعلم أنه ليس لكل مشكل من حلّ، بل إن القاعدة فيه أن أغلب مشاكله بلا حلّ... أعني بلا حلّ مرضي لكل الأطراف.

انتهت العملية رغم أنّ العجوز غير راضية عما أجبرت عليه. لن تطول مرارتها، فللأفورتوار «مطهار» من أحدث طراز تدخله كل أم قبل العملية وبعدها.

ترفع الحاجبين دهشة : «المطهار»؟ إضافتي الأخرى قل فضلي الآخر عليكم يا من لا تقدرون تضحياتي.

ما لا ننتبه له أن للروح افرازات مثل التي تخرج من الجسم باستمرار. كم مرة تشعر برائحة العفن تصّاعد من كلمات مخاطبك فتنتبه أن روحه هي التي ضرطت . كل هذا لوجود مواد تختمر داخلنا ، والمختمر مشاعر كريهة وأفكار مجرمة. ثمة بالضرورة فضلات لمثل هذه التفاعلات يجب أن تجد طريقها للخارج وإلا تسممت بها الروح ، تماما كما الأمر لو منع الجسم من البول والفضلات. من الضروري إذن وجود أماكن تطهير الأرواح حيث لا سبب لأن توجد القمامات والمصبات البلدية في فضاء الحواس ولا يكون لها مثيل في فضاء الخيال. على جرانها ثبتت عددا كافي من أجهزة «المطهار» لتفعل فعلها.

توقفني المرأة على بوابة المرحاض البلدي لفضلات الذهن والروح. تطالبني بتذكرة الدخول. مسكينة هذه المرأة، كل إمكانيات التطهير تحت ذمتها بالمجان، وهي بهذه السحنة المكشرة ! ما من شكّ أنها متعلقة بقذارتها ترفض فراقها كبعض المتشردين الذين لا يحبون شيئا قدر التمرغ في أسمالهم وفي الوحل.

المكان ليس مكتظا كالعادة. ربما يعود الفضل إلى نشاط البلدية الجديدة التي بنت المطاهر في كل تقاطع طريق. ها هي الأحواض لأتقيأ ما بداخلي. لأبدأ بتنظيف الذهن. يا إلهي، كل هذه القناعات المضحكة، كل هذه الأفكار الساذجة ، كل هذه التحاليل التي لم تفهم شيئا مما تدعي تحليله ! كيف تكوّنت الفضلات وبمثل هذه السرعة وقد تطهّرت البارحة ! ثمة شيء ما من قبيل التلوث المتواصل يجب الانتباه لمصدره. ما المصدر ؟ الكتب ، المحاضرات ، الأفكار التي تتسلل في صمت بين الأدمغة وهذه أصعب الملوثات علاجا ووقاية! فكري نفسه منتج غير بخيل بالأفكار المسمومة ، لكن بهذه السرعة ! إذا تواصلت الأمور على هذه الوتيرة فقد لا أخرج أبدا من المرحاض. وآنذاك ماذا سأفعل داخله طول الوقت حتى ولو كان الذهن نظيفا. ربما يجب التفكير جديا في منظف آلي يحمله كل واحد معه بجانب النقال. غريب أن مثل هذا الجهاز لم يخترع بعد والحال أن السوق لا تنتظر إلا هو لإكمال مهامّ المرشاف والافورتوار.

والآن إلى حوض الأحاسيس والمشاعر. من حسن الحظ أنه لا إمساك هنا ولا إسهال. نظرة خاطفة على العفن الذي خرج. إنها دائما نفس المكونات : الغيظ من عالم يتمنّع ويراوغ في إعطائي ما أريد ، السخرية المريرة مما لا أستطيع إصلاحه ، الاستخفاف بما استعصى على التملك ، التكبّر والكبرياء ولو في حدود معقولة. كأنّ صحتي في تحسّن مستمرّ فلا شيء في هذه الفضلات من قبيل البغض والحسد والنميمة والإحباط واليأس.

يخرجني من أفكاري احتجاج شخص من الواضح أنه محمّل بكمّ هائل من فضلات الفكر والروح ، والمسكين جدّ مستعجل لقضاء حاجته الطبيعية. أتنحّى جانبا أحيّي رفيق الطريق بكل لطف وعلى وجهي ابتسامة الملاك فلا ينظر إليّ الرجل وإنما يسرع عابسا ساخطا للحوض يتقيأ كل ما بداخله. إن من آداب استعمال مراحيض الفكر والروح ألا تطيل فيها المكوث وألا تنظر لما خرج من الآخر ، آداب تعلمناها من استعمال مراحيض الجسد. يبدو أن تطهّري لم يكن جذريا وأن بعض الأوساخ قد بقيت في زاويا مظلمة وهو ما يدفع بي لإلقاء نظرة ماكرة بالغة الفضول على ما خرج من الرجل. يداهمني العجب. كان الرجل معبّأ بكل هذا ! كيف استطاع المسكين الوصول للمطهر حيّا ؟ من المفروض أنه مات في الطريق بالسكتة الذهنية الحادة. تصرخ الحارسة بأنه لا يجوز حسب القانون التمعن إلا في فضلاتي وأنها مضطرة لتغريمي غرامة باهظة والوشاية بي إلى المدعي العامّ لاتخاذ ما يلزم من الإجراءات. أخرج بمحضر المخالفة والابتسامة تعلو محيّاي لتعترضني طوابير هائلة الطول تجمّعت في لمح البصر أمام الباب ربما لأنه وقت خروج الموظفين .

صنف أخر من «المطهار» لكن بنكهة دينية لا تخفى على فكر لبيب: حائطنا للبكاء والضحك على حالنا.

تفضل أنت وكل الآدمية. يا رجل ما هذا البكاء المحتشم ؟ خذ المثال من النساء . سهولة بكائهن من أسباب طول أعمارهن بالنسبة للذكور المعوقين بكائيا.لا تجبرني أن أصرخ فيك: ليس هكذا. استحضر كل أحزانك المخفية. استرجع كل الإهانات ، كل الأوجاع ، كل الأحلام الضائعة ، كل الفرص التي لم تسنح ، كل الأخطاء والخطايا ، كل المصائب ، كل المحن ، كل الإخفاقات. اترك كل ما دفنت من حقد ومن غضب ومن نقمة يتصاعد من أعماقك. لا تخش ولا تخجل ولا تتحرّج فكلنا في الألم سواء. ارفع كل القيود. اضرب صدرك ، تمرّغ في الأرض ، مزق جيوبك ولا تهتم بمنظرك فلا أحد يهتمّ ، لكن رجاء لا تندب وجهك. نعم هكذا. جميل جدا. والآن كفى. قلنا : كفى ، أصبح الصراخ تمثيلا. يمكنك المرور للجزء الثاني من الطقس. ضع رأسك على صدر من تطهّر قبلك يمسح بلطف على شعرك يواسيك ويداعبك إلى أن تهدأ كل الشجون.

تجعلني معرفتي بالآدميين شبه متيّقن أن البعض سيغتنم الفرصة ، إذا كان الصدر أنثويا لمصّ الثدي ، وإن كان لذكر اختلاس حافظة نقوده... حوادث فردية لبعض السفهاء لا يجب أن تثنينا عن تبني تقنية كم فيها من منافع للباكين والحاضنين.

بقية العملية منقولة عن كل حمام يحترم زبائنه : الماء البارد بعد البخار الحارق. توجّه مباشرة للحائط المقابل. إنه حائط الضحك. هذه آخر نكتة عن الوجهاء الذين بنوا حائط مبكى من المرمر لا يبكي حذوه إلا من دفعوا اشتراكا باهظا فيه معلوم التمرن على أصناف جديدة وأنيقة من البكاء الارستقراطي. ما الجديد بخصوص آخر التعليقات على المتدينين والقضاة والأبطال وأجهزة المخابرات والمضاربات ؟ آه إنه اليوم مخصصّ للتنكيت على النصّ وعلى صاحبه. أما والله إنكم لا تستحون.

أرجو أنك تطهّرت بما فيه الكفاية ، أنكم تطهرتم كلكم من عيوب تنبت باستمرار كالأعشاب المضرة ولا حل- ولو جزئي ومرحلي- غير تعهدها الدوري بمقصّ السخرية.

آه هذا جزء صغير من نفس الساحة خصصته ليكون ساحة شرف لمن يحبون الحرب .إن كنت منهم لا تنس أسلحتك من بالونات ضخمة ورشاشات ألوان فاقعة ومخدات غرفة النوم. أطلق العنان لغرائز العنف فيك. كل من تصيبه بضربة بالون بارعة أو تمكنت من رشّه بالألوان، عدوّ بغيض خلّصت العالم من شرّه، لكن احذر أن تستشهد كثيرا. تسأل: ماذا نفعل بكبار العنيفين الحالمين بالتصفيات الجماعية والمحتشدات الضخمة؟ حتى هؤلاء فكّرت فيهم يا من تسخر من النصّ ومن صاحبه. نأخذهم إلى مكان خصصته لهم فيه دمى من البلاستيك شبيهة لأقصى حدّ برؤسائهم وأزواجهم وأطفالهم، وعموما بكل البشر الذين يكرهون، ثم نمدّهم بسكاكين لتقطيعها، وإبر لوخز عيونها، وأخيرا بصفائح بنزين وولاّعات لحرقها وذرّ رمادها في كل اتجاه.

تقول كم أشعر بالتحسّن أخيرا، لكن ألا يخشى من قيام انشقاق مذهبي خطير بخصوص من يقف على باب حائط المبكى لإرشاد الحجاج. ثم لمن سيعهد بمهمة مراقبة من يضحكون من السلطات العليا؟ ماذا لو تحوّلت ساحة المعركة برشاشات الألوان إلى معركة برشاشات الرصاص إذا غضب الحكام من انتشار عادة حرق دماهم في حفلات صاخبة؟ مشاكل لا معنى لها إلا في الوجه الآخر للعالم ومن ثمّ لا داعي لأن نشغل بها بال خال من كل المنغّصات والهموم.

عندي لك أيضا حلول جذرية للتعامل مع ذاتك إن أفرطت عليك بالمشاكل.

أدخل إحدى الدور المظلمة التي تحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها . في فضاء خيالي المفتوح لضيافتك بوسعك أن تخاطب المرأة الواقفة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة: لا معطف لي، لكنني أودعك» نفسي» للسهرة، لا حرج إن ضيعتيها وهذا بقشيش محترم لأجلّ الخدمات.

كم ستشعر بالخفّة، مقدرا كم كان اللعين أثقل من جسم عملاق على رجلي كسيح.

سيناريو آخر.

تتوجّه للمرآة وأنت تحلق : ما رأيك في الاحتفاظ بجيكل وهايد معا. خلّصيني من الاثنين. وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبك المرآة : من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعدّ؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص جيكل وهايد. تبرز من الغد الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى : حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيرا للظاهرة.

كم لنا من أنا ؟أنا الخير ، أنا الشرّ ، أنا مخفي عن الأنظار، أنا معروض عليها للخداع أو للإبهار أنا يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، أنا يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، أنا يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام، أنا سيسكن فضاء الذاكرة إن قيّض له السفر بعيدا في قافلة الزمان... أليس من الأصحّ أن أكتب من هنا فصاعدا أمام كل فعل نحن ، وليفسّر الأغبياء هذا بجنون العظمة.

ثمة أيضا اختراع الآخر واسمه «المزوار» وهو الذي يمكّنك من زيارة الذوات الأخرى...من التسلل داخل ذاكرتها، داخل فكرها، داخل أحاسيسها ومشاعرها. تقول مصدوما: كفى، لا أريد المزيد، ثم تبتسم بخبث، اللهم إلا إذا كنت أنت الذي سأتجوّل داخله الآن. لا شكرا الجهاز مجعول للآخرين ، أما أنا فلا أريد دخول أي ذات ولا أريد لأي ذات ان تتطفّل عليّ أكثر مما تفعل في «الواقع».

تسألني ما هذا الطابور الطويل وما هذا المبنى الذي تتدافع إليه الجحافل ؟ إنه وكالة الاعلاميين المتحدين...أحفاد صحافيّ عصور التخلّف. هم بقوا على دين أسلافهم الميامين في الإشهار للوجه البشع للعالم فقط لا يهمّ أن تكون الرؤيا منقوصة ومهووسة. لكن المشكلة

التي واجهوها تبلّد حسّ جماعي لم يعد يثيره اختطاف الرضّع وذبح العجائز على الهواء مباشرة وسقوط الطائرات والحروب العبثية هنا وهناك. الحلّ : نقلة نوعية في استخدام إدمان العامة على الإثارة وإدمان النخب على الظهور..أي صنع الأحداث بكيفية مبرمجة بدل الصبر على اضطراب توقيتها وأحيانا على ندرتها.

هكذا خُلقت الوكالة لتمويل المشاريع الطريفة مثل تسميم خزانات ماء الشرب وإغراق أنفاق المترو وقتل كل عصافير المدينة وتنظيم حفلات الاغتصاب الجماعي داخل بيوت العبادة، ناهيك عن مجازر بابتكارات غير مسبوقة في فنون القتل . هؤلاء الذين تراهم في الطابور يتدافعون بمشاريعهم الخاصة أو للفوز بمناقصات مغرية والالتزام بكرّاس شروط طويل لكن فيه أيضا أن الوكالة تلتزم للفائزين -عدا الدفع- بأوسع توزيع لتحقيقاتهم وذلك مجانا . لم لا بما أن الأرباح الخيالية ستأتي من جيوب النظارة وشركات الإشهار ؟

القارئ المجهول : كيف تسمح بفظاعة كهذه ؟

اطمئن، لم أسمح .خلقت جيشا عرمرما لمحاربة الوكالة أينما وجدت . أحدثت وحدات لتدمير مصانع أجهزة التلفزيون والحواسيب والطابعات وأخرى لبثّ الفيروسات القاتلة للحواسيب والتلفزيونات الخاصة ناهيك عن التي تخرب يوميا شبكة الانترنت . إضافة لكل هذا بعثت فرق كوماندوس مهمتها اختطاف مشاهير المهنة وإحالتهم على أقرب « افورتوار».

تتنفّس الصعداء . تغمر محيّاك ابتسامة الشماتة وأنت تتصور عالما تخلّص أخيرا من الاعلام ومن الإعلاميين . تهنئني لأول مرّة بحرارة.

هل أقول للمسكين أن الوكالة اللعينة اخترقت المخترقين...أن هجومات وحدات المغاوير على مخازن أسلحة العدو تتصدّر بالصوت والصورة كل النشرات الاخبارية ...أن التحقيقات عن الاعلاميين وهم يعودون إلى رحم أمهاتهم على رأس قائمة البرامج الأكثر مشاهدة وربحا.

ما زال في فضائي انجازات ستثير اهتمامك. تستوقفني بغلظة وأنت تراني أتجاوز بشيء من الحرج بابا مغلقا: ماذا تخفي هنا ؟ أقول للمسكين أنه الجزء من فضاء خيالي الذي أطلقت فيه العنان لكلّ ما يعتمل داخل الآدمي من قسوة وفظاعة ... المكان الذي أنتقم فيه أبشع انتقام من كل البشعين.

تلحّ. طيب، سأشرح لك لكن خارج المكان، أخشى عليك أن تسقط فيه كالذبابة في العسل. هذا مكان يحتوي على قطرة من نهر الزمان وقد اختزلته في يوم كامل يختاره الزبون على ذوقه... يوم خال من المنغصّات...يوم يحقق فيه كل شهواته ...لكنه يوم لن يعقبه إلا شبيه وهذا لبقية الرحلة. أغلبهم يسقطون في الفخّ وهم يتصورون أن بقية حياتهم ستكون أكل وشرب ومضاجعة وراحة البال بمأمن من الشيخوخة والمرض وضربات الدهر. عندما ينتبهون أن الطقس هو نفس الطقس والحبيب نفس الحبيب والأكل اللذيذ

نفس الأكل اللذيذ والموسيقى الرائعة نفس الموسيقى ولا شيء في الأفق غير نفس المناظر والأحداث والمشاعر ...عندما يدركون ما معنى أن كل يوم يشبه الذي مضى والذي سيأتي، يبدئون في الضرب على الباب يصرخون بالسبّ ثم بالتضرّع . أحيانا تأخذني الرحمة فأطلق السراح . منهم من قبّل رجليّ وقد أعدت له الصراع والألم والخوف والانتظار والشوق ومفاجأة المجهول ، انتبهوا أخيرا للسخاء المنقطع النظير للعالم وهو يمنحهم الجديد في كل لحظة ...فهموا أخيرا أن أروع ما في الرحلة أنه لا يوم يشبه آخر.

تجذبني من كمّي مسرعا تريد مواصلة الزيارة. تسأل ما هذه الأكفان البلورية الملآنة بأجهزة غريبة والتي يرقد داخلها آدميون يغطّون في نوع غير معروف من النوم. أنت أمام أروع مبتكراتي وأرقى صنف من «المرحال». داخل ما تسميه الكفن البلوري أيها الجاهل يورّق المرتحلون "الكاتالوج" وهو زاخر بكل المطلوب من أجود الرحلات لينتقوا منه ما يريدون ..مجانا. تفضّل. كأنك غير مطمئن لخدمات الجهاز وتريدني أن أجرّب أمامك ؟ لا شكرا، والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف تصرخ أريد أن أخرج! أريد أن أخرج ! هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم وزّع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدل مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما دفّع فيها أغلى الأثمان .

والآن اعتبر هذا الاختراع الذي سيغيّر ظروف سفر الأجيال المقبلة : «المرصاد».

أنت في هذا العالم كمن يشقّ طريقه في مدينة عائمة في الضباب ، سكانها بشر من لحم ودم وعفاريت وأشباح ، أخطر ما يتربص بك ليس هراوات وسكاكين قطّاع الطريق فقط وإنما أفكار ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة. هذا ما يجعل من الضروري تطوير علم التنبّؤ بالحالة التي عليها فضاء ات الحواس والرموز والخيال بخلق الجهاز القادر على الإنذار السريع بقرب بروز عاصفة دينية جديدة أو إعصار استبدادي قادم ، أو طوفان عنصري آخر ، أو موجة طريفة من الجنون الجماعي، أو حرب أفظع من كل التي عرفنا . تصوّر منافع جهازي وهيئة الرصد تنذر بأن الأجواء غير مهيّأة لرحلة فيها الحد الأدنى من الضمانات فيقرّر جيل عاقل إرجاء ولادة الجيل المقبل لترك الوقت لتبخر الليبرالية والوطنية والقومية والعنصرية والأصولية وصراع الحضارات ، وكم من ملوثات أخرى.

في هذا الموضع من النصّ أراك تتثائب لا تخفي مللك وخيبة الأمل. ماذا تقول ؟ كل مشاريعي لتحسين الرحلة لا تساوي شيئا ومن الأحسن ترك المسألة للمختصين.

يا مسكين هل تظنني أغفل عن موضوع بمثل هذه الأهمية . لكن لا تلمني على بعض النواقص فإعداد «المنضاج» يلاقي بعض الصعوبات الفنّية. اتبعني لزيارة القسم المختص. أين الدليل ليقودنا ؟

– موجود .تفضّل، أنا جاهز لكن الرجاء من ضيفك طرح أسئلة لها معنى.

– من هذا ؟ وماذا تفعلون كلكم حول جثمانه وما هذه الآلة الغريبة التي تلفّه ؟

– إنه النبي الذي سنرسله قريبا لمستعمراتنا على المشتري. انطلقت هناك فوضى استعصت على كل أنواع البوليس. لا بدّ من منقذ يتكلّم باسم الإدارة العامة ليستتبّ النظام. نحن بصدد وضع اللمسات الأخيرة، بعدها نوقظ المبعوث الخاص من سباته الاصطناعي ونشحنه في أول صاروخ.

– هل كل هذه الآلات والأنابيب مجعولة... لحقنه بالبرامج المختصة في...؟ !

– برافو يا فهيم. لا تتصور صعوبة إيجاد التوازنات المطلوبة. يجب أن يكون المبعوث الخاص صاحب خيال، أن يكون مقداما، أن يكون خطيبا، أن يكون قائدا وخاصة أن يقبل بالاضطهاد والتعذيب والقتل. ثمة عند هؤلاء الآدميين الملاعين قدرة هائلة على رصد مبشرينا. لا فكرة لك عن عدد المبعوثين الذين خسرناهم والشغل في أولى خطواته. خذ هذا الملفّ، إنه لمبعوث دعاهم إلى اللاعنف فقتلوه بالرصاص... وهذا لمبعوث حدثهم عن طبيعتهم النورانية فقطّعوا أوصاله... وهذا لمبعوث أراد أن يفتح عيونهم على روائع الكون فحرقوه حيّا. المبكي المضحك بقية السيناريو. بعد الاضطهاد، التمجيد يتبعه التفويض والكل يتجاذبون كفن الشهيد، في الظاهر دفاعا عن تراثه وفي الباطن دفاعا عن مصالحهم الخسيسة. كم نقسو على مبعوثينا ونحن نكلّفهم كم من تضحيات عبثية. حقا يا للمساكين !

– كيف تعدونهم للمهمة ؟

– نقوم بفرز أولي على أطفال تختطفهم دوريات مختصة. نعمل على الاستعدادات الغريزية عند البعض كالطيبة والسذاجة وحبّ التضحية والايمان بقابلية البشر للتحسّن. ثم ننتقي وننمي هذه الاستعدادات إلى أن تصبح الضحية جاهزة .

المساكين! لا أحد أخبرهم أن البشرية حالة ميؤوس منها الآن وغدا وعشية يوم القيامة.

بعد التأكد من تشبّع المصطفى بكل المشاعر والأفكار الضرورية للمهمة، نرميه وسط هؤلاء التماسيح ونقّيم.

كم من مرات أعدنا الكرة قبل أن ننجح تجربة واحدة. حتى هذه لا تدوم. فالملاعين، يصابون بالملل ولو من أحسن آلهتهم وأنبيائهم. آنذاك لا بدّ من التجديد واغتنام الفرصة لتطوير مهاراتنا نحن بخصوص فبركة أديان وآلهة جديدة.

– كيف ؟ ماذا تقول يا زنديق ؟ طيب، أرني... المطبخ .

– لا أنصحك بزيارته. الساهرون عليه، الله وكيلك!... يخلقون نفس الصور بأسماء وصفات أخرى، يكررون نفس السيناريوهات البليدة، يعيدون رسكلة نفس الطقوس ، لا يغيرون إلا أزياء الكهنة.

تقول أنني بدأت اتجاوز كل الخطوط الحمر وقد يكون من الأحسن عدم التدخّل في مثل هذه الشؤون التي تتجاوز صلاحياتي وبكثير . لم يعجبك لا المرشاف ولا المطهار ولا المزوار ولا الافورتوار ولا المرصاد ولا المرحال ولا المنضاج !

ما أنا متأكّد منه أنك سترضى عن التحسين الآتي للعالم وهو الذي سيوفّر عليك كل المشاكل مع أنثاك. لا شكّ أنك وصلت مثلي بعد آخر خناقة معها لاستنتاج طالما جاهدنا لكي يبقى مطمورا في أعماق اللاوعي : استحالة العيش مع النساء في عالم واحد ومن ثم خارطتي التي ستعالج الداء من جذوره : شرق الكوكب للنساء وغربه للرجال مع تكوين وحدات مشتركة لتأمين الحدود المغلقة بإحكام ومراقبة مستودعات البويضات والحيوانات المنوية ومصانع الإخصاب ومسالك توزيعها بعد أن أصبح كل جنس مسئولا عن رضّعه البشعين.

ما يزعجني في التصميم كلما عدت له بالتحسين ليس انطلاق الحرب في منطقة الذكور بين المثليين اليساريين والمثليين اليمينين ولا تكدّس أغلب الرجال على الحدود يريدون عبورها بالقوة (وتزايد الخيانات في صفوف حارسات هذه الحدود) وإنما شراسة الحرب في منطقة الإناث بين المؤمنات بالنبية ستربتوفسكايا وبين المؤمنات بابنتها الصغرى مايكوفسكايا التي أعلنت الانشقاق عنها وتكوين دينها الخاص. فالذي يرشح من أخبار يؤكد أن عنف اللعينات فاق كل عنف ذكوري وأنهن يستعملن كل الأسلحة المحرمة وأن الحروب الدائمة منذ الفصل التاريخي بصدد القضاء على جلّ الإناث وآنذاك ما الفائدة من اكتساح شرق الكوكب.؟ ماذا ترانا فاعلين ببعض العجائز الجريحات؟الأخطر من هذا كله أنه بلغ إلى علمي أن تفاحة هي المستشارة السياسية للنبية الشرعية ستربتوفسكايا وأن تفيحة عُينت المستشارة الأمنية للنبية الكاذبة مايكوفسكايا .يكفي أن أتصوّر أن تفاحة قد تهشم نظارات تفيحة حتى أقرّر الاستجابة لطلبك بترك الرقابة تحذف كليا هذا الجزء من الفضاء وسأرى أي تنازلات موجعة سأرغم نفسي عليها لتصفية الجوّ مع «ح» ولو مؤقتا.

تقول أهذا كل ما عندك؟ تتهكّم أم تريد مواصلة الزيارة ؟

متأكد أن لك ما يكفي من الشجاعة للتوجّه معي إلى أبعد مكان في فضاء خيالي : الوكالة التي سفّرتنا لهذا العالم .؟

أذكر أول معاملة معها وكنت يومها مشغولا بتقليب عرض العتمة الأخير، تتقاذفني الرهبة والرغبة. كيف أقبل رحلة كهذه وأنا لم أبرأ بعد من أوجاع الماضية؟ الحلّ الاستنجاد بالوكالة لكن إلى اي مدى استطيع الثقة بهكذا مؤسسة ؟

لفهم ما أقصد، تذكّر وظيفة الوسطاء في تخليص أبناء الأغنياء التي عينتهم القرعة للخدمة العسكرية ليذهب بدلهم أطفال الفقراء طبعا مقابل عمولة محترمة.

ينظر المسؤول بكثير من الحذر إلى سيناريو المهمة كما تلقيته بالبريد العاجل. يعود إلى الوثيقة ويبدأ قراءتها بصوت عال وفي صوته نبرة لا تخفى من الشفقة والتهكّم : الولادة

في عصر الحروب العالمية والاحتباس الحراري وانقراض الأجناس وبوادر انقراض الجنس الذي كلّفت بالتجسّد في شكل من أشكاله... طفل بلا طفولة... نصف وقت المدرسة الوجه أمام الحائط.. متمرد على كل الأفكار والقيم والقوانين المعمول بها حتى قوانين النحو والصرف... دون كيشوط يريد تغيير واقع لا يكره شيئا قدر التغيير ولو إلى الأحسن(خاصة إلى الأحسن)... ملاحق من طرف البوليس السري ربع الميزانية الزمنية... يكسر نظاراته طول الوقت ويضيّع مفاتيح السيارة والبيت باستمرار!

يغلق المهرب الملف مستعيذا بمن يستعاذ به في ديانته الصحيحة، ثم يرميه في وجهي: آسف، لن أجد لك بديلا، الوكالة لا تتعامل مع مثل هذه الحالات. آه اللعين، إنه يريد رفع الثمن حيث أعرف- كما يعرف هو- أن الوكالة عالجت مبادلات أصعب. من أين لي لومه وشغل السماسرة إيهام كل مجبر على الرحيل صعوبة توفير رحلة أقل مشقة من تلك التي سحبتها له القرعة الرسمية.

ما يهمّني أن يسافر أحد بدلي أيا كان الثمن، كفاني وجع النفي السابق. يقلّب المهرب شفتيه ببطء مدروس وأنا ألحّ حتى لا أقول أرجو وأستجدي. يواجهني بابتسامة ماكرة: أعتقد أنني وجدت ضالتك، لكن التكلفة ستكون على قدر الخدمة. الوكالة تضمن لك مواصلة راحة العدم إلى أن نقرّر دعوتك لتأخذ مكان ذات أخرى. بالطبع، رحلة التعويض ستكون أصعب بعشرة في المائة فقط من الرحلة التي آلت إليك. تذكّر أنه لا مجال للرفض وأن لنا وسائل لإجبارك على الرحيل. ما قرارك؟ الطلبات كثيرة ووقتنا محدود.

كيف التعامل مع وكالة يعرف الكل باعها الطويل في غش الزبائن. ما زلت أرتجف من هول الكابوس الذي أفقت منه.لكن هل من خيار غير الرضوخ ؟

هذا ما يطرح سؤال قلّ ما تطرحه العقول السميكة: هل الآدمية- أو جلّها- مكونة من ذوات وقع ابتزازها لكي تنزل العالم في ثوب فرضته عليه وكالات سماسرة لا يتورعون عن أي خديعة ؟! إنها الفرضية المنطقية الوحيدة التي يمكن أن تفسّر، لا فقط تواجد الآدميين في هذا العالم الرهيب، وإنما إصرارهم على مواصلة دخوله. الآدميون بدائل مزورة لذوات مجهولة الشكل والهوية تدبّرت أمرها للإفلات من عقوبة الوجود؟! كلنا- أو جلنا- هنا من باب مكره أخاك لا بطل؟! إنه اكتشاف آخر سيضمن لي البقاء في ذاكرة الآدميين طالما بقيت للآدميين ذاكرة. المشكلة أنني لست متأكدا هل قبلت بالصفقة أم رفضتها، وهو ما يعني أن هناك شكّا بخصوص هوية كاتب هذه السطور. هل هو أنا أم البديل؟ لاحظ أنني لا أرى مانعا أن يكون هذا البديل هو الذي يذهب لطابور تسجيل الحقائب في المطارات ولطبيب الأسنان ولطاولة العمليات الجراحية، ناهيك عن قاضي التحقيق والزنزانات النتنة. أمّا أن يذهب بدلي لليلة حبّ مع «ح» فهذه جريمة شرف، وشرفي الرفيع لن يسلم إلا بإراقة الدم، لكن كيف التأكد أن دمه «هو» الذي سيسيل وليس دمي «أنا». حقا ما أصعبه وضع !

تقول فرضية سخيفة والدليل على ذلك تعلّقنا بالعالم، مما يدلّ في أسوأ الافتراضات أننا خدعنا من حاولوا خداعنا. صحيح أنه يمكن للبدائل أن تنسى أنها بدائل وأن في هذا العالم بعض المغريات التي تحبّب تطويل المكوث فيه.

هذا ما يحملني للحديث عن بقية اختراعاتي العبقرية : وكالة الخدمة المعاكسة.

يرمقني البائع بابتسامة خبيثة :

-آه أعجبك هذا العالم رغم ما تضج به من الشكوى .ماذا تقول؟ أنك لست ضدّ الرحيل لكنك ترفض إنهاء العقد من طرف واحد، أن كرامتك لا تقبل بما يشبه الفصل التعسفي، أن موتا كهذا الذي ينتظرك بتكاليف الدواء والدفن بمثابة طرد مهين دون تعويض، أنه ما زالت لك مهام كثيرة لم تتممها، أنك لا تتصور أن يتواصل الوجود دونك وأن أمرا كهذا هو الظلم بعينه ،أن الحياة لا تساوي قلامة ظفر ولست متعلقا بها على الإطلاق لكن القضية قضية مبدأ. طبعا، طبعا، كلام جدّ مقنع. نعم، نستطيع أن نوفر لك أحدا يموت بدلك. تعلم خبرتنا في اختيار زبائن بصحة جيدة وفي ريعان الشباب نقطف باقي سنواتهم نبيعها لزبائننا. لكن، انظر طول الطابور. الطلبات كثيرة والعرض هذه الأيام نادر.

اللعين! يريد فقط تدفيعي أغلى ثمن.

– العرض نادر ؟! بكل هؤلاء المساكين الذين يرمون أنفسهم من الطابق العاشر وتحت دواليب القطار ولا أتحدث عن الذين يبتلعون رطلا من مهدئات الأعصاب، والذين يغرسون خنجرا في بطونهم يصيحون يحيا الامبراطور، أو عن كل الأبطال الذين خرجوا شاهرين سيوفهم طالبين الشهادة؟

-أغبياء يموتون عبثا ولا سلطة للوكالة عليهم. نحن مختصون فقط في من لحياتهم قيمة في نظرهم ويحافظون عليها بمنتهى العناية.

– باختصار ما الثمن؟ أن أصبح لكم مخبرا! فقط! لا يكفي ما يوجد منهم؟ آه تريدون مخبرين من نوع آخر! تطلبون تقارير ضافية عن كل من أعرف من البشر الذين لحياتهم قيمة عالية وأكبر عدد من السنوات الصالحة للقطف. لكنه شيء مخالف للقوانين وترفضه أخلاقي العالية، طيب على من تريدون أن أتجسس؟ سأمدّكم بما تطلبون من تقارير ولو على «ما».

آه بقية الثمن أن أكون لكم عبدا طيعا طيلة السنين المضافة...أنا تكون ممتلكاتي تحت تصرفكم !

تتسع ابتسامة البائع الماكر :بالضبط .

ينصرف ليترك الفص الأيمن من دماغي يتساءل عمن هم بصدد التجسس عليّ لحساب الوكالة، والفصّ الأيسر يستعرض بسرعة أول قائمة لكل الذين يجب أن أعمل على ملفاتهم.

تهزّ كتفيك لا تخفي اضطرابك تتساءل من يعمل على ملفّك لسرقة الثلاث أو أربعة عقود التي بقيت لك قبل وصول الطريق إلى نهايته . بصراحة لا أريد لا إخافتك ولا طمأنتك وعلى كل حال أنا جدّ مشغول بالاختيار بين بعض ملفات شباب في أحلى سنوات العمر.

آن الأوان لأبوح لك بسرّ الاسرار .منذ البداية وأنا أعرف أن الوكالتين مجرّد واجهة وكل معاملاتي معهما محاولة اختراق للوصول للوكالة الأم لأنها هي التي تملك الأرشيف الأكبر الذي أحاول منذ نعومة أظافري دخوله علّني أفهم أخيرا ما هذا الذي أتخبّط فيه منذ الإفاقة.

هيا اتبعني فقد وجدت الطريق. آه، هالك الاتساع والحجم للقسم الآدمي! كيف لا وكل الرحلات الآدمية منذ آد1-1-، وح1-1- مضمنة في علبة مثل علب أفلام الفيديو في عهد الأشرطة المغناطيسية ومصففة بعناية على رفوف مترامية الأطراف والظاهر أنه لا توجد إشكالية طاقة تخزين محدودة. كل الرحلات "هنا"، من بالغة الطرافة إلى بالغة الابتذال، من بالغة التجديد إلى بالغة الترديد، من بالغة العظمة إلى بالغة التفاهة، من بالغة الحظ إلى انعدام كل بخت، من التي كانت كارثة من البداية إلى النهاية، إلى التي رافقتها بركات كل آلهة العوالم المعروفة وغير المعروفة، من التي عاشها أصحابها كمن يلبسون قميصا النار مشتعلة فيه إلى التي عاشها أصحابها كسفرة في حلم رائع.

هل هناك من يدرس كل هذه الوثائق ربما للردّ على سؤال: ما الذي يمكن أن نعتصره من الآدمي ونحن نعرّضه لكل الظروف لكل الأدوار ، لكل القصص .

تقول: لا تكن مملاً، هيا نفتح كل هذه العلب لنرى ما بداخلها.

هنا ومن باب الحيطة سأجبر على تقديم ثلاث روايات على الأقل حتى أضمن رضى كل قرائي وهم بما نعرف من التنوع والاختلاف والصراع على مبتدإ الخبر ومنتهاه.

[الصيغة الأولى] ولما فتح كاتب هذا النص والقارئ الوفيّ أولى العلب اكتشفا أنها تحتوي على شبه خارطة ببقع مختلفة الألوان وكل علبة بنسب مختلفة منها. آه اللون الأخضر بالطبع لتسجيل كثافة المتعة والانبهار، والأحمر للآلام والرعب، والوردي للآمال والمشاريع. إذن ثمة من يدرس مردود جنسنا من الرعب والانبهار وخلق الصور والمفاهيم وربما مقارنته بالأجناس الأخرى! حتى هنا يوجد قسم إحصائيات وربما قسم مراقبة جودة البضاعة!

[الصيغة الثانية] ولما فتح كاتب هذا النص والقارئ الوفيّ أولى العلب اكتشفا أنها فارغة من كل محتوى. لم يصدّقا الأمر في البداية وأخذا- بعصبية متزايدة- في فتح علب المستكشفين والفاتحين والشحاذين والمفكرين وخادمات المنازل والفنانين والأفاقين والمجانين والمومسات واللصوص والقراصنة والموظفين والعسكر والملوك والبوليس والثوار والمصلحين والأباطرة وصغار المجرمين وكبارهم والرضع والأطفال والنساء الصالحات والجلادين والجزارين والرهبان والنساك والشعراء... دون نتيجة، حتى بعد تقليبها من كل الجهات ووضع الأصبع في الزوايا المظلمة. ثم انتابهما الهلع وعدم التصديق فارتميا على العلب فتحا ورميا على

الأرض والنتيجة هي نفسها. وفي النهاية جلسا متقطعي الأنفاس على كوم من العلب المفتوحة الفارغة يحدقان في بعضهما البعض. ثم انفجرا ضحكا وقد اتضحت لهما الحقيقة. نحن كائنات بعثت لالتقاط شيء ما لكنها لم تلتقط شيئا. نحن برامج ذكية خلقت لتأدية مهمة لكنها كانت غير صالحة لها وكل ما تكلّفت من عناء كان هباء منثورا. اللعنة، إلى هذه الدرجة كنا تجربة فاشلة!

[الصيغة الثالثة] ولما فتح كاتب هذا النص والقارئ الوفيّ أولى العلب اكتشفا أنها تحتوي على كتابة غريبة برموز غير معروفة لأي آدمي. وبعد استعراض كل ما أمكن فتحه وارتطامهما بنفس الهيروغليفات، انتهيا إلى النتيجة المنطقية الوحيدة: هناك وصف ما، تقييم ما، استنتاجات ما، وتعليمات ما في هذه الخربشة، لا يستطيع حتى الخيال- على الأقل في هذا الموضع من النص- تقديم فكرة عن فحواها ترضي العقل ويطمئن لها القلب.

* * * * *

كفى من هذه الأسرار اللعينة ، لماذا لا أكون أنا من يصوغها بدل البحث لها عن إجابة . ففضاء الخيال بداهة ليس فقط المكان الذي نرضي فيه الشهوات التي يرفضها لنا الفضاء الحسي. هو الورشة التي تختمر فيها كبار وصغار المشاريع التي غيّرت وستغيّر الكثير من خصائص العالم الذي أتخبّط فيه.

يجب معالجة الأمر بالجملة لا بالتفصيل، من جذوره لا من فروعه. نعم لماذا لا أخلق عالما، عالمي الخاص بي أفصله على ذوقي وعلى مقاسي.

ضرورة الاستئناس بنصائح الكبار الذين خلقوا قبلي عوالم لا زالت تنبض بالحياة.

يستقبلني فالميكي بلامبالاة قد تكون مصطنعة وقد لا تكون لهذا الشاعر الذي جعل أمة كاملة تسكن عالما صنعه من خياله وتنخرط طيلة عصور في أدوار ومسرحيات هو منظم قوافيها. في آخر المطاف ما العالم سوى ملحمة نرويها وتروينا ؟. كيف سيعيرني اهتمامه رجل انسحب من العالم الحسي لما أكمل خلقه للأسطورة العظمى غير مبال بفيالق النمل تتسلّق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين المفتوحتين ومن المنخرين.

أخيرا ينتبه فالميكي لوجودي. يبادرني بشيء من الانزعاج :

– ماذا تريد ؟

أهمس بالطلب بين رجاء واستحياء فيلمع الاستنكار في نظرة باردة لا تنذر بخير.

– كيف ؟ ما هذه الوقاحة !

أوّاه يا سيتا، برب عشق طفل تهجّى في حبك القصّة المقدّسة، تدخّلي !

وقاحة ! هذا الرجل يحدثني عن الوقاحة! صحيح أنها لا تكاد تذكر بجانب وقاحة الآخر : فياسا شاعر المهابهاراتا ملحمة المائة ألف بيت. تصوّر أن هذا الآدمي لم يكتف بوضع كلماته هو في فم الرب كريشنا ليمليها على نبيه أرجونا، وإنما أقحم نفسه في

القصة التي يروي، حيث نراه في أحد مقاطعها يبرز كواحد من أجداد الأبطال الخمسة للملحمة (الباندافا) ويتقدّم لهم بالنصح بعد أن ضاقت بهم السبل وتاهوا في الغابات الخانقة هربا من أعدائهم. وكأن هذا الرجل لا يتورع من شيء، حيث نراه، بعد وضع نقطة الختام في ملحمته التي ستصوغ عالما لأمة كاملة، يلتفت حوله للبحث عن من يملي ما جادت به قريحته، فلا يجد غير إله فيل يسميه «قانيش»، يقبل أن يكون له سكرتيرا بل يهشّم نابه ليستعمله قلما.

لا يوجد إلا نوعان من الرؤى : التي تعترف بأنها خلقت عالمها والتي تتستّر على الأمر.

هذا الرجل الذي أقف بين يديه هو مع فيازا ممثل التيار الأول. لا بدّ أن أتلطّف معه كثيرا فما زال أمامي شوط كبير حتى أدلي بدلوي في وقاحة الآدميين، وهي أكبر عيوبهم كشكل من الغرور وكشكل من الجرأة، أروع ما فيهم من خصال.

– لم اخترتني من دون بقية الصنّاع ؟

– أنت الوحيد الذي لا يخفي سرا مفضوحا يتشارك الكل في ادعاء الجهل به.

– إنها صنعة لا يدخلها إلاّ نوع خاصّ من الآدميين... لا أظنك... منهم... منّا.

يتفطن فاليكي لنفاد صبري. ربما انتبه لكوني أعرف أكثر مما أريد البوح به وكلّ ما في الأمر أنني أتلطف معه وأتأدّب. مثلا : أنني أعرف ماضيه المشبوه وأنه كان في حياة ماضية قاطع طريق وبوسعي الوشاية به للسلطات وحتى اتهامه بتمويل الإرهاب الدولي. كأني به يحاول ربح الوقت، لا يعرف هل أنا جادّ أم ساخر.

– هل عندك توصية من جهة موثوق بها ؟

– من أمّي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يلقي عليّ فاليكي نظرة ثاقبة. ربما أعجبه ردّي وأعجبه أكثر ما اقترح في فنّ خلق التصورات. مؤكّد أنه ليس ضدّ السطو على منهجيته وإحداث تغييرات جذرية فيها.

ترتسم على شاشة الذهن إجابته الصامتة. أكاد أرقص طربا فهذا الذي انسحب بعد أن أكمل مهمته ولم يعد يعير شيئا أو أحدا اهتماما، ولو كانت جحافل النمل تمرح بين جفونه، رضي أن أكون له تلميذا.

– تعال ، هذه هي أحسن وصفة . اخلق لك العالم الذي تريد.

الذي أريد ؟ طبعا الأجمل ، الأغرب ، الأخطر...الأكثر جدارة بالوجود..

* * * * *

فضاء الصفر والواحد

في سعيها المتعثّر لتصوّر هذا التي تتبلور فيه الذات وترتحل ، توصّلت الرؤيا لحدّ الآن لاعتبار ما تسميه العالم مهيكلا من فضاء الحواس وفضاء اللغة وفضاء الخيال. كيف تتشكل هذه الفضاءات...كيف تتناغم وتتفاعل ...كيف تتكامل لتعطينا العالم الذي نتوهم معرفته والسيطرة عليه ... من أو ماذا وراءها ؟...وكم من أسئلة أخرى،قبل التصورات الأنيقة علينا التساؤل هل رصدت الرؤيا كل مكونات الهيكل ... هل ثمة فضاءات أخرى مرّت عليها مرور الكرام ؟

سؤال قد يبدو غريبا لكنه يفرض نفسه وكاتب هذه السطور ككل الذين ارتحلوا معه في هذا المقطع من قصة الآدمية مواجه بظهور حتى لا نقول بانفجار فضاء جديد لم يوجد من قبل.

الحق أن مشاكلي معه لم تبدأ اليوم وإنما باكرا...على وجه التدقيق مع المواد التي صنع منها

يتوجه معلّم مرهق لقسم هائج :

– يا الله، يا أطفالي، افتحوا كتاب الحساب، وانقلوا الأرقام العشرة بنظافة على الكراس.

يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بعيب في التكوين فيه الوراثي وأكثره مكتسب.

– سيّدي، لماذا يجب أن يكون أربعة في اثنين ثمانية ؟

– هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

– لماذا هكذا سيدي ؟

– أتريد العودة إلى الركن ؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب وفي قواعد القسمة والطرح .والآن تمرين الصباح : اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة ودفع مئة مليم للبائع. كم يجب أن يرجع إليه البائع ؟

– سيّدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمّي ؟

– تسخر مني يا وقح! ركّز على التمرين.

كم هي مثيرة هذه الرموز عندما تتسبب في قصص عن برتقال يباع ويشترى، وقطارات تصل في الوقت ولا تصل، وسيّارات تركض وراء بعضها البعض، وبساتين زيتون يجب أن تقسّم بين الورثة، وكم ينال زيد وعمر بعد أن أوصى أبو زيد بالثلث لزيد وظلم عمرا فلم يترك له إلاّ الجزء العاشر من الحقل. يا لغرابتها وهي تتدافع من المجهول لتفعل

أفعالا خاصة بها مختلفة عن أعمال الحروف إذ تستطيع أن تتجمّع وتتناقص وتنقسم على بعضها البعض وتفرّخ أرقاما أضخم وفق قواعد في غاية البساطة.

تنبّه الأرقام الطفل لكون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي لمستويات مختلفة لا يجب الخلط بينها إذ لا تستطيع أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنّه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين ملّيما للقطار الواحد، وأن البرتقال لا يتسابق بينه للوصول إلى المحطّة. يكتشف الطفل أيضا أنّ لهذه الكائنات العجيبة قوانينها وحياة خاصّة لا علاقة لها ببرتقال أو ورثة.

من إشكاليات الطفل أيضا مع هذه الرموز الغريبة معضلة كانت بداهة فوق طاقاته.

- سيدي، ما معنى صفر ؟

- الصفر عدد يرمز لشيء لا وجود له.

- كيف يمكن أن يكون هناك شيء غير موجود ؟

-قلت لك كفّ عنّي اسئلتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرقه.

-سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!

- طبعا وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثم مئة فألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

-سيدي لكنني حصلت على رقم لا أعرفه...سيدي ما اسم هذا العدد الذي ملأت به صفحة من كراسي ؟

- ماذا تفعل ؟ ما هذا العبث ؟

- أبحث عن أكبر عدد. لكن حتى هذا ليس أكبر عدد لأنني أستطيع أن أضيف له صفرا آخر وآخر وآخر... سيدي! ! سيدي! ! بوسعي أن أملأ كلللللّ صفحات الكرّاسة بالأصفار ولا ينتهي العدد! !

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجدّدا أمام صديقه الحميم: الحائط، يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفار تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتنساب كالسيل العرمرم مواصلة زحفها ووراءها أصفار جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دوما إلى الأمام. إلى أين وإلى متى ؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّه لا شيء قادر على وقف زحف الأصفار . هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكرا بمعضلة اسمها «اللانهائي» دوخت قبله كم من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة . ترى، هل جنّ كانطور من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنونا من الأصل ليحاول إدراك ما لا يدرك ؟

المهمّ أنه لا هو ولا معلمه ولا أي آدمي كان قادرا يومها على التنبؤ بالثورة التي سيحدثها هذا الصفر و أقرب رفيق له الواحد، أو على تصور تبعاتها أخطرها إضافة فضاء جديد لعالم الآدميين.

حقا إنها لضربة الحظ وجيلي يعايش ولادة فضاء لم يعرفه لا المشرقي ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة. حالنا كحال رحالّة فوجئوا يوما في الفضاء الحسّي ببروز قارة سادسة بين شواطئ أوروبا وأمريكا أذهلتهم ببراكينها الجبارة،بعواصفها العملاقة ... بتوسعها في كل الاتجاهات ولا أحد يعرف الشكل النهائي الذي ستتخذه يوما...إن كان لها مثل هذا الشكل.

تنتهي قدرة التشبيه إذ لا شيء معهود ومألوف في الفضاء الجديد ...المكان ، الزمان، الطريق واخطاره ، البشر وما يعيشون من قصص...كل هذه العلامات التي تعودنا عليه تكتسب فيه وجها مفاجئا .

بخصوص الأماكن ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف أين يوجد «ياهو دوت كوم" أو «اكسايت دوت كوم». لن تجدها على أي خارطة للفضاء وعلى كل حال لا وجود لخريطة له أصلا .إن حاولت ، كنت كمن يبحث عن جزر الواق الواق في الفضاء الحسي... حتى ولو كانت «واق الواق دوت كوم» ممكنة الوجود بل يسعك أن تخلقها أنت بالذات.

يتغير أيضا بصفة جذرية مفهوم آخر بنينا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

في فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان – وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة، –الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية ، والقفز منها فوق الفيليبين– حتى لا يغتال في معركة تافهة مع «المتوحشين»– والتوقف في جوا وعدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونة...كل هذا في دقائق معدودات.

أما الطريق فيه فلا يكلّف المشي الطويل تحت وابل المطر وفي وجه عاصفة الرمل والثلج. هو يحميك من تشقق القدمين ناهيك عن بقية المنغّصات الأخرى للطريق الحسّي مثل بعوض المستنقعات الاستوائية ودببة القطب الشمالي وأسود الأحراش الأفريقية وضابطات المطارات الأمريكية.

ثمة أيضا أن الانطلاق عليه جدّ مطمئن فلا خوف أن تعترضك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى منعطفاته شقيّ يصرخ فيك حافظة نقودك وإلا أخذت حياتك.

هذا لا يعني أنه خال من المطبّات والأخطار. كل ما هناك أنها من أنواع لم نعهدها في الفضاءات الأخرى.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد ؛ ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهول فيروسا طائشا أصاب منه مقتلا.

هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليالي وليالي لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

هذا ما يقودني للحديث عن الآدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

من هذا الذي يدمّر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسي والذي استودع فيه ما أكتب علني أتخطى رقابة الورق . لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم. نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدوّ. من يحاورني تحت اسم «إيفان المرعب» ؟ هل هو جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتنم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر دون جسد ليستيقظ من قبره ويعود لمضايقة أعداء الاستبداد أمثالي ؟ إن لم يكن إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والملثم وطرزان وأزدروبال؟ ثمّ لماذا اختار المقنّعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو للانتقام من الاسم الذي فرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي البدوي الخبير بتقفي آثار المختفين، اكتشاف من هؤلاء الذين يكاتبونني ويشتمونني ويهددونني ويعلمونني بأنني ربحت يوميا المليارات، ويسرقون كتاباتي، ويملئون موقعي بالسفاهات لتدمير سمعتي. ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني آدمي بجسد وروح وفكر، لما أقنعني أحد أنه ثمة علاقة بين سكان الفضاء وبشر اللحم والعضم.

القاعدة في هذا الفضاء أنك تتعامل مع كائنات غير مرئية ومع هذا تشتغل على مدار الساعة– وبنفس النجاحات والإخفاقات للآدميين الحسّيين–وذلك في كل الميادين مثل السطو والجوسسة والتجارة والدعارة والقمار والتحيّل والثرثرة الفارغة وكتابة ونشر القصص التي لم يرض بها ناشرون ما يزالون على عاداتهم المتخلفة في الطباعة على الورق.

ثمة إذن للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما شاء من الأقنعة، يتّخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في الفضاء الحسي، يدخل البيوت كالروح الهائمة لا يتفطن لتطفّله أو لسرقاته أحد وربما يعيش ما لا يحصى من القصص الموازية.

ما يشدّ انتباهي شخصيا بخصوص القصص التي أدخلها الفضاء الجديد إلى الوجود أن إمكانياتها أصبحت تفوق كل ما تعودنا عليه من شطحات فضاء الخيال.

خذ أيّ بطل من أبطاله مثل أنّا كارينين ومجنون ليلى أو راما أو أشيل. ارم مصيرَ هذه الكائنات للبعبع المسمى «البرنامج». هو قادر على أن ينسج لك مليون قصة لَراما، منها التي تختفي فيها سيتا وقد وصل البطل متأخرا عن اللحظة التي برزت فيها ابنة الملك

في كتاب رامايانا مما جعله يسقط في غرام خادمتها... ومنها التي تخون فيها سيتا بعلها وتبيعه عبدا لملك القردة وتتزوج الشيطان رافانا وتعيش سعيدة معه وقد تصبح ألعن شيطانات الجزيرة... ومنها التي يصل فيها البطلان جزيرة لنكا فيسقطان في فخ نصبته القوات السريلنكية للمتمردين، فتصاب سيتا بجروح بالغة الخطورة تستدعي نقلها عاجلا إلى مستشفى الأدغال، وهناك يبقى راما يلهث وراءها إلى أن يكتشفها، لكنها ترفض العودة معه لأنها سقطت في غرام الرفيق الأمين العام لحزب نمور التامول الذي خلصها من الجيش الحكومي.

من يستطيع أن يضمن أنه ليس لنا ملايين من القصص الموازية التي كتبها لنا برنامج البرامج، وأننا لا نعي إلا بواحدة منها. الأدهى أن البرنامج يفعل أكثر من هذا، إذ يستطيع- مثلا- نقل القصة كما كتبها شعراء الهندوس للناشر عبر البريد الالكتروني، لكن بعد إعطاء معلومات مخفية للطابعة لكي تتصرف هنا وهناك في بعض التفاصيل الدقيقة دون تغيير جذري في مسار القصة. هكذا يتصوّر الناس أنهم يقرأون نفس القصة، والفوارق البسيطة التي تخفى على القراءة السطحية تجعل أنه لا يوجد قارئ واحد يقرأ نفس القصة التي يقرأها جاره. قد يكون هذا هو السبب الخفي لتخاصمنا طول الوقت حول أكبر القضايا وأصغرها. نعم، يجب جمع كل نسخ الكتب المقدسة والتأكد- حرفا حرفا- من تماثلها، وأننا لسنا ضحية مؤامرة خفية لم ينتبه لها، بكل تواضع، إلا كاتب هذا النص.

المهمّ أننا أمام فضاء جديد هائل الامكانيات للسياحة والاستكشاف وكل أماكنه على بعد نقرة حاسوب، لا أكثر. كيف لا تستبدّ بي حمى السفر فيه؟

ها أنا أدخل مكتبات الهند، أدردش مع زميل من الصين، ألقي نظرة خاطفة على مدينة افريقية غارقة في الحرب وأنا لا أتحرّك قيد أنملة. ثم ما أروع أن يتدافع المسافرون من كل حدب وصوب لزيارتي بغية قراءة شهادتي عن الحياة رغم أنف الاستبداد وشرطته التي لا تكف عن ملاحقتي اينما وليت وجهي حتى في هذا الفضاء. المساكين ! حتى ولو نجحوا في فسخ كل ما وضعته فيها، فسأبرز لهم مجددا إذ لا شيء أسرع تعويضا مما يمحى ويحرق ويسرق.

تقول إذن بورك في هذا الفضاء لا لشيء إلا لأنه يسمح لنا أخيرا بالسخرية من العسس ونقط التفتيش.

انتظر هو ليس بالبراءة التي قد تتصوّر. هو أيضا لبالغ الأسف ساحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات ، بل قد يكون منطلق الحروب التي ستفني كل المرتحلين.

ليس من باب الصدفة أن من وضعوا اسس الفضاء الغريب عسكريون وكأن فضاءات الحواس واللغة والخيال لم تعد كافية لاحتضان معاركهم.ثمة منهم جنرالات بخمسة نجوم يقودون وحدات مهمتها الإعداد للشكل الجديد من الحرب والحواسيب فيها بمثابة راجمات

الصواريخ والصواريخ برامج محملة بكل الأوامر لتنفجر أنابيب الغاز وتتلخبط أسعار البورصة وينهار اقتصاد البلد العدوّ الذي بادر بهجوم غادر أين منه غدر مهاجمي طروادة وبرل هاربور. مؤكد أن منهم من يخطّط في هذه اللحظة لتتوقف مصاعد ناطحات السحاب، لتحط الطائرات فوق سطحها، لتنطفئ الكهرباء دون سابق انذار في كل مدن وقرى هذا العدوّ البغيض. نعم، ثمة ما ينذر بانتعاشة هائلة في فنّ الحرب، وبأن من يحبونها سيعرفون نشوات غير مسبوقة. من حسن الحظ أنني لم أعش إلى الآن شيئا كهذا، وأرجو كل من يهمه رجائي أن أغادر الوجود قبل أن أفتح الحنفية ليسيل منها ماء ملوث بجراثيم الكوليرا وفيروسات الحصباء، بعد أن استولت برامج العدوّ على حواسيب الوقاية المدنية.

كل هذا غير مطمئن ومن ثمة قراري بإرجاء النظر في قضية الاعتراف بالفضاء الجديد كفضاء مستقلّ وكجزء من عالم تكفيه مشاكل الهيكلة والتسيير التي يعاني منها. قد تكون تحفظاتي بشأنه ناجمة عن موقف مسبق لا أخجل من القول أنه جدّ سلبي وليس فقط بخصوص ما يعجّ به وما يعدّ من حروب.

ثمة أولا ما تتعرض له اللغة فيه من اعتداء بالفاحشة. تقول وهل تُلفّ قاذورات الفضاء الحسي في ورق الورد. من الطبيعي أن تلفّ الأكاذيب والإشاعات والسخافات والاتهامات وأقذع الشتائم وأحقر اساليب التحريض في أشلاء لغة لا تخضع لقواعد الكتابة والنحو فما بالك لمتطلبات الذوق والجمال.

بخصوص القاذورات وأنت أول من ذكرها ...يقال أن بعض المشرفين على تنظيف الفضاء الجديد أصيبوا بانهيار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بورنوغرافيا أطفال ورضع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرابين تقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة...كل ما يتصوره العقل وما لا يجرؤ على تصوره من جنون الآدميين.

هذا ما جعل جزءا منه قمامة تصبّ فيها مجاري صرف صحي تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم ...تماما كما هو الحال في الفضاء الحسي حيث يختلي كل واحد بمرحاضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الاسمنت مهمة التخلص منها بعيدا.

تواجهني بالقول أننا لا نلوّث إلا فضاء كامل الأوصاف كما نفعل عندما نكدّس قاذوراتنا الحسية في الفضاء الحسي وقاذوراتنا الفكرية في فضاء الرموز، ومن ثَم فتلويث الفضاء الافتراضي هو أحسن دليل على أننا أمام فضاء مستقل.

تضيف أي حكم كنا نطلقه على الفضاء الحسي لو دخلناه وهو ما زال سهولا سوداء لفظتها البراكين لتوّها لم تغطّها بعد الحشائش والأزهار ولم ترتفع فوق سطحها الأشجار وما يتصايح على غصونها من عصافير؟ أي حكم كنا نطلقه على فضاء الحروف وهو ما زال علامات على لوحات طين يتبادلها كهنة أراتا وتجّار أوروك ؟

أفحمتني ومع هذا سأواصل الممانعة. أليس من الخطر الاعتراف بهذا الفضاء الذي قد يفتح يوما على فضاء أغرب يمكن أن يفتح هو الآخر على ...الخ ؟

ألـن يضطرنـا هـذا للتـوزّع علـى كـم مـن فضـاء جديـد ممّـا سـيجعل مـن الرحلـة عمليـة عبثيـة لكثـرة العـرض ونـدرة الوقـت لاستكشـاف أكثـر سـطحية مـن الـذي نمـارس؟ ثـم هـل قطعـت كل هـذا الشـوط مـن الطريـق لأكتشـف وأنـا في آخـر منعطفاتـه أننـي لم أكـن إلا رحالـة بدائـي يتحـرك مشـيا علـى قدمـين... أن علـيّ أن الشـعور بالعـار شـعور أجدادنـا القـردة المتراقصـين علـى الأشـجار لـو فهمـوا أن أبنـاء عمومتهـم سـيطيرون يومـا فـوق السـحاب؟

ليكـن، وهنيئـا للأحفـاد سـفرهم، مسـتلقين علـى ظهورهـم في صناديقهـم البلوريـة وخيـوط غـير مرئيـة مزروعـة في أدمغتهـم، يتجولـون داخـل المجـرّات وشـوارد الـذرات. نعـم، هنيئـا لهـم سـهولة السـفر وكثـرة مـا سيعيشـون مـن أغـرب قصـص .

أمـا أنـا فتكفينـي الفضـاءات الـتي تعـودت علـى استكشـافها. وفي كل الأحـوال، أي لـذّة يمكـن أن تضاهـي لـذّة المشي حافيـا علـى العشـب المبلـل بقطـر النـدى أو علـى رمـل الصحـراء عندمـا يأتـي المسـاء، أو في وجـه الريـح وزوبعـة الثلـج؟

تقـول لـي: يـا متخلـف، لكـن البرامـج ستعطيك كل الأحاسـيس والمشـاعر - الـتي جربـت والـتي لم تجـرّب– ومـا عليـك إلا النقـر. شـكرا، انقـر أنـت. أمـا أنـا فأفضّـل الأصـل علـى صـوره، ولـو كانـت أحسـن مـن الأصـل.

الأصـل ؟ الصـور ؟ وهـل لهـذا العـالم أصـل أصـلا، أم لـه مـا لا يحصـى مـن الصـور و "الأصـل" نفسـه واحـدة مـن بينهـا ؟

إذن كل مـا اسـتطيع القبـول بـه حاليـا تمتيـع القـادم الجديـد برتبـة فضـاء قيـد التجريـب، مـع تشـديد المراقبـة عليـه أمـلا أن يكـون سـرابا لا مسـتقبل لـه . وفي الانتظـار فإننـي سأسـعى لبـثّ أقصـى قـدر مـن البلبلـة في العقـول بخصـوص هـذا الفضـاء الـذي سـارع البعـض لتعميـده بإطـلاق اسـم عليـه :الفضـاء الافتراضـي.

موضـوع شـائك آخـر سـأتركه لتلامذتـي ليبتّـوا إن اسـتطاعوا في مـا آل إليـه موقفـي في آخـر الأمـر وهـل قـررت قبـول اسـتقلالية الفضـاء الجديـد وإضافتـه ككيـان مسـتقل لهيـكل العـالم أم أننـي رميتـه بكثـير مـن الريبـة والتقـزّز في ركـن مـن أركان الفضـاءات غـير المعـترف بهـا . سـأذكّر بالتشـابه الكبـير بـين الحـروف والأرقـام وأنهـا كلهـا تنتمـي لعائلـة الرمـوز. سأتسـاءل بخبـث أليـس هـذا الفضـاء المزعـوم امتـدادا إمـا لفضـاء الخيـال وإمـا لفضـاء اللغـة أو لكليهمـا ، مذكّـرا أنـه يعـجّ بكائنـات لا تختلـف كثـيرا عـن كائنـات اللغـة والخيـال ؟

حتـى يحتـدّ النقـاش بينهـم سـأترك رأيـي ملفوفـا بكثـير مـن الغمـوض المقصـود، بـل وسـأوحي طـوال النـص بالموقـف وبنقيضـه كمـا يفعـل كبـار المنظّريـن، فلسـت أقـل منهـم حتـى لا يتخاصـم النـاس بعـدي حـول مـا قلـت فعـلا، ومـا أُوّل خطـإ مـن كلامـي، ومـا كنـت أنـوي أن أوضّحـه قبـل أن تختطفنـي يـد المنيـة، أو كيـف أن القصـور في فهـم أفـكاري أدّى بالبعـض إلى شـطحاتهم المعروفـة وأخطائهـم المشـينة.

* * * * *

لبنة الهيكل

اللّبنة الأساسية لعالمنا والتي نسميها لافتقارنا لمصطلح أخصب : الفضاء .

أول صورة تتبادر للذهن أنه «الامتداد» الذي نتحرك داخله . صورة لا غبار عليها عندما يتعلّق الأمر بالفضاء الحسي فهو فعلا ذلك الفراغ النسبي الذي يحفّ بنا من الجهات الأربع ،الشيء الذي يسمح لنا بالتحرّك داخله نشق طريقنا بين محتوياته وكلها لحسن الحظ لا تحتلّ إلا أجزاء جدّ صغيرة منه إذ لو كانت تملأه كما الماء الكأس لما وجدنا فيه مكانا لنا...على الأقل في المستوى الذي يقبل بنا ونقبل به. ذلك لأن هذا الفضاء مرتّب حسب مستويات أو قل هو مهيكل كالدمي الروسية: ذرّة داخل جزئية داخل خشبة سرير داخل غرفة داخل بيت داخل حيّ داخل قرية داخل بلد داخل كوكب داخل مجرّة داخل كون هو نفسه قد يكون داخل شيء ما...وكلّ عنصر هو نفسه مكون من عناصر: الذرة بمكوناتها، الغرفة بما تنغلق عليه من أشياء، الكون بما لا يعدّ أو يحصى من الكواكب والنجوم.

مثل هذه الخصائص غير موجودة بل لا معنى لها أصلا في فضاء الخيال . فهذا الأخير خلافا لفضاء الحواس «امتداد» داخلنا لا خارجنا نملأه لا بالكائنات والأشياء وإنما بصورها وتصوراتنا لها . داخله تُركب قنبلة المدفع كما تُركب الفرس يوصلها البارون منشهاوزن إلى هدفها ثم يمتطي ظهر قنبلة العدوّ في الاتجاه المعاكس ليعود إلى قواعده سالما. داخله يُشطر حصان البارون إلى شطرين ليذهب الخلفي باحثا عن فرس يلجها ثم يعود إلى شطره الأمامي يلتحم به فيعود حصانا كاملا يركض. كل هؤلاء الأغبياء الذين سخروا من البارون! المسكين! جعلوا منه عنوان الكذب لأكثر من قرنين وكل ما في الأمر أن الحواجز بين الفضاءات انهارت عنده أمام فيض أحلام اليقظة كما ينهار السدّ إن فاض الخزّان بالماء.

بجانب هذا الفضاء الخاص ثمة فضاء عام تلتقي فيه مجموعات بشرية تتشارك في نفس المخاوف والآمال تعبّر عنها بنفس الأساطير وتتعامل معها بنفس الطقوس.

خذ الآن فضاء اللغة . هو ليس «امتدادا» داخلنا أو خارجنا. هو «ساحة» تخلقها عقول الأجيال لا تتزاحم داخلها الكائنات الحسية أو صورها وإنما «الفكريات» هذه الكائنات التي تصنعها اللغة وليس الحواس أو المخيلة.

تقول لا وجاهة إذن في إطلاق نفس الاسم على كيانات ليس لها نفس الخصائص والمكونات؟ بلى والوجاهة في وجود قاسم مشترك هو أننا نتحدث دوما عن أفعال الذات في العالم وتفاعلاتها معه والاختلاف فقط في طبيعة الأفعال والتفاعلات ومجالها.فالفضاء الحسي

مجال كل الأفعال والتفاعلات التي تسمح بها حواسنا الخمس وحدوده طاقة الحواس للآدميين -كما هي عليه الآن -حيث لا قدرة لك لا على تلمّس الذرات ولا على استنشاق عطر النجوم أو رؤية مظاهر الطبيعة كما يراها الدلفين والنسر ولا على زحزحة الجبل وشرب البحر .

نفس الشيء عن الفضاء الخيالي. هو مجال كل الأفعال الخيالية (رسم الصليب والاحتماء بالثوم) والتفاعلات الخيالية(الرعب من دراكولا) وحدوده إمكانيات المخيلة وهي في ذروة الخلق والإبداع.

أما فضاء اللغة فهو مجال كل الأفعال الرمزية مثل التسمية والتصنيف واضفاء المعنى على مكونات العالم ومنها الذات .هو مجال كل التفاعلات الرمزية التي تعطينا اشعار عمر الخيام وإيسا وأدب تولستوي وفلسفة ارسطو

تقول تقسيم مصطنع لواقع واحد. ففضاء الحواس معطى من معطيات اللغة إذ لا نرى إلا ما نسمي ولا نصنع خيالنا إلا بالمواد الأولية التي توفرها الحواس و اللغة . أما هذه الأخيرة فلا وجود لهذا إلا بمتكلّم يرصد معطيات الحواس وبمستمع يشاركه نفس الخصائص الحسّية .

تضيف ساخرا : نسيت فضاءك الرابع ، ذلك الذي تدّعي عدم الاعتراف به وتحثّ على الأمر؟ أليس مكونا ، من بشر من لحم ودم جالسين وراء الشاشات ، من حواسيب وألياف وأقراص ومراكز خزن وتوزيع تستهلك كثيرا من الماء والطاقة وتساهم في الاحتباس الحراري ؟ أليس كل هذا جزء من الفضاء الحسي وامتداد له تماما كما هو الحال مع فضائك الرمزي الذي لا وجود له دون الكتّاب والكتب والقراء ولا أحدثك عن ضرورة الأقلام والورق والمطابع . تصدر الحكم النهائي بنية الاجهاز بالضربة القاضية على أهم ركن من الرؤيا : ألا يعني كل هذا أن الفضاءات التي تريد فصلها لا وجود لها إلا ببعضها البعض وبالتالي عبث ما تقسّم وتصنّف ؟

آه لو كان هناك قراء مثلك وراء بعض الكتاب ، لما حبّروا أو نقروا الكم الهائل من السخافات التي تحفل بها الكثير من الكتب ! على كل حال -ورغم تزايد انزعاجي من تدخلك الدائم في نصي- فإنني مضطرّ لشكرك حيث وفّرت علي بملاحظاتك السديدة التوغّل في طريق مسدود أي ارهاق عقلي بمحاولة تصور كيف تبني هذه الفضاءات هيكل العالم وأيها يلعب دور العمود الفقري إلى آخر المشاكل المصطنعة التي لا حلول لها وكم منها داخل فضاء الرموز. ماذا لو سمحت لي بمواصلة استعمال فضاءاتي التي تسخر منها لنهندس معا تصورا يرضيك ويرضيني ؟

اعتبر الضوء الذي نرى وننعم به . هو في ظاهره لون واحد لكنه إن حلّلته ألوان...تلك التي نراها عندما يتصدّر قوس قزح كبد السماء ، تلك التي فاجئتنا في تجاربنا عندما كنا تلاميذا في الثانوي ندرس ابجديات الفيزياء .

ثمة صورة أخرى قد تكون أقلّ أناقة لكن لها نفس قدرة الإيحاء: الطوب الذي لا يكون إلا بالطين والماء والقشّ.

موافق ؟ عظيم. المشكلة أن واقعك هذا لا يمكن أن يكون مطلقا وإن كان احدا .هو جدّ متباين حسب الكائنات الحية نتيجة تباين حواسها - أي حدتها وأولوية واحدة على البقية- ناهيك عن جهلنا بما هي مساهمة الخيال والرموز في صنع واقعها.

لا يختلف الأمر كثيرا عند الآدميين حتى وإن تشاركوا في نفس المعطيات الحسية ،فالمواد الخيالية والرمزية متباينة ومتحركة داخل الفرد والمجموعات البشرية.

العالم ليس معطى حواس الذات وفكرها وخيالها فحسب. هو معطى أفعالها التي تعيد بها- جيلا بعد جيل- هندسة الفضاء الحسي ولاحقا بقية الفضاءات. هذه الأعمال هي التي أعطتنا في فضاء الرموز قمم الفنّ والعلم والأدب وأعطتنا في فضاء الحواس مغارات لاسكو، صخور ستونهنج، أهرامات مصر وأمريكا ، سور الصين، كاتدرائيات أوروبا، التاج محلّ وكاب كانفيرال...ناهيك عن حدائق كيوطو و الحمراء وفيلاندري وشومون ومراكش وكلّها عوالم مصغّرة تحت السيطرة أفرغت منها النواجذ والأنياب وقطاع الطريق ولا حدود فيها للتجريب على الأشكال والألوان...أماكن لا تخفي طموحها استحضار الجنة على الأرض.

المشكلة :هذا الفضاء الحسي تقاطع فضاءات حسية لما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات وكلها بحاجة إليه مثلما نحن بحاجة اليه تصنع منه واقعها كما نصنع منه واقعنا .ألا يعني كل هذا أنه لا وجود لعالم واحد وإنما لما لا يحصى من العوالم... إننا نسافر داخل وعلى تخوم ما لا يعدّ من عوالم قد تكون بعدد قطرات ماء المحيط، قد تكون بعدد حبات رمل الصحراء، قد تكون بعدد النجوم في السماء ...ربما حتى هذه الصور عاجزة عن تقدير عددها.

أضف لهذا ديناميكيتها وهي مثل فقاقيع صابون من مختلف الألوان والاحجام لا تتشكل إلا لتنفجر على خط زمان طوله الابدية.

دوار...دوار...دوار!

آخر لمسة : العالم كمعطى أحاسيسنا ومشاعرنا.

تدخله كل صباح- أو هو الذي يدخلك- فتعلم من البداية أنه بلون أحاسيسك ومشاعرك. يكفهرّ وجهه فتتسلل إليك كآبته. يبتسم فترقص طربا. تكتئب فيفقد كلّ مذاق وحين ترقص طربا تراقصك السّماء والأرض. لا تتحرك ذرة داخل الذات إلا وانقلب العالم رأسا على عقب ولا تتحرك ذرة فيه إلا وزلزلت الذات زلزالها.

العالم والذات وجها قطعة النقد نفسها؟! من دون أدنى شكّ... في رؤياي طبعا كما يجب التذكير باستمرار.

من أين للعالم أن يكون شيئا مستقلا عن الذات متقدما على وجودها، أوجده إله أعمى لا واعٍ تسميه «الطبيعة»، أو إله واع مبصر له من الأسماء ما للبشر من لغات؟

كيف يوجد قبل الذات وهو دوما معطى من معطيات حواسها ولغتها وخيالها ومزاجها؟

يقولون لكننا نرثه كل الذين رحلوا... أنه سيتواصل بعد موتنا. أحاول تصوّره بعد رحيلي فإذا بي كمن يحاول تصوّر مشهد تنظر إليه عين غير موجودة. صحيح أنه يتواصل بعد رحيلي ورحيلك، لكن هل يتواصل حقا يوم تختفي آخر حلقات سلسلة الآدميين؟ يوم يطلق آخر الآدميين أنفاسه ستتصاعد غرغرة احتضار عالم انتصبت على سطحه الأهرام والتاج محل وناطحات السحاب ومحيطا عرف بالهادي وبحارا أعطاها من خلقوها بحواسهم وفكرهم وخيالهم أسماء الألوان التي عرفوها.

كل ما أنا واثق منه لحدّ الآن أن هذا العالم عالم الجنس الحيّ الذي انتمي إليه .... أننا نصنعه من أحاسيسنا، من مشاعرنا، من أفكارنا من خيالنا ومن أعمالنا....أنّه مزيج من معطيات الحواس والخيال والرموز مثل الطوب الذي لا يكون إلا بالماء والقشّ والطين ...السؤال سيّد الأسئلة : من أي مبهم أصلي نوجد هذا الذي نوجد داخله ويوجد داخلنا ...ولأيّ غرض وجد إن كان للسؤال معنى؟

* * * * *

الكتاب الثالث

الطريق

قال أرجونا: أني أتحرق شوقا لرؤية وجهك المقدس، إن كنت ترى ذلك ممكنا فأرني – يا إله الآلهة– ذاتك الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني – يا أرجونا– في أشكالي القدسية، إنها بالمئات والآلاف نوعا ولونا وشكلا، تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.
من كتاب البهاجاد فيتا

قدّم لنا الراوي لحدّ الآن عالمه كمعطى حواس وفكر وخيال الذات... مما يعني ضرورة أنه موجود داخلها. ها هو يقدّمه لنا الآن كأكبر حاو ينغلق على كل المحتويات من مظاهر طبيعية وأشياء وكائنات وأحداث... مما يعني ضرورة أنه موجود خارجها. الأمر كالقول أن العالم محيط ينغلق على سمكة اسمها الذات وفي آن واحد أنه المحيط الذي تتلاطم أمواجه في جوف هذه السمكة.

المعلّق

ما تنضح به الحياة "العادية" من معهود ومألوف ومتوقّع، ومبتذل وروتين، خديعة لا أكثر نستسلم لها ونحن في أوج حالة سنسمّها التبلّد.

أهمّ خصائصها انطفاء الأحاسيس البكر والمشاعر الحادة التي تجرّبها الذات... وهن الإعجاب والتعجّب والتهيّب أمام الخوارق والمعجزات التي تحفّ بها .

هي أيضا الركون إلى شعور بالألفة نطمئن عبرها أنفسنا ونوهمها بأن العالم سيبقى على ثبات نفس الوجوه ونفس المناظر ونفس الأحداث ، فلا نطالب بتواصل التحفّز.

حالة لا تتبخّر إلا والذات على الحالة النقيض: الانتباه.

لاستعادة طعمه قف أينما تشاء وتأمل ما حولك قائلا في نفسك إنها المرة الأخيرة التي أرى فيها هذا المشهد والأجل المحتوم في الخطوة المقبلة...أو يمكنك أن تتصوّر أنها أول مرة ترى فيها ما ترى.

لما تنتبه لرائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة ولّما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس. أهمّ فضل وخاصية للانتباه نجاحها في دحر مشاكل الماضي بعيدا وطرد هموم المستقبل من ساحة الوعي لتتفرّغ الذات للحظة وقد تخففت من كل الأعباء.

لم أحاول الوصول لأبعد الأماكن إلا لاعتقادي أنها وحدها القادرة على اعتصار حالة هي ذروة تجربة العيش ، والحال أنه يكفي ترك باب الروح مفتوحا تحسّبا للقاء يحدث متى لا تتوقع وغالبا في أكثرها قربا وابتذالا.

أرمي بالجريدة جانبا وكم من جريدة تضع فيها أنفك كمن يضع أنفه في قمامة تفوح بكل ما في البشر من غباء وعنف ثم أنظر للسماء انقشعت عنه للحظة السحب السود. فجأة ترسم طائرة نفاثة خطا أبيضَ يقسّم السماء إلى سماء يمنى وسماء يسرى. ثم تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل. تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي. لكنهما على غير نفس الطابق من السماء. يحصل

التلاقي بين الخطين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة السماء. يعود البصر للوضع الأفقي مركّزا اهتمامه على ما حوله علّه يرصد أعجوبة جديدة.

هذه غابة عبرتها كم من مرة لكنني أفهم أنني لم «أرها» أبدا .نحن لا «نرى» إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا سؤال أو ردّ. يتسمّر البصر على ورقة انفصلت لتوّها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟ ها هي معلّقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. ينفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصيّاد وابل الرصاص. هي لا تتسلّق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حذائي فآخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس. ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبي ثم أغيّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الموت التغذي بالحياة وقدر الحياة التغذي بالموت.

أن تكون منتبها يعني أن تعي بكونك لا ترى من العالم إلا الزبد وأعماقه المظلمة محرّمة إلى الأبد.

أن تكون منتبها يعني أن تعي فجأة بما تحت الظاهر البسيط من نظام وتعقيد. يمرّ أمامي بعيدا على مشارف الغابة سرب من الخيل. يبهرني ما في المشهد من أناقة وجمال. أزداد انبهارا وأنا أتذكّر أن من تفتح الطريق الفرس المسيطرة، تتبعها الثانية في قائمة البروتوكول، مرفقة بصغارها، ووراءها الفرس الثالثة التي تتبعها في الترتيب ومعها صغارها، وأخيرا الفحل الذي يغلق الركب استعدادا للدفاع عن حرمة الحريم.

أن تكون منتبها يعني انك استعدت اكتشاف ما يزخر به الشيء أو الكائن أو الحدث من غرابة حجبها التبلد حجب السحاب للشمس.

أن تكون منتبها يعني انك عدت للأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات...أنك أفقت فيه مرة أخرى...أنك أدركت كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل.

من كبار المنتبهين الرسامين. مثلا موني وهو على امتداد الشهور يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة ، مغيرا موقع المشاهدة ، مترصدا تغير الطقس واتجاه أشعة النور للعودة للأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لونا يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين .

قد يكون أكثر الآدميين انتباها بعد الطفل والرسام الشاعر. أستمع للشعر بأي لغة، أنصت لأجمل القصائد. لن تجد فيها شيئا هاما إلا وكان انتباه اللغة لإمكانيات مطمورة داخل كلمات جفّت عصارتها من فرط الاستعمال.

«الهايكو» أوج انتباه الشعر ؟ طبعا، لا لشيء إلا لأنه ينفذ مباشرة لأهم إشكالياتنا مع العالم وأعمق الصلات التي تربطنا به .

«أواصل حصاد القمح (ناكاتسوكا)

وفوق ظهـــــري

كلّ الســــماء»

ليس من باب الصدفة أن يسمى مؤسّس دين كبير «بوذا" المستيقظ.. أي المنتبه. ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من "الساتوري» أي حالة الشعور بالاكتمال وهي الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم في مثل هذه الرؤيا.

المشكلة أن الانتباه لا يكون إلا متقطّعا، أن عليه أن يكون... متقطّعا.

دوما على مقعدي أتأمل الأشجار متسائلا عن أسمائها واحدة واحدة . أغمض عينيّ للتمعّن بكل خلايا جلدي في أحاسيس بالغة الدفء، بالغة الرقة، بالغة المتعة تبثّها في الغابة العجيبة. يرتفع الهمس من الأشجار تروي لي قصصها. تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والكائن الصغير لا يريدني إلا أن أنتبه لوجوده هو أيضا. على فكرة، كم كائنات حية تختبئ داخل هذه الغابة وفي السنتيمتر المربع تحت قدمي ؟ آه هذه أجناسهم وهذه آخر مشاكلهم!

كأنّي الآن شحّاذ جائع وضعوا أمامه- للسخرية من جشعه -فيلة أفريقيا وآسيا مشوية وحوت الهادي والأطلسي مقليا، والقهوة الساخنة تضخّ في الحلق عبر شلالات القارات الخمس. كيف يمكن مواجهة هذه الطفرة، هذه العجينة المكونة من كل الممكن من الصور والأفكار ؟ حتى ولو استطعت إحلال بعض النظام على كل هذه الفوضى، ماذا تراني فاعل بهذا الزخم من المعلومات ، من الأحاسيس ، من المشاعر ، من الصور ، من الأسئلة؟

وبينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، تدخل مجال الانتباه قطعان من السحب السود، تواصل هي الأخرى رحلتها. إنها اللحظة التي يفاجئك فيها العالم مرة أخرى، أو اللحظة التي تفاجئه فيها، وأنت كمن يصل ميعادا تحكمت فيه آلاف الصدف لتتمتع بمنظر أجمل غادة تنزع من وراء الأستار ثوب الحياء. كأنّه حلا للفنان الذي علم الرسم موني وبيسارو وقوقان إعادة تلوين السحب. ها هو يضع بريشته على أطراف رماديها الكئيب لمسات جد خفيفة من الأصفر الوضّاء متابعا بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرّج حواشيها. ثم كأني به يغيّر موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضما المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد. شيئا فشيئا يختفي الفنان الأعظم

خلف داكن الظلام كأنه ابتغى الراحة أرهقته كثرة الإبهار، لا يعلم أنك تنصرف تريد الراحة أيضا أرهقتك كثرة الانبهار.

نعم ثمة ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبلّد. أنت لا تنخز عضلة لتنقبض المرة تلو الأخرى دون أن تأتي لحظة تضرب فيها العضلة على الردّ احتجاجا على كثرة الوخز. على الذات أن تتصرف كالعضلة وإلا هلكت. نعم ، أليست حدّة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد ؟ ألا نتعهّد تبلّدنا بكثير من التشجيع والدعم ونحن تشيح بالبصر أحيانا حتى عن روائع العالم ؟ بخصوص بشاعاته ربما تمارس مثلي "الصوم" بترك الجرائد جانبا، بإغلاق النقال والحاسوب والتلفزيون والمذياع كلما استطعت للأمر سبيلا .نعم ، أليس الجهل حقّا من حقوق الآدمي والتجاهل واجبا من أهمّ واجباته ؟

التجاهل؟ لنجعله النقيض للانتباه وليس التبلّد الذي سنعيد له الاعتبار جاعلين منه ردة فعل طبيعية تجاه الضغط الذي يسلّطه علينا العالم بشططه في كل الميادين.

نبض الرحلة إذن ليس سعادة فشقاء فسعادة الخ وإنما انتباه فتبلّد فانتباه...وهكذا إلى التبلد والانتباه الأخيرين.

ومن ثمّ ضرورة إعادة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعل أوقات السعادة أكثر وأطول من أوقات الشقاء. اجعل تبلدنا لا يدوم أكثر من ضرورة التقاط الأنفاس، واجعلنا منتبهين، إن لم يكن كل زمن الاستكشاف، فعلى الأقلّ أغلبه.

* * * * *

مأدبة الله

أقلّب أقدم ملفّات انتباهي للعالم فتستوقفني صورة طفل مشدوه في الرابعة أو الخامسة وهو يتقدّم بخطى حذرة نحو الموج بين فضول وخوف لا يكاد يصدّق ما يرى. كان مقتنعا أن العالم هو السماء الزرقاء نهارا السوداء ليلا بشمسها الواحدة بقمرها اليتيم وبنجومها التي لا تحصى، أنه أرضان تتقاسمان الطبق الصلب التي وضع الله عليه كل
مخلوقاته : أرض جده وأبيه بصحاريها الصفر الممتدة في كل اتجاه...أرض جدّته وأمه بسهولها الخضراء المترامية الأطراف .كم كان بعيدا عن تصوّر المفاجئات التي يخبئها له حتى وهو كهل وكأن هذا العالم غادة حسناء تزيح اللثام شيئا فشيئا عن وجهها الصبوح.

تلك الليلة سألت "ما" طفلها ألاّ يبخل عليها بتفاصيل أول لقاء له مع البحر. فتح ذراعيه علّه يبلّغ كم هو عريض كم هو متّسع، فسقط الذراعان. من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدّها سوى الأفق؟ كيف يصف لها هيبة دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟ ما نفع الكلام في وصف سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضان الموج واختفائها فيها ! آه لو كان "با" حاضرا لصرخ، لقفز، لمثّل السباحة والسعال والغرق، لكن الرجل تركه على مدخل البيت وانصرف راكضا لمواعيده. إنّه دون شاهد على صدق ما لا يصدّق، وهو يكره أن تظنه "ما" مبالغا أو كذّابا.

تلك الليلة آب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ الشيء الشمس مجددا أم هل سيحتفظ بها نهائيا فتغدو كل أيامه ليالي بأشباح وكوابيس. من الغد تواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها، أنه اكتشف لماذا تبدو الشمس لامعة نظيفة كل صباح وأين تذهب لتغتسل كل غروب، فتتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

وفي صور أخرى لنفس الملفّ، أراه يواصل تفكيره وقد تذكّر أن ماءه مالح مثل الدموع التي تسيل على خديه. تتشكل أولى نظرياته أن البحر حفرة ضخمة مليئة بالدموع. من، يا ترى، بكى كل هذا البكاء ؟ البشر الذين سبقونا ! بربكم، أليست هذه فرضية معقولة وقد وُصف هذا العالم أكثر من مرة أنه واد للدموع. هل من مستودع أحسن من البحر، ولو أن فكرة السباحة في دموعنا ليست من النوع الذي يحبّب رياضة لا يعاب عليها شيء .

يسأل أمه يوما مخفيا عنها أنه غافلها للعودة إلى البحر ، أنه لولا سواعد مفتولة حملته إلى الشاطئ ومنقذ مجهول أخرج من رئتيه كل الماء الذي اختنق به ، لما أزعجها بسؤال جديد (ولتخلصت الحكومة باكرا من معارض حقود، وتنفس الصعداء كم من غريم وكم من منافس).

- "ما"، هل ينتهي كل طريق عند الشاطئ؟ هل البحر حدّ العالم ؟
- ثمة دوما أرض أخرى وراء البحر.
- كيف نصلها إذن ونحن لا نستطيع المشي فوق الماء؟ مستحيل حتى عقبة توقّف ...

استحالة استبطنها من قصة عن أجداد توغّلوا بعيدا ركضا وراء الشمس والطريق أمامهم ما ترسمه الخيل وما يفتحه السيف. لكنهم ارتطموا أخيرا بالمحيط وقد استنفد النصر كل الطريق. يومها استشاط قائدهم الفاتح غضبا. دفع حصانه إلى الأمام شاهرا سيفه يأمر المحيط أن يفتح له بقية المسار، فأعرض عنه الجبّار لا يرضخ لتهديد أجوف. ولأن الخيل لا تحسن عبور المحيطات سباحة ولا يمكن أن ترفع فوق ظهرها الشراع، فإن عقبة رجع أدراجه منذرا المعني بالأمر أنه لن يبقى طويلا مستعصيا على الغزو.

ثمة في ذاكرته الغضة قصة مخالفة عن جدّ آخر عرف كيف يرسم الطريق حتى على ذروة الموج.

ألم يدخل حانون الفيافي السائلة وجواده أخشاب ألصقت ببعضها البعض تطفو على سطح يطفو بدوره على أعماق قد تكون سطح أعماق لا قرار لها ؟

منذ اللقاء الأول مع حانون سكنه الهاجس أن يضع خطاه- هو الآخر- على خطى فارس الريح والموج وكل المغامرين الذين ارتحلوا على صفحة الماء ليعرف أخيرا ما هو البحر. لكن كيف يعود إليه هو الذي عاش في أحضانه القاتلة رعب الموت الوشيك ؟ أن يخرج حانون للبحر مرّة أمر قد يكون مفهوما، أن يعود له مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به للبحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. محي من ذاكرته كل ما عانى عائدا للغول مرة بعد مرة، بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت له ظهري خاصة عند افتعال الوداعة ليغرّر بي مرّة أخرى، لركضت لأبعد نقطة أحتمي منه بالجبال وبالبراري، لرفضت حتى النظر لجدول رقراق خوفا أن يأتيني منظر الماء بالدوار الكريه. لكن حانون عاد إليه كما عادوا كلّهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح الذي لم ولن يروّضه أحد.لله درّ فرسان الريح والموج، إن شجاعتهم حقا لضرب من التهوّر أو الجنون! لم تكفهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف.

يأتي يوم يغلب فيه التهوّر كل خوف خاصة والوعد لقاء أضخم كائن يسكن هذا العالم العجيب.

هذا عرض البحر أخيرا. بل هو هادئ مما يسمح بلحظات طمأنينة عابرة ككل لحظات الطمأنينة.

ومما سمعته من كثير من المسافرين أنه هو أيضا صحراء، بل صحارٍ وإن لم تكن من الرمل، أن فيها كما في الصفر والبيض لليابسة رحّل وبدو يسمونهم الدلافين والسلاحف والحوت، يدخلون الواحات للتزوّد بالمؤونة ويخرجون منها مواصلين تشرّدهم، يضربون في

المحيطات ذات العرض والطول بحثا عن الكلأ والمرعى وأماكن هادئة يتجدّد فيها دفق الحياة. ما يقال أيضا أن هذه الواحات، التي ربما البعض منها تحت قدمي، حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، أن كائنات تتبارى في الغرابة والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان... أنها تنغلق على معارك أين منها معارك السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة تزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك. تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها ليبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد المسكين نفسه بين فكّي الحوت الخرافي. يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس فيجد في انتظاره الصياد الآدمي.

يبدأ الزورق تسلّق جبال سائلة ليسقط في وديان بلا قاع. ها أنا الطريدة بين البراثن والبحر الصياد المظفّر. يحدّثونك بتهيّب وجل عن عواصف بحيرة كبيرة من الماء المالح كانت تذهب لها الطفلة "ما" مع جدتي لغسل الصوف. أي رعب مقدّس كان سيداهمهم لو ركبوا ظهر هذا المحيط خارق الاتساع، هذا البحر الذكر الذي دخله حانون بزورقه المسكين باحثا عن سواحل جديدة ينزل فيها للتجارة والحرب والحبّ. لا بدّ أنه شعر- والعاصفة في أوج جنونها- أنّه لم يعد كلاّ متماسكا، أنه سينحلّ في كلّ هذا الهول، أنّه أضاع كلّ طريق ولم يعد للاتجاه اتجاه.

تتسلّل لداخلي مشاعر مبهمة فيها الإعجاب والضغينة على هؤلاء الذين حالفهم الحظّ ليعيشوا هذه الرحلات الفخمة، التي تصل الذات فيها ذروة الانبهار والرعب.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول : لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخلي لدى سميّك السائل! اللعنة،ما الذي أتى بي لمثل هذا المكان البغيض ؟

يشتدّ الدوار. وجه العالم تعتعه السكر.

تراك لماذا أنت يا بحر هكـــذا   ومـا سر هذا المد، ويحك، والجزر   (محمد أبو قاسم)
تعيش اضطرابا لا حدود لأوجه   وتحيا صراعا بين موجك والـــصخر
كأنك تأبى أن تعيش محاصـرا   وأنك مهما طال أفقك في أســــر
برغم عباب كالجبال ومنظـــر   رهيب وما تحويه من ثروة تغـري
فأسرك أمر لا تطال فكاكــــه   وشأنك أن تبقى كذاك مدى الـدهـر
فما أنت إلا قطرة قد ترسبــت   بقعر حصاة في فيافٍ بلا حصــــر.

تصرخ فيّ امرأةّ: انظر هناك، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقتا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا طلوع وهبوط.

تعود المرأة للصراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان!

كُفيّ عن الزعيق لوجه هرمان ملفيل. نعم، لقد رأيت الذيل الجبّار في خيالي بعد أن أفرغت كل ما في معدتي على فستان عجوز أشبعتني شتما وشماتة لا تغفر للبدو وجودهم وسط المحيط.

وحيث أن عاهة غبية اسمها «دوار البحر»، إضافة إلى خوف مزمن لم تمحه العقود، حرّمت عليّ الرحيل على ذروة الموج، فإنني أحيل القارئ المجهول إلى غيري من الرواة ليحدثوه عن البحر ومشاكل المسافرين على ظهره.

كل إضافتي لأدب الرحلات البحرية ستقتصر على بعض الأفكار الفلسفية العميقة من نوع أن رحلة الحياة- مثل رحلة البحر- مغامرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة (الفاتحة أشداقها) غير قشة طافية ، نتشبث بها وكلنا نتقيأ على بعضنا البعض. كذلك سيركّز النص على أهم اكتشافاته، وأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكفّ عن الطلوع والهبوط. من لا يقدّر أهمية هذه الملاحظة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي بين بيته ومكتبه والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، ثم يغور به في عمق الأرض، ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه فيتهمه الناس باللصلصة على نسائهم وهو من التهمة بريء، ثم يعود به اللعين إلى مستواه الأول، يواصل مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه، إلى أن تنزل منه أمام بيتك تترنح فيقول عنك الجيران أنك عربيد. نعم، من حسن الحظّ أن الطريق ثابت على اليابسة وإلا عبرت العالم ضحية دوار البرّ والبحر. وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمله حتى مسافر صبور مثلي.

وبالمناسبة، من قرّر أن على الآدمي بالضرورة رسم الطريق على سطح البحر؟ أليس من الأسلم رسمه على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم؟ ألم يتّبعوا الشاطئ آلاف السنين لا يحيدون عنه إلا اضطرارا، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون وهم متردّدون بين فتح الطريق في البرّ أو فتحه في البحر من شدة وعيهم بأنهم بين خيارين أحلاهما مرّ؟ أليست فكرة رائعة أن أمشي ونعلاي بيدي وبنطلوني مرفوع إلى الركبة، قدماي في الماء إلى الرسغ، أدور حول هذا البحر الذي عشت كثيرا على ضفافه، أملأ عيني من تعرجات شواطئه الجبلية وشواطئه الحجرية، شواطئه النظيفة وشواطئه القذرة... الفارغة والمكتظة. ويوم أكمل تأمّله من كل هذه الأماكن أشرع في دورة حول الذي يصفونه بالأحمر ثم الأصفر، ثم المحيط الأول والثاني والثالث. ثم

أنهـي البرنامـج بالمحيـط الأبيـض، وهـو علـى مـا يبـدو أبيـض فعـلا خلافـا للبحـر الـذي أعـرف والـذي أشـهد أنـه أزرق. كل هـذا وأنـا في مأمـن مـن غضـب نبتـون، أحمـد مـن يتوجـب لـه الحمـد أنـني لسـت الغريـق بـل أنـني في مأمـن حتـى مـن البلـل. علـى ذكـر المشـي، ليسـمح لـي بنقطـة نظـام بخصـوص وسـائل الاستكشـاف المتوفـرة لنـا. لم نخلـق بزعانـف للغـوص في أعمـاق البحـر ولا بأجنحـة للتحليـق في السـماء ومـع ذلـك اخـترع الأغبيـاء مـا لم توفـره لهـم الإدارة العامـة وهـي الأعلـم بحاجتنـا. بجـدّ، هـل ثمـة أصلـح للاستكشـاف مـن المشـي؟ يقـال إنـه أنفـع للصحـة مـن التدخـين والحلـوى والتنقـل علـى أكتـاف العبيـد وركـوب الليموزيـن الفاخـرة. كل هـذا لا شـيء بالمقارنـة مـع فوائـده الأخـرى. مـن مزايـاه الكثـيرة أنـه مجانـي وتحـت الطلـب في أي وقـت نشـاء وخاصـة أنـه فرصـة للاختـلاء بالـذات. لا أتذكّـر أن فكـرة هامـة أتتـني إلا وأنـا أمشـي، ولا أعـرف أن الفوضـى الـتي بداخلـي اكتسـبت بعـض النظـام إلا إبـان المشـي. يكتبـون بأيديهـم وكل مـا كتبـت كان برجلـيّ. أضـف لهـذا أنـه إبـان المشـي، تسـقط جـل الحواجـز المرفوعـة بـين الآدميـين لأنهـم لا يكونـون وجهـا لوجـه، وإنمـا جنبـا لجنـب، ومـا أكثـر فـرص المواجهـة بـكل أخطارهـا، ومـا أنـدر فـرص "المجانبـة" بـكل مـا توفـره مـن متاعـب الخصـام. لا خيـار للفـرار مـن العـالم غـير الركـض ولا إمكانيـة للقائـه غـير المشـي وأحسـنه الأكثـر بطئـا. كـم كان أوائلنـا محظوظـين والعـالم يكشـف لهـم روائعـه خطـوة بعـد خطـوة، وهـم كمـن يتذوقـون أفخـم وليمـة، لقمـة بعـد لقمـة، حتـى وإن غصّـوا بهـا أحيانـا.

*

هـل ثمـة أحسـن مـن النهـر لاستكشـاف العـالم والطريـق عليـه يكـفّ عـن الطلـوع والهبـوط بـل ولا يكلّـف أدنـى جهـد. تأتيـني عليـه دومـا حالـة مـن الارتخـاء اللذيـذ وأنـا أسـتعرض في هـدوء وأمـان الانسـياب الهـادئ لمـا يتزاحـم علـى ضفتيـه مـن مشـاهد. نعـم، هكـذا كان علينـا أن نعبر الحيـاة : جلوسـا علـى كرسـي مريـح والطريـق هـو الـذي يتحـرك ببـطء نتأمـل مـن بعيـد– وفي أمـان– روائـع العـالم وفظاعاتـه.

يمازحني مضيّفي ابن البلد:

– هيا يا رجل، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

– كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوره بهذا العرض!

– لهذا تسمّيه اللهجة العامية «البحر».

– ألا تعتقد أن أهـم تحـدّ طرحـه النهـر علـى أجدادنـا طيلـة مئـات آلاف السـنين لم يكـن طولـه وإنمـا عرضـه. تصـوّر كـم منهـم وقفـوا حائريـن أمـام هـذا الحاجـز السـائل تتعقبهـم الكواسـر، وهـم لم يأخـذوا بعـد دروسـا في السـباحة .

– حتى طوله أرهق الكثيرين وهم يبحثون عن منبعه.

– المنبـع ! لمـاذا لا تديـر اتجـاه الـزورق نحـو الجنـوب إلى أن نصلـه ؟ الطريـق سـهل لأول مـرة، فلمـاذا لا نغتنـم سماحتـه. نعـم، لنركـب ظهـر هـذا الحمـار الوديـع ليحملنـا إلى حيـث وُلـد وُلـدت معـه حضارتكـم. !

- أخذتك في زيارة سياحية لبضع ساعات وتطلب مني أمرا كهذا. أخشى أن نتأخّر كثيرا على العشاء فتزعل «الولية مراتي».

ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص سهولة هذا النهر.

- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.

- تذكّر أن الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزءه العجوز.. كأنّ ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. هذا النهر شيء جد مختلف في شبابه وطفولته أو هو يتشكل في رحم المجهول.

- نهر مؤدب كهذا! مستحيل.

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا بك لمستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرّك برجليك وسط أنيابه ومخالبه.

- التماسيح ؟

- والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلت لنفسي: أخيرا وجدت الجزء الآمن من الطريق، وتقول لي: لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيب، ماذا سنفعل الآن بالآدمي وقد توقّف به النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض تترصّد تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظره البشر آكلو لحوم البشر.

- لا خيار له سوى أن يسبح بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظره أسد فارغ المعدة نافذ الصبر... وإن نجا بجلده، عليه مواصلة التوجه دوما نحو المجهول .

ترمي أشباح داخل فضاء خيالي بنفسها في الماء متجهة نحو الأحراش لمواصلة البحث عن المنابع. الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا آخذ المترو كل صباح لأسمع تفاهات الناس وهم يصرخون في نقّالهم!

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبثّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه المستنقعات وهذه الأدغال التي لا نعرف لها بداية أو نهاية نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

- يا رجل، رحمة بالآدمي! اختصر. ما الذي حصل للمسكين وهو يواصل بحثه عن أصل الشيء ؟

- ضاع في ألف اتجاه. لكنه لم يكفّ عن الترديد: ما هي إلا بضعة آلاف من السنين قبل أن أكتشف هذا المنبع اللعين، ماذا يظن نفسه هذا العالم ؟

ثمة في طباع هذا النهر وهو يسرع ويتباطأ، وهو يتثنى، شيء يذكّر بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمى «أوكافانقو» الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف أين ينتهي معرفته متى يبدأ.

المهم أن الآدمي سمع بعد قرون من الضياع في الفيافي الشاسعة الخطرة ببحيرة تقول الشائعات إنها المنبع الذي يبحث عنه.

– لا تطل، اسم البحيرة التي ولد فيها أب الحضارات ؟

– بحيرة! قل: بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. يقال أنها الخزان الرئيسي. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع "البوزل".

– متأكّد أن كلللل القطع جمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق يحرّم أمرا كهذا.

– ثمة صور التقطت من الفضاء وكم من برهان آخر.

– طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به البحيرة الأمّ لتلد النهر؟

– من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها معروفة وموثقة.

– وقبل ذلك.

– ماذا تقصد؟

– فهمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟

يضحك مرافقي.

– في السحب طبعا. أتصوّر صعوبات رسم خريطة تدفق السحاب ومسار ما يخرج منها من قطرات لتتجمع على قمم الجبال ثم تتفرق نازلة عبر كم من طريق نحو البحيرة التي يدعون أنها المنطلق وهي مجرد محطة تلقّ وتوزيع. .

– لتصاب بنفس الدوران الذي أصابني وأنا أسمع الخبر لأوّل مّرة. مما يقوله أهل الذكر أن كل الماء الذي يغمر هذا

الكوكب ...الذي هو سائل وجامد وبخار..كلّه، جاءت به النيازك من أعماق الفضاء وهي ترجم هذا الكوكب اللعين طوال مليارى سنة على الأقلّ .والآن تخيّل لك ردّا عن سؤال : من أين ينطلق هذا النهر؟

– بهذه الكيفية متفق معك أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبعه. محكوم علينا أن نجهل دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة.

– منها من أين يأتي كل هذا الماء ؟...السؤال الذي ولّد بقية السلسة : من أين أتى هذا العالم ؟ من أين أتى الزمان ؟ أليس النهر هو الذي ثبّت لنا كبرى تصوراتنا عنه... مثل انه يسيل بلا انقطاع... أن له وجهة اجبارية ...أنه يتحرك حسب إرادته لا حسب هوانا ...أنه لا قدرة لأحد على تثبيته في نقطة ولو أوثقته بكل سلاسل الدنيا والآخرة.

- رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة أخرى. ما رأيك أن ندير الآن وجهة الزورق لنقطة المصبّ.

- وبعد وصولنا ؟

- نذوب، نتلاشى، نختفي فيه، أليس هذا هدف كل مسافر وحتى هدف هذا النهر ؟

- لست متأكدا أنه مستعجل لوصول أخر نقطة من طريقه بل اعتقادي أن هذا آخر همّه. قد تكون أول خشيته وصول المصبّ ومن ثَم حبّه للتعرّج واللفّ والدوران... هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطّا مستقيما؟

- طيب لنتبع بعض تعاريجه .ما زال أمامنا بعض الوقت.

- أمامه هو الذي قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن... أما نحن فعلينا الاسراع للبيت. مؤكّد أن «الولية» تزفر من الغيظ أمام أكل بارد بائر.

أتوجّه لرفيقة الطريق مداعبا ومستفزّا.

- من الظلم أن تتمتّعوا وحدكم بمثل هذه المناظر الخلاّبة وأن تتركوا لنا صحاري قاحلة، بدأت أخطّط للغزو والنصر المبين. المشكلة أن جمالنا لا تعرف السباحة، كيف لها عبور هذا المحيط الذي حفرتموه تحسّبا لكل غزو؟

- أخذتم الصحاري الصفر بنفطها وأخذنا البيض بمائها. قسمة عادلة.

يتعالى مني سباب من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماته :

- ما هذا الذي لسعني؟

- سيّد المكان.

- انظري كم انتفخت يدي !

- مصرّ على غزو غاباتنا؟ لست ضد الفكرة، فسيّد المكان هذا يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما.

- يا بنت الحلال، أقسم أنني كنت أمزح. قولي لي على الأقل من هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلّفنا أصحاب الأرض الأصليين، اسمح لي بأن أقدّم لك "المارنجوان" : البعوض الأكبر.

- بعوض! تسمّون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ طمئنيني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضادّة ل... ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجدّدا إلا مسلّحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى. سأحتجّ على وكالات الأسفار. ما هذا الغشّ؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنّة والحال أن النزاهة تفرض وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة. إنها عملية تحيّل موصوفة.

على فكرة، ليس من حق قرائي في المستقبل الشكّ في ما أروي محتجين بأنهم لا يعرفون للغابات وجودا. ليعلم قرّاء الحاضر والمستقبل أن كل ما أصف موجود في زمني هذا وحتى الغابات. أغتنم الفرصة للتذكير أيضا أن خرائطي هي للديكور الحالي فالعالم بكامل مكوناته لا ينفكّ عن التغيير: نعم، الذي أصف هو الذي ورثته عن تاريخ مغرق في القدم وأؤكدّ انني عرفت فيه غابات بل مترامية الأطراف كالتي سأروي فيها ما وقع لي فيها.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال.

– لا تعجل بالاتهام واللّوم . كل ما هناك أنّك أتيت في فترة انتشاره وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

– تقصدين أنه انتظرني حولا كاملا وأنه ترصّد قدومي ونصب لي هذا الكمين... الله الله على ضيافتكم.

عالم لا موطئ قدم فيه إلا وحولك كائن يخدش أو يقضم أو يعضّ وإنْ لم يجد ما يمتصّه منك، أصدر طنينا مزعجا أو رائحة كريهة لمجرّد المضايقة.

بدأت أراجع حماسي الأول وانبهاري بهذه الغابات الكثيفة وبالبحيرات الزرقاء التي تنعكس على مياهها الوديعة قمم مكللة بالثلوج... قناع جميل آخر لنفس اللّيث البارز الأنياب وأنت دوما تحسبه يبتسم.

أقفز من جديد وأفظع الشتائم تتدافع مجدّدا على لساني:

– بجدّ، كأنّ لهذا اللعين مشكلة شخصيّة معي، عجّلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيّرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

– نعم سنعود لها شريطة أن نجد الطريق..

– تمزحين!

– الظاهر أن «المارنجوان» مصرّ على بقائك تحت تصّرفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤشّر لاتجاه النزل. أنظر مليّا لعلّك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

– وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار، قد أكون مضطرّا لمصّ دمك أعوّض ما يأخذه مني فيلكم الطائر.

بعد فترة ،تبسط مرافقتي خريطة على الأرض منهمكة في دراستها، وأنا كالعادة مشغول بالتمعن في الأشجار القصيرة، أبحث عن شيء يؤكل، فلا شيء أهمّ في مثل هذه الغابة من حبات حمر وسود لذيذة الطعم. أخيرا القرار: من هنا. ليكن، على كل حال لا أجهل منّي بقراءة الخرائط علما وأنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح.

أبادر المرأة المستغرقة في حيرتها مازحا:

– كم جهدا ووقتا أنفقنا لرسم خريطة غابة ولا أحد فكّر في خريطة العالم. تستغربين بعد هذا أن يمتلئ بالتائهين.

بجدّ، من تسلّم عند الإفاقة الوثائق الضرورية للرحلة؟ ألا نقضّي عمرنا في مزج قطع» البوزل» التي جمعناها ببالغ الصعوبة من هنا وهناك فلا تتجانس بينها أبدا، والحال أننا بأمسّ الحاجة لصورة واضحة عما رمينا فيه.

– دعني أتخيّل رحلتك وأنت تتوفر منذ لحظة الوصول على خرائط المعالم التي يجب زيارتها إضافة لتعليمات واضحة بخصوص المهمة التي بعثت من أجلها ولوسائل تحقيقها بنجاح.

– بالضبط . أليس وضع المرتحل شبيها بوضع سائح يفيق في محمية افريقية وهو عار، جائع، خائف، جاهل من يكون وماذا يفعل في هذا المكان، وما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي سيقودنا للهدف المجهول.

– أضف لمصاعبك خرائط المزيفين. ربما سمعت أن الاسبان في عصر الاكتشافات البحرية كانوا ينشرون خرائط كاذبة محتفظين لأنفسهم بالصحيحة ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أوروبا.

– هذا ما اضطرّ فرانسيس دراك لسرقة خرائط ماجلان حتى يجد مثله الطريق من الأطلسي إلى الهادي. المشكلة أنني لا أستطيع سرقة الخريطة التي أريد لا من برتغالي ولا من إسباني ولا من أيّ آدمي آخر. وضع غير مقبول يجب إنهاؤه. مرة أخرى يجب أن أتحمّل مسؤولياتي

– آه! هل مِن سَبْق تخصني به ؟

– ما أقصده بالخارطة صورة شاملة للعالم بدأت ملامحها تتضح لي. عالم هيكله ثلاث أو أربعة فضاءات تتمازج كما الماء والقش والطين وفيه فضاء افتراضي لا اعرف هل يجب ...

– لا أفهم شيئا.

– لا أفهم أحسن منك. بانتظار أن تتوضّح الرؤيا نواصل الشكوى من العالم .إضافة لغياب الخريطة العامة، هناك غياب الأدلة أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ هل عرفت لمثل هذا الجنس أيّ وجود؟ الغالبية العظمى من «با» و«ما» وسيدي الشيخ وسيدتي المعلّمة، مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الحريف المسكين. بل وفيهم، ولو أنهم أقلية، من يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مصبّ البلدية ، ، أو يدخل به أوّل سوق لبيعه بمقابل بخس، أو يجعل منه عبدا، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز الاضطلاع بمهمته. كيف لا نقضّي جل حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلة هم أنفسهم بحاجة إلى الدليل؟

ما زال على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)
لا يوجد في الدرب دليل هـــاد
كل متمسك بفـــــــرع واه
والدهر على نظامه المعتـــاد

أعـود لمعابثـة رفيقـة السـفر، أحـاول تهدئتهـا وأنـا أصـبّ مزيـدا مـن الزيـت علـى نـار قلـق متفاقـم.

– الأغـرب أنهـم كتبـوا دليـلا للعـالم الآخـر قبـل أن يمدونـا بالـذي نحتـاج في هـذا العـالم. تصـوري وصـول الرضيـع وأولى الهدايـا النافعـة دليلـي هـذا بـكل الخرائـط الفرعيـة وبتعليمـات واضحـة لحسـن الاسـتعمال. مـا إن يفتحـه مسـافرنا الصغير إلا ووجـد فيـه كل مـا يريـد معرفتـه عـن طبيعـة وشـكل هـذا الـذي يرتحـل فيـه، ناهيـك عـن التعاويـذ الضروريـة لسـفرة آمنـة.

– التعاويذ؟

– كتـاب الموتـى خارطـة الطريـق الـذي يصـل بمسـافر العـالم الآخـر إلى الخلـود لكـن أيضـا تعاويـذ يقرأهـا الميـت المسـتيقظ ليقـي نفسـه مـن الشـياطين والثعابـين والخنافـس وكل الكائنـات المخيفـة الـتي تترصّـد بـه. سـأعتمد نفـس المنهجيـة في دليلـي لمواجهـة شـياطين الحيـاة وبقيـة مشـاكلها. مثـلا التعويـذة رقـم 86: «ابرادابـرام باتـو باتـتي يتـاى متغقـى» إنهـا التعويـذة ضـد العبيثـة. هـي تصلـح أيضـا ضـد الأطفـال الأشـرار الذيـن يضربـون زميـلا يغـارون منـه. ثمـة أيضـا التعويـذة 98: "لايانايـع لايـس». هـذه لوجـع الأسـنان والاسـتبداد والقبـح والغبـاء وغـلاء الأسـعار والحـيرة الميتافيزيقيـة وحبـوب البشـرة للمراهقـين وترهـل الثديـين لمـن تجـاوزن عمـرا معينـا.

– وتعويذة 987؟

– هذه ضد الشرق الأوسط؟

– الشرق الأوسط!

– تخيلـي نقاشـهم: غريـب، لم أعـد أسمـع أخبـار الشـرق الأوسـط وهـو في كل نشـرة منـذ نصـف قـرن... الشـرق الأوسـط؟ لم أسمـع يومـا هـذا الاسـم، هـل هـذا ملهـى ليلـي لا أعرفـه؟ أتسـخر مـني؟... أنظـر علـى الخارطـة... أنظـر أنـت... اللعنـة، أيـن ذهـب الشـرق الأوسـط؟... أنـا متأكـد أنـه كان هنـا بمشـاكله المقرفـة الـتي لا تنتهـي... هـل جننـت؟ هـذه محميـة طبيعيـة لا يوجـد في صحاريهـا إلا البعـير الوحشـي وغابـات الأرز فـوق القمـم، وهـي ممنوعـة علـى السـكن منـذ قـرون بقـرار الحكومـة العالميـة.

– هكذا ستعبر الطريق ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك.

– بالضبـط. انتظـري. جاءنـي خـوف مفاجـئ .ربمـا غامـرت بالسـخرية مـن كتـاب الموتـى. تصـوري إفاقـتي في العـالم الآخـر لأكتشـف أوزيريـس وهـو يحـدّق في بحقـد: مـاذا فعلـت بالشـرق

الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا؟ تتجاسر على أربابك يا نزق! لن يأخذ وقتا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة. إلى الربة أميت لتمزّق أشلائي وتلتهم روحي رامية بها إلى الخواء.

– واصل ...هذا الهذر اللطيف...ما دام يخفف من قلقك .

– نعم سأواصل وقلقك لا يقلّ عن قلقي .كم من مشاكل تطرحها عليّ خريطة الخرائط هذه وهي لم تر بعد النور ! كيف سأحفظ حقوق الملكية في عالم مكتظ بالناسخات والمزورين؟ هل سأبيع منها طبعة موجزة بثمن خاص للطلبة والفقراء؟ هل سأطرح للسوق نسخة مبسّطة للأميين وأخرى «بالبرايل» للمبصرين؟ إنها مشاكل واجهها واضعو كتاب الموتى. ما يشجّعني أن منهم من أصبحوا أغنياء. يجب أن أدرس تقنياتهم.

تهزّ المرأة كتفيها. تعود للتحديق في الاتجاهات الأربعة بانزعاج لا تحاول إخفاءه. أواصل محاولة التخفيف عنها وعني

– تقصدين أن السوق زاخرة بخرائط من سبقوني، أن الآدمي المسكين مثل سائح تقدّم له عند دخول محمية طبيعية عشرة خرائط متناقضة. لكن «ما» وأنا متأكدان أن خريطتي أنا هي الصحيحة.

–طبعا.

تستغرق المرأة في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في فتح "الترموس" وارتشاف القهوة الساخنة جالسا على جذع شجرة ميتة أتأمّل الآدمي أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفجّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج.

ظهور العلامات التي تسبق الهستيريا عند النساء والعنف عند الرجال. ضرورة محاولة تهدئة.

– أقصّ عليك طرفة عن آخر مرة ضعت فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال كسبا لما يسمح بمواصلة التوغّل فيه حتى أتأكّد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب فيه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي للكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب . لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ لا شكّ أن زوجها حاول هو الذهاب إليها فكلنا نحمل نفس الحنين إلى أصولنا، لكن أنثاه هي التي منعته من الأمر لتأخذه رغما عن أنفه إلى الكنيسة. أنتن سبب خروجنا جميعا من الغابة لأنكن دوما بحاجة لحلاق وخياط وكاهن. ليس من قبيل الصدفة أن تكون الحضارة كلمة مؤنثة في كل اللغات.

– عد للموضوع وحاول إخفاء جنسويتك المقيتة.

– اضافت المرأة الطيبة : نعم قضّي لك يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمرة... ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد... هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

– نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومربى. واصل .

– ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا، لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقنص، أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدّت لي بالقفة مبتسمة، فقلت في نفسي : ماذا لو طلبتها أن تعطيني أيضا أحمر الشفاه لأصبغ به جسمي وأخرج للغابة عاريا. يجب أن أطلب أيضا رمحا وقوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي ؟ آثرت الصمت وتوكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستفزّ آلهة الربوع، المحلية منها والمستوردة. خرجت إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعنها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ماذا يحببكم في أكل هذه الفاكهة فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبت مثل البرتقال والتين والزيتون وكل الأشجار التي تحترم الآدميين على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام منهم أن تنبت على شجيرات قزمة ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري. مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلا. فجأة انتبهت أنني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و«ما» في طرفها الآخر لا تستطيع لي شيئا. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الآدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ : النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطولا لاختيار أنسب اتجاه ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبت على قدميّ منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرق يتصبّب منّي مقرّرا أن الاتجاه الصحيح علي يساري. كلاّ إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا «أودان»، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

– ووجدك البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها ؟

– يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل...الملاعين لم يتركوا لنا إلا الطرق المعبدة والحافلات المكتظة.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا.... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

–سهوت. واصل.

كانت الغابة التي ضعت فيها مكانا مروّضا شق فيه الآدمي ألف مسار، لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفست الصعداء وبقيت أمشي إلى أن خرجت. طبعا في الاتجاه المعاكس للمزرعة. لم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث

عـن الأعـذار. اسـتقبلتني مسـتخدمتي بلامبـالاة مـن لا يعـرف في أي جهنّـم كان الآخـر يتخبّـط.

– مالك ممتقع الوجه؟ لماذا تأخّرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

– أخذهمـا الـدبّ. لا أخـرج للدببـة في جبـل بوقرنـين إلا بالرمـح، وترسلونني هنـا لـكل الأخطـار أعـزل، سـأقول كلّ شـيء لـ«ما».

يومها ضحكت المرأة الطيبة :

– آه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفّارة وقبعة صفراء.

تنفجر مرافقتي بضحكة متجهّمة :

– هـذه ليسـت غابـة صغـيرة تحاصرهـا الحقـول. إنهـا تمتـدّ مئـات الأميـال في كل اتجـاه... إنهـا... غابـة حقيقيـة.

– من الأزل وطن السحر وموطن الساحرات... آخر معقل للثوار!

ترمقـني مرافقـتي بنظـرة سـاخطة لا تخفـى دلالتهـا: لـولاك أيهـا الغـبي لمـا وجـدت نفسـي هنـا، الله يلعـن اليـوم إلخ.

تعود للحديث تفتعل استعادة السيطرة على أعصابها.

– حظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

– لنتنفّـس إذن بهـدوء، ولنعمـل الفكـر لتحديـد الاتجـاه الصحيـح، ثـم نمشـي في الـذي اخترنـا؛ لا نحيـد عنـه قيـد أنملـة.

–كفـى تحذلقـا. انتبـه لعلامـات الطريـق. لقـد رسمتـه، بـل قـل نقشـته علـى أرض الغابـة الخطـى المسـرعة لأجيـال مـن المغامريـن الحمـر والبيـض. أشـعر أنّـه قريـب جـدّا منّـا.

– إن رأيته فسأفتعل أنني لم أره.

– لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

– أنت في ورطة، أما أنا...

– لوجه الشيطان اصمت، هذرك هو الذي سها بي عن تقاطعات الطريق.

التقاطعـات ! أكـبر مشـاكلنا مـع هـذا الطريـق اللعـين.. أذهـب يمينـا أم يسـارا ؟ أرجـع الى الـوراء أم أبقـى سـاكنا بانتظـار التقاطـع المقبـل ؟ كيـف الخيـار وجـل مـا تعـرف عـن الطريـق وتقاطعاتـه مصـدره التائهـون أمثالـك.

يتواصل المشي وسط ألياف وأغصان شرّعت في الوجه سيوفا.

– لمـاذا لا نضيـع هنـا بقرارنـا لا بقـرار حـادث غـبي ؟ قـد ننجـح في تربيـة هـذا «المارنجـوان» السـمين لتغذيـة كل أطفالنـا، ففيـه مـا يكفـي مـن الـدم والبروتينـات. تصـوّري مـاذا يمكـن أن نفعلـه بأطفـال لـن يجلسـوا أبـدا أمـام تلفزيـون أو حاسـوب؟

– سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية «السندويشات» وآنذاك حدثني مجدّدا عن رغبتك في العودة إلى جني ثمار الغابة ولبس جلود الحيوانات. حدسي يقول لي أننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

– اكتشفي أنت هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطبل الحضارة، أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء، خاصة وأن لي شاهدا.

– وما حاجتك إلى شاهد إن أردت الاختفاء؟

– هل أنا مجنون للاختفاء دون ترك علامات تضع من يبحث عني على الطريق؟ ألا تعرفين أن الآدمي لا ينظّم اختفاءه إلا ليثير في الناس فضول الجري وراءه؟ كل ما نفعل تمثيل على أنفسنا والآخرين، والاختفاء لا يشذّ عن القاعدة. لكنني الآن صادق قليلا، أو على كل الأقل أكثر من المرات الأخرى.

تهزّ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

– الليل يداهمنا! يا يسوع!

– نعم لنصلّ ليسوع. سمّره ثم اعبده. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلينا، ماذا نفعل ؟

– عمّ الظلام وهدّني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا الهي الغابة ليلا ولا نار تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

من أين لي طمأنة المرأة الخائفة وشجاعتي تمثيل ...،إذن هذا هو العالم الذي جربه الأوائل كل الليالي...، هكذا هو عندما يلبس أوحش قناع...، هكذا هي الأحاسيس البكر وأنفاس الموت ساخنة على العنق المتصبّب عرقا باردا.

نوم متقطع مضطرب ينهيه تسلّل فجر حذر.

– نعود من حيث تفرّع الطريق ونجرّب الاتجاه الآخر. آه لو أخذنا معنا على الأقلّ بوصلة!

–عادت الابتسامة لشفتيك.

– أخيرا، ها هو الطريق يا يسوع، نهار وليلة ونحن ندور في حلقة مفرغة!

– أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة الشكل الحقيقي لكل طريق؟

– كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ ساخن وفنجان قهوة وسيجارة و"بفتيك" بحجم ملعب تنّس.

– شهية طيبة، أما أنا فعائد أدراجي. ما أعمق ما عشت هذه الليلة. ما زال لديك وقت كاف في هذا التقاطع لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الوراء.

– خذه أنت.

- يا امرأة لا تفعليها فيّ. تعالي، كوني بنتا طيبة. من سيطبخ لي «المارنجوان» ويكوي جلود الحيوانات التي سألبسها ؟

- لو كنت تعرف على الأقلّ كيف توقد النار !

- نسيت كيف كان يفعل الأوائل، ولم أتمعّن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي في، سأعيد الاكتشاف الأعظم.

- شكرا على دعوتك، والآن تدبّر أمرك.

- كيف أتدبر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.

- هذا شغلك، أما أنا فمهرولة للنزل. واصل أنت الطريق الذي تختار.

- تقصدين أواصل الطريق الذي اختارني.

- إلى هذا الحدّ تؤمن بالجبر ؟

- موضوع قد نخوض فيه أمام «البفتيك» الذي تعدينني به، شريطة أن تسرعي بوصولنا للنزل. آه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفّارة وقبّعة صفراء.

*

من جديد، يبسط الطريق إغراءاته أمام الماشي يعد باستكشاف معلم جديد لا يقلّ فخامة عن كل التي وعد بها ولم يخلف الوعد. المشكلة أن وعوده دوما باهظة الثمن وهذا الطريق الذي يتسلّق الأعالي لا يكذّب القاعدة . هو يمتحن الآن فيك قدرات أخرى غير الصبر على دوار البحر وعضّ المارنجوان...دائما ليتأكّد أنك بعطاياه جدير.

تتمرّد الرئتان وقد أصبحتا تتنفسان الماء بدل الهواء. يصرخ القلب أنه على وشك إعلان الاضراب العامّ. يحتدّ الصداع ويتفاقم الغثيان والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس وكأنها على سطح كوكب من مجرّة العقرب. لم يعد أمامي من خيار غير رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بثقل عمود من الرخام أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثّر.

في مثل هذه الحالة يجب أن تردّد لنفسك حتى لا تستسلم: ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى ثم خطوة أقسم أنها الأخيرة. من كان يتصور عند الإحرام أن الطريق سيكون بمثل هذه المشقّة !

يتوقف بي اللعين دون سابق إنذار، لا لأنه انتهى، وإنما لأنني أنا الذي انتهيت.

يا إلهي ثمة رحالة طلعوا إلى قمم تتعالى على هذه القمم التي هي في نظرهم هضاب ؟ يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الآدمي وكل عقبة مآلها التذليل والإذلال ! لكن يا للأوباش ، تنعموا بكل هذا لم يتركوا لي إلا طريقا مكتظّا بباصات السواح !

كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الجبال المرعبة لا نعرف أين تنتهي داخل السحاب، نكاد نهلك فيها ارهاقا وجوعا وعطشا.... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

لألتقط أنفاسي وأغتنم الفرصة لتأمل كيف هو الطريق من هذا العلوّ.

نتخيّله كخطّ وهو شبكة رسمتها على البسيطة أقدام الحجاج والغزاة والصيادين والمهاجرين والمغامرين والسياح وتجار العبيد والتوابل والحرير والجواسيس والمتشردين والتائهين والمبشرّين والفارين من السجون والراكضين وراءهم وقطاع الطريق والمهربين ومن كلّ تدافع من الآدميين على مرّ التاريخ لبسط سلطانهم على الامتداد. أي مخيّلة قادرة على استحضار أشباح من تتابعوا على هذا الطريق وأعطوه الوجود والشكل. ثمة أيضا الآثار التي رسمتها غزلان تركض عبر الأحراش وإبل تمشي بكل وقار وخيل وبغال وحمير سجينة تنوء بأثقال سجّانيها، ناهيك عن آثار دبيب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ .

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص و يا دليل الأبطال نحو جنات الخلد، أنت الذي يعرف محو الخطى، امح آثاري.

والآن إلى عكازي من جديد والهدف اصبح على بضعة مئات من الأمتار سأقطعها ولو زحفا على البطن.

الخطأ الكبير لأغلب المرتحلين توهّمهم أن هناك محطة سيضعون فيها رحلهم نهائيا، والحال أن كل ما يوفره الطريق استراحات نادرة متقطّعة تأتي على غير انتظار. أمّا الخطأ الأكبر فعدم الانقضاض على ما يجود به العالم فجأة والعطاء عنده كالبخل بلا حدود.

كم وقف عند هذا الجبل من رهبان وشعراء ساعات وأيام بانتظار انقشاع الضباب لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ... ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة.

منهم من جاء ولم يرجع أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة لشيء أو أحد. كل من حملهم الطريق إلى هنا حجاج مثلي لم يأتوا للتسوّل أو للتسوّق، وإنما للحظة اللقاء هذه.

انبهار بكر. انبهار كل البدايات. هنا كفّ الطريق عن كونه طريقا ليصبح الطاو الذي يقودنا ويوصلنا لسدرة المنتهى... غريب أن الآدميين الذين يصفقون لأتفه الأسباب لا يصفّقون أمام مشاهد العالم صارخين : برافو الله!

كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!

جبل الربيع شفاف الاغراء كانه يتبسـم   (كيـوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كانه يقطر مطرا

جبل الخريف ساطع اللمعان كانه يتـزينّ

جبل الشتاء بعيد لا مبالي كانه نائـم

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذ له من رسوم. أروع ما فيها تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه والضباب الركن الذي لا يغيب في أي لوحة. العنصر القار الآخر أشجار متفرقة لا تكاد تلحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوما شكل لا يكاد يُلحظ لآدمي يفضَل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.

رؤى مجنونة وغبية تجعل من الآدمي كائنا خارج وفوق الطبيعة – هذا الاسم الآخر للعالم – والفنّ أبلغ من يعيد الأمور لنصابها.

ما الفنّ ؟...تتأملّ لوحات الفنّ الصيني فلا ترى أحيانا إلا سطرا ينغلق على نقط.. تنظر للوحات الفنّ الغربي فلا تحصي ما فيها من كائنات ومن أحداث لا تبتعد كثيرا عما نعرف. ...من أقصى التجرّد إلى الأقصى الامتلاء يبقى الرسم يصول ويجول.... على صعيد الأصوات، تسمع الفنان الصيني يعزف على نايه فكأنه العصفور يشدو. تسمعه ينقر على الأوتار فإذا بخرير الماء حبات لؤلؤ منضود. يدوّي قرع الطبول في السيمفونية التاسعة فيحضر البرق والرعد... تسمع فالسات شوبان وسوناطات شوبرت فيشنّف الآذان التناسق والنظام، لأن الموسيقى، وإن ابتعدت عن تقليد أصوات الطبيعة، ما زالت تقلّد عالما من قوانينه الإيقاع والنسق... لما تنطلق عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع في دنيا الأصوات تعطيك "نشاز" موسيقى ستوكهاوزن وفيبرن...وعندما تكون المادة الخام هي الكلمة ترى الشاعر يرسم ملامح عالم تتكلم فيه الشمس يحزن القمر على العشاق ويسيل الدم الأخضر على العشب القاني. من النسخ إلى المسخ إلى الفسخ يبقى الفنانّ يفتّت ويعيد التجميع وكل همه خلق حالات، إن لم تكن أرقى فعلى الأقل مختلفة عن الموجود في فضاء الحواس...والمحصلة من كل هذا ...أن الفنّ احتفاء الذات بالعالم ...أنه محاولة تقليد خالقه...أنه سعي لإدخال بعض التحسينات على ما خلق...أنه إرادة احتلال مكان الخالق والمزايدة عليه.

يا إلهي ماذا لو كان للعالم لوحات أروع من التي تعرض هنا...جبال أجمل من هذا الجبل على سطح هذا الكوكب أو على سطح كواكب أخرى ! إليها بسرعة أيها الطريق.

*

على الشاشة العملاقة ،يدوّي انفجار يصمّ الأذان. يخيّل إليك من فرط دقّة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهيب النّار يلفحك وبرائحة الدّخان تخنق

منك الأنفاس. تدخل رؤوس بعض النظّارة الأكتاف والصاروخ الجبّار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به كالرضيع بأمّه وهي تهمّ بالقفز فوق الهاوية. تتابع كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدّخان يشق عنان السّماء ليتلاشى منها رويدا رويدا على عادة الطريق في هذه الربوع. ثم ينفصل المكوك عن الصاروخين الدافعين. انتهت عملية القذف وتمركزت الكاميرا في موضع يمكّن الآدمي من القاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض وكان من الأصحّ أن تسميه البحر. خطأ آخر يضاف لإطلاق اسم العالم عليه والحال أنه أكبر معلم من فضائه الحسّي لا غير.

كم ظلموا ذلك المسكين قاليلي! بداهة هذا الذي نتحرك فوق سطحه ليس طبقا كالذي كان يتصوره الطفل ولا يشبه بطيخة أو موزة. أنه فعلا كروي مستدير استدارة البرتقالة والتّفاحة وكرة التنّس والسوار والشمس والقمر بل هو يدور بلا ضجيج.

القصة اليوم أنه كحبة رمل في صحراء اسمها الكون...أنه كان كرة من النار، من الصخور، من الماء، من الجليد ...أنه كان بمثابة اللوحة البيضاء التي تتنتظر ألوان الرسّام ...أنه مرّ زمن يشيب من طوله الزمن قبل أن تنتهي الاستعدادات ليبدأ الفنان المبدع خلق اغرب الكائنات...منها كائن بفظاعة الآدمي تبلورت فيه قدرة القتل والتعذيب والتلويث، كائن بروعة الآدمي تبلورت فيه قدرة التفكير والخيال والفنّ.

يخدعك الصمت الذي يحفّ بكوكب اسمه الأرض –وكان من الأصحّ تسميته البحر– والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكفّ عن الصراخ. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين والجيف من هذا العلوّ ولا إمكانية لتحسس عشب فجر الربيع. إنها فقط وليمة البصر.

على ماذا أركّز ؟ على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف...على البياض وهو كفرو دبّ ألقي على كتفي غانية ...على الخضرة وهي لون الحياة ولون جنّة بني قومي...على الصفرة وهي تضيّق الخناق على نهر الأنهار كأنّها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان...على الحمرة استفردت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل... على السواد يمحو شيئا فشيئا باقة من الألوان؟

ألن يفضح كل هذا النور الذي يرسم خرائط قارات بأكملها مضارب الآدميين لغزاة لهم قليل من الأدب وكثير من المطامح ؟ هذه قارتي المنكوبة بأضوائها الباهتة المتفرقة غارقة في كل أصناف السواد .

من هذا العلوّ الشاهق تتبخّر معالم الطريق فأنت لا ترى الشبكة التي ترسمها الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء أو الزعانف على أمواج البحر. حقا ترى الإعصار المخيف وهو يستعدّ للاعتداء المبين على الآدميين المساكين لكنك لا ترى الحركات البطيئة لجبال ترتفع ثم تتهاوى، لغابات تغزو الامتداد ثم تتقلّص، لصحارٍ تتقدم وتتراجع، لبحار تفيض ثم تجفّ، لجليد يغطي قارات ثم يتقلص إلى بعض البقع البيضاء هنا وهناك.

ثمة من يتنبأ أن سقف الكوكب سيطلى يوما بالأخضر وأن هذه السماء الخضراء ستشرف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين. آه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك.

"تحتي" أكبر رحم... أكبر مقبرة... رحم لا ينفك عن الولادة كارثة بعد كارثة... مقبرة لا ترفض جثّة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل... وهكذا دواليك إلى أن ينتهي هو ...كما سننتهي دون أن نفهم كيف ولماذا.

كم هي بدائية تلك التصورات التي لا ترى في هذا الكوكب المستعرض مفاتنه أمام الأنظار المنبهرة إلا ديكورا وخشبة مسرح تتابع عليه كائنات من طبيعة أخرى برزت من اللاشيء أو من إرادة مجهولة. ما تعمي الأبصار عنه أننا أمام كائن ينبض قلبه قبضا وارتخاء، حرّا وبردا، خلقا وتدميرا، أن ما يتتابع على سطحه من أجناس فلذات كبده، أنها كلها أشكال-حالات من أشكاله وحالاته، كما هو شكل-حالة من أشكال-حالات ما تسميه اللغة الكون...وهذا الأخير شكل-حالة من أشكال-حالات ما تسميه الرؤيا العالم .

والآن إلى أين ؟ خاصة هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا واحدة أفضل من الأخرى ؟

حتى إن فرضنا عليه وجهة كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟ أضف لهذا مشكلة أعقد: عدم ثبات الهدف على مكان. مما يقال أن النجوم والمجرات تتباعد عن بعضها البعض كشظايا قنبلة انفجرت منذ مليارات السنين. وممّا يقال أيضا أنها ستواصل الفرار في كل اتجاه بسرعة متصاعدة، أنه سيأتي "يوم» تغيب عن أنظار بعضها البعض لا قدرة لجار أن يدردش مع جار فصلت بينهما مسافات يستعصي اختراقها حتى على النور.

لنجعل طريقنا يسرع أكثر مما تسرع، يلحقها ثم يتجاوزها إلى أن تتوقف، فيتوقف خطوة أبعد، والكل يلهث ويمسح عرقه. أمامنا الآن فراغ مطلق حالك السواد لا ترمق العين فيه منارة ولم يعد فيه كائن أو شيء أو حدث. أوصد المسرح نهائيا أبوابه. انصرف الممثلون انغلقت العتمة على العتمة وتمازج المصب بالنبع.

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفض عن ظهره آخر راكب. مجدّدا إلى أين ؟ ...إن بقي في مستوى كهذا معنى لسؤال ووجود لسائل؟

ليواصل اللعين إلى حيث يتوهّم هدفا أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة من هذا الموقع على ما تركت ورائي أو تحتي ....صحاري مترامية الأطراف كثبانها مجرّات من كل الأشكال والألوان ورملها كواكب وأقمار وأحجار من كل الأحجام تذهل العقل . هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من هذه المجرّات توجد أو وجدت حبة الرمل التي انطلق منها طريقي وطريق كم من كائن شبيه. هناك جربت الوجود لفترة زمان كانت بمثابة قبس من قبس، شرارة خاطفة انطفأت حال اشتعالها.

من نقطة المراقبة هذه يشمل البصر المنبهر لوحات ليس كمثلها لوحات. كأنّ الفنان الأعظم الذي رسمها أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الاتساع والأشكال ثم رصّعها بلؤلؤ الشموس وفوانيس المجرات. كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدّا، ما يشبه الألم...أن يبثّ فينا شعورا بتفاهة من نقول ما نفعل وما نكون.

سواء انفجرت ملايين النجوم في ما لا يحصى من المجرّات أو انفجر بركان يتيم على كوكب واحد...سواء ولدت ألف ألف حضارة على ألف ألف كوكب أو لم تشهد الحياة زخمها إلا في ذلك المكان الذي نسميه الأرض...سواء جئنا أم لم نجئ...سواء تحضّرنا أو بقينا نتراقص على الأشجار...سواء عشت لحظة أو ألف قرن... سواء أتيت بما لم تستطعه الأوائل أو اكتفيت بالعبور دون ترك أثر ....من هذا المرقب الذي يتضح فيه هول اتساع المكان وهول طول الزمان، تتسطّح كل القامات وكل الأحداث.. تتضح لكل الكيانات ولكل الكائنات قيمتها الحقيقية ... لا شيء.

والآن ما العمل وقد توغّل الطريق داخل مجهول مطلق لا قدرة لعقل أو خيال على مواصلة استكشافه ؟ طبعا أخذه في الاتجاه المعاكس ...العودة بخفي حنين وبغنائم لا تقدّر بثمن إلى الجزء من العالم الذي ألفناه دون أن نعرفه الجزء الذي نحن قادرون على مواجهته، لا نخرّ صرعى الانبهار والرعب.

* * * * *

بنو حريّة وآل ثبات

تنتبه يوما أن البشر – الذين سنضطرّ للأسف للعودة إليهم في فصل طويل خاص بهم –مثل حائط شاهق يمنعك من رؤية بقية الكائنات. يقرّ القرار بوضعهم هم ومشاكلهم مرحليا بين ظفرين (على الأقل المحاولة) للتركيز ولو لمدة على الذين يقاسموننا نفس الفضاء الحسي من بني حرية و آل ثبات.

ثمة أماكن يقال أنهم متواجدون فيه بكثرة وخاصة أن الآدميين حرّموها في نوبة نادرة من الحكمة والتعقل على الاستعمار والجماهير.

يتوجه إلىّ دليل المحمية والفجر مجرّد وعد ووعيد:

– الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل الادارة أيّ مسؤولية في حالة التعرّض لحادث.

أسرّ في أذن رفيقة الطريق الجديدة:

– تتلمذوا على الإدارة العامة التي ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية في ما يحدث لنا داخل محميتها الكبرى.

–شتّ ، لا تخلق لنا مشاكل مع قوى نحن في أمس الحاجة لحيادها خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان

حتى في مثل هذه الأحراش تبقى الأنثى أنثى .

–تتعطّرين هنا !

تضحك مرافقتي

–حتى لا تكتشفنا السباع ، ألا يقال أنها تصطاد بتتبع الروائح. هذه رائحة لن تعرفها وربما ستكرهها فلا تتبعنا.

–على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر حتى للذهاب للأوبرا خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وقد اكتشفنا فضائل الماء على العطر؟

– كفى استفزازا رخيصا.

– أي استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدع الذي يسمونه «الملك الشمس» نفسه كان نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشّا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقرية والبسيطة والرخيصة التكاليف البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. المدينة الجميلة التي أعيش فيها سنوات

أخرى من النفي ، كان المارة لعشرات القرون يضطرون لوضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجنّون على الخنازير وقد عبرتم جل التاريخ ملوكا وعبيدا تعيشون بين وفوق القمامات وبعدها تدّعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية وأن الله استخلفكم على الكلاب والقطط هي التي لم تكن يوما بحاجة للعطور.

– آه، يا عدوّ البشرية!

– كم أجاد الله أو الطبيعة أو من تشائين صنعنا؟. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشمّ ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الآدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا. ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا. مرحى إذن وألف مرحى لقسم الهندسة في اختياره الموفق لأنف محدود الطاقة والمبدأ: استر ما يجب ستره.

يهمس الدليل : رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.

يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز ليتواصل ساعات طويلة لا نرى أيا من هذه «الوحوش» التي جئنا نتطفّل عليها في عقر دارها .

تبادرني رفيقتي ممازحة:

– الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظّا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

– انظر إلى هناك.

– لا أرى شيئا.

– دقّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، أنظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

هل أعترف أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبت البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجل على الدوام... ونزلت من الباخرة أترنّح كأنني شربت هذه الخمر التي حرمها الدين وحرّض الشعر على شربها؟

تقطع المرأة عليّ أفكاري وهي تنهر الدليل:

– أين الحيوانات الموعودة؟

يردّ الرجل متحرّجا:

– المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الآدميون. ما أبرعكم في قلب الحقائق. من عرف منكم جنسا فيه جلادون باستثناء جنسكم؟ من سمع يوما بنمر نكّل ساعات طويلة بنمر آخر؟ لكن ما المصطلح الصحيح لتسميه هذه الكائنات وكل كلمة سبّة؟ ربما «المتحركة غير الآدمية» للفصل بينها وبين « الثابتة غير الآدمية » كالأشجار والنبات؟ مصطلح جدّ دقيق، لكنه طويل، ولا أعتقد أن أحدا سيقبل به لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة. حتى أنا غير راض عنه وهو يجعل منها فرعا بالنسبة للمرجع الذي هو نحن. كل الأمور ستستقيم لو سمّينا الآدميين «الكائنات- غير الحيوانية- غير الشجرية».

تمدّ لي المرأة بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

– ربما وصلنا يوم الاضراب العام.

أيا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها- على ما يبدو- لا ترغب مطلقا في لقائي. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين و فوق الأغصان تزغرد القردة احتفاء بمقدم الصديق الوفيّ. كل هذا الجحود! كائنات لا تسوى أكثر من التي تجسّدت في شكلها ولا احد استشارني . لا ، مؤكّد أن لها أعذارا. كيف لا تختفي عن الأبصار وهي لا تعلم أنني لم آت للقتل البذيء الذي يسمونه «الصيد الرياضي» وأنني من كبار الأنصار والمعجبين ؟

أخيرا يتسمّر الدليل مشيرا إلى مبهم ما:

– سيدي، انظر هناك!

– لا أرى شيئا.

– دقّق النظر، يا سيدي!

– في ماذا؟

– في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

– أه، تقصد هذا الخطّ.

– إمضاء فهد. هيّا. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب.

تختفي رغبتي في ملاقاة السكّان الأصليين، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا فيّ مثل هذا الإمضاء. نعاود التحرّك إلى الأمام والطريق يتوغّل بين أعشاب تحتضر عطشا. يهمس الدليل وهو ينزل بندقيته من كتفه:

– من هنا فصاعدا الكلام بصوت خافت والمشي دوما ورائي. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، توقفا فورا دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهم هنا سبعٌ سائحة انجليزية متهورة.

أهمس في أذن رفيقة الطريق الجديدة :

– من حسن الحظّ أنه التهمها قبل أن تلتهمه. أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حادّ.

– كن جديا، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.

– وهل الذي جئنا منه حقا مختلف؟ على ذكر الصيد هل تعلمي أنه عندنا كما عندهم من نوعين .

ثمة الذي أشبعتنا بصوره الأفلام الوثائقية والتي لن نعرف هوله لحسن الحظّ أو لسوئه . هو يتميّز بضراوة انقضاض الصياد وأناقة مراوغة الضحية، بسرعة مباغتة الأول وسرعة هرب الثاني ، بالحسم السريع، بتجدّد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد أو بالخاتمة السعيدة للآكل والفظيعة للمأكول. على طرف النقيض ثمة صيد تنين الكومودو. ينهض الثور من رقدته في الوحل يدفع عنه هذا الدخيل القميء الذي عضّه في طرف وسبّب له جرحا بسيطا. لا داعي للخوف وهو أضخم عشر مرّات من حرباء انقرضت من كل أرجاء الفضاء الحسي باستثناء هذه الجزيرة النائية. هو لا يعلم أن الدم الذي يسيل منه رسالة تعبق بها الأجواء تدعو بقية القطيع من الزواحف الكاسرة للتجمّع وملاحقته بصمت طيلة أسابيع لا تضيّعه لحظة، تنهشه هنا وهناك وفي كل عضّة تحقنه بمزيد من السمّ الموجود في لعابها إلى أن تخور قواه فيسقط لقمة سائغة فتمزّقه المخالب والأنياب نصف ميّت نصف حيّ. من خبر البشر يعرف أن صيد الآدمي للآدمي يأخذ من تقنيات الأسد ومن استراتيجية تنين كومودو والظروف وحدها من تملي الخيار.

–كلكم تطالبون بالحق في المعلومة ، أما أنا فسأتظاهر يوما في الشوارع مطالبة بحقي في الجهل.

–فكرة رائعة . ستجدين مني ومن أغلب الآدميين كل الدعم .

يأمر الدليل باستراحة قصيرة. يختفي وراء الأشجار ليتبوّل مؤكّدا على ضرورة عدم التحرك بانتظار رجوعه وأنه بوسعنا فعل نفس الشيء لكن تحت حراسته. أقترح على مرافقتي رفع الحرج.

– لا نيّة لي لدخول هذه الغابة، أخشى من إزعاج الفهد. أديري لي ظهرك وأدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع دليل اتضحت لنا أهميته وضرورة التأدب معه وحتى مداهنته بلا انقطاع .

تنهرني مرافقتي بحدّة تفضح ما تخفي من قلق متصاعد خاصة و السماء تتلبّد بسحب كثيفة ترمينا ببعض القطرات.

– تكلّم ، ماذا تفعل بهذا العود؟

– أعابث هذه النملة التي غامرت بتسلّق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجرا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بداهة ليس أسهل من وضعنا.

– تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها. انظر لبعضها وسيحنّ قلبك على الآدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم- على الأقلّ- خلقوا على هامش معاركهم شيئا اسمه «الصليب الأحمر» ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقزّزة.

– تكلّمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله.

– تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

– يا مرأة، أيا كان موقفي الشخصي منه ، أيّ جنس يفوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعملا دؤوبا لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الاخفاق وراء الإخفاق! هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرقّ والحرب. أي جنس آخر لا قائد فيه ويسيّر أموره كأحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل أخرى يمارسها دون حاجة لشرطي أو لنبيّ؟ أليس هذا سرّ بقائه منذ مئات الملايين من السنين؟ فتح انقراض الديناصور الطريق لجنسنا الخسيس وقد يفتح انقراض جنسنا الخسيس كل الآفاق أمام هذا الجنس العجيب؟ من يدري كيف سيكون حاله بعد ملايين السنين، وإلى ماذا سيؤدّي تطوره؟ صدقيني، على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس، لا مستقبل إلا للنمل.

– انتبه، ثمة حركة وراء الشجر...

تسأل مرافقتي الدليل المقبل(ضاحكة) لا تخفي انحسار الخوف وعودة الصلف:

– افرض- بعد الشرّ عنك- أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعا. كيف كنا نخرج من هذه الأحراش؟

– اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيّم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرّك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحراش بلا بندقية وخارطة ودليل محض انتحار.

أجيل البصر حولي وقد اكتسب المكان كثافة أجّجت انتباها كنت أظن أنه وصل أقصاه.

الا يقال أن الطريق انطلق من هذه الربوع أو من أخرى ليست ببعيدة ولا تختلف كثيرا؟

في هـذه الأرض أو في جوارهـا القريـب، صفّـر أحدهـم قبـل مائـة أو مائتـي ألـف عـام أو في زمـن مـن هـذا القبيـل علـى حفنـة مـن الهمـج العـراة أن هنـاك وراء الأفـق خمس قـارات للاستكشـاف، أن الرحيـل سيكون علـى السـاعة الثامنـة وخمسـة عشـر دقيقـة صباحـا بالتوقيـت المحلّـي، أن الركـب لـن ينتظـر متخلفـا دقيقـة واحـدة بحجـة أنـه مـا زال أمامنـا كل الزمـان.

لكـن هـل كان انطـلاق الرحلـة نتيجـة الفضـول الـذي خلقنـا بـه، بحثـا عـن المفاجـآت وعـن المعرفـة؟ أم هـل تحركنـا لأن العـالم أفـرط في قسـوته علينـا بالحـرّ وبالقـرّ، بالجفـاف وبالطوفـان وكأنـه ينخزنـا لنغـرب عـن وجهـه... إلى أيـن ووجهـه كل مـكان؟

المهـم أنـه أجبرنـا علـى التحـرك لا لشـيء إلا لضـرورة الركـض هربـا مـن صيـاد والخـوف يعتصـر منـا الأمعـاء، أو لضـرورة الجـري وراء طريـدة والجـوع هـو العاصـر. ألا يعـني هـذا أن صاحـب القـرار في آخـر المطـاف كان الحيـوان ، أنـه هـو الـذي حـدد لنـا لآمـاد طويلـة وجهـة الطريـق

بدايـة الرحلـة لم تكـن إذا رؤوسـا مرفوعـة شـاخصة نحـو الأفـق وإنمـا مشـي والعيـون مثبتـة علـى الأرض بحثـا عـن أثـر ، عـن جيفـة أو عـن نبتـة تـؤكل. لم تكـن انطـلاق غـزاة لهـم موعـد مـع الغنائـم والنصـر وإنمـا انطـلاق شـراذم مـن الجائعيـن الخائفيـن ضـرب لهـم العـالم موعـدا مـع كل أصنـاف المحنـة والامتحـان .

هنـا سـقط الأوائـل في قبضـة الخناجـر المثبتـة في الأشـداق، يتعرّفـون علـى مطلـق الرعـب والألم... هنـا عاشـوا علـى خـوف سـرمدي حملـوه داخلهـم علـى طـول الطريـق... هنـا مشـوا في صمـت وجـل ، يعصـر الجـوع أمعاءهـم... هنـا تعلـم الآدميـون الملاحظـة والتجريـب كأولى متطلبـات الصيـد، الفـارق بيـن رمـي الرمـح وإطـلاق الصـاروخ تطـور الوسـائل، أمّـا الذهنيـة فالـتي ربتنـا عليهـا باكـرا الأدغـال...هنـا تعلمـوا تقنيـات البقـاء علـى قيـد الحيـاة اليـوم بعـد اليـوم ـ السـاعة بعـد السـاعة... هنـا بلـوروا التنسـيق والتعاضـد والانضبـاط..هنـا ولـد الشـعر والأدب والسـاحر يـروي ملاحـم كبـار الصيـادين...هنـا ظهـرت الحاجـة الماسـة لحمايـة قـوة غيبيـة تقـي الكائـن الضعيـف أهـوال عـالم مبهـر مرعـب..هنـا تشـكلت النمـاذج الأولى للديـن والعلـم والسياسـة، وكـم مـن أشـياء أخـرى يعتقـد السـذج أنهـا ابنـة الحضـارة وهـي حفيـدة الكـرّ والفـرّ، والحيـوان هـو المعلّـم.

يتواصـل المشـي الحـذر ولا كائـن تبصـره العـين يمكـن تحميلـه مسـؤولية صمـت عميـق وصـراخ متقطـع.

عـى فكـرة، مـاذا قـال هـذا الكائـن المجنّـح؟ لـمن توجّـه بالتهديـد أو بالغـزل؟... هـل يغـازل نثـرا أو شـعرا؟ هـل تكـون- يـا طـير- أكـبر شـاعر في هـذه الأدغـال؟... الحيوانـات لا تقـول الشـعر؟... ألم تسـجّل الميكروفونـات المزروعـة في أعمـاق المحيـط لتصيّـد غواصـات العـدو وجـود سجع في ثرثـرة بـني موبيديـك... ربمـا يوجـد بيـن هـاواي وألاسـكا شـاعر فحـل طبقـت شـهرته أرجـاء الهـادي يسـمونه «أبـو الطيـب الحوتـي»؟ الأهـم مـن هـذا كلّـه، بمـاذا تشـعر و في مـاذا تفكّـر هـذه الكائنـات؟ مـاذا تفعـل هـي الأخـرى هنـا؟

أفيق على همس صارخ للدليل:

– انظر هناك!

– أين؟

– تحت قدميك!

– لا أرى خدشا.

– هناك... هناك! ! !

– آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.

–لا يا سيدي قد يكون لوحيد قرن ...لنتتبه ، قد لا يكون بعيدا.

أثر آخر سينمحي قريبا. هو الآثار التي تركتها كلّ الكائنات على الطريق. وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما في خضم كل هذه الأجناس التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة. هم السابقون ونحن اللاحقون. التحسّر نعم، لكن كم رائع أن كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وجدت يوما.

على كل حال المحمية نفسها من الآثار. ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدى عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.

نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا.

–هل تعلمين أن الفيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في البراري التي جئت منها .لكن بشر اسمهم «الرومان» قرّروا أن تكون تلهية الشعب أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون أنه قتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" إحدى عشر ألف حيوان. كانت مئات الملاعب الرومانية على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين– نعم الملايين– من الفيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خلق "بزنس" كامل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. كل هذا ليتبارى أباطرة الرومان ونبلاؤهم في إظهار ثروتهم وزيادة نفوذهم السياسي. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقيين. هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها. انتظري يوم يطلق آخر صياد آخر طلقة على آخر حيوان استجار بهذه المحمية.

من قال علينا تعلّم حماية هذه الكائنات لا لشيء إلا لان ذلك سيكسبنا مهارات تمكننا من حماية أنفسنا.

تفضّل المرأة المرهقة عدم الردّ خاصة والدليل يدعونا لمواصلة المشي.

– سيدي ،أنتبه للبراز اليابس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا آثاره . مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.

انتباه متحفّز ثمنه توتّر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار. ما الغرابة في الأمر ؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال و الظلّ ؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلما نجد صاحبه؟.

بدأ الحرّ والفراغ يؤثّران على أعصابي.

(رافعا صوتي متوجها للدليل المكسوف)

–طيب والآن ...لا أرى خدشا ولا آثار أقدام ولا خرا ! !

– هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار. انظر الآن إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدها.

– عظيم ، عظيم !

نعود للمشي وسط فراغ متزايد الاكتظاظ بالأشباح. تتوجّه مرافقتي إليّ بسؤال يلقى كأنه تهمة :

– في ماذا تفكّر ؟

– في الطريقة التي تفكّر بها الحيوانات والأشجار وتدبّر أمورها لمواصلة البقاء. ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى «تسمانيا»، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. عشرة ألاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتدبيج تقرير له الحدّ الأدنى من الجدّية. آه، لو علمَتني سرّها! يقولون الأشجار والحيوانات لا تفكّر! ألا تأخذ كلها القرار وراء القرار لمواجهة أخطار الحياة ؟ هل ثمة قرار ليس وراءه فكر؟ كل هذا ليتواصل تشبع الآدميين بالأكاذيب التي نسجوها عن نفسهم وأنهم وحدهم من يفكّرون . !

تهزّ المرأة كتفيها ثم تتوجّه للدليل:

– أشرف النهار على الانتهاء. ألا توجد أمكنة تجتمع فيها الآثار بالأخيلة بالأجسام لنتمعّن في بعض هذه الحيوانات اللعينة؟ يبدو أننا بحاجة لمعجزة.

أتكفّل بالردّ لأخفف الضغط على المسكين.

– حسب المصادر التي تتجسّس لحسابي عند الإدارة العامة، ميزانية العالم هذه السنة من المعجزات لن تتجاوز الصفر فاصل واحد في المئة. والآن قسّمي النتيجة على ستة مليارات آدمي يصرخون طالبين معجزة تنقذهم من ورطات لا تتوقف.

– لا أدري من سأخنق أولا، أنت أم الدليل!

– هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدا، أفضّلها على طريقة الذين يتجوّلون في عرباتهم شبه المصفحة على امتداد طريق معبّد والحيوانات عليه كأنها في عرض أزياء. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات من حجم أوسع.

محمية وحديقة حيوانات من حجم أكبر! ما الفرق؟

حوار بصوت هامس لغالبة الإرهاق والملل.

- انتبهي لطبيعة هذا المكان. تتصورينه كآخر معاقل الحرية، والحال أنّ الكائنات التي تعيش فيه في سجن أكبر ممّا يذهب لزيارته الأطفال. حديقة حيوانات وضعت وسط الطبيعة لا وسط المدينة لا غير... ولا وجود لأي منظمة تطالب بالعفو العام وإطلاق سراح سجناء أطول حروب الآدميين. هذه المحميات "بانتوستانات" للحيوان، لا غير. كم تذكّرني بتلك التي وضع فيها بشر سمّوا «الهنود الحمر». يومها قيل أيضا إنهم سيكونون فيها أحرارا.

- تبالغ.

- آخر سجن حيواني زرته حبس بخمسة نجوم اسمه طارونغا بني على هضبة غنّاء تشرف على البحر. كل السجناء، حتى في ذلك الحبس المتحضّر وفي ذلك البلد المتقدم، كانوا هم أيضا محكومين دون أن يمرّ أحد منهم أمام محقّق أو يدينه قاض. المؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي ناهيك عن ظروف إلقاء القبض غير الشرعية! أتذكّر- بمنتهى الوضوح- أحد سجناء ذلك المحتشد الأنيق". كان كلب بحر، جوّع قصدا، يرمي له المروّض بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الآدميين، والأطفال حول المسبح يصفّقون له فيقلدهم سجين الحرب. كلما ازداد مرحه ومرحهم كلما رمى له بسمكة أخرى لتشجيعه على مزيد من التهريج، يجبره على تكلف حركات لا وجود لها في قاموسه وتسوّل غداء منع بالقوّة من البحث عنه في لجّة المحيط. نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز وفيل مخطوف على الرقص وجواد مخصيّ على المشي إلى الوراء. بعد التنكيل يعودون بهم إلى الزنزانة كما كانوا يعودون بي بعد حصص الاستنطاق.

- بهذه المقاييس كلنا مساجين، الفرق اسم السجن ومساحته.

- لهذا أقول بفتح سجون الآدميين للزيارات السياحية، على الأقل ستمكن مداخيلها -بعد خصم رشاوى الإدارة والحراس والقضاة- من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكّد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات ستتدافع للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وبالبذر.

- تبالغ. تبالغ. تبالغ.

- أبدا، صدقيني ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجين وهو يدور في الفضاء الخانق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى

الحيطان، ومن الحيطان إلى القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ثم مجدّدا من القضبان إلى الحيطان، ومن القضبان إلى القضبان فإلى الحيطان فإلى القضبان فإلى الحيطان.

– انتبه، بدأت تتكلم وحدك.

– ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان...

– أعراض ضربة شمس؟

– وجع ذكريات.

– عد إلى طارونغا

– يومها وقفت طويلا أمام قفص الكائن الذي تسميه اللغة «الغوريلا» وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئا باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب. لا فكرة لك عن مدى شبهه بأي رئيس مدير عام بدين خلع ثيابه وربطة عنقه, لحظتها بدا لي الوجه القبيح قمرا أسودَ والشمس من وراء الكسوف تواصل على الحواشي وهجها.

– بالتمعن فيك، أجد فعلا بعض أوجه الشبه. ماذا فعلت بقريبك؟ فتحت له الباب وأخذته للمطعم؟

– تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. لحظتها غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و "الشيء" بما يدع مجالا للشك يحدّق فيّ يسألني: عرفتني، ثم ينسحب بالسرعة التي برز فيها.

من قال : «الآدمي حيوان خان السلك» ؟

– وفي الأخير انصرفت مضيفا لجعبتك من الأوجاع حزن الغوريلا على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وجدت في هذا السجن حياة آمنة لا يتهدّد نومها زئير الأسد؟

– والوجبات الثلاث مضمونة، لا تعب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا ذلك الغوريلا الكئيب وحتى ذلك الأسد الذي ترمى له أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه ؟

من يدري كيف هو حس الكرامة عند الأسود؟. ما أعمق تبلّد من يعتقدون أنه ليس لبني حرية وحتى لآل ثبات أحاسيس ومشاعر، أنها لا تعرف الحبّ والكره، اليأس والألم، الحزن والفرح، الاستنكار وربما حتى السخرية.

بالنسبة للرؤى غير المتقنة، الأسود والثيران والقردة وبقية الكائنات الحية كائنات تسكن عالما موضوعيا هو الذي يعرفه الفلكيون وحدهم (وليس حتى كل الآدميين) لكنها على درجة من الغباء يجعلها تجهل أين تعيش ... تعتبر هذه الرؤى الساذجة بصفة ضمنية أنه لو كان لما تسميه الحيوانات أدمغة متطورة لاكتشف علماؤها قانون الجاذبية

والمادة السوداء وتوصلوا لنفس خرائط الفضاء الذي نتأمله بأعيننا وبعدسات «هوبل»... في رؤياي الخيل والنمل والنحل ليست كائنات ناقصة، لم ولن تكتشف النسبية العامة لقصور في أدمغتها وللعدد المتواضع لباحثيها ونقص تمويل البحث العلمي عندها...بل هي ليست من مكونات عالمنا الذي هو كل العالم وليست موجودة داخله مثل الأشياء التي نمتلكها في بيوتنا للزينة وللمنافع المختلفة...هي عوالم منكفئة على نفسها تعيش على تخومنا ونعيش على تخومها.

يتوقف الدليل مرّة أخرى مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء :

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.؟

- نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.

- نقترب لنرى بوضوح.

- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح و إلا فستراها أقرب مما تودّ.

تُختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار. يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي ، الصغرى وتدعى امبالا والمتوسطة الحجم وتسمى نيالا والضخمة وتسمى كودو. ما رأيت واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول افتعال التأدّب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوار لا يقدرون ضرورة التحلّي بالصبر.

- نعم يجب أن نتحلّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصرّ على تفادينا.

استجار المسكين بأقصى الحرّ فتبعه الصياد لا يصده الحرّ... استجار بأقصى البرد فهرول وراءه لا يخيفه الجليد...استجار بالمحيط فتبعه إلى الأعماق...استجار بالجبال الشامخة فوضع الأوتاد والحبال على الجبال...استجار بالأشجار فطلع ملاحقه إلى أعلى غصن فيها... استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلا...استجار بالصغر فخلق له المجهر...ومن الفضاء تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رُشق على ظهره واشيا الكترونيا...كم من سياح ومصورين وطلاب دكتوراه

يركضون وراء الحيوان...لماذا ؟ هل لأننا ندرك بصفة مبهمة أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو.؟

تعود رفيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

– على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعت أن فيها قطعان فرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستتبخر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صفيرا عجيبا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا:

– نعم أتكلّم "الهيبو"، أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقترب، آنذاك قدّروا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.

تحدّق فينا الكائنات بتقزّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.

– هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل. لقد حلمت دوما أن أتكلّم الجملي والحماري والحصاني والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلّمني. لأجرّب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففيوووو...،...، ووووووووووو!!!!!

يستغرق الدليل في الضحك:

– يبدو، يا سيدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية؟

– حسب ما رأيت لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكّس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني! ماذا لو ضيّعني في هذه الأحراش؟

يدخل الرجل قوقعته والطين يزداد بلة حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليل لا يعرف يمينه من شماله. لماذا تصرّ هذه الـــــ"غير الحيوان–غير شجرة" على أن يومها ذهب هباء لمجرّد أنها لم تظفر برؤية الكائنات المتحركة غير الآدمية لا تولي أدنى اهتمام للكائنات الثابتة في مواقعها كأنها لا تستأهل التعجب والإعجاب؟ ما أعجب تجاهل أغلب الآدميين لها، والحال أنها حاضرة بكثافة وتواصل على طول الطريق. من ينتبه لشئون وشجون الأشجار الأسيرة المزروعة على قارعة الطريق، لمشاعر التي تجتمع تحت أغصانها النساء والأطفال يجمعون حباتها السود المتساقطة على الحصير؟ أو لأفكار التى تتدلّى منها العراجين الذهبية لا تبخل على الفقراء بالعراجين؟ أو لمشاكل التي تنوء أغصانها بحمل الجليد والثلج! بالكاد يعتبرها البشر كائنات حية وهي الحياة بزخمها وتنوعها وعبقريتها. من يعرف أكثر من ثلاثة أو أربعة أصناف منها، ولا أتحدّث عن جهلنا بأسمائها الفردية التي تناديها بها أمهاتها همسا؟

يوم جاءتني رغبة معرفة أمم الشجر وتاريخها، داهمني نفس الإحباط الذي داهمني وأنا

أخطّط لمشروع معرفة بني عمومة لها تسميها اللغة «الأعشاب» و«الأزهار». استسلام غير مشروط أمام الشطط في التنوع، في الابتكار في الجمال، في الغرابة، في الإعجاز. كم ثمة هنا من أصناف غريبة منها لم أرها في أي مكان آخر!

– يا رجل، قلت لك: انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكّر هذه المرّة؟

– في ضرورة العودة لعبادة الأشجار. ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفّى القرن الرابع عشر ؟

– تخلّوا عن فكرة كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الربّ! هل في الآدميين ما يعبد؟ يا للردّة!

كم كان الأوائل محقين في تقديس هذه الكائنات. كانت بعض الشعوب تقيم لها مراسم زواج. كانت الحبالى يتبركن بها ويصلين لها لتسهّل المخاض. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطرون لقطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه لا يجب كسر غص مثلما لا يجب كسر ذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تسارع لغرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة.

يوم مشيت وراء النخلة المقتلعة لحينها، وجرّار البلدية البطيء يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه، كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات. ماذا لو فقدت الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث لها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها. إنها العلاقة المتذبذبة منذ الأزل مع الكائنات التي تشاركنا الوجود. مرة نجعلها آلهتنا مرة نجعلها عبيدنا أو أشياءنا. مرة نرى بيننا وبينها أوثق وشائج القربى، مرة نتخيل هوّة بيننا غير قابلة للتجسير.

– عبادة الأشجار! ... كيف هي طقوسكم السرية ؟

– الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحرّاس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين .

– حدثني عن الصلاة.

– أجلس في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيدي جوناس، يا سيدي جوناس!

– من؟

– جوناس، الاسم الذي أطلقته– هكذا دون سبب– على الكائن غير الآدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيدي الخافي وسيدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

– أشجارك ومنها هذه التي تتبرك بها–إن سمحت لي باستعمال المصطلح المجمع عليه – فيها من يسمّم الحيوانات ومن يخنق أشجارا أخرى وكلها تتصارع بينها على الفضاء والشمس.

– ممكن، لكن هل رأيت يوما شجرة تطالب بالقضاء المبرم على الغابات المجاورة أو تتبول في الطريق العامّ ؟ هل سمعت أخرى تقول كلاما بذيئا، أو تغنيّ "أهواك وأتمنى لو أنساك"؟ يجب التعود على الخبر المفزع لكم وأن أعلى درجة سلّم الكائنات الثابتة وبعدها تأتي الحيوانات وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

– لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قردا مشاكسا ومعارضا فقُرّر لك أن تمسخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.

–تفسير منطقي . لهذا حاولت أن يبقى ملفّي نظيفا مع أعلى السلطات لترقيتي في الرحلة المقبلة إلى شجرة.

نعم، لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة ،أو كاوري أو سايبا والأفضل سيكويا تكلّل السحب هامتي، شامخ الجذع، وارف الأغصان ، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة ، في شراييني تتدفّق عصارة الحياة، محمّل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار ، أطعم من هبّ ودبّ، لا أفضّل ، لا أستثني... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محميا بظلّي يفكّر الحكيم ،يحكم العادل ،يستريح المتشرّد، يتسلّقني الطفل، على جسدي يحفر العشاق أسماءهم،... صلب، لينّ، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر، لا أطلب ثناء، لا أنتظر أحدا أو حدثا ، لا أخشى أو آمل شيئا ، لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... الريح رسول أشواقي، تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل ، منتبه، شارد الذهن أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوّي تلعثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

يهمس دليل مكسوف كم أودّ أن أواسيه :

– آسف. لا بدّ من العودة إلى المخيّم. التجوّل ممنوع بعد غروب الشمس.

تتنهد رفيقتي هامسة لنفسها بصوت تريده مسموعا للجميع :

– يوم ضاع بين دليل لا يعرف يمينه من شماله وقرد سابق يحلم أن يكون شجرة.

– دليل لا يعرف يمينه من شماله! هل ثمة في هذا العالم دليل يعرف يمينه من شماله أيا كان الفضاء الذي يقودك فيه؟ كلنا تائهون نقود تائهين.

في المخيم تدير لي المرأة ظهرها لا تخفي استياءها من السفرة ومن رفيقها:

– لا تحدثني عن هذا اليوم. كيف كانت جولتك البارحة في هذه الأسواق الافريقية التي تعشق؟

– غاية في المتعة. كيف أصف طفرة الألوان والروائح والأصوات! وليمة فاقت كل انتظاراتي.

– هل وقعت في فخ شراء تماثيل تدّعي علاقة بالفن المحلّي وهي مصنوعة في هونج كونج ؟

– فزت بما هو أحسن بكثير.

– آه!

– انتهى بي طول التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال هادئ وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبث ساهمة بعصا ولا شيء أمامها. لما انتبهت لوجودي حدّقت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: أتشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردّد: ليكن. التقطت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها، اجتثت بعض الأعشاب المحترقة ومدّت لي الكلّ في خرقة قذرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكّة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. كم كنت أود إعطاءها ورقة نقد ببعض الأصفار لكن حافظة النقود كانت قد سرقت من جيب البنطلون الخلفي– على ما قدّرت– قبل ربع ساعة تقريبا. عدت إلى النزل جدّ راض عن تسوّقي وقد دفعت أبخس ثمن في أثمن بضاعة... وأيضا متنفسا الصعداء أتحسس جواز سفري الذي قررت يومها– على غير عادتي– وضعه في جيب الصدرية بدل جيب البنطلون. تصوري مشاكلي لو اختفى هو أيضا.

– أفضّل تصوّر مشاكلك وعون الجمارك في المطار يتفحص جواز سفرك...

– بالمقلوب...

– الشيء الذي سيزيد من توتير أعصابه ومن شكوكه بخصوص طبيعة هذه الأعشاب وهذه الحجيرات ولأي غرض يريد أحد بني إرهاب تهريبها.

– يا امرأة، فأل الله ولا فألك، تكفيني مشاكلي مع حراس الحدود حتى وأنا لا أهرّب إلا جسدي.

– لا رغبة لي في سهر ولا حتى في أكل. ليلة سعيدة.

– ستكون ليلة سعيدة إذا كفّ كل هذا الصخب.

على خط التماس بين الوعي واللاوعي أصبح صراخ الكائنات مفهوما. تحققت أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل وإشارات تنضح ألما وأملا. تهديد وغزل وتبادل أخبار ونكت. تبادل الأسرار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن ضرائب جديدة سيفرضها العالم على الكائنات. شجرة سنط شاهرة شوكها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة فتصرخ جحافل

النمل المتطية ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القتيل. فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلا لعبة تتزايد إثارة وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها لا يبخل على الصياد بحظوظه هو ؟ كيف يتوزع في الأولى وفي الثاني؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بذاته، معها وضدها ؟

*

من الغد توقظني المرأة بحزم :

– انهض، إنه الفجر.

– صبرك، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

– أسرع، الدليل واثق أننا سنعوّض كل ما فاتنا البارحة. سيأخذنا إلى أحسن مكان...

ما أرقّ هذا النسيم. ما أروع هذا الهدوء. ما ألطف هذا الجوّ. يا ما في هذه اللحظات من سحر! ويريد هذا الكائن غير الشجري غير الحيواني أن نجري وراء شيء آخر!

نزدرد فطور الصباح لننطلق مجدّدا بحثا عن أصحاب الآثار الذين يقول عنهم الدليل إنهم يتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا. يتوقف الدليل ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط ؟ التفت إلى المرأة فإذا بها باسمة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل :

– وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

– أنت، أمّا أنا فلم أصل يوما إلا بعد الأوان أو قبله.

– أتكون رأيتها وترفض الاعتراف؟ فاجأتك أكثر من مرّة تخلع نظّاراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

– لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أرَ شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمّا تتحدّثين ؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ برؤية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة آسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

يجب أن يواسي امرأة عادت لتجهّمها.

– أملنا الأخير في الكسالى... في من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل الترعة وسيادتك تغطّ في النوم. آه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد

منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها خاصة لما تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمّة بأكملها.

- شت، الصمت.

يضع الدليل إصبعه على شفتيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمة.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول. تنتصب عن بعد أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقا بالغة الطول ثبّتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب. تصطفّ على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال. فجأة يتواجه كائنان منها فيتقاطع عنق الأوّل مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نبتا في اتجاهين معاكسين. ثمّ تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

هل من حدّ لخيالك، لعبقريتك، لذوقك المرهف! ؟ هل ستجود في المستقبل بكائنات أغرب من هذه، من كل الموجودة، من تلك التي انقرضت مخلّفة أعجب الآثار؟

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة، لم تترك لي الوقت لأخذ أي صورة.

يتوجه لها الدليل كأن صبره نفذ من الأبلهين :

- يا سيدتي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أي من هذه الحيوانات المقام.

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان... كلّ ما في جعبتك اللعب على تنوّع الأشكال وتغيير المقاييس... هل لك حقا من جديد تبهرني به ؟... مثلا عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختلّ له توازن.

أتوجه لمرافقتي وقد بدأت تفيق من ذهولها هي الأخرى.

- هذا العالم في ظواهره الطبيعية، في كائناته، في أحداثه، في ما يبرز، في ما يخفي، عصيّ على التنبؤ، مكذّب للتوقع، كاره للترديد، خياله فوق كل خيال ونحن أمامه كالأطفال أمام الساحر. علينا ردّ التحية بأحسن منها. ؟ لنفاجئه نحن يوما ليبقى مشدوها يفرك عينيه غير مصدّق ما يرى. بماذا. ؟ لنقل: بالتوقف عن قتل البقر والبشر والشجر..

أو بالكفّ عن الكلام في الناس أسبوعا لا أكثر. آه حتى هذا غير قابل للتحقيق... ماذا إذن؟ أن نخرج له ذات صباح بقرنين وذيل وحوافر ماعز؟

– هذه مفاجأة في مقدورنا بل وربما حصلت منذ زمن طويل. على فكرة سيادتك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

– هل انتبهت أنكم تستعملون في لغتكمshot لأخذ الصورة.

– لا بدّ من شخص سيء الظنّ والنية بالبشر وخاصة بقومي ليظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

– اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلّم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغيّر المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

– بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

تستدرك رفيقة الطريق لعلمها كم أحتقر من قلبوا ضرورة الأكل عند الأوائل إلى جرائم قتل مع سابق الإضمار يسمونها رياضة.

– لا أرى لك صورة تذكارية غير التي تتوسّط فيها سحابة من البعوض والذباب وبين ذراعيك الثعبان وفوق رأسك البوم وعند قدميك جحافل النمل.

– أفضّل صورة مع الفيل والثور والكركدن والأسد، بمحض الرضا وكلنا أحياء نرزق... وإذا رفضوا لي الأمر، فسأكتفي بصورتي أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمل يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت عليّ جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون. أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي ترصد وراء الأعشاب، ثمّ سأصرخ مثل طرزان أنبهها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

– انتظر تذوّقها وستعرف تكلفة بطء الآدميين في الركض هربا من الآدميات.

نعود للمشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قرّرت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق الفلاش أو الرصاص عليها.

فجأة يتسمّر مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

– وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض . إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجثو مرافقتي على ركبتيها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

– هل رأيته؟

– آه طبعا رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

– تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

– اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهامس متوجها للدليل:

– عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

– الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

– عجيب!

يتفطّن الرجل لما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كتفيه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود ؟.

تقطع عليّ رفيقة الطريق خواطري تمازح رجلا يغالب انزعاجا لا يحدّد مصدره.

– واحد أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

– لكنه لن يفلت من حنوّكم عليه فردا فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

– هل جرحتك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألست من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة ، هل تمثّل؟

لا أمثل كل ما في الأمر توزّعي بين شعورين متناقضين : الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف...والحرج ... هل كنت أقبل بأن يدخل بيت الحمام في داري ثور بحجة تعطشه لمعرفة الآدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدونه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميكة.

– أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي البارحة وعن هذا النهار . لا أدري على ماذا أركّز وكل هذه الروائح التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي .

– لهذا تحمل كل شيء لأنفك أو لفمك! تذكّرني بكلبي وبأطفالي لما كانوا صغارا.

– عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسّرا على عجزي عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق السحب.

تهزّ المرأة كتفيها مديرة لي ظهرها وقد زاد مزاجها تعكرا. ثم تستعيد حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهنئ صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون. يتواصل الهمس بينهما بخصوص الفاعل، وهل من الممكن أن يكون الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة، كلا؛ فالفاعل لبؤة لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني آوى.

لا شيء في هذا العالم غير الآكل والمأكول... غير القتلة والضحايا... أهم فعل فيه كان وسيبقى قتلَ والباقي من الأفعال تعاليق وهوامش... من هذا الغبي الذي قال: أنا أفكّر فأنا موجود... كان عليه أن يقول: أنا أصارع فأنا موجود.

– حتى هنا كائنات تسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين... كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة... المسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمعنت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه.

تفتعل مرافقتي أنها لم تسمع وحسنا فعلت.

يلتقط الذهن الشارد آخر جمل الدليل:

– حقّا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أوّل يوم.

– قطط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبّر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.

تهزّ مرافقتي كتفيها غير مقتنعة أنني أستأهل الصلح أو أنني قمت بكل ما يلزم... غير رافضة كذلك قطع كل سبيل إليه.

– قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعه على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.

– أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد ممكن من المارّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء.

– يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جائع من قطط هذه المحمية اللعينة.

– لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، آه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجففه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أفظع منه مذاقا، مالح، تتكسّر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرت النساء– لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهن يعرفنه– أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

صمت ثقيل يلفّ ثلاثتنا ولا شيء غير أصوات كائنات تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار، مع بعض العلامات هنا وهناك تدلّ على وجودها. ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال و الظلّ؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلما نجد صاحبه؟.

فجأة تتحرّك بعض الأغصان فوقنا يتعالى منها صراخ منكر.

يهمس الدليل: لا تهتمّا، مجرّد خصومة قردة الشامبنزي.

أهمس في أذن مرافقتي:

– على أي شيء يتخاصم بنو عمومتنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة الصدر والعجز، على خلافة طاغية عجوز، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدّى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.

تضحك مرافقتي.

– ليس الأمر دوما هكذا. تذكّر ما يقال عن طبائع بني عمومتنا الآخرين : البونوبو. عندهم يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها للذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما أن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى لشعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

– لذلك لم يعرف لهم يوما جنرال ودكتاتور ولم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي لعدم حاجتهم لأي من هؤلاء، ثم تدّعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

يهمس الدليل فينا بعصبية واضحة:

– آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

عند وصولنا المخيم تبادرني رفيقة الطريق محاولة افتعال التهكم :

– البارحة نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان. أما اليوم فأربع زرافات تبخرت كما ظهرت ووحيد قرن تائه في غبار بعيد وبقايا جثة غزال. أي حصيلة بائسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت لما يأتي له الناس.

هذه المرأة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

لا هدف ولا وجهة.

يغنم كل لحظة

ما تقدّمه له الحياة

يتواصل حول النار حديث هامس متوتّر.

– هل لي أن أعرف إذن لماذا ضايقتني كل هذه الشهور لأنظّم لك هذه السفرة ؟

– لإثـراء "الرحلـة" باستجوابات سكان المكان حتـى أعـرف صورة العـالم عنـد الغـزال والفهـد والتمسـاح وبـني عمومتنـا المتأرجحـين علـى الأغصـان.

– خمس دقائق من الجدّ لا أكثر.

– بـل كلّـي جـدّ. جئـت لأرى العـالم مـن وجهـة نظـر الكائنـات الـتي تقاسمنـا الوجـود. كـم بـودّي أن أخـرج مـن جسـدي ولـو لحظـة لأنظـر إليـه بعيونهـا!

– أليس هذا ما ينفق فيه خبراء ألعاب الفيديو حياتهم؟

–تصـوّري يـوم تتقـدم هـذه الأبحـاث ونسـمع إشـهارا مـن نـوع: انتهـى الجـري وراء الحيوانـات وتصويرهـم مـن الخـارج. ادخلـوا عندنـا عـالم الأسـد. تأمّلـوا الغابـات بعينيـه. كونـوا لسـاعات مشـوّقة فهـدا في بعثـة صيـد، وإن شـئتم غـزالا لكـن مـع ضمـان مطلـق الأمـان. الملاعـين! أي رحـلات مثـيرة سـيتمتعون بهـا!

–آه لـو أمكنـني السـفر في فضـاء خيـال الحـوت والـدود! ...تـرى كيـف هـي الفضـاءات الحسـية للدلافـين والفـراش والنـورس؟ كيـف هـي الصـور داخـل مخيلـة الفيـل والنمـر؟ هـل كنـت سـأفضّل عـالم القـط وهـو علـى مـا يقـال بلـون الرمـاد، أو عـالم الكلـب وقـد اختفـت منـه حمـرة الشـفق، لا وجـود فيـه مـن الألـوان إلا لزرقـة السـماء وخضـرة الحقـول؟ كيـف هـي المظاهـر عندمـا ينظـر لهـا النسـر مـن القمـم الشـماء بعينـه الـتي ثُبِّـت داخلهـا مجهـر يبصـر أدقّ التفاصيـل؟

– فتحـت شـهيتي (صارخـا بكيفيـة مسـرحية) :يـا نـاس! يـا مـن يهمّهـم ولا يهمّهـم الأمـر، أريـد استكشـاف هـذه العـوالم، حـالا، الآن، علـى وجـه السـرعة وإلا سأشـكوكم جميعـا إلى «مـا».

محكـوم عليـك أن ترتحـل في هـذا العـالم البالـغ الخصوصيـة – عـالم الآدميـين –أمـا بقيـة العـوالم الأخـرى فحرّمـة عليـك إلى الأبـد.

– لـو فتحـت الحـدود بـين العـوالم لرأيتـك مثـل طفـل مدلّـل وضعـت أمامـه دفعـة واحـدة كميـة هائلـة مـن اللعـب راكضـا مـن عـالم لآخـر.. هـذا عـالم لا تكفـي الأبديـة لاستكشـافه سـافرنا فيـه في اليقظـة او في المنـام ، تكفينـا روائعـه وفظاعاتـه

– تريديـن التفلسـف بدلـي ؟.أتعلمـين كيـف يصـف بنـو قومـي الإنـاث ... بالناقصـات العقـل والديـن. صـدق بنـو قومـي.

تهزّ رفيقة الطريق كتفيها .تشير للدليل وهو يعدّ العشاء.

– أرجـو أن هـذا الغبـيّ يعـرف الطبـخ أحسـن ممـا يعـرف طـرق المحميـة. علـى ذكـر بـني قومـك الحكمـاء، لم أزر بلدانـا الشـواء فيهـا ألـذّ مـن شـواء بلدانكـم. لمـاذا لا تشـرف علـى العمليـة، أنـت الـذي يحـاول إغرائـي بالادعـاء أنـك طبـاخ ماهـر.

– اللحـم الوحيـد الـذي لا أرى مانعـا مـن شـوائه لحـم بعـض الأقربـاء والأصدقـاء. ذكّرتـني علـى فكـرة، بالفـارق الأساسـي بيننـا وبـين الكواسـر المحيطـة بنـا. نحـن سنتعشّـى باللحـم المشـوي

وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميّز إناثها بصبغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق.
– كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.
– يا امرأة، رحماك، الكلمة نفسها اعتداء على سمعي، ومثلما ما تدلّ عليه اعتداء على بصري. اتركيني أحكي لك قصة لا أهمية لها. ذات مرّة في مدينة تعتز بتراثها في الطبخ وضعوا أمامي قطعة حمراء تنضح بالدمّ. اعتذرت وطلبت بلطف من النادل أن يعيدها للمطبخ وينضجها أكثر، ثم ركضت مسرعا للحمّام لأتقيّأ ما في أمعائي. عاد بها وهي ليست بأحسن حال ولم أكن في موقع يسمح بالصراخ والغضب والاحتجاج، فتكلفت الابتسام والشكر المؤدب. غطيتها بما يمكن من الخضروات حتى لا أراها. هنا ووجهت بمعضلة. لو أكلت الغطاء لبان ما تحتها وعاودني الغثيان، ولو أكلت مغمض العينين لاستغرب الناس. افتعلت أنني أتبع حمية. خرجت من المطعم الفخم لأدخل مباشرة أوّل "بيتزريا" لاعنا البلد وعراقة طبخه.

اللحم الدامي !

في ملفات قديمة دائمة الوجع ، يفتح طفل في سنته الرابعة عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، وديعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلّله كما لو كان له الأب والأمّ..وفي هذا الملفّ المحافظ على كل التفاصيل ، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في منديل أبيض هادئ راض عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدّر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمزّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الآذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم كلكم.!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك من الآن إلى الأبد.!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعبثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه «العصبان» لعشاء العيد! . صوت الأم: يا بني هوّن عليك، إنه مجرّد... أقصد أنه... على كلّ حال هو لم يتألم كثيرا ... يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله. !من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الآدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوّة المجهولة الماكرة: أتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبه عجزه، هو الذي لم يقدر على حماية صديق اللعب

مـن المصـير الفظيـع. يختفـي بعيـدا رافضـا أن يكلـم أحـدا، مواصـلا مراقبـة تفاصيـل السـلخ والتقطيـع، وعينـاه بـين فتـح وإغـلاق. تتلقـف أيـادي الأم والخالـة والجـدة شـيئا أسـودا لزجـا يضعنـه مباشـرة علـى نـار الكانـون. تصـرخ فيـه الجـدّة بالكـفّ عـن الـدلال وتناديـه أمـه بلطـف فيـه بدايـة نفـاذ صـبر ليتـذوق شـيئا مـن هـذا الكبـد المشـوي اللذيـذ. مـاذا أصـاب هـذه المـرأة الـتي تفهمـني عـادة، هـل نسـت أنهـا تناديـني يـا كبـدي؟ لا أريـد طعامـك؟ لا أريـد، أكرهـك، أكرهـك وسـأبقى كارهـا لـك مـا حييـت.

تهزّني مرافقتي من كتفيّ

-ابق معي، كنت تقول أنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيء

-المصيبـة أنـه معـروض علـى الأنظـار في شـوارع بلـدي وهـو يقطـر دمـا. هكـذا مشـيت دومـا فيهـا لاعنـا في سـرّي كل هـذا القبـح، كل هـذه الهمجيـة الـتي لا تثـير إحساسـا في أحـد غـيري. نعـم، لم أرَ في حياتـي علـى كثـرة مـا رأيـت مـن بشـاعة، أبشـع مـن الأشـلاء الداميـة للحيوانـات المقتولـة المعلّقـة في واجهـة دكاكـين الجزّاريـن.

– خاصّة إذا تكدّس عليها الذباب.

– لأنـني منصـف، سـأسمح لـك بسـبّ قومـك وخـذي راحتـك، أمـا سـبّ قومـي فحـقّ لـي أنـا وحـدي. أواصـل. هنـاك مـا هـو أفظـع مـن دكاكـين الجزاريـن ببلـدك وببلـدي: محطّـات سـفر يتوقـف فيهـا النـاس للراحـة والأكل... والخرفـان المعـدّة للذبـح تنتظـر دورهـا تحـت دخـان الشـواء لا يخامـر فكـر أحـد أنهـا تعيـش رعبـا صامتـا وهـي تنتظـر الذبـح تحـت أشـلاء أمّ أو أخ أو أب.

– ارتفع صوتك والدليل ينظر إليك باستغراب خائف.

– ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

– ومـاذا فعلـت أمـام المنظـر البشـع؟ شـتمت الجـزّار والشـوّاء وروّاد المطعـم،؟ اشـتريت الخرفـان وأطلقـت سـراحها؟

– لـذت بالفـرار بـكل شـجاعة وروح مسـؤولية عاليـة. للانتقـام مـني ومنهـم كانـت تأتيـني صـور عابـرة ممتعـة لقطيـع مـن الآدميـين ربطـوا بالحبـل إلى وتـد الجـزّار، ينتظـرون أن تنفـذ لحـوم أمهاتهـم وأخواتهـم وأن يأتـي عليهـم الـدور والخـروف ينفـخ علـى نـار الشـواء، يضاحـك نعجـة ويغازلهـا.

-غريـب، أنـا أيضـا "أرى" أحيانـا عنـد تجوالـي في المدينـة كلابـا عملاقـة تجـرّ بالحبـل آدميـين يتوقفـون أحيانـا للبـول تحـت الحيطـان.

– روميـو وأنفـه في مؤخـرة جوليـات يستنشـق روائحهـا المثـيرة! عطيـل فـوق ديدمونـة! وكل كلـب يجـذب إنسـانه متحرّجـا... إنهـا حقّـا لصـور منعشـة للـروح!

تضحك رفيقة الطريق إلى أن يتملكها السعال. تحثني على المواصلة فأغتنم الفرصة للتنفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع.

– أذكر أيضا يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الآدميين طبعا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرّد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتهوى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثواني حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء ميتة– أو هذا ما يتمناه لها المرء– وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجزّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتتدفّق شلالات من الدم والرجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين : الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضع دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين. أي عالم تعيش فيه هذه الكائنات وكيف يبدو الآدمي فيه ؟ عفريت مرعب على وجه التأكيد. على فكرة، هل تفضّلين أن تبعثي في حياتك المقبلة بقرة هندية هندوسية، متخلفة، نحيفة جائعة تتشرد في الشوارع بين القمامات، أم بقرة أوروبية، مسيحية متقدّمة، سمينة وشبعانة... ومبرمجة للوقوف يوما في الطابور؟

– يكفيني ما ينتظرني من الخيارات الصعبة. والآن حاول أن تنام.

– نعم، سأحاول شريطة أن تتكفلي أنت بالبعوض وبالكوابيس.

*

سمر الليلة الثانية

قالت والنار تلتهم آخر الأغصان وشخير الدليل يعلو ويهبط :

– يوم عوّضنا به الكثير من خيبات أمل اليومين الأولين. ومع هذا لن أستطيع النوم بكل هذا الصخب في الأغصان. كأنّ هناك حملة انتخابية عند الكائنات المبهمة التي تحيط بنا. تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مسلية ورقيقة كتلك التي تحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الآدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووئام... أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. أحكِ لي مثلا عن الدبّ من النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك... أو عن أول كلب لك أو قطّ ؟

– ليس لنا دببة في الصحراء، اللهم إلا إذا أخفوا عني الأمر، أما كلابنا فنذيقها الأمرّين.

– ربما كانت لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

– أخشى أن تضحكي منّي إن حدثتك عنه... عديني بعدم فضح الأمر.

تعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية، الأمر الذي يشجعني على رواية القصة من بدايتها.

كان يا مكان في واحة نائية عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي. كان الجدّ لا يملك غير حوش متداع وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كًانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه كادت أن ترديني قتيلا. باءت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنت باكرا أنه لا خير لا في البعير ولا في أصحاب البعير. هكذا قرّرت تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعت كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه. لم يبق إلا الحمار. من حسن الحظّ أنه كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أذقته إياه من أصناف التعسّف والدلال. المهم، كان عنتر سهل الامتطاء. كنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبيه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة ثمّ أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرت على أعداء أبي وبعد إنهاكه إلى أبعد حدّ.

– هل كان جدّك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

– الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى– من فرط تسرّعي– فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم أن جدّي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره لا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطن عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبّي الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلّف الرسمي والوحيد بأن آخذه ليشرب من العين والمشرف الأوّل على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

– توقّف، ستبكيني. لا أتصوّرك تحدثت يوما عن رائحة حبيبة فرّقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثر.

–يا مرأة، أحدثك عن عنتر وتحدّثينني عن النساء! آه يا عنتر، كم كنت أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حمّير يحضر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الآذان الطويلة في حضرته.

نعم أين في الناس حمار مثل حماري! آه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جنانه في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركينني استهجاني الشديد أنه لا أحد من مفكري الآدمية وحكمائها، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. أقولها ولن أعود للقضية ثانية. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الآدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمّل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في خيالي لجنّة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم، شريطة ألا يفرض عليّ استقبال الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة أخرى في فكر من يعشقها.

– الخلود للحيوانات! هذا يعني الاعتراف لها بروح... الحيوانات لها روح !؟

– الحيوانات الأخرى ، لا أدري ولا يهمني ...أما عنتر فبالتأكيد له روح . لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية إناث الآدميين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لأضطررنا لشدّكن للمحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسل... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقدوة، ونحن نتشبه بهيبة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟... هل كنا نتعلم الصيد لولا أساتذتنا الذئاب وحلفاءنا الكلاب؟... هل كنا نصبح مزارعين وبناة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة؟..وغزاة وفرسان لولا مطهّم الخيل؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد..أما نحن أحفادهم الأغبياء فنضعها في الأقفاص أو نسومها خسفا بلا حياء أو عقدة ذنب.

– واصل القصة.

– فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيت محاصر قلت: لم لا اشتري حمارا أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفّر عن كلّ خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكلت به البشرية على مرّ العصور.

– أخيرا عرفت ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

– لا داعي لتكلّف المشقة فبلدي يعج بالحمير، بل منهم من تبوّأ أرقى المناصب.

– ذكّرتني بذلك الارستقراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل.

بجدّ، ما الذي كنت ستفعل بحمار بطال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك أنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحي. كان المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيت جيراني وكلهم موسرون لا يركبون إلا المرسيدس؟ ماذا لو تفطّن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صحف السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم أنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برؤاك دوما معدومة، لكن لو كمشوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة لو اكتشفوا قربة الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعقّل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ديدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. هكذا تخليت عن المشروع برمّته ولم يبق لي للتنفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتي على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرت موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرق إلى إمكانية أن تربط حماره أواصر نسب بحمير الجنوب وربما- لم لا- بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون- هكذا بمجرّد الصدفة دائما- من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الآدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة المفترى عليها والحال أن كل الكتب العلمية تؤكّد على ذكائها وصبرها وقوّة شخصيتها.

يوم اقتنعت ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجدباء التي حكم عليّ بالانتماء لها، جاءتني فكرة شراء الحمار، حتى اختطافه إن تطلّب الأمر والفرار به تحت جنح الظلام، حيث لا يمكن للبوليس أن يتصورني فارا إلا على متن سيارة. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أواصل الطريق هربا من بوليسستان نفسه بل من هذا الكوكب التعيس برمته. تصوريني على عنتر الثاني متسكّعا بين المجرّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرا ومأخوذا بتجارب الله... كل

هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدوّ يهدّدني، لا خصم ينافسني، لا نصير يبتزّني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألت الرجل عن ثمن حماره وقد بدأت الفكرة تدخل مرحلة التفاصيل العملية. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. تنحنح بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحت فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مئة وأربعين. انفجرت في وجه الرجل وقد اتخذت تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يسوى هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الآدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلّما تذكّرت الثمن الذي طلب.

– وهل كنت تريد الحمار مجّانا... أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

– لا تفتعلي عدم الفهم.

– بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

– طبعا لا. من يقدر؟ لكن هناك حدود للغباء. مئة وخمسون دينارا لكائن له ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها!... ذلك الجلد الأعجوبة!... ذلك الجهاز المناعي العبقري!... تلك الحواسّ الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان!... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورّثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الآدميون!... حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيد مخيف يكتشفه الباحث، فاغرا فمه من التعجّب والإعجاب في كلّ خلية... في كل نسيج... في كلّ عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تتكلّف الملايين، ويقول لي هذا الآدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينارا!!! وفي نفس الوقت يتهافت أمثاله من الحمير– بمفهومك للكلمة– على شراء آلات تنقل ساذجة بسيطة غبية، مصنوعة من أكثر الموادّ بدائية، تقتل، تصمّ الآذان، تلوّث الهواء وتزيد في الاحتباس الحراري الذي يعدّ لنا الكارثة المقبلة... بآلاف الدنانير

– ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية أن تسعّر الحمار بمليار راند...!

-لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر. الفئران، الماعز، البعير وحتى الآدمي- الجراد مستثنَى لأنه غلطة مطبعية - كائنات غير قابلة للتسعير وكلها تمظهرات الذات القدّوس.

- غدا يوم آخر تواصل فيه استفزازي . ليلة سعيدة.

- شريطة أن تصمت كل هذه الكائنات المجهولة التي تصرخ من كل مكان. آه يا صمت صحرائي الغالية

تورّق الذاكرة أجمل ما تراكم في ملفاتها منذ دعي الآدمي لمأدبة الله.

الصحراء !... تلك اللوحة الأخرى التي برع الفنان الأعظم في رسمها والليل يرخي عليها سدولها والصمت يلفّها بالمهابة والجلال ...الصمت الذي سيحلم به الكهل وهو على طول الطريق محاصر، مهدّد، معتدى عليه بكل مما يصدره الآدميون من صراخ وتأوه ونواح وتضرّع وشخير وتسابب وهتاف... أنت بين أحضانها بمأمن أيضا من أشيائهم ويا لبشاعة ما تصدر هي الأخرى من أصوات... كأنّ بقية الكائنات التي تسكنها لا تتجاسر على رفع عقيرتها و وقارها الفطري، وقد التحفت ببرقع الظلام والنجوم، يثني عن كل صراخ بذئ وعن كل جدل عقيم... حتى أرقّ الموسيقى خطأ ذوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا...في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، يتضوّع الجوّ إيحاء ووحيا لمن يعرف التقاط الإشارات... ليتصل ما انقطع لا مكان إلا هي فلا الغابة الخانقة للأنفاس، لا السهل، لا الجبل ولا البحر بقادرين على اعتصار ما تعتصره من مشاعر بالغة القدم بالغة العمق... هكذا وقف كم من آدمي في حضرة أبهى صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: تذكّرت من أنا، تذكرت من نحن، أعرف ماذا نفعل كلنا هنا!... محكوم على الصحراء وعلى الصحراء وحدها انجاب الأنبياء.

*

سمر الليلة الثالثة

نهار آخر من الغبار والحرّ وكثافة الغائب الحاضر. تتهاوى رفيقة الطريق وسط المخيّم حذو النار تلتقط أنفاسها. تتوجه إليّ لا تخفي سوء مزاجها :

- في ماذا تفكّر من جديد؟

- في غباء تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقل غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

في آخر المطاف ما هذه الكائنات تعودنا عليها وتعوّدت علينا ،التي تلتحف بالغرابة والسر والحاجز حدود العلم وقصور الخيال...قصائد، لوحات، سمفونيات، لعب من لحم ودم ؟...مشاريع بحث يجرب عبرها باحث عبقري كل إمكانيات الخلق ؟...كل

إمكانيات الفعل والتفاعل ؟...كل المشاعر والأحاسيس التي يوفرها الطيران والسباحة والركض ؟...في هذه الحالة ما الذي يجرّب في الآدمي بعد أن استنفذ الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال دون توقف من قطب إلى قطب... الأحاسيس والمشاعر ؟شبه متيقّن أنها قاسم مشترك بين كل الكائنات وإن تفاوتت حدّة وتباينت تعبيرا... الفكر؟ وحدهم الأغبياء لا زالوا مصرين على أن الأشجار والفيلة والصراصير لا تفكّر وإن اختلفت طرق ووسائل التفكير ...ربما القدرة على خزن الأفكار وتناقلها من جيل لجيل...ربما توسيع رقعة الوعي إلى أبعد نقطة في المكان وفي الزمان...ربما... على فرض أننا لسنا بقايا تجربة فاشلة نسيها الخالق في بعض أركان ورشة فاضت بالمشاريع البائرة.

تصرّ مرافقتي على مواصلة الهذر لا أصعب على الآدميين من التزام الصمت وهم يمشون جنبا لجنب

– لننس هذه الحيوانات اللعينة. كلّمني.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه... ساعة تلمع أوّل نجمة في الأفق... ساعة تنتظم أفكاري، وترتخي أعصابي... ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟

– في ضرورة الاقتصار على المساء وربما على أولى تباشير الفجر وإلغاء بقية ساعات اليوم، وهي– باتفاق الجميع– وقت الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. لماذا يجب أن تكون هناك ساعات غبيّة مثل الحادية عشر صباحا والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ بربّك من بحاجة للثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبّري الانقلابات؟

– ما أحسد عليه الحيوانات التي تحنو عليها أكثر من بني جنسك أنها– خلافا لي– تعيش لحظتها لا تحمل هموم الماضي أو مخاوف المستقبل، يكفيها من همّ الزمان حاضرها.

– قولك أن الكائنات غير الآدمية تجهل الزمن كقولك أنها تجهل المشاعر والتفكير والخيال...العنصرية العادية للآدميين تجاه جيرانهم من بني حرية وآل ثبات. ثمة في أدغال البرازيل قردة تعيش على ثمرة مثل جوز الهند صلبة تستعصي على الأسنان. الذي شدّ انتباهي أنها تنتظر أسبوعا كاملا– بشهادة الباحثين وبتوقيتهم– قبل أن تكسر الثمرة بأسنانها لأن وضعها في الشمس طيلة هذه الفترة ضروري لتليين قشرتها وتسهيل فتحها. معنى هذا– يا جميلتي– أن لهذه الكائنات وعي بالزمان وحسن استغلال له بل وحتى حسابه بدقة. لا يوجد كائن حيّ ليس له وعي بالشيء، كل ما في الأمر اختلاف التعامل معه.

– عد لزماننا نحن .بما أننا دخلنا في تنظيمه أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحتفظ إلا بالسبت والأحد.

– السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا وهو محمّل بكل تهديدات الاثنين... حتى السبت غير موثوق به... فلكل سبت كما هو الحال مع كل يوم طعمه... الذي ننتظر بفارغ الصبر ... الذي نترقبه والقلق يعتصر الأحشاء... الذي نبكي منه ...الذي نبكي عليه... الذي أحسن ما فيه أن له نهاية... الذي أسوأ ما فيه قصره.

– وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

– يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلّقة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من الحياة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة للأشجار وللأزهار. نحافظ عليه إذن إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكذوبة ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقا زمنا رائعا وقد طهّرناه من كل وقت مضيّع للوقت؟

– وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتك؟

– كل التي اعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشّنت ما تسمونها بوقاحة «الحضارة»، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء العشرة آلاف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراءه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل نبات. تصوري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصيلة. تصوري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادئا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة بالجمال، واليوم ترمي لك بحار بصدد التصحّر بأكداس البلاستيك. كل هذا لأن الآدمي انقلب وحشا كما تفعل بعض الفيروسات لأسباب مجهولة عندما تتحول من كائنات وديعة إلى حاصدة لأرواح الملايين .حدثيني عن الحضارة وكيف كانت نعمة على الآدميين - على جزء منهم على أحسن تقدير– ونقمة على العالم وما فيه من كائنات. ألم تخالجك الفكرة يوما أننا بالنسبة إلى جلّها عفاريت مثيرة للتقزّز والرعب. أنت، أنا، أطفالنا الأبرياء، كلنا عفاريت بالنسبة لما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات! لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف إلا وانفجرت بالضحك.

– ما أنا متأكدة منه أنني لست العفريتة التي تصف بالنسبة لكلبي وأنني لو متّ غدا لحمل الحداد عليّ.

– كل الكائنات ومنها كلبك ستقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا كلنا لما افتقدنا إلا القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كأنّ شيئا ماتمرّد داخل مرافقتي أمام سيل من التهم الظالمة.

– هل سمعت بالقوم الذين يتحدثون عن قردتهم قائلين : **فلان السيد قرد** ؟ نسيت أو تناسيت الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمور لغسلهم وتغذيتهم وأخذهم للفسحة في ضواحي الدير. نسيت أو تناسيت الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات. نسيت أو تناسيت مأدبة القردة ووليمتهم السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حدب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم الماشون على طرفين. نسيت أو تناسيت المعابد التي يقدسون فيها الفئران.

ما نسيته أو تناسيته أيضا أن حيواناتك ومنها التي نكرّم لا تملك ذرّة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدّد لك ما يعرف عنها من قسوة ومكر وتجبّر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صيّاد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثمّ من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الآدميين؟

– من قال لك أنني متعاطف مع كلللللّ الكائنات غير الآدمية؟ أبغض– دون حرج أو عقدة ذنب– الذباب والبعوض وكل هذه الهوامّ التي أطلقتها الإدارة العامّة وكأنها الأظافر المقصوصة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرأيت أقبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الآدمي الجديد – بالمقارنة– آية في الجمال. والنمل، من أي مخيلة مريضة خرج كائن كهذا ؟

– واصل ، هكذا تعجبني .

–هل حدثتك عن معاركي اليومية مع جحافله وهو يهاجمني في عقر داري .كم مرّة أنذرته أنني لن أقبل غزوه المطبخ بشكل متواصل طيلة أشهر الصيف، وأن عليه الاكتفاء بما في الحديقة. عبثا. احتقرني اللعين مصرّا على تجاهل كل انذاراتي وباعثا بوحدات الانتحاريين لا يهمّه ثمن ما يدفع ضريبة لكسر شوكتي وإظهار أن الكلمة الأخيرة كانت وستبقى له وحده . والعصافير؟ كيف علمت بوجود عنب طازج في حديقتي؟ وضعت لافتة «ملك خاص، ممنوع الأكل» فلم ألاحظ تحسنا في حالة العنب. طيور لا تحترم قداسة الملكية الخاصة ! والله عيب. هل حدّثتك عن الفأر وخاصة عن الذي احتلّ أشهرا مكتبتي يسرق أوراقا كاملة من كتبي لاستهلاكه الخاص وربما حتى بعضا من أفكارها ينسبها لنفسه في مؤتمرات الفئران.على فكرة ، هل تعلمين أن عددهم في كبرى مدننا يفوق عدد الآدميين، مما يعني أننا نعيش على تخوم عالم فأري نجهل عنه كل شيء.

بالمناسبة، علـى كل الكائنـات الـتي نـكّل بهـا الآدميـون، وخاصـة أمـم الخرفـان والبقـر، إقامـة التماثيـل للفأر وهـو الكائـن الوحيـد الـذي كال الصـاع صاعـين للآدميـين عـبر مـا كان ينقـل لهـم مـن جراثيـم الطاعـون.

– عدت لما أكره ، عد لما أحبّ.

–سـبّ الجـراد .مثـلا . أنتـم لا تعرفـون في بلدانكـم هـذه النقمـة. فجـأة يسـقط سـحاب أسـود مـن عليـاء السـماء كسـرب مـن العقبـان علـى أرنـب. كان الأهـل والجـيران يولعـون النـار علّ الدخـان يبعـد الهـول. عبثـا. كنـا نجـري، أطفـالا وكبـارا، وراء الحشـرات البشـعة نحـاول صدّهـا عـن التهـام أشجارنا فنضيـع داخـل ضبـاب أجنحـة ترفـرف وأطـراف رفيعـة تخـدش وجوهنـا. كنـا نقبـض علـى الجـرادة ونقضمهـا حيـة ننتقـم مـن خوفنـا ومـن لامبالاتهـا. كانـت أيامـا عصيبـة بحـق. وبعـد الكابـوس كنـا لا نجـد أحيانـا مـا نـأكل، وكـم مـن مجاعـة تبعـت هـذه اللعنـة المسـلطة فـوق رؤوسـنا كسـيف داموقليـس منـذ تركنـا الصيـد والجـني.

حتـى هـذه الكائنـات تسـتأهل الاعجـاب ، هـي وكل الحيوانـات لا لشـيء إلا لأنهـا تمـوت دون ضجيـج...لم أضـرب بحذائـي يومـا وأنـا في حالـة هسـتيريا ثعبانـا، أو فـأرا، أو سـرب نمـل، فصـدر منـه سـبّ أو صـوت منكـر...حتـى الخرفـان لا تنبـس ببنـت شـفة وهـي تذبـح... لمـا يثـب الأسـد ليمسـك بأنيابـه حنجـرة الغـزال يقتـل الأول ويمـوت الثانـي يحـف بهمـا وقـار الصمـت ...عنـد الآدميـين ، يرفـع القتيـل عقيرتـه بعويـل يجمّـد الـدم في الشـرايين والقاتـل يصيـح الله أكـبر أو يحيـا الامبراطـور أو خذهـا يـا ابـن الكلـب...قـرف.

– سرحت .واصل.

– حتـى النباتـات!...لا تعتقـدي أن لـي كثـير مـن الأوهـام بخصوصهـا ... أحدثـك عـن الفُطـور الـتي تسـمّمنا علمـا وأن الأمـر بالنسـبة لـي عقـاب شـرعي علـى شـرهنا لأكلهـا... أحدثـك عـن الأزهـار الجميلـة الـتي تنغلـق فخـا قاتـلا علـى النامـوس والذبـاب والفـراش؟

– يـا عيـب الشـؤم... لـن سنشـتكي النبـات و الجـراد والنمـل والفـأر والطفيلـي والجرثومـة والفـيروس؟

– المحبـط في الأمـر أننـا لـو رفعنـا أي قضيـة لخسـرناها والعـالم هـو الـذي يطالـب بالتعويـض لـكل مـا ألحقنـاه بـه مـن قبـح وقـذارة. لكـن المسـكين في ورطـة والبشـر مرضـه وطبيبـه.

أتعرفـين أنـه يوجـد اليـوم علـى الأرض مئـات المحطـات النوويـة، وبانعـدام الصيانـة تصبـح قنابـل موقوتـة تبـثّ سمومهـا آلاف السـنين... ناهيـك عـن حقـول الغـاز والبـترول، وهـي الأخـرى بحاجـة لنفـس الصيانـة، وبدونهـا سـتلتهب حرائـق هائلـة قـد تقضـي علـى الحيـاة الباقيـة. السـؤال الضخـم: كيـف سـيحلّ الكوكـب مشـكلته وقـد أصبـح وجـود البشـر علـى سطحـه مصيبـة وانقراضهـم مصيبـة أعظـم. قـد يمهلنـا مـدة إضافيـة لتـدارك كل أخطائنـا. ربمـا هـو ليـس بالقسـوة الـتي نفترضهـا فيـه. ربمـا يـدرك أننـا لسـنا بالقسـوة الـتي يفترضهـا فينـا.

– هكذا أحسن، واصل. أحبّ تناقضاتك.

– أكبر وثيقة الدفاع شريط فيديو لسباق نظّمه معاقون محاكاة لأبطال هذا العصر. وفي مباراة الجري، سقط بعد بضعة أمتار فقط متسابق، يبدو أنه كان متخلفا ذهنيا. أجهش بالبكاء وهو يشير إلى جرح في ركبته، فتوقف كل المتنافسون وأحاطوا به يواسونه. ثم أخذوا بيده وأوقفوه على رجليه وتوجهوا به يجرّ جسده بصعوبة نحو نقطة الوصول، ولا أحد حاول أن يصل قبله.

ربما سيكون سبب قرار الإدارة العامة بالتمديد ليس فقط الحادثة وإنما أيضا أن الجمهور وقف في المدارج وصفّق طويلا. تصوّري! يصفقون لمشهد كهذا، هم من صفقوا قرونا لمجازر البشر ولمجازر الثيران أو لرجل يلطم رجلا آخر إلى أن يطرحه على الأرض مغمى عليه.

ربما أخذت الإدارة العامة في الاعتبار أيضا ملفّ طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والنظر إلى الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ.

– لا تنسَ إضافة ملفّ من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات القطع.

– نعم، برافو للآدميين الذين رموا أنفسهم أمام الجرارات، للذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي. لست ضد إثراء ملف الدفاع بالوثائق غير المزورة عن صعصعة الذي فدى المؤدات، عن مارتان الذي تقاسم معطفه مع المقرور، عن فرنسوا الذي أعطى كل ما يملك للفقراء، للطيور وحتى للأشجار. سأفتعل أن جلّ الآدميين على شاكلة المذكورين أعلاه أو على الأقلّ أن فيهم استعداداتهم.

–ثمة وثيقة أخرى . هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد موبيديك ؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسّ إنساني مرهف في الآدمي

– نعم سمعت به وأحييه هو والشباب الذين نذروا أنفسهم لحماية أضخم وأروع الكائنات التي خلقها الله.

كما هناك حمم تجد أحيانا طريقها للسطح فينفجر بها البركان ، هناك داخلنا «شيء» مطمور في أعمق الأعماق يربطنا بجذع الحياة ... هو الذي يشق طريقه نحو سطح الوعي عند البعض مخترقا الطبقة السميكة لآدميتنا البدائية . تتضح الرسالة وما تحمل من أمر قطعي : أوقفوا هؤلاء الأغبياء هم يقتلوني أنا...أنا الذي تستمدون مني جميعا نعمة الحياة.. طالما هناك من يتقبل الرسالة ويفهمها طالما لا زال أمامنا أمل في الخلاص .

– عاد قلبي يخفق لك مجدّدا. لست بالبشاعة التي تريد إيهامي بها...لكن ماذا لو؟... ماذا لو تمادينا في جرائمنا ضد هذه الأرض ومن عليها ؟ افرض أننا ...انقرضنا .

– الأوفر حظّا للإرث النمل ، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا فقط لأنني أكره النمل وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر

والبستاني الذي أعدّ ويعدّ الأرض لتكون حاضنة الحياة.

تتنهد رفيقة الطريق. تعود للحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعترافاتها للقسيس أيام الأحد.

– بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستتدارك حتما خطأ تغييبك عند وضع التصاميم.

–لست ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الآدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقحموا في هذا العالم الفكاهة ناهيك عن الشعر والموسيقى. لكن انتبهي .لي في كل القضايا رأي للصباح وآخر للمساء، لأوقات الغضب ولأوقات الرضا. تريدين رأيي الآخر أنقض به هذا الرأي ؟

–لا، كفاني استفزازات، اتركني أحاول أن أنام .

– كيف يمكن النوم بكل هذا الضجيج ؟

–بماذا تصرخ فينا هذه في الكائنات حسب رأيك ؟

– ربما ، هذه ساعات يقظتنا نحن وما عليكم إلا أن تختاروا وقت نومكم على أساسها... ربما تهتف بسقوط الآدميين. ليثقوا في كامل تعاطفي وصادق مساندتي.يا الله يا جماعة كفى وصلت الرسالة . معكم ألف حقّ .كم سأكون ممنونا لو خفّضتم الصوت قليلا لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها.ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العالم التي تخليت عن فكرة التدوين لرحلتنا فيها. أرق على هذه الضفّة.

الليل وطوله وأنا أتقلّـــــب

الليل وطـــــــــــوله (شيكي)

والقرد يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمـــــر؟

*

سمر ليلة الرحيل

حديث هامس حول النار بين آدميين التقيا صدفة يتبادلان تجاربهما وتقاطع الطريق على وشك أخذهما كل واحد في اتجاه.

–لا تكفّين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جئنا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضور الغائبين... الحيوان الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل ...الفهد الذي ترك خدشا على جذع... الكودو الذي أرعبناه في أحلى أوقات القيلولة...الثيران التي نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة...الغزالة التي لا نعرف كيف اغتيلت ومن قاتلها...أشباح كل الكائنات الآدمية وغير الآدمية التي تدافعت على طرق أمفلوزي وسانتا لوسيا.

– هـل أغلـق عيـنيّ لاسـتحضار الأرواح الغائبـة ؟ أم أنقـر علـى الطاولـة لعـلّ روح السـائحة تـروي لنـا لقاءهـا مـع الأسـد ؟

– الأحسـن فتـح بـاب الذهـن علـى مصراعيـه ليسـتحضر المـرء– ولـو لزمـن بـرق خاطـف– مـا في هـذا العـالم مـن اكتظـاظ وزخـم وتعقيـد. فكّـري لحظـة في الكائنـات الـتي تعيـش في قـاع البحـيرة الـتي وقفنـا علـى شـاطئها نمـازح فـرس النهـر، في الـتي تسـكن الغابـة والـتي تسـكن العانـة، في الـتي تعيـش بـين مـاء وطـين، في الـتي لا تـرى بالعـين المجـرّدة، في تلـك الـتي تختبـئ بـين السـحاب، في الـتي تختبـئ بـين الأعشـاب، في الـتي تحفـر لهـا غـارا، في الـتي تبـني أعشاشـها فـوق الأغصـان، في الـتي تحفـر حفـرا لبيضهـا في الرمـل، في الـتي لا تخـرج إلا إبـان الليـل، في الـتي تـؤذّن بدخـول الربيـع، في الـتي هاجـرت مـن هنـا والـتي هاجـرت إلى هنـا، في الـتي انقرضـت مـن هـذا المـكان وكان لهـا مـن الأشـكال مـا لا قبـل لنـا بتخيلـه. والآن اسـتحضري الأفـراد وليـس الأجنـاس، كل قـرد، كل غـزال، كل تمسـاح، كل نسـر، كل صقـر، كل فيـل، كل ابـن آوى، كل فهـد، كل أسـد، كل ثـور، كل وحيـد قـرن، كل كـودو، كل نعامـة، كل ثعبـان. استنفري مـا عنـدك مـن طاقـة خيـال لاسـتحضار قصتـه، بالآثـار الـتي تـرك، بالآثـار الـتي كان يـودّ تركهـا، بالآثـار الـتي لم يـترك...

– كفى، أصبتني بالدوار!

– انتبهـي لهـذا الجـذع المقطـوع الـذي نجلـس فوقـه، لهـذا الـرذاذ، لهـذه الأعشـاب الميتـة، لهـذه الزجاجـة وهـذا الـكأس، لهـذا الصـوت الـذي تحدثـه النـار، لهـذه الرائحـة المتصاعـدة منهـا، لهـذا النسـيم الـذي هـبّ فجـأة، لهـذه القطـرة الـتي نزلـت بالضبـط بـين عيـني ونظارتـي فأذابـت وجهـك داخـل ضبـاب كثيـف، لهـذا الخـال علـى خـدّك، لهـذه القطـرة الجديـدة الـتي نزلـت مباشـرة علـى عنقـي وتتسـرّب مـن فـوق إلى تحـت ببطـء مثـير، لـكلّ هـذه الأشـجار الـتي تحـفّ بنـا، لهـذه الأغصـان الـتي يرميهـا الدليـل علـى النـار، لهـذه النجـوم، لهـذه الحصـاة تحـت رجلـي، لهـذه الأوراق الـتي أسـقطتها الريـح في حجـرك.

– مـا يهمّـني ليـس كثافـة غيـاب حاضـر أو كثافـة حضـور غائـب. مـا جئـت مـن أجلـه لقـاء كائنـات محـددة بوجودهـا بشـكلها المـادّي الواضـح.

– أما أنا فجئت على أمل أن أبصر الذي يلبس كل هذه الأقنعة.

– بجدّ...جئت تبحث عن الله... هنا ؟

– أيـن تريديـنـني أن أبحـث عنـه ؟ في معابـد تفيـض بموظفـين يتمعّشـون مـن المقـدّس وبشـحاذين يتسـوّلونه دون حيـاء.

وأي الأرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء **(الحلاج)**
تراهم ينظرون إليك جهـرا وهم لا يبصرون من العماء

– ابحث عنه أين تريد أما أنا فلا أعتقد بوجوده أصلا.

– لا أغبى منكم معشر الملحدين ولا أبلد رؤيا من الإلحاد. تخلطون بين حاجتنا إليه وبين تصوراتنا البدائية له. تضعون كرهكم الشرعي للكهنة المنافقين عليه. ترمون كما يقال الرضيع مع حمام الماء القذر.

– أما أنتم معشر المؤمنين فلا أذكى منكم. تتخيلون كائنا يعرفكم واحدا واحدا، يستجيب لطلباتكم، يقتصّ لكم من أعدائكم، يا للكسب السهل!

– أنت لا تدفعين عند شِرائك برامج حاسوبك نقودك لاقتناء التي تخرّبه. لا تختارين إلا أجودها والتي تتماشى مع حاجاتك. هكذا ما فعلته الآدمية منذ البداية. شحنت دماغها بالبرنامج الذي يكفل لها كل مصالحها. أي برنامج أفضل من الذي تقدحين فيه؟ طبيعي أن يلقى النجاح الذي تعرفين وأن يسوّق تحت ما لا يحصى من الأسماء والتصورات الساذجة.

– و ما هي تصوراتك غير الساذجة له...له «هو»؟

الحيرة أمام لغزه... الخشوع أمام إعجازه... الارتياع أمام جبروته ...العجز أمام إرادته... الإحباط أمام تصوّره...كل ما نرسم لها من ملامح باهتة بالفكر وبالخيال من طبيعتنا لا من طبيعته، لأنه كالنور الذي يسافر في الفراغ لا يتبينّ وجوده إلا عندما يعترضه حاجز من المادة.. والذي يرتسم آنذاك خصائص الحاجز لا طبيعة النور.

–ما زلت أنتظر بقية التصورات غير الساذجة . تكلّم وعليك الأمان.

– ربما أقربها لعقلي وقلبي التي أتى بها أحد شعرائي المفضّلين

النجدة يا إيليا، كيف أترجم مشاعرك وليس فقط كلماتك ؟

القصيدة الشهيرة بكل ركاكة ترجمة الشعر.

– رسام وفنان ومفكّر!..نفس المنظومة التي تصورته قاضيا و راعيا وسلطان السلاطين... آدميتنا لا غير...آدميتنا دائما وأبدا. لن أؤمن أبدا بإله له صفات البشر ولو كانت أروعها.

– برافو ،كأنك تقرئين في ذهني . كم أحبّ أن يتفق الناس مع آرائي

–اسمع البقية قبل أن تواصل السخرية مني . أنتم المؤمنون في ورطة. من أين لفكر محدود اختزال اللامحدود في صفات وفي اسم ؟ إنه دوما نفس الحائط الشاهق نرتطم به ولا سلّم لنا لتسلّقه.

– فعلا ثمة حائط شاهق والسلّم قصير، لكننا واعون بالأمر. لذلك أوصى المعلّم الأسمى بأن نقبل له– هو، "الشيء "– كل الصور؛ لا نتوقف عند أي منها. على كل حال ما يهمني ليس تصوره «الصحيح» وإنما الانتباه لتمظهراته وترصّد إمكانية اللقاء به لأنه في كل شيء وفي كل مكان. كل المطلوب الانتباه له عندما يتجلّى فجأة متى وأين لا ننتظره... في عربة مترو ... في حديقة حيوانات ...في هذه المحمية.

كأنني نخزت المرأة بسكين.

-يعني الغبية التي كانت تمشي بجانب سيادتك مرّت مرور الكرام على ما كنت أنت وحدك منتبه له.

– جل حياتي وأنا أمرّ مرور الكرام أمام الكائنات ناهيك عمّن ورائها . اللقاء أندر من سقوط الثلوج على الصحاري في يوم قائظ. يحصل وفق معجزة لا أفهم طبيعتها، هكذا تلقائيا دون سابق إنذار. تجربة تأتي وتختفي بالسرعة التي برزت بها. لا تتكرّر بطلب ولا تفرض بأي قوّة أو حيلة. لحظة انهيار الحواجز .. حضور ذات العالم نفسه في الذات المتشوقة المنبهرة التي حققت أعزّ أمانيها ولو للحظة عابرة كالبرق.

– واصل.

– آخر لقاء لما مدّت لي المرأة الغريبة بربع ابتسامتها حجيراتها وبعض العشب المحترق. أيضا وأنا أتأمل مشدوها الزرافات تشرب من الغدير . حصل أيضا منذ سنوات في قاعة عرض موسيقى. كيف لا أتعرّف عليه والجمال الهادئ الوقور للصبية ملامحه التي لا تخفى على عين. كيف لا أتعرّف عليه والنغمات السحرية المتصاعدة من كمنجتها تنبّه أنني في حضرة الفنان الأزلي المتجدد جيلا بعد جيل. إنها دوما بصماته. ظلّه في كل كائن وفي كل مكان. هو لا غير .

– تذكّرني بجدّتي جاثية في كنيسة قريتنا، مع فارق واحد... أنك طول الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله معبدك.

– فهمتني كما لم يفهمني كائن غير شجري غير حيواني. هل تتزوجيني؟ بشرفي أنا من الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساءهم.

– احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضربن أزواجهنّ... ثم هل ستقدر على مهري ؟

– كم ؟

– مائة بقرة بيضاء على الأقل...هذا إذا أعجب منظرك أبي.

– للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمول به عند الأوائل.

– وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

– قد لا أكون أحسن من يصطاد له ، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألمّع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغلية البيض أحسن مني.

– التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أتراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدّك بقائمتها الطويلة.

– هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة أن الحجارة المذببة والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتماثيل التي انطلقت بها ما

تسمونه الحضارة ، لم تخلق للفنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كثيرين يجيدون الركض. مساكين أوائلنا ! سنوات من العمل الشاقّ لصنع أشياء ترضي جشع العجوز البشع وأولاده الأكثر بشاعة للقبول ببيع أنثاهم بثمن معقول...أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة لمن ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها .

– كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر... ديّة من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

– تعادل بهدف لهدف. على كل حال بإمكاننا الاتفاق على أن الأنثى هي أسّ البلاء...

أولا: لأنه لم يعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية المعروفة النتائج.

ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون أضف لهذا، والمصيبة تتفاقم ككرة الثلج، الليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية والبورصة والمافيات والثورات الفاشلة ، ولا أحد يعلم بقية التبعات.

ثالثا: لأن الانثى لا غير، المسؤولة عن ظهور أولى أشكال العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البليدة .

الحرب ، العمل ، السخرة ...كل هذه المصائب بسببكن ! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا .

– بالضرب والخيانة الزوجية؟

– ألذّ من كل هذا : تحرّر المرأة . هل لاحظت أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة ؟ شغّلي دماغك الأنثوي الصغير. تأمّلي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكّن الأنثى من حق الشغل– قل: من واجب الشغل– ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى «المساواة بين الجنسين». ستكتشفين آنذاك أنه بقدر ما «تتحرر» هذه الأنثى بقدر ما يتحرر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لما خطبت أم تفاحة وتفيحة ، كنت لا أملك شروى نقير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدميا كما كنا نقول تلك الأيام بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. هل تتصورين ! أنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل ! عندي شعور مبهم أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربا بجزمته.

– سلّم عليه من طرفي وبلّغه تضامني وتشجيعي.

– يـا مـرأة شـيء مـن الـروح الرياضيـة. كل مـا أتمنـاه أن يتواصـل التقـدّم في هـذا المجـال. تخيّلينـا بعـد عشـرة آلاف سـنة وقـد وصـل المشـروع الذكـوري الخبيـث هدفـه الخفـي. سـتأتين أنـت تخطبيـنني مـن «مـا». قـد تخـيّرك بـين مائـة ناقـة بيضـاء أو السـخرة لديهـا لعشـرين سـنة. أنصحـك بالعـرض الأخـير بـدل جمـع ثمـن النـوق سـنينا بعيـدا عـني. الوالـدة امـرأة طيبـة لـن تضربـك إلا يومـا بعـد يـوم وسـنقتنص كثـيرا مـن لحظـات الحـب وراء ظهرهـا. بعـد نهايـة العقـد تأخذينـني عنـد أمـك مـع بقيـة العفـش، لكـن انتبهـي، لـن أقبـل أن تضربـني فأنـا ابـن «مـا» ومـا أدراك وجداتـي تنحـدرن مباشـرة مـن بلقيـس وعليسـة مـرورا بفيكتوريـا ومـاري انطوانـت.

– كفى هذرا تريد به تفادي الردّ على السؤال الوحيد الذي يهمني.

– وهو...

– هـل حصل...اللقـاء... بيننـا نحـن علـى الأقـلّ ؟ بـين آدمـي وآدميـة تائهـان وضعتهمـا صـدف الطريـق فجـأة وجهـا لوجـه.

– ونحن ندير الظهر نتبوّل في الهواء الطلق، أنت تخفين حرجك وأنا أكتم ضحكي.

* * * * *

الأشياء

لا توجد سفرة تجدّد فيك أقدم تجارب الأوائل قدر التي تقف بك في مدينة نائية والليل أرخى سدوله.

مؤكّد أن في بعض البنايات المطلّة من يتابع على شاشة ما تحركا غريبا مضطربا رصدته الكاميرات المبثوثة هنا وهناك وقد تكون للصّ أو مجرم خطير.

تبثّ فيّ الساحات شبه المقفرة قلقا متزايدا. تتلاطم داخلي مشاعر مغرقة في القدم عن أخطار مبهمة تترصد ، عن فقدان الحماية والتحكم. إلى أين؟ حتى العلامات لا تعني شيئا وحروفها مجهولة لديّ.

هذا مارّ ربما يدلّني. أتوجه إليه بلغة يفترض معرفة أغلب الناس بضع كلمات منها. يعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبه عفريت خرج لتوه من القبر. هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشكّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يعرض الرجل عني لا يخفي خوفه وانزعاجه.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمى «ليفي شتراوس» وهو يلاحظ أنك عندما تضرب في الأرض لا تغيّر المكان والزمان فحسب، وإنما أيضا ما تعوّدت عليه من مكانة اجتماعية. الآن وهنا، بغرابة سحنتي وجهلي المطلق باللغة، أنا أشبه بالحيوان أو بالمتخلف الذهني... آدمي أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفراده باستمرار على أعلى الدرجات لا يرحمون ضعيفا إلا للتباهي بسموّ أخلاقهم وتأكيد تفوقهم من أخبث باب.

صخب مفاجئ على يساري . متشرّد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتّش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل

المصيبة يوم وضع الأوائل رحلهم ليقولوا: وجدنا ما يلزمنا فأي حاجة لمواصلة التشرد؟ لما توقفوا استملكوا، لما استملكوا ظلموا، لما ظلموا منعوا، لما منعوا تسلحوا، لما تسلحوا ارتكبوا الموبقات التي يحمرّ لها وجه ابليس.. يا ليتنا ما توقّفنا يوما.

من قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرّة... أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة... أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك...أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق المترو وكل أمتعته في حقيبة مكسورة بين رجليه... أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقدتهم المصائب كل صواب.

أي غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيّار، أنهكهم الطريق وأرعبهم أو قد يكون هو الذي رماهم جانبا ضاق ذرعا بحمل ليس من ورائه نفع؟! كم من حطام بشري سأرى على ضفتي هذا الطريق اللعين إلى أن يأتي دوري ، لكن ضحية أي لغم!

يتفاقم شعوري بالضياع وأنا أدخل وأخرج شوارع متجهمة وساحات مقطبة الجبين. يصبح التنفس عسيرا مؤلما كأن جبلا جثم على صدري. يخرجني من تلاطم الأفكار بروز امرأة من الظلام لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرّب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب وحتى التمسكن.

– سيدتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثة، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض، أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دلّيني، جزاك بوذا وإله «ما» ألف خير.

المعجزة. المرأة بابتسامة عريضة :

– أنت مصري ؟ مصر كويس، أنا أحبّ أهرام كثير، مرهبا، ماذا قلت ؟

– أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي أنه قريب من هنا.

– آه نزل السعادة الأبدية ! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت مسموع): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثّر من رعشات لذّة هذه المرأة الصالحة.

تخيّلت أم سمعت المرأة تتنهّد هامسة لنفسها : آمين؟

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدّونك بها.

أخيرا النزل في ابتذاله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأغراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة ، هل انتبهت أن الأماكن الآدمية ، شيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران... أن كل جدار سطح داخلي وسطح خارجي...أن اهتمام الآدميين منصب على السطحين يتكلفون ما يتكلفون لتزيينهما، ينذرون أن لصاحب المكان مكانة، لكنهم لا يقدرون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه الأسطح الداخلية .

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قصر مزركش بكل أصناف الزينة وأغلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش. تقول لي حبا في إظهار تفوقك الفكري عليّ: نسيت يا مسكين ما يتكلفون لتعبئته بأجمل الأثاث وأرقاه وأغلاه.

هذا كل ما عندك لتفحمني ؟

طيب، هل لاحظت أن أهم ما يفرّق بين الأشياء والأماكن أن الأولى تكتسب أهميتها من امتلائها والثانية من فراغها. كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتماثيل الغالية واللوحات المسروقة من أكبر متاحف العالم. لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلاّ في ماذا ستمدّ رجليك وأين ستستلقي على ظهرك ؟ مساكين أصحاب القصور..كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين !

يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع. رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس والغير أن نسمي رحلة نقل جسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلّمها ثم بسيارة أجرة لدفعه أخيرا داخل قفص بموسيقاه الرومانطيزية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق.

يا لهذه الأشياء اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغت متاعبه ومتعته وإن لم تلغ خطر الموت الخاطف مذكرة أنه أيا كانت وسائل الارتحال فالطريق إلى الأزل والخطر سيّا ن.

لا يبقى عليّ إلا إلقاء الجسد المرهق على أريكة غرفة فيها برّاد زاخر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدفّعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة. يجب أيضا تعديل المكيّف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة.

آه منكم -منا- رحّالة وكالات الأسفار، ... بقايا أجيال المغامرين... عار الأوائل.

ماذا تصرخ في أشباحي ؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب ؟

أضع على باب الغرفة لافتة «ممنوع الإزعاج»، وعلى الطاولة الصغيرة حذو السرير لافتة: «ممنوع الحلم».

من الغد يرنّ المنبه منذرا أنه آن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث تتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطاب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفا. كم من حيل للتدجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنّئ ويكافئ نفسه داخل حلقته الضيقة... والعالم في طفرته وفوضاها غير عابئ أو منتبه.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق.

آن الأوان للدخول في الاضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عبثا كل السلطات ودعوت له كل المتمرّدين دون نجاح. ألست من يردد دوما أن السيد من يعطي المثل وليس من يعطي الأوامر؟ فلأعطِينَّ المثل. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحيّ، وهذه المدينة، ولم لا العالم بأسره ؟ ربما ستفيق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريبا في شوارع أقفرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة وبأغلظ الإيمان أنها ستغيّر جذريا في التعامل معنا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة. تقول: افرض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرّت على عنادها خوفا من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيّعه في الجري وراءنا !

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين، أما أنا فلافتة «عدم الإزعاج» موضوعة من الآن، والمعني بالأمر العالم كله، وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح . بدأ الاضراب التاريخي وسنرى موقف كل المعنيين به.

السؤال ماذا سأفعل بكل هذا الوقت وأنا رجل عصبي لا يكفّ عن الحركة؟ ربما النسج على منوال ذلك الأرستقراطي المعادي للثورة المدعوّ دوماستر والذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوما في غرفته عقابا على خطأ ما، فتوكّل وجهّز نفسه لخير استغلال للوقت: استكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها. ربما كان الرجل على حق في سخريته من الرحالة المغامرين– قرنان قبل المسمّى ليفي شتراوس– إذ لا يوجد فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غالينا في التهوّر .

على فكرة، ألم يكن من العدل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة الرائعة ،فطموحي كان وسيبقى أن تتميز رحلتي عن كل ما كتب وسيكتب في الموضوع . وحيث أن هذا اللعين دوماستر شبه مجهول بين قرّاء لغة موليار فما بالك بقرّاء لغة المتنبي...وحيث أن احتمال ظهور ناقد يفضح السرقة شبه معدومة... وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقا ألفا في المائة من عدم افتضاح أمري...فإنني قرّرت بكل أريحية نسبة الفكرة لنفسي وادّعاء أنني أولّ من دوّن لرحلة في غرفة نومه.

ها هي إذن أيها القارئ التعيس، رواية أول رحلة في كل أدب الرحلات ، الهدف منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق...ليس البحث عن الآدميين وبقية الكائنات وإنما الهرب منهم...ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه.

من أحوج مني في هذا التقاطع من الطريق إلى برنامج كهذا ؟

نعم هذا ما عانيت من أهوال وما تكبدت من مشاق وما تغلبت عليه من محن، وأنا أرتحل داخل غرفة نزل عرضها أربعة أمتار ولا يتجاوز طولها ثلاثة.

*

يبدأ الاستكشاف بالنزول من الفراش والتوجّه نحو الحمام وأنا التفت يمنة ويسرة علّ هناك من نصب لي كمينا وراء الأريكة التي ألقيت عليها ثيابي. بخصوص الأريكة أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقا رأي الذي سرق مني فكرتي وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. من أين له هذا وهي عقبة جبارة على الطريق، علما وأنه لا يوجد ما يكفي من الفضاء للجري حتى يمكن القفز فوقها. مما يعني أن المرء مضطر في كل طواف لتسلقها والنزول وراءها لمواصلة التحرك. إنها عملية سهلة في المرة الأولى. جرّبها ألف مرة وقل لي هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الأرستقراطي الفرنسي الكسول. أوف، وصل المغامر الصنديد إلى حيث يمكن الاغتسال وقضاء بقية الحوائج الطبيعية ولا أخطار تستأهل التضخيم. الآن وقد استحممنا وأفرغنا ما فينا من نجاسات، ولبسنا ثيابنا المخصصة لاستكشاف المناطق القاحلة، يمكننا إتباع الطريق الذي ينطلق من الباب إلى النافذة بدءاً بالمشي الحذر على الجانب الأيسر للسرير.

لنتوقف عند بعض خصائص الطريق في هذا المكان. هو ليس مقرف الطول كالذي يتهددك خارج هذا المكان بل هو تحت سيطرة البصر في كل أجزائه وهذا لعمري شيء يستأهل كل ثناء. هو يصل بك القطب الشمالي للسرير بعد دقيقة واحدة وما من عاصفة هوجاء، أو دبّ ثقيل الظل، أو آدمي طماع يضيّع وقتك في المعروف من المشاكل المبتذلة.

وصلنا القطب الشمالي بأمان. نرفع العلم ونعلن ملكيتنا عليه باسم جلالتنا. ماذا لو وجدنا مقاومة من السكان الأصليين ؟ أجيل البصر حولي بحذر خائف، ثمّ أتنفس الصعداء. لا وجود بتاتا لأي حركة مسلحة تطالب بدحر الغازي.

حذار من الاعتقاد بان استكشاف غرفة النوم بالسهولة التي تظنّ والدليل اضطراري لزحزحة السرير الملتصق بالحائط لشقّ طريق العودة. ها قد وصلت القطب الجنوبي للسرير ولا تفضّلت عاصفة بالصفير ولا خرج من تحت الطاولة دبّ ثقيل الظل ولا تكلّف آدمي الصراخ في أذني: قف يا جاهل، لا دببة في القطب الجنوبي لكن سنتكلف بوظيفتها، كيف تفضل أن تؤكل: مشويا أم مسلوقا؟ يا مغفّل، قلنا: تؤكل لم نقل تَأكل!

غريب غياب الدببة والسكان الأصليين البشعين والعواصف الثلجية!

ماذا لو كان كل هذا خدعة حرب؟ من يعرف خبث العالم أحسن مني؟ لننقّب عن الدب والعاصفة والآدمي الشرير تحت السرير وتحت الطاولة وتحت الأريكة وفي أدراج المكتب.

اللعنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء –حتى بأدراج المكتب– أكثر من ربع ساعة... وذلك الآدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا! كم مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما ؟ (لكسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل).

أضيع في حساباتي ومراجعة نتائجها وكلها دوما متناقضة. فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعبقرية التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف فآدمي نزيه مثلي لا يسرق أبدا ما ليس بأدنى حاجة إليه (إلا في بعض الحالات التي لا يفهم دوافعها حتى الوعي الباطني)

استسلم بهذه السهولة! لأكن وفيا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل. كيف وأخطر من الدوار الملل ؟

أجلس على الأريكة مجيلا البصر في المكان المغلق ومتسائلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليالي كاملة.

لا شيء باستثناء مشاهدة التلفزيون.

التلفزيون! أنتبه لخطورة الجهاز لا بسبب ما يتدافع على شاشته من مآسي الآدميين ومهازلهم ولكن بسبب طبيعته ذاتها. فالآلات أحيانا وبصفة لا واعية محاولة تقليد ساذجة لجزء من طبيعة العالم أو كلها. وهذه الآلة مكوّنة من صندوق تعتمل داخله أمور غير مفهومة نتيجتها صور وأحداث تتزاحم على شاشة تسلط عليها العيون. ما الذي تحاول الآلة تقليده أو التصريح به؟ أن العالم شاشة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو بيأس متعاظم ؟

نعم، قد توجد كائنات ما تنظر لنا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب. ألم تتابع آلهة هومير كبرى المعارك وزوس يحرّض هكتور وأبطال طروادة وبوسيّدون ينتصر لأقامنون وفرسان البحر؟

هومير! ما الذي نقصه حتى لا تنتصب على قمم جبال الانديز، في كهوف اثيوبيا، في غابات كيرالا وسهول بريطانيا معابد المرمر الأبيض بدل كنائس الطوب والحجر ؟... ما الذي حدث حتى لا تخرج جماهير هذا الزمان وراء مواكب زوس وأثينا... ما الذي جعل ملحمة الأم والابن تغلب ملحمة الأب والبنت... آه يا هومير لو كان له مدير أعمال كالداعية الداهية المسمى بولس ؟... آه يا نبي بلا بخت.

نفس الهاجس : ما العمل بكل هذا الوقت المترصّد بي ؟ تقول : استعمل الهاتف لإزعاج الأحباب والأصدقاء. رحماك، لا أكره عندي من التلفزيون إلا الهاتف وكم من أشياء غبية أخرى من نفس الصنف.

الأشياء! ماذا كتبت؟ الأشياء! أليست المحتوى الثالث للحاوي الكبير الذي يسمونه العالم؟

تداهمني الفكرة أنني لم أنتبه يوما لوجودها وأنني كدت أمرّ عليها مرّ الكرام في نصّي. تجتاحني قشعريرة من خوف مفاجئ كالذي ينتابك وأنت تنتبه لخطر ماحق أفلتّ منه. ثم يداهمني جذل يجدّد قواي وقد أيقنت أن الاعتصام لن يمرّ في التلذّذ بالكآبة والملل إنما سيكون سفرة مثيرة فيها من المفاجآت ما سأرقص لها طربا.

*

التأكّد أن لافتة «عدم الإزعاج تحت أي سبب» موضوعة في الوجهة الصحيحة على الباب الخارجي، و الباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟

من منكم اكتشف التناقض ؟ تقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثَم جواز تسميته بالمفتاح. تخلّص سهل فهذا الذي أقصد صُنع وطُوّر وحُسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها «سرّي للغاية»... كل هذا خوفا من جشعكم وقلة أدبكم وفضولكم، أيها الآدميون الخطيرون.

الوظيفة الأساسية لشيئك هذا بما لا يدع مجالا للشك إذن، هي الإغلاق. أما الفتح– أي الرفع المؤقت للإغلاق– فمن المهام الثانوية، ومن ثَم دعوتي لإطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح فيؤسفني القول أننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل. كم كانت الرحلة تسهل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وطبقات الذاكرة وآخر لفتح أبواب محتشدات بني حيوان و ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تخفي فيها أسرارها التعيسة.

ثمة إذن قصور لغوي قد يكون خلقيا وليس فقط مكتسبا في تسمية الأشياء، لكننا لن نفتح هذا الموضوع الشائك.

والآن وقد فرغت من هذه النقطة، لأواصل الاستكشاف.

إذن حولي : سرير ، أريكة ، خزانة ، كرسي ،مكتب، دفتر، لمبة، برّاد. داخل الحمام: حنفية، دشّ، ستار، مناشف، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، موسى حلاقة، معجون أسنان، كوب.

ما زال امامي متسع من الوقت لاستنفاذ هذا الفضاء أنتقم من ذلك الآخر الذي لا يستنفذ. آن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة أغالب به تسلل النعاس .فرصة لأتمعّن فيه كأني أراه لأوّل مرّة.

بداهة الشيء الذي بين يديّ كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقا. هو يحدث صوتا إذا ضربت جداره بالملعقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكّد من الأمر دفعه للسقوط من الطاولة وتكلّف مشقّة جمع كل هذه القطع ؟ ثم ما مصير هذه الأخيرة ؟

على حـــافتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حـــديد بـــالٍ

أشلاء صحـــون

مواسير مـــعوجّة

أســـلاك

علب سجائر فارغـــة

حطب، بلاستيـــك

أوانٍ مهشمـــة

تنتظر البعث مثلنـــا

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت... مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الآدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض... مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا يوجد أيضا في عالمي الصغير ؟ طبعا هذه اللوحة على الحائط التي تريد الإفلات من الجرد.

لنعدّد ما تحتوي عليه من أشياء لا يهمّ موضوعها أو جمالها: المسمار، الزجاج، اللوح، الورق، الأصباغ.

أين بقية الأشياء؟ هي داخل الأشياء نفسها. صحيح أن الشيء ملعقة، مكتف بذاته، ولا توجد أشياء داخله. ومع هذا أغلب ما أواجه به علب كبيرة تحتوي على علب أصغر، هي نفسها حاويات لمحتويات لا تحصى. ماذا لو بدأت بتفكيك التلفزيون؟ رفض الفكرة رغم إغرائها الشديد. ستتسبب لي في مشكلة مع إدارة النزل. أضف لهذا أنني سأكتشف داخله أشياء لا قدرة لي على تسميتها، كذلك الأمر مع الهاتف علما وأن رغبة تفكيكه أصعب مقاومة. ثمة البراد وما يهمّني فيه ليست الأشياء التي في جوفه كلاّ، إنها الأشياء التي تجعل من البراد برادا.

عودة إلى نفس الرفض لنفس الأسباب المذكورة أعلاه، يضاف إليها أنه مستعص على التهشيم مثل الهاتف والتلفزيون، ولا أعرف فتحه على طريقة عمال الصيانة. ثمة إذن خبث خاص بالأشياء وهي مثل الكائنات لا تظهر لنا إلا سطحها محتفظة بأشلائها داخلها. من حسن الحظ أن هناك شيئا أستطيع البحث في أعماقه دون صعوبة أو خطر: حقيبتي.

يبدأ العدّ مباشرة بعد نفض بقية محتويات الحقيبة على السرير: جواز غير مزوّر، بذلة قميصان، وشاح، دفتر ،ديوان أستاذ «أين في الناس»، كيس الملابس المستعملة، جوارب،

صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، بطاقة الطائرة، طبق نحاس صغير منقوش، باقة ياسمين ، علبة تمر من الدقلة الفاخرة .ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ؛ ليس داخل العلبة إلا تمر لذيذ يمكنني أكله كله بما أن أي من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الاضراب العامّ . والآن ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ آه ثمة في جيوب البذلة التي طويتها بسرعة وحشرتها في الحقيبة هاتف نقال مغلق منذ أيام و بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة.

المـــال !

للمال على احتقار ذي العقل له (عمر الخيام)

شأن فأخ الفقر سجين الكرب

الفقر دعا البنفسج النضر لأن

يهوي برؤوسه لحد الركب

في حين بدا الورد لنا مبتسما

لما امتلأت جيوبه بالذهب

إنه شيء يشبه المفتاح، لأنه يفتح أبواب الأماكن التي كدّس فيها الآدميون- على مرّ العصور- ضرورات الرحلة وكمالياتها، أي كل ما حرمتنا منه الإدارة العامة وهي تلقي بنا على الطريق حفاة عراة ولا حتى أظافر وأنياب محترمة للقنص بالحدّ الأدنى من الجدية. دخول هذه المخازن وَقفٌ على من يملكون المفتاح. الحصول عليه بالنسبة لمن لم يجدوه قرب المهد، أصعب حتى من صيد الكواسر بأظافرنا. قد يجد هؤلاء المساكين العزاء في فكرة أن المال الذي حرمتهم منه إرادة غير مفهومة أو صدف عمياء، ليس بالضرورة خيرا صافيا وهو يتسبّب في كثير من المشاكل ومن أوجاع الرأس خاصة عندما يتعلّق الأمر بالحفاظ عليه من اللصوص ومن جباة الضرائب ومن الأطفال والأصدقاء المفلسين. أضف إلى ذلك أنه، وإن كان يسمح بشراء ما له ثمن، فإنه لا يمكّن أبدا من الحصول على ما له قيمة.

اكتمل الجرد ؟ يا رجل، لا تكن ساذجا. أعود للعمل بعصبية لأكتشف كل ما سهوت عنه : قنينة عطور، شامبو علبة شكولاتة، أريكة صغيرة منزوية أفلتت من الرصد.

ماذا بقي مخفيا ؟ لا شيء. هل تمزح ؟ أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا وضعه في الصدارة، في الواجهة، على مرمى حجر، أمام أنفك وفوقه أحيانا، والدليل على ذلك أنني قلبت مكتبي رأسا على عقب أكثر من مرّة لاكتشاف أين ذهبت نظاراتي وهي...

ما الذي يحاول العالم إخفاءه عني ؟ لا بدّ أن يكون الشيء ضخما للغاية وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. آه إنه جهاز التبريد طبعا. هو لم يكفّ بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء. لم تنطل حيلته طويلا. ها هو على رأس القائمة.

ماذا الآن عن الشيء المختفي في صغره البالغ؟ هل هي علبة الكبريت؟ أم هذه المشبّكات لمنع الأوراق من التناثر؟ أم هذا المسمار المسمى «بقة»؟ يا لي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. إنه بالطبع الغبار الذي تسميه اللغة أيضا «الهباء» وتصفه بصفة آلية بأنه «منثور». الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل كل الفراغ بما فيه فراغ الكون.

لسبب مّا تثير فيّ هذه الخاطرة قلقا غامضا. أسارع للمرآة أتأمل شكلي مقدّرا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. تصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعيها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لآدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحاب خفيف! كم سيتطلب كنس هذه الوساخة من وقت، و«الويك أند» على الأبواب! بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلّدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو منطلق كل شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جبنا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان عملي الجديد : إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

*

الأشياء إذن ، حتى داخل هذا الفضاء بالغ الصغر، أكثر مما توقعت وأغلبها أفلتت لسبب أو آخر من الإحصاء. هناك أيضا تلك التي تحاصرني من الخارج . ثمة أشياء العسكريين مثل حاملات الطائرات والدبابات والقنابل والسواطير. ثمة أشياء الحلاقين وأشياء الجزارين وأشياء الفلاحين وأشياء المزوّرين وأشياء الجلادين وأشياء النساء وأشياء الأطفال وأشياء المقعدين وأشياء السحرة وأشياء المنجمين وأشياء عمال الياقات الزرق (بمختلف اختصاصاتهم) وأشياء عمال الياقات البيض وأشياء مرضى الجنس وأشياء الجراحين وأشياء رجال المطافئ وأشياء الطباخين وأشياء المراهقين وأشياء المراهقات وأشياء السينمائيين وأشياء رواد الفضاء وأشياء الباحثين. لا يجب أن ننسى أشياء الكتّاب مثل القهوة وعلبة السيجار الرخيص، والقلم والأوراق المليئة بجمل غير مفهومة حتى لصاحبها، والحاسوب القديم والطابعة المعطوبة طول الوقت، وأسطوانات باخ وموزارت وشوبرت، وجهاز الراديو، والمنجد، واللمبة التي لا تضيء شيئا، والولاّعة الخضراء التي نفقت، والولاعة الزرقاء التي ما زالت تعمل ببالغ الصعوبة، والمطفأة المليئة بأعقاب السيجار. من تصوّر يوما أن الآدميين بحاجة لمثل هذا الزخم من الخردة ومشتقاتها!

تنبّهني أن موضوع هذا الكتاب الرحلة، وجزء قارّ منها استكشاف الفضاء الحسي بأشياء نحركها بعضلات الطرفين السفليين لتنقلنا في وضع غير مريح من مكان إلى آخر شريطة ألا

يكون بعيدا... بأشياء أخرى تحملنا بسرعة أكبر وإلى أماكن أبعد بل وتتكلف هي تعب الحركة، وكل ما في الأمر أننا نخاطر بركوبها بحياتنا وحياة الآخرين... بأشياء تتحرك بنا إلى أقاصي الفضاء الحسي وطريقها الذي تشقّ بين طبقات السحاب... بأشياء تنطلق إلى ما فوق السحاب تحطّ براكبها المحظوظ على سطح القمر.

نعم، كل هذه الأشياء موجودة للأسف، لكنني أعرضت قصدا عن الحديث عنها إذ لا أحبّ إلاّ استكشاف العالم مشيا وكنت أفضّل وصوله قبل أو بعد ظهورها حتى وإن اعترف بأن وصول القطبين دون أي دعم منها، وعلى القدمين، أمر صعب التحقيق.

المهمّ أنك انتبهت أنه لا يوجد طريقة لتصنيفها أحسن من التي تربطها بالاستعمالات والمستعملين، فلا سبب لوجودها إلا وهو مرتبط بوظيفة تلبي حاجة ما للآدميين، بل قل: هي حاجاتنا بشتى أصنافها ترجمت لأفكار، ثم لصور، ثم لمشاريع تحققت في أشكال اتخذتها المواد التي وجدناها في المحيط.

الحاجات ؟ مدخل لتصنيف أدقّ :الأشياء الضرورية للجميع (الهاتف النقال)... للأغلبية (التلفزيون)... للأقلية (الكتاب)... للنخب (التماثيل المسروقة من وادي الملوك وأنجكور ومتاحف بغداد).

اكتشفت نقطة الضعف في هذا التصنيف، وأن هذه وجهة نظر مثقف لا تلزم العمال والفلاحين وبقية المكافحين بالفكر والساعد!

طيب، سحبنا الاقتراح ولنترك موضوع التنظيم لرجل علم مختص، وما عليه هو إلا أن يجد الحل ويتحمل نقد الذين لا ترضيهم أي فكرة ليسوا أصحابها أو أخذوا تمويلا للدفاع عنها.

هناك تصنيف يخصني وهو الذي يضع من جهة الأشياء التي تنبثق منها الموسيقى وعلى الضفة المقابلة كل ما تحبّ أنت. ما يذهلني في الشيء الذي اسمه «العود» ليس ما يعتصر منه الفنان من أنغام تسكرني وإنما كل الوقت المتطلّب لكي يروّضه ويجعله طوع بنانه... سنوات وسنوات من العمل ، لكن من يروّض من؟ الشيء الذي يستلّ من الفنان كل قدراته ويعاقبه أشدّ العقاب لأبسط هفوة، أم الفنان الذي يقضي عمره ولا يصل لاستنفاذ قدرات سحرية لقطعة مزركشة من الخشب؟

تقول ماذا تفعل بالأشياء التي لا تلبي أدنى حاجة ولا تصلح لشيء. مثلا تماثيل بأذرع حديدية تتحرّك في كل اتجاه ولا تحرّك شيئا كالتي ارتكبها فنان يدعى جان تنقلي وتطلّب وضعها تصاميم معقّدة استنزفت أموالا باهظةدفعتها حبيبته الفنانة نيكي دو سان فال. لنقل أنها الشاذة التي تحصى ولا يقاس عليها، الاستثناء الذي يوكّد القاعدة.

يقطع عليّ أفكاري رنين الشيء المسمى «هاتف»، رغم أن الذي في جيبي مقفل بإصرار. تحضرني قصة تقول أن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الآدمية بالسراح الشرطي وبالعفو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال

وحتى القضاة، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفّعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدعم الموقف بكل قواي المتواضعة وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات. نعم لا عدوّ لي بين الأشياء إلا هذا الشيء ولأسباب كثيرة منها المغرقة في القدم ..

في ملفات الطفولة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من «ما» صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على «با».

في ملفّ آخر تهزني «ما» من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

كم من ذكريات بشعة بطلها دوما هذا الشيء اللعين .يرنّ صوته في غرفة الحراسة. تصرخ فيّ المرضة: الرجل يفرغ من دمه. عجّل. يرنّ ا والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود لفراشي لأسمع تجدد الرنين. أهرول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمتا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخطّ. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضّل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

تمرّ السنوات والعقود وهو دوما نفس الشيء السمج الحامل لكل خبر سفيه : سيدي هجمات حاقدة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم . أرمي بالشيء على الأريكة وأهزّ كتفيّ : معاقبة الحاقد على حقده ؟ لماذا أكلّف نفسي هذا العناء ؟ ألا ينتقم لي من نفسه ؟ الحقد لا يدمّر المحقود وإنما الحاقد . هو بمثابة حامض يسكبه باستمرار على جرح غائر في الروح .

يا للمساكين الذي ابتلوا وبلوا أنفسهم بهذا السمّ الزعاف.

يرنّ الشيء : آسف سيّدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية....الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلي منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا...

من يستطيع الاطمئنان لآلة كهذه ؟ تقول بأنني أتجنّى على شيء يؤدّي كم من خدمات... نعم؛ للآخرين، الذين يستطيعون مغازلة حبيبة أو الثرثرة مع صديق بلا مخبر يسجل كل كلمة يقولونها.

المشكلة أن الرنين اصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلّته، تمادى في المعاصي. فعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبى إلا أن يصغّره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- عل حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب. هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حبّ أغلب الآدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلي من تفاهة وكم مضحكة خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع ، في عدم المعرفة ، في التجاهل وفي الجهل ؟

ثمة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلة لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوطات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجمل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاحة وتفيحة بحشو أذنيّ بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوت كم أزعجني في الحياة.

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكره أعنف، وآنذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلّبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصّدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ وعليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيني الجميع. لم لا؟ سيمكنّني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوّالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! «شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي». طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: «يلعن أبوك يا ابن الكلب». الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. آه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين!

تقول: لا يكفي أن تكون سيء النية بالبشر والكائنات والآن بالأشياء. اعلم أنني لست ضد الأشياء ولا حتى ضدّ البشر الذين ارتكبوها. كلا، فأنا بشهادة نفسي رجل متوازن، يضع الوسطية والنسبية والاعتدال حتّى في شتائمه. مثلا أنا أقرّ بوجود أشياء لا ترنّ ولا تحمل الأخبار السيئة بل ومظلومة.

خـذ السـرير مثـلا- أو الحصير بالنسـبة لمتطـرفي الفقـر- مـن منّـا كتـب فيـه قصائـد الغـزل أو أبحاثـا فلسـفية قيّمـة أو دراسـات علميـة علـى صفحـات «نايتشـر»، والحـال أنـه هـو مـن يفتـح لنـا رحابـه كل ليلـة لنرتـاح مـن أهـوال الطريـق، ولا متعـة أكـبر ممـا يوفّـر ليالـي الحـب، ناهيـك عـن كوننـا نولـد عليـه ونمـوت.

مظلـوم كبـير آخر...الحـذاء ! مؤكّـد أنـني خلعتـه كعادتـي حـال دخولـي هـذه الغرفـة ورميتـه دون رفـق تحـت الأريكـة لا أكلّـف نفسـي عنـاء النظـر إليـه. ومـع هـذا، هـل ثمـة شـيء أدّى لـي مـن الخدمـات مـا أدّاه هـذا الشـيء ؟ انظـر كيـف يعاملـه أغلـب النـاس وكـم مـن عبـارات ازدراء تلصـق بالشـيء المسـكين. منهـم مـن يذهـب إلى حـدّ رميـه في وجـه كبـار الأغبيـاء والمجرمـين وكأنـه لا يوجـد شـيء أكثـر حقـارة منـه. هـل يعقـل شـيء كهـذا ؟

تصوّر كـم كان سـفر الأوائـل عذابـا صرفـا وهـم يمشـون حفـاة مـن المهـد إلى اللحـد. لا غرابـة أن يكـون الحـذاء مـن بـين الأشـياء الأولى الـتي خلقوهـا، بـل وحتـى قبـل الهاتـف النقـال، رغـم علمـي أنـك لـن تصـدق مثـل هـذه الأطروحـات الجريئـة والاسـتفزازية. نعـم، هـل كان بوسـعنا تحمـل الطريـق لـولا هـذا الشـيء... صاحـب الأيـادي علـى قدمينـا ؟

صحيـح أنـني انتبهـت يومـا أن أهـمّ مـا في جسـدي قدمـيّ والحـذاء جلدهمـا الثانـي. لذلـك طلبـت و أطلـب وأكـرر الطلـب بـأن يتلخـص تمثالـي، إذا رفعـت لـي يومـا التماثيـل، في شـكل قدمـين لكـن بفردتـي حـذاء، وعلـى النحّـات أن يعطيـه حقـه الكامـل مـن الإبـداع الفـني والإتقـان التقـني.

تداهمـني صـور عشـرات الأحذيـة الـتي أبليتهـا علـى الطريـق وتخلصـت منهـا رميـا في الزبالـة لا يعنيـني مـن مصيرهـا شـيء، والحـال أنهـا وفّـرت علـي مـا لا يحتمـل مـن الآلام، وسـهلت علـيّ الطريـق كمـا لم يسـهله ديـن أو علـم أو أدب ولا حتـى موسـيقى. كـم نظهـر للأشـياء مـن عقـوق أفظـع مـا فيـه لامبـالاة، هـي أقسـى القسـوة واجهنـا بهـا الأشـياء أو الكائنـات.

«وحده الحذاء القـديم (روبرتو جيواروز)

لا يحتقر الطريــــق

وحده يستطيع حمـلي

إلى حيث يـجــــب

بعدها أواصل حــافيا»

تتغـير فجـأة نظرتـي للأشـياء عمومـا ولهـذا الشـيء علـى وجـه الخصـوص. أسـحب الحـذاء مـن تحـت الأريكـة وأبـدأ في تنظيفـه كأنـي راهـب مسـيحي يصقـل الصليـب قبـل القـدّاس. يـا لـه مـن منظـر مهيـب والآدمـي المعـترف بالجميـل أخـيرا ينظّـف الحـذاء ويلمّعـه لأجلـه، هـو الحـذاء، لا لأغـراض لابسـه. بمثـل هـذه المشـاعر النبيلـة والأفـكار العميقـة سـأكون عاجـزا مـن هنـا فصاعـدا عـن حشـر قدمـيّ داخلـه ترفقـا بـه أي خوفـا عليـه مـن العفـس والروائـح. إن

حفظته من الاهانة كيف سأواصل الطريق وهو ممتلئ بالشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟ من سيقبلني في صالونه بقدمي القذرتين ؟ أي جامعة ستحملني على محمل الجدّ وأنا أدخل المدرج متأبطا حذائي أضعه بمنتهى الحنان على الطاولة قبل الشروع في المحاضرة ؟

ورطة لا خلاص منها إلا بالعودة إلى النظرة القديمة للأشياء عموما وللحذاء تحديدا. نقطة أخيرة بما أننا نتحدّث عن الحذاء. أنظر دلال الأشياء وهي لا تترك لنا خيار المواد التي نصنعها منها. أذكر أنني فتّشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطء في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقير الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشّاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور. إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة (طبعا التي تطير وتحمل ركابا)، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيّد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا، ثم يدّعون بعدها أننا نفعل ما نريد بها وأننا مثل الآلهة التي تقول للشيء : كن فيكون.

يرنّ الشيء المسمى الهاتف. أقرّر تجاهله ومواصلة تلميع الحذاء وأنا جالس على العرش الديمقراطي الوحيد معمّقا تفكيري في أيادي الأشياء علينا. جالس على ماذا؟ كدت أنسى الحديث عن واحد من أهم الأشياء لأننا كلنا من مستخدميه ومع هذا كم نستنكف عن ذكره والثناء عليه.

هنا تهزّ كتفيك وقد فهمت قصدي منذرا بأنك لن تضيع مزيدا من الوقت في قراءة هذا النص وهو على أهبة الخروج عن قواعد اللياقة والأدب. انتظر يا ناكر الجميل ، يا جاهل ، أليس الشي الوحيد الذي يتوجه إليه الملوك والطغاة وكل المتكبرين مترجّلين بلا حرس، يختفون فيه ولا يطالبون أحدا أن يصفّق لما يخرج منهم.

يفضح الشيء الذي ترفض لي حق الحديث عنه خاصية جديدة للأشياء وهي ارتباطها بمكان. مثلا أنت لا تضعه وسط الصالون ولا بدّ أن يكون دوما في مكان منعزل ومغلق من البيت. مجدّدا الأوامر المضمنة في الأشياء والتي لا بدّ من طاعتها وإلا فهي الفوضى. تصوّر دهشتك لو وجدت أقلامك وفرشاة أسنانك ونظاراتك في أدراج المطبخ والسكاكين والملاعق والشيء الذي تخجل منه فوق مكتبك. تصرخ فيّ أنني تجاوزت كل حدود اللياقة المطلوبة من كاتب حيال قارئه، ثم تضيف– والشرر يتطاير من عينيك– أنني عدت للهجوم على الآدميين لا أحترم حتى الحرائر. آه منكم يا بشر، ما أظلمكم. الآن وقد هدأت يمكنني أن

أتابع سيل أفكاري لمواصلة تذكيرك بكل الأشياء التي تستعملها ولا تعيرها أدنى اهتمام، فما بالك بشيء من العرفان.

الثياب مثلا. على أي حال من الاضطراب كنت سترتحل عاريا حتى وفي يدك نقّالك اللعين! من يقدّر اليوم حق قدرها الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جدّ بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المريع للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة للجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم الغنم. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدّر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الآدميين- خاصة الإناث- من ينتبهون أكثر، لكنني أشكّ أنهن يظهرن لها من الامتنان أكثر ممّا أظهر. فالثياب دوما مجرّد أدوات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتميّز، أو لأداء مهمة قذرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع، ثم تعطى للخادمة أو تلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفئران.

ثمة أوادم يعرفون قدر الثياب حتى ولو كان مجرّد منديل مثل المدعوّة هرتا مولر التي تستأهل جائزتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

" هل لديك منديل؟ سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل...كان الحبّ مقنّعا على هيئة سؤال...في البيت كان للمنديل أهمية فائقة... المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداع نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلا فإنه يلفّ منديله حول يده. نحرّك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثّة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله".

كيف سأتجاسر من هنا فصاعدا على الاستعمال العادي والشيء يوضع على عيني من خرّ صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصبت برشح سأضغط بإصبعين على منخري وانفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. للأسف سأواصل إغراق الشيء النبيل بسوائلي الأنفية اللزجة الخضراء أو أمسح فيه يديّ لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتّى منديلا.

تقول تبالغ كعادتك ،أنسيت شبه التقديس الذي يوليه بعض الآدميين للأشياء التي تصلح لحفظ الشاي وإعداده وشربه، يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال كأنهم يجاهدون لإنقاذ مريض عزيز من الموت، يفضلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل؟

أنسيت ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء لأنها واكبت ماضينا، لأنها أصدق شاهد عليه، لأنها– خلافا للكتابة– لا تكذب عليه؟ أنسيت وضعها في المخازن والمتاحف وعلى أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟ أنسيت حب الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع وإجماع الآدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تلبس ولا تصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.؟ أنسيت أنها قد تلبيّ حاجيات مثل خطف الأبصار عند الإناث و إظهار الجاه عند الذكور، لكن الأصل فيها بحثنا الذي لا يكلّ عن الجمال؟ أنسيت ما تكلفه من مشاق سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذي أفنوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبّد لها؟ أنسيت كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها ؟

فجأة أنتبه لإناء موضوع على رفّ. يبهرني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جريا وراءه حرفيون صعدوا إلى الجبال ينقبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونه منه... الشيء الذي استفزّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار...الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار...الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدين العواصف والقراصنة، قاصدين مرفأ في أقصى الشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهرا حمولات قوافل اشباه العبيد... الشيء الذي رجع به جشعون غرق منهم الكثير وغرقت معه أثمن بضاعة... الشي الذي مثّل سرّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

طيّب، ليكن أننا أمام حالات تطرّف في عبادتها ولنعد إلى تلك التي تأخذ منّا قسطا من الاعتبار ليس فيه إفراط.

اعتبر الكتاب مثلا. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المربّي، الدليل الصديق ، السمير والمنبّه الأكبر! كيف لا يكون المسافر ممنونا له، وهو الذي يأخذنا إلى كل زمان ومكان.

تصوّر حرج الوضعية لو خيّرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدا بين فردتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج. أي حياة حافيا، لكن أي حياة دون كتاب الطريق... أجمل هدايا «ح».

يعود الشيء للرنين المطوّل غير عابئ على ما يبدو بازدرائي. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة .كم بقي لي من الاضراب. كم الساعة الآن؟

الساعة ! ربما لم ألحّ بما فيه الكفاية على أن تصرفات هذا الشيء من أهم أسباب دعوتي للإضراب العام. أستعد الآن لتصفية حساباتنا معه وكلي ثقة أنك ستوافق على كل كلمة من كلماتي. ها هي الساعة موضوعة على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "اللمبة" أسلطها عليها كما تعلمت من المحققين في الأقبية المخيفة. لا بد من محضر مستفيض

لكل جرائم الشيء وهي لا تحصى ولا تعدّ ويمكن اختزالها في جريمتين. أولا التعدي على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو سيل متدفق. ثانيا، ادعاؤها تمثيله، لكن من منكم توقف هرمه عندما كسّر ساعته أملا في...

تيك، تاك، تيك، تاك. الساعة على أذني أتوهّم أن للزمان صوتا. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك . متى انطلق العدّاد؟ ما ميزانيتي من الزمان ؟ كم وضع منه في رصيدي لحظة الصرخة الأولى ؟

ما أقصر هذا الليل (شيكي)

ترى كم بـــــقي

لي من لـيــــالٍ؟

حقا يا شيكي تريد أن تعرف ؟ قد تعضّ أصابعك نادما لو فاجأك جنّي خبيث بالردّ .

تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك . خطوة بعد خطوة تتباعد البداية، تقترب النهاية. حاول التوقف عن المشي وستكتشف أن بساط الزمان الذي تسير فوقه هو لن يتوقف. نعم ، أُسعفنا بإمكانية الثأر : إيقاف التيك تاك بمحض إرادتنا. لكن ممّن سنثأر والعالم بالكاد منتبه لقدومنا أو لرحيلنا؟ يوم يسألك أحد السؤال المبتذل ، قل حالي كحالك ، حيّ لحدّ الآن... وبصدد الموت لحظة بعد لحظة، كالشمعة تذوي من طول الاستعمال.

نهار يزورنا كعابر سبيل (محمد برهان)

يفرغ ضــــــــوءه

فوق عقارب الســـــاعة

يقضم شيئا من أحلامنــا

ثم يـمضــــــــــي

حتى قبل أن نشعــــل

نار الـمضـــــــافة

والآن التهمة الدامغة : أي زمن تقيس هذه الساعة الغبية ؟ زمن الفيزيائيين أو زمن الشعراء؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟...زمن الشجرة التي تعيش عشرة آلاف سنة وزمن الحشرة التي تموت لحظة تولد كأنها عود الكبريت انطفأ حال اشتعاله... زمن الحضارات؟... زمن الدول؟... زمن الانظمة السياسية؟... ؟...زمن الآدمي... حتى هذا ! الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف...الزمن المستنقع لأيام زنزانات العزلة الانفرادية ؟

نقرأ لائحة الاتهام قبل الإدلاء بالحكم الجاهز سلفا. «وحيث ترفض هذه الساعة– شأنها في هذا شأن كل الساعات– الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وأن هذا دليل على سوء نيّة لا تعرف حتى عند النقال... وحيث يتبيّن من عدم توقّف الزمان

عندما تتعطّل أنها تكذب في ادعائها تمثيله ونيابته... وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا... وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفكّ عن دفع الزمان قدما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء...وحيث تتوقف عقاربها عند الأربع وعشرين رافضة لنا كل ما فوق مما يؤدي إلى اختزال العمر... وحيث أن زمنها الذي تدّعي قياسه زمن ركيك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير...

بعد السلام الحـــــــــــــرب (برنارد فربر- بتصرّف)

بعد الحرب الســـــــــــلام

بعد المركزية اللامركزيـــــــــة

بعد اللامركزية المركزيـــــــــة

بعد المدن، الــــــــقـــــــرى

بعد القرى، الــــــــــــمدن

بعد البرلمان، الحكم الفـــــــردي

بعد الحكم الفردي الــبرلـــــمان

بعد الهدوء، الانفجـــــــــار

بعد الانفجار، الهــــــــــدوء

بعد الفوضى، انضباط الاستبـــــداد

بعد انضباط الاستبداد، الـــــفوضى

بعد الموضة المزركشة، الموضة الحزينة

بعد الموضة الحزينة، الموضة المزركشة

بعد الطغاة، الحكمـــــــــاء

بعد الحكماء، الطغـــــــــاة

وحيث وحيث وحـيـــــــث ..

يرنّ الشيء المسمى «هاتف» مغتما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من ورائها.

يغتنم لسان الدفاع الفرصة: نرجو من الجناب التسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الآدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الآدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه

التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة لما يظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة.

يعود الشيء للرنين ولا يتوقّف. على الأقل خلصني من ثرثرة المحامي ضعيف الحجة. آن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعى عليه... وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكمنا على الشيء الماثل أمامنا بالجنون المؤبّد.

كيف يمكن للساعات أن تجنّ؟ انظر للشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لخبط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1- 12- 2- 4- 5- 7- 8- 3- 9- 11- 10- 6. تأمل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سنربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. هل تثب من فوق 12 لتصل 2؟ هذا ممكن؟ أما تخطي 5- 7- 8 للوصول إلى 3 فسيكون عملية بهلوانية بأتمّ معنى الكلمة. تمتّع وتشمت بحيرتها وهي على مشارف 11 ولا بد حتى تصل 12 أن تقفز من فوق 2- 4- 5- 7- 8- 3- 9. وهذا يتطلب أن تكون عقارب سيرك. أضف لهذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل بيتك مرهقا تمني نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحتجّ ينبهك بنفاد صبر أنه ليس مسئولا، لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ آه القلم! الشيء الذي كتبت به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحة وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ آه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظارات؟ آه النظارات! كم من مرّة أسرّت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدّد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بنيّ أرجوك كفّ عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، لنا النزر القليل مما نسد به الرمق. أتريد أن أجوّع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولاها لعبرت عالما ضبابه خارجيا أكثف من ضبابه داخليا.

كدت أن أنسى حاسوبي النقال وكل الخدمات الجليلة التي يقدمها لي .

من يعي أن الفكر الذي يسكنه كان لحدّ هذا الجيل موجودا داخل أدمغة متحصنة بقحف عضمي يحميها من الرضوض ؟ ألم تعد تسعه فقرّر أن يسكن أجسادا جديدة لأنها تمكنه من التفكير بطريقة أنجع وأسرع ؟ هل سيبقى هذا الفكر مجرد امتداد وتحسين للطاقة

الذهنية التي تسكن أدمغة الخلايا العصبية والشرايين أم هل سيستقلّ يوما معلنا انتهاء صلاحية أدمغة الجماجم والأجساد سريعة العطب؟ ...لكن الحاسوب لا يحس ولا يشعر مثلنا... ربما انتبه الفكر المخفي الذي يبحث فينا وفيه أنه من الأحسن خلق عالم بلا عواطف بعد أن اتضح أن أضرارها في تسميم حياة الكائنات فاقت منافعها في تنبيهها السريع للأخطار... ربما هو بصدد العمل على أحاسيس وعواطف أكثر صقلا وتشذيبا... ربما سيأتي يوم يصير فيه متيّما بحاسوب المكتب المجاور فتحدث مشاكل لا قبل لنا بتصورها إذا كان هناك حاسوب ثالث يريد أحد الحاسوبين لنفسه.

آخر مشكلة . ألا يخيفك عدد الأشياء التي نتحرك بينها، خاصة وأنه في تزايد مريع وكأننا أمام خلايا سرطان نافد الصبر؟

الأخطر أنها لا تتطور كمّا وإنما كيفا. ها قد بدأت تتزاحم على حدود ما نسميه «الواقع» أصناف متفاقمة التطور من «الروبوت»، وغدا من «السيبورج »، وكلها كائنات يقال أنها ستكون قادرة على تفكير أسرع وأصفى من الآدميين، ولم لا على مشاعر أرقى؟

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما اعلان «الروبوات» والحواسيب ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلالها واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للانقلاب الأكبر الذي سيحيل آدمية اللحم والعظم إلى محميات من نوع «سانتا لوسيا» تأتيها الكائنات الجديدة للتسلية والتفلسف. على كل هذا مشكل الأجيال القادمة ولسنا مطالبين بحلّه، تكفينا مشاكلنا مع الأشياء وهي ما زالت ملتزمة بالطاعة أو تفتعلها . على فكرة، ألا تذكرك هذه القضية بأخرى شبيهة تتمرّد فيها كائنات من لحم ودم على من صنعها؟ ألا يعني هذا أننا آلهة– ولو من درجة دنيا– ننفخ في الأشياء من روحنا ومن فكرنا، تماما كما نتصوّر أن كائنا أعظم منا– سميناه تارة الله وأخرى الطبيعة– نفخ فينا شيئا من روحه وفكره؟

تقول: كفى، اقتربت من محرمات الرقيب المسلّح. طيب، لنفتعل أن الأمور كما يدّعون. من يستطيع مناقشتهم براحة والبوليس بأيديهم ناهيك عن الغوغاء والقضاة والجلادين؟

لنحوصل الموقف الرسمي . كنت أفضّل أن تكون لي نظارات تدقّق في ملامح الروح والفكر أو على الأقلّ لا تكسر... ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء... تلفزيون ليس فيه أخبار مجازر... قلم يقرأ أفكاري ويكتبها مباشرة دون أغلاط... ثياب لا تحتاج لغسل وكيّ تكون لي جلدا ثانيا... مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب... حذاء يمكنني من القفز فوق الجبال وفوق البحار... حقيبة أجلس عليها تحملني هي في أروقة المترو، خاصة هاتف لا يرنّ وإن رنّ فلخبر سعيد...حاسوب يجد حلا لكل المشاكل التي تقضّ مضجعي .

لكن أي عالم كنا نعبر لولا هذه الأشياء، حتى على ما هي عليه من نقصان؟ نعم، لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالآدمي، خلافا للدب بفروه، للبغل بحوافره، للنمر بأنيابه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي ولد بها. الدليل على أن ما نصنع ليس بسبب تفوقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟ ألا يقاس الكمال في كائن باكتفائه بذاته؟

ثمة فرضيتان. الأولى أن الإدارة العامة رمت بالآدمي في هذا العالم، كما يرمي المهندس في مكان مهمل من المخبر آلة أيقن أنه لا فائدة من مواصلة البحث فيها، لكنها تدبرت أمرها لتواصل وجودها، والمهندس غافل عن تشبثها بالبقاء واختراعها لما يكمّلها ولو جزئيا. مما يعني أن وجودنا في مثل هذه الفرضية غير شرعي وخارج على القانون وربما ما زال مجهولا عند السلطات العليا. كيف ستواجه الإدارة العامة الأمر عندما تكتشف بقاءنا بفضل ما خلقنا من أشياء ؟

الفرضية الثانية أن هذه الإدارة العامة بصدد القيام بتجارب حول الحدود القصوى للكائنات للردّ عن أسئلة من نوع: هل من الممكن لجنس من الكائنات دون مخالب وأنياب أن يعيش بين الكواسر، أن يمشي في الأحراش دون حوافر، أن يعيش في صحاري الجليد بلا فرو ؟ أن يطير دون أجنحة؟ كيف ستقيّم التجربة؟ هل ستغفر لنا نجاحنا في البقاء؟ هل ستصاب بالفزع فتسرع بالقضاء علينا قبل أن تقضي أشياؤنا على أشيائها؟

يرنّ في ظهري الشيء ويصمت بسرعة. يعود للرنين قبل أن أنجح في النهوض من الأريكة والتوجه إليه بنيّة القتل. ثم يصمت بسرعة، عائدا بعد ثوانٍ لرنين طويل. إنها «ح» وطريقتها في إعلامي أنها هي التي على الخطّ. تريد التأكد أنني وصلت، أنني بخير، أنني ما كنت سأنسى تناول دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا. كيف الهروب من الآدميين وهم يلاحقونك في اليقظة وفي المنام بكرههم وبحبهم!

يُدقّ الباب بلطف لكن بإلحاح . يواجهني مجهول مبتسم .

–لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح ، ارجو أنك بخير . كثير من الأصدقاء ينتظرونك في «اللوبي» ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضّل بسرعة.

الدوامة من جديد.

* * * * *

الكتاب الرابع

بنو سفر

جئنـــــا ونروح دونما فائدة
لا لحمة ترجى لسدى الآمال
كم أحرق الدهر نفوسا فمضت
عن لا أثر ولا دخان عــــــال

عمر الخيام



الإشكالية في معطياتنا عن الكائنات الغريبة، اعتراف الراوي أنه لا يتحدث عنها بموضوعية وإنما انطلاقا ممّا تثيره فيه من كره ومن حبّ، ممّا يعرفه عنها وممّا يجهل. ما سنحصل عليه إذن صورة تعكسها مرآة ذات لا ندري إلى أي مدى كانت مشروخة أو في بعض أجزائها عمياء. الثابت الوحيد هو الثمن الباهظ الذي دفعته هذه الكائنات لوجودها. هل الأمر نتيجة خلل في برمجتها أم لأن التجربة صُمّمت عن قصد لاختبار أقصى طاقات تحمل الجنس المسكين ؟

المعلّق

يتّضح يوما أن استكشاف العالم استكشفيه بما أنه مصنوع من حواسهم، من فكرهم ،من خيالهم ومن أفعالهم . يتحوّل معنى الرحلة والمسافر مثل الراكب المتسلّل إلى سفينة حانون آخر همّه التدوين لأخطار البحر وروائعه كل ما يستأثر باهتمامه غرابة البحارة .كيف الحديث عن هؤلاء المتطين ظهر العواصف أغلبها التي يخلقون بالنفخ على الريح ؟ ليس الأمر هيّنا لجملة من الأسباب أسارع لعرضها للتنصل من مسؤولية محدودية هذه الشهادة وإبراء الذمة بخصوص كل نواقصها.

هناك قيمة مصادر المعلومات عنهم.

القيل والقال ؟ تجد في هذا الكلام ما تجد من موضوعية ونزاهة في الإعلام الرسمي.

القراءة ؟ محدودة بخبرة من كتبوا الشهادات وبنزاهتهم وهي عادة شكل أنيق للقيل والقال المذكور أعلاه.

هناك التجربة المباشرة ؟ لكن لا بدّ من معرفتهم واحدا واحدا بل على مرّ الأجيال والأمر مستحيل بالطبع نظرا لقصر زمن الملاحظة والتجريب حيث لا تكفي حياة كاملة لمعرفة ذات واحدة فما بالك بمعرفة كلّ الذوات.

ثمة أيضا أن المعرفة بالآدمي لا تورّث وحتى التي تتناقلها الذاكرة الجماعية غير موثوق بها .كم من زمن ضائع للتخلص من ترهات شحنك بها أوائل عبروا العالم لم يفهموا منه أكثر مما تفهم.

آه، لو مكّنني جنّي مصباح علاء الدين من مجهر ذهني أنظر به داخل كل ذات أتابع أدق اختلاجاتها كما أنظر بالمجهر الطبي داخل الأنسجة والخلايا!

آه لو مكّنني نفس الجني ابن الحلال من مرقب ذهني بقوة تلسكوب "هوبل" لأبصر قصص كلللللللّ الآدميين الذين تعاقبوا على العالم كما يمسح هو في صورة واحدة اتساع فضاء «الكون»!

آه لو مكنّت من أعلى موقع للمراقبة ولأطول زمن. هيهات!

صعوبة أخرى .استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة و الفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كل ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ترى، هل كنا نرفع ضدها قضايا في الثلب والتعدي على الأعراض؟

القاعدة أنكّ لا تنظر للآدميين مثلما لا تنظر لباقي تمظهرات الموجود إلاّ من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها، محدودة القدرات، سجينة ذرة من المكان وقبس من الزمان، تبحث في ذوات أخرى أكثر ضياعا منها.

أخيرا لا آخرا. استحالة الحديث عنهم دون مواقف مسبقة.

أي كلام موضوعي يمكن أن تقوله عن الآدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت ؟ كيف لا وهم يسمّمون حياتك من المهد إلى اللحد.

يسمّمونها إناثا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشّا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص الخ.

لو كان الإزعاج محصورا في عامل الجنس لخفّ الضرر ، لكن البشر مزعجون إناثا وذكورا بنفس القدر.

يسمّمون حياتك وهم رضّع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات. حدّث ولا حرج عن ولعهم بالإصابة بالحمى وبالإسهال وبأغرب البثور الجلدية عشية سفر كنت تريد به الفرار منهم ومن التي ارتكبتهم.

يسمّمون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي، علما وأنه لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا هم ، مما يعني أن التوحش موزّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب ، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية للأطفال مع بالغ الأسف. لا تنسى أننا نكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين لكن عدّاد النضج يتوقّف عند أغلبهم للثبات على تصرفات الطفولة فتبقى تعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر.

يسمّمون حياتك وهم مراهقون يكلّفونك مصاريف تقصم الظهر أجرة أطباء الأمراض الجلدية والنفسية، الشيء الذي لا يمنعهم من الفرار من البيت دون سبب معقول، ربما هربا من الضرب الذي يستأهلون، في كل الأحوال بالادعاء أنهم رحلوا بحثا عن الله والسعادة والمدينة الفاضلة وبقية السراب .منهم من ينتحرون دون سبب مفهوم، ربما من فرط قراءتهم للكتب التي لا يفهمون أو لفهمهم ماذا ستكلّفهم مغامرة الحياة.

يسمّمون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدّعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سذّج مغرورون جهلة. المضحك المبكي أنهم دوما على قناعة أنهم المستقبل وأنك الماضي يجهلون أنهم هذا الماضي اللعين يكرّر نفسه من جيل لجيل برتابة مثيرة للقرف.

يسمّمون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمّك أعلم الناس بأنك بها الأجدر. حدّث ولا تسل عما يكلفونك وهم خصوم في مستنقع السياسة ، وهم موظفون في إدارة الضرائب ، وهم جيران لا يدخلون في أشغال تصمّ الأذنين إلا وقت القيلولة.

يسمّمون حياتك وهم شيوخ يرتعشون ويهذون ويبولون تحتهم ، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما ، أو ما أنت عليه ، لم تنتبه لفرار السنين.

يسمّمون حياتك لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف الساعات الطويلة في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة. تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أن نفسك الأمارة بالسوء تهمس : على الأقل نقص منهم واحد.

بل ويسمّمون حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وأساطير مقدّسة يؤدّي التعرّض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محاكم التفتيش ليأمر بحرقك حيّا بعد ما تيّسر من التعذيب.

هنا تصرخ فيّ والشرر يتطاير من عينيك : يا ناكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق ، من اعطوك كل ما تحتاج ، من علموك كلّ ما تعلم ، من أهدوك الشعر والموسيقى ؟ هل "ما" و"ح" و"تفاحة" و"تفيحة" ملائكة ام جئن من المريخ ؟

طبعا ، طبعا ، معك نصف حقّ، لكن اعلم يا هذا أنك تؤكّد نظريتي ، فسواء نظرت لهم بعين السخط او بعين الرضى النتيجة دوما نفسها: استحالة الحديث عنهم بموضوعية. هذا ما يجعل من مروّجي هذه الخرافة تعلّق الأمر بالآدميين بصفة خاصة أو بالعالم بصفة عامة، مجرّد فصيل آخر من مسمّمي الحياة. ما يجهلون أو يتجاهلون هو أن الذات ليست مرآة تعكس بصفة أمينة – عندما تكون في أحسن أدائها – صور عالم في المطلق. هي دوما– خاصة عندما تكون في أحسن أدائها – مرآة نشطة تعيد خلق ما تعكس وفق خصائصها ومصالحها وأهوائها.

كل ما تكتب عنهم إذن ليس إلا رسما لصورتهم في مرآتك...كما هي عليه من مزاج ومعرفة ونضج ، ورسما لصورتك في مرآتهم...كما هي عليه من تباين وغرابة وغموض.

الحلّ ؟ أحسن أوقات الحديث عنهم ذروة الانتباه فأكبر خطر يتهدد فهمهم التبلد يأتيك من طول حبهم ومن طول كرههم .

انتظر الأزمات لتقطر الحروف لوما وتبريرا، هجوما ودفاعا، حبا وكرها ،لا خير يرجى من كتابة تحت راية اللامبالاة.

أقلّب اليوم كل ما في ملفاتي بخصوصهم لأكتشف أنني أعرف عنهم كل شيء... وأنني أكاد لا أعرف عنهم شيئا.

* * * * *

إشكاليات معرفتهم

أولى المعطيات وأصدقها التي توفرها لنا الحواس الخمس . هي التي تعلّمنا أن الآدميين رقة وخشونة... أنهم أشكال وألوان تزداد بمرّ السنين وضوحا وتباينا ...أنهم أصوات تأتينا بالعلامات والمعلومات منها التي نحبّ ومنها التي نكره...وأنهم أيضا روائح طيبة وكريهة.

ممّا أذكره عن علاقاتي المعقّدة بالرجل الذي كنت أسميه «با» ، أنّ أول سوء تفاهم بدأ معه في سنتي الثالثة وكان بخصوصها. ذات ليلة صرخت متوجّها لـ «ما» وهي مضطجعة حذوه:

– يا لهذه الرّائحة....أف! «ما» أخرجي الكلب بسرعة !

كان في ضحكها المكتوم ونحنحة «با» وتذكّري آخر لحظة أن الكلب لا يشاطرنا غرفة النوم، ما يكفي لأفهم أنّ ربّ البيت– وربّما حتى ربته– يضرط أو تضرط كما أضرط ، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر منّي.

كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دويّ قنبلة تنفجر تحت الماء .

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال وأنا أداوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب: غطيّت الصوت بالسعال الملائم، ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟ لا شيء طبعا اللهم إلا الانفجار ضحكا.

البشر أكياس ملآنة بنفايات تنتجها باستمرار ؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة لذات بها «أنف أن تسكن اللحم والعظم» فما بالك بأن تكون قمامة متجوّلة تصدر من حين لآخر روائح نتنة.

من حسن الحظّ أن هناك حواسا أرحم بصورة الآدميين . خذ مثلا المعلومات التي تأتينا والفم مطبق بعناية حول حلمة ثدي منتفخ بالحبّ والسائل الدافئ الرقراق يبعد عنّا أبغض حالات الشعور والحسّ ؟ أليست هذه المعلومات هي التي تقول لنا الآدمي كائن مغذّي، محبّ ، ضروري بل ويمكن الثقة به ...إلى أن يأتي ما يخالف ذلك..؟

أليست أدوات المعرفة الأولى عند الآدمي مثل الكثير من الكائنات الحية ، الشفتان والأسنان واللسان ؟

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوّق وابتلاع لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمله...إذن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الآدمي ...أكل الآدمي.

تقول ما هذا الهذر وما هذا الخلط بين مستويات وإشكاليات لا رابط بينهما . انتظر حججي ثم خاصمني أيها...أيها الآدمي .

هدف المعرفة ليس إرضاء فضول غريزي فينا وتوق للتفوّق الذهني والأخلاقي كما تدّعي الرؤى غير المتقنة وإنما الاطمئنان أن الشيء الذي نبحث فيه، من جهة، لا يشكل خطرا...ومن جهة أخرى قابل للسيطرة أكان خطرا أم لا، وذلك بالتثبت من خصائصه ثم استعمالها بما يخدم مصالحنا. معنى هذا أن مهمة المعرفة جعل الشيء أداة إضافية لكل ما تتوفر عليه الذات من أدوات لتوسيع قدرتها وإحكام قبضتها على العالم. النقطة القصوى لهذه المعرفة استملاك الشيء أي جعله جزءا لا يتجزّأ من الذات. انظر لكل ما ننتج من معطيات وقل لي هل لها هدفا آخر غير أن تصبح جزءا من فكرنا ، من ممتلكاتنا، من كياننا ؟

لهذا يمكن القول أن أكل الآدمي كان ولا يزال في العقل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدر كل خطر والمعين على كل الأخطار. من جهة نحن نتخلص جذريا بهذا الأكل من الخطر الذي يمثله. من جهة أخرى نختزل كل زمن البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

ثمة طقوس كهنة الأزتاك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدّامية لقلوب ما زالت تنبض تقدّم لمأدبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذّة والخشوع.

تقول قصص متوحشين لا أكثر! متأكّد ؟

قيل والعهدة على المؤرخين أنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبّان عصر يسمّى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على الدّوام في جيبه قنّينة صغيرة من مسحوق اللحم الآدمي يمضغه متأنّيا، يقينا منه أنه يدفع البركان الذي بداخله لمزيد التوهّج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وضعت أصول وقواعد لتذوّق اللّحم البشري. فبعد قتل الآدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمّونه «عدالة»، تترك الأجساد معلّقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتّى يتعفّن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادة تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجهّزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطرّي ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

تقول عادات كفار لكننا نحن...نحن ؟!.... عن الجاحظ بعض الأشعار التي عيّرت فيها قبائل بعضها البعض بأكل البشر.

وأنتم أكلتم سحفة بن محدّم | زمانا فلا يأمنكم أحد بعد
تداعوا له من بين خمس وأربع | وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد

وقال شاعر آخر :

إن سرّك الغدر صرفا لا مزاج له | فأت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهمُ | فالشاة والكلب والإنسان سيان

ثمة من قال في قبيلة تدعى بني فقعس:

عدمت نساء بعد رملة فائد | بني فقعس تأتيكم بأمان
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها | جلا في قدور بينكم وجفان

وقال شاعر يهجو باهلة :

إن غفاقا اكلته باهله
تمشّوا عظامه وكاهله
وأصبحت أم غفاق ثاكله

يبدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذواقة وكانوا يعرفون أطيب أجزاء الآدمي :

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم | كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم | كما أكلتم خصاكم في بني أسد

تقول لكن أجدادنا لم يكونوا بصدد إعداد رسالة دكتوراه وطموحهم الوحيد كان أن يملأوا بطونهم .بصراحة لست متأكّدا من تبرير بمثل هذه البساطة . ثمة أكثر من ظروف نرى فيها الآدمي يلتهم الآدمي والحال أن كل أصناف المأكولات متوفّرة.

هل كان نبلاء "الأزتاك" يبحثون وراء طعم اللحم الآدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ هل كان هنود الغابة الأمازونية ينقلون سحريا زخمها من المأكول إلى الآكل وكذلك الملك الفرنسي المتحضّر ؟

كل هذا ممكن، المهم أن الظاهرة ترجعنا باستمرار إلى إشكالية طبيعة المعرفة .

لنتذكّر أن أحد مشاهير الفلسفة اليونانية : ديوجان- المسمى بسقراط المجنون- كان لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري بل كان يدعو بحماس لتذوقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما نكفّ عن الطواف حول الشيء بذهن انتفت منه المشاعر والأحاسيس....إلا عندما ترتطم الحواس بالحواس ... إلا عندما يتداخل الباحث والمبحوث فيه أو عنه.

المشكلة أن هذه المنهجية -التي يمكن تسميتها بما وراء العلمية- ليست في متناول الجميع.

من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرا وأوقات المجاعات فقط ؟...أما جارك فلن

يعطيك شيئا من لحمه أو لحم زوجته مهما كان مضيافا لمجرد إشباع فضولك العلمي. لا حلّ أمامك سوى انتظار ثورة يسحل فيها الشعب قائده المفدّى ليمكنك، إن أسعفك الحظ بحضور موكب القتل، تذوّق لحمه وتناول ما تيسّر من كبده.

ثمة إمكانية نشر اعلان على الانترنت كما فعل أحدهم : «أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل». فجاءه متطوّع مدّ عنقه للذبح ليشبع "الباحث" من البحث، ويزداد المبحوث فيه معرفة بالوجه الآخر للذبح والالتهام. شخصيا أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الانترنت قادر على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من «بروكسي» ناهيك عن صعوبات التخلّص من العضام .

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه اوكرانيا قتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه أنه خطأ من أخطاء الطبيعة والحال أنّه كان مجرّد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تحدّان من استعمال هذه المنهجية. الاولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة . من المعروف مثلا أن بعض الآدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ ، لم يجنوا من أكله إلا الاصابة بمرض بشع يسمونه KURU لا نتمناه حتى لألدّ الأصدقاء .

المشكلة الثانية مرتبطة باستحالة تطبيق مقولة «اعرف نفسك». فمن الصعب أن تعرفها بأكلها إذ بأي أسنان ستمضغ الأسنان ؟

لهذه الأسباب النظرية والعملية وتفاديا لمزيد من المشاكل في عالم ليس بخيلا بها ، فإننا ننصح كل الباحثين في الشؤون الآدمية ترك فكرة أكل العينات الدراسية جانبا– ربما إلى أزمان أخرى تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ماذا يبقى لنا إذن ؟ الملاحظة أوقات الانتباه ...التجربة التي تراكمت عبر الأجيال والتي راكمناها نحن على طول الطريق... ثم الرؤيا التي تصوغ كل المعطيات لرسم صورة نريدها نهائية شاملة والحال أن الآدميين ككل كائنات العالم مشاريع لا تثبت على حال ولا حقيقة لها إلا التي تخلق لحظة بلحظة.

* * * * *

أشكالهم في المعروف من الفضاءات

يجب عليّ الآن– ولو ببعض التأخير– اتّباع سنّة أسلافي الميامين من كبار الرحالة، أي وصف شكل الكائنات العجيبة التي جعلتني الأقدار الظالمة أتجسّد فيه. قد تقول: أي حاجة للأمر وهو معروف للجميع ؟

هنا لا بد من لفت انتباه القارئ المجهول أن الآدمي الذي نعرف هو آدمي هذا العصر وبضعة مئات آلاف السنين التي سبقته. من منا يعرف بالضبط كيف كان طوماي ولوسي؟ كم كنا نودّ أن رحالة ذلك الزمان تركوا لنا وثائق بأهمية التي أترك لأحفاد الأحفاد. فكما تغيّر مظهر الآدميين في الماضي هو مبوّب لتغييرات جذرية في المستقبل.

ربما سيكون لهم ملامح حيوانات مهيبة مثل النمر والأسد أو أن تكون على ظهورهم أجنحة النسر أو أن رؤوسهم ستكون بحجم كالبطيخ من فرط تطوّر أدمغتهم بينما أطرافهم كأطراف الضفادع انتفت الحاجة للركض وراء الصيد والهرب من الصياد. من الممكن ان تكون لهم أجساد بأربعة أطراف سفلية لمن يريد الركض بأسرع مما توفره ساقان أو أربع أيدي لمن يريد أن يعزف على البيانو ويطبخ ويكتب إيميلاته في نفس الوقت. قد يكون لهم جسد لكل يوم وأجساد للسهرات والأعياد.

التطوّر الجذري الممكن اختفاء الجسد بالكامل فإذا بقرائي أفكار مجرّدة تسكن الحواسيب أو جوف النجوم.

من يدري ؟ قد يدرسوننا كما ندرس اليوم طوماي و لوسي وكل الزاد أنياب ونصف جمجمة تركها أصحابها في قاع كهف دون أن يتركوا معها بطاقة التعريف وصورهم الشمسية وكل التفاصيل عن وجبة العشاء التي تناولوها ليلة أكلهم الفهد.

ومن ثم ضرورة هذا الوصف لقرائي الذين أعرف أنهم سيتهافتون على شهادتي هذه بعد ألف سنة لا لشيء إلا لمعرفة كيف كان شكل الأوائل. من يدري ؟ قد يسّهل نصي أبحاث طلبة الدكتوراه من رؤوس البطيخ أو أشباح الحاسوب والباحثين في شكل أوائلهم أي أنا وأنت والمتدافعين حولنا بجسدهم اليتيم ومكوناته السهلة العطب وملامحه المقرفة.

بداية هو نفس الغلاف عند الأذكى والأغبى، الأشجع والأجبن ، الألطف والأقسى.... عند أكلة الكافيار وأكلة الجيف وأكلة الآدمي الآخر...عند الملوك والعبيد والعلماء والرعاة والفنانين والمغامرين.

لا أحد يتميّز بشكل خاص به حيث لم أرَ طوال الرحلة بشرا بغير المظهر الذي سأتعرّض له الآن.

هنا لا بدّ من تكذيب بعض الأقاويل التي روّجها رواة - أقل ما يقال عنهم أنهم غير جديين - ومنها أنهم من صنفين: عمالقة يتجاوزون قمم أعلى الأشجار وأقزام لا تكاد تلحظهم من بين جحافل النمل. فالمدعوّ سويفت، الذي نشر هذا الخبر، خاصة بين الأطفال، ومنهم من صدقوه طويلا مثلي، لم يتحرّ بما فيه الكفاية صحته. أما مصدره، الكابتن جلّفر فهو- حسب رأيي المتواضع- غير جدير بأي ثقة، حيث تفنّد كل أبحاثي، ومنها النظر تحت السجاد وفي الأدراج وجود الأقزام المزعومين.

لقائل أن يقول أنني لم أفتح كل الأدراج، ولم أنظر تحت كل السجاد الموجود في بيوت الآدميين. ثم كيف يمكنني إنكار وجود العمالقة أو «اليتي» والحال أنني لم أدخل كل الغابات أو أطلع إلى قمم الجبال.

لا أسهل من تفنيد هذه الحجة، فكثير من الأطفال- وصاحب النص على رأسهم- نقّبوا داخل الخزائن المغلقة وأدراج مكاتب آبائهم، والبعض منهم دخلوا الغابات الكثيفة يوم كبروا، وطلعوا لأعلى القمم، لكن لا أحد روى شيئا عن اكتشاف عمالقة أو أقزام. الادعاء مرفوض إذن إلى أن يقدّم لنا مغامر يوما آدميا يرتعش أمام قط وآخر يرتعش أمامه الفيل.

تهمس لنفسك تظنّ أنني لا أسمعك: غبيّ لا يفهم الإيحاء، والقصد أن من بين الآدميين عمالقة بالفكر والقيم وآخرون أقزام بنفس المقاييس. تواصل مع نكهة من التهكّم: كيف غاب عن رجل قسّم العالم إلى فضاءات متباينة، أن العمالقة والأقزام سكان فضاء الخيال، وجودهم فيه مؤكّد لا علاقة له بأدراج وغابات؟

آه، بهذا المعنى! لكن الراوي لم يوضّح هذه النقطة بل قدّم عمالقته وأقزامه كما لو كانوا من سكّان بعض الجزر البعيدة من الفضاء الحسي والأمر قطعا غير صحيح. نفس الملحوظة بخصوص وجود نساء بنهد واحد كما يدعي رحالة اسمه ابن بطوطة فكل ما عرفت من الإناث لهن نهدان مؤكدان وإن في حالات متباينة من المتانة والاستدارة والجمال.

الآن وقد وضعنا الأمور في نصابها، نمرّ إلى أولى اكتشافات الطفل وتطور أبحاثه في الموضوع.

في إحدى الملفات يجذب كمّ أمه يلفت انتباهها صارخا:

- «ما»، انظري كم هي سمينة هذه المرأة!

يفهم من ابتسامتها وتقطيب جبينها وتلفّتها يمنة ويسرة أنها محرجة من كلام لا يجوز النطق به صراخا لسبب ما زال مجهولا.

- أسرع، الحمّام ما زال بعيدا وأخشى أن نصله متأخرين.

- «ما"، لماذا للنساء وحدهن صدور منتفخة؟ لماذا يلبسن السفساري ولا يلبسه الرجال؟

- قلت لك: هذه مواضيع سنتحدّث فيها يوما، لكن ليس الآن.

– "ما"، تقولين دوما أنني رجل، فلماذا ليس لي شارب ؟ "ما" متى سأكون طويلا مثل كل الرجال؟

– ....، ....، ....، ....، ....، ....، ..

– "ما" لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه «جدتي منى» سوى «جدتي منى» ولا أحد يشبه أحدا؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمّه نبرة استحسان.

– صحيح يا بنيّ، ولو أن هناك استثناء سأحدثك عنه يوما. والآن، توقّف وتمسّك بيدي لا نستطيع أن نعبر في هذه الزحمة.

يغتنم الطفل الفرصة لمسح شامل لما حوله .كم من وجوه تسترعي الانتباه وهو لا يعرف على أيهم يركّز.

هذه أنثى بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، وهذا أحدب كسير النفس، وهذا شاب مفتول العضلات، وهذه عجوز تتكئ على عكّاز، وهذا وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر، وهذا وجه آخر كأنّه حفر في خشب بنّي بسكين، وهذا وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، وهذا وجه يحمل خيوطا غائرة عميقة تحت العينين، وهذا رأس شعره بلون القمح، وهذا رأس ثان شعره بلون الليل ، وهذا آخر فضّل لشعره لون اللبن.

يجيل البصر حوله مترصّدا بروز العبّيثة ولو أنها على ما سمع لا تجوب الشوارع في وضح النهار، ووطنها الليل وغابة الزيتون. ربما يظفر بآدميين لهم جناحان ثبتا على الظهر كما للطيور. لا شيء من هذا القبيل باستثناء شحّاذ بلا رجلين يزحف على البطن والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى النظر إليه.

هو لا يعلم أن أغرب الآدميين مظهرا ينتظرونه في المنعطفات الكثيرة القادمة للطريق : اللابسات أغلى أنواع «الكيمونو» وكلّ «جايشا» لوحة فنية أجمل من الأخرى، الرجال الذين يلبسون لباس النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيق كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، الحالقون لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخفون قسماتهم داخل أدغال من الشعر، الراسمون على جلدهم رسوما أخذت أيام طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو لا زال جاهلا أن الاختلافات في المظهر لا شيء مقارنة باختلافاتهم سلوكا... الثابتون على نفس القطعة من السهل أو الجبل والذين لا يضعون رحلهم أبدا... غزاة المستقبل والذين يسعون بكل قواهم للعودة إلى ماضيهم الخيالي... الذين يقدمون الأضاحي الآدمية لآلهتهم والذين يرفضون ذبح بقرة. كم من إخراج لفكرة واحدة! كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن يتيم!

كأن وراء تنوع للآدميين أمرا لا يعصى : جرّبوا كل الممكن من الأفكار ،من الرؤى ، من المشاعر ، من المواقف ،من السلوكيات، من التقاليد ، من الطقوس ، من الفنون، ولا تتورّعوا، كل الخيارات المفتوحة أمامكم شرعية ... مما يعني أننا لا نعيش فقط داخل جزء جد محدود من الزمان والمكان، وإنما أيضا داخل جزء جدّ صغير من "آدميتنا"... والباقي منها كل ما يتبلور عند «الأغراب» أو عند ما يتتابع من الأجيال.

انتباه الطفل إذن أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كراسه وأقلامه حال وصوله البيت ليرسم قل ليحاول رسم كائن منتصب له جذع ينطلق من أسفله طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران، يتّسعان في نهايتيهما في شكل مفلطح ينقسم بدوره إلى خمس عصيات. على قمة الجذع هذا، يوجد انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون. للانتفاخ جزء أمامي مملوء بالثقوب منه فتحتان مستديرتان في أعلاه وفتحتان ضيّقتان في الوسط وفتحة كبيرة مستطيلة في جزئه السفلي. على الجانبين هناك فتحتان تحيط بهما كتلة من الغضروف والشحم سيتصرف فيها كثيرا المعلّمون و«با»، بل وحتى "ما" أحيانا بالشدّ والفرك وتعلّق عليهما الإناث أشياء سخيفة يتعلقن بها لأسباب لا يفهمها.

تتضح الحاجة لبعض المعلومات الإضافية.

– "ما" هل يوجد بشر برأسين؟

– لا يا بني ، يكفينا وجع رأس واحد.

– لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس ، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى مواصلة العمل.

بربّك، أليس هذا عين الصواب، والكل يعرف قلة مردود الدماغ الواحد وندرة حسن استخدامه ع ، ناهيك عن سرعة العطب؟

– من منعك من هذا ؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثاني والثالث؟

يجرّب أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل ولا يرضيه أكثر وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس تتدلّى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن أخذ القرار.

كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافئيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال (بيكاسو).

ينكبّ الطفل على خربشة صور كائنات غريبة يملأ بها كراسه ويكتشف الكهل أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا مثله أبدا عن لعبة إعادة

التشكيل الموجود. أليست هذه الوجوه المبعثرة، المفكّكة الخارجة من خيال شاجال، قطع مع الكيفية التي ركّبت بها الوجوه والأجسام ؟

يدير الآدمي معه ومع بيكاسو ظهره لمشهد العالم المألوف كأنه شبع من الطبيعة كما ترتسم على عدسة العين ومن الأجساد كما تلمسها الأيادي. ها قد أصبحت الألوان والأصوات والكلمات مجرّد موادّ خام تستفزّ فيه قدرة إعادة تنظيمها في أشكال لم توجد في أي واقع محسوس.

الفنّ سلعة فضاء الخيال؟ طبعا وكذلك الأمر بالنسبة للأديان والآداب والعلوم وكلها ميادين تبرز من تخيّل ما ليس موجودا لجعله موجودا. كأن مشروع الخلق ما زال متواصلا والمخلوق هو الذي أخذ بزمام المبادرة مقرّرا ما الإضافات والتحسينات التي يريد.

تقول ثمة شيء في كل هذه الخربشات يذكّر بلوحات الفنّ المعاصر وأنه من الممكن ان يصبح بطلنا الصغير رساما مشهورا لا كاتبا يعاني من تجاهل القرّاء وسياسيا يقاسي من الشتم والتهديد بالقتل في المعارضة أو في الحكم. آه يا ليت تكهناتك صدقت!

ربما واجه الإله النحّات الرسام نفس المعضلة ليكتشف الحلّ الذي كان الطفل أصغر من قبول بساطته وأناقته وتبعاته. أليس أكثر الحلول اقتصادا خلق نفس الكائن بأعداد رهيبة؟ آنذاك ما الذي يضير المجرّب الأكبر أن يمرض أو يتعطّل هذا الرأس أو ذاك وهو يتوفّر على هذا الكم الهائل من الرؤوس!

ثم ينتبه الطفل أنه لا يعرف ما الذي تنغلق عليه الأجسام. يضع قلمه بين أسنانه داهمته حيرة هائلة سيكون لها أكبر الأثر في توجيه خطاه نحو الأماكن التي اعتقد أن فيها الردّ.

يعود للتركيز على ما خربش . شعور مبهم يزعجه. يصرخ في أمّه آملا أن يجد عندها فكرة تعيد النشاط لفكره.

-«ما» انظري، رسم جدّ جميل ، لكن ثمة شيء ناقص ولا أدري ماذا.

-ربما الاسم تحت الرسم...إنها خديجة زوجة بائع اللبن ، لكن إياك أن تصرخ في أيّ كان أنها ...

الاسم! طبعا .المكوّن الرمزي الخيالي الذي لا يفصل عن المكونات الحسية لكل شكل آدمي.

تخيل أنهم رفضوه لك عند الوصول، ولا أحد كلّف نفسه عناء تسميتك، لأن حظك العاثر شاء أن تكون ضحية تجربة علمية قرّرت دراسة علاقة الاسم بتكوّن الذات. ها أنت في وضع من مميزاته أن لا أحد يناديك، لا أحد يطلب منك أو ينتظر منك شيئا ولا حتى دفع الضرائب بما أنك غير مضمّن في أي دفتر.

من حسن حظّك أن العرف والقانون يحرّمان جريمة أفظع من جريمة القتل. فالاسم حق مطلق ومعطى يسلّمونك إيّاه عند الوصول. تقبله طوعا أو كرها ليضع الحدود بينك وبين

بقية الآدميين، ليجعل منك فردا متفردا وفريدا، معرّفا ومعروفا لنفسك وللآخرين. ها أنت موثق إليه من المهد إلى اللحد كما أنت موثق للجلد والعظم والرابط بين التغيرات التي تمرّ بها الذات هذا الصوت الذي لا يتغيّر من بلل الرضيع إلى بلل الشيخ. كم من أجزاء من شكلك سيأتيها الوهن والعطب واسمك كأوّل مرة سمعته من "ما" لا يصاب بمرض ولا يشيخ أبدا!

للاسم أيضا وظيفة أخرى هي إدماجك في مشروع غامض، في أمل مبهم، في مهمة عليك الانتباه لها. لكن من أين لكل كريم أن يصبح كريما، لكل منصف أن يغدو منصفا، لكل منصورة أن تنتصر ...من أين لكل مريم أن تلد مخلّصا وإلها!

ليسمح لي هنا بفتح القوسين للتعرّض لموضوع يفخر كاتب هذه السطور أنه أول من انتبه لخطورته .

يجعل قانون «الشيء لا يكون إلا بضدّه» أنه لا وجود للنور إلا بوجود الظلام ّولا معنى للشر دون الخير وللذكر دون الأنثى. مما يعني أنه كان من الضروري أن يوجد لنا بجانب كريم ومنصور ونور وعفيفة، أسماء مثل لئيم ومهزوم وظلام وعاهرة. تصور أبا يشتري ذمة موظف البلدية ليسجّل أسماء أطفال يعلم أنهم ليسوا من صلبه وأما تشتري نفس الموظف لتسجيل اسم طفل تعلم أنه من صلب الزوج الذي تكره . تصوّر هذا الأب يصرخ في طفلة صغيرة : توقفي عن الصراخ يا عاهرة، أنت يا لئيم كفّ عن شدّ شعر أختك...والأم تنظر بقرف للطفل الذي تكره فيه زوجها : تعيس، كم من مرة يجب أن أقول لك ممنوع غسل الأسنان واستعمال الصابون !؟

تصرخ فيّ يا رجل كفى تجنيا على البشر وأنت أول من يعلم أنه لا وجود إلا في خيالك المريض لأمّ كهذه وأب كالذي تصف. لا وجود لأمّ كهذه وأب كالذي أصف إلا في خيالي المريض ! انظر الدراسات بخصوص ما يتعرض له جزء من أطفال البشر حتى داخل العائلات البرجوازية من عنف جنسي وجسدي ونفسي وتعال ناقشني . كلكم تعبرون هذا العالم كالحمير تحمل أسفارها، لاوعي بالروائع التي تحفّ بكم من كل حدب وصوب ولا بعظيم الأخطار التي أفلتم منها وتفلتون منها كل لحظة.

والآن تصور المشاكل الاجتماعية والسياسية والكم الهائل من الحركات والكتابات المنشغلة بهذه المظلمة المضافة التي أفلتنا منها ولا نعي. مثلا هذه الرسالة «حبيبتي ظلام، غدا موعدنا مع الثورة ضد الظلم الاسمي . كوني أمام البلدية لحرقها وحرق كل الموظفين الفاسدين داخلها، الردّ :حبيبي تعيس، تعلم أنني ضدّ العنف مهما كان مأتاه ومع مواصلة الاحتجاج السلمي لكي تعيد الأمم المتحدة صياغة الإعلان وإدراج حق كل شخص في اسم يحفظ الكرامة التي يتشدّق بها في كل الفصول».

حقا يجب أن تحمد الله أنك لن تسمع من يناديك : الرجاء من السيد كلب ابن لقيط التقدم حالا لبوابة الرحيل رقم 5، أو أنه لا أحد سيصرخ فيكِ يوما : يا بشعاء الخنازيري

اسـرعي بالقهـوة ، قبـح الله وجهـك وزاده بشـاعة علـى بشـاعة ...(مواصـلا الحديـث مـع مساعديه : يجـب طـرد هـذه الغبيـة حـالا وعلـى الفـور . غـير ممكـن ! لمـاذا ؟ البهيـم هـو الـذي تدخّـل شـخصيا لنوظّفهـا . البهيـم! ! ! البهيـم بطـمّ طميمـه تدخّـل لهـذه البنـت !؟ لكـن لمـاذا ؟ لقرابـة تربطهـا بـآل قـاذورة. آل قـاذورة ! ! !. آل قـاذورة ! ! !.قريبـة آل قـاذورة بيننـا ولا أحـد أعلمـني ! ! !... أريـد ترقيـة الآنسـة بشـعاء حـالا وعلـى الفـور وأن تعلـم أنـني صاحـب القـرار)

انتبهـت لهـول مـا كان بالإمـكان أن يحصل! ! !كيـف أفلتنـا مـن المصيبـة ؟ هنـا تـردّ الرؤيـا بـكل ثقـة في مصادرهـا أن إرادة قاهـرة داخـل الإدارة العامـة أفشـلت مخططـات قسـم صعوبـات الرحلـة وتعلاتـه البائسـة بضـرورة احـترام قانـون الأضـداد منبّهـة أن إضافـة هـذه الصعوبـة لقائمـة تحتـج علـى طولهـا ،قـد يطلـق الـذات علـى الطريـق بقنبلـة موقوتـة داخلهـا وأن المشـروع برمّتـه قـد ينهـار. إذن قـل شـكرا لحلفائنـا لكـن لا تلعـن كثـيرا في سـرّك موظفـي قسـم وضـع تصاميـم المحـن والامتحانـات فـأولاد الكلـب يقـرأون في أفكارنـا . مـاذا تقـول ؟ ألا اخشـى علـى نفسـي؟ لا يهمّـك ، عافـوا تكديـس الصعوبـات أمامـي، أسـقط في أيديهـم وأحبطـوا منـذ زمـن طويـل.

عـودة لموضـوع أشـكال الآدميـين في الفضـاء الحسـي علمـا وإن الاسـم ليـس إلا «العمـود الفقـري» لشـكلهم في الفضـاء الرمـزي والخيالـي.

في إحـدى الملفّـات يصـرخ الطفـل في أبيـه وهمـا وسـط سـاحة مغـبرّة تفتـح علـى أوسـع أزقّـة المدينـة العتيقـة :

– «با»، من هذا الرجل ؟

– حثّ الخطوة وأغلق فمك.

– أريد أن أعرف لماذا لا يتحرّك ولماذا يقف أمامه الجنود؟

– حتى لا ينسفه رجالنا... إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه «لافيجيري».

– «با»، هل الرجل موجود داخل... التمثال؟

– لا شيء داخل كل هذا المسخ سوى استفزاز المحتلّ وكفره.

يزمجر «با» كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.

– أبنـاء الكلـب! وضعـوا صنمهـم في مدخـل المدينـة للشـماتة بنـا. لنفـس الشـماتة سمّـوا هـذا الـذي ينتهـي عنـد الجامـع الكبـير «شـارع الكنيسـة». اللعنـة ألـف مـرة علـى جبروتهـم واللعنـة ألـف مـرّة ومـرة علـى لا جبروتنـا نحـن.

– أريد أن ألمس ال...

– تعـال، الجنـود يمنعـون الاقـتراب منـه يحمونـه مـن التفجـير وكتابـات السـبّ، لكننـا سـنقتلعه طـال الزمـان أو قصـر.

يذهـل الطفـل لاكتشـافه الجديـد: للآدميـين أشـكال غـير الـتي قـدت مـن اللحـم والعظـم. بشـر مـن حجـر ومـن معـادن !

في فضاء خياله يرى الأصنام تغتنم خلوّ الساحات من المارّة في آخر هزيع من الليل ليترجّل الفارس من فرسه راميا بسيفه في النافورة مراقصا رفيقته التي وراءه على السرج.

في بعض ملفات الكهل التي تتواصل فيها أفكار الطفل تتلاقى التماثيل في المؤتمرات لتدارس وضعيتها وخطر التلوّث على صحة أبدان النحاس والرخام .أحسن مكان لمتابعة هذا الجنس من الآدميين المتحف وأحسن أوقات الزيارة ما بعد إغلاق الأبواب. يخرج الآدميون بثيابهم القديمة وألوانها المزركشة و حيواناتهم المعروفة والخيالية من الأطر المذهبة يهزجون ويرقصون إلى ظهور أولى بوادر الفجر. للأسف الشديد لم أرهم يوما إلا وقد دخلوا في الإبان أطر لوحاتهم ، يواصلون وجودهم يحف بهم وقار صامت هازئ. مثلا تلك الآدمية المسمّاة–خطأ على ما يبدو–»موناليزا».

ما الذي يثير ربع ابتسامتك يا صاحبة النظرة الشاخصة من وراء نقابك الشفاف ؟ ربما تسخرين من أكاذيب الأدلة ومن يدعون في تاريخ الفنّ معرفة ؟.

يؤكّد كل هذا أن الآدميين الحسيين أصناف حسب المواد التي تشكل غلافهم الخارجي: اللحم والعظم ، الحجر، المرمر، النحاس...ربما غدا الأشكال التي تحفل بها كتب الخيال العلمي وقد تمازج اللحم والعظم بأسلاك المعادن.

هذا ما يقودني للتنبيه لوجود آدميين يسكنون منذ زمن بعيد فضاء الخيال والرموز أين فقدوا كل خصائصهم الحسية ، لكنهم يواصلون التأثير فينا كما لو كانوا يتحركون بيننا.

هل حدثتك عن صداقتي الحميمة مع راسكولنيكوف والأمير مويشكين والمسكين إيفان كارامازوف ولو أنني أعيب عليهم سوداوية أخذوها من خالق اسمه دويستوفسكي أرهقه الصراع والصرع؟ هل بحت لك بعشق دام سنوات طويلة لامرأة خلقها خالق اسمه تولستوي. آه منك يا ناتاشا، يا وله الصبا، كيف فضلتي عليّ بيار بيزوكوف وتزوجتيه بدلي؟ حتى أنت، يا عزيزي بيار، ترفض هيامي المتصدّي لكل قوانين السير المنظمة للعوالم. طيب، سأقبل عتابك وأنت من أعزّ أصدقائي والصديق لا يخون صديقه؛ فعفوا ومعذرة.

ثمة أيضا من سميناهم بالآدميين الافتراضيين. هم فقدوا كل خصائصهم الحسية كما هو الحال مع الرمزيين والخياليين، لكنهم يتفاعلون معك أحيانا في التوّ واللحظة خلافا لسندباد أو الأمير مويشكين.

أغرب الأجناس الآدمية على الاطلاق سكّان فضاء الذاكرة .

أغلق العينين لأتصوّر أن موجة من النسيان محت من الذاكرة الجماعية كل وجود لمحمد وعمر والحلاج وابن عربي والمتنبي والمعرّي ، لدستويفسكي وتولستوي ، لغاندي ومانديلا ، لباخ وبتهوفن وشوبرت ، للاو تسو وفالميكي

وإيسا وشيكي وباشو وبيزون وعمر الخيام وابن زيدون .تغمرني موجة من الرعب لأن الموجة أخذت معها أهمّ مكونات وجودي. بشر تقول عنهم الرؤى الساذجة أنهم ماتوا والحال أنهم لم يكونوا يوما أحياء قدر حياتهم التي انطلقت مباشرة وهم يوارون الثرى .

كم من أرواح هائمة تتدافع ولا أحد ينتبه لها غيري... قوافل تحيط بي ثم تولّي لي الظهر متوغلة قدما في أعماق المجهول... سيأتي يوم التحق فيه بآخر الركب لأصبح أنا أيضا من سكان ضباب الزمان.

لقائل أن يقول أنه من الشطط الحديث عن كل هذه الأصناف كآدميين كاملي الوجود مقترحا إعطاءهم صفة ملاحظين فقط وذلك نظرا لخاصية وجودهم الذي تنقصه الكثير من مقومات الوجود الكامل الأوصاف.

هنا يرفع النصّ احتجاجا شديد اللهجة ضدّ موقف هو من تبعات الارتحال في قصة رديئة تقصر الواقع على الفضاء الحسي.

كيف يمكن لكائنات غير موجودة أو ناقصة الوجود، أن تفعل فعلها العميق والمهيكل في الطفل والشاب والكهل ؟ من يستطيع أن ينكر أن لأبطال القصص التي قرأنا ، وعدد لا بأس به من الموتى تأثير مصيري علينا وأكثر من واحد فيهم يوجّه أفعالنا ويتحكم في أعمق مشاعرنا.

نحن هنا أمام ظاهرة يمكن تسميتها «واقعية الخيال» بما أنه بوسع الخيال التأثير ببالغ القوة في الفضاء الحسي، وتقابلها «خيالية الواقع» ونحن نتحرك دوما في فضاء حسي صنعته المخيلة في أكثر من مظهر .

المهم أن تعدّد الأشكال الآدمية تثبت ضرورة تعميق مفهوم الوجود وتحديثه حيث هو غير مرتبط بالانبثاق أو البقاء في مظهر حسّي. إنه أساسا علاقة تأثير أيا كانت طبيعة الأطراف المعنية، مما يجعلنا محقين في كتابة القانون التالي: الموجود، كل ما يؤثر فيّ وما أوثّر فيه، أما مستويات هذا الوجود فموضوع آخر.

هل قمنا حقا بجرد كل أنواع الآدميين ؟

يجب ألا ننسى من بقوا في خانة المشاريع.

يعود للسطح النقاش الموجع العبثي مع شبح أبى أن يأخذ أي شكل على مرّ العقود. لاحقني المولود الذي لم يولد على طول الطريق بكثافة الغياب وكثافة الحضور. أطلب منه الصفح فلا يصفح، أسامره فلا يكلّمني، آخذه للمدرسة فلا يفرح، وعلى بابها أنتظره طويلا فلا يخرج، أصلح له كراريس التمارين فلا يتعلم شيئا، أدعوه للصراع واللعب فلا ينقضّ علي صارخا. بحثت عنه سنين في وجه كل طفل هائج، في وجه كل مراهق كئيب، في وجه كل شاب وسيم... وهو دوما متجهم صامت. بلغ هذه الأيام الرجولة، عزمت أن أزوّجه بنت شاعر أو بنت شهيد. لا بدّ أن أختار بعناية هدايا العرس وسبق الأحداث بشراء الملابس الوردية واللعب الجميلة لطفل طفلي. يبتسم الذي لم يولد سخرية متجاهلا كل هذه السنين التي تعهدت فيها بالسقي وبالدموع زهور الريحان قبرا صغيرا بلا شهادة حفر في أعماق القلب.

ألا تفهم ؟..كنا مجرّد طلبة بالكاد خرجنا من المراهقة ، هل يمكن لأطفال تربية أطفال ؟ لم يكن أمامنا غير ذلك الخيار الصعب وكان على كل حال مخوّل لنا بالقانون...ماذا تقول؟ أنني أخذت القرار ليتوقف الصراع العبثي بين ابن متمرّد بالطبع وأب طاغية بالتطبّع ، لكي لا تتواصل القصة المقرفة تكرّر نفسها من جيل لآخر ...يا مسكين كان بوسعنا أن نضع لها حدّا بصلح حقيقي أو كنا نواصلها بكيفية أذكى وأقل تكلفة لكلينا...ماذا تضيف؟ أنك لا تصدّق كل هذا الهراء وأنك تنتظرني في عالم آخر لتبادلني قتلا بقتل...لماذا ؟ ألم تنتقم بما فيه الكفاية ؟

خلاص، يكفينا وجع جروح لم ولن تندمل. لنهرب منها إلى التنظير متسائلين– مثلا– عن سبب توزع الآدميين إلى كل هذه الأشكال. بداهة كوسيلة لتأخير الفناء. كم من آلاف السنين أضيفت لعمر هذا العبقري أو ذاك ؟ كم من قرون ربحت

«مونا ليزا» ؟ كم من حياة إضافية تمتع بها ميكال آنج وتمثال داود يضمن له تواصل رحلته بعيدا في الزمان ؟

ثمة الأهمّ :ما تدلّ عليه الظاهرة عن أهمّ خاصية للآدمي .

انظر لعابر السبيل . سترى أنه الشكل–الحالة الذي ترسمه حواسُّك .

دقّق النظر وستنتبه أنه ليس نفس الكائن إن نظرت له بعين الجرّاح أو بعين الرسّام، بعين السخط او بعين الرضا، بعين الدين او بعين العلم ، من وجهة نظر الإيمان أو من وجهة نظر الالحاد.

سيدهشك إنه كائن يعيش في الحاضر، وفي أعماقه يعيش كل الماضي...ماضيه وماضي كم من ميت حيّ يواصل داخله حياة غير التي نظن أنها الحياة.

ستذهل أمامه وأنت تعي أنه الرحم الذي تولد فيه كل كائنات الخيال.

وبعد كل هذا يحدثونك عن الآدمي كما لو كان أحدا وهو جحافل... عن الآدميين كما لو كانوا جحافل وهم أحد.

* * * * *

قوافلهم في الفضاء الحسّي

أتوجّه بمنتهى الأدب لأحد أبناء وطن سيتا وصلته أخيرا حاجا ومغامرا :

– سيدي، ما هذه المظاهرة ؟ أرجو ألا تنقلب عنفا، لا دخل لي في حروبكم الطائفية.

يضحك الرجل :

– هذه ليست مظاهرة، أنت أمام محطة قطارات وسط مومباي وهؤلاء مسافرو يوم عادٍ، ماذا لو جئت في الأعياد ؟

خلافا لما ارتضاه وحيد القرن والنسر وحيوانات عاقلة أخرى– اختارت أقصى البعد عن بني جنسها– يفضل الآدميون التراكم فوق بعضهم البعض أسوة بالنمل والنحل وسمك السردين، ربما لتوهّمهم أن الطريق سيكون أقل خطرا ومشقّة متناسين أن أول مصدر للمشقة والخطر تراكمهم هذا.

مخاطبي يبدو رجلا طيبا وغير مستعجل وقد يردّ على بعض أسئلتي الأخرى.

– عفوا، يا سيدي. نحيّي في بلادنا ملوّحين بالأيدي ليتبيّن أنها خالية من السلاح .نصافح الآخر نتحسس راحته للتأكد أنه لا يحمل خنجرا صغيرا. ثم نقرئه السلام، نضحك منه ومنا... لماذا ترمز تحيتكم أنتم ؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "ناماستي"؟

– معناها نحيّي المقدّس الذي فيك.

المقدّس الذي فيّ! أنا؟! أيسخر مني هذا البليد؟ اللهم إلا...

يضمّ الرجل راحتية مبتسما ويختفي داخل الزحمة.

مجدّدا وسط السيل بالكاد أجد موطأ قدم .

بداهة عدد المتكالبين على الوجود يفوق طاقة الاستيعاب. سواء كان هذا العالم حديقة حيوانات الآلهة، أو محتشدا لعتاة المجرمين في عالم آخر، هو دوما فضاء محدود تجاوز منذ زمن بعيد حمولته القانونية وأصبح اكتظاظه مصدرا لمشاكل، كلنا بغنى عنها. الدليل على ذلك أن ثلث الآدميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبعانين بإرهابهم وبمظاهراتهم الخارجة على القانون.

لهذا نشرت منذ مدة على صفحتي في الانترنت إنذارا صادقا وإن بتوقيع مزيّف.

"نظرا للازدحام الشديد، ونظرا لأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوار إلى أجل غير مسمّى".

وجـودي الآن وسـط هـذه الهريسـة الآدميـة الدليـل الساطـع علـى عـدم نجاعـة هـذا الأسـلوب.

لم يبـق إلا نصـح مـن أسـتطيع نصحهـم علّـني أنقـذ فـردا علـى الأقـل وقـد اسـتعصى علـيّ الجنـس اللعـين.

أسلّط النظـر علـى امـرأة تدفـع أمامهـا ببطنهـا المنتفـخ، تهـدّد بمولـود جديـد عالمـا شبـع مـن المواليـد الجـدد، ناهيـك عـن الكثـرة المقرفـة فيـه للمواليـد القدامـى. أتوجـه للمعـني بالأمـر بالتعاطـف والعطـف والاسـتعطاف مسـتعملا هاتفـي الخيالـي الـذي يسـمح لـي بالوصـول لمـن أريـد: لم تقـرأ الرحلـة؟ لم أبالـغ في شـيء، اسـأل كل الذيـن عاشـوا إن لم تصدّقـني، من الأحسـن أن تبقـى في دنيـا الغيـب إلى أن تحـين فرصـة أخـرى. ربّمـا سـتنجح العتمـة في تخيّـل عـالم أقـلّ خطـرا وفظاعـة، أمّـا هـذا! ثـم هـل فكّـرت في ضـرورة وقـف هـذا الزحـف المهـول لمجـرّد تـرك الأرض تسـتعيد أنفاسـها !

يصمـت الشبـح متجاهـلا مـا في قولـي مـن حكمـة ومـن موعظـة حسـنة ثـمّ أشعـر ب اللعـين يهـزّ كتفيه .

يجـب مواصلـة نحمّـل مسـؤولياتي والقيـام بواجـبي الإنسـاني يـا مجنـون، ورأس أمـك الغاليـة، هـذا عـالم غير جاهـز للسـكن...ماذا نقـول ؟ علـيّ أن اهتـم بشـؤوني... وهـل أنـا بصـدد التدخـل إلا فيهـا! ثـم مـن يضمـن أنـك لـن تشـكل خطـرا علـى عـالم يكفـي مـا فيـه مـن إرهابيـين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بذريتها شرّا.

قـل لأمـك أن تهـدأ... مـاذا ؟ أنـت الآن تسـرّ في أذنهـا أنـني أريـد خطـف حقيبتهـا وأن عليهـا أن تطلـب بوليـس النجـدة... يـا غـبي، لا أريـد بـك إلا خـيرا.. و أنـت لا تريـد بـي إلا شـرّا!... آه منكـم يـا أولاد حـواء.

تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، في هذا العمر ويعاكس النساء الحوامل، النجدة!

أقولهـا وأمشـي متحمـلا كامـل مسـؤوليتي: الأنثـى أسّ البـلاء. ألم يكـن مـن واجـب هـذه المـرأة حـال ظهـور بـوادر الحمـل أن تشـي بنفسـها لأقـرب مركـز شرطـة لتتلقـى عقابهـا العـادل، وأن تسـلّم ثمـرة الخطـأ والخطيئـة إلى السـلطات الحدوديـة لإرجـاع الغريـب الخطـر مـن حيـث أتـى؟ لكـن لا، فالواحـدة منهـن لا تحمـل المـرة الأولى إلا وأعـادت الكـرة وهـي فخـورة بمـا اقـترف المبيـض والرحـم. هـل مـن دليـل أكـبر علـى سـوء نيـة الإنـاث؟ صـدق مـن قـال: مصائـب البشـرية مـن مصدريـن لا غـير: النسـاء وأمّهاتهـن.

مـن حسـن الحـظّ أنهـم يسـيرون في اتجـاه واحـد أو قـل أن بسـاط الزمـان السـيّار هـو الـذي يأخذهـم إلى حيـث يجـب أن يتوجهـوا... حافـة الشـلاّل... نعـم، مـن حسـن الحـظ أنهـم يتبخّـرون هنـاك وإلا لفاضـوا مغطـين المحيطـات والجبـال والسـحب.

ثمـة شـيء مـا في هـذا العـالم يجـذب الآدميـين إليـه كالنـور البعـوض يتعلّقـون بـه حتـى والأجنحـة تحـترق.

اللعنة ما سبب تدافعهم إليه بهذه الأعداد المحبطة منذ غابر الزمان... من الأكواخ، من القصور، من الخيام، من الإسطبلات، ومن المغارات ؟ النزول بأوامر عليّة لا دفع لها، أم أخبار مضللة عن العالم وما ينتظرهم فيه !

كأنيّ أسمع موظّفي مركز الشحن يصرخون في بعضهم البعض :

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسئولين. ما يهمّني هذا الغبي آد3100 ـ2154879365 الذي يقاوم و يصرخ أنه بريء وسنضطر لاستعمال العنف معه.

[الصيغة المتفائلة]

- ترى كم من رشاوي وتدخّلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد2154879365-3100 تأخّر وسيفوته موعد القاطرة الأولى.

هنا يلقي النص بسؤال بالغ الخطورة على كل من يهمّه الأمر. ما رقمي أنا؟ أما الردّ الذي أتوقعه ولا أقبل بغيره آد1-1-. أولا لأنني صاحب هذا النص ويمكنني أن أمنح لنفسي فيه الأولوية المطلقة، ثانيا لأنه لا أكره عندي من أن يصرخ في وجهي أحد يوما: ما أردأ قصتك يا آد 5876 45879321456.

ظاهرة أخرى لا شكّ في وجودها لكن ليس لنا لتفسيرها إلا الفرضيات.

ثمة إمكانية فهم السلطات العليا أنه لا يمكن للآدمي كما خلقته، الصمود أمام مصاعب المهمة إلا لفترة محدودة من الزمان، فجعلت الأجيال تتجدد كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحالون للتقاعد عندما تخور قواهم لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة الأشغال الشاقة.

صيغة مختلفة لنفس الفكرة : المهمة التي كُلّف بها الآدمي من قبل قوة مجهولة (أو كلّف بها نفسه مفتعلا أن هناك قوة مستقلّة عنه كلّفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهّد بها آدمي واحد، ومن ثمّ نسخه أكبر عدد ممكن من المرات وتوزيعه على كل الزمان والمكان لرفع حظوظ الكشف عن المهمّة الغامضة وتأديتها على أحسن وجه. ربما هذا سبب ما يظهره الآدميون جيلا بعد جيل من إصرار على تحسين الطريق وتوسيع شبكته ودفعه إلى أبعد نقط ممكنة وترك التوصيات لحسن استعماله .

فرضية أخرى :الإدارة العامة، مثل شركات البحث عن الذهب. عليها التعامل مع أطنان من التراب للحصول على بعض الغرامات من التبر. آنذاك ما التبر الذي تبحث عنه؟

الفرضية الأخيرة أننا نتكاثر كما تتكاثر خلايا السرطان والعالم مصاب بالورم الآدمي الخبيث، مما يعني أن كل جيل يأتي هو تفاقم مرض المسكين.

آنذاك يصبح السؤال: هل سيشفى المريض بالقضاء على الورم ...أو متى سيقتل الورم المريض؟

* * * * *

الجري ورائهم، الجري أمامهم

كأنّ الأوائل اتفقوا بينهم عند انطلاق الملحمة : اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم : تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخانقة، انتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة والمنتصر من يجد أكبر عدد من المختبئين. هكذا أعطتنا لعبة الغميضة وكل الرحلات وقصصها التي تروي منذ قديم الزمان بحث الآدمي عن الشيء الذي خرجنا من أجله وبحث الآدمي عن الآدمي لسؤاله لاهثا وجدت الشيء أم ما زلت تركض مثلي ورائه.

بحث من الأزل محفوف بالغموض والخطر.

كان الأوائل ينزلون بشاطئ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم، يلتجئون بسرعة لسفينتهم ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفا يقتربون من أشيائهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون ليعودوا يوما- إن عادوا- يضعون هداياهم على الرمل مسارعين لما وراء الأشجار. الخوف دائما وأبدا.

تطيل شرطية المطار تفحّص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود للوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بداهة تقدير مدى خطورتي على أمن وطنها المفدّى . أنثى تدقّق في أوراق ذكر لتتأكد من حقّه في السفر! تأتيني صورة «سوتجو» التي حرّم عليها عسكر «الشوجون» طريق أوكايدو لأن الرحلات المحروسة، فما بالك بالمغامرات الفردية، ظلّت لقرون طويلة محرّمة على النساء. ترى هل ستصدّني هذه الموظّفة لمجرّد الانتقام لواحدة من مظلومات بنات جنسها فأترك مثل تلك المرأة الممنوعة من السفر شهادة مبتلة بدموع القهر والغيظ ؟

نعم، لم يكن الطريق يوما سهلا على الآدمي، لا فقط بحكم اتّساع المحيط وضراوة الصحراء وعلوّ الجبال وفيضان الأنهار وأنياب الكواسر، إنما أيضا لأنه فلاح يرفض له القيصر أو«الشوجون» مغادرة قرية ولد ويجب أن يموت فيها عبدا...أو أنثى، أو سجين، أو فقير، أو أجنبي مشبوه

تتدافع الذكريات عن آخر ما عشت من مصاعب لدخول مدينة على الطرف الآخر من المحيط.

أخيرا تتوجّه لي الموظّفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا ودراسة وتدقيقا.

- أنت من بوليسستان! ما سبب قدومك لحريتستان؟ زرت قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان ....ونفاقستان أيضا! ماذا فعلت في هذه البلدان؟ من تعرف من المنظمات

الإرهابية وما عنوانها ؟ هل تنوي قلب نظام الحكم؟ هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل كنت ستخطف الطائرة ولم تجد الشجاعة أو السلاح ؟ هل أنت مشبوه في بلدك؟ هل تحمل قنبلة ؟ لماذا أنت أسمر اللون ؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقانون ؟ افرغ جيوبك. هل هذا النقال نقال أم قنبلة في شكل نقال ؟ اخلع حذاءك، هل وضعت القنبلة في كعبه أم داخل الجوارب؟ اخلع جواربك، أين القنبلة ؟ التأشيرة حقيقية أم مزيفة ؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكّد أنّك لا تحمل فيروسات أو قنابل ؟ انتظر سأسأل رئيسي...على فكرة أنت لا تنوي زيارة مزرعة ؟ أنت لم تأتي بفواكه مشبوهة وبذور غير مرخّص بها ؟

تعود الشرطية بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

– تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه لعلّنا نحتاجك في أمر ما.

الطريق منذ البداية عقبات ومتاريس تشرف عليه من فوق القمم القلاع...والخيار أمام المسافر المسكين إما المرور عنوة أو إبداء كل علامات الخضوع لحين تدور الدوائر فتكون أنت من يسأل والآخر من يجيب متلعثما.

–شكرا جزيلا سيدتي ، تصبحين على خير **(يلعن أبوكِ الكلب وأب أبوه واب اليوم الذي ...الخ)**

مجدّدا في الطابور اللعين .ترى هل سيكون نفس الإذلال هذه المرّة أم بإخراج آخر. المهمّ الا يرجعوني للطائرة.

يرمقني الشرطي من خلف الزجاج باحتقار . يطبع جواز سفري بسرعة ثم يرميه في وجهي مواصلا حديثه مع الزميل الذي بجنبه.

لم يبق لي إلا بضعة كيلومترات لأصل المدينة التي جئتها لالتقاط الأنفاس.

إنها إحدى آلاف المضارب التي كدّسها الآدميون على طول الطريق وكلها مخيمات مؤقتة بمقياس بعبع الزمان شيّدتها أجيال المسافرين. غالب الوقت بقايا قلاع للحماية من حاملي الموت على شفرة السيوف أو في فوهات البنادق وأيضا أماكن للاستراحة والتموين وإصلاح ما يلحق المسافر المسكين من شتى أصناف العطب.

أخيرا الشارع الرئيسي الذي حلمت به أشهرا وراء القضبان. على طوله مظاهر الزينة أجملها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار. ما سبب كل هذا ؟ عيد الميلاد ! كنت أظنهم يحتفلون بقدومي . ماذا ... «يا داخل مصر منك الآلاف». نعم آلاف وآلاف من السواح والمتسولين والباعة والهاربين أمثالي من القمع والفقر. على الرصيف المكتظّ مقاهي ومطاعم يتزاحم عليها فقراء جاءوا يفتعلون الثراء وبعض الأثرياء جاءوا ليبهروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

فجأة ألتفتّ خلفي مدفوعا بقوة قاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجت أو قل طردت هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبر ألصق بي من ظلي يتنفّس في عنقي.

أدير الظهر عمدا لقوس النصر الذي يتوسط الشارع. لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي رفعه لكن من يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته. الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعا ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثا. ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قتل ؟ كيف كانت آخر لحظاته ؟

كل ما يعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أخرجت من أرض عرفت أكثر حروب الآدميين وحشية وغباء، أنه كان واحدا من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثّل كل الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ التاريخ لهم مأثرة أو اسما. يا لها من جائزة أحرزها ولا علم له بالشرف الأثيل. أي قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأمّ المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسيموت أبشع موتة لكنه سيصبح من المشاهير حتى ولو أنه سيظل نكرة يقف ملايين الصغار والكبار إجلالا أمام قبره ولا أحد يعرف الاسم الذي أعطته له.

ربما هو المحظوظ فجلّ سكان هذه المدينة لم يتركوا ولا حتى قبرا بلا شاهدة. عاشوا، تألموا ومرّوا لا أثر لما قالوا وما فعلوا. ذهبت قصصهم مع الريح. ولو. أنا من سيكتب قصته الحقيقية. اسمه إذن ميشال، وكان من مقاطعة النورماندي، من قرية سانت أوبان تحديدا، كان عاشقا للصيد في أعماق المحيط وكان مغرما بكريستين بنت بائعة السمك. عند اندلاع أبشع الحروب تزوجا خلسة ليتمتعا بليلة حب يتيمة، ولما أطلق عليه الجندي الألماني رصاصة ارتطمت بالعلبة التي أهدته إياها كريستين وفيها بعض من شعرها الأشقر والتي كانت لا تفارق جيب صدريته. ثم عاد وليس به إلا بعض الجروح الخفيفة ليجدها حبلى بكريستان، فنسي سريعا هموم الحرب وعاد لعواصف المحيط إلى أن انطفأ عن عمر ناهز التسعين وهو يستمع لزمجرة المحيط عن بعد ولصراخ الأحفاد حوله لا يعبئون بأم باكية تنهرهم .

المشكلة أن هناك جثة ولا بد أن تكون لأحد. ليكن .اسمه دومينيك، وهو من مقاطعة اللوران، من قرية كوتزنبريك تحديدا.، كان حطابا تزوجته الغابة وتزوجها. لما دعي للحرب فضّل التوغل فيها قائلا ليست حربي ولا عدوّ لي فليذهبوا كلهم إلى الجحيم. عاش ومات حرا ووجدوا جثته صدفة فرموها في الحفرة التي سيخرجونها منه يوما ليجعلوا منه رمزا للمقاتل المجهول هو الذي رفض أن يدنّس راحته بسلاح.

يصل بي الطريق نهاية الشارع الذي يقال أنه أجمل شارع لأجمل مدينة، لأجد نفسي وسط ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كمّ هائل من أفظع قصص الآدميين.

ها أنا أحاذر المشي، أنظر بانتباه لأرض لزجة بالدماء. ثمة من حسبوا كم من رأس بالضبط سقط في هذه الساحة وتوصلوا لرقم 1119 منهم من كان برتبة ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكا، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكا في غير الزمان الذي يجب!

مدفوعا بعادة تأصلت على مرّ السنين، والمخبرون ورائي في كل خطوة يحصون أنفاسي، ألتفت خلفي. لكن هذه مدينة بسطت عليّ حمايتها يسعني أن أمشي فيها بأمان.

على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطلّ على نهر هو منذ نشأتها شريان يضخّ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة. يرفع الحيوان طرفه الخلفي يتبول على الشجرة ليترك أثر مروره وليعلم من يهمه الأمر أنه موجود. نفس الأمر عند الآدميين، لكنهم لا يتبولون على الأشجار، إنما يرفعون مثل هذا البرج لكي لا تنسى الذاكرة اسم إيفل، وفي تجمعات أخرى اسم امحوتب، ايكتينوس، كاليتراتاس، شاراس، سوستراط، أنطينوس، إيزيدور، أستاذ أحمد، غوان–آن، سنان، إروين، بارلر، أولريش، أولت، دافنشي، رضا الأصفهاني، كريستوفر رن، بارتولدي وكم من آخرين ملئوا مضارب الآدميين بروائعهم المعمارية .

يا لظلم التاريخ وهو ينسى أسماء من بنوا أهم معالم مدن أريتاس الرابع وسوريفارمان الثاني وباتشا كوتاك وباكال وابنه شانج بالوم ناهيك عمّن خطّطوا لمعابد أوروك، للسور العظيم، لجدار هادريان، للزمبابوي الكبير، لمعابد ماتشو بيتشو، لقلعة حلب، للحمراء، للزيتونة، للأزهر أو لصومعة الكتبيّة.

أتوغّل في شارع يتفرع عن الساحة متجها جنوبا تاركا على يساري حديقة مغلقة كم كنت أودّ دخولها ولو تحت جنح الظلام.

على جانبي الطريق عمارات بجدرانها الشاهقة يتحصّن خلفها الآدميون الذين نجوا من كوارث الحياة. آه لو كان لها قدرة رواية ما تشاهده، صامتة، صابرة وربما كاتمة مثلي ضحكها. وداخل هذه القلاع المغلقة لا أعتقد أنهم يفعلون في هذا الهزيع الأخير من الليل فعلا أهمّ من استعادة القوى وكل واحد منه آب لمخبئه مضرجا بما وفره له نهاره من الجراح. كأنني أسمع أنين ضحايا الكوابيس وهمس المستيقظين يتبادلون عبارات المواساة والطمأنة.

بعيدا على يميني، ألمح كلبا فوق قمامة مضطجعة ورجلا يفتّش فيها ويصرخ في كلبه كلاما ما.

انتباه لاختلاجة امتعاض هنا وعلامات نفاد صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان لمن يسدّ الطريق في مدينة عمرها أكثر من ألفي سنة وهي دوما الغادة الرشيقة التي تتوقف لحظة عن الركض.

ليسرعوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي منصبّ على أشباح نساء ورجال حلقت رؤوسهم وأيديهم مقيّدة إلى الخلف كدّسوا فوق عربات مجرورة بالخيل والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة التي أدرت لها ظهري هي وقوس النصر أريد نسيانهما معا. ترى ما الذي يعتمل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العينين في قفّة معدة خصيصا لتلقفها ؟ هل تكون هذه المرأة التي تبثّ على كل الأمواج قدرا لا يحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا

زوجها من قبل ؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولد ملكة وفي غير الزمان الذي يجب . لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجائز والعذارى؟

كيف الإفلات من صراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهمة تقع على بعد بضع مئات من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول أنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميرا ووليّ عهد ملك على وشك الغروب. ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

لعنة سكير اتخّذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تحابه أكثر الطاولة اللعينة.

هذا جبل القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلا. يا سيدتي جنفياف، خففي من آلام روح الطفل ليجد العزاء أخيرا ، ارحمي هذا المتشرّد...وبما أنك في مزاج رائق وبالرغم من انتمائي لقوم لا يحبهم قومك ولدين ليس الذي تدينين به ، لا تنسي آلامي فقد خذلني أسياد وسيدات الأب والأم والجدّ. ماذا تسخرين منّي ؟ تبادرني صبيتان وابتسامة بلهاء على الشفتين.

– هل تعرف الربّ؟ هل تدرك إلى أي مدى يحبّك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس ؟

– لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة وفيها كل المطلوب للخبطة للأمور، أما بخصوص حبّه للبشر فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا، خاصة هذه الأيام.

أخيرا الحيّ الذي ذرعته سنوات شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب. حولي تتدافع جحافل أشباح من كانوا طلبة علم قبلي . إنها معركة أخرى شبيهة بكل التي يصنعها البشر أي بلا منطق أو معنى، يقتل فيها البوليس بعض الطلبة فترحل الجامعة احتجاجا... أول إضراب من هذا النوع في التاريخ. ترضخ الملكة المتغطرسة وقد هجرتها جامعتها إلى مدن منافسة سارعت لاحتضانها. ها هي تستجدي رجوع الفارين تستلم صاغرة لكل شروطهم. درس من بين الدروس الكثيرة للمدينة الثائرة على الدوام وهي تربّي من يحكمها على الحكم الرشيد. متأكّد أنّ السيف أصدق أنباء من الكتب؟

لا أحبّ إليّ من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريت لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نافدي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قال أن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعتهم ولسعوك ، إن بعدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيل، أبحث عما بحثت عنه دوما: الدفء بلا لسع.

لم أشعر كم أنا غريب إلا بين ذوي القربى ولم يلسعني إلا هم . ولم أحسّ كم أنا منفي إلا داخل حدود بلدي. ليحلموا به هم وليغنّوا : «سنرجع يوما إلى حيّنا" ، ليكتبوا الأشعار عن مفاتيح بيوتهم التي تركوها في الأندلس وليحرقهم الشوق والحنين إليها، أما أنا فوطني العالم كلّه لا قطعة منه . كل من حولي الآن مواطنيّ وهذه المدينة منذ وجدت مفتوحة لكل الغرباء الذين استجاروا بها سواء جاءوها من أقرب الأرياف أو من أبعد الغابات والصحاري، سواء وصلوها مثلي البارحة أم قبل ألف سنة.

أعود للمشي. على يميني الكاتدرائية التي تواصل العمل عليها قرونا وكادت أن تدمّر عند الثورة. هل من حسن الحظّ أنها لم تدمّر أم من سوئه؟ على الأقل بقيت معلما للسياح.

وهذه المباني ...والتي بقربها ...والتي ورائها . لا شيء بخصوصها داخل الذاكرة . قدرنا أن نمرّ أمام كم من أثر صامت ننزلق دوما في أي مكان ننزله على بحر من الألغاز والأسرار.

يوم يتوقف بنا الطريق ، سيبقى العالم يعجّ بأماكن لم نصلها، بكائنات لم نعرفها، بقصص لم نسمعها، بأسرار لم نكشفها...وهذه المدينة غير العابئة بدخولنا أو بخروجنا صورة مصغّرة منه.

الوجهة المقررة الأن المكتبة العظمى. على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة تواجه بعضها البعض. يقال أنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كتب. الشدّ والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز. هذه المدينة نصّ عظيم مكتوب بالدم، بالعرق وبالحبر، والكاتب التاريخ. الأمر الذي تقرأه في كل السطور : فكّـرْ من خارج كل الأطر، تمرّد على كل الصيغ، جدّد ولا تتوقف عن الإبداع كل شيء مقبول إلا الرداءة. جوّ كهذا جرعة الأوكسجين للمختنق ونفح الطيب لمن عاش والنتن يملأ خياشيمه. لم أكن واعيا ليلتها أن "الرحلة» ستصاغ في أحد بيوت هذه المدينة وأنها ستكون حاضرة بقوة في أكثر من مقطع من نصّي. كيف لا أكتب بلا توقف، أغتنم فرصة جادت بها الأقدار القاسية، ولا مخبر يتنفس في عنقي، ولا رقيب قادر على منع كلماتي، ولا موظف عند السماء يدّعي تعليمي ما القداسة وأين توجد حقا.

أجلس إلى النهر وورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتب الآدميون عن الآدميين. ليس أمامي الآن إلا الضواحي البعيدة ومنها التي ستلتهم سنوات من عمري في معالجة أفقر سكانها. إنهم آخر من تدافعوا من أقاصي قارة منكوبة هربا من الموت وطمعا في الحياة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال ولا دليل ولا خارطة ولا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

إنهم آخر من تدافعوا على الطريق المؤدي لهذه المدينة لا يعلمون أنها المرفأ والعاصفة. هل يجب أن أرثي لهم أو أن أتشمّت فيهم؟ لا شكّ أن بينهم كتاب سيضيفون مقاطع

جديدة للحمة الآدمي وهو تائه في الصحراء بلا ماء ولا أمل، أو غريق أنقذ آخر لحظة من براثن البحر، أو مغامر يائس بائس يخترق الجبال خلسة ليلة صقيع يمزق أحشاءه الجوع، لينتهي على أعتاب المدينة شبه ميّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقي جناحيّ.

ثمة شيء ناقص في هذا الطريق، ماذا بالضبط؟ ألم يتضح بما فيه الكفاية أن الحياة صعبة أو لا تكون؟ طبعا عليّ أن أرفع في كل تقاطع شارة التنبيه:

الطريق ليس صعبا، (كيركجارد)

الصعب هو الطريق.

* * * * *

طبائعهم المرصودة

يجب الآن إضفاء تنظيم ما على الجحافل ولنبدأ بالأسهل والأكثر أناقة: من جهة أنا، وعلى الطرف المقابل أنتم كلللللكم، الست مليارات الحالية، تضاف إلى الثمانين مليار "وحدة" التي وجدت قبلي، ولا أتحدث عن الحشود التي ستتابع بعدي على فرض أنه ما يزال أمام هذا الجنس البائس أي مستقبل.

لكم أشعر بالخيلاء والزهو وأنا وحدي على كفة الميزان وأنتم كلللللكم على الكفة الأخرى، ومع هذا تتساوى الكفتان.

ألست وسط الدنيا وكلكم حولي، إذا تبخرت تبخّرتم، وحتى وإن وجدتم بعدي فوجودكم عندي والعدم سيّان ؟

تسارع لاتهامي بالنرجسية ثم تتدارك مضيفا بخبث : لم لا ؟ تقسيم منطقي خاصة وأنه ينطبق عليّ : أنا على كفّة وأنت وأشباهك على الكفة الأخرى...إن اختفيت اختفيتم كلكم وحتى لو تواجدتم بعدي فوجودكم هذا بالنسبة لي والعدم سيّان.

التصنيف إذن فاسد فلنتخلّ عنه.

تصنيف البشر إلى الأحياء والأموات ؟ لكنه غير دقيق ،كم من أحياء لا تأثير لهم وكم من أموات يواصلون فينا أفعالهم الخفية .

ماذا عن تصنيف الذكر والأنثى ؟ شيء ما يجعلني غير مطمئن له.

هل من اللائق أن أضيّع وقت قراء محترمين من مجرّة العقرب في مشاكلنا الداخلية والاطلاع على غسيلنا القذر ؟

بالمناسبة، لا أدري لماذا وجد نمطان لنفس الكائن، والحال أنه كان من الأسلم خلق كائن واحد يسقط في غرام نفسه ثم يضاجعها ويحمل منها ويلد له البنين والبنات. صحيح أن التنوّع البشري كان سيتناقص، لكن تصوّر كم من مشاكل كان مثل هذا الحل يوفّرها علينا، مثل الحركة النسوية، ونفقات المحامين عند الطلاق، وأغاني الغرام والمسلسلات العاطفية، وأعراس الصيف، وما إلى ذلك من منغصات العيش التي تضيّع وقتا ثمينا نحن بأمس الحاجة إليه في ما هو أهمّ.

تقول : «بلاش هكذا تنظيم»، لماذا لا نقسّمهم إلى الصغار والكبار ؟

حذار. قد يسوقنا التقسيم لرسم صورة العالم الرضيع بما هو سحر وبريق وحدّة وجدّة وسؤال، وصولا إلى العالم العجوز وقد خبا منه البريق وتبخر منه السحر وأصبح حملا

تنوء به الأكتاف، فالأعمار ليست إلا مراحل مختلفة لتفاعل الذات مع العالم. مثل هذا الانزلاق قد يشغلنا عن التركيز على موضوعنا الحالي.

تقترح : أسهل تصنيف؛ وضع المحبوبين في خانة والمكروهين في خانة مقابلة. ما تعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُحبّ طويلا خاصة إذا عرفته عن قرب، لا يُكره طويلا، خاصة إذا عرفته عن كثب، أنه لا خيار لك غير تحمّل كل ما يبغّضه والتمتّع بما يحبّبه، وفي كل الأحوال قبول تقلبه قبولنا تقلّب الطقس.

تقول : لم لا نقسّمهم إلى من نثق فيهم والذين نحتاط منهم. انتبه أنك إن وثقت في الآدمي أو أحببته أو أملت فيه، كنت على خطأ، وإن لم تثق فيه أو كرهته أو يئست منه، جانبت الصواب. إن ركّزت على موبقاته كنت منحازا ضده، ومنحازا له إن ركّزت على فضائله.

ماذا عن ثنائية الأصدقاء والأعداء وهو يلعبون في رحلتنا الدور الذي تعرف . بخصوص الأعداء : الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن الصراع معهم متعة والصلح متعة أكبر...الذين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خوض في الوحل وصلحهم من نكد الدهر. بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن صداقتهم نعمة النعم ...الذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

هناك أيضا الثنائية التي أشرنا إليها؛ أي المنتبهون والمتبلدون. لكن القارئ المجهول يذكر أننا قلنا إننا كلنا نعبر العالم منتبهين ومتبلّدين.

هذا كتاب موضوعه الرحلة لماذا لا نجرّب تصنيفهم حسب نوعية المسافرين بمقاييس أخرى غير الانتباه والتبلّد ؟

منّا من يخرج للعالم ليغزوه بوسائل الفاتح، أو لغايات اللصّ أو الجاسوس، أو المغامر... أو بنوايا إصلاحه على طريقة القديس بولس وكل مبشّر ، أو بخشوع الحاج، أو بنفسية السائح الأرستقراطي مفتعل التعالي حتى على ما تفنن العالم في خلقه، أو بعقلية التاجر العليم بثمن الأشياء الجاهل بقيمتها، أو بفضول الباحث الذي لا همّ له غير الملاحظة والتبويب والقيس والتجريب وتدبيج التقارير ونشرها.

قلّب الآن كل هذه الطرق ستجد أنها تعكس توجهين مختلفتين حتى لا نقول طبيعتين مختلفتين.

يخرج الآدمي من النوع الأول رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، ثم يدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثمّ يخرجه من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. ها هو- ها أنت- ها أنا، على الطريق كالغزالة وسط الأعشاب العالية تتربص داخلها كل الأخطار. لا بدّ أن أهدّئ من روعي، أن أتجلّد، أن أنظّم تنفّسي وقد تعالى داخلي فزع حصان جامح فقد كلّ الضوابط.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت للجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدّة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم

يعبرون الوجود متألمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا. لا شكّ أنه سيكتب على ملفّهم: للإحالة على مستودع الخردة.

يخرج الآدمي من النوع الثاني رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا و مذعورا. ثم يخرجه من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاد صبر وحتى تسرّع لمغادرة الوكر. لا بدّ أن أهدّئ من نفاد صبري ومن حماسي، أن أنظّم تنفّسي وقد تعالى داخلي منسوب شهوة القتل وأنا كالفهد بصدد القفز للإمساك بعنق الغزال. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم، تستفزّ أنيابه ولا درع يحميها سوى الجرأة والتحدي. ها أنت– ها أنا– ها هو الآدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنثى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاظم الأخطار بقدر ما تتعاظم الغنائم، أنه لا بدّ «مع الشهد من إبر النحل»...وأحيانا تصبح الإبر أثمن من الشهد. لا شكّ أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعيّن لمهمّة أخرى في عالم أخطر.

كان «با» عيّنة كاريكاتوريّة من هذا النوع من المستكشفين الذين ينطلقون على الطريق غزاة وأوّل عدوّ ينتصرون عليه نفسهم الأمّارة بالجبن.

في نفس السياق، ثنائية الآدمي المبحر في وجه عاصفة الحياة وهو كالربان الجسور المتزايد الخبرة في رصد الرياح والتيارات، الرافع مرة شراعه والمرة الأخرى خافضه، المتسلق جبال الموج إلى حيث الغنائم. على الطرف الآخر الآدمي المتشبث بخشبة تطفو على سطح الموج المرعب تطوّح به الرياح في كل اتجاه وهو بلا حول أو قوة، ينتظر كل لحظة خلاص الموت غرقا.

قد يشتمّ من كلامي أنني أفضّل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية. تأمّل الحالة التي نسميها الشجاعة. الخاصية الأساسية الغائبة عند صنف والمفترض وجودها عند النقيض. هي فضيلة الفضائل ظاهريا، لكن لو دققت فيها لاكتشفت أنها– أغلب الوقت– خليط من العيوب كالسذاجة والتهوّر والمجازفة والجهل والخفة والغرور والتمثيل والبحث عن التصفيق وتصديق القصص الملفقة عن الأبطال المزعومين، ومحاكاتهم لتنفيذ مخططات الجبناء الساهرين على حشو الأجيال الجديدة من القرابين بهذه الفضيلة المسمومة لتتحقق مراميهم وهم في راحة وطمأنينة. والآن تمعّن في مشاعر كل آدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الآدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

ولأن أغلب تصوراتنا عن التاريخ وعن بعضنا البعض مطبوعة بهاجس متى انتهى التوحش وفي من من الأفراد والشعوب ما زال متواصلا ما رأيك في تصنيف الآدمي إلى الهمجي المتوحش والهمجي المتحضّر. الأول هو الذي يجري وراء آدمي آخر برمح وسكين وساطور، وعندما يمسك به يقتله مباشرة، ثم يبدأ في طهوه بانتظار أن تلحق به الولية زوجته تلهث وتمسح عرقها في غاية السعادة، والغذاء الشهي- أخيرا- في متناول الفكّ. أما النوع الثاني فهو لا يقتل الآدمي لسدّ الرمق وقد غيّر منذ زمن بعيد حميته لما هو أشهى وأسهل صيدا. كلاّ إنه يقتله لأسباب عالية ونبيلة مثل فرض احترام العدالة والقانون والملكية الخاصة والقيم الحميدة والدين الحنيف ومصلحة الدولة العليا. هذا الهمجي المتحضّر لا يقتل بالرمح والسكين وإنما يحكم بالموت في إطار محاكمة طويلة ومكلفة، ثم يضع الضحية في رواق المحكوم عليهم بالإعدام ثلاثين سنة، لأن محامييه استطاعوا المرة بعد الأخرى تعليق الحكم وتأخير وقت التنفيذ. وفي الأخير يعلم المذنب أنه سيعدم اليوم الفلاني على الساعة الفلانية لأن الهمجي المتحضر يحبّ الصراحة والوضوح والشفافية ويربأ بنفسه عن الكذب والخديعة. أخيرا يساق الآدمي الذي عاش ثلاثين سنة من الكوابيس إلى غرفة الإعدام حيث يمدّد على طاولة طبية ويبدأ ممرض في البحث عن الشرايين ليدفع فيها سموما معقّدة سهر جهابذة الطب على مزجها حتى تقتل بصفة متحضرة. لكن الممرّض لا ينجح في إدخال الإبرة في شرايين دقيقة كشعر الملائكة. وبعد ساعات من المحاولات الفاشلة يعاد المحكوم عليه للزنزانة حتى تبرأ جروحه وتعاد الكرة بعد أسبوع... على يد من كنت تفضل موتا لا بدّ منه ؟

تسرّ في أذني أن ثنائيتي مغشوشة لأن الهمجي المتحضر هو الهمجي المتوحش والهمجي المتوحش هو الهمجي المتحضّر، ثم تستدرك بسرعة، انتبهت أنني وصفتك بالهمجي سواء أكنت متوحشا أم متحضرا.

نواصل بحثنا عن أحسن تصنيف.

لنعتبر طريقة السفر أي مكان ومكانة المسافر داخل القافلة ونصيبه من الغنيمة التي تحققها وهي ترتحل كالجراد أو كالجيش الغازي.

من جهة الذين يملكون وسائل الارتحال في ظروف مريحة نسبيا وهم يتحركون مرفوعين على أكتاف العبيد، واثقين أن لهم الحق في خمس المحصول وأحيانا في نصفه، ولم لا في كل الكومة. هؤلاء يؤمنون أن الطبيعة، أو الله خلق البشر غير أسوياء ،أنه لا خير يرجى منهم ولا بد من معاملتهم بالقسوة والتخويف، وأنه يجب محاربة كل المخالفين في الرأي بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخابرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة. في المقابل، العبيد الذي يعبرون الطريق رافعين أسيادا وسيدات يتصادف دوما أنهم من المصابين بالسمنة المفرطة، لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرد الجماعي لأسباب اقتصادية، يأكلون من

فتات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تزايد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يتصور من أصناف الوجع.

في نفس الإطار : الآدميون الذين لا يأكلون إلا ثمار البحر ولا يشربون إلا الشمبانيا ولا يلبسون إلا الحرير، ويركبون طائرات خاصة وسط جناحها الأيسر ملعب قولف ووسط جناحها الأيمن ملعب تنس ومسبح وسونا وجاكوزي وسطها. وهؤلاء البشر من يخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة والجمعيات الخيرية ووكالات المخابرات المركزية، ويموتون في أرذل العمر بأمراض التخمة ليدفنوا في مقابر رخامية.

في الطرف المقابل، من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير ويعملون الأعمال الشاقة ويخترعون الآلهة والأديان والأخلاق والثورات الفاشلة، ويموتون مبكرا من الإجهاد وكثرة أمراض الماء غير الصالح للشراب وينتهون في مقابر جماعية.

جميل، لكن هناك أكثر من استثناء لهذا التقسيم. خذ كاتب هذه السطور مثلا. لا تستطيع وضعه في أي من الصنفين حيث هو لا مستغَلّ ولا مستغِلّ بل يمكن وصفه طبقيا بأنه بروليتاري-أرستقراطي، الأقدام في الوحل والرأس بين النجوم. آه، لا وجود لطبقة كهذه في قاموس السياسة وعلم الاجتماع. لست ضد فكرة أن أكون طبقة لوحدي. على كل حال لنترك هذا التصنيف بما أنه لا يحظى بالإجماع.

بما أننا نتحدّث عن الارستقراطيين والعوام، فلماذا لا نقسمهم إلى بشر حسب شكسبير وبشر حسب تشيكوف. الصنف الأول من الأبطال، تشغلهم القضايا الفلسفية الكبرى من نوع «نكون أو لا نكون»، يعيشون دوما قصصا شيقة يسمونها «تراجيديات» من نوع: قتل الرجل أخاه واستولى على زوجته ومملكته فقامت القيامة في القصر، أو أحبته وأحبها لكن القدر منعه من تزوجها، أو أعطى كل ما عنده لبناته ويا ليته ما وثق في النساء خاصة إن كنّ فلذات كبد، إلخ. خصومات هذا الصنف تقع دوما في قصور شاهقة، تشهد أروقتها أروع نهايات القتل والانتحار.

بالعكس من هؤلاء، يتميّز بشر تشيكوف بأن مشاغلهم الفلسفية لا تتجاوز ماذا يجب أن يكون العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك ما يكفي من الفودكا في الداتشا الآئلة للسقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريبا دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة. هؤلاء البشر لا يتميزون بأي عظمة ولا ببلاغة تسترعي الانتباه ولا حتى بالحدّ الأدنى من الذكاء. هم فارغون، ثرثارون، مملون، عاديون إلى درجة تستوجب الجزاء. وفي كل الحالات تقع خصوماتهم المتعلقة بالجنس والسلطة والخيانة والدناءة والجنون في ديكور مقرف من الفقر والقذارة والبذاءة والتفاهة بحيث تكاد لا تجعلهم مادة لروائي يحترم قرّاءه.

المشكلة أن ثنائية الفقر والغنى أعجز من استنفاذ وضعيات معقدة، خاصة وأنه يجب وضعها في إطار الآفات الخمس التي تلاحق الآدمي.

لنعتبر كل الذين لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون، الذين لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام، الذين قرأوا المعلقات السبع وتولستوي وطاغور وإيسا ولاوتسو، ووصلوا أرذل العمر، الذين لم يدخلوا مستشفى إلا لزيارة قريب، الذين اشتغلوا في كل ما هو مثير وممتع، يعطون الأوامر ولا يتلقونها.

في الطرف المقابل، لنعتبر الذين ولدوا بعاهة وراثية وداهمتهم القنابل الحارقة في عقر أكواخهم، و الذين لم يتعلموا حرفا، الذين تضوروا من الجوع أغلب أيام حياتهم، الذين اضطروا للعمل في مناجم الكبريت تحت اللطم لا يسمعون إلا رنّة السوط مصحوبا بالشتم واللعن.

تنويع داخل الفكرة: تقسيم البشر إلى محافظين وثوريين على الوضع المذكور أعلاه.

الخاصية الأساسية للنوع الأول كرههم للتغيير وخوفهم منه. هم يريدون الإبقاء على الوضع كما هو، أيا كان سوءه حتى بالنسبة إليهم، هدفهم الأوحد التواصل مع موتاهم والسير على نهجهم. ولو قدّر لهم السفر في الزمان كما في المكان، لولّوا الأعقاب نحو ماض مخيّل وضعوا فيه كل ما ينقص حاضرهم التعيس.

على العكس، لا يرى النوع الثاني له وطنا إلا في مستقبل يقطع فيه مع إخفاقات الآباء والأجداد، يشهد ولادة الإنسان الجديد.

بعبارة أخرى : المحافظون الذين لا يريدون شيئا قدر تثبيت المتحرك، والتقدميون الذين لا يريدون شيئا قدر تحريك الثابت.

نحن نريد دوما بوعي وبلاوعي تهديم ما نشيّد والتشييد على أنقاض ما نهدّم. وظيفتان أساسيتان لتوازن الفرد والمجموعة مثلما استنشاق الهواء وإخراجه وظيفتا التنفس. التنظيم إذن التقسيم مصطنع وكلنا نحمل داخلنا رجعي وثوري وإن بنسب مختلفة.

لا يرضيك هذا التصنيف، لا تقبل التشكيك في المحافظين إن كنت محافظا ولا الغمز من قناة التقدميين إن كنت تقدميا!

لست مقتنعا بهذا التصنيف! لنتخذ مقياس كمية السلطة التي يمتلكها كل واحد منا إن كان طول الوقت أو في مرحلة ما من رحلته.

يصرخ ورائي الحارس بصوت خشن فيه ملل لا يخفيه: قف؛ وجهك للحائط. انتظر أن يأتي دورك. لا تتحرّك. لا تتكلّم إلا إذا أذنت لك. اغمس الإبهام في الحبر الأزرق. ابصم يا حيوان. انظر للمصوّر دون هذه الابتسامة الغبية، تظنّ أننا نأخذ لك صورة العرس ؟ والآن إلى الزنزانة ركضا، لا تنظر يمينا أو يسارا.

من جهة الذي لا يملك أدنى سلطة حتى على جسده والتمرّد يعني مزيدا من فقدان التحكّم فيه. وفي المقابل من يملك القدرة على إعتاق آلاف الأجساد، على إخراج المئات من رواق الإعدام أو على بعث الملايين لساحات المجازر الجماعية.

على خطّ الزمان الآتي وتواصل تغيرّ مزاج عالم ليس فيه إلا المفاجئات ،يهمس فيّ السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة لأعلى هرم السلطة: من هنا سيدّي، حذار من دخول الزنزانات ففيها بعض المجانين الخطرين... يتدافع السجناء إلى القضبان... تتعالى الصرخات تصمّ الآذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك المظلومون! سيدي أرجوك... انظر إلى هنا!...سبحان مغّير الأحوال... البارحة سجين لا حول له ولا قوة... اليوم السجّان الأكبر الذي بيده كل المفاتيح! ...في تقاطع مفاجئ لفضاء الخيال وفضاء الذاكرة ، أنا آخر قابع في زنزانة باردة يتصفّح ببطء جريدة- مثل جبنة القرويار فيها من الثقوب أكثر مما فيها من المادة بعد أن فعل فيها مقصّ الرقيب فعله - ثم يرفع بصره يتأملني من وراء القضبان ساخرا مشفقا ولسان الحال يقول : والآن تدبّر أمرك مع كل هذا .

إذن من جهة ، بشر مثل هولاكو وهتلر وكورتيس لوماي، ولدوا وولد معهم شقاء الملايين وموتهم، وفي المقابل من كانت حياتهم مصدر سعادة لأعداد هائلة من الآدميين، مثل رافي شانكار وباخ وفيروز وسيزاري ايفورا.

من باب توارد الأفكار الثنائية التي تفرّق بين الذين يموتون من أجل قيمهم وهي عادة قيم تخدم مصالح الحياة والأحياء وبين الذين يقتلون من أجل قيمهم وهي عادة قيم لا تخدم إلا الخراب والمصالح القذرة للبعض.

لنضع من جهة ، ليفيا وهي تقول إنها أقدم ثنائيات الفكر البشري ربما أكثرها سذاجة... ثنائية الخير والشرّ. لا علينا ما يهمّ الآن تفحّصها من كل الجوانب.

من جهة، الآدمي الذي جعلته جملة من الظروف والصدف وشيء من الخيار الحرّ، السياسي المكيافيلي والمرابي الفظّ والمستكرش البشع وثري الحرب القذر، أي الآدمي الذي خنق كل ما بداخله من إنسانية ليترك المجال لكل ما يزخر به من لا إنسانية. وفي المقابل، الآدمي الذي جعلته منه الظروف والصدف وشيء من الخيار الحرّ طبيب الفقراء ومغيث أطفال الشوارع، أي الآدمي الذي ألجم داخله لا إنسانيته مفسحا المجال لإنسانيته.

تسارع للاحتجاج بأن الثنائية مغلوطة لأن ريشة الظروف هي التي تجعل كفة الميزان تميل لصنف أو آخر والآدمي من الأزل وإلى الأزل مصنوع من الإنسانية واللاإنسانية. أفحمتني فالأخيار ليسوا أخيارا كامل الوقت ولا وجود لأشرار مزمنين لأن الآدمي من البداية إلى الأبد شرّير-خيّر- لا شرّير ولا خيّر.

تقودنا آليا ثنائية الخير والشرّ إلى ثنائية أخرى ملتصقة بها كالجلد بالعظم.

من جهة، المتخلقون الذين ينظرون لغير المتخلقين من علياء أخلاقهم مرددين، وهم يطوحون برؤوسهم يمينا وشمالا: إنما الأمم الأخلاق، إلخ. ومن جهة أخرى، المنظور إليهم من فوق لقلة أخلاقهم هذه.

لست ضد هذا التصنيف شريطة تحسينه كالآتي. من جهة، كل من تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشهم بأن يكونوا مؤدبين نظيفين متعلمين إلخ. وفي المقابل من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم لأن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، إلخ.

ملاحظة عابرة بخصوص معضلة الأخلاق لتي دوّخت كبار مفكّري الآدمية: أيا كان الآمر- سميناه الإله أو الضمير أو القانون- الذي نعهد إليه بأن يكون مشرّعها وضامنها والمعاقب على انتهاكها والمكافئ لاحترامها، فإننا نرتطم دوما بقلة فعاليته، والمأمور يتعامل مع أوامره نادرا بممارستها عن صدق، وأغلب الوقت بافتعال الطاعة أو يضرب بها عرض الحائط. هل ثمة عيب هيكلي في طبيعة المأمور ومن ثَم ما جدوى الأوامر وحتى ما جدوى الآمر؟ هل هناك خلل في تركيبة المجتمع يمكننا بمعالجته أن نرفع العامل المعطل لبروز أخلاقية الآدمي "الطبيعية"؟ لكن ماذا لو اتضح أن طبيعة المجتمع لا تعكس إلا طبيعة الآدمي، وأن من طبيعة هذا الأخير أن يكون أخلاقيا-لا أخلاقيا، لأن الأخلاق واللاأخلاق- بالنسبة إليه- مجرد استراتيجيات لقضاء الحوائج وأولها البقاء، يستعملها تباعا أو بنسب مختلفة حسب الظروف والحاجة دون أن يضايقه في شيء تناقضهما.

صدفة قصة هايد الطيب الذي ينقلب حال وصول الليل إلى جيكل الذي يجوب الشوارع المظلمة، يزرع الرعب والموت، وعند رجوع النور، يعود هايد إلى موقع القيادة، لكن جيكل بالمرصاد ينتظر رجوع الظلام ؟

داخل هذه الإشكالية كم من ثنائيات يمكن تصفيفها.

مثلا: أهل اليمين؛ وينادون بعلوية القانون على الأخلاق، وأهلُ اليسار المؤمنون بعلوية الأخلاق على القانون. تسأل أين التناقض ؟ وهل ثمة صدام بين الأخلاق والقانون وما حجتي لضرورة وضع الأخلاق فوق القانون ؟

لنقل في مقاربة أولى إن الأخلاق مدوّنة المواقف والتصرفات التي تحاول السباع المشدودة لبعضها البعض فرضها بالحسنى على نفسها وعلى الجميع لتفادي التهلكة. لكن فشلها يجعلها تلجأ إلى القانون، وهو مدوّنة المواقف والتصرفات المفروضة بالقوة لتفادي الهلاك الجماعي.

القاعدة الأولى أنه كلما ضعفت الأخلاق كثرت الحاجة إلى القانون، وكلما قويت الأخلاق تناقصت ضرورته، مما يعني أن قوة القانون في أي مجتمع هي الدليل على ضعف مستواه من الأخلاق.

القاعدة الثانية أنه لا قدرة للأخلاق أو القانون- غلّفا في شكل دين أو أي أيديولوجيا أخرى- على استئصال الشرّ وإنما أقصى المؤمّل كبح جماحه وتخفيف أضراره وبكل صعوبة في إطار صراع أزلي كل نصر فيه مؤقت.

طيب، لنترك هذه المواضيع المثيرة للحساسيات، ولنتوجه لتصنيف حسب المواقف والتصرفات، وكلها من معطيات الملاحظة التي لا يختلف عليها اثنان.

من جهة،نوع الذين عرفوا تحت أسماء أبو نواس و الكسندر دوماس الأب والجاحظ وكوليش ، أي الآدمي الضاحك المضحك، المرح، المهذار، المتحرّك، المقامر، المغامر، الشره، النهم، السكير، العاشق، الخائن، المبذر، المتفائل، الساخر، الوقح، الفضولي، المتطفل، المتهوّر، السطحي، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكول للدجاج المحمّر... وفي الجهة المقابلة، نوع إجزياس الذي اضطر ملك المدينة الإغريقية الصغيرة لمنعه من إلقاء دروس فلسفة كلها قدح في الحياة ومدح للموت، وانجرّت عنها موجة من الانتحار بين السكان. من هذا الصنف أيضا الذين عرفوا تحت أسماء أبو العتاهية وكيركجارد وتشايكوفسكي ...شعار كل هؤلاء الآدميين المثل الصربي : ماضينا مظلم وحاضرنا لا يطاق ، من حسن الحظّ انه ليس لنا مستقبل.

لا يعجبك هذا التصنيف أيضا خوفا أن توصف بالسطحية والهستيريا إن وضعتك ضمن الصنف الأول، أو أن توصف بأبي نكد إن صنفتك في الثاني.

صيغة أخرى لثنائية مزاج المسافر . من جهة، الآدمي الذي لا يرضيه هذا العالم كما هو، المصرّ على تخليصه من بعض خصائصه القارة كالقسوة والفظاعة والقبح والظلم. مثل هذا الصنف- الموصوف بالمتطرّف- في حرب عبثية لا تضع أوزارها أبدا لتغيير ما ليس قابلا للتغيير، ومن ثم في حالة مزمنة من الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كل خططه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمّن هو ساخط عليه ولا يحبّ من يكرهه ، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر

أعصابه ومن احتقان علاقة متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تسمّم حياة الضيف وحياة مضيّف يزفر غيظا من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه.

على النقيض هناك الآدمي البارد الأعصاب، غير المكترث، غير المبالي، وحتى غير المعني بكل ما يجعل الآدمي الآخر يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلادة الحسّ أنه واع بأن العالم لم يخلق على مقاسه، وأنه اكتشف– بطول ممارسته له– أن الحكمة في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابر سبيل أنيق لا يثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يجود به عليه العالم الكريم ولا يزعج العالم البخيل بالشكوى وبالشتم. تقول أنني أقسّم ما لا يجوز تقسيمه، أنك تتحول باستمرار من الصنف الأول للثاني ومن الثاني للأوّل، كالطقس لا تدري كيف ولماذا تتلبد سحب الروح ثم تنقشع.

لنحاول ثنائية الآدمي العنيف، القاسي، الشبه أمي– من نوع الذين عرفوا تحت أسماء جنكيز خان ويونج–لو وهولاكو وايفان المرعب–الباني بحدّ السيف ممالك الفضاء الحسي وإمبراطورياته، وفي الطرف المقابل الآدمي المسالم، العالم، الحسّاس– من نوع داروين وموزارت والحلاج– الخالق لممالك الفضاء الرمزي وإمبراطورياته. آه اكتشفت بسرعة موطن الضعف وأن الأغلبية الساحقة للآدميين لا تنتمي لأي من الصنفين إضافة لوجود كثير من القساة العنيفين الأميين الذين لم يبنوا مملكة ووجود كثير من الآدميين المسالمين الحسّاسين المثقّفين الذين لم يضيفوا للفضاء الرمزي فكرة أو معادلة أو نغما.

قد تثير فيك الثنائية غريزة القتل وأماني مبهمة عن ضرورة التخلّص من نوع من البشر ليسهل العيش على الآخرين.

ماذا عن الثنائية التي يتحمّل مسؤوليتها المدعوّ سان سيمون؟ حسب هذا الخبيث فإن البشر ينقسمون إلى قسمين : من يؤدي اختفاؤهم إلى كارثة على المجتمع وحتى إلى نهايته... ومن يؤدي اختفاؤهم إلى تواصله كأنّ شيئا لم يكن. هو يضع في الصنف الأول العلماء والفلاحين والمهندسين والبنائيين وكل المهنيين من أرباب الحرف الشريفة (أودّ أن أضيف إلى القائمة الشعراء والفنانين والمهرّجين الذين يحبّهم الأطفال). أما في الصنف الثاني فيضع الواحد في المائة من الآدميين أي الملوك والملاكين وكلّ الساهرين على سرقاتهم من عسكر وبوليس وجواسيس وجلاّدين وقضاة ورجال دين. تصوّر حالة العالم، لو أخطأت يد القدر، فعوض أن تمحو هذا الصنف، زلّت فمحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية. لاحظ أن مثل هذا العالم قد لا يخلو من إثارة، والعسكر يصطادون البوليس بعد انقراض الجلادين، والبوليس وراء جواسيسه، والجواسيس يتبعون أثر القضاة المختفين داخل أنقاض الخراب، والملوك يترصدون بالملاّكين، ورجال الدين يصرخون بالفتوى وراء الفتوى أن أكل الفقهاء حرام دينا وشرعا، فلا ينفع ذلك

كثيرا والكل يعلم أنه لا أطيب من فقيه، خاصة بالبصل المشوي... شريطة أن يكتشف الصيادون أين يختفي الفقهاء وأين أُخفي البصل.

في نفس السياق. من يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا، ومن يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.

يتعالى صراخ الاستهجان من كل مكان لا يُخفى ما يحفل به من تهديد: ماذا تقصد ومن تقصد وأين تضعني ؟

عدت معي لنفس اللجاج حول من أقصد وأين أضع نفسي ومتى سأفي بوعد الانتهاء من الثنائيات الساذجة.

من نفس المستوى، الآدمي الغبي الذي يحاول تغيير العالم، ومن جهة أخرى الآدمي الغبي الذي لا يحاول تغييره.

طريقة أخرى لمن يريد مواصلة هذه الثنائية. الآدمي الذي يواجه العالم بالهجوم لترويضه بالثورة، بالعلم، بالدين، بالشعوذة، وفي حالة فشل كل هذا قذفا بالحجارة وبأفظع عبارات التهكّم والسبّ. على الطرف الآخر الآدمي الذي يواجهه بالانتحار أو بالانعزال والتنسك بدير في الصحراء أو بانهيار عصبي يكلّف العائلة وصناديق الضمان الاجتماعي ما يفوق طاقتها.في نفس السياق دوما: الذين يتحكّمون في مسار حياتهم– أو على الأقل يتوهّمون الأمر– والذين تذروهم رياح الحياة كما لو كانوا ورقة الخريف في مهبّ الريح. إنه الفرق بين من يذهب لعمله صباحا بسيارته ويخطّط لعطلة رأس السنة ويدخل واثق الخطى الاجتماع الهام حيث سيفاوض على أشياء يعتقدها هامة، وبين المشرد المخمور الذي يهذي تحت نافذة الاجتماع.

ما رأيك في التصنيف إلى عقلانيين ولاعقلانيين؟ من جهة الآدمي اللاعقلاني الذي يرفض، أنه جاهل، عاجز في مواجهة العالم، فيجسّر الهوّة بين الرغبة في المعرفة والسيطرة، وبين تحقيقها بالصلاة والسحر... من جهة أخرى، الآدمي العقلاني الذي يقبل أنه تجاه العالم جاهل عاجز فيسعى لتجسير نفس الهوة بالعلم والعمل.

هنا تلاحظ لي ببرود مفتعل أنني أجهل أن نيوتن كان يمارس السحر... أن عليّ انتظار لحظة يصاب أكبر عقلاني بمرض عضال لأرى مدى عقلانيته وكيف سيركض نحو كل الدجالين... أن أكبر لاعقلاني يصبح– عندما يتعلق الأمر بسجلاته التجارية– من أساطنة المنطق والحساب...أن العقلانية واللاعقلانية من خصائص كل آدمي وموزّعة داخل كل واحد بالعدل والقسطاس.

آه، إذن لا فائدة من وضع أرسطو وابن سيناء والطوسي وبوول وكانطور وكودل وهيلبار وفيتقنشتاين وروسل على جهة، وفي مقابلها هومير والمتنبي وبودلير وإيسا وطاغور.

خيار آخر: من يبحثون عن حلول للمشاكل ومن يبحثون عن مشاكل للحلول. تصرخ فيّ أنني تجاوزت كل الحدود في التجنّي. لماذا تتهمني بمعاداة الآدميين لمجرّد القول أن جزءا منهم، قد يكون الأكثر عددا، لا يبحث إلا عن مشاكل للحلول. تصوّر الكارثة لو كانوا

كلهم من الصنف الأول وأنهم انتهوا- لما يعرف عنهم من عبقرية- باكتشاف كل حلول المشاكل، في ماذا سنقضي وقتنا وجلّه مخصص لمتعة الخصومات الكبرى والصغرى شأننا في هذا شأن أولاد العم المتراقصين على الأغصان والذين قدمت فيهم وصفا رائعا في مقطع سابق من النصّ.

صيغة أخرى: الذين يعتقدون أنّ النجاح في الحياة السطو والتملّك، والذين يعرفون أن النجاح أقصى البذل والعطاء.

صيغة أخرى- ورأس «ما»- الأخيرة: الذين يعيشون مبادئهم والذين يتعيّشون منها. أو الذين دينهم طقوس بلا أخلاق والذين دينهم أخلاق بلا طقوس.

ربما وضعتك التجربة أمام هذين النوعين من البشر..الذين لا ينطقون إلا بآراء تمعّنوا فيها سنينا ومستعدين للتخلي عنها لأنهم يعتبرون الأفكار كالثياب الداخلية، تبلى وتتسخ ويجب أن ترمى يوما جانبا، وكل ما يريدون من النقاش مع الآخر استعمال فكره للتأكد من قدرة أفكارهم على الصمود أمام مطرقة النقد... وفي الجهة المقابلة، من يكتشفون أفكارهم وهم يتكلمون ويدافعون عنها وكأنها رمز شرفهم، وكل نقاش صراع قوة يجب أن يخرجوا منه منتصرين كما لو كانوا في حلبة ملاكمة. ترمقني من خلال صفحات الكتاب بنظرات الاستنكار: من تقصد ومن تعني؟ صدقا، ما عنيت أحدا تدقيقا وإنما أغلب من حدّثت طيلة الحياة.

طيّب، لنصنّفهم إلى الأغبياء وهم الذين يملكون كل الأجوبة، والأذكياء الذين ليس لديهم إلا الأسئلة. لكننا نحتوي كلنا على كل ما يلزم من الذكاء وكل ما لا نحتاج من الغباء، وهذا ما يجعل من الآدميين أذكى المخلوقات التي تسعى على الأرض وأغباها. إن راودتك فكرة مواصلة إزعاجي بالنقد المغرض، أرجو أن تتأمل حواليك قبل فتح فمك بجملة من الحجج الغبية التي لن تزيد إلا في ثقل ملفك، أيها الكائن العبقري المتخلّف ذهنيا.

طريقة أخيرة في عرض نفس الثنائية لا تصلح إلا في فضاء الرموز.

الآدمي من نوع الذين عرفوا تحت أسماء أفلاطون وبيثاغور وهيجل ، والقاسم المشترك بينهم الإيمان بأن العالم الذي نعبر ليس الحقيقي، أن هناك عالما آخر خيرا وأبقى، نرنو إليه بفكرنا وبقلبنا إلى لحظة دخوله مرهقين من طول الحياة. وفي الأثناء لنحذر من سراب هذا العالم وملذاته العابرة الرخيصة، بل لندر له ظهرنا نخبره بأننا أذكى وأطهر من الوقوع في أحابيله ولنعلمه كم نحتقره ونكرهه.

في الطرف المقابل، الآدمي من نوع الذين عرفوا تحت أسماء ديمقريط وأرستيب وأبيقور وكل عشاق الحياة، والقاسم المشترك بينهم تندرهم بهذا العالم المخفي الذي يحبه أفلاطون وحواريوه، قناعتهم أننا لم نوجد إلا لهدف واحد: اغتنام كل فرص المتعة بلا إفراط أو تفريط.

تواصل محاولة زعزعة قناعاتي الساذجة بالقول: لكنني مزيج من الموقفين، فلماذا تريد أن تشطرني لأكون مع هذا الفريق دون ذاك ؟

طيب، اتركني أضع على يميني الذين يريدون إجبار العالم على إعطائهم ما يريدون بالتسوّل والابتزاز عبر الصلاة والنذور والقرابين (أساسا النساء والأطفال والكهنة)، وعلى يساري الذين يفتكّون ما يحرّك جشعهم بالحيلة والقوة والعنف وكل تقنيات العسكر والبلطجية والعلماء. ترفع عقيرتك بالاحتجاج؛ تتهمني بمعاداة النساء والأطفال والعسكر والعلماء والبلطجية والكهنة، وكلها اتهامات لست بريئا منها تماما.

على الماشي هذه الثنائية التي أتعامل معها شخصيا بكثير من الرهبة : من جهة، الذين استغلّوا أحسن استغلال ما وضعه العالم فيهم من طاقات، والذين أهدروها لا يعون ما ضيّعوا... الذين ربح فيهم العالم رهانه والذين خسره فيهم. لا تسألني أين أضع نفسي، فتارة أقول في الخانة الأولى وأخرى أقول طبعا في الثانية.

لم يبق إلا أن نختتم التصنيف بثنائية قد لا تشغلك كثيرا لكنها بالغة الأهمية بالنسبة لي: من جهة عشاق القهوة، وعلى الطرف الآخر عشّاق الشاي. هنا أودّ أن أكون منصفا وموضوعيا بخصوص من يدّعون أن أهل الشاي فصيل آخر من البشر .

لا يمكن إلا أن أسخر من كل هذه الدراسات «العلمية» التي تحاول ربط شرب هذا السائل بصغر الجمجمة . الدليل القاطع على أن من ابتلاهم الله بالعادة آدميون كبقية الآدميين أنّ من تزوج منا آدمية منهم ينجب طفلا آدميا كامل الخصائص الآدمية وإننا إذا وضعناه في بيئة سليمة فإنه ينحو بصفة تلقائية لتفضيل قهوة أبيه على شاي أمّه. ومن ثمّ فإنني أدعو وبقوة إلى عدم تمييز هؤلاء الغرباء فالغلطة ليست غلطاهم وإنما الأمر ما أصابهم به القدر من جينات. يبقى أن أكثر من يجب أن نرثى لهم ليس من ابتلوا بهذا المشروب الغريب، وإنما من يدّعون أنهم من أهل القهوة... ويشربونها بالسكّر! بالله عليك، هل هناك تصرّف أكثر حماقة من وضع السكر في سائل طرافته الوحيدة مرارته. كل هذا بسبب ولع الإناث بالحلويات، وتحديدا بسبب ملكة فرنسية يقال أنها فوجئت أول مرّة بطعم المشروب فوضعت فيه أول قطعة سكر، وأن أهل النفاق وهم دوما على دين أسيادهم وأذواقهم– سارعوا لتقليدها، ناشرين هذه الجريمة النكراء في حق الذوق العام. لصون لساني، لن أتحدث عن الذين زايدوا عليها بإغراق المشروب النبيل بذلك السائل الأبيض الذي يحبه الرضع ويفضلونه على القهوة لأسباب تخصّهم، ولا أرغب في الخوض فيها وقد قلت كل ما يجب أن يقال بخصوص الرضّع والأطفال.

*

لنجرّب الثلاثيات يكفي ما ضيعنا من الوقت مع ثنائيات سطحية.

تصنيف لا أظنه يثير استنكار أحد. المتفائلون ويمكن أن نعدّ من بينهم من يروون النكت ويحبون رقصة البطن ويداومون على مباريات الملاكمة وكرة القدم وأن نحسب عليهم كل

القائلين بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات منها بعث ابنه لهم رغم علمه كيف سينتهي.

في الصفّ المقابل المتشائمون ونستطيع أن نعدّ من بينهم قرّاء كتب النحو ولابسي الأسود وأن نحسب عليهم كل الذين سكتوا بعد أن بحّت أصواتهم بالتقدم «الحتمي» وبالتحاق المتخلفين بالمتقدمين وبقرب عصور الحب والعدل والرخاء...كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله... كل الذين اكتشفوا أنْ لا الثورة قرّبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم...كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمر، بالافيون، بمهدئات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوما... كلّ الذين سلّموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، أو طبيعتنا المشؤومة، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا...كلّ الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت... كل الذين أدكوا أنه ليس في المستقبل المشرق إلا ما وُجد في الماضي المظلم.

تصرخ فيّ عدت للثنائيات بمواجهة سكّير بغداد بناسكها. هلاّ تركتني أكمل فكرتي. نعم، أعرف أن هناك شيوخا من قرّاء صحيح البخاري وكتب النحو يحبون النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بإتقان، وهناك أيضا كثير من المرحين ظاهريا الذين يمارسون الكآبة السرية. هنا سأقحم الصنف المزاجي الآخر الذي سيجعل من ثنائيتنا البسيطة ثلاثية صلبة : المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بجود العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة الأمل فيه.

الأمل!... مؤكّد أن الإدارة العامة، لو لم تهتم بهذا الجزء من البرنامج أو سهت عن الآليات التي تروّج له، لأكتظّ الطريق بالجالسين على جانبيه يرفضون التحرّك خطوة واحدة.

ثمة ثلاثية مبنية على تعامل الآدميين مع الزمان: أهل الماضي وتعلقهم بأساطيرهم المطمئنة... أهل المستقبل وأحلامهم الساذجة ...أهل الحاضر وهمّهم اقتناص الفرصة لا وهم لهم ولا ثقة في الأساطير والأحلام.

ما رأيك في ثلاثية مثيرة مبنية على تعامل الآدميين مع بعضهم البعض: الذين إذا ظهر بينهم مصلح، حسدوه معتبرين أنفسهم أجدر بالدور من فرط تورم نرجسيتهم وتقيحها، والذين يحاربونه بكل قواهم من فرط خوفهم على سرقاتهم، والذين ينتظرون نتيجة الصراع لرفعه على الهامات أو دوسه بالأقدام.

ماذا عن تقسيمهم إلى المتأكدين من عظمتهم(وهم أخطر المجانين،) ...والساعين إليها،... والجاهلين بوجودها فيهم وهم وحدهم العظماء.

هناك أيضا الذين يحتقرون الآخرين؛ استسلموا لإغراء الجزء المظلم من ذاتهم...الذين يحتقرون أنفسهم؛ استسلموا لإغراء الجزء الأظلم منها ....الذين لا يحتقرون أحدا ولا حتى

أنفسهم، ولا يعظّمون أحدا ولا حتى أنفسهم، صفّوا عقدتي النقص والتفوق، وهم وحدهم الأسوياء في عالم ضجّ من كثرة المرضى.
أخيرا: الدجالون الذين يتوهمون ويوهمون أنهم يعرفون الحقيقة... الكسالى الذين لا يطلبون غير أن يقال لهم ما هي، ....القلقون الفضوليون أمثالي.
اعتبر مقياس التعامل مع الآخر. ثمة من الآدميين من لا يتعاملون مع الآخرين إلا وهاجسهم جزأهم الشيطاني والفشل حليفهم بالضرورة. ثمة الذين لا يعتبرون إلا جزأهم الملائكي والفشل أيضا حليفهم. هنا يقحم النصّ الآدمي من النوع الثالث– على ندرته– وهو الذي لا تخدعه طيبة عابرة ولا تحبطه شراسة ظرفية، لا يغفل لحظة عما في الآدمي من طاقات دمار ولا ينسى لحظة ما يكتنزه من قدرات الإعمار.

في نفس السياق لكن من دنيا السياسة. من جهة، الآدمي الذي يمارسها من منطلق الشكّ والحذر وكل ما يوضع تحت يافطة الواقعية.

في الجهة الأخرى، الآدمي الذي يمارس هذه السياسة من منطلق الأمل والحماس والمثالية وكل ما يوضع تحت يافطة السذاجة.

الصنف الثالث من السياسيين من ولا يُخدع بكرم أهل العطاء ومن لا يحبطه جشع أهل أعطيني.
ثمة ثلاثية نستخرجها من تعامل العالم مع الآدميين حيث يبدو وكأنه وضعهم في ثلاث خانات : الأقلية الأولى وتضمّ كل من قرّر لأسباب مجهولة أن يعطيهم المال والجمال والشهرة والذكاء... الأقلية الثانية التي تضم كل الذين قرّر لأسباب تخصّه حرمانهم من كل هذا، وأترك لك تصوّر أوضاعهم...ثمّ الأغلبية التي جعلها نتيجة قرار أو لا قرار تركض وراء العطايا المرفوضة وتفرّ أمام المصائب المفروضة لا يهمّه من مصيرها شيء.

*

القارئ المجهول: كل هذه التصنيفات غير مقنعة، لنجرّب الرباعيات
لتكن أولها التي تتعلق بموقعك في قافلة المرتحلين.
نفتتح بالإناث الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة من فرط تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وخدمة الآخرين والفسحة والرفاهة والمعرفة والاعتبار... وراءهن الذكور الأغنياء ويعيشون أقل لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلّف للقلب.
ثالث درجات السلّم الإناث الفقيرات. هنا تتعقّد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرض نتيجة تقتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا. أين وضعهن، حتى هنّ من وضع العرق الملعون. هؤلاء الآدميون– الذكور الفقراء– لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحدثكم عما يعانون طوالها. فكل ما هو بائس وفظيع من نصيبهم: الأعمال الشاقة، الحرب، السجون،

التعذيب وحوادث الشغل. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة النساء والرجال الأثرياء) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعاع، عوامّ، إرهابيون ومخرّبون. لذلك نصحت- وما زلت أنصح- كل من يريد البعث أن يتمعن مليا في العروض المقدمة له، فالرحلة الأقل مشاكل لا تكون إلا في شكل وريثة آبار بترول أنجلوسكسونية شقراء، تسعون سنتيمتر مدار الصدر. أما إذا قبلت بالرحلة في جسد ذكر صومالي يعمل في مناجم الملح، والحرارة خمسون درجة في الظلّ، يعيش خائفا من أمثاله الحفاة المتربصين بحذائه الوحيد وبإزاره الممزق، فذنبك على جنبك ولا تأتني فيما بعد تتباكى من شدة صعوبة الوجود.

تقول أنت وبقية قرائي من الفقراء المرضى: آه لو قرأنا «الرحلة» قبل الاحرام، لما قبلنا أبدا بالمهمة. قلة حياء. أولا الكتاب متوفّر عند كل المهربين الجيّدين. ثانيا لا أظن أنكم كنتم تترددون في النزول لهذا الجحيم حتى بعد قراءة تقريري لما يعرف عن جنسكم من طيش وقلّة الأخذ بالنصح السديد.

رباعيتان أخيرتان نختم بهما.

عن آدمي يدعى الخليل بن أحمد: «الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكّروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه».

تصنيف رباعي أخير لا أكثر منه موضوعية أخذته عن آدمي يدعى سيبولا وقد يكون أحسن من فهم البشر.

هو قسّمنا وفق محصّلة أفعالنا كالآتي: الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء... الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار... الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء... الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

حتى ولو افترضنا أن "الأعراق" الأربعة متساوية عدديا، فالحصيلة أن ثلاثة أرباع الآدمية تنتج أفعالا مضرّة بالآخرين، أي بك وبي وبنا جميعا. أليس هذا السبب الأول للحالة التي عليها عالمنا اليوم والبارحة ؟

وراء هذا التصنيف خبر سيء وخبر أسوأ، بماذا أبدأ ؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام...أن الأذكياء لا يقدّرون خطورتهم، لكن حتى لو قدروها لما استطاعوا فعل أي شيء والآلهة نفسها عاجزة أمام قدرتهم العجيبة على إلحاق الأذى بأنفسهم وبالآخرين.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغيّر في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قارة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

تهددنـي بالتقاضي بتهمـة ضرب معنويات الشعب والتعـدّي علـى أقـدس أوهامـك. كل هـذا الضجيج لأنـك لا تريـد معرفـة موقعـك مـن هـذه الرباعيـة وأيـن يضعـك خصومـك. كـم أفهمـك وأنـا نفسـي لا أرغـب في الأمـر.

تصرخ فيّ : كفـاك تحذلقـا وهـات مـا في جعبتـك مـن خماسيات . مـن قـال أنني أسعـى ليكـون هنـاك تسلسـل رقمـي في نصي.

نكالـة فيـك سـأقفز مباشـرة لسداسـية حتـى ولـو أن مـن ينّبهنـا لمـا تزخـر بـه مـن ثـراء هـم... علمـاء تصرفـات الفئران.

*

قيـل- والعهـدة علـى راوٍ هـو رجـل علـم موثـوق بـه- أنّـك إذا وضعـت سـتّة فئـران في دهليـز ووضعـت لهـم كميـة قليلـة مـن الجـبن خلـف حواجـز عـدّة تفرض عليهـم صراعـا شرسـا علـى الغـذاء، فـإن الوضعيـة تفـرز بسـرعة تنظيمـا يتشـكّل مـن سيّدين يستحـوذان علـى جـلّ الغنيمة، ومـن عبديـن في خدمتهمـا، ومـن متمـرّد، ومـن متسـوّل يعيـش علـى الصدقـة وفتـات الآخريـن.

المثير في التجربـة أنـك إذا جمعـت سـتّة سـادة تأخذهـم مـن عينـات مختلفـة، فإنهـم يعيـدون نفـس الهيكليـة : سـيدان وعبـدان ومتمـرّد ومتسـوّل. إن أخـذت سـتّة مسـتضعفين أو سـتة متسـولين مـن عينـات مختلفـة أفـرزوا نفـس التركيبـة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دوما كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائـل أن يقـول اشـتمّ سـوء النيـة أن البشـر ليسـوا فئرانـا. ردّي أن المدهـش مـا تظهـره الفئـران مـن طبائـع آدميـة. المهـم أنـه أصبـح لنـا مقيـاس موضوعـي لتقسيم الآدمـيين لا يتعـارض مـع مـا نعـرف وإنمـا علـى العكـس يدعمـه. مـن يسـتطيع إنـكار تـوزّع الآدمـيين في كل مجتمـع إلى سـادة وعبيـد ومتمرّديـن ومتسـوّلين ؟

مـن ينكـر سـرعة عـودة أي مجتمـع قـام بالثـورة إلى النمـوذج القديـم وقـد أصبـح فيـه العبيـد سـادة يسـومون رفاقهـم القدامـى نفـس الخسـف، علمـا أن هـؤلاء لا ينتظـرون غـير أن تـدور الدوائـر للانتقـام مجـددا. كل مـا في الأمـر أنّـك لا تسـتطيع التنبـؤ بموعـد الثـورة المقبلـة، ولـكل فصيـل مـن العبيـد طاقـة معينـة علـى الصبر، ولـكل فصيـل مـن السـادة قـدرة معينـة علـى الإيـذاء الموصـل للتمـرّد.

أي عجـب بمثـل هـذه الاسـتعدادات الغريزيـة أن يتشـكّل المجتمـع دومـا مـن ملـوك وعبيـد وثـوار، أو أن تتزاحـم في الفضـاء الرمـزي ديانـات سـادة وديانـات عبيـد وديانـات متسـولين وديانـات متمرديـن، وبنفـس الكيفيـة آداب وفنـون سـادة وعبيـد ومتسـولين ومتمرديـن ؟

السؤال الآن لماذا سيدان لا سيد واحد ؟

ربمـا اعتمـدت السلطـات العليـا الخيـار لتحكـم علـى السيـد، حتـى وهـو في أعلـى المناصـب، أن يواجـه بالمحنـة والامتحـان ورمزهمـا الغريـم. فائـدة في العمليـة والمهـدّد مضطـر للانتبـاه المسـتمر والمهـدِّد مجبر علـى الطمـوح الخـلاق. بهـذا يضمـن التنظيـم تواصـل الحركـة وولادة القصـص الطريفـة للانقلابـات والحـروب.

لماذا اختارت أن يكون هناك عبدان لا واحد. ربما لأنه يجب إعطاء بعض الحظوظ للعبيد لقلب موازين القوى، فعبد واحد لا يقدر على سيدين ولا بد له من حليف.

ماذا عن المتمرّد ؟ هو بحاجة ليكون وحيدا للتحرك بسهولة وحتى لا يُخترق التنظيم الثوري. أسارع بالقول هنا أن تصنيفي لا يقصر صفة المتمرّد على الإرهابيين، بل يشمل اللصوص والمحتالين والكذابين والمزورين والكفرة ومخترعي الفن المعاصر والموسيقى الالكترونية، أي كل الخارجين على قوانين سنها السادة تجبرّا واستكان لها العبيد جبنا وضعفا.

والمتسوّل ! ربّما اكتفى متعهّد التجربة بواحد حتى لا يثقل على كاهل العبدين وهما مجبران على تغذية سيّدين لا يشبعان ومتمرد غير منتج بطبيعته.

التنظيم إذن مفروض على البشر والفئران على حد السواء، وممنوع تغييره بأي وسيلة من وسائل الدين والعلم والسياسة.

والآن لنتفحّص وضعية الكل ليتبيّن الغبن اللاّحق الجميع... ربما باستثناء واحد.

السيد- كما رأينا- مهدّد طول الوقت بالغريم وبالعبد وبالمتمرد. كل هذا يفسد مزاجه ويجعله يعيش على أعصابه إلى نهاية الرحلة. لا تقلّ وضعية العبد بؤسا وهو يعيش في خوف يسمّم عيشه وفي تسميم حياة السيد وهو خائف من تبعات خوف عبده. أما المتمرد فكلنا نعرف مصيره البائس وكيف سيقطع رأسه بالسيف أو بالمقصلة أو ينتهي في قوانتانامو ويأخذ عقوبة مدى الحياة، هذا عندما لا تصل المأساة ذروتها وهو من يعذّب ويقطع الرؤوس، انتقاما مما لقيه وتمهيدا لعودة الرقاص إلى نقطة الانطلاق.

لم يبق إلا المتسول. هو الوحيد الذي أنقذ رحلته. تذكّر كل الوقت الذي يضيعه السيدان في معارك افتكاك السلطة والحفاظ عليها والوقت الذي يضيّعه العبدان بالعمل والشكوى، والوقت الذي يضيعه المتمرد في إعداد الثورات الفاشلة.

يفلت المتسوّل من كل هذا وقد فهم من أين تؤكل كتف العالم. فمواقفه مبنية على حياد هادئ رصين يخفي لامبالاة بالوضع بالمنتفعين منه وبالثائرين عليه. لذلك نادرا ما يزعجه سيد أو عبد أو متمرّد، فلا أحد يطلب منه شيئا أو يلتفت له أصلا. حتى قطعة النقد التي تمكّنه من سدّ الرمق، ترمى له بتفادي النظر في عينيه. هكذا يمكنه التفرّغ للشؤون الهامة، لا عمل يرهقه، لا سلطة يؤرقه همها ولا مؤامرة يدبّرها قد تكلّفه حياته. لهذا هو قدوتي لا السيد الذي أرثي له، والعبد الذي يوتّر أعصابي، والمتمرد الذي يضحكني عبث ما يقول وما يفعل. قد أذيع سرّا هائلا إن قلت أنني أخطط لأكون متسولا. قد لا يحملني أحد على محمل الجدّ أو يحملوني للمستشفى إن وجدوني على قارعة الطريق في بلدي أتسول قطعة خبز والابتسامة على محياي. لا حلّ غير الفرار بعيدا ربما لبلاد سيتا وهي منذ القدم وطن أرقى أنواع المتسولين.

تقول يا مسكين حتى المتسوّل معرّض لكل أصناف المنغصات، والحروب المستعرة على طول الطريق تمنعه من التركيز على جمال الجبال والسحب، ناهيك عن إمكانية سقوطه

في فخّ قاتل نصبه له متسول خان السلك ولا أتحدث عن الجوع الذي يمزق أمعاءه وعن القمل الذي يرتشف دمه بنهم. ممكن ، لكنه على الأقلّ الآدمي الوحيد الذي لا يؤذي شيئا أو أحدا وهذا في حدّ ذاته أكبر نعمة داخل قطيع السباع التي شدت بالسلاسل لبعضها البعض تتعرض فيها طول الوقت للعضّ وفي أحسن الظروف لزئير التهديد يلاحقك في النوم وفي اليقظة.

ما يتضّح من كل محاولات التصنيف أنه ليس للآدمي طبيعة أو أن طبيعته طبائع. هو عنيف مسالم، عالم جاهل، غفور منتقم، فاتح مغلق، قادر عاجز، محبّ مبغض، مرعب مطمئن، جارح مضمّد، عادل ظالم، وحش ملاك، حقير نبيل، ضعيف قوي، ثائر محافظ، دميم جميل، هالك مهلك، صادق كاذب، أمين غادر، شجاع جبان، شهم نذل، عاقل مجنون، عبقريّ غبيّ، بريء آثم، قاتل محيً، بانٍ مهدّم، حقود متسامح، متواضع متكبّر، رازق مجوّع، آكل مأكول، معزّ مذلّ، قابل رافض، منقذ مغرق، طامع قنوع، كافر مؤمن، ضاحك باكٍ، مضحك مبكٍ، مؤلم متألّم، حزين جذلان، وفيّ ناكر، مجمّل مقبّح، معلّم مجهّل، رؤوف منكّل، صالح طالح، خشن ناعم، مستعبد محرّر، بخيل حاتمي الكرم.

أي حكم عادل على البشر وأنت تتعامل مع جنس تصدق في وصفه إن قلت كالشاعر أن «الظلم في شيم نفوسه فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم»، وتصدق في وصفه إن قلت فالعدل في شيم نفوسه فإن تجد ذا زلّة فلعلّة لا يعدل.

هناك بالتأكيد قصور في تفكيرنا انعكس على اللغة لأننا لا نجرؤ على الكتابة أن لآدمي كائن غبيّذكيّ، ظالمعادل، طيبشرّير... لأننا لا نفهم كيف يمكن لكائن أن يجمع داخله بين الماء والنار، فلا يتبخّر الماء ولا تنطفئ النار.

* * * * *

الذين منهم كل وحشة

كل ما جرّبنا لحدّ الآن من تصنيف اجتهاد العقل وهو يفتعل الانكباب على الآدميين كما لو كانوا صنفا من الحشرات الظريفة . ثمة الطريقة التي يصنفهم بها القلب ، قل التجربة الحسية الشعورية المباشرة.

أحسن من صنّف من وجهة النظر هذه ذلك الذي قال: نحبّ من الآدميين واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية من المجهولين لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

شيء من التصحيح : عادة نحب من الآدميين أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية من المجهولين التي لا تثير عند هذا المتبلّد إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ على العكس فضولا عارما.

أحسن مركز لمراقبتهم المترو أوقات الذروة .ركض مع الراكضين في الأنفاق الموحشة.

الكلّ تائه داخل ذاته، مغرق في صمت حذر، لا تسمع إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج آت من الإناث بكعبهن العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بث إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

على بساط السجاد الآلي المتحرّك أقف لالتقاط الأنفاس آخذا كل الوقت لتأمل البشر الذين يحملهم سجاد الاتجاه المعاكس. تداهمني صورة الرجل الماشي للنحات جياكومتي... قدماه ملتحمتان ببساط الزمان، والمسكين يتخيّل أنه هو الذي يتحرّك. أما الوجوه فهي كما رسمها... بنفس الأضلع الحادة والسحن المتجهمة والأبصار الشاخصة نحو الفراغ... بما يكفي من الوضوح لتكون وجوها آدمية، وبما يكفي من الإبهام لتكون لكل الآدميين ولأيّ واحد منهم تحديدا.

تتدافع الوجوه نحوي لتختفي مباشرة عوضتها وجوه جديدة كم هي مشابهة وكم هي مختلفة.

هذه أنثى ممشوقة القامة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس... عينان تلمع فيهما شهوة حادّة.. أخرى تفتعل اللاّمبالاة...قوّة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات ما فاتها... هذه نظرة مطولة للصياد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم... ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير... بريق غيرة عمياء تبعث فيّ قشعريرة...يأس موجع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمتا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

تختفي الحسناء التي شدّت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة على الوجه الذي سحر كل الوجوه.

هذه نظرة خلت أنها ستتوقف عليّ ولو ثانية لكنها لم تفعل...انزلقت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الآدميّ جدير بالاهتمام. كم مخيف ألاّ أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه لي، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مرهق مهموم أو عبأ بطموحاتي ومشاريعي أو استفزته أفكاري. لكن متى انتبهت أنا للآدمي المجهول أو اهتممت به، أو شعرت بآلامه أو عنت لي هذه الآلام شيئا أو لاحظت كم هو مرهق ومهموم أو عبأت بطموحاته ومشاريعه أو اهتممت بأفكاره أو انتظرت منه شيئا. اللعنة! أنا أيضا ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يرى، وهم يبصروني بنفس العيون التي لا تبصر. من ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس وسطهم منذ الإفاقة أغرابا لست لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات.

كم تسكّعت شرقا وغربا ! (أغنية صينية)

كم لاقيت من البشــــر !

ولا وجه أتـــــــذكّره

تعبت حقــــــــائبي

ظلّي وحده الــــــرفيق

لا أحد من كل هؤلاء الأغراب يقف مسلّما ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبل والدموع. لا فائدة أن تستوقف أحدا منهم لتسأله من هو حقّا وما الذي يفعل في هذا العالم وهل كان متطوعا لزيارته أم هل حشر فيه هو الآخر حشرا، وما الجريمة التي ارتكبها واستأهلت من المحكمة المجهولة حكما بقسوة عقوبة الوجود مدى حياة.

كأنهم كتب محكمة الإغلاق لا ترى منها إلا العنوان، أما النص فحرام إلى الأبد... ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه. ألا يكفي أن أقرأ في صفحات الذات لأقرأ في صفحات كل الذوات ؟ألا يمشون في الطريق الذي أمشي فيه، تنوء أكتافهم بحمل ثقل ذات أغرب من العالم الذي تستكشف... أغلبهم يحملون قصصهم كالمسيح صليبه على ممشى الآلام، ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا... مؤمنون بأنهم صرّة العالم...يدينون نواقص الآخرين ولا يرون العمود الذي في عيونهم... مقتنعون أن الأقدار ظلمتهم...ينغلقون على أسرار بائسة...يتخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون...وراء وداعتهم شراسة تفوق شراسة الوحوش... بئر بلا قاع من الشرّ وكل مشتقاته...يعيشون على تخوم الأخلاق التي يدّعون المناداة بها والقانون الذي يقبلون احترامه على مضض... تجذبهم أوهام خادعة عن برّ أمان فيه كل ما يحتاجون...تعذبهم نرجسية مجروحة وأنا متورمة، وكبرياء منفوش...مصطدمون على الدوام

بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتجيات في منتهى الغباء...هل يجب أن أتشمّت في كل هؤلاء البائسين وأن أتجاهل هذه الوحشة التي يبثونها فيّ ؟

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور: التعجّب، الإعجاب، الكره، الحب، الحنوّ، الأسى، ربما الشفقة ؟ نعم الشفقة، حقّا يا للمساكين! ...من قال منهم : «وُلدت مجهولا، وأملي أن أعيش مجهولا، وطموحي بعد أن أموت، أن أترك ورائي ما ينفع الناس دون أن أكلفهم عناء أن يذكروني».

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشارات الصامتة دوما هي الدليل.

أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيا واضطرّت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام.

ينفرط الجمع ليتشكل آخر بدله بعيدا سيتفكك بنفس السرعة ولا أحد يتوقف ليقول لي من هو ومن أنا وماذا نفعل كلنا هنا.

يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف ليختفي بدوره في الزحمة. المهدي المنتظر ؟ المسيح ؟ مجرد آدمي أصبح أخيرا إنسانا يقول لي: تشجع ثمة مخرج لنا جميعا من كل الأنفاق!

يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة لقرار من الأنا الواعي. هكذا شعرت برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وبيدي اليمنى تمسك بيد اللص وبيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعنة ! من قال لها لهذه الغبية أنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملّص مني لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالم كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغبية لتناول القهوة التي فوتتها على المسكين لتمدّني هي بتصريح مطوّل، علني أزيح بعض الغرابة عن النمط الآدمي الأكثر انتشارا : الذي منه كل وحشة . لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد وراء قطار خطّه.

وسط عربة شبه فارغة أحشر فيها جسمي المرهق ثلاثة مراهقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولدعوة رفاقه

للاستعداد العنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة ؟ آه ، إنها لهذا الأجنبي القذر! طبيعي ، من أين يخرج الصديق والحبيب ومن أين يبرز العدوّ إن لم يكن من هذه الأغلبية اللامبالية التي ننزلق على سطحها وأعماقها كالقطرة يتقاذفها المحيط.

* * * * *

الذين منهم كل نقمة

ثمة ملفّ حافظت عليه الذاكرة بحرص شديد، لأنه لأولى معركة حكمت طريقة معالجتها بقية معارك الطفل والكهل.

في هذا الملف يخلع الطفل نظاراته بمنتهى الحيطة يسلّمها لأخلص أصدقائه يوصيهم بأشد الحذر. يواجه خصمه منتبها لأوّل مرّة أنه فارع الطول مفتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. هكذا الرحلة دوما: خيار صعب يتلو خيارا صعبا، وأصعب الخيارات ألاّ تختار وأخطرها أن تختار الخيار الأسهل. يختار الطفل بسرعة الصراع ربما لأن أمر الأب الجبار المتواصل داخله أن الاستسلام في أي نوع من المواجهة ممنوع. سريعا يلتهب الحريق في وجهه. تضيع ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجه البغيض. ثمّ يندلع الألم في مستوى البطن ليصبح فظيعا ما بين الفخذين ينذر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. هكذا يتعلّم كل طفل كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر... والقبضة الموجعة هي التي تدّرسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب. لا يسقط الطفل على الأرض إلا لينهض ، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتان كأنهما صنعتا من حديد ورخام . يستنجد بكل ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

يلمح من خلف انتفاخ عينيه نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصورا مشوّشة لأطفال يتهامسون كأنّ شيئا كالقلق بدأ يستشري بينهم .ربما أرعبتهم شلالات الدم من الأنف والفم. فجأة تتوقّف ضربات المطرقة . هل انتقل الخوف من الذات المشرفة على الموت إلى الذات المشرفة على القتل ؟ يطلق المراهق ساقيه للريح أيقن أنه أدّب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أخرسهم صمت متعجّب قلق. يستبطن الطفل منذ ذلك اليوم المشهود الدرس الذي تعلّمه بفضل من سيسمّيه على طول الطريق الذي منه كل نقمة، أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يعتصر الخوف منك الأحشاء فترفضه، أن يصارعك فتغلبه، أن يزيّن لك الاستسلام فتلفظه. بتكرار مثل هذه التجارب ،سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بالقبضتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات، تترسّخ عنده القناعة التي ستتحكم في كلّ تصرفاته إلى نهاية الطريق: أكبر الأخطار التي تأتي من النفس الأمّارة

بالجبن، بالكسل، بالإحباط بالاستسلام، بالحلول السهلة وبكل إغراءات الشرّ التي فيها...انتصر علي نفسك لن ينتصر عليك أحد.

يواجه المهزوم المنتصر الوضع وكلّه سعادة بسلامة النظارات، مرجئا مشكلة الأكذوبة المفضوحة التي سيبرّر بها حالة ثيابه ووجهه.

لكن كيف ؟ نفدت كلّ أعذار السقوط: من السلّم عند مسح الخريطة بأمر من المعلّمة، من الشجرة لمحاولته إنقاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل لم يبق إلاّ الكرسي ليسقط منه.

تأخذ «ما» بيدي لا تخفي وراء شبح ابتسامة حزنها السرمدي :

– لا يمكن للأمور أن تتواصل هكذا، أليس كذلك ؟

لكنني المظلوم لا الظالم :

– برأسك «ما»، لم أكن يوما البادئ. طول الوقت يغنّون وراء ظهري : "الجماعة صفّ صفّ والكليّب وحدو، نحن نأكل الكرموس (التين) وهو يأكل الكعلوص"(الخرا).يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر بالشتم والضرب .

لا أفهم حتّى سبب عداوتهم. ماذا أقول لـــ «با» يوم يعود ؟ أنّني تركت كلبا منهم يتعدّى عليّ ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!

ابحث دوما وراء الهدف المعلن عن الهدف الضمني لكل آدمي أو لأي من المؤسسات التي يخلقها وستكتشف أن مهمة المدرسة الحقيقية تعليم الأطفال باكرا الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلّم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات الحرب وكل صغير يجرّب على من أصغر منه. كيف تنكر أن مدارسنا الابتدائية أكاديميات عسكرية مصغرّة، والحال أن كل معلّم مكلّف بأن يشرح لفلذات أكبادنا التي تمشي على الأرض – ويا لها ما مشت يوما– أمجاد الأجداد الكاذبة، يلقّنهم تواريخ الانتصارات المزورة وأسماء كبار الجزارين، يغرس فيهم البذور المسمومة لتنطلق أحلامهم بالمشي أمام كتائبهم لنصرة إله دموي، ووطن يجب أن يعلو ولا يعلى عليه، وقوم هم أحسن الأقوام.

داخل القسم يواصل مربّ مرهق تدريب الصغار وإعدادهم للمعارك الضارية التي سيخوضونها ضد بعضهم البعض.

وسط الساحة، يُترك للأطفال أنفسهم مهمّة تدريب كل قادم جديد على فنون اللّطم والعضّ واكتشاف حساسية الخصيتين وقصبة الساق...وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليعرف ما الحياة وما أولى متطلباتها.

على فكرة، سبحان من جعل أطفال الآدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر والأمر من قبيل تقنيات عكس اللّغة للمفاهيم، كأن تسمّي أعمى مبصرا، وجنسا ضعيفا أقواهما.

في الواقع لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم من الآدميّ وهو طفل، ولا أشدّ أنانية ونرجسية منه. كل مشروعنا الأخلاقي الخروج من هذه الوحشية الأصلية. أليس جلّ ما نعانيه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا ؟ أليس كل طاغية طفل رفض أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمّة يريدها أمّه ؟ كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع- في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول.

واضح لكل ملاحظ نزيه أن الطفل شيطان في ثوب ملاك، أن من خلقه حباه بملامح البراءة والجمال للتعمية والتمويه حتى لا يجهز عليه أبواه إن داهمهما الوعي، لا فقط بما سيكلّفه من مصاريف كان بالإمكان استغلالها في ما ينفعهما، وإنما بما يعتمل داخل الوحش الصغير من مشاعر وأفكار منها تقدير كم سيرث وهل سيطول الانتظار.

تصرخّ فيّ على عادتك: يا رجل، كفّ عن التجنّي على فلذات أكبادنا. انتظر رأيي في الرضّع لتشتمني بالجملة لا بالتفصيل. بربّك ألم يأت الوقت ليتحمل أخيرا أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوصهم ؟

لا أحمل أي واحد منهم- وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبّله وافتعل الاعجاب بجماله ونباهته المبكّرة- إلا على مضض. هلعي الكبير في كل هذه الوضعيات المحرجة أن يتبوّل عليّ اللعين أو أن يغتنم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة. ثمة أسباب أعمق لخوفي. بالله عليك، هل ولد ريسيمار أو هولاكو، أو هتلر، أو بولبوت، أو ستالين، أو جورج بوش الأب والابن، بشوارب وحذاء بمهمازين؟ ألم يكن نيرون- ولا أتحدث عن كاليجولا- هو الآخر، "ملاكا" تذوب القلوب لرؤيته، استبشر بقدومه أب وأم وجدّة وأعمام وأخوال وهو يعدّ منذ نزوله عالمنا للمصائب التي لا زال التاريخ يتذكّرها مرتجفا على هول ما شاهد وما جرّب من فظاعات البشر ؟

ثمّ من سيخترع آخر أنواع القنابل الحارقة للغابات، المبخرّة للمحيطات، المسقطة للسماوات، المفجرة للمجرات ؟ أليس واحدا أو واحدة من هؤلاء الذين تستنكر تهجّمي عليهم. نعم، أقولها بكل جرأة، بل ومتحملا كل مسؤولياتي: لم يعد أمامنا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه غير رمي الرضّع من النافذة حيث لا خيار أمامنا، إذا أردنا الحفاظ على حديقة الله أطول وقت، غير منع تدفّقهم المشين وهم المخزون الإجباري لكل ما سينقضّ على هذا العالم المسكين من علماء مجانين ومهندسين مجرمين وعسكريين أغبياء واستشهاديين مهووسين، ناهيك عن كل أصناف الوطنيين والقوميين والمتطرفين والليبراليين والمخربشين في الصحف الفضائحية .

تعود «ما» لمحاولاتها العقيمة والمرأة المسكينة إلى النهاية أسيرة التصورات الساذجة عن الأطفال بصفة عامة وعن طفلها على وجه الخصوص.

– عدني أنّك ستكلّم أقرانك غدا لتسأل عن أسباب العداوة. ربما هناك لُبس يُسوّى بالحسنى.

– لا، أبدا، أنا أكرههم.

– إنّهم أترابك وأبناء الحيّ، منهم أقارب وجيران، ربما أسأت إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كلّ سوء تفاهم.

أتمتم بكلمات غير مفهومة تستنتج منها أنّني سأكلّمهم محبّة فيها.

– لا بدّ أن تكون أكثر لطفا وبشاشة. نعم هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللّعب معهم من جديد.

تهمس «ما» في أذن جارة جاءت تسلّي عنها همومها.

– إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسّف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف و ماذا يجب أن أفعل معه.

أعود للبيت من الغد وكأنّني سقطت من نجم في برج العقرب. تمتلئ عينيّ الأم بالدموع والطفل في قمة الهيجان والمرح يصف يوما من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة ، حتى لا نقول بالكثير منها.

– أعملت في أولاد الكلب قبضتيّ. صمدوا بعض الوقت، ثم فرّوا يستنجدون بالمعلّم. كنت كسيّدنا علي في هجومه على الكفّار. على فكرة السيد المدير يطلبك غدا لأمر يهمّك.

تدير لي «ما» ظهرها لا تخفي غضبها. كيف أفسّر لها أنّني وفّيت بوعدي، أنّني ذهبت طالبا السلام، أنّهم سخروا منّي وشتموني، أنّني تمالكت أعصابي أسألهم عن سبب العداوة، أنني فقدت كلّ سيطرة عليها وأنا أسمع سببهم، فهاجمتهم كحيوان مسعور ينفّس عن أشرس الغرائز التي بداخله .

– أرجوك، اسمعيني. يدّعون أنّ «با» يأتي المدير بالهدايا كلّ يوم لأحصل على أحسن الأعداد، وهذا سبب كوني دوما الأول في القسم.

تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد منّا لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، هي بالبكاء الصامت وأنا بالغضب والصراخ.

من المسؤولين عن هذه المأساة ؟ من وصفتهم طويلا بالمربين الأغبياء لأنهم دربّونا بامتحاناتهم وترتيبهم وجوائزهم على التنافس الشرس وشحنونا بالبغضاء والحسد ؟

أغبياء الذين ربونا على التنافس ؟ قد تكون الأمور أعقد من هذا وأخطر بكثير.

مصيبة الآدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر وتقليده في كل شيء وبالأساس في شهواته لأنه لا يشتهي إلا ما يشتهيه تعلّق الأمر بالجنس أو بالسلطة أو بالاعتبار أو الثروة، وكلها شهوات صعبة المنال إما لندرتها أو لاستحالة اقتسامها بالعدل أو التداول عليها. ها قد

انغلق الفخّ اللعين علينا جميعا. لا بدّ من الذات الأخرى لأنها الأداة التي نصنع منها ذاتنا ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارتها في أنفسنا. هكذا تنطلق مع العلاقة الأولى أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة من غيرة وحسد وصراع وظلم. عيب هيكلي في تكويننا لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه فلسفة أو دين أو سياسة.

تمرّ عقود قبل أن تتنهّد «ما» ضاحكة تسترجع ذكريات شبابها وطفولتي.

– كم أخفتني ذلك اليوم عندما وجدتك بين علب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدّس. يا إلهي، لا أصدّق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به للمدرسة! كيف اكتشفت هذه الأسلحة اللعينة والجنود الذين فتّشوا البيت لم يجدوها ؟ حالاً طلبت من خالك أن يأخذها للقرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستان.

– ماذا فعل «با» عندما اكتشف خيانتك للمقاومة ؟

يلمع في عيني "ما" نوع خفيف من المرح، ممزوج بقليل الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوناته سخرية خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفيّ بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

– هل تظن أنه كان يتذكّر أنّ بيتنا من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته ؟

المهمّ أن هذا طفل لم يكتشف لحسن الحظ كيف تستعمل المسدّسات، وإلا أخذ طريقه اتجاها جدّ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ) : «طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتل زميلا ويجرح المعلّم الذي حاول التدخّل . البوليس يكتشف أنه ابن ارهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح الخارجين على القانون».

بيني وبينك ، ألم يكن من حقّه أن يفكّر في امتشاق السلاح لدخول قسم له فيه ذلك الكمّ الهائل من الخصوم وبعضهم من الراسبين الأزليين يسومون من هم أصغر منهم استبدادا ينذر بما سيأتي من كل أصناف ظلم الآدمي للآدمي.

الغريب أن تكون لنا لافتات إنذار لأخطار الطبيعة ولا تكون لنا لافتات على أبواب المدارس : «حذار، أخطر من كلاب مسعورة». ربّما السبب أنّ المدارس تحت سيطرة كهول بمأمن من أخطار أقزام ما زالت سيوفهم مصنوعة من الخشب ومسدساتهم من البلاستيك الرخيص. هذا ما يمكّنهم من الانتصار عليهم ببعض الصفعات المحكمة التوجيه بعد التأكد من خلوّ المكان من أولياء لم يفكّروا بمسئوليتهم في إطلاق مثل هذه الكائنات على العالم المسكين ولا بطبيعة من ضيّعوا عمرهم في محاولة تربيتهم .

لا أحد فهم الحقيقة قدر ذلك الاعرابي الذي تزوّج وهو في أرذل العمر فعاب عليه أصحابه الأمر يخفون حسدهم وراء اهتمام كاذب بذريته : هلاّ فكّرت في أطفال صغار سيكبرون بلا عائل..يا للردّ المفحم الحكيم : ابادرهم باليتم قبل أن يبادروني بالعقوق.

*

يكتشف الطفل يوما أن بوسع البيت أن يكون أخطر حتى من المدرسة.

يتعالى من أقدم الملفات صراخ المرأة التي لا تتكلم عادة إلا همسا :

– ستقتله، ستقتله ! !

هنا أيضا حافظت الذاكرة على حدّة المشاعر وكأن الحادثة وقعت منذ ساعة. أما كان عليها أن تمحو كلّ هذا الوجع أم هل تراني أنا من ينفخ باستمرار على لهب الجمر؟

تتوجّه الأم لطفلها تستعطفه :

– أغضبت والدك، قبّل يده واطلب منه العفو.

يدير ابنها رأسه من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين مرفوع الرأس، حابسا لدموعه، شاخص العينين في الوجه المكشّر المرغي المزبد المستسلم لحالة تكاد تكون من الصرع.

وفي هذه الملف المودع في أعمق طبقات الذاكرة يواصل «با» طويلا صراخه الهستيري لا يعرف لمن يتوجه بالضبط: هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضّ الطرف يا ابن الكلب. غضّ الطرف وأطلب العفو. لا تريد أن تبكي. سأبكيك دموعا ممزوجة بالدم. لقد كسّرت شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك– يا كلب– وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألك الغريب والقريب عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب «سيدا»؟

هل من بابُ الصدفة أن سمّي أكبر مستبدّ في هذا العصر أب الشعوب؟ كم غريب أن الأمة التي ارتحلت في قوافلها تدبّرت أمرها لكي تعيش بين تمرّد عقيم وخضوع مهين لمستبدّ في البيت ومستبدّ في القصر وربّ تتصوره المستبدّ الذي في السماء وثلاثتهم كالبناء المرصوص يشدون بعضهم البعض لتنمية الخوف والطاعة عند ضحاياهم.

تشتدّ سرعة الذراع المسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.

– رحماك، رحماك، ستقتله، إنّه مجرّد طفل.

يصرخ الذي منه كل نقمة :

– سأقتله وأنت معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

تلتجئ المرأة المرعوبة إلى تحت الطاولة تجرّ ابنها هربا من وابل الضرب فيسارع الذي منه كل نقمة إلى شعرها الطويل يجرّها منه وبالذراع الأخرى ينهال عليهما ضربا.

هنا تتضارب الوثائق المودعة في أبغض الملفات. في إحداها رواية عن طفل لم يتحمّل المنظر ففرّ من البيت أو أغمي عليه. ثمة أخرى مشوّشة عن طفل هاجم الرجل الهمجيّ من الخلف يحاول عضّ يده المجرمة لتطلق شعر أمّه.ما الذي حدث بالضبط ؟ الشيء الثابت

الوحيد أن قطيعة حصلت، أن هوّة انفتحت، أنّ حربا اندلعت منذ تلك اللحظة، أن حياة كاملة ستمرّ قبل أن يكفّر الأب عن الجريمة وأن يغفرها له الابن.

يواصل المراهق الرافض لكل تسلّط التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بآلام السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

يبتسم وهو تحت وابل الضرب لبيت حوّل وجهته بتغيير كلمة، يشكو حاله لحاله :

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر   أما **للعصا** نهي عليك ولا أمر.

يجنّ جنون «با».

– تواصل الاستهزاء بي، لأكسرنّ شوكتك مهما تنطّعت يا متمرّد.

يأتي المراهق أنّه آن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليّها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط كأشباهه بين العنف والقوّة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمّل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض ،هذا الآدمي الذي يسميه النص الذي منه كل نقمة ...لكن من أين له تحمّل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحبّ، هذا الآدمي الذي يسميه النصّ الذي منه كل نعمة...وهما نفس الشخص في لحظات مختلفة ؟

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق. كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه ؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية، كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي سيواصل هذا الطريق؟ مأساة صراع الأبوة والبنوة منذ وجد الدوران.

يصرخ الرجل في أوج الهستيريا لاهثا ماسحا عرقه متوجها إلى مناصر مجهول:

– قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، هاتوا لي الطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرهق على الأريكة منتظرا أن تأتيه «ما» بكأس ما ، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع مثل أنه دوما على حقّ وأن هذا الولد ما زال غير ناضج وأنه أكبر من أن يعبأ بترهات مراهق ،الخ

وفي آخر الملفات عن عنف «با» ترتفع العصا مرّة أخيرة في وجه شابّ يدّعي أنه لم يعد يخشى شيئا أو أحدا ولا حتى «با».

يواجه الابن الصامت نظرة أبيه لا يرفّ له جفن نافخا ببطء مدروس في غليونه الجديد وحركاته تنضح بما مفاده أنّه سيّد نفسه، أنّه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يشتدّ الصراخ.

– تدخّن أمامي. خسئت يا كلب. ما زلت السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدّي؛ فالذات لا تتشكّل إلاّ باعتراف تفتكّه من أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للّقمة من فم السّبع... وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالحب والاعتراف ووحدها القادرة على تدميرها بالكره أو بالتجاهل.... لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية ... اللهم اجعلني دوما من بناة الذوات لا من مدمّريها.

يتسمّر البصر على البصر. تتضح للابن حقيقة رجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتجاه... لرجل مقهور من تجدّد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلّي ورث عن الغازي الأجنبي نقط التفتيش... لرجل متألم ولا أحد يلتفت لألمه... لرجل محبط يجترّ آلام الفشل وعقدة ذنب كل مهزوم... لرجل ينتقم لنفسه ممن كانوا له دوما أخلص الأنصار... لرجل هزمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه.

وفي عيني "أين في الناس" يلمع الاستغراب كأنّه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل : من هذا الذي أحسبه طفلي ؟

تبقى العصا معلّقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يعيد إلى غمده سيفا لم يعد له نفع. ثمّ يحدّق في ابنه وفي عينيه شيء من البغض وشيء من الحبّ وشيء من التفهّم وشيء من الإنكار وشيء من الرضا وشيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة وشيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب وشيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة... فضلالة عابرة من الكآبة ثمّ تجدّد المرح.

ينفجر «با» ضاحكا : لله درّك إنك رجل، والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعايش أسدان في قفص واحد.

*

ألعن ما في الذي منه كل نقمة ليس الأذى الذي يلحقه بك وإنما أن تكتشفه في ثوب أب وحتى في ثوب صديق .

كانت أمتع ساعات الصيف تلك التي كنت أقضيها أتمشّى معه في غابات زيتون وأبسط موضوع قضية خلافية للذّة النقاش لا غير.

– كيف أحوالك مع زميلك العزيز وأين وصلت الخصومة ؟

– طلبت منه رسميا أن يتوقف حالا عن الصلاة والصوم حتى لا يزيد في نرفزة الله . قلت له سوّي وضعيتك مع الناس ومع نفسك بعدها يمكنك العودة لهما واعتقادي أن الغفور الرحيم سيتقبلهما منك من جديد. أما في ما يخصّني فسأبقى دوما صديقك المخلص.

– لماذا لا تظهر نفس الإنسانية مع خصومك السياسيين ؟

– هؤلاء لا تنفع فيهم لا الإنسانية ولا اللاإنسانية . هل تتذكّر ما ردّ به فرويد على امرأة طلبت نصيحة بخصوص أحسن تربية لأبنائها : افعلي ما تريدين، النتيجة دوما سيئة. نفس الشيء مع السياسة... ربما لأنها عنوان المشاكل التي ليس لها الحلّ.

–فسّر.

–إن انت لاطفت الأصدقاء عدّوه ضعفا وانقلبوا عليك عاجلا أو آجلا انطلاقا من قناعة لم تفارقهم يوما أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم انقلبوا أعداء مع كل تبعات الأمر. إن أنت لاطفت الأعداء عدّوه ضعفا وانقلبوا عليك سريعا انطلاقا من قناعة لم تفارقهم يوما أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم زدتهم عداء على عداء مع كل تبعات الأمر.

نفس المعضلة على صعيد الأنظمة والمؤسسات. خذ الدكتاتورية التي نحاربها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولا يتحملونها وسيحاربونها إلى لحظة اسقاطها لأنها لا تتماشى مع مبادئهم ومصالحهم. خذ الديمقراطية التي نحارب من أجلها . ثمة بشر لا يستأهلونها ولن يتحملونها وسيحاربونها إلى لحظة اسقاطها لأنها لا تتماشى مع مصالحهم ومبادئهم.

النظام المثالي الذي سيرضي مبادئ ومصالح الجميع فهو السراب الذي نركض وراءه جميعا. تسيير شؤون الآدميين مثل تربيع الدائرة. إن حكمتهم بالعنف خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين تمرّدوا مباشرة ، والرقاص يقفز على مرّ الأنظمة والأحقاب من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادرا ولمرحلة لا تطول.

– كم صدق ايليا في حكمه عليها !

واهجر احاديث السياسة والألى	**يتعلقون بحبل كل سياسي**
اني نبذت ثمارها مذ ذقتها	**ووجدت طعم الغدر في أضراسي**
وغسلت منها راحتي فغسلتها	**من سائر الأوضار والأدناس**
وتركتها لاثنين غرّ سانج	**ومشعوذ كذبذب دساس**

أما آن الأوان لتخرج من وحلها والعودة للثقافة ...لفضائك...لفضائنا الطبيعي...خاصة ورؤيتك لها بمثل هذا التفاؤل.

–لا أحد يخرج من فضاء السياسة مثلما لا أحد يخرج من فضاء الجاذبية. الآدمي كائن سياسي وعي بالأمر أم لم يعي. أصحابك من المثقفين «المستقلين» الذين يدّعون التسامي عن دخول ما يسمونه مستنقع السياسة لا يفعلون– شأنهم في هذا شأن كل البشر– غير مواصلة صراعهم من أجل إخضاع الآخرين لمصالحهم لكن في مستواهم الصغير وغالبا بنفس الأساليب الملتوية المشبوهة لكبار السياسيين في أمهات القضايا. قوانين الفيزياء لا تتغيّر أكانت الطائرة التي تحلّق في السماء من نوع الجمبو أو لعبة يتلهّى بها طفل. شئت ام أبيت، يجب مواصلة المشي في ساحة السياسة إن أردت تحقيق المصالح الخاصة والعامة.

صحيح أن الأمر كالمشي في وحل مزروع بالألغام، والكلاب تجري وراءك، تنبح وتعضّ وسحاب البعوض يحاصرك إن لم يجد لجلدك منفذا للّسع، شوّش عليك بالطنين المزعج . لكن تذكّر أيضا أن السياسة هي التي تغلّب المفاوضة والتنازلات في لعبة صراع الإرادات والنرجسيات و لولاها لأصبحت الحياة حربا لا تضع أوزارها أبدا.

–اعترف أنك تختلق مثل هذه الأعذار لأنك لا تطيق فراقها طويلا...أنها توفّر لك متعة ما...

– متعة لا ، منفعة بالتأكيد . ثمة خصوبة التجربة التي توفّرها إذ لا أعرف أحسن منها للنفاذ إلى الجزء الخفي من طبيعة البشر. هناك أيضا خطرها . هي في نظرك مستنقع تفوح منه الروائح الكريهة . هي في تجربتي غاب تترصدك في كل منعرج منه المخالب والأنياب. هذا الخطر هو الذي يستنفر فيّ كل طاقاتي .هو المنبه والمنشط الذي يشحذ انتباهي وهذا الانتباه كان وسيبقى أهمّ عنصر لكي أعبر العالم وأنا على أقصى درجة من ....الحياة.

– على ذكر الخطر ، أنت لا تعي بتفاقمه السريع. قد يصفّوك، في أحسن الأحوال قد تبيت قريبا في السجن.

– صحيح أنه إذا كان بوسع الأمور أن تتطور من المصيبة إلى الكارثة، فإنها عادة لا تتردّد كثيرا، لذلك أصبحت أعتبر أحوالي بخير طالما لم تتطور من السوء الذي هي عليه إلى ما هو أسوأ . لكن حاول اعتبار الأمر من موقع ملاحظة مختلف. تصور نفسك وقد تحركت على خط الزمان لتنظر إلى وضعيتك الحالية بعد عشرين سنة. مؤكد أنك ستضحك منها مثل ما تضحك اليوم من التي عانيت منها قبل عشرين سنة... هذا إن بقيت تتذكرها.

– لكنك الآن وهنا، لا خارج هذا البلد اللعين وبعد عشرين سنة. ثم ما القضايا الهامة– حسب رأيك– التي يجب أن تحظى بالاهتمام؟

– التنعم بهذه الساعات التي ما زلنا فيها طلقاء وأحياء. هل سمعت بالمثل الصيني : اغتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر . كالعادة الشاعر أول من يفهم ...ولو أنه آخر من يعيش ما يقول.

قال البشاشة ليس تسعد كائنا   يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)

قلت ابتسم مادام بينك والردى   شبر فإنك بعدُ لن تتبسما

– الفلسفة والشعر لغير هذا الوقت ...يجب أن تتحلى بالحدّ الأدنى من الواقعية .

– الواقعية ! مصطلح لا مهمة له إلا تبرير الضعفاء لخضوعهم والأقوياء لقسوتهم .

– وعند الحكماء هو التعامل مع الواقع كما هو لا كما نريده .

– الواقع !... أكبر دكتاتور مهووس بمتابعة أدق الأمور، لا يعرف عنه إلا ما تكدسه أجهزة مخابراته...أكبر عالم لا يعرف عنه إلا ما تعرضه معطيات المكتبات وكلها تصورات الآخرين ستعكسها ذاته مضيفة للأخطاء أخطاء. عن أي واقع إذن تتحدثون ؟

– يا رجل كفى سفسطة الأزمة في أوجها.

– لم يعد للمفهوم معنى. نعتبر الأزمة لحظة فارقة تصل فيها المشاكل ذروتها ثم تعود الأمور إلى نصابها بانتظار تجدّد العاصفة. أما اليوم فالأزمة وراء الأزمة. يجب أن نخترع مصطلحا جديدا لوصف حالة الاحتقان المزمنة التي لم يعد يتخللها أدنى فاصل.

– ثمة قرارات لا مفرّ منها... إن تكرمت لحظة بالتفكير في مخرج لك ولن تبعوك في هذه المواجهة العقيمة ؟

– نموذجي في أخذ القرارات نموذج الطائرة التي تشق طريقها في الظلام وقائدها يقرّر الطريق بتتبع إشارات تبثها آلات من سطح الأرض تقوده من نقطة إلى أخرى إلى أن ينزل سالما على أرض المطار. العلامات القارة التي يجب أن نتكّل عليها ونحن نشق طريقنا في ضباب غياب المعطيات أو ندرتها أو تضاربها هي القيم. لا تشح بوجهك أمام الجرائم المنكرة في حق الإنسان، لا تترك من هو بحاجة إليك، لا تستغلّ، لا تقسُ، لا تحتقر، لا تظلم، لا تخدع ، لا تخن، في موقع ضعف لا تستسلم، في موقع قوّة لا تنتقم. لا أعرف أحدا ضاع على طريق ثبتت فيه هذه العلامات. قناعة الأغبياء الخطرين الذين يحكموننا أن الأخلاق احتجاج الضعيف على القوي واستبلاه القوي للضعيف، والحال أنها زبدة تجارب من سبقونا حتى لا نتيه كما تاهوا. متمسك بها ومواصل نفس الطريق مهما عبثت الرياح بالطائرة.

– عد للموضوع وللواقع ...موازين القوى تجعل الفشل نتيجة شبه حتمية في كل معركة نخوض.

– الفشل ليس فقدان معركة وإنما ألاّ نقاوم.

– سفسطة لا غير ، هل تقدّر خطورة أعدائك وتكاثرهم يوما بعد يوم ؟

– على ذكر الأعداء ، أخبار فلان ؟

– توفّي مؤخرا بمرض ما لا أظنه الرشح ...

– أحسن ما فعل هو والمرض أيا كان اسمه . ثمة بشر الخدمة الوحيدة التي يقدّمونها للحياة موتهم .

– أنذرتك أنا وكل أصدقائك بما فيه الكفاية. كل نقاش معك مضيعة للوقت . وداعا.

أسبوع بعد النقاش العقيم .

– ظننت أنني راوغتهم، لكنهم تبعوني. سيقبضون عليّ اللّيلة. أنا وحدي بالبيت ولا أريد أن يأخذوني دون شاهد.

ينهض الرجل ليلقي بنظرة على النافذة . يتوجه لزوجته بنظرة قلقة :

– إنهم فعلا أمام العمارة !

ألحظ امتقاع لونه. لأتأكّد، فبعض الظن إثم.

– ربما ليس من الحكمة أن أبقى هنا. أليس كذلك ؟

– نعم، من الأحسن أن تبحث لك عن مكان آخر.

وعند باب الشقّة يسرّ في أذني :

– آسف، تصوّر تأثير دخول البوليس السرّي على الأطفال.

– لا تحمل همّا، سأتدبّر أمري.

ها أنا كمن دخل بيته خالي الذهن، ليجد امرأته المحبوبة تئن من اللذة في فراشه مع رجل آخر. كيف يمكن لليد التي أمسكت بيدي طوال السنين أن تتركها في اللحظة التي أنا في أمسّ الحاجة إليها ؟ ما الصداقة إذن وما الصديق ؟ هل هو مثل الحبيب من فبركة القصص؟

*

يحدّق فيّ كبير البوليس بعينين يلمع فيهما حقد ممزوج بالاستغراب والاستنكار :

– نكتفي هذه المرّة بالاستجواب، قد نتابعك أو لا . أنذرناك بما فيه الكفاية، لا تجبرنا على المرور إلى الأمور الجدية.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوعَ للتهديد والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني!

لم يكن لبرجل المخيف يهدّد في الفراغ. تصرخ سافلة : أيها السافل لا تخجل في عمرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني من تجمّعت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع بلا نهاية والأوباش ورائي توزعوا الاستفزازَ في نظام محكم. فهذا مكلّف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أخن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

تتسارع وتيرة الشتائم .تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية تتقيأ منه رذاذا من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أمي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن محروسة ببوليس الطاغية. في مستوى حديقة الحيوانات تفتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي لبابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القردة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيضَ لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفتين مغلقتين باشمئزاز. تتدافع الأيدي بحثا عن نصيبها من جسد استحلّ حرمته إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي، وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال، صارخا: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك. كيف أحمي نفسي من عاصفة داهمتني على غير انتظار رعدها الحقد وبرقها الغباء والجهل؟

الهرب ؟ لكن إلى أين ؟ العون ؟ ممّن ؟ أجيل البصر حولي باحثا عن هبّة من «الشعب» الذي ندعي كلنا أننا على استعداد للموت من أجله. يطأطئ المارّة رؤوسهم ويسرعون الخطى.

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يومها انقلبوا (أبو العتاهية)
يعظمون أخا الدنيا وإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا.

فجأة انفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة عائلية سيضحك فيها علي الفجّار ويتشمّتون.

من أين يأتي النـــــــــور؟ (البياتي)
ونحن في كل العصور حجر الطاحون
نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور
يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملفّ آخر والغوغاء المأجورة نفس الغوغاء المأجورة ،الملجأ الأخير سيارة يستهدفها الذي منه كل نقمة ضربا بالعصي. أصرخ في السائق: لن يرهبونا ؛ فلنذهب للاعتصام أمام السجن ليعلم السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبدا. يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبني الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بإرهاب دولة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج. فجأة تكفّ الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما أخير.

ثلاثة أفعال لا غير مضموني الفشل: أن تسيطر على الآدميين، أن تحسّنهم، أو أن تهرب منهم. قد تكون استحالة الفعل الأخير أشدّ ما يضايقني. مثلا، أنت لا تستطيع خيانة زوجتك إلا مع امرأة أخرى، وكل امرأة تخون زوجها لا تستبدل في آخر المطاف إلا وغدا بوغد آخر ووهما بوهم جديد وأملا ضائعا بأمل سيضيع. افرض أنك تريد الاختفاء في غابة لم يكتشفها آدمي. ها هم كلهم داخلك يتصارعون. لا تحاول الاعتكاف في دير لأنهم الرهبان وحتى الذي يعبدون مجرد آدمي رقّوه لرتبة إله بعد أن نكّلوا به أبشع تنكيل. أما عن السيطرة عليهم فأسأل كل المستبدّين، وبخصوص إصلاحهم اطلب رأي الأنبياء والثوار وكل المصلحين الذين تتابعوا على مرّ التاريخ. المساكين! لو لم يظهر كل هؤلاء المثاليين ولو كفّوا في المستقبل عن التوالد لما زادت أوضاع البشر لا سوءا ولا تحسّنا . يجب أن أدعو إلى الإصلاح الأكبر الداعي لتحجير المصلحين. لكن من يضمن لي أن إصلاحي هذا لن يزيد طين إصلاحات المصلحين بلّة ؟

*

من ثوابت قصص الآدمي أنه دوما في وضع أحسن مما يتصور وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه. ذات مساء تمسك بي من الخلف أيدي عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا مسكني هؤلاء الذين جاءوا لاختطافي طفلا. كم أظهروا من طول النفس طوال هذه السنين والعقود، لا يضاهيه إلاّ طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين «ما» هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطّب الجبين من حام؟

العقبة الكأداء هذه المرة ليست كثرة تقاطعات الطريق وكثرة قطّاعه ولا حتى اكتظاظه، إنما توقفه غير المتوقع.

هو الآن لا يقود إلا لباب موصد بثقيل الأقفال، وكل الامتداد زنزانة نتنة، والأفق على بعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير. لا شيء تفعله سوى المشي طولا وعرضا كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكلّ زنزانة ذاكرة ملفاتها جدران ملطّخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيّل قصة هذا الذي أمضى اثنين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلاّ أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: صبر.

قد لا يعرف الآدمي طوال رحلته حالة أكثر عمقا وتواصلا من العجز، وهي الآن وهنا في أوجها، وقد أطبق فخّ الصياد الخبيث على الطريدة الساذجة.

فجأة ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة ستلاحقني سنوات، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة في اللهو وفي الجدّ، تذكّر بأعمق وأرهب ما تعلّمت عن الطبيعة المخفية لآدمي يلاقيك في الطريق مسلّما تضمه لصدرك لا تدري ما الغول الذي تقبّل. أي كائنات رهيبة هذه التي نفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب بل وجعلته أداة سلطة في الدنيا والآخرة ! كم سمعت بالفظائع التي يرتكبها الذي منه كل نقمة في مثل هذا المكان... أظافر تقتلع... ابنة تغتصب أمام أمها وأبيها... سياط تسلخ الظهر إلى العظم... حوامض تراق على الجروح... كيّ القميص على حامله... أطراف تبتر تباعا... عيّنات مما يقدر عليه الذي منه كل نقمة عندما يتعامل مع أعدائه بالتفصيل، أما بالجملة فأكوام من الأجساد تحرق لاستخراج ذهب أفواهها... تلال من الجماجم على أنقاض مدن سُوّيت بالأرض.

فنون رداك يا دنيا — لعمري فوق ما نصف (أبو العتاهية)
فأنت الدار فيك الظلم — والعدوان والسرف
وأنت الدار فيك البغي — والبغضاء والشنف
وأنت الدار فيك الهمّ — والأحزان والأسف
وأنت الدار فيك الغدر — والتنغيص والكلف
وفيك الحبل مضطرب — وفيك البال منكسف
وفيك لساكنيك الحين — والآفات و التلف

يصل الصراخ أعلى طبقة لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثمّ صفيرا ثمّ حشرجة. كفّ الرجل عن الصراخ... ربما هو بصدد التقاط أنفاسه... ربما هو يتوجه باسمنا جميعا لمن لا يهمّه الأمر: خذ استقالتي على وجهك واذهب للجحيم أنت ووجودك، أنا عائد إلى العدم. صدق من تنهّد: أي مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدق منه

من صرخ : أوقفوا هذا العالم، أريد أن أنزل في المحطة القادمة. أصدق منهما الذي سنّ القانون : هذا عالم لا منفذ فيه لأحد .نعم إنه السجن. السجن الأكبر. السجن النهائي، السجن الذي لا قدرة لأحد على تخطّي قضبانه وهي في كل مكان.

شيء بداخلي يستهزئ : بل أنت السجن وقضبانه مخيلتك القاصرة وفكرك الضيق وروحك المشبعة بالخوف وفؤادك عندما يفرغ من الحبّ.

تتردّد قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بالصمت وأخرى بالكلام. كيف يمكن أن يكون لهذا الذي وصلت فيه كل نقمة على البشر ذروتها حبيب أو طفل، بل كيف يمكن أن يكون له أمّ أصلا ؟ كيف وصل عالمنا إذن والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى ؟ كائن جاء من عوالم أخرى لتدمير الآدميين بغرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ شيطان طرد حتى من جهنّم ؟

فرضية رهيبة وأفظع منها أنه آدمي بل وله أمّ.

اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دكّ حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الزنزانة وأن أضع رأسي بين ركبتيّ وأصابعي داخل أذني فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت.

اللعنة، ماذا فعلت لكم، ماذا فعلت له «هو»، لماذا صادر حقي في نعمة العدم، لماذا أجبرني أن آتي عالما فيه العذاب والتعذيب؟

ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفّ عن الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. لن أتركهم يجنّنوني، ستفشلون هذه المرة أيضا بل سأقلب الموقف رأسا على عقب.

ألا يصدر الآدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس ؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال، فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد. لا، لا، تبالغ حقا، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول ؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحدثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحمله القلب، يا رجل من يحدثك نطاسي كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف ؟

يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعبّ الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعبّ الرئتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكونوا بصدد مسح دمائه والتفكير في الأعذار التي سيتقدمون بها لتبرير زلّة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يلفّ في خرق قذر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لئيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تعلو محياه ابتسامة الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع والرأس مدفون عميقا بين الركبتين.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن منزوٍ من دهاليزها، تترصّد كل الاستعدادات القادرة على جعل الآدمي يعذب الآخر، يغتصبُ زوجته الحامل أمامه، يستلُّ قلبه يأكله وهو ينبض، يبول على قبره يقهقه نصف سكران نصف مجنون، يلقيه حيا من الحوامة...أو يزرع على طريقه لغما من متفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام.

في ملفات ذاكرة المستقبل حادثة تؤكّد أنه لا دوام إلا للألم وللذي منه كل نقمة.

–سيدي، أقدّم لك أبطالنا الذين أصيبوا البارحة في كمين الارهابيين...

أرفع يدي، لا أريد من الطبيب العسكري إلا الصمت. على فراش الآلام كان ثلاثتهم راقدين لأشهر طويلة من العذاب، بعدها سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوره أو التفكير فيه.

– من الذي بُترت ساقه ؟

– الذي على اليمين، الذي في الوسط ليس بأحسن حال، قد نضطرّ لبتر الساقين... هناك أيضا إصابة عينيه.

ما الذي أقدر لك عليه يا بنيّ ؟ آه لو استطيع إعطاءك عيني وساقي...بشر يزرعون الزيتون ... بشر يزرعون الألغام ...هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري بين جحافلهم لا ترتعد منا الفرائص. تقول ما العمل؟ لا شيء غير مواصلة العيش مع الآدميين.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص. تقول ما العمل ؟ لا شيء غير مواصلة العيش مع الآدميين. ألا نزرع على سفح البركان ؟ ألا نبني فوق أرض الزلازل ؟ لم لا نواصل النوم مع الآدمي الأخر بلا سلاح تحت المخدّة طالما نستطيع تناسي من هذا الذي يشخر بجانبنا .

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعنان السماء تريد شجّ رأس من ارتكب هذا العالم فترفرف لحظة لتنقضّ عليه كالعقاب عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تحالف لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأوّل لعنة لعالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كأنْ لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعت فيك.

ذلك أنّني أضع اللعين كّل ليلة في المزاد العلني متوجها إلى مشتر ساذج قد يسهل التغرير به : خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، الشاري ليس غرّا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوّجه إليه مجددا كل صباح متثائبا ولا أمل جدّي لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالم كامل الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجّانا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

يُفتح باب السجن الضيق يوما ليتلقفني سجن أرحب اسمه وطن.
يأخذوني إلى بيتي في سيارة الشرطة .
حديث بشر تخلّوا لحظة عن لعب أدوارهم.
– تظنوننا وحوشا ؟ نحن بشر، نعم بشر، ماذا تريد ؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري ؟
يواصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت :
– هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها ؟ التي حصلت أمام مقرّكم ؟ ...طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسسك أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف ؟
الصوت الآن مختنق يغالب عبرة صامتة :
– قل...
– فتحت القحبة بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، أنظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقزّز لا يكفّ عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني.
تتدافع للذاكرة صورة "با" ويده على خده وغضبه لم يخمد بعد عقود من صفعة الضابط الأجنبي قد تكون سبب الصداع المزمن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دوائي. يا ربّ كم من آلام عبثية يلحقها الآدمي بالآدمي !
المضحك المبكي في هذه المآسي المهازل التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل المثلين يعتقدون أنفسهم أخيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمعّن عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أخيار-أشرار وأشرار-أخيار، بين جلادين-ضحايا وضحايا-جلادين، بين خطرين أغبياء وأغبياء خطرين، بين مهووسين بهذه العقيدة وهاذين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على جلّ فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الاستيلاء على ما أخذ منهم وسرقة ما لم يسرق بعد وكل آدمي على الدوام كذّاب مفترى عليه، سارق ومسروق، ظالم مظلوم.
دون وعي ترتفع يدي، أمرّرها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجفّ منذ شهور.
– عفوا، وقبّل صغارك من طرفي.

*

والآن إلى أين بكل هذه الجراح ؟ إلى المنفى : أرض أغراب ليسوا الأغراب الأقارب...لعلّ وعسى...هيهات، هيهات.
كلّ ما يتغيّر من الذي منه كل نقمة السحنة واللغة والباقي كل ما جربت منه بين أهلك وذويك.

سيارة فخمة مسرعة تتسبّب في رشّ ملابسي بالوحل والماء القذر لأن صاحبها لا يهتمّ بأمثالي الذين يمشون على الرصيف.

لنصنّفه داخل جنس لوحده من الآدميين نطلق عليه اسم الذي منه كل لامبالاة... هو يخرج لك من جحافل الذي منه كل وحشة بالصدفة أو بحادث غبي كهذا. هو عادة لا ينفعك ولا تنفعه، إلا عرضا وبأقل التكاليف، لا يؤذيك ولا تؤذيه، إلا عرضا وبأخف الأضرار. جميل، لكن اللعين لطّخ ثيابي ولم يتوقف ليعتذر مفتعلا استعداده التامّ لتعويض الضرر.

تفلت مني الشتيمة البذيئة .يتملّكني حرج شديد. أجيل البصر حولي لأتنفس الصعداء.هذا بلد له لغة وشتائم خاصة به ليس بينها الشتيمة المفضلة لدى بني بلدي.

أفتح هنا القوسين متوجها للمصحّح والناشر والرقيب والورثة، طالبا بكل حزم عدم حذف العبارة النابية. من أعرف منّي أنها خادشة للحياء، ولو لم تكن خادشة للحياء لما استعملتها، وأنبّههم أنهم إن أصرّوا على حذفها شتمناهم بنفس العبارة دنيا وآخرة. إضافة إلى هذا، هل لي أن أؤكد لخصومي الذين سيسارعون لهذه الجملة واستخراجها من فحواها للتدليل على صحة ما قالوه دوما فيّ، أن «الرحلة» كتاب عن العالم كما هو وعن البشر كما هم. أما الذين سيأسفون لزلّة كهذه ستشوّه سمعة رجل يحترمونه، فأقول لهم هم أيضا بكل حزم أن سمعتي قضيتي لا قضيتهم. أما إذا نبّهوني لتربص الشيوخ والبوليس والمنافسين وحتمية استعمالهم للهفوة، فإنني أقول لهم سيواصلون التربّص بي زبرمت أم لم أزبرم. هنا أفتح القوسين متوجها للشيوخ والبوليس وكل المتربّصين من أعداء وأصدقاء وأصبع الاتهام مرفوع بالأسئلة القاصمة للظهر: هجومكم عليّ بسبب هذه السبة البذيئة الدليل القاطع أنكم تفهمون ما تعني، فمن أين تعلمتموها؟ في أي ظروف؟ على لسان من؟ لماذا لم تسارعوا لفسخها من ذاكرتكم؟ ما هي الشتائم البذيئة الأخرى التي تعلمتموها؟ إن قلتم حاشا أن نكون من البذيئين، فهل تتكلفون طهارة اللسان للتغطية على دنس الروح أم هل أنتم مرضى بالإمساك اللغوي الشديد يرثى لكم ويطلب لكم العلاج، ذلك لأنّ الشتائم– خاصة الأكثر بذاءة– فضلات الفكر والروح. هل ثمة أحد يحبس خراه ولا يمرض؟

لذلك أقول وأردّد أنه لا بدّ من شيء منها لتعهّد صحة الذات خاصة عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع ألدّ الأصدقاء وأخلص الأعداء والسياسة والسياسيين والانتهازيين أجمعين، وأعراس الجيران وكلاب الجيران والجيران أنفسهم... دون نسيان مشاريع تحسين الإنسانية وما بعد الحداثة وما قبلها وما بعد بعدها، والفنّ الحديث والعولمة والليبرالية والطقس والسلطة والزواج والعمل والأيديولوجيا ومجلس وزراء الداخلية العرب والاحتباس الحراري والتلفزيون الحكومي وشيوخ الفضيلة، وأي شيء آخر لا يروقك. الحقّ أن كل ما في هذا العالم اللعين قابل للشتم البذيء المذكور أعلاه باستثناء واحد. لا بدّ أن قارئي المجهول

لاحظ أن كاتب هذا النصّ يحبّ ممّاه جدّا جدّا جدّا مما يعني آليا أنه إن تجاسر عليّ أحد من هذا الباب، تعرّض لردّ فعل من نفس المستوى الهابط ناهيك عن إقامة القيامة ضد المجلس أعلاه ومساءلته عما يفعل وشوارعنا متروكة للبذيئين يروّعون أسماعنا بأقبح الألفاظ. أما بخصوص الشيوخ وقلة حذرهم أمام تفشّي لغة الرعاع وتأخرهم عن الفتوى ببتر كل لسان خبيث- هم أنصار البتر لافتعال حل المشاكل التي لا يملكون حلولا لها- فسيكون لهم نصيب خاص ووافر من زبرمتنا. وبالمناسبة أودّ لفت نظر علماء اللغة لنقص فادح في أعمالهم، حيث لا وجود لموسوعة للشتائم ومعجم للبذاءات، ناهيك عن غياب أي دراسة جدّية في البذاءة المقارنة لمعرفة أيّ الشعوب اخترعت أجمل الشتائم وأبلغها. إن كان الأمر مؤامرة بالسكوت للتغطية على ما في اللغة من قبح وما في البشر من بذاءة، فليعلم الجميع أنني لن أشارك فيها وأنني سأتعرّض في هذا السرد لما يعجب ولا يعجب، لما تريد الرقابة المكلفة بالسهر على صورة الآدمية السماح به وما تريد حجبه.

نعم، سأقول عن الآدميين كل ما يجب أن يقال عنهم ومنه أنهم أقذر الكائنات التي تسعى، روحا ولسانا، لا يهمني أن تتشمّت بنا الأجناس الحية التي تملأ كتب الخيال العلمي، فأنا رجل يقول الحق ولو كان على نفسه فما بالك عن جنس أجبرت على الانتماء إليه والحال أنني بريء والله، يا أيها القاضي المجهول الذي أصدر ضدي حكما ظالما بالآدمية مدى حياة.

الآن وقد أعطيت لأعدائي كل المطلوب من الحجارة لرجمي، يمكنني العودة لسياق النص حيث تركته أي عند الاعتداء على ثيابي برشها بوحل الطريق.

إذن، حاولت مسح القاذورات الذي علقت بها وطلعت في أول حافلة، أحاول نسيان الحادث السخيف. يواجهني آدميّ من أولئك الذين لا تتذكّر لهم ملامح وقد أدرت لهم ظهرك وأشاحوا هم عنك بالبصر. تقرع أجراس الخطر في ذهني وأنا أنتبه إلى ما لمع في عينيّ الآدمي المجهول من احتقار وهو يمسح سحنتي الأجنبية وثيابي القذرة مفتعلا التحديق في الفراغ.

العنصري ابن الكلب! هل يظنني متشرّدا دخل الحدود خلسة جاء يتسوّل مثل الآخرين عملا؟ لماذا لا يخفي هذا الآدمي كرهه لي وبصفة عامة لماذا يكره البشر البشر ؟

أستعرض بسرعة المعروف من الأسباب فأزداد حيرة. لم أنتزع من فم الرجل لقمة العيش، ومن أحضانه أنثىاه. لم أعفّر أنفه في التراب وأنا أنافسه على الأولوية في دنيا الفكر والمال والسياسة ورواية النكت. لا بدّ إنه اكتظاظ الحافلة فلا شيءَ يولّد العنف عند الآدمي قدر أن يضيّق عليه الآخر فضاءه الحيوي. لكن الحافلة شبه فارغة، فهل ضيّقت عليه بجلوسي أمامه وكان يريد كل الفضاء مفتوحا ؟

لأنتقم بلعبة جربتها طوال سنوات الطيش والنزق. لأثبّت فيه العينين بصمت لا أزيحهما قيد أنملة أطول وقت ممكن. عادة لا خطر من تسليط البصر على الإناث حيث يسارعن

لغـض الطـرف أو للفـرار، وإنّمـا حـلاوة اللّعبـة في اسـتفزاز الذكـور، فالآدميـون مثـل بـني عمومتهـم الغوريـلا يعتـبرون التحديـق فيهـم إشـهار حـرب. هـل هـذا الآدمـيّ الجالـس أمامـي مـن نـوع ذكـور الغوريـلاّ أم مـن نـوع إنـاث الآدميـين ؟

أسلّط إذن عليـه نظـرة تزخـر برسـائل التحـدّي والسـخرية والاحتقـار. ينتبـه ابن البلـد البرجوازي الأنيـق النظيـف للهجـوم الصامـت. تتقلّـص عضلـة حـول الفـم. يقطّـب جبينـه. يشـيح ببصـره نحـو النافـذة. تنغلـق أصابعـه علـى قبضـة مسـتعدّة للّطـم. يأخـذ جريـدة نصـف مطويـة ليضـرب بهـا علـى ركبتـه بضربـات خفيفـة حـادّة متصاعـدة السـرعة. ثـم يقـف بعصبيـة ويغيّر المقعـد. لا شـكّ لـديّ أن هـذا الكهـل المتحضّـر مـا كان يـتردّد لحظـة في سـحقي كمـا كان يفعـل مـع ذبابـة أزعجـه طنينهـا لـو تيقّـن مـن عـدم حصـول مشـاكل مـع العدالـة واضطـراره لغسـل الحافلـة بنفسـه وكنـس مـا سـيتناثر فوقهـا مـن دم وأحشـاء وسـخة. لا شـكّ أنّـني أنـا أيضـا مـا كنـت أتـردد لحظـة مـن نفـس الشـيء لـو كنـت واثقـا مـن نفـس الضمانـات.

تتصاعـد مـن الأعمـاق المجهولـة أوامـر تسـكين الغضـب والشـكّ السـاخر في قدرتـي علـى فعـل أمـر كهـذا. مـن أيـن لـي إنـكار لـذّة تقليـب هـذه الأفـكار والصـور ؟

كيـف لا أفهـم حفيظـة بعـض كتـاب الخيـال العلمـي وهـم يدبّجـون بلـذّة يسـهل تصورهـا قصصـا عـن البطـل وهـو يكتشـف الوسـيلة الـتي تمكنـه مـن تخليـص العـالم مـن كللللللـلّ البشـر. تصـوّر كـم منعـش وضعـك أو وضعـي ونحـن نفيـق ذات صبـاح لنجـد الشـوارع والسـاحات وحتـى البيـوت وغـرف الحمـام فارغـة. *اختفـوا. رحلوا.تبخّـروا . ذابـوا. ذهبـوا إلى الجحيـم* الأهـمّ أنهـم ذهبـوا دون رجعة.ثمـة مشـكلة حتـى في هـذا السـيناريو. هـم تبخـروا خـارج الـذات لكنهـم مـا زالـوا يتصارعـون داخلهـا ومعهـا. أليـس الحـلّ الجـذري والوحيـد للخـلاص منهـم جميعـا مـرّة واحـدة ونهائيـا الانتحـار ؟ ممـا يعـني أن لانتحـار آدمـي واحـد ونحـر كلّ الآدميـة نفـس النتيجـة. في هـذه الحالـة لمـاذا يضيّـع كتـاب الخيـال العلمـي وقتهـم ووقتنـا . ألم يكـن مـن الأجـدى للتنفيـس عـن حفيظتهـم ربـط الحبـل حـول عنقهـم أو علـى الأقـلّ تـرك كتـاب مـن نـوع «الموجـز في أرخـص وسـائل الانتحـار».

اللعنـة، مـا الـذي يجعـل مـن الآدمـي الـذي منـه كل نقمـة ...هـذا الكائـن البشـع الـذي يحبّـب لنـا المـوت والقتـل ؟

القاعـدة أن الـذي منـه كل نقمـة علـى يقين أنّـك حجـر عثـرة في وجـه مـا يريـد ، أنّـك أخـذت منـه مـا لا حـقّ لـك فيـه أو أكثـر ممـا تسـتحقّ، أنّـك لم تعطـه حقّـه مـن هـذا الشـيء أو ذاك ، أنـه سـيفتكّ منـك مـا هـو أحـقّ بـه منـك كلّـف ذلـك مـا كلّـف. كل هـذا لأن الآدمـي مقتنـع منـذ أن اكتشـف أمّـه منكبـة فوقـه تلـبي لـه كل الرغبـات أنـه مركـز العـالم.

ذروة الغريـزة العميـاء عنـده ظاهـرة ذكرهـا المؤرخـون وأكدتهـا الحفريـات وهـي تكتشـف مقابـر يسـتوي فيهـا الفقيـد الممّـدد علـى ظهـره وحولـه بقايـا العبيـد الذيـن قتلـوا علـى حافـة القبر ثـم رمـوا فيـه علـى عجـل، لأن الآدمـي الـذي اسـتنزف الأجسـاد والأرزاق حيّـا اعتـبر مـن حقـه أن

يكون له خدم في الموت كما كان له خدم في الحياة. كم صدق شاعري الحكيم في قوله أن الآتي لهذه الدنيا يتملكها تملّك سالب ويفارقها فراق السليب.

العالم ! ماذا عن مسؤوليته هو ؟ أليس هو الذي وضع الآدميين في تناقض لم ولن ينجح في حلّه دين أو سياسة أو أخلاق. كلنا بحاجة للآخر لنحصل على ما نريد. لكننا كلنا نريد ما يريده هذا الآخر وكل آخر يريد ما نريد. هو يريد السلطة التي نريد ويريد المجد الذي نريد ويريد الثروة التي نريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهيه كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا والذي نحن بأمسّ الحاجة إليه هو أكبر عائق أمامنا ؟

أي تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذات شمس تدور حولها كل الأفلاك، وذرّة من غبار تدور في فلك ما لا يحصى من الشموس ؟ أي علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضّي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيته ؟

ماذا لو عرضت كل هذه الفرضيات على الرجل ؟ قد تكون له خبرة بالحياة أكبر من خبرتي وآراء أوضح من آرائي. لم لا أدعوه لفنجان الشاي وحتّى للعشاء؟ سنبحث بهدوء هذا الموضوع من كلّ جوانبه، سنستعرض المشهد منذ البداية وما الذي اختلج في صدرينا من مشاعر وفي ذهنينا من أفكار. ثمّ سنمرّ بعدها لتحليل عميق حول أسباب كره الآدمي للآدمي خاصة، لمن لا يعرف ومن لم يتسبب له في أيّ ضيق أو حرج. ثم سنفترق ونحن صديقان بعد فهم بعض من أهمّ أسرار ما يسمّى ب»الطبيعة الآدمية«.

تصل الحافلة إلى محطّتي وأنزل دون دعوة الرجل للعشاء خوفا من رفضه، ربما خوفا من قبوله ومما قد أتعلم منه من أسرار مخيفة لست متأكدا أنني أريد حقا اكتشاف تفاهتها.

«لا وجود للطريق ،كل الموجود المشي»...لا وجود للمشي، كل الموجود الماشي...ما دمت ماشيا ما دمت موجودا... يجب أن أنهض بعد كل عثرة لا ألتفت لألم وما على الجراح إلا أن تندمل وأنا أمشي أخر منعطفات الطريق....إلى أن أخرّ على وجهي تبددت مني آخر طاقة لمواصلة الصراع.

*

أكثر أشكال الذي منه كل نقمة انتشارا وأذى هذا الذي تسميه اللغة المنافس.

لا تحاول أن تصل قمة تظن نفسك في مأمن منه فأنفاسه في ظهرك وأنت على أعلى القمم.

إنّه قدر البشر والآلهة على حدّ سواء حتى «فينوس» ربة الجمال، كانت لها "بسيشي» منافسة أفسدت عليها ابنها «كوبيدون» وسعادتها.

قدرك أن ترتطم به في كل تقاطع طريق وفي كل ساحة خاصة في أخطر وأقذر الساحات تلك التي يسمونها السياسة.

أصرخ بكل البذاءات التي أعرف والتي اخترعتها للتوّ وأنا أشعر بوخز مسمار دقّ في ظهري. كيف لا تتعالى مني الشتائم والذي أصابني عن قصد من يدعي أنه رفيق وصديق.

أسمع ورائي صوتا حاقدا: ماذا يظن ؟ أنه هو الذي يقود معركتنا ضد المستبد!... وآخر يردّ عليه: معك حقّ، أفضّل أن نهزم على أن يقال أنه هو الذي قادنا للنصر... وثالث يصدر حكمه القاطع: لا يستأهل أن يكون خادما عندي ويريد أن يكون زعيمكم، بل وزعيمي!

لا شيء يتغيّر من لعبة السلطة إلا الديكور، كما لا يتغيّر شيء من لعبة الحبّ إلا الأزياء... من جهة، بشر وصلوها بالصدفة أو بالوراثة أو بنوع أو آخر من القوة، فتمسكوا بها بأنيابهم وأظافرهم يمارسونها جهلا وعجرفة تحركهم نرجسية مرضية ووهم القدرة على التحكّم المطلق في مجرى الأمور...من جهة أخرى، قوم وجدوها جاثمة على صدورهم يقاومونها بكلّ الأساليب يخفون تحت الشعارات الرنّانة رغبة الثأر ويتصارعون بقسوة بينهم حول من سيؤول إليه العظم . أي طاغية قال ساخرا من خصومه: السلطة تهرّئ حقا ... خاصة من ينتظرها طويلا. قلّة عاقلة لم انتمي لها يوما تحاول الافلات مما يتدافع نحوه جلّ الناس. عندما يموت الملك في بعض قبائل كمبوديا العصور الماضية، كان الرجال الذين يخشون على أنفسهم من اختيارهم للعرش يهربون للغابة. لماذا؟ لمعرفة المساكين أن أثقلهم وزنا وأقلهم سرعة في الركض سيقدّس طالما للقبيلة به حاجة لكنه سيقدّم قربانا للآلهة يوم يتضح فشله في وقايتها من الجفاف ومن السيل.

يدقّ منافس ،آخر همّه حكمة الكمبوديين القدامى، مسمارا في فخذي الأيمن ليكون هو الوريث للإرث الذي يسيل لعاب الجميع. تفتح طعنة قوية جرحا عميقا في جنبي الأيسر أصابتني على غير انتظار ممن كنت أظنّه الرفيق والتلميذ والخلف. يتكثف الهمس ورائي: لا بد من استبداله سريعا. ألا ترى كيف يترنّح؟ أمن الممكن أن نقبل بمثل "هذا" على رأس حركتنا المناضلة؟

يا للمساكين، لماذا أكرههم أو أتوعدهم بالانتقام وكل الوقت الذي يأخذونه في سبّي ضائع من حياتهم لا من حياتي وكل المال الذي يبذّرونه في التآمر عليّ ينقص من جيوبهم لا من جيبي وكل وحقدهم عليّ يدمّر أرواحهم لا روحي. المثير في هذه القصة السخيفة الأزلية أنهم يثأرون لي من أنفسهم دون أن يكلفني الأمر تحريك ساكن. على كل حال، هم لا يكرهون إلا شخصا نسجه لهم الخيال لا علاقة له بشخصي. المزعج أن من يحبونني هم أيضا لا يحبون إلا شخصا نسجه لهم الخيال ولا علاقة له بشخصي. هذا ما جعلني لا أحمل على محمل الجدّ لا كره الآدميين أو حبّهم وهو كالطقس لا يستقرّ طويلا على حال.

يعلو الصراخ من أفواه لا قدرة لأحد على ملئها أو إسكاتها: ما رأيكم فيّ... أنت؟ يا جماعة اتركوا هذا الجدل العقيم، ما رأيكم في فلان فهو لا يثير حسدا ونستطيع وضع اللجام في فمه بسهولة أكثر من هذا الحمار الحرون الرافض أن نكون المحرّك وهو الأداة.

من أين لي التركيز على العدوّ وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح... والذابحون رفاقي.

ومن يذقِ الدنيا فإني طعِمتها وسيق إلينا عذبها وعذابهـا (الإمام الشافعي)
وما هي إلا جيفة مستـحيلة عليها كلاب همّهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

تخـور قـواي مـن شـدة الطعـن فأسـقط جاثيـا علـى ركبـتيّ. تمـرّ صفـوف أصحابـي فـوق رأسـي تدوسـني بأحذيتهـا الغليظـة. أبصـر قائـد العـدو جاثيـا علـى ركبتيـه لا أعـرف هـل أخطـر جـرح الـذي أصابـه بـه الصديـق أم العـدوّ. يهمـس فيّ :

– أتعقد معي حلفا ضد أصحابي وأعينك بالمقابل على أصحابك ؟

أهـزّ رأسـي بالنفـي لأنـني مـن المدرسـة الـتي لا يخـون فيهـا الصديـق صديقـه حتـى ولـو خـان هـذا الأخـير.

يصرخ فيّ قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين :

– يا مغفّل من يبحث عن الوفاء، يستثمر في الكلاب لا في الآدميين.

بربّكـم، أليـس مضحـكا أن تلتحـم الجيـوش ببعضهـا البعـض وهـي مثخنـة بجـراح المعركـة الـتي لم تكـفّ لحظـة داخلهـا... أن تنشـب بـين جيـوش مـن المعاقـين والجرحـى أنهكتهـا تنافسـاتها الداخليـة وأكملـت المهمّـة حروبهـا الخارجيـة مـع جيـوش ليسـت بأحسـن حـال.

مشـكلتنا الكـبرى في معـارك الكلمـات واللّكمـات الصديـق الـذي يختفـي وراء ملامحـه المنافـس. فالصديـق –الصديـق آخـر مـن يصـدّق مـا يـروّج عنـك مـن إشـاعات وأوّل مـن يغفرهـا لـك إن صدقـت. في هـذه السـاحة اللعينـة الـتي يسـمونها السياسـة هـو أوّل مـن يصـدّق عنـك الأراجيـف وآخـر مـن يغفـر لـك أنهـا كاذبـة. هـذا مـا يجعـل بحثـك فيهـا عـن الخـلّ الرفيـق كبحثـك عـن أم لأطفالـك في ماخـور. كـم صـدق القائـل : اللّهـم أعـنّي علـى أصدقائـي أمـا أعدائـي فأنـا بهـم الكفيـل. مـا تحتاجـه هـذه السـاحة ليـس محاربـا غبيـا يعتقـد أنـه مسـنود الظهـر بحليـف وليـس أمامـه إلا مـن يبـارزه، إنمـا راقـص باليـه صيـني في معركـة سـينمائية يـدور علـى نفسـه برشـاقة لا تضاهيهـا إلا براعتـه في تصويـب قدمـه نحـو حنجـرة العـدو في الوقـت الـذي يسـدّد فيـه ضربـة قاضيـة بسـاعده لحنجـرة المنافـس يـردي الأول قتيـلا ويـترك الثانـي جثـة هامـدة.

يأتيـك مـن تواصـل المواجهـة مـع الـذي منـه كل نقمـة وتجدّدهـا بعـد كل صلـح قصـير، ملـل مصحـوب بشـيء يشـبه الغثيـان. لا فائـدة أن تصـرخ فيـه : كفـى، أريـد سـلاما دائمـا ولـو بشـروطك. هيهـات. هـو كتلـك النباتـات المضـرّة الـتي لا ينفـع فيهـا اقتـلاع أو سـموم أو حـرق. لا جـدوى مـن قتـل شـكله الأوّل، ولا الواحـد بعـد الألـف، أو التصالـح مـع كل الأصنـاف الـتي يتخذهـا فنحـن دومـا مطوّقـون بأشـكاله لا إفـلات مـن قبضتـه ولـو أصبحـت مـن القديسـين، خاصـة إذا أصبحـت أكبرهـم.

*

تسألني «ما» عن أحوالي وأنا بصدد لعق جراح آخر مواجهة.

أنفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الشراسة المترسبة فيها:

- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أيّ محكمة تنصفني منك ؟

تبهت ربع ابتسامة الأم. تقطّب جبينها :

- آه يا طفلي الصغير، كم أنت موجوع هذه الأيام. !

تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب ثم تقرر الثبات.

- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل ؟

- تسألينني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة البغيض.

أثب أمامها لأمثل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها وبيدها الأخرى تمسح دمعة.

تدخل الأم الجديرة بأمومتها عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حادّا آمرا نافد الصبر: انهضوا، ماذا تظنون ؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم. أفرطتم في الدلال وسأعلّمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلّل أحدا. تدريب هذا الصباح السيطرة في المدرسة .

يثب الأطفال من فراشهم مرعوبين. يتصاعد صراخ الأمّ المتخرّجة من الأكاديمية العسكرية المؤهلة وحدها لإصدار تراخيص الأمومة: يا الله بأسرع من هذا. تفتعلون عدم سماع ما قلت. اللّعنة! من تثاءب ؟ من ؟ أنت، إلى العزل، تبكي! واللّه لأقطعنّ عنك هذه العادة ولو تطلّب الأمر أن أقطع لسانك. انتهى العهد الذي كنت أرميكم في الشارع دون إعداد محكم. وأنت يا بنت، خمسة جلدات هذا الصباح لتعلّم الوقوف السريع عندما أصرخ بالأوامر. أنت الطفل رقم 2، قلت: ممنوع مواساة الأخت. ستذهب مباشرة للخزانة تقضي فيها النهار مباشرة بعد نهاية التمارين. وأنت كبير الأطفال ازحف على بطنك حتى الباب إلى أن تتعلّم عدم رسم مثل هذه السحنة على وجهك.

قطعة خبز جافّة وبعدها مباشرة التمارين.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليود. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: «هايلي هايلو هايلي»،نحن للألم مستعدّون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفّزون، الويل للذي منه كل نقمة، إننا منه لمنتقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتي واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت للتصفيات الجسدية. بعدها التمرين النفسي للصبر على الأذى وحسن استعماله ضدّ الآخرين...كل الآخرين. أبدأ بضرب أصغرنا ضربا مبرّحا فتشجعيني على الضرب. أصرخ فيه مرّة أن يستكين ومرّة أخرى أن يدافع عن نفسه. الويل له إن ارتمى في أحضانك مدفوعا بعادات قديمة ما زالت مستحكمة. يأتي ردّك صارخا: أتريد أن يسخروا منك

طوال حياتك ؟ أنت الذي ستقول لهم : عودوا لأمهاتكم. نعم، لا أمّ لكم في هذا السيناريو وإنّما دليل كفْء يعلّمكم العالم على حقيقته والآدمي على طبيعته.

بعد انتهاء حصّة الإذلال لتقوية غرائز العنف يجب التدريب على التعرّف على السحن والطباع للتمييز بين الأقوياء الذين يجب تفاديهم والضعفاء الذين يجب ركوب ظهورهم. آخر دروس الصباح تعليماتك بخصوص فنون القسوة والخديعة. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى الذي منه كل نقمة ومواجهة القاسي النذل الخطر. نعم، هكذا كان عليك فعله.

تضع الأم الأزلية يدها على رأس ابنها :

– يا طفلي الحبيب، من أين لك الرفق بالآخرين إن لم ترفق بنفسك ؟

كيف تطلب مني هذه المغفّلة أن أرفق بنفسي وبالآخرين والذي منه كل نقمة ورائي وورائك من المهد إلى اللحد ليكون الآدمي المغلق لكل الأبواب، الواضع لكلّ العراقيل، المعسّر لكلّ يسير، المنغّص عليك متعة الوجود.

اللهم احرمه من النوم ومن الموت وانصفنا من الذي جعله جزءا من الرحلة.

تقول انتبه قد يثير كلامك هذا حفيظة السلطات العليا فترميك بالمزيد منه وهي التي أرادته جزءا قارا من السيناريو لما يقال عنها من حكمة خفية . اطمئن، استنفذت تقريبا كل الأصناف جرّبت كل الفظاعات ولم يعد يخيفني شيء . هذا ما يسمح لي بطرح الموضوع من جذوره واقتراح الحلّ الجذري.

كيف ؟ بتنظيم مظاهرة عامة وعارمة لكل من أضرّهم وجود البغيض والتهديد ب....تقول ساخرا بماذا ؟... بما يخطر على بالك المهمّ أن نهدّد بشيء علّ السلطات العليا تحملنا على محمل الجدّ ولو لحظة.

الدليل على صواب الفكرة حضور مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نقمة، فتردّد البشرية ورائي : لا، لا ،لا.

بداية موفقة لأكبر مظاهرة في التاريخ ستجبر الإدارة العامة على الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء .

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاتر والهتاف متقطع وأصوات نشاز تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدين، تقابلها هتافات معادية : لا، لا للظلاميين الرجعيين! وآخر يصيح عيب يا اخوة يجب أن نتوحّد لنكون أقوياء.

تفكّكت الصفّوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبّق مطالبه ويصفي حساباته مع من يدعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة

وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ في أذني : خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف.
آخر محاولة لإنقاذ فكرة يبدو أنها لم تكن بالعبقرية التي اعتقدت. لأتوجه للحشود مخاطبا العقل والضمير وحسّ المصلحة العامّة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صماء ورص الصفوف. آه لا أحد يسمع .لأشغلهم بقصيدة تلخّص شكوانا منذ خلقنا.

فيا ربّ إنّ الناس لا ينصفونني فكيف وإنْ أنصفتهم ظلموني (أبو العتاهية)
وإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا وإن نزلت بي شدّة خذلوني
وإن طرقتني نكبة فكهوا بها وإن صحبتني نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحنّ إليهمُ وأحجب عنهم ناظري وجفوني.

تتعالى أصوات الاستحسان فالسبّ والصفير بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل زعيم: من قرّر الدعوة للمظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختامي ؟

ماذا لو صحت : انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. آه يريدون التثبت من حزامي أنا !

لم يبق غير الهرب إلى العالم الآخر على أمل ألا يترصدني البغيض على باب الجنة أو باب جهنّم . نعم أملنا الأخير الموت. المشكلة أننا لا نحبّ مرارة مثل هذا الدواء ومن ثم ضرورة التمرّن والاستعداد. أي تمرّن وأي استعداد ؟ يا غبي بالمشي في الجنازات طبعا . لماذا تظنّ أننا لا نفلت جنازة صديق أو قريب ؟ المشكلة أن هذا الاستعداد للامتحان أكره عندي من الامتحان نفسه.

يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي .سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي يواصل الحسد تعذيبه لأنه حتى في هذه الحالة ليس هو محلّ الأنظار.

وما النعش إلا كالسفينة راميا بغرقاه في بحر الردى المتراكب

الجنازة كالختان والزواج : مناسبة لملاقاة الأعزاء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت وإتمام الصفقات...خاصة لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. كأنني أسمعهم يتهامسون ضاحكين : هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى... هل رأيت ما أبشع نظراته، لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلودهم في الصحاري و في الحقول و مع هذا لم يخجل هذا الآفاقي أن يكون سيّدنا لنا

نحن أحفاد الرقيق الأبيض.... حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة...يا ناس ، قال تعالى «اذكروا موتاكم بخير» وهو لم يستثن هذا المجنون، اللهم لا تتغمّده بشيء من رحمتك ولا ترزق ذويه ذرّة من الصبر والسلوان... آمين يا ربّ العالمين.

قدر الآدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان...صورته في مرآة ذاته...صورته في مرآة من يحبونه...صورته في مرآة من يكرهونه...صورته في مرآة من لا يعبئون بوجوده...صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها بالكاد تلمحه ...أما من له هذه الصور المتباينة فشبه مجهول للآخرين ولنفسه أوّلا.

حدّث ولا حرج عن لعنات الحفارين وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة. على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض ؟ لماذا لا يلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان علّ بعض الكواسر وثعالب الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعا في آدمي؟ الرائحة ! من سيتضايق إذا رميت بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول لا تقلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتني. «ماشي» مع الدفن، شريطة أن أدفن جالسا في وضع الجنين ووجهي نحو الشرق على طريقة «الأنكا» أنتظر مثلهم البعث مع كل فجر... أو أن يحفر القبر على شكل بئر لأوارى الثرى واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوّه لآخر اعتداء. من قال لا أكذب من البشر عند التغزّل قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصيد؟ نسي الشقيّ خطبة التأبين. ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو فم الميت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطاءه- وهو حيّ- أصغر حبة منه. لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيّا بالتنقيص من قدرك ويكذبون عليك ميّتا بالزيادة فيه.

إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتم خطبكم الرنانة على حافة قبري لرميتكم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانقلبت عفريتا يأتي لياليكم بأفظع الكوابيس. بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا فيّ العزاء. تزغرد النساء للمولود الجديد وتنتحبن على الميت، والحال أن تمام العكس ما يجب. ولأني جئت الوجود يلفّني جلال الصمت، فإني أريد الرحيل عنه بلا صخب ولا حتى صخب الزغاريد. ولأنني لمّا انبثقت فيه، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوّه يمدح خصالي المرتقبة، فإني لا أريد لحظة الرحيل خطيبا مفوّها يتغنّى بخصال لم يكتشفها فيّ طيلة حياتي أحد. ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخالة وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثالوثا آخر من النساء: تفاحة وتفيحة

و«ح» التي غمرتني بحبّ لم أستحقه يوما، وأن لا يشاركن يوما في أي هذر سخيف حول مناقبي المزعومة.

كم أخطأوا في حقي... الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم نواقصي وعيوبي... الذين بالغوا في كرهي لتجاهلهم أو لجهلهم بما فيّ من بعض الفضائل... كان لي ككل الآدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي وبعض الزلات تغفرها لي الحسنات ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك.

تهال آخر حفنة من التراب أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين تعتصر عبثا من مآقٍ جافّة دموع التماسيح. فوق القبر يتواصل تدفّق سيل الحياة، نهر جبار عات آت من أعماق التاريخ لا يوقفه سدّ آخر ما يعنيه القطرة التي تبخرت منه.

ميّت أنت وإلى الأبـــــد **(لوركا)**

ككل مـــوتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة لأشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أولاد الكلب! أي أهمية للأمر الآن وقد أدرت لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهدة أريد أن يكتب هايكو أخذته من إيسا أعدت صياغته أعتقد بما يرضيني ولا يغضبه.

" أخيرا نجوت منكم

والآن تعال يا صرصار

غنِّ على قبـــــري "

عدت من حيث أتيت . بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقّة السفر. قبل الإخلاد لراحة العدم عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجّل إدانتي التامة لفكرة خلق كائن مثل الذي منه كل نقمة وطلبي الملحّ يسحب دوره من السيناريو ...حججي الدامغة جاهزة ضدّ اعتذاراتهم البلهاء : لا بدّ منه وإلا لما وجدت القصص المثيرة...لا بدّ منه وإلا لاستحال بلورة طيف واسع من الأحاسيس والمشاعر الآدمية...لا بدّ منه لوجود الضغط وهو العامل الأوّل للابتكار والتجديد...الخ.

أتسمّر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجّهمة لجبريل وهي تنقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ ومن الملفّ الغليظ إلى وجهي. ماذا أيضا ؟ . آه هذا ملفّي وهو بداهة زاخر ثقيل... بماذا ؟ بشكاوى الأطفال الذين تكبرت عليهم لا أنتبه لحاجتهم للتفوّق... بشكاوى الأخوة الذين استأثرت دونهم بأب لا أنتبه لحاجتهم للفت انتباهه إليهم...بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح وشاب ناكر للجميل لا أنتبه لحاجته من الاعتراف...بشكاوي

الخصوم والمنافسين الذين عفّرت أنفهم في التراب لا أنتبه لحاجتهم من الاعتبار.. بشكاوي الطغاة الذين أشبعتهم تهكما وتحقيرا وجعلتهم مضغة في الأفواه... بشكاوى الجلادين الذين فضحتهم وسلطت عليهم الأضواء هم خفافيش الظلام والعفن... بشكاوى كل الذين ظلمتهم حين أنصفوني، الذين حجبت عنهم ناظري وجفوني...بشكاوى الذين لم يسلموا مني ألاحقهم بشماتتي حتى وهم في الخرق الأبيض أدعو الله ألا يتغمّدهم بشيء من رحمته يوم يغلّون في القطران الذائب وألا يرزق أهلهم اي صبر أو سلوان وهم بالضرورة على شاكلة الكلب ابن الكلب الذي سندفن.

آه لا زال هناك المزيد ...ماذا أيضا ؟ شكاوي الأعشاب التي اجتثثت أو دست غير عابئ بماذا أجتثّ أو على ماذا أمشي... شكاوى الفئران التي سمّمت صغارها في غرفة المهملات...شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بأبشع أدوات الدمار...شكاوي الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها ...شكاوى شعوب النمل التي لاحقتها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات....يا للهول ! لا يكفي أنني كنت الذي «منه كل نقمة» بالنسبة لعدد من المنتصبين على قدمين ، بل وكنت أيضا الغول والعبيثة لكم من الكائنات اللعينة الأخرى !

* * * * *

الذين منهم كل نعمة

ربما للإدارة العامة أسباب لفرض وجود الذي منه كل نقمة في السيناريو ...منها أنه ضروري لنبقى منتبهين ... أن غيابه كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم ... إنه هو الذي يولّد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهّج نارا ونورا ونحن نقاومه وأحيانا ننتصر عليه.

كل هذا ممكن ، لكن كيف تنكر ما كلّفنا الخيار من ثمن خاصة وهو يزرعه عميقا داخل الذات لنشقى به داخلنا وخارجنا؟

نحن على استعداد لأن نغفر لها هفوتها هذه وقد أهدتنا نقيضه الذي يسميه النصّ الذي منه كلّ نعمة .

هل الأمر تدارك غلطة أم محبة فينا –حتى وإن كنا نعلم أنها لا تتعامل مع مخلوقاتها الضعيفة بمنطق الحبّ والكره– أو لأنها فهمت أننا لا نستطيع مواصلة الطريق وإنجاح التجربة التي تجرّبها علينا دونه ؟

إحقاقا للحقّ ، يجب القول أنها لم تقصّر هذه المرّة في شيء وهي تضع فيه بمنتهى الدقة والعناية كل المواصفات التي تجعل منه أكبّر مسهّل للرحلة بعد أن جعلت من الذي منه كلّ نقمة أكبر مصعّب لها.

هي جعلت منه الذي يمشي أمامك دليلا وخلفك حارسا...الذي يطلق صرخة الفزع لينبّهك لبروز الخطر...الذي يجذبك بقوّة للخلف عند شفير الهاوية...الذي يخرجك من رمال متحرّكة كادت أن تظفر بك...الذي لا يفتعل سماعك وإنما ينصت إليك حقا... الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر...الذي يزهيه نجاحك ويبكيه أن يراك فاشلا...الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ ...الذي تتّكئ على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاحك في يدك بروز الذئاب...الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من ذئاب...الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته...الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بدلك من شدّة البرد...الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت...الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما...الذي يأوي ذكراك في قلبه تواصل داخله أغرب أصناف الوجود.

يخرج لك هذا الكائن العجيب من جحافل الذي منه كل وحشة متى لا تتوقّع وعند أصعب تقاطعات الطريق.

هـــا قـد أغلقـت المدينـة أبوابهـا في وجهـي كأنـني لم أسكنهـا يومـا ولم يكـن لـي فيهـا صـاحب.

يشيح بوجهـه مـن يعترضـني في شوارعها متحرّجـا. يخترقـني البعـض بالبصر كأنـني جـزء مـن الفـراغ. تـرى أحدهـم يسـارع لتغيير الرصيـف أو كأنـه فوجـئ أنّ غبـارا شـوّه لمعـان حذائـه. يفتعـل مـن كنـت ولـيّ نعمتـه وهـو يمـرّ أمامـك أنـه لم يـرك وأنـت أوّل مـن رأى مصدومـا ومتضايقـا. ايـه والله.

ما أكثر الأحباب حين أعدّهم لكنهم في النائبات قليل (علي بن أبي طالب)

لم يبـق لـي مـن مـكان أمشـي فيـه طـولا وعرضـا، ولا خشـية أن ألاقـي فيـه آدميـا يغـيّر الرصيـف، غـير بيـت فـارغ ومطـوّق. الوحـدة والـبرد. ذات صبـاح يُـدقّ البـاب بإلحـاح، فأخـرج إليـه متوقعـا الشرّ المألـوف خاصـة وأنـا أسمـع أصـوات كلاب الضبـع ترغـي وتزبـد وراءه. كلا، هـم لم يأتـوا لأخـذي مـرّة أخـرى للتحقيـق في قضيـة ملفّقـة وإنمـا هـم بصـدد التأكّـد مـن هويـة شـخص أكاد لا أعرفـه يصـرّ علـى زيارتـي. يفـرض الرجـل الهـادئ بحـزم حقـه في دخـول بيـت شـخص خـرج لتـوّه مـن السـجن وليـس لأحـد حـق منـع الـزوار عنـه. يسـلّم علـيّ مهنئـا بسـلامتي. يلقـي بنظـرة ثاقبـة حولـه، متعجبـا مـن خلـوّ البيـت تقريبـا مـن كل أثـاث لا يعـرف أنـه سُرق وأنـا وراء القضبـان. ثـم يدعونـي لجولـة كأنـه يعـرف حـبّي للمشـي. يصـرّ وسـيجارته الأزليـة بـين شـفتيه، علـى المـرور أمـام المقاهـي المكتظـة وعلـى التوقّـف بعـض الشـيء أمـام مركـز البوليس ليعلـم الجميـع، مـع مـن يقـف وأي قضيـة اختـار. أمـازح الرجـل :

– أرهقت من يتبعونا وأرهقتني بهذا المشي البطيء، أنا الذي لا أعرف إلا الركض.

– هل جعت ؟ أي مطعم تفضّل ؟

– بعد أكل السجن وما أطبخ، كل طعام سيكون زردة.

– لنذهب لمطعم المتوسّط، هناك أحسن أنواع فواكه البحر وصاحبه صديق.

أمـام أفخـر المـآدب الـتي أصـرّ الرجـل الـذي أكاد لا أعرفـه علـى اختيـار أصنافهـا بنفسـه، ينتقـل الحديـث مـن موضـوع لآخـر، وهـو يرجعـه دومـا لظـروف عيشـي.

– لا بدّ أن تدفئة بيتك في هذا الشتاء الماطر مشكلة...خاصة وهو شبه فارغ ؟

لا أتمالك نفسي من الضحك:

– لا تقلق... بدوي متعوّد على خشونة العيش.

– عندك مدفأة في الصالون، لماذا لا تستعملها وتنام قربها؟... أم هي للزينة فقط ؟

– لا، هي شغالة، لكن لا بدّ من... بالمناسبة، أين وصلت المحاكمات الأخيرة ؟

– غـدا، سـأذهب للمرافعـة في إحداهـا. أنـا معـك أنهـا مسـرحيات سـاقطة. لكـن مـا تدعـو لـه مـن مقاطعتهـا، أمـر صعـب قبولـه علـى محـام مثلـي لا سـلاح لـه غـير القانـون. موضـوع

سنتناقش فيه لاحقا... شقيقك يشتكي أنك تخرج وحدك ليلا لشاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين. تذكّر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا استولت على بلد.

من الغد أفيق لأكتشف كدسا كبيرا من الحطب أمام الباب.

تلتهب النار في المدفأة ويسري لأول مرة منذ أسابيع طويلة شيء من الدفء في الجسم والروح.

أي كابوس كنا نعيش ونحن نخترق العالم دون هذا الذي يرافقك على طول الطريق يعينك على أحواله وأوحاله! أي حياة كنا نعيش وأي صورة عن أنفسنا كنا نتحمّلها لو لم نكن نحن أيضا الذي منه كل نعمة !

فمن نجاحات الإدارة العامة أيضا أنها زرعته فينا عميقا ليكون المعين الثمين لأنفسنا وللآخرين.

يمازحني الصديق :

– قد يمكنني إعانتك على هموم السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. لا أحد يريد هذا الطبّ الشيوعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم . زملاؤك الأعزاء يكرهونك ، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكزك الصحية المتخلفة. يقال أيضا أنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

– قل المدلّلين . هل تعرف أنني كتبت رسالة طالبة من ألفها إلى الياء.

– لا أصدّق.

– فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مراودة البنت .

– ولو ! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم .

– طالبة أجنبية جاءت من بلد أكثر منا فقرا وتخلّفا جمعت في آن واحد قلة الذكاء والجمال والمال. دخلت مكتبي ذات صباح ترفل في اسمالها باكية لأن كل من توجهت لهم من الزملاء الأعزّاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها أن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا ...أنها بأمسّ الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيت أن أقول لك أنها قضّت في دراستها ضعف الستة سنوات المعتادة وحتى أكثر وأنها كانت مصدر تندّر في كامل الكلية. شيء ما تحرّك داخلي يأمر بمدّ يد العون لآدمي سبح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ . الشفقة ؟ كلا، الاعجاب أمام عناد هذه الانثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت ككل من ابتلاهن الله بما ابتليت به من مصير. قلت لها هذا موضوع سهل جمعنا له كل المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدت أن أرمي أول مسودّة في وجهها. تمالكت أعصابي وقضيت معها يوما كاملا

في مراجعتها ثم طلبت منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجينة محسّنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية . في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل شبه إجماع أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه البنت وأن علينا الاعتذار لها. قلت لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوما تبيع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يسويه الله أحسن مما سوّى ذهنها. نظروا لي باستغراب وقد بدأت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأتجاسر على فعله . قلت نعم سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة إذ لا مجال لإقحام محلّفين آخرين قد ينتبهوا للخديعة ويتسببوا لي في مشاكل جديدة أنا بغنى عنها .قلت في نفسي إن لم يعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي احد بل تتابعوا على إصلاح ما كنت أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارق في خضم مشاكلي المتعددة . أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة ؟ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شخصيا شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم. يومها كِلْنا لأنفسنا الثناء ولم نقصّر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت اليها وكيف ستغيّر وجهة الطب للعشرية المقبلة، كل هذا أمام عاملات لا يفهمن شيئا من كلامنا. بعد نهاية «النقاش» مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة ، رجعنا للمدرج يحف بنا وقار العلماء لنعلم البنت أن رسالتها قُبلت بعلامة مشرّف جدا. لما أتمت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعثم ، همست في اذنها أن قسمها لأبقراط لا يعنيني في شيء كل ما يهمني احترام قسمها لي بألا تلمس أبدا مريضا. بعد بضعة اشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستانا أنيقا والعكب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها . جاءت لتقول لنا أنا بخير ، أحبّ عملي ،كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني ، شكرا . لحظات من السعادة الصرف. يومها قرّرت أن أمتّع نفسي بالعفو التشريعي العام وأن أغفر لها ذنوب الشهر وحتى كامل السنة.

نعم يمكن تهنئة السلطات العليا على تداركها الهفوة التي قلت كل ما يجب أن أقولها فيها، وهي تسهر على أن يكون الذي منه كل نعمة داخلنا وخارجنا.

حقّا وجوده لا يزيل كل صعوبات الطريق والنقيض اللعين هو أيضا داخلنا وخارجنا، لكنه يجعل المشي أقلّ وجعا وعلى كلّ يبقي الطريق مفتوحا لكل الاحتمالات وحتى للوصول للمنعطف الأخير حيّا ومنتصرا.

قال وقد تمخّضت عنه العاصفة : غصت إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلت الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. قلت: الضيافة في هذه الربوع حق طرف وواجب الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ في مثل هذه الربوع ؟

تقول أما أنا فقد غصت في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد ولن أتحرّك خطوة أخرى. كفى أعذارا فارغة. يا لله تحرّك، ألا ترى ذلك النور ؟ إنه مصباح كوخ فقير. لا تخش أن يكون وكر قطاع الطريق، حبسنا لك الذي منه كل نقمة في الفصل السابق. هيا تشجع. تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطبك بلغة لا تعرفها لكنك تفهم من نبرتها أن عليك الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءك مشيرة لمكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! ترى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعا، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس لعشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أي لحظة.

نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفّل بحراسة أخطر تقاطعات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تدفق الحجّاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مغامري الوجود على الثبات.

فجأة يداهمني الشعور بأنني مجدّدا في خطر وأنا أنتبه لمجهول يركض ورائي في الشارع المظلم ويده تمسك بذراعي. تدوّي داخل الذات كل صفارات الإنذار. تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سأقتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرني آدميون بسحن متجهمة وعيون باردة. لكنه العالم في حالته المباركة هذه. تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الآدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبا لجانب: بارك الله فيك وفي من معك لما تفعلون من أجل كرامة الإنسان. تربت يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضيع الرجل في الزحمة، لا يترك لي الوقت للتمعّن في ملامحه.

إنّه شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين...شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس لوليمة العرس...شعور الطفل التائه عثر أخيرا على والديه...صدّقتم صراخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب ؟...شتم انفعال...ردّة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به...هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدّدا على شعر ابنته... هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها...لساني لمن أخجلته التأتأة... مكانتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم...روحي لمن رهن روحه عند الشيطان...بورك فيكم جميعا...بورك... بورك.

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان ...فلا تحزن !!...........(حافظ)

ستصبح صومعةُ الأحزان في يوم من الأيام كأنها الروضة والبستان... فلا تحزن!!.

ستعود هذه الرأس المضطربة المولهة مرة ثانية إلى حالتها الطبيعية ... فلا تحزن!!.

وإذا أقبل ربيع العمر ثانية إلى عرش الخميلة

فانشر غلالة الورد على رأسك، أيها الطائر العذب الألحان ... ولا تحزن!!.

وإذا لم يَدُرْ الفلك على وفق مرادنا في بعض الأيام فلا تضجر

فإن دورانه لا يدوم على وتيرة واحدة... فلا تحزن!!.

ولا تيأس أبداً، إذا وجدت نفسك غير واقف على أسرار الغيب

فوراء الحجب تختفي كثير من الألاعيب لا تبدو للعيان... فلا تحزن!!.

أيها القلب اذا أراد سيل الفناء أن يدُك أساس الوجود

مادام نوح ربّان سفينتك... فلا تحزن!!.

وإذا ضربتَ بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة

إذا غلظت عليك أشواك المغيلان ... فلا تضجر ولا تحزن!!.

والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر

ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر... ولا تحزن!!

* * * * *

الذين منهم كل نشوة

ثمة إشكالية تصنيف بخصوص الذي منه كل نعمة حيث له حالتان للتفريق حتى وإن كانت الحدود متموجة أو صعبة الرسم . هو تارة ما تسميه اللغة الصديق وتارة أخرى ما تسميه الحبيب. وجهان لنفس قطعة النقد ؟ لنترك النقاش مفتوحا. ما يهمنا التركيز على الكائن الرائع وقد أصبح عبر علاقة الحبّ أهمّ كائن للكائن.

أصغْ السمعَ لما يتعالى من أغاني الآدميين وستكتشف أنها أغلب الوقت عنه...الحبيب أو شبحه أو وعده القريب.

أين هو الآن ؟ لماذا لا ألقاه ؟ متى سيأتي ؟ لماذا غاب ؟ لماذا غضب ؟ لماذا وعد؟ لماذا أخلف الوعد؟ كيف أغيظه وكيف أرضيه؟ كيف أغنمه؟ لماذا ضيعته؟ لماذا أبهرني؟ لماذا تراءى لي ثمّ اختفى؟ أغدا ألقاك يا من تتعطّش له روحي، يا من يحنّ إليه جسدي، يا من تصبو إليه أحلامي؟ أطلب عينيّ الغاليتين عليّ وأغلى منهما رضاك. مولاي وروحي بيده، ضيّعها سلمت يده. لا تهجرني فقد أفاق كم من بركان ظنناه خامدا. من أكون دونك أنت الذي أفقتني للربيع وعلّمتني كلّ ما أعلم؟ ما ينفعني أن أصلّي للعذراء لأقطف زهرة حبّ اسمرلدا. يا إبليس خذ روحي مقابل أن أضع أناملي في شعرها. نور جمالك آية من الله! الخ ..

كم فينا من وجد الكائن العجيب وضيّعه عن جهل وعن غباء! ثمة فينا من بحث عنه على طول الطريق ولم يجده ثم جاءه اليأس فانكفأ على حزن دفين. ثمة من لم ينتبه يوما لوجوده أو لضياعه. ثمة من ما يزال مصرّا على أنه موجود في مكان ما وأن قدره أن يلحقه في هذه الدنيا أو في الآخرة.

هكذا لا تسمع على امتداد الطريق من كل الحناجر إلا صرخات شوق الآدمي لهذا الآدمي كأنه هو هدف الطريق إن لم يكن الطريق ذاته. حدّث ولا تسل عما قيل فيه من أشعار وما رسمت له من لوحات وما ألفت له من موسيقى.

أمن الممكن أن يكون المسافر هدف المسافر، أن يكون هو أهمّ رهان الرحلة ؟

في بعض الملفات تفتح "ح"، المرأة التي تلعب في هذا المقطع من الطريق دور الحبيب ، فمها من الدهشة وهي تسمع اقتراحي بخصوص مكان السهرة.

– تريد الذهاب لعلبة ليلية ! أنت !

أهزّ الكتفين :

– كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض «الستربتيز» ولا شيء آخر.

تقطّب «ح» الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

– ستزعجني طوال الوقت بخطبك المملة عن الطبقات العاملة المسحوقة ومسؤولية ايدلوجية السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية . لا شكرا، وعلى كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

– لم يبق إلا هذه الأماكن لمواصلة أبحاثي. أرجوك، لا أتجاسر على دخولها وحدي.

– خشيتك من العيون ؟

– التي بداخلي.

يتلقفنا ليل متجهم لا ينفع في تحسين نواياه المبيتة ما تتكلّف المدينة من أنوار.

الليل!...فترة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين... التي نخرج فيها مكرهين لأخطار عالم وضع على وجهه نقابه الأسود و عيناه جمرتان تحدقان في الآدمي كالذئب المتربص بالأرنب.

تعبق قاعة ضيّقة عائمة في شبه ظلام برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين المشاهدين والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل .

– مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

تخرج التي ستخلع ثيابها من وراء ستار قذر .شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر. تبدأ «الفنّانة" في التثنّي وهي ترسم على شفتيها ابتسامة مهنيّة أستشفّ من ورائها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة مكتملة النضج. تبدأ في خلع قميص جدّ شفّاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.

هنا تنتبه للوظيفة الأخرى للثياب وأنها لا توضع على الجسد للزينة والحماية والتميّز وإنما لتقول للصياد : تحت الغلاف جوهر النصّ.

تنهرني «ح» لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها

–بهرك جمالها ،أليس كذلك ؟

–لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل .كي أحكم على امرأة بالجمال يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش تتوجه بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها.

فجأة يتعالى الصفير والصراخ من نظّارة يلعبون أحسن منّي الدور الذي يؤدّى في مثل هذه الأماكن.

تأخذ الراقصة في اللف والدوران على نفسها وسط ضوضاء تتزايد شراستها وقد تسمرت العيون على أعمق محرّك لجشع الآدمي: اللّحم خاصة اللحم الآدمي.

تنفجر «ح» ضاحكة :

– تغنّي! أنت! أظنّ أنّني مقدمة هذه اللّيلة على أكثر من مفاجأة.

– ألا يغنّون ؟ لم لا أغنّي أنا أيضا ؟

– أنتم الرجال لا تنحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظّ أنّني لا أفهم الكلمات.

– إنّها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لمّا بدا يتثنّى. ردّدي معي : آمان آمان، وبالمناسبة كفّي عن إلصاق التهم المشينة بالخنازير.

تفتعل المرأة معابثة حمّالة الصدر ليحتدّ الضحك والصفير.

تهمس "ح" في أذني : كأنك كئيب، حدثني بما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي ؟ ستضربني بحذائها وهو بكعب عال مذبّب.

تبلغ هستيريا الجمهور أوجها عند نزع الصدريّة ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها آهات تعجّب، أو دهشة أو وجع.

تبدأ المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيّق. مسكينة! حقّا ؟ من قال إنّها لا تشارك مرح المتفرّجين، أنّ اللّعبة ترضي فيها حاجة أعمق من حاجة المال ؟ ألا تعلم ما يعتمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للأنظار، سالب للعقول ؟ كأنّي أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأمّلوا، سبّحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الآدميّ للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهّدا وتجميلا منذ أولى خطواته على الطريق ؟

يُرمى البنطلون أخيرا بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفّاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة.

يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات ! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز داخله بشرف الولادة وقداسة الحياة.

تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراهقون تسللوا للقاعة رغم أنف القانون. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل أنّها تصفّحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن ؟

تنفجر شتيمة حقيرة أرتجّ لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه.

صدق من قال من باعوا أرواحهم ينظرون باحتقار لمن باعوا أجسادهم ...اللّهم إلا إذا كان سخطهم مفهوما. الوليمة أمامهم ولا مجال للإمساك بما تعد. كم في هذه المسرحية التي

يتشارك فيها الجميع من قسوة بريئة آثمة عنوانها هذا التهكّم الذي لم يتوقف لحظة.

لكن هل هم هؤلاء النظارة يتهكّمون حقّا على المرأة. ربما لم يدخلوا هذا العرض فضولا أو لإذكاء الشهوة وإنّما لغايات أخرى ؟ على من يتهكّمون إذن ؟ هل هم أيضا بصدد رؤية ما أرى وأنهم يشتمون ما أجاهد لكتم ضحكي منه ؟

هل داهمتهم هم أيضا صورة نظّارتيْ بُعد وقُرب وُضعتا على العينين التي كان بهما حور؟... أسنان سوداء وأخرى صبغها النيكوتين بالأصفر... نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تنوءان بحمل ما لا يطاق من مترهّل اللّحم والشحم. هل شتائمهم موجهة للمرأة أم للذي يرهّل ويمزّق ويكلّس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كئيبا؟ هل هذه العلبة اللّيلية الحقيرة محرابا نتعبّد فيها للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال ونبصق عليها لما تفعله بكلّ هذه الروائع؟ أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: العبادة والكفر، التقديس والتدنيس، الصلاة والرجم ؟

تأخذ "ح" هي الأخرى في التهكّم :

– تسمي هذا رقصا ؟

الرقص!... لحظة استكشاف ما يزخر به الجسد من إمكانيات حركة تجاهلتها أغراض البقاء... لحظة نعود فيها أطفالا نقفز ونصرخ ونهرّج لِنُفرغ ما بنا من طاقات طال كبتها... لحظة تفجر الفرح فينا لأننا ما زلنا أحياء... منذ الأزل الطقس الديني بامتياز.

«ح» وفي صوتها نبرة لا تبشّر بخير.

– خذ بالك، ستسقط نظّاراتك من فوق أنفك.

– هكذا تكون النهود وإلاّ بلاش الافتعال والتكلّف عند بعضهنّ.

– أخطبها لك ؟

– الآن ؟ هكذا وبلا مقدّمات.

– كن على حذر. ذقت أظافري ولم تجرّب حتى الآن عضّتي. أول مرّة في حياتي أرى شخصا سكرانا بعصير البرتقال.

– صمتا يا امرأة، تأملي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهائجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتّى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى «جوردانس». أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الآدميّ عادة بين فخذيه، أكان ذكرا أم أنثى.

– انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة !

– ربّ ضارّة نافعة، وقد اكتشفت هذه الليلة وجهك المخفيّ قبل أن أتورّط معك، يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك ؟

- لا أرى مـا أريـد رؤيتـه.
- المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتّى لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمّر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد :

- لا أصدّق أنّها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.
- لا تفتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير ؟

وفي جسدي تبحثين عن الهضبة (أوكتافيو باز)

وعن شمسها المدفونة في الغـاب

وفي جسدك أبـحـث

عن المركب وسط الليلة الضائعة»

يعتقني الظلام من كلّ تحرّج. لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجوّلة سترمى يوما لقمة سائغة للدود.

- أقول لك : لقد وصلت به إلى الركبة وكأنّها عازمة على!... انظري، وصلت به منتصف الساقين ، أقول لك : ستخلعه، ستخلعه. !!!
- وماذا كنت تنتظر ؟ أنْ تحاضر في النحو المقارن.
- يا امرأة تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا.... يا الله اطلقي رجليك للريح قبل أن تعبق الأجواء بالروائح.

*

داخل سيارة أجرة تشق طريقها في شوارع المدينة النائمة، وقطرات مطر خفيف تضرب برفق زجاج النافذة تواصل
«ح» ضحكها مختبئة بين ذراعي. ثم تصمت.

- ما لك صامتة ؟
- أنت الذي دخلت قوقعتك كالعادة.
- مسموح لك بالكلام. تكلمي، قولي شيئا ما وخذي حريتك.
- أشتمك ؟
- كل ما تريدين. المهم استعادة أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين ؟ أتذكرين أول آلو، يوم اتصلت بقسمك بخصوص مريض حوّلته لي ممرضتك دون ملفّه ؟

يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر ؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمن صنعها؟ وهل لديك أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة ؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتا أجمل ؟ يومها قلت لنفسي لا بد من عذر- مهما كان واهيا-

لأكلّم المرأة المجهولة، أقول لها أنني لا أريد معاكستها ولا أطمح لوصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت لي بشريط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليالٍ، وبجانبي دفتر صغير أدوّن فيه ما يوحي إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

أخيرا اختلاء الحبيب بالحبيب . مشهد تجدّد وسيتجدّد ما لا يحصى من المرات وهو دوما المرّة الأولى.

فقل لهم لا تحضروا الشمع في هذا الجمع، في هذا المساء (حافظ)

فقد تمَّ قمر الحبيب في مجلسنا، و اكتمل له البهاء...!!.

تشعر ذات عذّبها طول الانتظار بالجذل يتصاعد داخلها فتستعجل ما ما يزال مخفيا وراء ألف حجاب .أخيرا التي تتشوّق لها روحي، التى سيمتلئ ويفيض بها فراغي. تحدّق الذات في الوجه الموعود فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. تتسّع ابتسامتي وابتسامة "ح" وهي تمرّر يدها أمام عيني لأفتحهما عاد العالم طفلا.

أيّ أوتار سحريّة خفيّة تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عندما رفع كأس الماء إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمّه أخيرا بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل الواحة والشاطئ والملجإ و المرفإ بعد طول التشرّد.

قد يكون الحبّ خرقا كالذي تمرّره على نافذة تراكم فوقها غبار، لكنه خرق تمسح به يد رحيمة الغبار الذي تراكم على الروح.

الحبّ شعلة نور ساحر هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق (الشابّي)

ومزّقت عن جفون الدهر أغشية وعن وجوه الليالي برقع الغسق

الحبّ روح إلهيّ، مجنّحة أيّامه بضياء الفجر والشفق

يطوف في هذه الدنيا فيجعلها نجما، جميلا، ضحوكا جدّ مؤتلق

التلاقي سيصبح اللقاء . لكن ثمة طقوس معقّدة للاقتراب الحذر من الذي منه كل نشوة وهو الآن القريب البعيد، المعروف المجهول، المحمّل بكل الوعود وبكلّ الأخطار.

ها هو الجسد أخيرا. كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد ،والرقاص دوما من تدنيس إلى تقديس ومن تقديس إلى تدنيس. كم يخطئ شاعر «با»، فخير جليس في الزمان حبيب وأعز مكان في الدنى الفضاء الذي بين ذراعيه.

تهمس «ح».

– ستترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنع :

– هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!

تعبر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنّها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشنّجتين. أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا لبس فيه.

– هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك ؟

– نعم ! !

– انتبهي.

السيف في غمده ، انغلق الغمد على سيفه.

اتحد المعشوق بالعاشق ابتسم الموموق للوامق (الحلاج)

واشترك الشكلان في حالة فامتحقا في العالم الماحق

دليل يقودك داخل مجاهله وأنت الدليل الذي يقوده في أعمق دهاليزك.

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه ؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

يا معشر العشّاق ما البشرى قد ظفرت كفّي بمن أهوى (أبو العتاهية)

واصلني من بعدكم سيّدي كذاك أيضا لكمُ العقبى

ضممت كفّي على درّة لا شركة فيها ولا دعوى

لمّا تملأت سرورا بها أغربت عنّي سائر الدنيا

– رويتَ.؟

– رويتُ.

– تغنّي ! بماذا تهمْهِم ؟

– بكلمات أغنية قديمة تدافعت لسطح الوعي.

أمانة عليك يا ليل طّول

وهات العمر من الأول

نعم، يا ليت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة، ننعم بالدفء بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

– لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكفّ عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

– أمر سأنفذه دون تردّد ...والآن، ردي على سؤالي : من أنت ؟

هل سمع الذي منه كل نشوة، لكنه فضّل الصمت ؟

آخر محاولة.

– مجددا... من أنت ؟

– وأنت، من أنت ؟

– من أنا ؟... "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به..."

– نم الآن، واتركني أنام، يجب أن أستيقظ باكرا.

*

مثلما لا دوام لصداقة أو عداوة، إنما للعداوة والصداقة، فإن الدوام للحب لا لحبّ مهما أبلى أحسن بلاء في معركة البقاء.

ما أفظع أن تفرّ الآن ممن جريت وراءه طويلا، أن تملّ ممّن أخرجك من الملل، أن تكفر بمن عبدت. وفي مثل هذه الحالة كأن ذاتك جذوة نار سقط عليها المطر، كأنك موجة لم تعد تحرّكها ريح، كأنك بركان خمد، كأنك حلم جميل ارتطم بيقظة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه ورائك ذات يوم. كذلك الأمر مع الذي منه كل نشوة. فمثلما لا دوام لصداقة أو عداوة، إنما للعداوة والصداقة، فإن الدوام للحب لا لحبّ مهما أبلى أحسن بلاء في معركة البقاء.

مقدورك أن تمضي أبـــدا **(نزار القباني)**

في بحر الحب بغير قلوع

وتحب ملايين الــمرات

وترجع كالملك الــمخلوع

وفي مثل هذه الحالة كأن حبّك جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحرّكها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم بيقظة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

على فراش كان يضمنا للحب، تدير لي "ح" ظهرها وأدير لها ظهري وقد أصبح لكلّ واحد منّا شبح يعايشه سرّا، يعانقه نهارا، لينام في أحضانه ليلا. هي ولّدت من حرمانها ومن توقف اللقاء حبيبا جديدا وولّدت من حرماني ومن إخفاقي في تجديده حبيبة أخرى صغت ملامحها في طيّ الكتمان والسرّ. تأتيني غيرة غبيّة وأنا أشعر ب «ح «تحتضن شبح حبيبها الجديد بلهفة وخشوع. أسترق النظر إليه من فوق كتفيها وكلّي فضول جارف لأعرف من فضّلت عليّ. ثمّ أنسى غيرتي من هذا الآدمي الذي تعانقه سعيدة راضية وقد

أنساني الفرح بمن أتاني على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعنيني. ربما تسترق النظر هي الأخرى من فوق كتفي وقد عرفت شيئا كالغيرة من المرأة التي أعانقها وتعانقني بكل هذا الشوق السعيد. ربما تجاوزت هي أيضا غيرة لم تعد ذات موضوع وقد أنساها الفرح بمن أتاها على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعنيها.

على حدود عوالم الحلم والخيال نسلم نحن الأربعة، اثنان من عظم ولحم واثنان من خيال ومن حلم، مصيرنا لتدفق سيل الزمان.

تكفكف «ح» الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح.

– هل تذكر لحظة الوداع ؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت "لوموند" واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عن الجريدة والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أن أطفئ النور. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحة.

اللعنة على هذا العالم الملعون الذي لا تتحرّك فيه خطوة إلا وأنت تتأذّى وتؤذي بإرادتك وبغير إرادتك.

– لم أكن أقرأ وإنما كنت...

– لا تحاول إقناعي أنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبكي ورأسك على صدري.

– ما رأيك في تغيير الموضوع ؟

– ليكن. هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى : عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا.

– لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.

– هل بوسعك أن تكون مثله؟

– ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتني مصيبة... خاصة مع النساء.

– أريد أفعالا لا أقوالا.

– تعاليْ.

تفتح موظفة النزل فمَها :

– حجز لصيف 2035... بعد ثلاثين سنة ؟ تسخر مني يا سيدي!

– لا أسخر منك أنت. هذا ثمن غرفة لشخصين وباقة الورد وهذا للبقشيش. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهرا.

وعند باب النزل تدير لي «ح» ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع :
– إلى أين ؟
– ربما ظننت أنني تراجعت في قراري.
– من يتفهّمك أحسن منّي، أنا الذي لا يريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...
– بلى، وداعا.
فراق الذات لذاتها!... طلاق بالثلاث بين الأنا والأنا!... أي جزء سأرمي خارجي رافضا كل صلح معه؟... أي جزء من ذاتي سيرميني خارج العش أنا المتكلّم ؟... هل سأتخفف حقا من أثقال أنوء بها أم هل سأكتشف أنني لا أعيش إلا بهذه الأثقال ؟
عبثا أصرخ في «ح»» وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.
– يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

*

عن تجربة البحث واللقاء والفراق في أقصى ما يمكن اختزاله من زمن كم نبدده تبديد التائه في الصحراء وكل الزاد من الماء قربة مثقوبة .
تدخل الفتاة عربة المترو المكتظّة لتجلس أمامي... هكذا بكل بساطة. من يسخر منّي في هذا المترو؟ إنّها التي تخيلتها في كل قصص الغرام، مراهقا وشابا وربما حتى طفلا، بل بكامل المواصفات. مؤكّد أن هناك شيطانا بين هؤلاء الآدميين المنهمكين في التحديق في الفراغ يخفي ضحكه. من يكون ؟ الشاب الأسود الراقص على نغم موسيقى تنساب من سماعته الملتصقة بأذنيه؟ الموسيقي الشحاذ الذي سيدور علينا بعد دقائق لجمع فرنكات قليلة؟ الأمّ التي تفتعل الابتسام لرضيعها لمزيد من التغطية على طبيعتها الحقيقية؟ أم هل هو الأعمى وربما حتى كلبه؟ لم لا يكون المرأة نفسها؟! يا للأنثى الفخمة! من النوع الذي "يستهوي الورق تأوّهه ويذيب الصخر تنهّده». استر يا ساتر، ماذا لو تنهّدت! أحدّق فيها مطوّلا متناسيا حذر التأدب ونفاقه. يمسح بصرها وجهي المنبهر. كأنّ بريقا عابرا لمع في عينيها ثمّ انطفأ. ربما لاحظت وحكمت أنني لست الذي ماتزال تبحث عنه. رحماك، مهلا، ليس بهذه السرعة. تصرّ الآدمية المجهولة على تفادي نظراتي مفتعلة الانهماك في قراءة كتاب وأفتعل بدوري الانغماس في جريدتي أحاول أن أهدّئ من الصخب المتصاعد داخلي. كيف لا يتحوّل النظر كأنه قطع حديد يجذبها مغناطيس نحو التي جريت وراء خيالها في فضاء الخيال والحلم طول كل هذه السنين وهي أمامي الآن أكاد أشعر بنفسها على وجهي ؟ بؤبؤ عينيها فوهة بئر مخيف توسّط زرقة البحر لامتصاص الغرقى أمثالي. هذا وجه لم تزلّ في رسمه يد الرسام الأعظم. ترى عن ماذا تبحث المخيلة الخفية وهي تصوغ مثل هذه الملامح ؟ عن بسمة لم تصل إلى مصاف ما يريده على كثرة ما رسم من بسمات؟ كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علت على

محياه ابتسامة النصر. ماذا لو كان بصدد البحث عن مواصفات مبهمة لم تتحقق ولا حتى في هذا الوجه ؟ هذا عالم أغلى قيمه الجمال. محكوم عليك أن تعبره رائيا مرئيا، والكل يقيّم مدى قربك وبعدك منه. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد ؟ ما أروع على العكس أن تحدّق فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلكة الظلام.

ما الجمال؟ مسألة هندسية بحتة مرتبطة بدقة الرسم... إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخه وتحديدا في هذه التي تختزله كله الآن وهنا؟ فجأة ينقلب الوجه المستدير بهالة شعره الأشقر شمسا وأغض الطرف لا قدرة لي على مواجهة زخم النور... نوره "هو لا غير"." الشيء" الآن بما لا يدع مجالا للشك حاضر يحدّق فيّ يسألني: هل عرفتني؟

ينسحب بنفس السرعة التي برز فيها والمرأة ترفع رأسها عن الكتاب تفتعل النظر إلى النفق المظلم ثم.... تتثاءب.

رحماك، لا حقّ لمن لها هذا الجمال في تثاؤب أو ضرط، فما بالك بالشخير بعد الوصال. تتوقّف القاطرة. ينزل النازلون ويصعد الصاعدون. تشق فتاة فارعة الطول الحشد المتلاصق لتجلس لاهثة حذو التي ما زلت آمل منها مراجعة الحكم الصامت. هذا عالم يسخر منّي على الدوام، فلماذا لا يداعبني اليوم بفظاظة خاصّة. ها أنا تائه هذه المرّة في عينين بخضرة المراعي أمشي حافيا على عشب بلّله الندى. اللعنة! من شقيق الروح؟ هذه أم تلك؟. أواصل تفحص المرأتين والذات حائرة تحاول الردّ على سؤال لا معنى له. يقرّ القرار أخيرا وأرضى بواحدة دون الأخرى. يتسمّر البصر على من تقرّر أنّها من تتعطّش لها الروح وتبحث عنها منذ وجدت. يختفي من مجال الوعي كلّ ما عداها ولا يبقى على الذات إلاّ أن تغرق في نشوة لقاء خيالي.

أفاجأ بشيء يشبه الانزعاج في نظرة غائبة. أكاد أقسم أنّ التي سلّمت فيها، لمع في بصرها بريق قسوة لم أتصوّر وجودها في مثل هذا الوجه المبهر. يرتسم على وجه جارتها بريق ابتسامة وهي تحدّق في الفراغ. تقف حبيبة الدقائق المعدودة حذو باب العربة تتأهب لدخول الإبهام الذي خرجت منه. يتسمّر بصرها في بصري وأسمعها تقول بأوضح صوت قبل أن تختفي في الزحمة : شكرا.

يتجدّد جري العابد وراء المعبود.

من تـــــــــراها (البياتي)

أنا لا أعرف. ويحي من تراهــــا؟

همست في مطلع الفجر وقد ضاع صداها

أيّها الفجر الذي ذابت به، أين أراها؟

أيّها الغاب الذي مرّت به، أين شذاها؟

في آخر المطاف من هو هذا الذي نسميه الذي منه كل نشوة ؟
ثمة من يدّعي أنّه البديل الهزيل ل"ما" أو ل "با" حسب جنس الفاقد والمفقود، أننا نظلمه عندما نريده مطابقا لأوصاف من لم يعرف. هناك من يقول أننا لا نبحث فيه إلاّ عن ذاتنا . ألا نتغزّل بالحبيب نشنّف مسامعه بما يريد أن يسمع ليبادلنا الهدّية بأحسن منها؟ ألا نتزوج إلا بمن يشبهنا ؟ ألا نرمي الذي منه كل نشوة أو يرمينا يوم ترفض المرآة أن ترجع الصورة المطلوبة ؟ "ح" موضوع الغرام أو شبقنا لذواتنا عبر الآخر-المرآة ؟
ثمة تصوّر آخر للذي منه كل نشوة تعبّر عنه أحسن تعبير قصة كتبت بألف صيغة وها هي صيغتي لها.
تحلقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسئول عن كبرى مصائبكم.
لما أتتني البعثة بنماذج الكائنات التي سبتها في أبعد غزوة لنا داخل أبعد مجرّات هذا الكون، وضعت أمامي على طاولة التشريح كائنا أذهلني فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنّها أذرع الإخطبوط.
قلت في نفسي: أي ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلا ؟ يومها وضعت أدقّ أجهزتي أتحسس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكّد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكتف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم.
أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلاّ خزي الفشل؟ ثم إنني أعدت الكشف أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الإخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أنه الوحدة تحققت، الكمال اكتمل. إذن نجح غريمي أينما أخفقت.
لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من ألقمني علقما. فتحت الكائن لدراسة مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنا من جزأين ألصقا معا بعناية و إحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيت وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميتة للكائن لم تجد نفعا. أخيرا رقصت طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعت بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمنع بحثا محموما عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفّست الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعت من واحد كامل ناقصين سأزرعهما لتجربة مثيرة، أواصل أبحاثي؛ أنا أكبر مهندسي العتمة... أنا إبليس.
المحصّلة : هل نجري حقا وراء صورة «ما» أو «با»، أو وراء خيالنا في مرآة الآخر، أو نسعى لجمع جزئي ذات مشطورة منفية عن بعضها البعض إلى الأبد ؟ من يدري ؟
كل ما هو متأكّد أننا نقضّي العمر ركضا وراء خيال عابر لشبح لا نعرف له وجها أو وجهة، نبحث في الذي منه كل نشوة عن كائن له كل الأشكال ولا شكل يستنفذه.

* * * * *

الممثلون

لمواصلة تفحّص الآدميين ، يجب تغيير زاوية النظر وموقع المشاهدة.

لهذا الخيار الجديد لا أثمن من الأماكن التي تتعري فيها أرواحهم.

قد لا توجد بنايات أولاها البشر العناية الفائقة وصرفوا فيها الأموال الطائلة قدر هذه الأماكن التي نسميها المسارح. ربما المعابد. طبيعي والمعابد مسارح والمسارح دور عبادة تخفي نواياها. هل من باب الصدفة أن أول من علم الآدميين بناءها ربّ اسمه فاكسمان، وأن مدرّبهم على الإيقاع كان شيفا، و أستاذة الرقص الربة بارفاتي بنفسها وبراهما لا غير أوّل معلّم لفنّ التمثيل ؟

لذلك لا أدخل معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين ولا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكرة ترك نعليّ عند الباب.

ثمة صورة أخرى لهذه الأماكن: مختبرات طبية للتشخيص والعلاج ،تشرّح فيه الذوات أمام الأنظار المتشوّقة والجراح الماهر آدمي اسمه سوفوكل ، ايشيل ، أوريبيد، موليار، زي-آمي أوشكسبير.

من الطبيعي أن أواظب عليها وهي مصدر لا ينضب لمعطيات بالغة الخطورة عن الكائن الغريب الذي جعلته موضوع بحثي الأوّل طوال رحلتي.

أغرق في المقعد الوثير متنفسا الصعداء أرهقني طول الطابور. يخرجني صوت ناعم من قوقعتي:

– سيدي، أتريد البرنامج ؟

– نعم، برنامج الرحلة من فضلك يا آنسة.

– عفوا ؟!

– ماشي، برنامج السهرة، شكرا.

برنامج الرحلة! شكلا بالنسبة لمعدّل الحياة عند أطول خلق الله في العمر :ثلاثون سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الثرثرة (مع تفوّق الذكور على الإناث خلافا للمشاع) ، ثماني سنوات عمل (والخيار بين الأعمال الشاقة و الروتينية)، ثلاث سنوات في الأكل، سنتان في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقّال)،ستة أشهر في المراحيض.

مضموننا : أصناف لا تحصى من المنغّصات. صحيح أن هناك بالمقابل أصناف لا تعدّ من المتعة.

ولو! جئنا الوجود لقضاء ثلاثين سنة في النوم وسنتين في الهذر الفارغ في الهاتف وكل الآلام التي نعيش لا تُعوض في أحسن الأحوال إلا بدقيقة تجلّي ؟ بئس كل هذه القصة.

تنطفئ الأضواء تدريجيا. يزاح الستار ببطء ويبدأ العرض.

كم مثّلت هذه المسرحية! ترى هل بوسع المخرج الشاب أن يأتي بشيء من التجديد؟ آه لو ترك للمثلين حق التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة ،آه لو ترك للنظارة حق التدخل لا يهمّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير !

يرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسمّيه «الواقع» لنتوغّل بعيدا داخل فضاء الرموز والخيال.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جئنا جميعا للتمعن فيها نبحث عن شيء غير محدّد.

يبدأ الممثل في الإلقاء... نفس المعجزة التي تسبّب لي استغرابا لم تخفت حدّته: قدرة الذات على أن تكون داخلها وخارجها... قابليتها لتتشكل ذاتا أخرى فترة من الزمن ... ترى "أين" تودع الذات ذاتها لتصبح ذاتا أخرى وهل تجاهد هذه الذات للبقاء عندما يحين وقت صرفها رافضة العودة للفضاء السحري الذي خرجت منه ؟

يئنّ شبح الملك المقتول يستنهض همّة ابنه يحفّز فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام

– «في نومي وبيد شقيق! انتزعت منّي في مرّة واحدة الحياة والتاج والزوجة. يا للفظاعة... يا للفظاعة القصوى! لا تترك فراش ملوك الدنمرك يدنّس بالفسق والزنا اللعين»

يراقب العمّ المتزايد القلق ابن أخيه. هل فهم أنه قاتل والده وناكح أمه، أنه استولي بالخيانة والغدر على الملك والملكة ؟ هل لديه شكوك ؟ أدلّة ؟

يتوجه إلى هاملت خائفا متودّدا يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

– «إنّه جميل ومحبّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقد أبا وكذلك والده ومهمّة الباقي على قيد الحياة التقيّد بواجبات البنوّة في الأسى، لكن لمدّة. أمّا الإصرار عليه فعناد كأنه الكفر».

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مزّق عهدا ربطه يوما بأخيه وهاملت يروي، متكلّفا السذاجة، قصّة تخلّص إيطالي اسمه «كونزاجو» من أخيه وزواجه بامرأته... مع كل تفاصيل القتل بسمّ مسكوب في الأذن.

مسرحية أخرى عن نكث العهود والعقود.... عقد الحبّ، عقد الزواج، عقد الصداقة، عقد التحالف، عقد الحكم، عقد التجارة، عقد السلام... كل قصصهم أفرادا أو شعوبا تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا

لذلك هم دوما بحاجة للأخلاق التي يصفونها بـ«الحميدة» وترسانة من القوانين في محاولة يائسة لحفظ عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم .

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!

أيّ نور قادر على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبّط فيه ومن أي مصباح سيشعّ ؟

ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحثّ بولينيوس أن يصدقها القول بخصوص تغيّر طبع هاملت. ترى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في *أحشائها* ؟

يصرّح الرجل برأيه كمن يصدر قرارا لا طعن فيه:

– «سأختصر، ابنك النبيل مجنون، أسميه مجنونا وما الجنون إلاّ أن تكون غير مجنون».

– «أريد أكثر مادّة وأقلّ بلاغة».

– «يا سيّدتي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأساة».

تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدته الجريمة النكراء صوابه.

– لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذنيّ. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعال السذاجة.

– هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موت والده ؟

يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما أكره عند الآدميين.

أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

– عيب يا رجل. لا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه والآن تسخر منّا متسائلا عن أسباب فقد هاملت عقله وأنت أوّل من يعرف.

يرمقني القاتل بحقد

– ما دخلك أنت ؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوّج من أشاء.

يقرّب روزنكراتز وقيلدنستارن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

– من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى، فهو معارض معروف بقلبه مرض ككل المعارضين.

يعرض عنّي الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهمّ. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فاغتنم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف وملفّي بخصوص سبّ السلطات العليا زاخر فلا تضيرني قضيّة إضافية.

– أي إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمّه قتلت والده و تنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! كيف لا يجنّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للآدميين! امشي يلعن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثّلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفّ عنّا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنّك تشوّش علينا. نحذّرك من التمادي في هذا التدخّل السافر في شؤوننا.

يا لخيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنّهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هبّ لنصرتهما، لكن جحود الآدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرّمون اللّئيم ويتمرّدون على كلّ كريم مذ وجدوا. أجيل البصر حولي أقيّم مدى تأييد القاعة لي وتفهّمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عنّي إذا نشبت معركة عامّة بين النظّارة والممثلين. أفاجأ بهدوء جيراني ذلك لأنّ أطوار المشادّة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التموقع لجرّوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين ذلك المكان الذي يذهب إليه الآدميّون عندما يخلطون بين الفضاءات المكونة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثّلون تحت وابل التصفيق وراء الستار. يعبّر جاري بصخب كبير عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألتفت إليه باسما متأدّبا:

– أتتصوّر ! أخ يقتل أخ وينكح الولية امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة !.

في آخر المطاف ما السلطة عندما نتجاهل مظاهرها المبتذلة، أساليبها المسرحية، آلياتها من سلاح ومال وعلم، طرق الوصول إليها والحفاظ عليها، أو عندما نتوقّف عن البكاء على من ذاقوا مرارتها والضحك على من تمتعوا بحلاوتها لحظة.. نعم ،ما مكونها الأساسي، ما نواتها الصلبة، ما هدفها الأخير؟... طبعا إخضاع الذات للذات أخرى... على أقصى الطيف، الصراع بين الأم وطفلها . هو يريد تسخيرها لطلباته وهي تريده طيعا لها، والوسيلة كل اشكال الضغط والابتزاز. على الطرف النقيض، صراع الآدميين، تشكلوا داخل عصابات أو امبراطوريات، وكل واحد يريد فرض مصالحه ومبادئه على الآخر والوسيلة كل اشكال الحيلة والعنف...ورطة السلطة أنها ترتطم دوما بأن الذات لا تخضع وإن أخضعت فلأمد تستعيد فيها الذات الخاضعة قواها لإخضاع من أخضعها...من يعيد خلقنا بذات من طبيعة أخرى؟

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما يعمل ليلا نهارا لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب للمسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. ياللرجل المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يشعرني أنه لا ينوي فتح نقاش مع غريب مشبوه. من قال له أنني لا انوي مواصلته؟

– يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق لمعرفة الخاتمة. هل تظنّ أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه بالمناسبة من مؤلّف هذه القصة التعيسة ؟

– (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة ؟

– لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أي قاعة لقضاء السهرة. لمّا رأيت طول الطابور قلت لنفسي: لا بدّ انّه عرض جيّد، فلم لا أجرّب ؟

–(بإحباط من قدّر فجأة عمق الهوة بين المتحضرين امثاله والمتخلفين من وراء البحار امثالي) اسم المؤلّف وليام شكسبير «مون بون مسيو».

– وليام من ؟

– (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم) : شكسبير... شك...سبير. ألم تسمع عنه من قبل ؟

أحدّق في الفراغ مطوّلا.

– فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها «فينيسيا»؟ زرت هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتها، وبختي كما تعرف، غداة فيضان لا يصدّق. إنّها حقّا لمأساة أن يضطرّ رجل مسكين لقتل زوجته ثمّ تتركه اللعينة يتخبّط في مشاكل لا نهاية لها مع الشرطة والقضاء وإدارة السجن والجلاّد. هؤلاء الإيطاليين وقصصهم التي لا تنتهي عن «الفاندتا» والشرف الذي لا يحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم! هل تعلم أنّهم جيراننا نرى شواطئهم بالعين المجرّدة في بعض الأيام؟ أخذوا منّا هذه العادات التعيسة وانتقموا منّا بإغراقنا بالبيتزا... البيتزا بفواكه البحر، بالأجبان السبع، بالطماطم والبصل، بالزيتون، بالملوخية والهريسة...

– (باحتقار دون مساحيق) : شكسبير ليس إيطاليا «مون بون مسيو»

– صحيح ما أغباني، إنّه دانماركي بالطبع.

(بلهجة عطف على المتخلف المسكين) : ولا دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي «مون بون مسيو».

– ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام ؟

– جلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

– طمأنتني، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض. في أي شرفة تظنّ أنّه جالس ؟

ينفجر الرجل ضاحكا. لا شكّ أنه قرّر رواية الطرفة، أنه اختار من سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سيتكرّم بها عليّ.

– «مون بون مسيو»، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

– المسكين، كنت أظنّ أنه العرض الأوّل.

هذا الآدمي المحظوظ يعرف اسم المؤلف وجنسه وجنسيته بل يعرف أنه مات منذ مدّة لا يقدّرها بالضبط..ترى هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم رجل اسمه بايكون؟..هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتبها المؤلف، أيا كان، أسقطت من النصّ وأخرى تصرّف فيها

الناشرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟...هل يعلم أن قسّا اسمه دوليل أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو والمشاهدون ب "هابي أند»... أن مراجعة النصوص وتزييفها قاعدة لم تسلم منها حتى التي ترتّل في المعابد؟

*

الاستراحة. فرصة للتجوّل بين المتفرجين وهم يتدافعون نحو المشرب حيث ستنطلق الألسنة بعد أن فُرض عليها فرضا أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة. سيعوّضون الوقت الضائع يثرثرون بحماس متجدّد حول أحد موضوعين ليس لهما ما أهمّ.
الأول الشكوى من "عزّ مَضى، من حلولِ مصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عِدًى علت صيحاتهم، من كفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرُّع العلقم، من دنيا يأتيها المرء مرغما ويغادرها مكرها".
صحيح أن فيهم من يحتجّ أحيانا : «كم تشتكي وتقول إنك ....إلى آخر القصيد
كم نشتكي! يا للوقاحة، من أين لنا حقّ الشكوى ؟...ما الذي قدّمنا لحياة أعطتنا مجانا اللمس والشم والسمع والذوق والبصر؟ ما الذي قدّمنا لعالم أعطانا مجانا ليل الصحراء؟ ما الذي قدمنا لشعب أعطانا مجانا الحماية والزاد ورفاق الطريق؟ ما الذي قدّمنا لكل من أعطونا قصائدهم ؟ رباه اغفر لي نكران الجميل وتقبّل مني أحسن أفعالي على شدّة تواضع ما قدّمت.
ماذا تقول؟ أنك ضبطتني بالشكوى ألف مرة باليوم. يا «عدوّا علت صيحاته» .

كلّنا نشكو من عالم نحن مقتنعون أنه مش ماشي «والحال أنه «ماشي» ...أو بالأحرى أنه «مش ماشي» لأنه «ماشي»...وحده الذي لا يمشي لا يتعثّر ولا يسقط..ومن ثم فالحكيم من لا يتوتّر تجاه كثرة مشاكل العالم ،همه الأوحد ألا يزيد عليها وإن أمكن أن يعاون المسكين في حلّ ما أمكن منها.

موضوعهم المفضل الثاني وسأعود له بالتفصيل: شجارهم الذي لا ينتهي مع هذا أو ذاك.
تثير لديّ فكرةُ أنهم سيواصلون لآلاف السنين المقبلة نفس الخصومات التافهة وبنفس العقليات والأساليب، موجةً من الإحباط.

تبعات هائلة لهذه الملاحظة الثاقبة يكشفها النص ببالغ الأسف: فشل مشروع الجنة. فبمرور الزمن، لا شك أن من دخلوها على وجه الخطأ أو حتى بجدارة، عادوا للشكوى من الخدمات ، من بعضهم البعض ، خاصة إلى الشجار وحتى للتحرش بالملائكة ومحاولة عضّها. هل اضطرّ الإله لإغلاق المكان بطلب ملحّ من هذه الأخيرة ؟ هل هدّدت الشياطين بالإضراب العام حين لوّح بفكرة إيداعنا بجهنم؟ قد يكون كل هذا وقع ومن ثمة طردنا لهذا المنفى الذي نسميه العالم.
يرنّ الجرس منذرا بنهاية الاستراحة. يجب العودة لمكاني و مواصلة افتعال الاهتمام بمشاكل هملت وأب هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أب شكسبير.

*

تركض أوفيليا في أروقة القصر تتمتم مرة لنفسها ومرة تولول أصابها مسّ من الجنون.

– «حملوه على النعش عاري الوجه.، هاي نون نونّي نونّي هاي نونّي، وعلى قبره تهاطل المطر دموعا» ! ! !

يتوجه شقيقها لارتس إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقد الألم الآدمي صوابه.

– هل ترى هذا يا ربّ!؟

مسكين لارتس! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهمه منا استنكار أو استبشار مدح أو قدح.

يا ناس، دلوني على آدمي واحد لم تحكم عليه الأقدار بالتخبّط في المشاكل... دلوني على آدمي واحد لا يقضي العمر في حلّها وفي خلقها... دلوني على آدمي واحد لا يعاني من آلامها ولا يفرض معاناتها على الآخرين.

مسكينة أوفيليا !من أين لها تبيّن القوى التي هي الآن ضحيتها وجذورها عميقة في تاريخ مغرق في القدم، في غرائز التسلط المطمورة في أعمق أعماقنا ، في سلسلة من أفعال مجهولة لا ناقة لنا فيها ولا جمل ومع هذا نتحمّل كل تبعاتها ؟

والآن ماذا أفعل ؟ أعود لمضايقة الرجل؟ من الأحسن مواصلة تجميع أفكاري أبهره بها في الفاصل.

عما تتحدث هذه التمثيلية التي طبقت شهرتها الآفاق ؟

عن لعنة ألبريش عندما سرق منه الربّ وطان الخاتم السحري أداة مطلق السلطة : **لينخر الحسد روح طالبها...لينخر الهمّ روح صاحبها.**

كيف لا ينخر الحسد روح الطامح للسلطة وهي في تصوّره المفتاح الذي يفتح كلّ أبواب الجنة وغيره من يحمله في جيبه ؟ كيف لا ينخر الهمّ مالكها وهي في ممارسته الباب التي فتح عليه كل نيران جهنّم ؟

ثمة قراءة أخرى للمسرحية قد تكون أقل سطحية.

هي تذكير بأنّ الملوك والأمراء يتعذبون في الطابق الأعلى كالعبيد والسوقة في الدهاليز.

تقدّم الرؤيا هنا نموذجا طوبوغرافيا لآلامنا. تخيّل أننا نسكن عالما له شكل عمارة: الذين سحبت لهم طاولة القمار الرقم الخاسر في الطوابق التحتية (قريبا من مصبّ الزبالة)... الذين سحبوا رقما رابحا في الطوابق المتوسطة... الذين نجحوا حتى في غش طاولة القمار في أعلى الطوابق.

القاعدة: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تستبطن باكرا من قبل الجميع أنّ حدة الآلام تخف مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس المثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بذلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحليّ والحلل في العليا... وهيكل الآلام غُطي بالأسمال

أو بالمجوهرات واحد. ما أسخف صراع أخذ جلّ وقت رحلتي، والرهان التمتّع بالعذاب في أعلى طوابق البناية.

تعطينا التمثيلية أيضا كل المواد الضرورية لتنظيم أفقي يعتبر الآن أسباب آلامنا هذه.

ثمة آلام الملك القتيل. ظنّ نفسه بمأمن من قانون أن كل الغنائم مكسب نضعه على قائمة ما سنخسر يوما .

ثمة آلام طريقة فقد ما نتوهّم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: «في نومي وبيد شقيق»! المسكين ! ما زال مقتنعا أنه لو قتل بطلا لهان الموت أما أن يسلب الحياة خيانة وبيد شقيق فلا ثم لا .

كأنّ خزي الوسيلة أخزى موتا يبقى أهمّ فعل في حياتنا بعد نزولنا هذا العالم الرهيب.

ثمة آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفقده يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول لغاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان ؟

حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عبرّت آدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة : كلّ ما أحبّ حرام دينا أو محظور قانونا أو يزيد في الوزن.

تقول: ماذا عن آلام هاملت وأوفيليا وكل الأطفال؟ أليسوا أبرياء؟ ربما .بالتأكيد ...لفترة.

تذكّر دوما أن هذا عالم أخبث ما فيه من يدّعون البراءة والطهر.

كفى من هذا الأنين المقرف. حتى آلامنا إن زادت عن حدّ أصبحت مثيرة للغثيان. والآن وقد تعاطفنا مع أنفسنا بما فيه الكفاية ما رأيك في تغيير جذري، ذلك الذي رفضه مخرج جبان وممثلون بلا إرادة؟ دعني أتصرف.

نعم كيف كنت أتصرف لو كنت المخرج ؟

طبعا بمنع حفظ الأدوار والأمر بارتجالها على عين المكان... بترك كل ممثل يخترع تطورا جديدا للقصة وعلى كل واحد أن يجد مكانه في نص أصبح له أكثر من كاتب. تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. أليست قصصنا فوضى تسعى عبثا لإضفاء الحد الأدنى من النظام على أحداثها فلا تنجح أبدا؟ لماذا لا تكون الكتابة عنها فوضى مزيدة ومنقحة ؟

إذن يمسح أبو هاملت العرق المتصبّب من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخّرته على عرشه وبصدره وبطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا. يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزر على الجيران.

– آه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقينني في النوم وفي اليقظة، آه وآه وآهات!

يتوجه إليه روزنكراتز أو ڤيلدنستارن:

– يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكا.

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا... أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبر الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.

تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

– أفق، تنفّس مليّا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن للملك!

يحدُّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

– أين... أين قابيل؟

– نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة و إلاّ غادر في منتهى القلق.

يتنفّس الملك الصعداء مصليا للعذراء أن تزيد المعركة الربع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجه ربّه.

آن الأوان لأرسم كلمة «خاتمة» على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تخفي ضحكة الصبايا المغرمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة، والآدمي متعلق أغلب الوقت بآلامه تعلق القمل بشعر المتشرد.

عليّ من جديد التدخّل بحزم.

ها هو أبو هاملت يتخبّط داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتنذر وتنبه؟ من يضمن له أنّ قابيل لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرّض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأنّها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يسقط في يدي والقصّة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه.

يا لـه مـن غبيّ. بيّنا لـه بكلّ الوسـائل أنّ امرأتـه تحبّـه. أبعدنـا شـقيقه إلى الحـرب حيث سنهلك المسـكين الـذي لم يفكّـر في الانقـلاب إلاّ عشـر مـرات فقـط وهـذا أمـر عـادي جـدا. ومـع هـذا يصرّ هـذا الحمـار علـى بلـورة المأسـاة. هـل يوجـد كائـن غـير الآدمـي لينتـج السـموم الـتي تهلكـه ؟

أهمـس في أذن الرجـل الجالـس بجنـبي الغـارق في متعـة الطفـل وأمّـه تعيـد عليـه الحكايـة الـتي يحبّ .

– يرضيـك هـذا؟ يرضيـك مـا فعلـه هـذا الغـبي بنفسـه وبعائلتـه؟ ألا تـرى يـا «مسـيو» أننـا نصنـع القنابـل الموقوتـة الـتي نحملهـا داخلنـا ، أنّنـا نمسـرحها في فضـاء الخيـال ، ثـمّ بعدهـا نرحّلهـا لفضـاء الواقـع ، لأنّ فينـا رغبـة متواصلـة للتمثيـل علـى أنفسـنا وعلـى الآخريـن... ربمـا لمـا نجـد في التمثيـل مـن إثـارة هـي كل مـا نبحـث عنـه. للّه درّكـم أيّهـا الآدميّـون!

– شت ، " سيلانس مون بون مسيو "، سيلانس!

–ألا يثـيرك يـا مسـيو نفـاق الآدميـين وأن وراء شـكواهم الدائمـة إرادة متواصلـة لخلـق مـا يدّعـون الهـروب منه ،أنهـم لا ينتهـون مـن مشـكلة إلا وتدبـروا أمرهـم لإيجـاد أخـرى ، ناهيـك عـن سـوء نيتّهـم في حـلّ الـتي يتخبّطـون فيهـا.

– أرجوك ، أرجوك يا مسيو !

لمـاذا يرفـض هـذا الآدمـي أن ينتبـه لأخطـر نظرياتـي عـن الآدميـين؟ كل هـذه المشـاكل الـتي يفتعلونهـا لمجـرّد تتدفّـق هرمونـات الاثـارة في الـدم لا غـير. أليـس الآدمـي أفيـون الآدمـي وايضـا المنبّـه والمنشـط .؟

تعـال يـا ولـد يـا هاملـت . لا مانـع عنـدي أن تتمتـع بكآبتـك وأن يسـير يومـا بذكرهـا الركبـان ، لكـن كل هـذا النفـاق حولهـا!...ألم تتفـق مـع عمـك علـى قتـل أبيـك ، ؟ عيـب يـا ولـد عيـب. يمكـن أن أغفـر لـك قتـل الأب فـكل أب يسـتأهل القتـل علـى الأقـل مـرة أو مرتـين ، أمّـا أن ترمـي بأمّـك في فـراش عمـك فهـذه مبالغـة في الانتقـام مـن العجـوز البغيـض. ! . وأنت الشـبح! ألم تتفاهـم مـع الملكـة لتـترك هاملـت وعمـه ينفـذان المؤامـرة لعلمـك أنـك في بدايـة مـرض «ألزهايمـر» وكنـت تفضـل الرحيـل بهـذه الكيفيـة الرومانطيقيـة علـى المـوت عائمـا في بولـك وبـرازك! حـرام عليـك مـا فعلتـه بالمسـكينين. وأنـت يـا وليـة! كل هـذا بسـبب مللـك مـن الخياطـة والتطريـز ورغبتـك في تجربـة منعشـة ولـو كانـت لاذع الألم ، خاصـة إذا كانـت لاذع الألم. هـل اعتقـدتم أيهـا الأغبيـاء أنـني لم أفهـم تحالفكـم ضـدي في الفصـل الأوّل.

نقطـة الضعـف الوحيـدة في نظريـتي هـذه تلبيـس الآدميـين خبثـا مفرطـا وذكاء مكيافيليـا قـد لا يكونـان مـن طبائعهـم ومـا يحـرّك أغلبهـم غبـاء بهيمـي. أنظـر إليهـم في بحثهـم عـن الحـب والجنـس والاعـتراف والمكانـة أو الثـروة والسـلطة. جـلّ اسـتراتجياتهم بدائيـة ، قليلـة الفعاليـة ، غـير محكمـة ، غـير محسـوبة النتائـج ، فاشـلة ،كأنّ لا دور لهـا غـير قيادتهـم بخطـى ثابتـة باتجـاه الكـوارث الـتي يضجّـون بالشـكوى منهـا. ولأنّ التجربـة لا تـورّث كلـون الجلـد ، فإنـك

ستراهم يكرّرون من جيل لجيل نفس التخبط. حقا كم هم مقرفون!

كيف البقاء مستيقظا ؟ طبعا بمواصلة تفحّص إمكانيات لم يتجاسر عليها المخرج الجبان.

تدخل هاملتة تتثنّى لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيعها صغيرة وحمّلها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصّة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنون مرهق ومكلف لصناديق الضمان الاجتماعي. تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملتّة وهي تتابع فعل السم في جسد الأمّ والعمّ. يموت القاتلان فتتزوّج هاملتة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا. ثمة إمكانية أخرى إذا أصررت على أن هاملت رجل وأوفيليا غير مثلية جنسيا.

تندلع مشادّة بينهما فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري:

– ماذا ؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلي جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون أنّني بطلة آخر زمان، لم يجدني الدهر أهلا لضرباته؟

– ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

– أقول لن أرضى بأقلّ من القتل وتحدّثني عن خصومة وبسيطة من فوق!

– طيّب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضّل التخلّص من حماتي.

– تريد قتل أمّي يا مجرم. وتدّعي أنّك تحبّني !

– يا ستّي لنقل خالتك، هل يكفيك هذا ؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردّد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة. تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستتبجّح عليها بعمق آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

– طيّب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكلا مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء.

نعم، يخدعونك دوما بآلامهم المبرحة ودموعهم المثيرة للدموع والحال أنهم أغلب الوقت مجرد ممثلين على أنفسهم وعلينا.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحقّ في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل وهي أعمق تجاربنا؟

قواعد :

ليس كل شيء قابل للهزل. كل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر.

السخرية أسرع تقنيات الفكر وأعمق وسائله للفرز بين الغث والسمين لذلك عليك تحمّلها وتعهّدها.

من طبيعة كل خلل- في شيء، أو كائن، أو فكرة، أو علاقة ، أن يستفزّ في الفكر هذه الطاقة المحرّرة لكل الطاقات، كل ما هو قابل للسخرية مسخور منه أيا كانت هالة القداسة التي يحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من المنتفعين بالخلل انتفاع الجراثيم بالعفن.
قابلية الفكرة، أو الشيء، أو الكائن، أو العلاقة، للسخرية منها أو منه، أصدق دليل على وجود الخلل.
الحكيم من يضحك خاصة من نفسه والشرير أو الغبيّ من لا يضحك إلا من الآخرين.
ماذا تزمج أيضا ؟ أنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهّل يا هذا في شكّك المزمن في نواياي المبيّتة. لست ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه. نعم، هناك آلام حقيقية ولا أفظع منها تجارب وعلينا احترامها شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّل بها على عالم لا يطيق أي نوع من أنواع الدلال.

*

رفع صوت تثاؤبي عاليا وإظهار كل علامات التبرّم للمزيد من إزعاج الناس وخاصة جاري.
أوف! أخيرا مات هاملت ومات معه القاتلان وكم من ممثّل آخر لا أعدهم لطول قائمة الأموات. يتقدّم المثلون صفّا واحدا يمسكون بأيدي بعضهم البعض ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا. يصفّقون بحماس لمسرحية تعرض مدى فشل الآدميين! فهذا فشل في الحفاظ على ملكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوّة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحبّ، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على الحياة. لا يبقى عليّ إلا أن أصرخ فيهم جميعا مثل بيكيت: افشلوا أكثر فأكثر، ربما لم نأت كلنا إلا لهذا... لتحقيق أنجح فشل ممكن.
كل هذه النجوم التي تولد وتموت...كل هذه البراكين التي تغلي وتنفجر... كل هذه الجبال التي ترتفع وتتهاوى... كل هذه المحيطات التي تفرغ وتمتلئ...كل هذه الصحاري التي تخضرّ وتصفرّ...كل هذه الأجناس التي تنشأ وتنقرض...كل هذه الأجيال التي تأتي وتذهب...كلّ هذه الأمم الغازية التي تنتصر وتنهزم... كل هذه الحضارات التي تشعّ وتنطفئ ...كل هذا الزمان الذي بالكاد ينتبه لبروزنا واختفائنا...ومسرحياتنا داخل الديكور الفخم !
....كل هذه الطموحات البالغة الصغر..كل هذه الشهوات البالغة التفاهة..كل هذه الرؤى البالغة الغرور..كل هذه المعتقدات البالغة السذاجة... كل هذه الخصومات البالغة العبث... كل هذه المشاكل السهلة الحلّ... تعسا لقصص الآدميين..لا يغفر لنا وجودنا إلا اللحظات التي نضحك فيها من انفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة وأننا كائنات هزلية قبل أن نكون كائنات مأساوية ... ثلاث ساعات ثمينة من عمري كان بوسعي استثمارها بكيفية أذكى...
قراري النهائي: لن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهّد المثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت

شفة....نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم، والثمن الذي يدفعون للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت... حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا بقي المغنّون وراء الستار واكتفى الجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها.

يستغرق الجار هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلا لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدّر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلّف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصفّق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا *المتخلّف من وراء البحار* آدمي هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره ومن ثم مغالبته لزهوه بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة "د" وصحرائها في الاتجاهات الأربعة (بلقاسم الخضّار لا يحسب له حساب شاء أم أبى هو وعشيرته)

يشتدّ دويّ التصفيق فتعبرني فكرة مزعجة أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من ركاكات الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسولون مزيدا من التصفيق. أخيرا يختفون عن الأنظار ويكفّ أنكر الأصوات.

تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟ رغباتك أوامر, تعال اتبعني. العادي والمبتذل في كل الكواليس... الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام... الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبللّة بالعرق والجوارب النتنة والسجائر الرخيصة...عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير. هاملت! المسكين مشغول بشبح بالطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمه الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فمشكلته حبّه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض «السيدا» الذي شخّص عنده مؤخرا على ما يقال .

نفس الروائح والبذاءات والهموم الصغيرة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات. أي عالم كنّا نجرّب لو كان الذي وراء الستار هو المعروض وما نمثل على الركح هو الذي يتوارى وراء الستار؟

في آخر المطاف ، ما هذا المكان المغلق الذي نستعرض فيه مهازلنا ومآسينا ؟...المجهر الذي يمكّننا من النظر في الذات الأخرى نكتشف فيها المستنقع و الجدول والشلال الذي فينا... المختبر الذي يسمح بتجربة الشطط في استعراض الأحاسيس والمشاعر ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نعرّض ولا نتعرّض لخطر...المكان الوحيد الذي نستطيع فيه وضع اسم وصورة على كاتب السيناريو وتوهّم معرفة مقاصده..أخيرا العالم تحت السيطرة .

يتلقّفني الشارع البارد والذهن مشغول بتصوّر المثلين في غرفة التجميل وهم يستبدلون قناعا بقناع ودورا بدور...دورهم داخل القاعات المغلقة بدورهم أو بالأدوار التي يلعبون في الهواء الطلق.

* * * * *

أدوارهم المفضّلة

أنظر إلى الآدميين وستكتشف أنهم لا يعبرون العالم إلا وهم يمثلون أدوارا من سجلّ حافل قديم قلّ أن ترى فيه كثير تجديد.

ترى البعض ممن سيتذكرهم فنّ التمثيل يصرخ ويهذي ويده ممدودة إلى الأمام، تحيط به الأعمدة الضخمة والأعلام الرفرافة يستعرض جحافل حاملي مشاعل تحيل ظلام الليل نهارا يضربون الأرض بأحذيتهم الغليظة في نسق جميل مرعب. ترى آخر يتقدّم جيوشه على صهوة الجواد أو الدبابة يصرخ: النصر أو الموت. ترى ممثلا عجوزا على مصطبة الكاتدرائية العظمى في أروع الحلل يغنّي ويحرّك جرسا صغيرا والآخرون، وقوفا وجلوسا، يرتلون، ويقومون بحركات منضبطة جميلة لا يهمّ سذاجة العقدة ولا تكرار نفس المشهد بلا تغيير منذ قرون.

أدوار كثيرة يشغف بها الآدمي .كم بالضبط ؟

لو استطعنا حصرها لحصلنا على أهمّ مدوّنة أفعال وتفاعلات الآدميين مع العالم ، مع ذاتهم ومع الذوات الأخرى. لن ننجح مثل هذا الجرد لكننا سنحاول.

تتصاعد من جانب قصيّ من المسرح الياباني الصغير أصوات الناي والكمان والطبلة.

يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهب عايش القصة الحقيقية بل ويعرف كل التفاصيل. يتوجّه لمشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.

– سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته.

– ما الذي أتى بك أيها الغريب ؟

يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

– يا ربّ البيت، أنا مسافر قادم من بداية الزمان والطريق أمامي طويل.

مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور للآخر، من الشخصية الأولى للثانية.

– وما الذي حملك على تكلّف هذه المشقة ؟

– قدر كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه وإلاّ توقّف به الطريق.

– ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا ؟

– لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.

– كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ ؟

– الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

– لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحق وإلاّ أزهقت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجها للنظارة المنبهرين :

هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي : أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهت إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعت عن علمك وحكمتك وأنّك تعرف الأسرار في العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعت أن أسمع منك الرواية... الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لآدميّ يحمل سرّا بي حاجة ماسّة لمعرفته. إنّه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجنّ ابن أخيه وجنّت خطيبته. يقال أن القاتل انتهى به الأمر هو الآخر للجنون. كثيرون من يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدّعي أنه تنسّك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول أنه ما زال يدور في أدغالها باحثا عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي. إنّني أجري وراء الرجل منذ زمن علّني أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلاّد، ربّما لجرائمه ظروف تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلت وبصدري حرقة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا .

– توقفت عن الكلام أنتظر ردّ الفعل .كأني أعملت المفتاح الذي يجب في القفل. أجابني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.

– اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

– هل وجدته ؟

– نعم

– أين هو ؟! كيف هو ؟!

– تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيت الضمير وكيف استحالت حياته جحيما وكل الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة . كل القصة بكل بالتفاصيل... بأدقّها.

هنا يتبادر الشكّ لكل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان...؟

نعـم، لا يمكـن أن يكـون إلا... لا تكـن سمجـا... طبعـا إنـه هـو.
يشتدّ القرع على الطبل والنفخ على الناي.

فجـأة يقفـز علـى خشبـة المسـرح رجـل مـن الدهمـاء. يتوجّـه إلينـا صارخـا لاعنـا، متشـمتا، هازئـا ومحتقـرا: لا تصدّقـوا حرفـا واحـدا ممـا يقـول هـذا الرجـل. القصّـة سخيفـة مـن الأسـاس وكاذبـة مـن أوّل حـرف إلى آخـر نقطـة. كل هـذا تمثيـل بـل ومـن الصنـف الـرديء!

كأنه يصرخ فينا: أفيقوا، لكن إلى ماذا ونحن لا نفيق من حلم إلا لندخل حلما آخر.

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرّج.

مهـلا أنـت الممثـل. مـا زلنـا بحاجـة لخدماتـك. أثـرت اهتمامنـا بفكـرة لبـس قنـاع الـدور علـى الركـح ثـم خلعـه لتقمـص دور آخـر. تفضّـل والبـس أقنعـة أهـمّ الأدوار الـتي يعشـقها الآدمـي والـتي تـتردّد مـن جيـل لجيـل بثبـات ملفـت للانتبـاه. أمّـا أنـت المكلـف بالصـراخ لا "تصدقـوا شـيئا"، الـزم مكانـك سنسـتدعيك كلّمـا عـاد التبلّـد.

*

أول قناع سنجعل الراهب يضعه قناع روبنسون كريزوي.

كيـف سيواجـه الغريـق الـذي لفظـه المحيـط وضعـه ؟ طبعـا بالبحـث عـن شبيـه قـد يعينـه علـى الورطـة الـتي وجـد نفسـه فجـأة يتخبّـط فيهـا.

يخلع الراهب قناع روبنسون ليلبس قناع سيجموند.

أخـيرا بعـد طـول التشـرّد في الغـاب الموحـش الخطـر كـوخ قـد يجـد فيـه ملجـأ يقـه مـن الذيـن يركضـون وراءه . تفتـح لـه سـيجليند البـاب. يـتردّد لحظـة في الدخـول كأنـه شـعر بالذنـب: الشـقاء يلاحقنـي، أخشـى علـى هـذا البيـت مـن دخولـه معـي . تتنهّـد الأخـت الـتي لا يعـرف والحبيبـة الـتي سـتحمل قريبـا طفلـه في أحشـائها : لا عليـك، دخلـه قبلـك ومنـذ زمـن طويـل. عـالم لا مأمـن فيـه مـن الشـقاء كنـت خـارج البيـت أو داخلـه! يجـب الفـرار منـه حـالا وعلـى وجـه السـرعة.
يخلع الراهب قناع سيجموند ليلبس قناع فراشة.
الفـرار ، لكـن إلى أيـن ؟ فالجزيـرة جـزء مـن أرخبيـل تجـاور فيـه كل جزيـرة شيطـان جزيـرة شـيطان أخـرى والنفـي هـو النفـي والأشـغال الشـاقة المؤبّـدة هـي الأشـغال الشـاقة المؤبّـدة. وعلـى كل حـال أيـن منفـذ للآدمـي وهـو مـن البدايـة إلى النهايـة السـجين والسـجّان والسـجن ؟
من الأفضل الثبات والمواجهة. يخلع الراهب قناع فراشة ليلبس قناع سيكفريد.

الآدمـي الآن بطـل لا يرهـب لا القـزم ميـم ولا فافنـر التنـين ولا حتـى الـربّ ووطـان. هـو أتـى العـالم لينتصـر علـى كل المحـن والامتحانـات ومنهـا تحريـر برونهيلـد السـجينة وراء ألسـنة النـار. المسـكين! مـن الأحسـن ألا نـروي لـه بقيـة القصـة وأنـه بعـد تحريرهـا مـن نومهـا السـحري سيخونهـا وسـتخونه وسـتنتهي الأمـور بمجـزرة وبمحرقـة تقضـي عليـه وعليهـا وعلـى الآلهـة نفسـها.

بداهة هذا عالم مبتدئ وعلى الآدمي اتمام الشغل الذي أخفق في إكماله. لكن ماذا أخفق بالضبط ؟ طبعا صنع الآدميين. ربما أخرجهم من فرن الخلق قبل أن ينضجوا. لا خيار للآدمي غير إتمام الإنضاج ا ليعرف الآدمي ما الحق والخير والعدل ويلتزم بهم .

يخلع الراهب قناع سيجفريد ليلبس قناع موسى . الوصايا العشر لإتمام العملية.

يثب الممثل المكلّف بالصراخ لا «تصدقوا»، فنطرده بغلظة قبل أن يكمل جملته بخصوص الوصية الحادية عشر التي حذفتها الرقابة.

على كل حال نحن لسنا بحاجة لتنغيصه وكلنا نعلم أن الذين لم تكن لهم أدنى حاجة للوصايا واصلوا تلقائيا عدم القتل والسرقة والتعدي على نسوان الاخوة والجيران . أما الذين كانوا بحاجة إليها فقد ضربوا بها عرض الحائط وسيواصلون أبد الدهر أفعالهم التي لا يُغفر لها وجودها إلا توفير كم من موطن شغل في الشرطة والقضاء والمحاماة ومعاهد القانون. تصوروا ،ماذا كنّا سنفعل ومستوى البطالة عند حاملي الشهادات العليا على هو عليه.

خلاص، يئسنا من اصلاح الآدمي المكلّف بإصلاح العالم .ماذا لو جرّبنا العبّ من اللذات التي يوفّرها اللعين وأغلبها تمرّ بكائناته الألعن ؟

يخلع الراهب قناع موسى ليلبس قناع ينج-لو ويتمتع بمطلق السلطة والشهرة والحرية والجنس وحتى ليعبد كما لو كان حقا الها. عبثا، فحتى في هذا الدور ، تتناهش الآدمي الظنون، تؤرقه الشكوك، تعيث الأمراض في جسده فسادا. لمزيد السخرية منه تضرب الصاعقة قصره الذي أراد أن يبهر به سفراء المنافسين فتحيله رمادا . نهاية محزنة لجلالة الامبراطور ابن السماء لا تختلف كثيرا عن نهاية رعاياه الذي ألف ألا يراهم إلا بين ركوع وسجود.

ما الحلّ ؟ الانتقام .

يخلع الراهب قناع ينج- لو ليلبس قناع الكونت مونت كريستو.

لنتمتّع بشماتتنا أمام صراخ الذي منه كل نقمة وهو لا يعلم من أين تأتيه الضربات القاتلة. ثم لنوسّع الانتقام ليشمل عالمه ونحن نرميه بالقبح والتلوّث والاحتباس الحراري. تقول احذر قد تنتقم منا السلطات العليا . يا صاحبي لا تكن غبيا فقد بادرناها بانتقام يفشل انتقامها ونحن نخترع الكفر والإلحاد الشيء الذي ألغينا به وجودها فمن أين لمن لا نؤمن بوجوده أن يؤثّر فينا ؟.

تصرخ فيّ أنني لم انتبه أن الآدمي لم ينتقم إلا من نفسه تاركا العدوّ الحقيقي يضحك منه من وراء الستار.

معك حقّ. من هذا العدوّ ؟ ابليس طبعا..

يخلع الراهب قناع مونت كريستو ليلبس قناع سوبرمان.

يتّضح أن حتى هذا البطل غير قادر على فعل الكثير والأشرار من ذرية ابليس كالنباتات الضارة، ما أن تستأصلها إلا وتعود أقوى من أي وقت مضى .ثم إلى متى سيبقى سوبرمان يصارع الشريرين وعمره محدود وعمرهم غير محدود ؟

آه الموت ؟ أليس هو الآخر أكبر أعداء الآدميين حتى وإن كان في نظر أمثالي صديقهم الوحيد ؟

يخلع الراهب قناع سوبرمان ليلبس قناع شرلوك هولمز.

في نصوص كونان دويل هو ذلك الرجل الذي لا أشطر منه في الكشف عن قاتل اللورد أو ابنته أو كلبه . في هذا النصّ هو الذي قرّر أن يترك لهركيل بوارو وصغار المفتشين البلجيكيين والفرنسيين مهمة إيقاف قاتل سوبرمان وبصفة عامة العمل بالتفصيل على صغار القتلة .ما يهمّه تتبع القاتل الكبير الذي يزهق أرواح كلللللّ الآدميين بكلللل الوسائل لا يفلت منهم واحدا. ينطلق المفتّش الهمام في شوارع لندن يرصد المارة بأم عينيه دون إغفال استعمال كاميرات المدينة المبثوثة حتى في المراحيض. ها هو على يجد أولى القرائن ، لكن لا بدّ من التثبّت . ها هو ساكن المكتبات ودهاليز سكوتلند يارد ينقب طيلة أيام وليالي في الملفات المغلقة منذ قرون. ذات صباح يدخل وهو في قمّة الهيجان على واطسون صارخا في وجه الطبيب الغارق في قراءة تفاصيل آخر جريمة: حدّدت هوية المجرم ... آه ومن هو؟ ...اسمه عزرائيل؟ عجيب، أليس كذلك !. ثم يعود لجريدته وقهوته غير عابئ بالشرلوك ينقض على درج المكتب يخرج منه الكلبشة ثم ينطلق مسرعا لإلقاء القبض على الجاني . بقية القصة؟ من يومها لم يرى أحد الشرلوك وبعد عقد من الزمن قرّر واطسون مغادرة بايكر ستريت للبحث عن شقة وزوجة أخرى.

آخر محاولة لإنقاذ الآدمي المسكين من ابليس ومن عزرائيل. نبعث له ابن الربّ لا غير ليخرجه من الورطة التي أفاق فيها وأمواج العتمة ترميه عاريا ، بائسا على شواطئ جزيرة الشيطان.

يضع الراهب قناعه الجديد وفوقه إكليلا من الشوك. يروي الراهب ظروف وصول المنقذ وكيف هبّ لاستقباله الملوك والنجوم. بداية مبشّرة بكل الخير . لكن القصّة تنزلق مرّة أخرى في الاتجاه الذي نكره أشدّ الكره . منقذ آخر لم ينقذ شيئا، بل وعجز حتى عن إنقاذ نفسه.

يخلع الراهب قناع المسيح راميا بغضب اكليل الشوك ليلبس قناع الشاعر صارخا أنه لا أحد قادر على مقارعة الدهر ولا نصر عليه إلا أن تلقاه غير مكترث

نعم أحسن حلّ وقد استعصت كل الحلول الأخرى معاملة العالم بكل الممكن من عدم الاكتراث ...شريطة أن تُغسل الروح من كل حفيظة ضدّه ليكون عدم اكتراث صاف ومن درجة أولى مثل الزيوت الفاخرة التي لم يغش فيها البائع بمزجها بالماء.

أمر فوق طاقة الآدمي، على الأقلّ هذا الآدمي الذي يصمّ آذاننا بجعجعته الفارغة منذ قرون. إذا أردنا الاكتراث الصافي غير المغشوش فلا بدّ أن نبحث عنه في دور آخر.

يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الآدمي بتنظيف شامل يكنس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحقد. ها قد أصبح الآدمي في وضع يمكنه من مواجهة ضربات القدر لا يرفّ له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. الانتصار على الطمع والطمّاع والمطمّع بالجملة وبالضربة القاضية.

انتصار؟ أي انتصار ونحن نبتر جزءا من ذاتنا ؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتينا من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ اليس الوجود مبنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

اللعنة! لا المواجهة ، لا الفرار ، لا إشباع الشهوات ، لا التخلّص منها ، لا التنبؤ ، لا التأله ولا حتى عدم الاكتراث (المفتعل منه والناجح) حلّ لمشكلتنا. ما الذي يبقى ؟

الدور الأخير

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المغنّي سارج قانسبورغ . ها هو يهذي أمامنا بعد أن حرق ورقة نقد غالية الثمن يستعمل نارها لتوليع سيجارته : الرحلة عبث محض ، لندمّر حياتنا بالكحول والمخدّرات الخ .

إنه دور البطل التراجيدي العدمي المطلق...الآدمي الذي لم يعد ينفع فيه لا دين ولا سياسة ولا طبّ ولا شعر أو موسيقى .

يقفز على خشبة المسرح رجل من الدهماء صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا من هذا الكلام، أنا وحدي أقول لكم الحقيقة، لا مصلحة لي في الكذب، فهل تسمعوني أخيرا؟

نعطي لثقيل الظلّ الكلمة شريطة ألا يطيل. ماذا يزمجر؟ أن الآدمي الذي يختلق قصصا يتقدم فيها كالمظلوم الكبير والضحية البريئة لمؤامرات الآلهة والطبيعة والدهر هو أكبر نصّاب، أنه يمارس التعذيب والتصفية العرقية وإبادة الأشجار والحيوانات، أنه من اخترع جرائم الشرف، أنه من سجن ابنته ربع قرن في سرداب تحت البيت واغتصبها يوميا وولدت له سبعة أطفال عاشوا في الظلام إلى أن اكتشفهم البوليس وهم يكادون لا يتكلمون لغة آدمية، أنه يبيع البشر ويغتصب الأطفال ويمارس التجارب على الكائنات الحية لا يرفّ له جفن، أنه يأتي من المنكر ما يحمرّ له وجه إبليس، أنه- خلافا لما يدّعي- ليس ضحية عالم بشع وإنما هو البشع الذي راح ضحيته عالم بأسره.

لم يبق إلا أن نصرخ في راهب متزايد عصبية: وصلت الفكرة، داهمنا الوقت، فلنكتف بهذا القدر. قلنا : داهمنا الوقت.

هنا يرمي الراهب بقناعه ويتوجه مباشرة إلى الحانة ليقضّي الليل في شرب الساكي والشجار مع الحطام الآدمي اللاجئ فيها، الهارب من فظاعة القصص التي ينسجها وتنسجه.

يرفع العالم يديه مستسلما. لم يعد له ما يطلب من غبي مقتنع أنه لا حلّ لمشكلته ولم يخطر بباله ،على ما يدّعي من سعة العلم وعمق التفلسف، أن المشاكل التي تبدو بلا حلول ... ليست مشاكل أصلا.

* * * * *

المخرجون

أيا كان الدور الذي تختاره لنا الصدف أو نتوهّم اختياره، لا بدّ من التمرّن عليه ولا بدّ من ممرّن.

قد يكون ممرن الذات على أدوارها الذات نفسها. شاذة لا تعرف إلا عند فلتات الزمان وعظماء التاريخ يأتي بعدهم المردّدون والمزيفون لتقمّص نفس الدور . لكن القاعدة تعلم الأدوار على يدي قوة مبهمة نسميها المجتمع والمسرح وحده من يمكننا من تجسيد بعض الأشكال التي تتّخذ.

أغرق في المقعد الوثير... المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي ثريّ عن تدريب قل عن ترويض الممثلين وعن المسؤول عن العملية.

تخرج الفيرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من الظلمة المخرج يبادرها ببرودة متكلفة :

– ما هذه المشية؟ أذاهبة أنت إلى الحلاق ؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاء عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهدد بغضب الله وكلك أمل في إنقاذ روحه . شيء من الاعتناء!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجنّي من قمقمه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدّتان إلى الأمام كأنّها تتضرّع.

يصرخ فيها المخرج:

– ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية ؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين غدو ورواح من وراء الستار إلى دون جوان ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ماتت الجملة في فمها ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إمّا تهرول بكيفية مضحكة أو تتباطأ ببلادة حسّ لا تطاق.

– ليس هكذا! ليس هكذا ! أعيدي !

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهرولة والركض نحو دون جوان المغرق في الصمت.

– أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرّد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثّلة لجملتها غير واعية بما ينتظرها :

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببت يتعرّض لغضب اللّه. أتيت لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا بدأت مؤشّراته تتجمّع.

ينفجر المخرج في وجهها.

– ما هذا الإلقاء؟ يجب أن يطلع الصوت، أن ينزل، أن يكون كالماء متساقطا من السماء منحدرا من أعالي شلاّل، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. القاؤك يذكرني بماء بركة آسنة. أعيدي من البداية.

تبلع الممثلة ريقها :

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

– كفى. كفى. هذا ليس كلام تتوجه به عاشقة لمعشوق، والرهان إنقاذه من لعنة أبدية. هذا تفسير نصّ. كأني أسمع النقط التي تختم الجمل. يجب أن يكون للكلمات ألوان وروائح... أن تكون مطيّة الأحاسيس و المشاعر لا إشارة لها!

تبلع المرأة ريقها مجدّدا ثم تعود للجملة اللعينة.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده..و...

المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثّلة وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القطّ. أي غرابة في الأمر وأنت لا تتعرّض لاعتداء إلا وهو مرتبط بخطئك في تأدية مقطع من دور في سيناريو ضبطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

يعود المخرج لصراخه :

– ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن الفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصيّة. لكنّني غير مهتمّ البتّة بمشاكلك الشخصيّة! الفيرا وحدها التي تهمّني. ما هي مشاعر الفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّض لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنّها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تبكيت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبّ لغير اللّه. أين المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنّك تشعرين بها!

تبدأ الممثلة في الشكوى ملمّحة لصداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للآدمي غير مواصلة تعلّم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي

يقررهـا المخـرج وحـده. متكلّفـا نوبـة عصبيـة مدروسـة تدخـل ضمـن أدواره هـو.

– يا امرأة، قلت لك كم من مرّة ليس هكذا!

هـذا مـدرّب فـظّ يـكاد لا يرضيـه شـيء ، منهجيتـه أقصـى قـدر مـن الطلـب وأقـل قـدر مـن الرضـا. قاعـدة كل مـن سـيعلّمونك الأدوار.

يصـرخ «بـا» رافعـا عقيرتـه: اللعنـة؛ ليـس هكـذا! ينفجـر ضاحـكا: ليـس هكـذا! يستشـيط غضبـا: ليس هكـذا! يتنهّـد مطـوّلا، يمطّـط جملتـه بمـا معنـاه: أرهقتـني يـا ولـد، أصبتـني بالقـرف والغثيـان، ليس هكـذا! هكـذا سيلاحقك علـى طـول الطريـق المربـي والحبيـب والمنافـس والشـرطي والقاضـي والزبـون والتلميـذ والناخـب، كلهـم مـا عـداك يعرفـون كيـف يجـب أن تكـون الأمـور وكلهـم يصرخـون فيـك ليـس هكـذا.

حقـا ثمـة طـرق أخـرى لتلقـين الآدمـي أدواره. ترسـم «مـا» ربـع ابتسـامتها المحببـة علـى شـفتيها: هكـذا أحسـن، وأقـلّ خطـرا ومشـقّة عليـك.

أيـا كانـت الوسيلة، هـي تتعامـل مـع نفـس الصعوبـة. لا بـدّ مـن تعلّـم المطلـوب والانتبـاه لـذوق الجمهـور وإرادة المخـرج ومغالبـة خجـل المبتدئـين.

بمـاذا يمتلـئ فضـاء الرمـوز؟ بفلاسـفة وأنبيـاء ودعـاة . هـم ايضـا يصرخـون فيـك ليـس هكـذا التفكـير، ليـس هكـذا الشـعور، ليـس هكـذا كل مـا حاولـت لحـدّ الآن !

أقلّـب داخـل ذهـني صـورة لآدمـيّ مكتـف بذاتـه لا يتعلـم دورا في تمثيليـة ولا يحاول إخـراج دوره وأدوار الغـير وبغـير حاجـة إلى نظّـارة تتجـاوب معـه وتصفـق استحسـانا وإعجابـا ،فأكتشـف كل مـرّة اسـتحالة الأمـر.

كم من مرّة صرخت أنا أيضا ليس هكذا ...أحيانا مع أغرب الممثلين وأخطر التمثيليات.

يصـبّ البوليسـي المكلّـف بـدور البشـع مخزونـه مـن الشـتائم البذيئـة علـيّ: قـل لنـا كل شـيء. يحـدّق في زميلـه المكلّـف بـدور الطيـب بابتسـامة فيهـا تصنّـع التعاطـف. إنـه الـذي سـأبكي في أحضانـه مسـتجيرا بـه مـن قسـوة الآخـر ومعترفـا لـه بـكل شـيء. هـذان الغبيّـان لا يعرفـان أنـني لا أكـفّ عـن تقييـم الأدوار الـتي يلاعبـني إياهـا النـاس بحـس الناقـد المجـرّب أبحـث بـلا كلـل عـن الجديـد في ميـدان– للأسـف– فيـه القليـل مـن الابتـكار.

أرفع الصوت وإصبع الاتهام.

– مـا زلتـم تمارسـون تقاسـم الأدوار بـين الطيـب والشـرير؟ يـا للمسـتوى! هـذا كل مـا تفعلـون بضرائبنـا!

أتوجـه للمكلّـف بلعـب دور الشـرير أمطـره بوابـل مـن الأسـئلة عـن هويتـه وعمـن يعـرف مـن الجلاديـن ومـا هـي آخـر اتصالاتـه بهـم ومـن أعطـوه التعليمـات ومـا هـي رتبهـم داخـل الجهـاز ومـا هـي عناوينهـم وأرقـام هواتفهـم.

يبتسم المكلّف بدور الطيّب. مؤكّد أن طرافة الوضعية جدّدت فيه الانتباه .يفتح المكلّف بدور الشرّير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحه بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامحه الغوريلية. ينفجر في وجهي :

– أنا الذي ألقي الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأني أسمع لسان حاله يستعطفني : لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جلها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمّك العب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم لا بدّ من أن يلعب كل دوره وإلا فهي الفوضى. لكن من قال لهذا الممثّل الرديء أنني لست المكلّف بدور المحرّض عليها وهذه الفوضى التي يخشى ويكره أولى منطلقات كل تجديد .

مهما كنّا من أنصار الفوضى ومن المعجبين بها فإننا لا نقبل من ممثل أن يعتلي الركح ليقول أي شيء يخطر بباله. فالدور محدّد دوما بنص سُطّرت فيها التعليمات لكي يقول هذا الممثل كذا ويفعل كذا وحتى أن يشعر بهذه الكيفية أو تلك.

كم صعبة هي هذه الأدوار التي نجبر على تعلّمها باكرا...كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكّر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظّارة!

بداهة نحن لا نولد بطبيعة مكتملة الأوصاف وإنما بطبيعة أهمّ ما فيها أنها ما زالت قيد التجريب. أهذا هو الاختلاف الرئيسي مع آل نبات وبني حيوان حيث لا يعرف عنهم أنهم يُروّضون بمثل هذه القسوة لتعلّم كيف يكونون أشجارا أو حيوانات؟

بداهة ليس من السهل أن تكون آدميا.

بداهة الآدمية مهمّة ليست في متناول من هبّ ودبّ.

ربما كنا ننجح في هذه الأدوار اللعينة بأقل عناء لو قيّض لنا اختيارها، لكن في هذه الحالة، ألن يفيض المسرح بالملوك والقادة وجهابذة الفنّ والعلم، مع نقص حاد في عمال مناجم الملح والمناضلين القاعديين ؟.

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه...

يستشيط المخرج غضبا. يعود للصراخ العقيم:

– كفى. كم من مرة يجب أن أردّد لك أن ما يعنيني آلام ألفيرا لا آلامك أنت، أعيدي، أعيدي!

كم يتكلّف المسكين من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من المثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا...ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الموجود برمته ؟

تتلعثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

هي الآن بصدد الاعداد والاستعداد لنوبة هستيريا.

– كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للآدميين– وكل واحد يريد أن يكون مخرج أدوار من حوله– نموذجا أو مقياسا لـــ "كيف هو الهكذا"، وإنّما مقاييس تنافس مقاييس ومقاييس تشرّع لمقاييس هي الأخرى بحاجة لمن يشرّعها.

مما يعني أنه بوسع أي واحد منا أن يصرخ في المخرج : يا حيوان ليس هكذا الاخراج. للأسف هو الآن سيد الموقف وعلى ضحيته المسكينة الخيار بين الفرار أو الهجوم. ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل امرأة على وشك الاتيان بما لا يحمد عقباه.

يتوقف الرجل عن الصراخ ليلعب الآن دور المربي الهادئ العطوف.

– أحسن الممثّلين من يمثّل ناسيا أنّه يمثّل. لا أرى شيئا من هذا القبيل.

تهدأ المسكينة وتقرر العودة للجملة اللعينة بآخر محاولة.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي... لكم أحببتك لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت نوبة الطيبة. يجب العودة لدور البوليس الشرير.

– لا، لا، الرحمة ليس هكذا! النجدة ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا !!

همّ المخرج على ما أفهم اعتصار أقصى الألم والرقّة والحبّ والتهيب والرجاء من ذات مشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.

– كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهدّد بالعقاب الإلهي. يجب أن يضجّ كلامك بكل المكن من الإخلاص والفزع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكن إنقاذه لا لشيء إلاّ لأنّ نبرة ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتّخذ طريقه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهدّج صوت.

لا يزيد الوعي بالأمر المثلة إلا اضطرابا على اضطراب.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبّي اليوم...

– كفى. ألم الفيرا بلا حياء أو تكلّف، ألم م–ط–ل–ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

قال أحدهم: المخرجون من نوعين: من يظنون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة من الأمر. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقحامها في الدور الذي يريد وإجبارها على

تأديته بالطريقة التي ترضيه في نصّ يريد التحكّم فيه ونموذجه المخرج الأكبر. يتوقّف ربّ المكان عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه الفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمّص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنّه حيوان تحت سكّين الجزّار.

– جئتك اللّيلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي، لكم...

حصلت المعجزة...معجزة التمثيل. تبخّرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات الفيرا. تتدفّق الكلمات بلا نقط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلاّل ثم يتسارع في السواقي وهو خرير. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكن الآدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!

يخرج المخرج من التقمّص لاهثا ماسحا عرقه، ثم يتوجه بلطف للممثلة المنبهرة :

– دور الممثّل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاّوعي فيك، ليحلّ فيك الـــــــ...!

ليحلّ فيك من ... أو ماذا ؟

على فكرة ، ألا تعني اللغة بالكلمة شيئين جدّ مختلفين : التمثيل مفهوم المسرح و التمثيل مفهوم الدبلوماسية.. ثمة ممثّل مسرحية هاملت وممثّل صاحبة الجلالة في بلد صديق..

نحن نمثّل بالمعنيين للكلمة وعلينا مواصلة تمثيل أدوارنا بالمعنى المسرحي ناسين ككل ممثلين جيّدين أننا نمثّل. لكن إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، من أو ماذا نمثّل ؟ خاصة ما المهمّة التي أوكلت لنا عندما تسلّمنا أوراق الاعتماد. ؟

* * * * *

عقدة العقد

الديكور : طاولة عرجاء وكرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات ادوارد هُوبر...لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدّد شيئا أو أحدا.

في ركن منزوي من الركح كاتب هذه السطور بصدد التركيز على النظارة وخربشة بعض الملاحظات من حين لآخر على دفتره الصغير الذي لا يفارقه أبدا.

يزاح الستار عن مسرحية يقال أنها الأكثر عرضا في السجون.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملا أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة.

– طلب منّي السيد **Godot** إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد.

نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة.

– طلب منّي السيد **Godot** إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء... غدا بكلّ تأكيد.

ليلة، بعد ليلة بعد ليلة ولا أثر للمعنيّ بالأمر.

لا خيار غير مواصلة الانتظار والتشبث بالأمل في قدوم الموعود يوما ما. عبثا، فلا حياة لمن تنادي. نفس المعزوفة كل ليلة.

– طلب منّي السيد **Godot** إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء... غدا بكلّ تأكيد.

ليس من الغريب أن يتدافع النظارة لمثل هذه المسرحية وهي تعكس تجربتهم مع عالم لا يكفّ عن مطالبتهم بالصبر عليه قليلا حتى يعطيهم ما يريدون...كلهم ينتظرون منه شيئا أو أحدا ... ثمة من ينتظر الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو موسم التخفيضات، أو منحة الإنتاج السنوية، أو الموت، أو الحبّ، أو كشف الأسرار، أو انتصار الشعب المختار، أو الطبقة الصانعة للتاريخ... ثمة من ينتظر عطلة نهاية الأسبوع، أو البعث، أو كبر هذا الصغير ليحقّق أخيرا آماله، أو موت هذا الكبير لتتحققّ آمال الصغير هذا... ثمة من ينتظر الترقية للدرجة السابعة، أو الرحيل من بلده، أو أن ترجعه الأيام إليه...ثمة من ينتظر الحافلة، أو الجنّة، أو الزيادة في الأجور، أو ساعة الانتقام، أو رقم اليانصيب الرابح، أو السعادة، أو ارتفاع الأسهم، أو الحبيب، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو خطّ الهاتف،

أو الملك، أو القرض، أو الموت، أو «الساتوري»، أو ورجوع المسيح ، أو موت الزوجة، أو غزاة سيأتون من خارج النظام الشمسي...نعم كلهم ينتظرون... والقاعدة التي سنّها العالم: انتظروا ما استطعتم لن ألقمكم إلا حجرا.

يتأخر ليلة راعي الماعز الصغير. يتبادل المثلان جملة تردد نفسها كل ليلة بثبات مملّ.

– لم يأت، أليس كذلك ؟

من هذا الذي لم يأت ولماذا هو بمثل هذه الأهمية ؟ ما الذي ننتظر منه ؟ وصفة السعادة الأبدية ؟ الترياق الواقي من الموت ؟ الظرف المختوم بالشمع الأحمر وداخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

يواصل راعي الماعز الصغير في الليلة الموالية ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

رحالة يعتقدون أن وكالة الأسفار الربانية التي سفّرتهم لهذا العالم لا تردّ على صرخات الاستغاثة لانقطاع في شبكة الاتصالات..منهم متفائلون على ثقة أن بعثة الإنقاذ انطلقت تبحث عن التائهين....مسألة وقت فقط وبعدها يصل المنقذ..أغلبهم متشائمون على قناعة أن الوكالة أفلست وأغلقت أبوابها من زمان... تعسا للمتشائمين والمتفائلين على حدّ السواء.

يبلغ التوتر أقصاه على الركح. يصرخ المثل الأوّل لم يعد يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون :

– قلت لك أنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب :

– وأين كنّا البارحة حسب رأيك ؟

– لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

– (بلهجة التحدّي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن ؟

– ماذا فعلنا؟ لا نضيّع وقتنا في خطب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمّة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه للبشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللّحظة، البشريّة هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرّة واحدة الجنس الذي حشرنا فيه.

هذا الجنس الذي حشرنا فيه! هل يقدّر الرجل خطورة هذه المقولة ؟ الجنس الذي حشرنا فيه ! إذن الشكل الآدمي غلاف! من حشرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكلنا «الحقيقي» إذن؟

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة:

– طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء... غدا بكلّ تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

– لنبتعد عن هذا المكان.

– لا نستطيع.

– لماذا؟

– لأنّنا سنضطرّ للرجوع غدا.

– لنفعل ماذا؟

– لانتظار Godot.

– فلنذهب في حال سبيلنا.

– نعم فلنذهب.

– وإذا جاء؟

– سنكون قد نجونا.

نجونا!

يعود الممثل الثاني للصراخ : ماذا نفعل هنا ؟

السؤال سيد الأسئلة ؟

يدخل راعي الماعز الصغير في الليلة الموالية لكل التي سبقتها يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة: طلب منّي السيد **Godot** أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء... غدا بكلّ تأكيد.

خلاص من هذه الجملة! المرة المقبلة سآتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها إلا وتلقّي واحدة منها وحتى بيضة إذا كرّرها ثانية.

ضرورة التدخل الحازم في القصة وإنهاء مفعولها المدمّر للأعصاب، بدأ بالبتّ في قضية هوية اللعين. أهمس في أذن الممثل الأول بما يجب أن يصرخ به.

–أنا أقول لكم من هو. إنه عزرائيل.

أهمس في أذن الثاني بالردّ لكنه يبادر قبل أن أكمل الجملة.

–يا غبي هذا كائن نهرب منه لا ننتظره بكل شوق.

بدأت الأمور تفلت من يديّ .

–الغبي هو أنت. ألم تتعلّم بعد من طول مشاهدة البشر أنهم يرهبون ما يترجّون ويترجون ما يرهبون ؟

أهمس من وراء الستار في الممثلين بالاقتراح الثاني فألقى منهما الموافقة غير المشروطة.

ينظر الممثل الأوّل إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحبّ من لا يحترم المواعيد. إذ لم تتفضّل حالاً فسأتخذ ضدّك الإجراءات الضروريّة.

تنطلي الحيلة على Godot . يفهم أنه حُشر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين ضاحكا وممازحا:

- هلّو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!.

يتسمّر الممثل الأوّل. يفتح الثاني فمه ثمّ يغلقه. ينفجران بالضحك.

- Godot زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوّس.

- يا رجل إنّها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرفت إلى هذا الحدّ، فلم تعد تعرف حتّى زوجتك.

عرض ثالث أملا في أن تفضي خصوماتكم بسببه لحرب مقدسة جديدة تقضون فيها كلكم شهداء: راعي الماعز الصغير هو Godot .كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجذلى .

ماذا؟ حسك الطبقي المرهف يرفض بكل قوة أن ينتمي المنتظر للطبقات البروليتارية الماعزية. دبّر رأسك وهات الحلّ إن كنت عليه من القادرين .

تقول وقد بلغ بك ضيق الصدر أشدّه: لماذا لا نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نسلمه للمختصين في هذه الأمور ولنا- والحمد لله- ما يكفي من الكفاءات.

نعم، من هو Godot يا صامويل يا ابن بيكيت وإلا لا تلم إلا نفسك. يأتي الردّ الشهير: لو كنت أعلم لما بخلت عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلف خلق كائنين ورّطهما في مأساة لا نظير لها لا يعرف أو يدعي أنه لا يعرف ؟

المساكين بحاجة لأي ردّ... هم كالمرضى الذين لم ينفع فيهم أي دواء والمستعدين لتصديق أي دجّال.

طيب لنعوّل على أنفسنا ثانية. ما رأيك في هذا المخرج ؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب منّي السيد Godot... ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف المثلان عن ترديد البلاهات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه انتبها لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدويّ صوت لمجهول : طلبت منّي الشمس أن أبلغكما أنّها لن تأتي هذا الصباح... غدا بكلّ تأكيد...

(ضحكة شامتة)

فقط للتذكير بأن أهمّ ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه أنه يتمتّع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقنعت معافى بالنعمة التي يتمتّع بها وأنا أردّد عليه قول الحكيم : "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى".

خلاص، يجب أن نختم. يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة مرددا : طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يقول الآدمي لنفسه أو لتوأمه في الشقاء:

– ماذا لو تخلّينا عنه؟

– قد يعاقبنا.

ينظر للشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.

– نشنق أنفسنا. لديك حبل ؟

– حزام البنطلون.

– إنّه قصير.

– تجذبني من القدمين.

– وأنا من يجذبني؟

أين المكلّف بالصراخ فيهم «لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. القصّة سخيفة من الأساس وكاذبة من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيل بل ومن الصنف الرديء!

تنتهي المسرحية .

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصولGodot، وكأنّ على رؤوسهم الطير، ولا أحد طالب بتعويض ثمن التذكرة، والكل مقتنع أنه قصّر في شيء ما بالغ الأهمية، أنّه أخلف موعدا بالغ الخطورة...مع من ؟

هنا أسارع لباب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو Godot. إنه أنا. كنت معكم طول الوقت جالسا في الظلام وراء المثّلين وها أنا بينكم لأقول لكم : لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أوهامنا والمهمة التي جئنا من أجلها «ماشية»، بل وعلى أحسن ما يرام.

* * * * *

الكتاب الخامس

الملحمة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى
ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج البشر وصخب الحياة.
كونفشيوس



الملفت للانتباه في هذا المقطع من النص مستوى العدوانية عند الكائنات الغريبة . هل تجاوزها لكل الخطوط الحمر سبب انقراضها المفاجئ؟ لكن ماذا لو كانت هذه العدوانية المرعبة الوجه المظلم للحيوية الفائقة التي مكّنتها من ترويض وتطوير عالمها الأصلي واستعمار عدد غير محدّد من العوالم المجاورة ؟

المعلّق

تضمّ تفيحة دميتها إيتي . تتوسّد ركبتي اليسرى وإصبعها في فمها ثم تأخذ في التثاؤب تغالب ثقل الجفون. تتوسّد تفاحة ركبتي اليمنى وتأخذ في فرك عينيها. لا تلبث اللحاق بأختها تشاركها فعلا من أهمّ أفعال الآدميين قد لا يكون ضروريا لصحّتهم بقدر ما هو ضروري لصحة عالم فرض عليهم النوم لعجزه رغم اتساعه وصبره على تحملهم كلهم في آن واحد.

أنا الآن ككل المستيقظين مكلّف بحراسة النائمين إلى أن يهبوا من رقدتهم، فاترك لهم بدوري جسمي وديعة بين براثنهم.

أمرّر راحتي على الجدائل السود والشقر، فيأتيني من اللمس استرخاء المستغرق في سماع موسيقى هادئة.

تصدر عن تفيحة كلمات غير مفهومة. تتنفس تفاحة بعمق وبطء ثم تستيقظ اللعينة مصرّة على مواصلة مضايقة العالم ومضايقتي:

– «با»، لست نائمة كبنتك هذه، الليلة أريد أن تحكي لي قصة جديدة. هذه المرّة يجب أن تكون طويييييييييييييييلة جدّا، أطططططول قصة في الدنيا.

أطول قصة في الدنيا؟ قصة الآدمية طبعا.

لكن مواصلتها قد تأخذ ألف ليلة وليلة ! يا ليتها تأخذ أكثر .

المصدر ؟ ما يسمونه التاريخ !المشكلة أن تاريخهم تواريخ ...تواريخ تتنكّر لصعوبة التوليف بين المعطيات التي تصلنا وهي مثل قطع متفرقة ومتباعدة لبناية أثرية فقدنا رسمها الهندسي...تواريخ تجهل الجوّ العامّ الذي وقعت فيه هذه الأحداث والحال أنك لا تفهم الجزء إلا إذا فهمت الكلّ وهو ما يفترض أننا نعرف مسبقا التاريخ الذي نبحث عنه... تواريخ تتجاهل أن الوثائق التي تصلنا مكتوبة دوما بلغة من قوانينها أن معاني نفس الكلمات تتغيّر من عصر إلى عصر...تواريخ تتغاضى عن الكذب المفضوح بالتضخيم والتقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا... تواريخ تنسى أن التاريخ رواية المنتصرين للأحداث... تواريخ تجهل أن المنتصرين أنفسهم ليسوا بالضرورة واعين

بما يفعلون ، ولا هُم بالضرورة يملكون كل المعلومات حول ما يحيكون وما يحاك حولهم.

الطريف أيضا أن التاريخ «الصحيح» «بما هو صورتنا» «الموضوعية» للماضي مضمّن ...في المستقبل. كم اكتشافات ستقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر متانة مثلا بخصوص أصل الآدميين والأمر مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فكّ هناك.

كل هذا يفسّر لنا أن المؤرخين من نوعين: الذين يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمة بها أو خدمة لمصالح مموّليهم والذين يفكّكون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح مموّلين آخرين.

والمحصلة أننا نغذّي عقول الناشئة بخصوص ماضيهم بالأكاذيب وأنصاف الحقائق وبعدها نتعجب من تخبط مشيهم نحو المستقبل الموعود.

لا أحد يعرف القصة إلا العالم . هو وحده الذي عايش كل الحقائق التي يجهلها المؤرخون. المشكلة أنه لا يتكلّم .ما العمل ؟ الادعاء أنه أسرّ في أذني بكلللللّ التفاصيل. أليس هذا ما فعله الآدمي على مرّ العصور ، لماذا أتحرّج؟

ماذا لو جعلته يتذكر كيف جاءته فكرة تجربة شيء كالآدمي؟...في أي ظروف أخذ القرار؟... كيف أمر جبال الجليد بالتراجع إلى الخلف لإفساح المجال؟...كيف طلب من الطقس تحسين أدائه ليسهّل السنوات الأولى على المخلوق الهشّ؟...كيف وضع بطاريات صواريخ مضادة للنيازك حتى لا تشوّش على تجربته كما فعلت عندما راهن على مخلوقات اسمها «الدينصورات»؟... كيف أطلق للكائن الجديد العنان ليرى ما الذي سيضيف لما جرّب قبل من كائنات؟... كيف أظهر هذا الأخير طاقات جديدة لم يعرفها قط عند أطفاله الآخرين ؟... كيف أخذت الأمور منحى غير متوقع بعد بضعة ملايين السنين والطفل العبقري يصبح خطرا على نفسه وبقية إخوته؟...ثم كيف صدرت الأوامر العلية لوضع حدّ للتجربة وكيف انتهت فعلا في ظروف لا نريد كشفها لكي لا نزيد من حالة الاحباط المنتشرة هذه الأيام.

أخشى ما أخشاه، إن اصبت في روايتي للأحداث أن أعاقب بتهمة التجسّس على الأسرار الإلهية وإن كان كلامي ترهات أن أعاقب عليه بتهمة بثّ الاشاعات بغية تحطيم المعنويات وتعكير صفو الأمن البشري العام.

بما أن العالم لا يتكلم والتاريخ ليس له ما يقول، فإن عليّ تحمّل مسؤولياتي وكتابة روايتي الخاصة

مؤكّد أنني سأتعرّض لكثير من النقد خاصة لنقد السفهاء، لكن متى حسبت للسفهاء يوما حسابا.

ثمّ هذه فرصة لا تعوّض لأبثّ عن الآدمية ما يروق لي من الإشاعات المغرضة دون خشية عقاب، بما أن الانتماء لها هو العقاب.

أهمس في أذن تفاحة : كان يا ما كان....

* * * * *

خروجها من بيت أبيها

على كل قصة أن تبدأ من البداية وبدايتنا نحن آدم... هذا الذي يقال إنه كان أول حلقة السلسلة.

لن تجد ما يشفي الغليل بخصوصه حتى عند كبير مفكرينا وأحبهم إليّ : «وبعض المفسّرين يزعم أن نوحا صلّى الله عليه وسلّم، إنّما سُمِّيَ نوحا لأنّه كان ينوح على نفسه وأنّ آدم سُمِّي آدم لأنّه حذي من أديم الأرض» (الجاحظ).

لكن ماذا عن تفاصيل العملية ؟ لا شيء تقريبا في كل ما كتب باستثناء شهادة آدمي آخر يدعى الطبري حيث يقول إن الخالق لما أراد خلق آدم أمر ملائكته بأن تأتيه ببعض الطين. لكن إبليس خاف أن يأخذ المخلوق الجديد مكانه فاغتنم لحظة سهوه ليبول في المادة التي سنصنع منها أنا وأنت. كأني هنا بعتاة الملحدين وكبار العلماء الماديين ينفجرون بضحك الاستهزاء والتحقير. ليكن واضحا لديهم أنني لن أسمح لهم بالسخرية من واحد من كبار مؤرخينا حَبرّ آلاف الصفحات عن ماضينا وفي هذا أسطع دليل على سعة اطّلاعه على ما حدث وحتى على ما لم يحدث. سأضيف كذلك على الماشي ودون إطالة، أن مسارعتهم بالإنكار والاستنكار أصدق دليل على أن الرجل أصاب كبد حقيقة كانوا يفضلون أن تبقى في طيّ الكتمان. ما يؤسفني شخصيا أن مؤرخنا الكبير لم يقل كل شيء من باب الرفق بمعنويات بني جلدته. حقّا لم أحضر الواقعة، لكن مصادر عدة- لا يسعني الآن الكشف عنها لأسباب أمنية- أكّدت لي أن إبليس لم يفرغ فقط مثانته في الطين الذي تشكلنا منه ، وإنما أفرغ فيه أيضا كل ما في جوفه، وأنه كان يومها مصابا بإسهال حادّ. ربما بصقت الملائكة في العجينة لتزيد الطين بلة. ثم تستغرب بعد هذا أن تكون الطبيعة البشرية ، عموما وطبيعة خصومي السياسيين خصوصا، على ما هي عليه.

ماذا حصل من بعد؟

كما هو معروف خلق المدعوّ آدم المدعوّة حواء من ضلع من ضلوعه، أي في آخر المطاف من نفس المادة التي صنع منها وبعد هذا تستغرب ولع الإناث بالعطور.

تقول اسرع بالبقية كأنك لا تعرفها. أجمل إخراج لقصة القصص طبعا عند الشعر :

وقبلها كانا في جنة عـــــــــــدن **(أندريه شديد)**

فضاء أنقذه الإله من الظلمـــــــــــات

أرض خصبة معطاء وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إســــــــــــراف

سعادة لا تتخللها الأشجـــــــــــان

وغد بلا خـــــــــــطر

فجأة طردا من الـــــــــــحديقة.

صدى بعيد لأحداث حقيقية يتردّد من غابر الزمان في الذاكرة الجماعية ؟... ألم تكن الصحراء يوما واحة غناء ترتع في أحراشها الفيلة والثيران وتسبح التماسيح في أنهارها، لكن الجفاف فعل فيها فعله؟... أي تفسير أحسن وجده الأوائل لفهم الكارثة غير قول أحدهم، ذات ليلة وهم حول النار، أن هناك قوة غيبية تتحكم في مصيرهم أثموا في حقها فعاقبتهم بقلب جنتهم جحيما... أنه لا بدّ من بناء المعابد وإقامة الصلوات لتعيد الأرض لسابق عهدها.

طردا من الحديقة ! قف . عن أي طرد تتحدّث هذه الجاهلة ؟

كل هذه الأقاويل عن طردنا من الجنّة لا أساس لها من الصحة. ثم كيف تقبل لحظة أن تبدأ قصتك بالفصل والطرد التعسّفي ؟ تقول: مشاغلي كثيرة هذه الأيام وأنا غير معني بما تعرض له آدم وحواء من معاملة مهينة .موقف مخزٍ وأنت حرّ فيه، أما بخصوصي فلا مجال لقبول هكذا بداية. عندي ما أحسن بكثير ، هل تشتري ؟

تنتبه تفيحة أن هناك قصة تعدّ وراء ظهرها .تصرخ وهي تفرك عينيها :

– أعرف لماذا طرد آدم من الجنة. زيّن ثعبان خبيث له ولحوّاء بأكل التفاحة والله لا يحبّ من يقطف ثمار أشجاره فعاقبهما.

تقاطعها أختها:

– واصل "با" ولا تنتبه لهذه الغبية.

– دقيقة، أنا أفكّر في هذا السبب السخيف. بصراحة كنت أفضّل أن يجدوا أحسن من هذا.

مثلا كنت أفضّل أن تكون التهمة التدخين في المراحيض. تسأل لماذا ؟ فكّر قليلا بدل الاعتماد الدائم عليّ لأشرح لك كل شيء. أي غرابة في معاقبة التدخين في المراحيض حيث يمكن أن يشبّ حريق يأتي على أخضر الجنة ويابسها، إن كانت جنّة أرضية، أو أن يفجّرها في الجو إذا كانت جنة طائرة. لكن عقاب بمثل هذه الخطورة لمجرّد أكل تفاحة لا يتجاوز ثمنها مائة مليم حتى في رمضان !؟

تقول لا تهزأ . ثمة بالضرورة حكمة في اختيار تهمة أكل تفاحة ؟ ما عليك إلا أن تشغّل دماغك.

طبعا لتندلع خصومات بين أهل العقل وأهل النقل، بين اللفظيين والمجازيين، بين القائلين أن التفاحة المعنية بالأمر هي الفاكهة التي نأكل وبين المصرّين على أنها رمز لمفاهيم لا يرتقي لمصافها الأغبياء الذين لا يدركون من الكلمات إلا غلافها...طبعا لبث مزيد من الفوضى وذلك الرهط من الموفقين المعتدلين الماسكين دوما العصا من الوسط يفسّر أن التفاحة، وإن كانت تفاحة تفاحية، فهي أيضا رمز للحكمة الإلهية ولا يجوز أكل الرموز، فيضربهم المتخاصمون بتحريض شديد مني وأنا لا أكره شيئا قدر هؤلاء المائعين. نعم السبب بث البلبلة بين صفوف الآدميين منذ البداية لتضحك عليهم الملائكة وترميهم بالبزر من فوق السحاب.

على كل حال ، الهام في القصة ليس هذا الموضوع . ما أقوله متحملا كامل مسؤوليت، أن آدم غادر حقا الجنة مع الولية امرأته، لكنه لم يُطرد **وإنما فرّ منها لا يلوي على شيء.**

تهز رأسك غير مصدّق : ما هذا الهراء ؟ كل آدمي، حتى ولو كان الأول، لا يهرب من الجنة وإنما يهرب إليها. ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة. أقول إنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب من تلقاء نفسه حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم منّي بطول باع الآدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تبقى حجة استحالة الفرار من مكان محروس مثل الجنة. لنفكّر معا حتى نستطيع اقناع أنفسنا. افرضْ أنه كان لآدم أنصار أعانوه. من ؟ الملائكة ؟ ابليس ؟ الثعبان ؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة ؟ تقول من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث قبل أن تقع. التفسير الوحيد إذن أن النصير المجهول كان يافيه نفسه.

هكذا تستقيم القصة لتصبح أن آدم أزمع في سرّه على الفرار وصارح ذات ليلة حواء بالفكرة، فمطّت شفتيها وحكّت رأسها ورفضت بعنف ثم فهمت المبررات واقتنعت وانتهت بقبولها. لا شك أن شاشات المراقبة المكلفة بقراءة الأفكار اشتعلت برسائل الإنذار وأن التقارير طلعت للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: «عاجل للغاية وسرّي جدا». وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم يافيه بل وتنهد الصعداء. أخيرا... أخيرا قرّ قرار هاذان الغبيان...من يدري ؟...ربما هما من سأحقق بهما أخيرا ما سعيت إليه كل هذه الأبدية اللعينة ! ! !

بقية الوصف.

سارعا لتغطية عريهما بالجلود

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعانقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيّق من الجلد

يواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدّا له

تجاوز آدم ضغينته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنّه كون يتلعثم بأولى كلماته

عالم مقيّد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي

عالم تحت مطرقة الزمان

يجب تعلّم الموت فيه

عالم غير مفهوم

بتبذيره الرائع والمروّع

معا سيتملّكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار

معا سيلدان آدمية الشرّ والجذل.

تعبر الفضاء والقرون.

ومن خلال ضباب الزمان

تابعهما صدى الأمر

تهمس تفاحة تغالب آخر محاولة للبقاء مستيقظة :

– "با"، ماذا قال الرب لآدم وحوّاء وهما يفرّان ؟

– لحظة ، خذا معكما الشيطان، لا بد منه للتجربة.

* * * * *

ارتطامها بالعالم

باب الجنة الآن وراءهما والعالم أمامهما.

تدير حوّاء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار..كثبان من ناعم الرمل... جبال مكلّلة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الريح فيها على الموج... غابات تناطح أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...

يهرش آدم رأسه أمام الديكور الفخم : جنة أخرى ؟ ما فائدة فرارنا إذن ؟

كلاّ، ثمة شيء جديد في هذه «الجنّة». ماذا بالضبط ؟ هذا الشعور الغريب ، هذا الشعور الجديد ، هذا المغص الذي يمزّق الأمعاء! فجأة تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح بعض الوقت الذي لا تستطيع تحديده بما أن الساعة لا زالت للاختراع : أنا جائعة ولا بوفيه جاهز هنا. ها هما في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمت عالم سيعلمان كم هو بخيل مقتّر: من يريد أن يأكل فلا يعوّل إلا على جهده، وليثق أنني لن أيسّر له الأمر.

مسكين آدم وهو يكتشف أن الأكل يركض أسرع مما يركض هو، بل وعليه أن يكون أسرع أحيانا إذا لم يرد أن يكون هو المأكول. حتى لو لحق بالغزال الشارد، كيف يلتهمه دون نواجذ قاطعة للجلد؟

ينتبه بطلنا إلى التغيير الجذري وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدبير وجود الوافدين فمسؤوليتهم. اللعنة، كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت بالمجان، أما هنا فهي على حسابه هو. ينتبه لكونه ربما أخطأ في حساباته . يصرخ في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا من يحزنون.

الجوع والحزن ! إنها البداية لا غير يا مسكين . يا لهول ما ينتظرك يوم تشق الطريق على قمم الجبال وفي حضيض المستنقعات وأنت كالدابة تجرّ الحجر والملح والرخام، كل هذا والسوط يكوي ظهرك، والجوع يمزّق أمعاءك، والعطش يلهب حلقك، والهوام تلسع وتعضّ وكل ما تصلّي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة.

ولأنني أعرف أصدق المعرفة ما ينتظر الغبيان وفي محاولة أعرف أنها يائسة لتدارك الوضع أهمس في أذن آدم :

– هل ستتخلّى عن ضغينتك تجاه المجرمة بهذه السهولة وأنت ترى في ماذا ورّطتك ؟

– لكنك جعلتني في قصتك أنا الذي أقنعها بالفرار ، الوليّة بريئة ، أنا المسؤول .

– انسى تحويري وعد للرواية الأصلية . أليست حواء هي التي زينت لك أكل التفاحة المشؤومة ؟

– آه ، إذا نظرنا للموضوع من هذه الزاوية فإن اللعينة تستأهل أشدّ العقاب.

بداية مشجعة. مواصلة التحريض .

– لو تعلم كم من أفعال ستتسبّب فيها هذه الأنثى: مطالب لا تنتهي ناهيك عن الخيانة الزوجية وعقدة أوديب

– وما عقدة أوديب هذه ؟

– أوديب هو واحد من أبنائك سيتزوج أمه و...

يهزّ آدم كتفيه :

– كيف ؟ يترك الصبايا ويتزوّج عجوزا... يا للغبيّ.

– الأخطر من هذا أنه سيقتل والده.

يصرخ آدم غاضبا : يتزوّج أمّه أو جدّته، هذه مشكلته أما أن يقتل والده فلا ثم لا،... كل هذا بسبب تربية النساء.

ينقضّ آدم على حوّاء فتصده ضاحكة متأففة محتجة بعودة الصداع. تلفّ ذراعيها حول عنقه وفخذيها حول خصره. ثم تطلق آخر صرخة وهي تضرب برجليها الفضاء لتستكين ميتة. رائع ، أنقذت العالم من وباء وأنقذت الوباء من الوباء. أتوقف عن الصراخ وبي حيرة من اكتشف خطأ جوهريا في مؤامرة رقص قبل الأوان لنجاحها. كيف أكون موجودا لو قتل آدم حواء؟ لكن كيف أكذب نفسي والحال أنني شاهد عيان لعملية القتل؟

تداهمني الحقيقة المرة وقد فهمت لعبة الجبان. أشعر بهذا النذل يتهرب من الموضوع محاولا إلهائي بحديث تافه عن مشاكل التأقلم في هذا العالم الصعب وأنين مقرف عن داره في الجنة وبكائه على الأطلال وبداية ترنم بأغنية "على بلدي المحبوب ودّيني» وعبارات غير مفهومة عن مفتاح داره التي في الأندلس وهل سيفتح بسهولة أم أن الصدأ...

أصمّ أذني عن الهذر مصرا على رميه بنظرات السخط، لكنه يواصل استبلاهي:

– يا بني قتلتها كما أردت لي في قصتك.

كيف لا يصبح الخداع من أهمّ أفعال الآدميين وجدّهم الأول من أعطى المثل؟

– نعم قتلتها، لكن ماذا فعلت من بعد ؟

ينكّس آدم رأسه وبه شيء من الحرج.

هنا يفضح النصّ- لأول مرة- سرا طال إخفاؤه، وإنه لعمري سبق آخر ينفرد بنشره، وما أكثر أيادي النص عليكم. نعم، يا إخوة البؤس والشرّ. نحن لا ننحدر من حواء التي خرجت من الضلع الأول لأن جدنا الكبير الذي لا يصبر طويلا على غياب حواء، لما بطش بها، أتبعها بحواء ثانية ثم ثالثة ورابعة- لخصومات زوجية تافهة تنذر بما سيأتي- إلى أن استهلك إحدى عشرة حوّاء، ثم اضطر للتوقف عند اكتشافه أنه لم يعد له إلا ضلع أخير هي جدتنا الحقيقية وليست التي هربت معه من الجنة.

لا يسعني هنا إلا إبداء شماتتي في حواء الأولى فلو سمعتني لعاشت على الأقل بضع سنوات إضافية.

ماذا لو حاولنا مع هذه الحوّاء .

ها قد تقمّصت دور الخنّاس: أعدّد لك أفعاله المقبلة ؟! سيكذب عليك بصفاقة مدعيا أنه يحبك ويموت في عشقك للفوز بلذته ثم سينطلق في الشخير مباشرة حال ممارسة الجنس. سيتركك تتدبرين غثيان الحمل وآلام الولادة ومشاكل البول والإسهال عند رضع بشعين طيلة سنوات، كل هذا وسيادته لا همّ له سوى التعليق على رداءة الطبخ وترهل الثديين. هو سيحبسك ما لا يحصى من القرون في المطبخ، لن يفتعل تحريرك إلا يوم يعجز عن مواصلة وضع اللجام في فمك. هو سيخترع آنذاك كرة القدم ثم التلفزيون ثم كرة القدم في التلفزيون ليهرب من ضرورة التغزّل فيك بعد أن قضى منك حاجته. لا أحدثك عن بقية خياناته الأخرى. كيف ترضين بهذا الحيف؟

تكظم الولية غيظها، فما من رجل آخر لتخون آدم معه ولا يمكنها أن تحزم حقائبها لتعود إلى أمها لأن هذا الرجل أمها. بربّكم ما الذي يمكن انتظاره من قصة تبدأ بمثل هذه اللخبطة والزوج فيها أمّ زوجته والزوجة بنت أمها الذي هو في نفس الوقت والدها.

أهمس لحواء بدفع آدم هذه المرة لأكل تفاحة مسمومة حتى تتخلص منه ومن صراخه المزعج. لكن الرجل حلف ألا يذوق التفاح طالما بقي على قيد الحياة. لا مجال لقتله بيديها العاريتين لأنه أقوى منها. من المستحسن انتظار نومه وارتفاع شخيره لضربه بصخرة تسحق رأسه.

وجودي ووجودك دليل جدّ مؤسف أن حواء قلّبت المشكل من كل نواحيه لتأخذ القرار المشؤوم بعدم سحق رأس آدم خوف النهوض باكرا للخروج للصيد وحدها وهي تخشى الفئران، فما بالك بمواجهة الأسود. أضف لهذا غياب من تتشاجر معه وتتصالح لتمضية الوقت.

كم من جلائل الأمور ذات العواقب الهائلة أخذت وما تزال بمثل هذه الخفة.

لا يمكن لأول مؤامرة في تاريخ الآدميين وأهمّها أن تنتهي بهذا الفشل المخزي. لنجعل إذن حواء- لنقل السابعة- تنهض وشخير آدم على أعلاه ترفع مخدتها الحجرية إلى فوق ثم تهوي بها على رأس رجل أقنعها باستبدال الجنة بالجحيم.

إذن نجحت مؤامرتي في قصة ما فسكن العالم وهدأ وارتاح لتظلّ غاباته وبحاره وجداوله على طهارة ونقاء، لكنها- لشديد الأسف- فشلت في قصة موازية فخرج الآدمي للعالم، كالجنّ من قمقمه.

القارئ المجهول: أنا الآن من يستطيع التشمّت فيك يا عدوّ البشرية . وجدنا وسنوجد بالرغم من أنفك.

مهلا يا صاحبي . لست ضدّ أن نوجد لكن لماذا كل سوء التخطيط الذي سبق الفرار؟ لماذا لم أستشر على الأقلّ لأعطي توجيهاتي ...لأنبّه لما كان من الضروري فعله؟ لا أحد يسمعني في هذا العالم ولا أحد يأخذ بكلامي وها هي النتيجة. يا للغبيان!

لماذا لم يقع السطو على البنك المركزي لتمويل المغامرة حتى لا نعبر العالم فقراء نرفل في أسمالنا محكوم علينا أن نكسب قوتنا بعرق الجبين ؟ ألم يكن من الحكمة قبل الفرار التسلل إلى ثكنة الحرس الملائكي للفوز ببعض الأسلحة لمواجهة الكواسر وفي حالة استعصاء الأمر سرقة حوافر البغل للمشي وفرو الدبّ لليالي الشتاء وأنياب الليث لتقطيع الأوصال، وجناحي النسر لنحلّق عاليا فوق الجبال. لكن أن نخرج للعالم عراة فإنه الطيش بعينه.

ثم أين الحق في تقرير المصير ؟

غريب أن لا أحدا من المفكرين الكبار والصغار انتبه أن آدم وحواء أخذا قرارا ليس فقط غير مدروس وإنما غير ديمقراطي بالمرة.

نعم، كان على آدم وحواء تنظيم استفتاء يطرح الخيار بكيفية واضحة على كل الأجيال التي ستبتلي بعبور هذا العالم. مثلا أنت المسافر في القرن الأوّل بعد انقراض الماموت، هل تقبل بالانبثاق في عالم استبداد الأسود بجلّ أراضي الصيد؟ أنت المسافر في القرن العشرين هل تريد حقا العيش في عالم الماكدونالد والكوكاكولا والكاجيبي والبنك الدولي ومحتشدات أوشويفتز والطغاة الدمويين والقنابل الانشطارية وبرامج «اربح المليون» ومرض ألزهايمر والموت بسرطان الثدي للنساء والإسهال والحصباء والسعال الديكي للأطفال ؟ وأنت، نعم أنت ، هل تفضل قضاء جلّ أعوام الرحلة في منجم ملح أم في معمل رخام أم في حقل أرز أم في حقل قطن أم على الرصيف بقرب محطات القطار لتغتصب ويمرّر لك فيروس قاتل؟ ماذا تقول في قضاء جلّ عمرك في مخيم لاجئين أو في الرحيل محشورا بين الآلاف منهم تتقيّأون على بعضكم في باخرة لها موعد مع جبل من جليد ومع عمق المحيط ؟ وأنت الغبي الآخر، أترضى برحلة تنتهي- ضع سطرا أحمرَ تحت الخيار- جريحا في ساحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالتخمة، بالجوع، في سريرك عائما في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟ وأنت الذي تحاول الاختفاء وراء الظهور!؟ اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها

البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخطّ «ب»، مما سيضطرّ الشركة لتحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشاتمون والجميع- ومنهم كاتب هذه السطور- يستمطرون اللعنات على رأسك- أو ما بقي منه- لأنك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين الجائعين أمثالي. آه نسيت أن أقول أن عمّالا في قمة التقزّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة وأن سائق القاطرة سيعطى أسبوع إجازة وسيحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسواق المساكين ضحايا أمثالك وما أكثرهم هذه الأيام.

تصوروا لو تركوني أنبّه لكل ما سيتعرّض له الآدمي وأن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له دور المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلاد الجائع، المريض، المجنون، المشوّه، المعاق، الثائر الفاشل ...تصوّر لو قبلوا أن أطرح لتصويت حرّ نزيه وشفّاف سؤالا واحدا : نخرج أو لا نخرج ؟

لا شكّ لديّ أن أنصار «لا» واضحة ومدويّة، كانوا سيحتفلون عشية الإعلان عن النتائج بانتصار باهر على «نعم» هزيلة ضامرة لحفنة من المغامرين الطائشين. نعم، لو حصل هذا لوفّرت عليك- أيها القارئ البائس- مشقة قراءة «الرحلة» ووفرّت على نفسي مشقّة كتابتها، ولكنّنا الآن نتمطّى داخل العدم وقد لفّتنا العتمة بفائق فراغها، وفي أسوئها نتثاءب بكسل تحت شجرة التفاح في جنة متعة الملل وملل المتعة، لا نطلب ولا نطالب بشيء.

رمي النرد ولم يبق إلا تدبير الوضع الجديد.

تبدأ حواء في وضع أولى خططها : البراري الخضراء حديقة البيت، والبحيرات الزرقاء والخضراء كمسبح للصغار يوم يولدون، والجبال الشاهقة لنشر الغسيل. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوّها من الحفر والشياطين حتى لا يصاب الأطفال بأذى. الستائر الملونة من حرير الصين يوم تغزل على مدخل أوّل كهف، وتعليق "موناليزا" على الحائط. هنا الصالون والمطبخ هناك.

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات . .

ينفذ صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجّة أنّك جائع. هذا فعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه وأنت هابيل، اغسل رجليك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقت ذرعا بقلّة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضب هو الذي ورث عن أبيه حدّة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد ولن أنظّم غرفتي ولن أقرأ أي كتاب ولن أحفظ دروسي ولن أذهب لأي مدرسة.

هـذه المـرّة، لـن تأخـذه "مـا" بـين ذراعيهـا تعتـذر، تواسـي وتقبّـل دموعـه. لا منـاص مـن الحـزم حتـى يستعدّ هـو وأخـوه وبقيـة الأطفـال لأصعـب المهـام

يكـبر الطفـلان وتتوسّـع العائلـة. ذات يـوم تصـرخ حـوّاء ، يـا الله يـا جدعـان، كفـى كسـلا ، اغربـوا عـن وجهـي ولا ترجعـوا إلا بمـا خرجنـا نبحـث عنـه.

طيـب يـا أمّ الآبـاء والأمهـات لكـن مـا هـذا الـذي خرجنـا مـن أجله؟...الخلـود؟ لكنـه كان وضعنـا في الجنـة الـتي هربنـا منها...العلـم؟ الجمـال؟ الراحـة الأبديـة؟ المتعـة الأزليـة ؟... كل هـذا كان متوفّـرا فيهـا إلى درجـة القـرف.

منطقيـا لا بـدّ أن يكـون شـيئا جـدّ مختلـف يسـتأهل هـذه التضحيـات الـتي قبلنـا بهـا ولا نكـفّ عـن الشـكوى منهـا ؟

طيب لكن ماذا ؟

* * * * *

تغريبتها في الأرض ذات الطول والعرض

يصرخ أحدنا : إلى الأمام لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا تغيب، ننهي كل وجود لليل المخيف.

يصرخ آخر : لا، لنتجّه إلى حيث تشرق، نحتفي بها ونهللّ وهناك نقطفها ثمرة طازجة.

يصرخ ثالث : بل إلى الشمال بلدان الثلج أريد تعلّم فنون التزلّج وربح الميدالية الذهبية في الألعاب الأولمبية المقبلة. يصرخ الرابع اللعنة عليكم جميعا، هيا نولي وجهنا صوب الجنوب. أريد العودة إلى أمي.

توقّف على الصورة. ألا تلحظ شيئا بخصوص الأوائل الذين خطوا أول خطواتنا على الطريق؟ كيف ؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسنّين الذين تجاوزوا الثلاثين. ماذا تقول وأنت تحرّك يدك أمام أنفك ؟ آه الروائح التي تنبعث منهم .حقا من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء ؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعا، وحتى أجداد ملكة انجلترا التي تموّه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الارستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها لأنها توقفت عند شجرة أجدادها أين يجب التوقف، ولو طلعت لأعلى لاكتشفت المسكينة أنها ليست فقط سليلة كبار اللصوص والقتلة و إنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج النتنين.

ملاحظة ثانية. لا أحد منهم يجرّ حقيبة تصدر صريرا مزعجا ولا أحد يحمل على ظهره إلا طفلا أو مريضا. كل هذا يدلّ على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة منها جسم ينوء بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم. ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة ؟ آه أن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون. تغير المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

يتوغل الآدمي إذن في الأرض ذات الطول والعرض على طول الطريق ما اخترع العالم من كائنات تنتهي بأظافر وأنياب وكلها تنتظر الصيد الجديد.

ثمة قراءة أخرى، لنقل أكثر تفاؤلا وأكثر قدرة على شحننا بما يلزم من معنويات.

الأرض لكـــــــــــــم　　　　(جبران خليل جبران)

تبتهج بملامسة أقدامكم العاريـــــة

الأرض لكـــــــــــــم.

وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح

الأرض لكـــــــــــــم

وأنتم الطريـــــــــــــق

أي شاعر عبقري أعمى قادر على نظم القوافي لإليـاذة الجنس البشري برمّته تتغنّى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الحجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض والبحر ولا حتى عفاريت الظلام!؟

يصرخ بطلنا الأوّل: لم نكفّ عن المشي منذ أجيال ولم نصل لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرق نحن تائهون فيه إلى الأبد.

يصرخ الثاني: يا لهذه الكائنات المرعبة المتربصة بنا وراء كل حجر! يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

يصرخ الثالث يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء و مطرقة الشمس ! يا لهذه الصحاري البيض وخناجرها التي ثبّتت في فكّ البرد والدبّ! يا لهذه الصحاري الزرقاء تهددنا بالموت رعبا قبل أن نموت فيها غرقا!

يصرخ الذي يريد العودة لأمّه :تخشبت قدميّ من المشي، غصت إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفيّ من الحمل، تشققت يديّ من الحفر، جفّ العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق اللعين طريقه دوني .خارت قواي. لن أتقدم خطوة أخرى.

أوّل إضراب عامّ : الاضراب عن المشي وليفعل الآخرون ما يأمره به جنونهم.

إضراب لا يدوم طويلا ككل إضراب . ها نحن لمئات الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاء لا يحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعا، ومن الفيل قبل تمزيقه إربا إربا، نجرّ الأنثى من شعرها إلى الكهف ، نستفزّ الفهود والأسود في أوكارها، نأكل صغارها وتأكل صغارنا، نتصيّد كل الكائنات ونحن الصيد المستباح لكل من وجدت أنيابه إلى لحمنا سبيلا.

صلاة الآدمي. يا من بعث بنا لهذا العالم المبهر المرعب ، حنّن علينا قلب الأرض والبحر، ضعنا في حماية الشمس والقمر، أحفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمنا لها شرابا حلالا ، وفّر لجوعنا اللحم والشحم، فجّر لعطشنا عيون الماء الزلال، يسّر أمامنا الصعب والوعر ، ضمّد جراحنا ، جدّد فينا كل فجر شجاعة الأبطال.

عـالم لم يخلـق للجبناء...عـالم لا تنفـع فيـه صلاة الخائـف وإنمـا عزيمـة الغـازي... عـالم صـارم القوانـين أولهـا أنـك تولـد فيـه جائعـا ، تعـبره جائعـا وتغـادره جائعـا، أن الحيـاة فيـه تتغـذى بالمـوت والمـوت يتغـذّى بالحيـاة وكل الباقـي حشـو وتفاصيـل.
ربمـا لهـذه لقوانـين مغـزى يـبرّر وجودهـا وأسـباب قاهـرة تبـدو أمامهـا احتجاجاتنـا كاحتجـاج الطفـل علـى أمّـه وهـي تلقـي بـه أول يـوم لأوّل سنوات الصـراع غريبـا وحيـدا في سـاحة مدرسـة فظّـة مكتظـة.

الصـدى : ، يـا لحمـي تقطعـه أنيابـي ، يـا دمـي مراقـا علـى العشـب والثلـج ، يـا دمـع دمعـي ، يـا عـرق عرقـي ، يـا جـوع جوعـي ، يـا عطـش عطشـي ، يـا رعـبي وانبهـاري ، يـا أحـلام أحلامـي ، يـا آلام آلامـي ، يـا آمـال آمالـي ، يـا كوابيسـي ، يـا أفـكاري ، يـا أخيلـة خيالـي ، يـا عنـادي وإصراري...صبرا جميـلا ستفهمون سبب قسـوتي عليكم وأنهـا لم تكن إلا قسـوتي علـى نفسـي.

قـد لا تكـون انتبهـت لأهـمّ مـا في قـول الصـدى : نبرتـه. هـي حقـا مفعمـة بالإشـفاق لكـن كـم فيهـا مـن أمـل، مـن تشـجيع ومـن ثقـة. كأن وراء القـول قـولا مسـكوتا عنـه ربمـا يكـون شـيئا مـن هـذا القبيـل : ستنسـون كل آلامكـم وسـتحمدوني يـوم تجـدون مـا بعثتكـم تبحثـون لـي عنه....يـوم تحققـون لـي المهمـة التـي شـرّفتكم بهـا دون مخلوقاتـي الأخـرى، المهمـة ! ...ثمـة مهمـة سـتجعلنا نغفـر للصـدى مـا فعلـه بنـا ومـا فعلنـاه بأنفسـنا !

طيب، لنفتعل التصديق ،على كل هل لنا خيار آخر ؟

*

أهمـس في أذن تفاحـة : أفيقـي، الآدميـة بحاجـة لإغاثـة عاجلـة وإلا ستفشـل كل التجربـة. تفتـح البنـت عينيهـا وفيهمـا بريـق التصميم كأن شـيئا داخلهـا أدرك أن المهمـة المقدسـة في خطـر وأنهـا قـد تفشـل حتـى قبـل أن تبـدأ فعليـا. تسـتيقظ تفيحـة بدورهـا جاءهـا الوعـي بحـرج اللحظـة

– «با» يجب فعلا أن نفعل شيئا لإنقاذ الوضع

– خـذا بأيديهـم كمـا تأخـذان بيـديّ لـمّا تجبرانـي علـى الركـض والصراخ والرقـص. الآدميـون في ورطـة كـبرى ولا بـد مـن وقفـة دعـم حازمـة.

يستيقظ المستكشفون من الغد وبهم جذل غريب.

– جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

– غريب. أنا أيضا!

– أنا المختار من بينكم؛ رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

– لا بـل أنـا المختـار، تسـلّق ظهـري المـلاك الأصغـر. أمرنـي وهـو جالـس علـى كتفـيّ، صارخـا ضاحـكا ومغنيـا أن أجـري بـه. أخذنـي المـلاك الثانـي مـن يـدي قائـلا وهـو يضحـك: هيـا لا تخافـوا ولا تحزنـوا، الليلـة لكـم موعـد مـع هديـة ملكيـة سـتغيّر حياتكـم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف "ما" من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.

تصرخ تفيحة: أنت الباكية والبائلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.

ثمّ تنفجر باكية لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.

– "با"، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

– يا بنيّتي لو كنت من خلقكم لما ترددت في خلقكم دون لسان. على كل، هذه قصة يرويها أكثر من راوٍ. تكلمي. ماذا فعل الآدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أنياب الذئاب ؟

– أعيد: خرج الرجل وابنته الصغرى– التي كانت المفضلة عنده كما يعلم الجميع– إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحة إلاّ أن صلّت لله ليبعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثمّ لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها "با" وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.

– يا غبيّة، وكيف استطاع "با" من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرّة ينتظر الرعد والبرق.

– أنت الغبية وليس لديك قصّة أحسن.

– بلى، إذن خرجت تفاحة مع "با" لتدلّه على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميييييييييقة جدّا جدّا لا يمكن الدخول إليها إلاّ زحفا على البطون. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع "با" أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

– يا غبيّة، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النّار.

بعض العضّ الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر يسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالتراشق بصواريخ الغواصات الذرية.

من كان يتصوّر أن اكتشاف النار في هذا النصّ سيكون بمثل هذه الصعوبة؟

– أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحة عن البلل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبلت أختها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج آدم، ساخطا إلى الغابة يبحث عن النّار. ما أن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علبة كبريت بحجم بيت وبجانبها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكويا...

تصرخ البنتان بالاحتجاج الصاخب أن الأمور لا تقع هكذا. أطفال يفهمون قاعدة كهذه وكهل يدعي في العلم معرفة وتغيب عنه مثل هذه الأشياء!
- «با»، لا تغش للتخلّص منّا.

بجدّ؛ ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريفة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحوّل الأساسي في الملحمة العظمى. لقد استعملت كل الأفكار بخصوص سرقة النار تارة من الصاعقة وتارة من البركان، أو من بقايا حريق غابة. نفس الشيء عن تدخّل بروميتوس الذي أخذته الشفقة بالآدمي فتصدى لنصرة المظلوم وهو يرى الإدارة العامة تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مدّه بسّر النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين مزيدا من حظوظ البقاء... وهو ما كلّفه العقاب الشهير. هذه أيضا قصة يستحيل الاستيلاء عليها أضف لهذا أن النصّ يستنكف عن استعمال قطع الغيار البالية هو الذي يدعو للتجديد في بناء الرؤى.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنّم نفسها.

لكن إذا جعلت آدم يسرق منها النار فهذا يعني العودة للمناطق الخطيرة التي فرّ منها. قد يقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصّة، والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للبقاء فيها. أمّا أن تقوّلوني أنه دخلها مغافلا كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود فما بالك بقرّاء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكل الكاتب الأمر للقارئ المجهول أو لغيره ليكتشف هو كيف تحصّل آدم على النار ومن أين سرقها. لماذا أتكلّف كل الجهد وأنت تتدلّل عليّ فالقصة قصّة الجميع. ما الذي يجعلني مسؤولا عنها أكثر من حضرتك؟

المهمّ أن الآدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيغيّر مجرى حياتها .

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لتولّي مدبرة ترتمي في أحضان "با". يدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدّدا من النّار. ترفض تفيحة أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجنب تفاحة تقرّب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسّتا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمّدة ألما مستديما، ثم ترقصان حول النّار إلى أن تسقطان بين أحضان الوالدين من التعب اللذيذ. ليلتها نام آدم لأول مرة ملء جفونه وكذلك حواء.

صوت الشرار النار المتطاير من الحطب اليابس ...صوت حجرة تدق حجرة لصنع أول خنجر...صوت قاطرة البخار في أول متر لها على سكة الحديد...صوت النقر على

الحواسيب..إنها العلامات المسموعة لمنعطفات تاريخ الآدمية ...تاريخ يجهله مؤرخو المعارك والملوك والمساكين لا يرون من الغابة إلا لحاء شجيرة ...حتى المؤرخون الذين يسع علمهم عمق واتساع الغابة لن يرون إلا اختلاجة موجة عابرة على سطح المحيط.. أي مؤرّخ قادر على أن يروي لنا البدايات التي دشّنت كل البدايات...اللحظات التاريخية التي دشّنت كل اللحظات التاريخية...الثورات التي تولّدت عنها كل الثورات.. المنعطفات التي تمخّضت عنها كل المنعطفات... متى تحوّل اللاشيء إلى شيء...الجماد إلى كائن حيّ...اللاوعي إلى وعي...الصراخ إلى لغة ...اللغة إلى فكر وخيال... الفكر والخيال إلى عالم...العالم إلى لاشيء.

من الغد تنهض الآدمية لتبدأ غزوها الكاسح المرعب وقد تغيّرت فجأة موازين القوى.

أعتبر وجهة نظر الكائنات – على الأقل تلك التي تستطيع التحرك– وهي تفرّ مستجيرة بآلهتها وقد انتبهت أن قوى شريرة مجهولة أطلقت عليها عفاريت لا همّ لها إلا القتل والنهب والسلب والاستعباد والدمار والحرق وفي أحسن الأحوال التطفّل على حياتها الخاصّة. خذ حتى الذبابة الزرقاء التي لا تشوى ولا تقلى. هي الأخرى في غير مأمن ونحن نتعقبها بسموم متزايدة الفتك. لا أتحدث هنا عن الدود الذي ظن نفسه بمأمن منا وأننا أجسام هامدة تأتيه جاهزة للقضم والهضم دون تكلّف أدنى جهد. كأنني أسمع السيدة "دودة» تصرخ في عائلتها : الجرّار، الجرّار، غوروا في الأعماق قبل أن تدهسنا دواليب الحديد، يا ءناعاغعغا (ربة الدود) رحماك من الشياطين التي تتعقبنا في اليقظة وفي المنام. صحيح أننا نحن أيضا مجرد وجبة غداء دسمة لهذه الكائنات التي ندّعي بحساسيتنا المفرطة أننا نسيء إليها. كم منّا يعي وهو حي أنه مرتع لألف نوع من الجراثيم، وأنه يوم يموت الصيد الثمين الموعود للدود.

ربما هناك فلاسفة عند هذه الكائنات الدنيئة باركت وما تزال القوة التي ترسل لها باستمرار هذا الكم الهائل من الشحم واللحم والدم الساخن الفوار.

عالم بقانون بُني عليه كل شيء : لا مكان عندي إلا لآكل ومأكول ...كل آكل مأكول ...كل مأكول آكل...وأنا آكل الجميع.

*****

الجوّ داخل قوافلها

سؤال قلما تطرحه رؤى رديئة الصنع، فما بالك بالرد عليه، ويفخر النص مرة أخرى بتناوله من كل الجوانب: في ماذا يقضّي الآدميون جلّ وقتهم بعد الفراغ من النوم والأكل والجنس ؟

يتجدّد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطتين الشرستين امتحانا عسيرا لأعصاب لا ينقصها التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عمليّة مسرحية لا تتواصل إلاّ باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقّف سريعا بغياب المتفرّجين أو بتصاعد تثاؤبهم.

حتى هذا لا ينهي الخصومة. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محميّة بالمعطف الغليظ.

– والآن، هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة ؟

تشهق تفيحة بالدمع :

– قلت لها كم من مرّة أن تنظر من نافذتها، فلها نافذة بجانبها هي الأخرى. لكنّها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

– بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلاّ النظر من نافذتي.

أليست أغلب المشاكل التي يحفل بها التلفزيون كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيد غضب من الملك عمر فجهّز الجيوش وبعث بحاملة طائرات مكتظة بصواريخ عابرة للقارات لتدمير مدنه عقابا لأنه نظر من نافذته بدل أن ينظر من نافذته هو ؟

– طيب، ممنوع النظر من النوافذ الجانبية. انظرا فقط أمامكما.

لا وهم لي حول مبارزة العيون خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيّارة أجد تفاحة واضعة ذراعيها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحة تغتنم فرصة إدارة أختها لها الظهر لكي تخرج لها لسانا طويلا.

على ذكر اللسان. إنه سلاحهم المفضّل عندما يجبرهم الإرهاق أو الجبن على ترك السيف في الغمد جانبا.

عيّنـة مـن قدراتـه ونحـن نستمع لمـا قالتـه الجـارة لجارتهـا قبـل ان تكمـل المسكينة جملتها: قالـت لـي والمجالـس بالأمانـات مسـكينة أمـه كأنّ مصائبهـا مـع والـده لم تكـن كافيـه فابتلاهـا الله بابـن أفظـع مـن أبيـه يقـال إنـه فـرّ مـن البـلاد، فهـل مـن الممكـن أن يكـون للأمر علاقـة بقضيـة السطو علـى البنـك الشـعبي وبـالله عليـك مـاذا تعتقديـن أنـه فعـل بكل المـال الـذي سرقه فقلت لهـا يـا أختي لا تكونـي سـاذجة، مـاذا يفعـل الرجـال في هـذه الحالـة يغيرون السيارة والزوجـة ثـم يبـدؤون التفكير في مـا سـيفعلون بمـال الحـرام آه آه يـا لوعـتي صدقـت جداتنـا عندمـا قلـن «الرجـال والزمـان مـا فيهـم أمـان» وبخصـوص زوجتـه هـذه الأجنبيـة مـن بلـدان الكفـر كأن بناتنـا لا تليـق بسـيادته لا أذمهـا ولكـن الله وكيلـك قيـل لـي والعهـدة علـى جارتـي الأخـرى احلفـي أن يبقـى هـذا بيـني وبينـك لأن مـا سـأقوله يجـب أن يبقـى سـرا فالمجالـس بالأمانـات فأنـا لا أريـد أن أظهـر بمظهـر مـن تتكلـم في النـاس والأعـراض فـلا أكـره عنـدي مـن الـكلام في النـاس والأعـراض لأنـني بنـت حسـب ونسـب ولسـت مثـل بعـض مـن تعتقـدن أنفسـهن فـوق بنـات الحسـب والنسـب قلـت لهـا إذن وحتـى لا أطيـل عليـك إنـه قـد لا يكـون متزوجـا أصـلا وإنمـا هـي عشيقته مـن رأى شـهادة الـزواج فأنـا شـخصيا لم أرهـا ولم أحضـر حفـل الـزواج هـذا إذا فرضنـا طبعـا بوجـود الـزواج فقالـت لـي غـير معقـول كافـرة ويعاشـرها في الحـرام ثـمّ هـل سمعـت بالرجـل ابـن أخـت عمـة جارتنـا الـذي أطلقـوا الرصاص علـى رأسـه فلـم يحسّـن ذلـك ذاكرتـه أو مسـتواه الذهـني الـذي تعرفـين أنـه كان علـى قـدّه ويقـال أن الرجـل أصيـب بنـوع غريـب ونهائـي مـن المـوت فاضطـروا لدفنـه ومـن يومهـا انقطعـت أخبـاره حتـى بطاقـات المعايـدة السنوية لم تعـد تصـل ثـم مـا الـذي عنـدك مـن جديـد بخصـوص مقصوفـة الرقبـة الـتي كانـت تثـير كل الرجـال صحيـح أنـه اغتصبهـا قليـلا وقتلهـا نوعـا مـا لكـن لمـاذا كل التحامـل علـى المسكين كلنـا بشـر نخطـئ ونصيـب والكمـال لله وحـده.

فيـض مـن حروبهـم اللسـانية الـتي تمهّـد أو تعقـب أو تواكـب خصامـا لا ينتهـي...هـذا الفعـل الـذي يمارسـونه كبـارا وصغـارا، إناثـا وذكـورا، مـن المهـد إلى اللّحـد طيلـة جـزء هـامّ مـن الرحلة...أكـره مـا يكرهـون بالقـول ، أحـبّ مـا يحبـون بالعمـل.

مـن أيـن لـي الوقـت والمـكان في نـصّ مكتـظّ كهـذا لأروي خصومـات الأطفـال مـع الأطفـال والبوليـس مـع المافيـا، والبوليـس مـع الإرهابيـين، والبوليـس مـع البوليـس، والزعمـاء مـع الزعمـاء، وأشـباه الزعمـاء مـع أشـباه الزعمـاء، والمافيـا مـع المافيـا، والزوجـات الحـلال مـع العشـيقات الحـرام، والأزواج الغاضبـين لشـرفهم مـع العشـاق قليلـي الحيـاء، والآبـاء مـع الأبنـاء المراهقـين، و جبـاة الضرائـب مـع دافعيهـا واليمينيـين مـع اليسـاريين، والجـيران مـع الجـيران، والشـركاء مـع الشـركاء، والعلمـاء مـع العلمـاء، والفلاسـفة مـع الفلاسـفة، والرهبـان أو الراهبـات مـع الرهبـان أو الراهبـات داخـل الأديـرة المغلقـة.

كل هـذا الخصـام الـذي لا ينتهـي هـو الـذي يعطينـا في فضـاء الحـواسّ الشـجار علـى الطريـق العـام وارتفـاع الأصـوات عنـد الجـيران مشـاكل الخيانـة الزوجيـة والطـلاق وخطـف الأطفـال

والنصب والسرقة والقتل بين الأحباب...جلّ العفن الذي يمكّن طفيليات تعرف بالمحامين والقضاة وكتبة المحاكم والسجانين ومروجي الأخبار الوسخة من الارتزاق الشريف.

ممّا يزيد من ثقل ملف المتصارعين شكواهم الدائمة من بعضهم البعض والمبدأ «هو الظالم وأنا المظلوم». هكذا تعبر العالم وأنت تسمع هذا يصرخ بشمم مجروح: «وإذا أتتك مذمتي من ناقص»، وذاك يشيح عنه البصر مغنيا بتكّبر ينزف وجعا : «ما كانوا طلبوك بذمتهم لو لم تكن منهم أجلّ وأعظم».

أخطر خصوماتهم تلك التي يعيشونها في طيّ الكتمان لا تسمع لهم صراخا أو أنينا.

وبالمناسبة، هلاّ قلت لي كم غزوات مظفرة قدتها في فضاء خيالك ؟ كم من خصومات صفيتها طبعا دوما لصالحك؟ آه ترفض الردّ وتعيدني للنص مدعيا أنني رجل مأزوم، ومن الأحسن أن آكلها أنا بالملعقة هذه الأدوية المهدئة للأعصاب التي أصفها للناس.

صحيح إن كل هذه الخصومات التي لا تنتهي وكل مخاصميّ المختبئين في كل الفضاءات بدأوا يوتّرون أعصابي .

كيف لا أتوتّر وأنا أشعر بوخز في مؤخرتي فأقفز صارخا من شدّة الألم. إنّه ساحر مجهول بصدد وخز دمية ترمز لآدمي آذاه أو آذى حريفا يدفع بالعملة الصعبة، لكن الوخزة ضلت طريقها فأصابت مؤخرة بريئة لكاتب مسالم ينبذ العنف مهما كان مأتاه بل ويدعو من فرط سذاجته السباع المفترسة أن تفضّل الأكل النباتي على تمزيق الأجساد ولعق الدماء. اللهم إلا إذا كانت وخزة مدفوعة الأجر من قبل سحرة البوليس السياسي أو غريمي من هنا وهناك، أو الذي أجهل أنه غريمي وما أكثر ما تضع الحياة أمامك من غريم. ما من شكّ أن وصولي لهذا العمر ليس فقط نتيجة إفلاتي من القنابل العنقودية والسيارات المفخخة وإنما أيضا من الوخزات الطائشة منها والموجهة بإحكام لعينيّ وصدري ومؤخرتي.

تسخر منّي مجدّدا ! آه يا قارئي، لو كنت قادرا على رؤية ما وراء الأستار لرأيت في هذه اللحظة ما لا يعدّ من السحرة لا فقط في الأدغال وإنما في أقبية فيلات كبرى مدن الثروة والحضارة وهم عاكفون على دماهم يخزونهم ببالغ العناية فتتساقط الضحايا بضربات الإبر مثلما تتساقط في فضاء الحواسّ بضربات الرماح.

لكن ما مفعول إبر الذكور، مقارنة بالمساحيق العجيبة للإناث وهن يمزجن بول بقرة مصابة بالجرب، بسوائل أنف مسلول، بروث ماعز مجنونة، بشعر عانة ميت منذ شهر ودم فأر ذبح ليلة القدر. ما من شكّ أنني أفضّل الموت بوخزة تسدّد ببراعة لدميتي على شرب شيء مما تعده اللعينات.

لمداواة قلق متصاعد أهرع لمجلة الأحد أقرأ برجي هذا الأسبوع علّني أجد فيه ما يهدّئ من روعي. لعلمك، أنا ككل الناس اعتبر نفسي رجلا عقلانيا غير متطيّر، لكنه يقرأ كل أسبوع برجه وبرج من يحب خفية ، فيسرّ بالأخبار الطبية ويسخط على كاتب الركن عندما يضع في مستقبله أدنى إشارة لا تعجبه.

البرج؟ أليس من أدوات الحرب السحرية وقد يكون أخطرها ؟ أعيد قراءة ركني المفضّل من الجريدة بحذر. ما المقصود بلا تقلق، وكن حذرا في بداية الأسبوع، ما هذه الوعود المعسولة التي تزرع بمنتهى الخبث؟ هل هي لتخدير الضحية؟ السمّ في الدسم !

أحسن وسيلة للدفاع الهجوم، فلأحارب أعدائي بما يحاربوني به. أدبّج برج عدوّ الأسبوع. من عدوّي الأكبر هذا الأسبوع ؟ لا يهمّ، فلأرشّ بالجملة شريطة تفادي تصويب أسلحتي نحو برج السرطان حتى لا أصاب بقذائفي أو في اتجاه الأسد لأنه برج أطفال لم يعقّوني بعد صراحة. لا رحمة بالأبرياء الذين ستصيبهم قنابلي فما عليهم إلا عدم قراءة الأبراج، ثم ما معنى البراءة في عالم كلنا فيه آثمون؟ أعضّ على القلم وأبدأ في إطلاق التنبّؤات: كن حذرا في بداية الأسبوع وفي وسطه وفي نهايته، فالنهاية قريبة، ويمكن أن تأتي في كل لحظة، المصيبة الآتية ستجتثّك من جذورك، لا مهرب لك منها حتى ولو غيرت برجك، نحن السرطان لا نعطي حق اللجوء، والاستثناء الوحيد لبرج الأسد. ها قد حكم على كل أعدائي الموزعين في مختلف الأبراج بالعيش في قلق متواصل، تقضّ مضجعهم الحيرة بخصوص المصيبة المبهمة التي لا قدرة لهم على تفاديها.

هناك أيضا صراعهم في فضاء الرموز.

تصرخ البنتان: الليلة معركة الأمير ضد الساحر الخبيث... المعركة! المعركة!

لا بدّ من التشبّث بقرار الرفق بالطفلتين.

– ما رأيكما في بعثة استكشاف للركن الغربي من الحديقة ؟

تحتج تفاحة وتفيحة بأن الظلام لن يمكّن من مشاهدة لا النمل ولا السلحفاة الصغيرة وأننا استكشفنا الركن بما فيه الكفاية.

– آسف، عندي وجع رأس رهيب ونسيت ما فعل الأمير بساحركم الجميل وجعبتي فرغت من القصص. ما رأيك يا تفاحة في سهرة مع كتبك المصورة؟ فجأة أنتبه لفداحة ما كنت سأرتكب من غلطة فلا أفظع من كتب الأطفال وكلها عن خصومات حيوانات لا تكفّ عن الجري وراء بعضها البعض لالتهام بعضها البعض، ناهيك عن أعمال مكر وخديعة وسرقات ومقالب لا تنتهي...كل شيء ولا كتب الأطفال.

تهمس تفاحة في أذني: لا، أفضّل أن تقرأ لنا من كتبك أنت. كتبي أنا ؟ وهل فيها شيئا آخر غير الخصومات؟

أشير للرفوف المكتظة هامسا للبنتين بخوف مفاجئ.

– أنصتا ملياً.

تنفجر تفيحة محتجة بأنها لا تسمع شيئا مما أدعي سماعه.

– صدقيني، كل هذا الصمت افتعال وإلا ما تفسير الخدوش التي تعلو الكتب وكثرة الأوراق الممزقة داخلها ؟

تضحك الطفلتان وأنا أصف لهما كيف تنتظر ذهابنا للفراش لتقفز على بعضها البعض كما يفعل الأطفال في ساحة المدرسة بعد نهاية الدرس فتتشابك الصفحات وتتلاكم الجمل.

نعم لنفضح معاركهم الحامية الوطيس داخل صفحات الكتب. أصخ السمع للصراخ المتصاعد من الصمت المريب: «يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلّف، يا ملحد، يا عدو الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله!... أؤمن بما أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا نؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائيون بأساطير ساذجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك قساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... من الغبي الذي قال اعرف نفسك ؟ يا للهول لو عرفنا حقيقتنا وأي جحيم كنا نجرّب لو عرفنا ما يوجد حقا في أعماق الذوات الأخرى؟ ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُوّل... أعيدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيدا وفهمنا كيف نحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... آه يا أوباش، حقا لا نبي في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن خلافا للأغراب نعلم عنك كل شيء...كذابون... كلكم كذابون...

ما لهم كلهم مع الكذب؟...أليس الوظيفة الثانية للّغة، مثلما النسيان الوظيفة الثانية للذاكرة؟... تصوروا عاشقا وكاهنا وطبيبا، ولا يكذب...مرّة أخرى الجاحظ وهل ثمة غيره عندما يتطلّب الأمر التشخيص الدقيق لخزعبلات البشر : «وإن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكر مثالبه ويحابون الصدق بتذكر منافعه وبتناسي مضاره وانهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون».

نتيجة حبهم للكذب على بعضهم البعض ولتكذيبهم لبعضهم البعض ،لا يخرج فيلسوف أو عالم بفكرة أو مشروع، إلا وسارع إليه غريم يسفّهه ويدعو لعكس ما يدعو إليه.

يحتدّ الصراع بين المجلدات الدينية والمناهضة للدين في معركة يسيل فيها الحبر أنهارا. يتناطح في الهواء «صحيح البخاري» مع «الإعلان الشيوعي» وكأنهما ديكان غيوران على حريم من الدجاج. ما إن تكتشف كتب الفلسفة المثالية بداية تحرّك كتب الفلسفة المادية حتى تقرّر الدفاع عن مواقعها ووقف زحف العدوّ ثم الالتفاف حول جناحه الأيمن والإجهاز عليه قبل التفرّغ لتصفية الجيوب الباقية. تأخذ كتب المادية بخناق كتب المثالية وترتمي كتب المثالية على كتب الجدلية وتنشب كتب الجدلية صفحاتها المدرّعة بكتب الأساطير التي تبعث بجملها المسمومة في كل اتجاه تقصد بالأساس مقولات الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية والداروينية الميتافيزيقية فتصيب خطأ الهيكلية الأدبية، والحال أنه لا ذنب للهيكلية الأدبية في صراع العقائد حيث هي جنس مسالم من النقد الأدبي. تفتعل كتب الميكانيكية النيوتونية الحوار الهادئ البناء مع كتب الميكانيكية

النسبية، ثم تفقد أعصابها أمام صلف العدو ووقاحته لترتطم الصفحات بالصفحات. تصرخ الكتب الصغيرة وهي تترنح تحت لكمات المجلدات. تهبّ إلى نجدتها المجلدات التي هي على نفس الموقف...إلى ما لا نهاية ولا رأي يبرز إلا ووجد من يخالفه ويسفهه ويهاجمه.

خلقنا من الحروف والكلمات كائنات- لنسمها الفكريات- تتصارع بينها كما تفعل النباتات والحيوانات والبشر، ويا ويلك منها وهي التي تمهّد لجل الفظائع التي سنتعرض لها ونحن نتابع صراعات الآدميين عند قدوم موسم الحرب.

تقول : صورتك للآدميين كاريكاتورية.

يبدو أنك عاقدُ العزم على مخاصمتي وأنا غير مستعد لتضييع وقتي مع آدمي مثلك لا يتفق معي في كل ما أقول ويحاول باستمرار حشري في الزاوية. وعوض أن أضع من قدري بالردّ عليك فإنني أفضل كآدمي راقٍ وابن عائلة معروفة أن أدير لك ظهري بكل الإشارات المكنة الدالة على استخفافي بك لأنغمس في لعبة لا يقدر عليها أمثالك من المتخاصمين بالإبر غير المعقمة وبالعضلات التي في الفك والتي على الذراعين.

يدفع الحاسوب بأوّل قطعة على رقعة الشطرنج التي أخذت مكان النص على الشاشة.

الحاسوب! شيء لا زال أداة وامتدادا لفكرنا ...لنتمتّع به قبل أن نصبح -قريبا على ما يبدو-نحن أداته وامتدادا لفكره هو.

ها قد تغيّرت صلة السيد بالعبد التي طبعت دوما علاقتي مع آلة لم أطلب منها يوما سوى رقن كتاباتي بأناقة وخزنها بإخلاص وإرجاعها لي بسرعة البرق. أنا الآن أمام خصم عنيد. أدفع القطعة تلو الأخرى فتسقط بسرعة لا تصدر صوتا. نعم هكذا يجب السقوط في ساحة الحروب بدون ضجيج مزعج قليل الذوق. يعلن الحاسوب نهاية المباراة: كشّ مات. إنّها نفس مشاعر الهزيمة في معركة الجسد. خليط من المهانة والنقص والألم وشهوة الانتقام. أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللّعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمنّي نفسه باستعادة كلّ ما خسر في الجولة المقبلة. تتزايد خسارة المقامر. أتريد اللّعب من جديد؟ تنتهي كلّ معركة بنصر للعدو. وفي مثل هذه الوضعية يلتجئ الآدميّون لأساليبهم المعهودة وعلى رأسها التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيضطرني لرميك في سلّة المهملات.

يصمت الحاسوب اللّعين مكتفيا بنفس الإعلان البائخ : كشّ مات.

كم للآدميين من قصص عن قلاع دخلوها بشراء المفاتيح من الحرّاس عوض تضييع الوقت بالموت بطوليا فوق أسوارها.

- اسمع يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أيّ جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوسا في هذا القفص. إن ألححت، سأكون شاهد الزواج وعمّ

الأطفال، بل وسأضعكم كلّكم في كمبيوتر نقّال لفسحة نهاية أسبوع فلا تقضّون العمر كلّه في هذا المكتب الكئيب.

– «كشّ مات».

– وماذا لو زوّجتك تفيحة. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا ؟

– «كشّ مات».

يواصل جزء من الفكر عبث السخرية من عدوّ بلا وجه ولا إحساس، والجزء الآخر بحثا متزايد التشنج عن مقتل له. عبثا. الرابعة صباحا! لا شك أنني أرهقت الحاسوب المسكين وأن من حقه أن يرتاح حتى لا يداهم الضباب عينيه وتختلط عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب.

هنا يلقي النصّ بسؤال يضاف للملفّ الادعاء العام ضد الآدميين. ما الذي يدفعهم إلى الخصام ينظّمونه في كلّ فضاء ويبحثون له عن كلّ الأشكال والأساليب من منتهى القوّة الجسدية والصخب إلى منتهى الصمت والتجرّد الفكري؟ ماذا جعلوا من الحرب رياضة ومن الرياضة حربا هم الذين يتشدّقون طول الوقت بحبّ السلام وكره الحرب؟

اللعنة! اللعنة! اللعنة! كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من ضرب الأول ومن سبقه بالبكاء والشكوى... كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجمل ومن الأولى بالاعتبار... كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومن ما زال أسير الخطأ... كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من دان بالدين الصواب ومن ما زال يتخبط في أساطير الأولين... كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته، بخصوص من سرق هذه الأرض ولن يجب أن تؤول...كفّوا، كفّوا، كفّوا... أضجرتموني بخصوماتكم العبثية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم الأزلية... بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وفي الخمسين...كفى...كفى...كفى...أغربوا كلكم عن وجهي، لا أريد المزيد من خصوماتكم المقرفة....ماذا؟ استجابوا لدعائي !...الملاعين ! صدّقوني، رحلوا، فعلوها بي رغم كل ما فعلته من أجلهم... والآن مع من سأتخاصم؟... ثمّ مع من سأتمتّع بالمصالحة بعد أن تمتّعت بطول الخصام ؟

* * * * *

صراعها من أجل الفناء

المشكلة تطوّر الخصومات إلى ما لا يحمد عقباه.

لا توجد ظاهرة صاحبت الآدميين منذ انطلاق الطريق قدر الحرب يقودونها في كل الفضاءات يتعهدونها بكل ما أوتوا من عبقرية. هم يعدّون لها أطفالهم باكرا ،يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب منذ نعومة أظافرهم حول أمجاد أجدادهم ، يقبّحون كل الذين لا يشبهونهم، يزينون القتل والموت من أجل الزعيم الأوحد والوطن المفدى والدين الحنيف . لهم مدارس مختصة يعلّمون فيها شبابهم السير كالخرفان والقفز كالقردة، والاختباء كالحرباء، والزحف كالثعابين، والافتراس كالكواسر.

كم يحبّون أيضا إظهار استعدادهم للمعركة الفاصلة التي ستظهر أنهم أقوى أمّة أخرجت للناس.

يومها خصّصت المدينة المغبرّة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفّت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم. على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم الألعاب واللّعب. كان كبار القوم- الذين حشرت بينهم خطأ- يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطوابير الطويلة للمدرعات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس والذكور بصدد مضاجعة الدبابات، والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

حقا ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنّني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الآدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء. إنها دوما نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البذيء والأخضر البليد. كأنّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدّعي التقدم على القرون الماضية، متخلّف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص خيطت به حتى أزياء كبار العارضين بالمقارنة مع جلود النمور والتماسيح التي كان أجدادنا يرتدونها؟ أين نحن اليوم من صخب الألوان لجيوش قرطاج وروما؟ أنتخلّى بهذه البساطة عن ثراء القلنسوات وتنوعها والخوذات من أجل هذه القبعة الامريكية البشعة؟ لا ثمّ لا. نعم أقولها و أمشي:

لا بد من عودة الريش نرشقه فوق خوذة رومانية ثقيلة نلفّها في عمامة ناصعة البياض، نرصّع واجهتها بالأحجار الكريمة لكبار القادة، وبالزجاج الملوّن لضباط الصف ونقتصد في مستوى الجنود فنلبسهم خوذات من الكارتون وعليها قطع من الورق الملوّن.

لحسن الحظّ أنقذت لوحة واحدة الاستعراض حيث نجح فيها المخرج بكيفيّة تذكر فتشكر، وقد وضع العارضين على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزوّدهم برماح زرقاء طويلة.

ثمّ اختتم الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبة على متن عربة مصفّحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيّتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير.. ولا أحد واع آنذاك أن المرأة ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبعبع الذي تعبّدت له ذلك اليوم.

كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر ولا زلت حيا يرزق والحرب عند الآدمية لا تنتهي هنا إلا لتبدأ هناك. كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الخيالة برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه «التلفاز» بينما مزّقت ولا تزال تمزّق كل يوم أجساد مساكين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه.

أرأيتم كل ما فعلوا وكلّ ما يفعلون؟ من أين لنا أن الصدى كلفهم بشيء أو ينتظر منهم شيئا ؟ قد يكون ابليس انتحل الصفة ليتخلص منهم آملا أن تأكلهم الضباع أو أن ينتحروا.

سواء من باب الرحمة أو من باب النقمة يجب على النصّ متابعة جهوده. لماذا لا ينظّم لهم المعركة الختامية ليفرغوا كل ما بداخلهم من عنف فيرتاحوا ويريحوا عالما غامر بفتح أبوابه لهم وهو لا يعلم أي حماقة يرتكب.

أضيف في غفلة من المفوضين السامين الذين دبجوا آخر معاهدة صلح الحديبية البند التالي «وحيث أن المضين أسفله أصابهم القرف من تكرار الحروب رغم كل معاهدات السلام، فإنه تقرر تنظيم أم المعارك في ساحة كوروكشترا للفصل النهائي بين كل المتنازعين ماضيا وحاضرا ومستقبلا. الحضور إجباري».

لتكن بحق أمّ المعارك وحتى جدّة أبيها الكلب ...معركة تصفية الحسابات التي تراكمت على مرّ التاريخ بين الآدميين المتخاصمين على تلك الأنثى، على ذلك الذكر، على القطعة المتاخمة للغوط التي افتكها الورثة غير الشرعيين، على مساحة الصيد المخصصة للقبيلة والتي اعتدت عليها القبيلة الأخرى، على مونوبول تجارة الحرير واللبان والعاج والعبيد والتوابل ومشتقات البترول، على أحقية الماركسية الحقيقية بالنطق وحدها باسم الثورة، على حدود الإمبراطورية العظمى التي لا تغرب الشمس عليها، على الانقلاب الذي قام بتصحيح الثورة فانقلب على الذين انقلبوا عليه، على

ما قلته عنّي أيها الوغد لمّا قلت أنني قلت ما لم أقله بخصوص من قال في الكبائر، على المكاسب والمغانم والأنفال والسبايا عشية الصدام الأخير مع أبناء العمّ والتي أخذها كبار السادة بغير حقّ.

الملاعين ! هم في كل حرب يدافعون عن العرض، عن الأرض، والحال أنهم دوما بصدد سلب الآخرين أرضهم وعرضهم ناهيك عن حقوقهم وحرياتهم، وعندما يكونون في موقع الدفاع فهم يصدون أغلب الوقت هجمات من يريدون سلبهم ما سلبوا ونهب ما نهبوا.

يسقط كل الأغبياء في الفخّ المنصوب خاصة وأنني همست في أذن الجميع أن النصر المبين سيكون حليفهم وأنني أزفّ لهم البشرى من الآن باسم السلطات العليا التي قررت الاصطفاف لقضيتهم العادلة.

*

يتدافع لما يسمونها «ساحة الشرف»، قابيل وهابيل وجيش الانتقام لهابيل، وجيش الانتقام من المنتقمين وجيش تحرير النساء وجيش تحرير الكوسوفو، وجيش تحرير إيرلندا الشرقية، وجيش تحرير تيمور الشمالية، وجيش تحرير الجنس الآري، وجيش تحرير الأشجار والحيوانات، وجيش تحرير المغرب الوسيط، وجيش تحرير الشرق الأقصى، وجيش تحرير المريخ، وجيش الدفاع البوذي، وجيش الغزو الجرماني، وجيش تحرير الجزء الغربي من إيرلندا الشرقية، وجيش تحرير العمال والفلاحين، وجيش تحرير الفلاحين والعمال، وجيش تحرير النصف الجنوبي من الجزء الشرقي من إيرلندا الشرقية، وجيش تحرير القدس من الصليبين والمسلمين واليهود والسياح، وجيش تحرير أفريقيا من الإفريقيين، وجيش تحرير أمريكا من الهنود الحمر، وجيش تحرير الهنود الحمر من جيش تحرير أمريكا، وجيش تحرير نينوى، وجيش تحرير السكّان الأصليين من الأجانب الغزاة، وجيش تحرير السكان ما قبل الأصليين من السكان الأصليين، وجيش تحرير هيلين طروادة، وجيش تحرير الاقتصاد الحرّ، وجيش تحرير الكواكب السليبة، وجيش تحرير أوروآسيا من الخطر الأصفر، وجيش الميكادو لتحرير عموم آسيا، وجيش تحرير الربع الشمالي للنصف الجنوبي الغربي من إيرلندا الشرقية.

لأتوقف، أنهكتني متابعة عدد جيوش التحرير وخاصة جيوش تحرير ايرلندا الشرقية، فلكل حصاة في هذا البلد جيشان تحرير على الأقل: الأصلي والذي انسلخ عنه (لأنّ نائب القائد كان يريد قتل القائد ليعود له هو شرف تحرير الحصاة ولما فشلت مؤامرته انشقّ عنه) هكذا أصبح كل جيش تحرير يتركب من رجل واحد يصرخ في وجهه في المرآة: إلى الأمام يا جيشي الباسل فيرد عليه ظلّه: المجد لك يا أكبر غزاة ايرلندا. الخلود لك يا جنرال أوبريان.

أخيرا حضر كل المعنيين بالأمر، بوسعي إعطاء إشارة الانطلاق للمجزرة التي سيحقق بها النصّ أهمّ أهدافه: إنهاء قصة يمكن أن تنتهي إن تواصلت نهاية أفظع .

تتعالى أصوات جرسية بالاحتجاج.. طيب، لتتقدم الجيوش الأنثوية للنبيةّ الكاذبة ستربتكوفسكايا، لعنتها الآلهة الذكورية، ومعها جيوش النبية الأكذب "ماياكوفسكيا".

انتهى الجرد للمتحاربين فليتفضلوا.

يتعالى الصراخ من داخل حاسوبي : انتظر. نسيتنا نحن أبطال المستقبل. طيب، لتتقدّم الجيوش الافتراضية. هل اكتمل النصاب أخيرا ؟ أتراني نسيت جيشا ما سكن أقصى الماضي أو أقصى المستقبل ؟ لم يرتفع صوت احتجاج وأنا ألقي بالسؤال. إذن كلّكم جاهزون للمجزرة . الآن اصطفوا ، أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس ورائهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرّات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سويّ وإنما عقل آدمي. قلت تنظموا. إلى الوراء أيها المتسلّل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك. كفّ أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرشّاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

تتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وببنادقها الميكروسكوبية لتفجير الكواكب والشموس والمجرّات.

أصفّر لكي يبدأ حمام الدم. لا يتحرّك أحد. أصفّر ثانية وثالثة ورابعة دون نتيجة.

يداهمني التعجّب فالغيظ فالهلع. يا ناس أنا صاحب هذه القصة ولا بدّ أن تتقاتلوا فيها وإلا ماذا سأقول لقرّائي؟ هل سيحملون بقية حديثي على محمل الجدّ وأنا عاجز حتّى عن التحكّم في أبطال قصّتي؟

يسرّ فيّ الوعي الباطني: إنها لحظة الاضطراب والتردّد، أهم ما في السيناريو، هل نسيت وصفها البليغ في نص من أهم نصوص البشرية شدك ليالي طويلة وأوحى لك بالكثير من الخواطر؟

آه المعركة المقدسة، حين صفّر الربّ كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فبقي السيف في الغمد مما أثار غضبه هو الآخر. يومها قطّب جبينه وقد جاءه نفس القلق وباغته نفس السؤال: بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

وفي هذه القصة يصرخ البطل أرجونا في ربّ لم يجد إلاّ ساحة معركة للتجلّي: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاري وأقربائي الآخرين كلّهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبدا ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهريتاراشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين».

الآدمي واع إذن أن حروبه صراع اليد اليمنى ضدّ اليد اليسرى...صراع الأسنان واللسان في الفكّ الواحد!

يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

– «يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل».

يمرّ للتهديد.

– «إن لم تقاتـل فسـتكون خائنـا يقـال عنـه إنـه جبـان. إن ضيـاع الشـرف للنبيـل أفظـع مـن المـوت».

كيـف نسـتغرب ألا يدخـل الهنـدوس بيوتهـم قصتهـم المقدسـة مكتفـين بالقسم عليهـا في المحاكـم وهـي أكـبر مشـرّع للقتـل ومحـرّض عليـه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عيّره الربّ بالخوف أم لم يعيّر.

– "ارشـق سـهمي في بهيشـما ودرونـا ولهمـا علـيّ كـم مـن فضـل ومنّـة؟ أفضّـل أن يقتلـني بنـو دهيرشـترا وأنـا أعـزل بـلا مقاومـة علـى ارتـكاب هـذه الموبقـة».

الرب مجرّبا الوعود البراقة.

– "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض «.

يتمسّك أرجونا برفضه مذكرا الرب بأنه لا زال كائنا عاقلا.

– «ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمر تراثنا»؟

– «الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر».

موجة من الإشفاق. مجدّدا تناقضاتي.

أصـرخ في أرجونـا: أفـق إلى تناقضاتـه هـو. إن كان سيّان لديـه القتـل وعـدم القتـل، فلمـاذا يصـرّ علـى دفعـك لقتـل الأحبـة والأصحـاب؟ إن كان علـى الحكيـم أن يفعـل الشـيء مـن أجـل الفعـل دون انتظـار الثـواب فلمـاذا يطمعـك بالجنـة في العـالم الآخـر وبالملكـة في هـذا العـالم؟ أصـغ إلى قلبـك وإلى عقلـك. لا تتحـرك.

لم يبق للربّ سوى التحريض الخسيس:

– "تغتمّ لمن لا يستأهلون الغمّ «.

أي تفسـير لإصـرار الـرب علـى إفنـاء الآدميـين ولمزيـد التنكيـل بأيـدي بعضهـم البعـض غـير أنـه يئـس هـو الآخـر مـن إصلاحهـم.

ثم يلتجئ إلى الجمل الرنانة ينافق بها ويزيّن مطلق الشرّ.

– «إنّه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة».

يتكثّـف صمـت أرجونـا. هـل سـتحدث المعجـزة ويـؤوب الـربّ بالإخفـاق والآدمـي بالنصـر وقـد أصبـح أخـيرا إنسـانا ؟

توقّـف علـى الصـورة . مـا القـوى الـتي تتصـارع داخـل أرجونـا وهـو بـين إقـدام وإحجـام ؟ لنختزلهـا في ثـلاث رئيسـية.

ثمة القوة التي سنسمّيها الوضع المحدِّد.

كم من قرارات بشرية آتية أحيانا من أعماق الزمان بكل ما فيها من أخطاء وخطايا لا دخل لنا فيها، تدفعنا في هذا الاتجاه أو ذاك ترسم ممرات بالغة الضيق علينا التحرك داخلها ونحن مثل حبة رمل وسط الزوابع والأعاصير. ثمة بما لا يترك مجالا للشكّ إرادة قاهرة غير مشخصة مستقلة عن إرادة الآدمي هي حصيلة الإرادات الفردية والجماعية في تفاعلها مع العتام وبينها تراكمت منذ بداية التاريخ أنتجت الوضع الذي يجد الآدمي نفسه مورّطا فيه. هذا الوضع بحكم قدمه وضياع أسبابه وتعقيده الهائل، أمر يتجاوز طاقة الفهم فما بالك طاقة التحكم. قد يكون هذا ما أسماه القدماء الدهر.

ثمة أيضا الاستعدادات الفطرية للآدمي، أي جملة الأفعال والتفاعلات التي يقدر عليها وتمتدّ على طيف أقصاه القدرة على الشرّ المطلق وأقصاه الآخر القدرة على الخير المطلق. هذه الاستعدادات الغريزية هي التي يلعب عليها الوضع المحدد. من هذا المنظور ترى كريشنا في حواره مع أرجونا يحاول تشغيل «المناطق" من ذاته التي تحبّ القتل وتشلّ التي تكرهه.

أخيرا القوة التي تسميها اللغة الحرية . لولاها لكنا مجرد روبوات من لحم ودم يحركنا دوما وآليا الوضع المحدّد في الاتجاه الذي يرسم بوعي وأغلب الوقت دون وعي . لكن الآدمي وإن كان نوعا من الروبوت المصنوع من الدم واللحم قادر على الخيار. هو يستطيع اتباع أوامر الوضع المحدّد والتصدّي لها. هذا ما يجعل من المستحيل على أي منجّم– وربما حتى على الربّ نفسه– أن يقول: هذا الجندي هو الذي سيجهز على الجريح، وهذا الآخر من سيبادره بالماء. نعم ثمة داخل حبّة الرمل التي هي الذات طاقة جبّارة قادرة حتى على عكس مسار الريحح حتى وهو في أوج الهيجان.

رغم هذه القدرة تعجز الحرية هذه المرة عن التصدّي لقوة الوضع المحدّد فتتحرك عربة أرجونا إلى الأمام. ها هو الآدمي :

يدخل المعركة متجهمـــــا **(لاوتسو)**
حزينا، القلب يطفح شفقـة
كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

*

الآدميّون وهم في حالات –أدوار رهيبة فرضت عليهم... أو هكذا يدّعون.

نبدأ بالمسكين الذي يمشي مذهولا، مرتعشا، مدفوعا من الخلف بمسدس قائده يضحك من فرط الخوف ويغمى عليه قبل أن يرتطم بالرصاصة والسكين. إنه الضحية القاعدية. أغلب المدعوين للحفل على شاكلته فجلّهم هنا بحكم الوضع المحدد لا بحكم رغبتهم. هم لا يخرجون لمدافع العدو إلا يقينا منهم بأنهم سيعدمون إن لم يخرجوا لها، وأملا في ارتعاش يدي عدو لا يقل عنهم خوفا ذلك لأن البشر لا يحبّون إطلاقا أن يطلق عليهم الرصاص وأن يبقروا أو يشنقوا أو يوضعوا في عربات مجرورة لحضور حفل قطع رؤوسهم

بالسيف أو بالمقصلة، ومن ثَم استغراب كل المهتمين بالشأن الآدمي من كثرة الحروب عند جنس لا يكره أفراده شيئا قدر الحرب.

ثمة نوع تدبّر أمره لحضور المجزرة دون تكلّف مخاطرها. مثلا من يفضّل متابعتها من مكان آمن على صهوة حصان لأنه الزعيم. أضف "المضطرّ" للسهر على راحة الزعيم من نفس الربوة الآمنة.

هناك من يختبئ حتى نهاية العاصفة (الجبان القاعدي).ثمة من ينام منتظرا نهايتها (أحبّ المحاربين إليّ).

هناك أخيرا الذين يعتبرون ساحة المعركة فرصة للانتحار مجّانا دون تحميل العائلة وزر عقدة ذنب أو سمعة مشوّهة.

ثمة البطل وهو ألعن الأصناف. عادة مهووس يسارع لإعطاء الموت أو تلقيه صارخا: يحيا الملك أو يحيا الوطن أو بلاهات من هذا القبيل. لم يفهم هذا الغبي أن البطل مرغوب فيه كأسطورة لكن ما إن يحاول احتلال موقع بين الناس إلا وسارعوا لتصفيته بطريقة أو أخرى. فهم لا يحبون الأبطال إلا في القصص لأنهم أخطر البشر عليهم ومن حسن الحظّ أخطر البشر على أنفسهم مما يقلّل من انتشار صنفهم السخيف.

هذا الرهط من الأغبياء لا يفهم أيضا أنه لا بطولة في الموت وإنما كل البطولة في العيش... أن الأبطال والبطلات كل من تعبوا وصبروا وثابروا وقاوموا وناضلوا وانتصروا على قوى جبارة تضافرت عليهم منذ لحظة الانبثاق.. أن البطلات هم النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض وفي طول صبرهن عليه سنوات وعقودا...أن الأبطال هم الرجال في خروجهم للصيد الخطر، للحقل الغارق في الوحل، للمنجم الخانق وللمحيط المرعب... ومع هذا ترى من يتدافعون لمثل هذا المكان يريدون إثبات ما لا حاجة لهم لإثباته وما لا يثبت في كل الحالات بهذه الكيفية وإنما بعكسها.

لم يعد هناك مجال للإفلات من أنياب الوضع المحدّد وعلى المأساة أن تتواصل وأن تبلغ ذروتها لعلها وعسى تبلغ أيضا نهايتها.

ينقضّ الآدميون على بعضهم البعض بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بالهراوات، بحاملات الطائرات، بسكاكين المطبخ، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق، بقبقاب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان. تتصاعد الهتافات: المجد لأمتنا العظيمة، المجد لملكنا المفدى، المجد لديننا الحقيقي، المجد لي، المجد للمجد، المجد للسلاح، المجد للموت.

يختلط صهيل الخيل بقعقعة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ.

يتعالى من مكان قصيّ من المعركة صوت عجوز بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في

البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، أبارزهم بعقب السيجار، أموت صارخا: يحيا الملك.

بيني وبينك أليس الموت وسط الصخب المزركش والحيوية الفائقة وفي صحبة هذا العدد الهائل من الأصدقاء والأعداء أفضل ألف مرة من الاحتضار وحيدا فوق سرير مستشفى؟... دوما بيني وبينك، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعمق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه من الآدميين ؟

آه، هذا مهووس آخر يدخل ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: «لنسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة» . هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوكوليوبسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوقورود، تبركا وبحثا عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عيناها. يقال أن بكاؤها أقام الدنيا وأقعدها، أن الضباب لفّ المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربين، فالعذراء لم تذرف الدموع لتمكين هذا من النصر وذاك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات موتته الفظيعة على الصليب عبثا والشرّ دوما هو المنتصر.

المهمّ إنها فرصته الكبرى ليتبلور فينا بلا حياء أو مواراة لنفعل نحن أيضا بلا رادع كل الأشياء التي يحرمها التأدب والذوق السليم ومعاهدات جنيف العشرة آلاف مثل: سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي فرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات، ناهيك عن إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات ؟ مستحيل! يا مسكين، عد لمأساة فرقة دينية تدعى «الكاتار».

من هذا الذي يقطع الأعضاء التناسلية لأعدائه بعد قطع رؤوسهم وكأنه يخشى على قتلاه أن يلدوا له على ساحة المعركة مقاتلين جدد؟ نارمر، الفرعون رقم واحد! قلة ذوق وأدب! هل هكذا تستهلّ ثلاث آلاف سنة من المجد؟

من هذا الذي يذُبح بمنشار، نعم بمنشار؟ آدمي اسمه «برزان» بالغ بعض الشيء في فنون القتل فردوّا له الموتة بأحسن منها. من هذا المسمى "ايشا"؟ آه عالم كان يحقن آدميين بالجراثيم ثمّ يذبحهم قافزا فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم وقد أصبح يتوفّر على ما يكفي منها لصنع القنابل البيولوجية.

فعل الأفعال! طبعا قاتل، قتل... بكل الوسائل التي تتبارى وتتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشية... هل ثمة كائن أفظع من الآدمي على سطح هذه الأرض؟

علـى فكـرة ، مـن هـذا العـدوّ الـذي نقتـل وسـنواصل قتلـه بـكل هـذه «الوحشـية» وبـكل هـذا الإصـرار وطـوال العصـور الماضيـة منهـا والآتيـة ؟

أيكـون هـذا الجنـدي الـذي خـرج مـن وراء أكمـة جنـدي يمسـك بنطلونـه بيديـه وقـد فاجأتـه القنابـل وهـو يقضـي حاجتـه الآدميـة ؟ يقهقـه أوروال رافضـا أن يطلـق عليـه النـار فرجـل يمسـك ببنطلونـه لا يكـون عـدوّا جدّيـا ولا حتـى عـدوّا.

يتحصـن ثـوار كتـاب "البؤسـاء» خلـف المتاريـس الحجريـة والمدينـة في قمّـة مخـاض أجمـل مولـود اسمـه الحرّيـة. خلـف أكيـاس الرمـل والحجـارة الـتي اقتلعـت لتوهـا مـن الشـوارع المبلطـة ، يرفـع الآدمـيّ فوهـة بندقيتـه ببطء صارخـا في أصحابـه لـن يفلـت ابـن الكلـب. إنّـه بالضبـط حيـث يجـب أن يكـون. يضغـط علـى الزنـاد. فيرتـجّ جسـد الضابـط الشـاب الوسيم وكأنّ يـد القـدر هـي الـتي لطمتـه فيهـوي مـن علـوّه. يصـرخ أحـد المقاومـين.

– كم مؤسف أن تقتل شابا كان بوسعه أن يكون الأخ الصغير لأيّ واحد منّا.

– لكنّه فعلا أخي فرنسوا!

أخوك! إنه أكثر من هذا يا حمار...إنه أنت .

*

القـارئ المجهـول: لا تعجـل علـيّ مجـدّدا بأحكامـك السـطحية . ثـمّ مـا هـذه النظـرة الفوقيـة الـتي تدّعـي فهـم ظاهـرة بمثـل هـذه الخطـورة وأنـت لم تكلّـف نفسـك لحظـة عنـاء الحديـث مـع مـن عاشـوا تجربـة أفلـتّ منهـا وبالتالـي تجهـل أهـمّ مـا فيهـا.

اعـتراض جـدّ وجيـه. لنسـأل المعنيـين بالأمـر. هـل سـيتكلّمون معـي؟ كـم مـن دراسـات وقصـص وأفـلام عـن الحـرب وهـي فارغـة مـن كل مضمـون إذ لا تصـف إلا القشـور، أمـا اللـبّ فممنـوع والذيـن عاشـوا التجربـة يرفضـون كل حديـث عنهـا، ربمـا لأن تذكّرهـا كتجربتهـا مـرة ثانيـة... ربمـا للشـعور بالدنـس الـذي لحقهـم منهـا ؟

وممّـا صـرّح لنـا بـه القتيـل قبـل آخـر غرغـرة المـوت أنـه غـير مصـدّق أنـه مقتـول، أنـه اكتشـف أن اللعبـة لم تكـن لعبـة ، أنـه اكتشـف عـدم وجـود علاقـة خاصـة لـه مـع الله أو مـع أي كائـن آخـر وضعتـه أمـه تحـت رعايتـه يحميـه محبّـة فيـه وفيهـا... أنـه مـا زال تحـت وقـع هـذا الاكتشـاف الهائـل... و يـا رب كـم هـو رهيـب هـذا الألم، و يـا رب مـا هـذا الخـوف الفظيـع ، لمـاذا تخليـت عـني وكيـف يمكـن للعـالم أن يتواصـل دونـي، و يـا أمـاه لا تتركيـني، و يـا ظـلام توقـف عـن الزحـف ماتـزال بـي شـهوة إلى النـور!

لمـا سـألنا الآدمـي القاتـل، هـذا مـا صـرّح لنـا بـه وهـو ينظـر ذاهـلا لشـفرة سـكينه بعـد نهايـة الذبـح... أنـه غـير مصدق أنـه قاتـل، أنـه اكتشـف أن اللعبـة لم تكـن لعبـة ، أنـه اكتشـف عـدم وجـود علاقـة خاصـة لـه مـع الله أو مـع أي كائـن آخـر وضعتـه أمـه تحـت رعايتـه ويحميـه محبّـة فيـه وفيهـا، أنـه مـا زال تحـت وقـع هـذا الاكتشـاف الهائـل... و يـا رب كـم هـو رهيـب هـذا الألم، و يـا رب مـا هـذا الخـوف الفظيـع ، ولمـاذا تركتـني ولمـاذا تخليـت عـني، ومـا أحقرني

وما أتفهني وكيف يمكن للعالم أن يتواصل بمجرم مثلي، و يا أماه لا تتركيني و يا ظلام توقف عن الزحف فما زالت لي شهوة إلى النور.

كم يخيّل لنا أحيانا أن العالم أعدّ لنا شمسه وقمره وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تأتينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغبي أو الرصاصة الطائشة أو المرض الحقير لنواجه بالحقيقة المرّة وهو يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهمه من أمرنا شيئا. أفظع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واعي أو مبالي لا بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن افتكّ منه كل ما يملك.

ماذا لو كانت الحرب ضرورة ؟ هل ثمة خلق لا يسبقه التدمير ؟ كم من عقائد وامبراطوريات وحضارات كان من الضروري تدميرها ليبني فوق أنقاضها الجديد والأفضل؟... لكن ماذا لو كانت هذه الحرب محاولة انتحار جماعي وقد ملّ الآدميون الصراع مع عالم ندموا على خروجهم إليه؟... ماذا لو كانت ما خرجوا بحثا عنه لأنها الشيء الوحيد الذي لا توفّره الجنّة ؟ أيعقل أن تكون حوّاء قد بعثت بأبنائها نحو مشارق الأرض ومغاربها لمجرّد اكتشاف أجمل ساحات للمعارك ؟

آخر جولة بين جثث القتلى التي راكمتها الحروب على مر التاريخ، ويقال أنه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطّا يصل الأرض بالقمر.

تمعّن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكّر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للآدمي... وانظر النتيجة!

أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين الآدمية ... وانظر النتيجة!

بالله عليك ، أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بالعار لانتمائه للآدمية كما يخجل من به شمم أنه لقيط ثمرة خطيئة عاهرة وسفّاح ؟

لا يعجبك عالم كهذا ؟... طزْ... ما العالم إلا آلة إنتاج الحياة والموت... آلة محركها قوتان- ربما قوة واحدة كعملة النقد بوجهين- : التي تدمّر باستمرار لا يهمها فظاعة الوسيلة أو ثمنها... التي تخلق دون توقّف لا يهمها جهد أو طول التجريب.

كأنّي بالكائنات -وحتى الأشياء -تساهم في الصمت الثقيل المخيّم على ساحة آخر معركة ،إمّا لبحّة في أصوات أرهقها طول الصراخ وإمّا رهبة وندماً أو قرفاً لا عزاء له ولا سلوى.

يتسلّق الشيطان قمة جبل الأجساد المتراكمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمّة التهكّم والشماتة : أرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خرّبوا حديقته. يتفقّد عزرائيل المشهد

المخزي ليتأكّد أنّه لم ينس جريحا لا زال يتنفس. يصرخ اكتمل النصاب، غير منتبه أنه لا يوجد جنس مثل الآدميين في فنون الغشّ.

ماذا؟ تبتهل لي ألاّ أشي بالجندي المتبقي والمتظاهر بالموت وبممرضة تفتعل الإغماء، بل تلحّ لكي أرتّب لهما موعدا وخلوة غرامية مع ما ستؤول إليه من قابيل وهابيل وبقية المصائب المتحرّكة . آسف، فالبطل جريح مستعص على أي عملية جراحية والأنثى غبية من أنصار الليبرالية المتوحشة ومؤمنة بوجود اليد الخفية التي تعدل الموازين لصالح الضحية والجلاد، ناهيك عن تصويتها للأحزاب العنصرية والدينية. أقصى ما يمكنني جعله يكتشفها فيفضّل خنقها على مضاجعتها وقد فاقت لذّة الخنق لذة الجماع وبعد ذلك سأجعله يشنق نفسه حتى وإن كانت اللذة أكثر تواضعا.

تفقد التحكّم في أعصابك وتصرخ في أن أكفّ حالا عن هذه التجاوزات الخطيرة وأنا أنهي رحلتنا في مثل هذا الديكور البشع بل وبجريمة أخيرة، ناهيك عن أنه ما زالت لك أشغال كثيرة لم تكملها ولا بد من مهلة إضافية. آه تريد مهلة إضافية؟ اعطني سببا مقنعا واحدا. تقول هل نسيت ذلك الشيخ النحيف الحليق الرأس الشبه عار وعلى عينيه نظارات سميكة مدوّرة يواصل صلاته الصامتة وإضراب جوع لآخر نفس حتى يتوقفوا عن القتل ؟ من أين لي نسيانه وهو واحد من أهمّ أدلّتي ، لكن أنسيت أنت أنهم وضعوا بضع الرصاصات في بطنه ؟ ماذا أيضا؟ أنني تناسيت آشوكا متجولا بين تلال الأجساد الهامدة بعد انتهاء المعركة التي حسمت مصير مملكة كالينجا، أن هذا الذي قتل تسعة وتسعين أخا للوصول للسلطة ودمّر ما لا يحصى من الممالك، داهمه الفزع والغثيان والندم والحزن والشفقة وكل المشاعر التي وصلت متأخرة، أنه كان يريد عبثا نسيان صراخ الأم المنكبة على جسد ابنها "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبيّ»، أنه قرّر اتباع طريق بوذا لا غير وأن تكون موريا وطن السلام إلى نهاية التاريخ... أنه ضمن حق العيش حتى للحيوان وأراد ألا يقتل بعد ذلك اليوم في امبراطوريته آدمي أو يذبح فيه للأكل كائن ينبض بالحياة.

أدخلت فيّ البلبلة. متأكّد أن المرضة سمراء لها عيون المها وشعر الجازية... أنها من أنصار العولمة العادلة والضمان الاجتماعي وحقوق الإنسان والحيوان... أنها ترفع على بيتها علم الأمم المتحدة وتتظاهر مرّة في الأسبوع لتطالب بإلغاء الديون والأديان ؟

تصرخ فيّ : ماذا تريد هذه الزنديقة أن تلغي ؟ يا أخي كفى تحاملا قلت: إخاء الأديان ولم أقل إلغاء الأديان، بما أن الأمر للأسف مستحيل، علما وأن إخاءها ليس أقلّ استحالة.

على الأقلّ تلاقيها في أطهر القلوب وأرقى العقول... عن آدمي اسمه غاندي قوله: "الأديان لغات ناقصة يستعملها أناس ناقصون في محاولة يائسة للتعبير عن حقيقة كاملة»... كان الرجل يجمع في نفس الصلاة كل الكتب المقدسة التي يعرف وكان يردّد : الله بمثابة قمّة جبل وكل الأديان الطرق التي تأتيه من هذه الجهة أو تلك...هكذا بقدر

ما «يصعد» طاهر القلب راقي العقل إلى «فوق»، بقدر ما يقترب من القمة وأيضا من الآدميين الذين تسلقوا الجبل من جهاته الأخرى...بقدر ما يبتعد عن الذين بقوا عند السفح أكانوا من ملّته أم من الملل الأخرى يوحّدهم جمود الفكر وغلظة القلب

طيب ، لكن هل أنت حقا مصرّ على تواصل الكابوس ؟ كم مرة قلت لك أنه باستثناء الديكور، لن يوجد في المستقبل إلا ما وجد في الماضي وما يوجد في الحاضر ، أن المهلة لن تكون إلا دورة إضافية في نفس الحلقة المفرغة.

تصرخ تفاحة: ماذا وقع بعد أن أنقذت تفاحة المرضة البطلة الأمير الجريح ؟

تصرخ تفيحة: أنا التي أنقذت الأمير وليست تفاحة...

يتجدّد الشجار وشدّ الشعر. هل من أحد يعرف كيف تحلّ المشاكل التي ليس لها حلّ ؟

* * * * *

صراعها من أجل البقاء

الليلة الموالية :

تفاحة : «با»، نواصل القصة... هيا، أسرع. !

– قصة؟ بعد كل ما أظهرته طول اليوم من سلاطة لسان وما ارتكبته اختك من مخالفات مفضوحة للقوانين والأعراف! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد، على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفيحة شريطة أن تكف عن الرقص على السرير.

(بصوت المتآمرين) انتبهي قد تدلف «ما» بعد ثوانٍ من المطبخ لإعلان حظر التجول... تفيحة، لست ضدّ أن تحتضني إيتي لتسمع هي الأخرى البقية، لكن وضع الإصبع في الفم ممنوع، ألست الآن طفلة كبيرة؟ يا الله، انطلقي .

تتدخل تفاحة مغتنمة ثغرة في دفاعات الخصم.

– تفيحة صامتة لأنها لا تعرف كيف تواصل، «با»، أنت من يقود القصة وأنا بعدك.

نعم سآخذ بزمام هذه القصة اللعينة أقودها إلى حيث يجب. لكن كيف؟ لا المؤامرة الوقائية نجحت... ولا استطاعت الكائنات الأخرى ومنها جراثيم الطاعون أن تحسم الأمر .أما أم جدّة المعارك فقد خذلتُها وهي على وشك اتمام المهمة للحظة جبن قد تكلّفتي والآدمية المسكينة غاليا.

والآن وقد ثبت إلى رشدي يجب العودة للمهمة المقدّسة.

إذن وفي إحدى أهمّ فصول الملحمة ، تداعى الآلهة لاجتماع خارق للعادة بعد أن أمضى الثلثان القانونيان عريضة استدعاء المكتب السياسي للنظر في شكوى ضدّ تواصل التجربة الآدمية.

يحتدم النقاش.

– يا لهذا الكاتب الغبي! كدنا أن نخلص من هذه القصة، لكن تواطؤه المخفي بمهارة مع أبناء جنسه جعله يراوغ في الإسراع بخاتمة يبدو أنه كان يترجاها بقدر ما كان يخشاها. حتى كريشنا مصدوم من موقفه .أليس كذلك يا ربّ كريشنا أنت الذي كان أوّل من أوصى بالحلّ النهائي لهذه المشكلة المسمّاة آدمية ؟

– أنا أردت نهاية الآدميين ! أنت متأكّد؟

– طبعا بل وقلت لنا مرّة أن الصدى انتبه اخيرا للغلطة التي ارتكبها وهو يشاهد تقدم الفكّ الرهيب لآدمية تريد التهام الجبال والصحاري والغابات، شرب مياه الأنهار

والبحار والمحيطات ، ابتلاع السماء ونهش الشموس والمجرات. كم ردّدت أنه بدأ بمراجعة الحسابات خوفا من إفلات التجربة من كل تحكّم وأنه فهم أخيرا آدم تملّك الأرض ومن عليها... لحسابه الخاص...أن الداخل الدخيل ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته.

– نعم ، نعم ، هل لاحظتم أيضا هذا الدمار الهائل الذي تلحقه الجرّافة الآدمية بعالم التجربة وهي تزداد جيلا بعد جيل كثافة وتنظيما وقوّة وقسوة وفظاعة وأولى الضحايا الكائنات التي شاء حظّها العاثر أن يضعها على طريقها. هي وضعت جلّ الأشجار والنبات تحت الوصاية وألقت القبض على شعوب الخيل والإبل والبقر والخرفان والماعز وكذلك على شعوب الكلاب والقطط والدجاج بعد القضاء شبه المبرم على أمم الأسود والنمور لرفضها أن تؤكل أو أن يسرج ظهرها أو أن تصطاد لحساب الغير.

– لا ، لا ، ثمة كثير من المبالغة والتجني على جنس بالغ الطرافة.

– كيف ؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللاّت والعزّى أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات... أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم، أنك لم تدفع أرجونا للقتال إلاّ بغرض وضع حدّ لهذ الوباء. تعال نفكّر معا ولتتكاتف جهودنا لحلّ نهائي هذه المرّة.

– أي حلّ ؟

– إغراق ساحة المعركة بالطوفان لنتخلص من الشقيان الباقيان ومن أي جريح يخادع عزرائيل...أحد يعرف اسم الذكر الذي سيختم أفشل برامج الصدى ؟ زيوسدرا ! والأنثى ؟ حواء! دوما نفس الاسم البشع.

– نعم لنغرق الكوكب كله حتى لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة.

– أنا مع هذا القرار، إضافة لكون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غير، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.

خطّة ممتازة تحظى بثقتي التامة ومباركتي وصلواتي . المشكلة هذا اللعين اينكي.

ها هو يطلب الكلمة :

[تلخيص المرافعة التعيسة]

«أيها الآلهة والآلهات ، حضرة الزميلات والزملاء: كما تعلمون، التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي حيث لهذا الجنس، مثل بقية الأجناس الحية الأخرى، الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية. ثم إن قضينا الآن على الآدمية فبماذا نعوّضها ؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني وتعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وعلى كل أذكركم أن هذه تجربة يراقبها الصدى لا غير، وهو لم يعط أمرا بإيقافها».

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهدّدة بالانقراض وهو ما قد يحيلهم للتقاعد المبكّر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس الموقّر. في الأخير يتّفق الجميع على الحسم بالتصويت. لا يحصل أينكي إلا على صوته يتحوّل النقاش مباشرة للتفاصيل العملية. يخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة لتطهير واسع لأن المصالح الضيقة بدأت تطغى على المصالح الكبرى. على كلّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته.

"ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان

أراد الاله اينكي إنقاذ الآدميـــــــــــــة

فاختار زيوسدرا الملــــــــــــــــك

وعلّمه بناء السفن ليحمي حياة الإنســــــان

ويقيم في أرض العـــــــــــــــبور

أرض دلمون حيث تشرق الـــــــــــشمس".

يصرخ أينكي في الآدمي الذكر أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أنثاه قابلا بكل ما تريد حمله من عفش يعرف أنه غير ضروري. أخيرا يصبح زيوسدرا جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من مشاكل الآدميين بل وهي أولى ضحاياهم. للأسف لم ينسيا الطفلين البشعين .

تصرخ تفاحة : "با"، هذه قصة نوح!

كيف أفسّر لبنت في هذا العمر دون أن أثير فيها غريزة السرقة بل وأشرّعها، أن البشر لا يسطون فقط على بلدان وبنوك وزوجات وأزواج بعضهم البعض، وإنما أيضا على أساطيرهم وآلهتهم.

تصرخ تفيحة :

– "با"، ما اسم سفينة نوح ؟

– يا بنت متى ستكفين عن إلقاء أسئلة لا جواب لها ؟

تصرخ تفاحة:

– اسمها تيتانيك، "ما" حكت لي القصّة.

– أنا أيضا حكت لي "ما" القصة وأعرف اسم السفينة وليست تفيحة وحدها التي تعرف.

– الحمد لله أنكما اتفقتما على الاسم وإلا ضيعنا وقتا ثمينا في التخاصم حوله، بينما الآدمية المسكينة في الماء إلى العنق تنتظر الوصول لبرّ النجاة.

جميل أن تطفو هذه السفينة والأجمل أن ترسو في مكان ما. في الأثناء كيف مقاومة الدوار وتفادي الارتطام بالسقف، والسفينة تقفز إلى السماء، وتفادي الارتطام بالقاع وهي تتهاوى إلى الأعماق.

الغريب أن يطالبك الناس، وأن تطالب نفسك بتصويب الرمح نحو هدف لا يثبت على وضع، أن تلوم نفسك على كثرة الإخفاق والحال أن العالم لا يتوقف عن مباغتتك بحركة لم تكن في الحسبان.

لأوّل مرّة تفكّر حواء في الانتحار ، عافت الدوار وملّت الانتظار واهترأت أعصابها من خصومات المصيبتين المتحركتين ويئست من الوصول لأي أرض . نعم حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه «الحياة»، وما على آدم إلا أن يتبعها في اليمّ أو أن يجرّب خلق حواء أخرى من عضم الساق.

من أدرى مني أن هذه الأنثى تمثّل علينا وعلى نفسها ، أنها ستتدبر أمرها، إن أقدمت على الأمر فعلا، لتكون العملية مجرّد انتحار خفيف لا تبعات له سوى تسميم ليلة طبيب الحراسة.

ككلّ انتحار أنثوي خفيف لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر قبل افتعال رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم، أن تخترق أشعة القمر كثافة السحب ليراها آدم فيقترب منها وهي تفتعل عدم الانتباه. أصرخ فيها : هيا خلصينا ، اقفزي فترمقني بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّتني «ما» طول حياتها ولا أتحدّث عن «ح»؟

يصل آدم كالمقرّر في الوقت المناسب لأن المعزة رفضت أن تتركه يحلبها وضربته بحافرها فأراد الاستنجاد بحواء وبحث عنها وسط الدجاج والخرفان ليجدها شاردة الذهن تنظر للقمر وهي معرضة عن العمل وحتى عن الكلام. لا بدّ من مداهنة اللعينة حيث لا أنثى غير إناث الحيوان وهو ضد الصلات المعيبة ولا يفهم كيف سيوجد من بين أحفاده من... إلخ.

ينجح آدم في إقناع أنثاه بعدم التخلي والاستسلام وتخييب الآمال التي وضعها فيها الصدى، إلى آخر الجمل البليغة التي تربت ذريته من الذكور على الهمس بها في أذن ذريته من الإناث، والحال أن دافعه لكل هذه الرقة المفاجئة خوفه من القفز في الماء وراء الولية وهو لم يتعلم السباحة بعد.

البنتان بصوت واحد متثاقل: "با"، لا نحبّك إذا واصلت هكذا. ثم تسكتان وقد رحلتا إلى الضفة الأخرى للعالم المجهول.

يمكنني أن أواصل القصة لنفسي. إذن تنفّس "اينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حوّاء عن فكرة الانتحار والتنفس البطيء لتفاحة وتفيحة وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الربان نوح-زيوسدرا. كل الأمور على ما يرام. كيف لا والصدى يدعم خطّه حتى ولو فضّل البقاء وراء الستار.

المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من صغار الآلهة ومن بينهم عدد لا بأس به من الانقلابيين لاجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرّد وإحالته على المحاكمة وخاصة مواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

يلبس القرارُ الأغلبي قناع جبل من جليد ينقضّ من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة نجاة الآدمية. ها هي تغوص في الأعماق وقد أصبحت التابوت والمحيط هو المقبرة. هل يعقل أن تموت حواء في اللحظة التي اقتنعت فيها بضرورة الحياة؟ وآدم المسكين الذي لا يعرف السباحة! ثم ماذا عن الطفلتين البريئتين ؟

أشعر بيد تفاحة على ذراعي وبضغط ينذر بتصاعد الرهبة داخل حلمها وحلمي. يمسك آدم بشعر حواء يجرّها إلى الخشبة التي يمتطيها صارخا كالمجنون: البنتان... البنتان ؟

ترفع تفيحة عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا و صخب الموج على أشدّه ؟

تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحة ؟.

يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

– انظروا للبنت! اللعنة على هؤلاء الآدميين، إنهم يقاومون لآخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسّك، تشبّث بالحياة ؟

تتضرّع حوّاء للمبهم المطلق: أعطنا فرصة أخرى .سننجح المهمّة هذه المرّة وسنعود لك بهذا الذي بعثتنا نبحث عنه.

أينكي على زورقه يجدف ببطء شديد متحسّسا طريقه في الظلام الدامس. تصرخ فيه تفاحة: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحة على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والآن ترفّق في جذبها وغطّها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس ايتي وإلاّ سترفض الصعود. والآن جاء دور «با» ثم «ما» ثم بقية الكائنات وأنا آخر من تصعد في الزورق لأنني البطلة "با"، انظر لقد جعلت زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألست رائعة؟

بل أنت أروع من رائعة يا حبوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب اينكي.

كأنّ صبرك نفد من هذا النص ومن تناقضاته. تصرخ فيّ: يا رجل هل تريد للبشرية أن تنتهي أم أن تتواصل ؟

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في أمر كهذا والآدمي منذ انبثاقه مقسّم بين حنين جارف للعدم و إغراء لا يقاوم للوجود.

* * * * *

استراحاتها على طريق المسامير والشوك

تستيقظ تفيحة باكية، ترتجف بردا مبلّلة بمياه المحيط. تتقلّب على جنبها تفرك عينيها باحثة بعصبية عن دميتها ايتي. تسارع تفاحة تحكم حولها الغطاء.

- "با"، حلمت حلما مرعبا...ظلام ومياه سوداء وسرير مستشفى وأنت جالس حذوه تبكي... "با"، دثّرني.

تكفّ عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت لها الطمأنينة وهي بين الأحضان الدافئة.

- لا أحبّ قصّتك، كل شيء فيها مخيف وقبيح.

- أنا أيضا يا حبّوبتي لا أحبها، لكن ما حيلتي .هي التي ترويني، لست إلا الناقل.

- لا، لا، إنها غلطتك، أنت لا تعرف كيف تقود القصة.

تتدخّل تفاحة بحزم:

- من هنا فصاعدا لن يكون في قصتنا إلا "كثيييييير" من اللعب والفرح والأشياء الحلوة.

تفيحة : نعم ، أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربت بالقصة إلى غرفتي , إذن وبعد النجاة من المعركة ومن الطوفان أرسى زورق الأمير والأميرة وطفلاهما على شاطئ جزيرة "جميييييلة" جدّا جدّا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب والعصافير وغابات لم يكن فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل. هكذا كان بوسع الطفلين اللعب فيها دون أن يخافا أو أن يخاف عليهما أبويهما.

تفيحة هامسة في أذن أختها : لا تنسي الفراشات والجدول الصغير حيث أستطيع المشي دون أن أنزلق على أحجاره الملساء.

اتفقنا جميعا على الديكور . لتنطلق القصة من جديد.

وفي هذا العالم- بل قل طوال حالته المباركة هذه-تبدأ الملحمة وقد جمع الحبّ كائنين رقيقين يمزجان روحهما وجسدهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد....والشاعر كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالٍ كتمت سرّ الهوى بالدجى لولا شموسُ الغرر (لسان الدين بن الخطيب)

مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر

وطرٌ ما فيه من عيب سوى أنه مرّ كلمْحِ البصرِ

حين لذّ الأنسُ شيئاً أو كما	هجم الصبحُ هجوم الحـرسِ
غارت الشهبُ بنا أو رُبّمـا	أثّرت فينا عيون النرجـــس
ساحرُ المقلة معسولُ اللّمـى	جال في النفس مجالَ النَّفَسِ
سدّد السهم وسمّى ورمـــى	ففؤادي نُهبة الـــــمفترسِ

وفي هـذا العـالم- بـل قـل: طـوال حالتـه المباركـة هـذه- يتكـوّر بطـن حـوّاء شـيئا فشـيئا فيتعلـم آدم عـادة جديـدة لـن تفارقـه إلى يـوم خـروج الطفـل الموعـود: متابعـة دقـات القلـب وأذنـه علـى البطـن المنتفـخ، وحـواء واضعـة راحتهـا علـى شـعره منتبهـة أنـه بحاجـة أكيـدة لمقـص الحـلاق. تأمـره بإعـداد القهـوة لأنـه يتبجـح دومـا أنـه يطبخهـا أحسـن منهـا، فيعدّهـا وهـي عاكفـة علـى خياطـة وشـاح للرضيـع حتـى لا يـبرد يـوم تجـره فخـورة إلى الحديقـة وهـو في أولى خطواتـه علـى الطريـق. ينتقـلان مـن المطبـخ للجلـوس تحـت عريشـة العنـب يرتشـفان القهـوة، فتمـدح قهوتـه معترفـة أنهـا أحسـن قهـوة ذاقتهـا، فيفتعـل التواضـع يسـتحثها بخبـث علـى مواصلـة المديـح، فتعطيـه مـا يريـد وبعـض القبـلات زيـادة، ثـم تنهـض لتعلـق الغسـيل علـى الشـريط، تفكّـر في كل الأشـياء الـتي يجـب إعدادهـا لمجـيء الطفـل المبـارك.

تصل تفاحة وتفيحة والوصول كلّ مرّة حطّ الفراش على عشب الصباح.

تفاحـة: ذات صبـاح والشـمس تطـل مـن وراء سـحاب لطيـف، أرادت الطفلتـان الخـروج للنزهـة والجـري وراء الفـراش بالقـرب مـن جـدول صغـير لم تكـن فيـه حجـارة ملسـاء واحـدة. لكـن «مـا» قالـت: ليـس الآن، فـلا بـدّ مـن طبـخ الكعكـة في الفـرن وأنـا بحاجـة إليكمـا. فصرختـا لا، لا. نريـد الخـروج الآن. فقالـت "مـا": إذن خـذا "بـا" معكمـا فهـو سـيزعجني إن بقـي يتفـرّج في إعـدادي الكعكـة وسـيزعجني أكثـر إن حـاول إعانـتي. والآن هيـا كلكـم، جميعـا خـارج المطبـخ، لا أريـد أيـا منكـم بـين رجلـيّ قبـل أن أدعوكـم للحضـور. آنـذاك لا يتلـكّأ أحـد فالكعكـة لا تـؤكل إلا سـاخنة.

تفيحـة: مـا هـي إلا دقائـق معـدودة حتـى غابـت الطفلتـان عـن الأنظـار وهمـا تركضـان لكـن "بـا" رفـض الجـري معهمـا هـذه المـرة لأنـه كان متعبـا مـن كثـرة العمـل فجلـس بـين الأعشـاب حـذو الجـدول الرقـراق متكّئـا علـى جـذع شـجرة يصـرخ: لا تذهبـا بعيـدا وإلا فسـنأكل الكعكـة بـاردة وسـتحتجّ علينـا "ما".»بـا»، يمكنـك أن تقـود القصـة قليـلا. لا تنـس تحذيراتنـا وإلا نسـحب منـك الكلمـة.

«بـا»: وكان آدم لا يريـد شـيئا غـير التمتّـع بيـوم مـن أيـام هـذا الجـزء مـن العـالم – أو قـل العـالم في حالتـه المباركـة هـده- وأن يتأمـل تفاحـة وتفيحـة تمرحـان بـين أزهـار الجزيـرة السـحرية. كان ينظـر إليهمـا قائـلا لنفسـه وهـو يتثـاءب بصـوت عـال: حقـا مـا أمتـع التمـدّد علـى هـذا العشـب الطـري ومتابعـة التحـرك البطـيء لقطيـع مـن السـحاب الأبيـض.

ها هو يترنّم لنفسه بكلمات أغنية من أحبّ الأغاني إليه.

أشجار تزهـــــــــــــر

زرقة السمـــــــــــاء.

ألوان قوس قـــــــــزح

صراخ الأطفـــــــــال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نـفـســـــــــي

What a wonderful world !

تفاحة : «با»، سهوت والدور عليك.

«بـا»: ثـم خرجـت تفيحـة مـن بـين الأعشـاب لتثـب علـى آدم فقـال لهـا: لا تجلسـي علـى بطـني، تقدمـي قليـلا إلى الأمـام حتـى أسـتطيع أن أقرصـك وأدغدغـك.

تفيحة: حذار وإلا دغدغتك أنا وتفاحة.

«بـا»: لكـن تفيحـة لم تنتظـر الـردّ كعادتهـا فانطلقـت راكضـة، فقـال في نفسـه: لم يبـق إلا التخلّـص مـن تفاحـة لمواصلـة إغفـاءة متقطّعـة لا يزيـد تقطعهـا إلا متعـة. لكنـه لم يحتـج لأي حيلـة وتفيحـة تصـرخ في أختهـا: هيـا نتسـابق ومـن تصـل الأولى لتلـك الشـجرة هـي الأولى في كل شـيء. ذلـك اليـوم افتعلـت تفاحـة التلكـؤ لتـترك تفيحـة تصـل الأولى الشـجرة ثـم ارتمـت عليهـا تعابثهـا، لكـن تفيحـة كانـت مشـغولة بالركـض وراء فراشـة بيضـاء تصـر علـى تقبيلهـا، لا تفهـم أن الفـراش لا يحبّـذ كثـيرا القبـل وعنـد اكتشـافها اسـتحالة الأمـر هـا هـي جاثيـة علـى ركبتيهـا تتأمّـل حلزونـا كسـولا يستكشـف هـو الآخـر أرض الله الواسـعة.

«رويدا رويـــــــدا   (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحلـــــزون».

نعـم ليتباطـأ ركـض هـذا الزمـان اللعـين، لينتظـم تنفسـه هـو الآخـر، ليرتـاح مـن التدفّـق والسـيلان.

في آخـر المطـاف هـذا العـالم ليـس المتحـن الفـظّ السـيء النوايـا ، كل مـا في الأمـر أن لقسـوته أسـبابا لا تتضـح بسـهولة.

«طلبت القـــــــــوة   (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبت الـــــــــــعلم

فأعطاني مشاكل للحـــــــــــــل

طلبت الرخـــــــــــــــاء

فأعطاني عضلات للعـــــــــــــمل

طلبت قدرة الطيـــــــــــــــران

فأعطاني عقبات أتسلقهـــــــــــا

طلبت الحب فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبـي

طلبت امتيـــــــــــــــازات

فأعطاني مواهـــــــــــــــب

لم أحصل على أي شيء مما طلـــــــــــبت

لكنني تحصلت على كل ما أحتـــــــــاج».

تفاحة وهي تهزّ والدها بلطف : "با"، ارتفع شخيرك، انظر الإكليل الذي صنعته لتفيحة. الآن أنت الذي يصنع لي إكليلا.

هيهات أن تخلص من إزعاج الأطفال حتى في هذا الموضع من النص. هل من خيار آخر غير النهوض متثاقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي"أعدّل من وضعها.

– هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحة ولية عهدها.

تدير تفاحة بدلال وجهها تنبئ ببعض التقنيات التي ستعتمدها يوم تدخل مع رجل آخر في علاقة حب من نوع مختلف.

– هل أنا جميلة؟

– جميلة؟ كلا، أنت رائعة.

– «با»، هل صحيح أنني طفلة شريرة كما تقول تفيحة؟

تتدخل تفيحة وهي تدفعها قليلا إلى الأمام لتجد مكانها هي الأخرى على بطني.

– نعم، نعم، قل لها إنها شريرة عندما ترفض اللعب معي.

– من حسن الحظ أنني لم آكل بعد الكعكة التي تتوعدنا بها «ما». تفاحة شريرة ! لا، إنما صاحبة إرادة قوية منذ الولادة. لا بدّ من تنفيذ أوامر الستّ في التوّ واللحظة. كانت أمك تصرخ في أذني وأنت رضيعة : ابنتك تبكي ساعات ولا تحرّك ساكنا. أليست ابنتك؟ ألم تردها؟ والآن تضجّ بالشكوى. ستواصل البكاء إلى أن تجد مصّاصتها الضائعة وقد فتّشنا عنها في كلّ مكان. لا بدّ أن تخرج وأن تجد صيدليّة الحراسة لشراء مصّاصة جديدة. تدبّر

أمرك، لا تعد إلى البيت إلا والمصاصة في جيبك. ها أنا أبحث في شوارع المدينة الغارقة في الثلج وفي آخر اللّيل عن مصّاصة لحضرتك. يا إلهي، لا نفيق لحلاوة أيام نضجّ منها بالشكوى إلا وقد ولّت.

تضحك تفاحة مفتعلة ضربي بقبضتيها.

– تستأهل أن تصرخ معك «ما» أيها الشرير، كنت تريدني دون مصّاصتي لأنك لم تحبها أبدا وكنت دوما تنهرني لما تراها في فمي بحجة أنني أصبحت كبيرة. والآن كفى كسلا، انهض لتجري معنا.

تصرخ تفيحة وهي في قمة الجذل:

– المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما :أنا أغنّي تحت المطر..

– تغنّيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلتقط تفيحة عود خشب ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا حت المطر والكلّ مشغول بالشمسية دفاعا عنها وافتكاكا.

تنتبه تفيحة للأوامر القادمة من بعيد.

– "ما"، تنادينا. عجّلا .

تنتبه تفاحة لأمر قد تترتّب عنه بعض العواقب المزعجة . ترفع إصبع التحذير:

– انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضر من فرط الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك "ما". لا داعي لتتفطن للأمر.

تضع الأصبع بين أسنانها مستغرقة في التفكير.

– سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظّفه.

الحلف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أمّا وزوجة...حلف لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.

حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه! كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل. أمسك بتلابيبه كما تتمسّك تفاحة بتلابيبي عندما تريد شيئا عاجلا. دخيلك انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابتسامته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها. هو عائد لزئير الأسد بعد طول افتعال مواء القطّ. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الآدمي المعن في وداعته، إنّما يستعيد قواه للانقضاض عليه مجددا؟ على كل حال هذا عالم يفتعل كالآدمي البحث عن الاستقرار والتوازن والحال أنه

لا يخشى شيئا قدر وصولهما، ربما لأنه يعرف أن أكمل حالتهما ما تعرف المستنقعات والمقابر.

المهمّ أن تدوم الألفة أطول لحظة ممكنة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الآدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الآدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه ولا التخلّص منه.

نتدافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجه منعا صارما بدخول بيت نظّف لتوّه ونحن بكل هذا البلل والوحل ملء أحذيتنا. تصرخ الزوجة المزمنة والأم الأزلية:

– لا أحد يدخل بهذه الثياب وخاصة بهذه الأحذية. تتحملون وحدكم– وخاصة سيادة الأب– مسؤولية الزكام وما ينجرّ عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكرا على الباقة يا حبيبتي إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغير شيئا بخصوص الأحذية. تنزع كلها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاة.

تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

– أعدك «ما» أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذيذة إذا بردت.

– الدلال مع "با" فقط، قلت: قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدّد الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جديّة الأمر واستحالة تجاهله. أخيرا وبعد تغيير الملابس والأحذية يسمح للجميع بدخول المطبخ. تغالب «ما» زهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.

تصرخ ضاحكة: كفى قبلا بأفواهكم الملطخة بالسكّر. أفضّل أن تكونوا أقلّ ضجيجا. النجدة، إنّكم تخنقونني. ثم ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال.

تتوجه إليّ حواء مفتعلة الغضب:

– أنت تفسد البنتين. يكفي أن تكون حولي حتى...

– يا بنت الحلال، بحق كعكتك اللذيذة اتركينا نلعب قبل أن يورّق قارئيى المجهول الفصل فنفيق مجدّدا في جوف العاصفة.

تصرخ تفاحة وفمها ملآن بقطعة إضافية نجحت في إدخالها كلها دفعة واحدة:

– "با" واصل أنت... إذن وبعد وصول الجزيرة السحرية والانتهاء من بناء المنزل الجميل وتهيئة المطبخ وزرع الخضراوات والزهور في الحديقة...

تقاطعها تفيحة:

– الدور عليّ، لا أحد يتكلّم وخاصة تفاحة. إذن بعد أن شيّد آدم وحوّاء المنزل الجميل، قالت "ما" ل"با": لا يمكن أن نترك قابيل وهابيل يلعبان طول الوقت. لا بدّ أن يذهبا

للمدرسة لتعلّم الكتابة والقراءة. ومن الغد أخذت "ما" الطفلين إلى مدرسة الحيّ. هناك تعلّم قابيل كلللللّل الحروف والكلمات وحفظ كلللللّل المحفوظات وكان دوما الأوّل في القسم وتفّاحة الأخيرة.

- يا غبية كيف يمكن أن يتعلّم قابيل الحروف وهي ما زالت غير موجودة.

- اخترعها «با» و«ما»، ثم بنيا المدرسة قريبا من البيت، وهناك تعلمت تفيحة كللللللّل الكلمات ففرح الأبوان وقالا لها: برافو يا شاطرة.

وفي هذا العالم- بل قل: طوال حالته المباركة هذه- يعكف الطفل على كراس يضيئه نور المصباح. يهرش رأسه، يتثاءب ويغفو. ثم ينتبه فيعود للتمرين يتعلّم تصريف الأفعال بانتظار اليوم الذي سيخرج فيه باحثا عن الفعل الذي كان لها البذرة الأولى. يسقط الكتاب من يديه ويسقط رأسه على الصدر فتتقدم «ما» على أطراف الأصابع تحاذر ألا يصدر منها صوت. تجمع الأقلام ببالغ الرفق. تحمل ابنها ببالغ اللطف للفراش. تمسح على شعره تغالب ضحكها. تطبع على الخد الصغير قبلة الحنان والحبّ واضعة على جسده النحيل كما خانقا من البطاطين بحجة قدوم الشتاء وسرعة إصابته بالرشح.

تستعيد تفاحة زمام المبادرة أفلتت منها أطول مما تحتمل.

- «با»، الآن نلعب لعبة المدرسة وهذه المرة أنا المعلّمة، وأنت و«ما» وتفيحة التلاميذ.

- طيب إذن تفاحة معلمتنا ونحن التلاميذ، تفيحة على يميني و«ما» على يساري.

تقف أمامنا تفاحة تلوّح بعصاها وعلى قسماتها علامات الأمر والنهي.

- سنبدأ الدرس. لا أريد التشويش من أحد. تلميذ "با"، كفّ عن الضحك وكذلك التلميذة "ما". تفيحة، اكتبي في كراسك: ذهب قابيل إلى الغابة وعاد بباقة زهور لأمه.

تصرخ تفيحة: سيدتي، التلميذ "با" قرصني، قرصني، قرصني!

احتجاج ضعيف.

- بريء والله يا سيدتي بريء.

من يدري ربما أكون فعلا بريئا.

تحتجّ التلميذة "ما"

- أنا من قرص تفيحة ؟ يا ولد يا كذّاب.

يشتعل حريق المسطرة في أصابع طفل ذاق الأمرّين من مساطر المعلّمين.

أصرخ آه يا أصابعي، فتأمرني تفاحة بالصمت ثم بقراءة أول صفحة من كتابها. تتبخّر الأحرف أو بالأحرى تصبح هيروغليفات لا أعرف لها نطقا. يتعثّر لساني لا أمثّل أو أفتعل. إنه رفض وعيي الباطني التعرّف على الحروف، بل قل الاعتراف بها حيث لا مكان للكتب والكتابة في عالم كهذا استعاد أخيرا عافيته. تقول ماذا عن الشعر! حتى الشعر، خاصة هو، فأغلب ما فيه صراخ الألم لا يغفر له حتى أنه صراخ أنيق.

ينفذ صبر" سيدتي" من تواصل قرص تفيحة ودغدغة أمهـــــــــــا.

– تلميذ «با»، أنت تشوّش. قف وجهك للحائط. معاقب لنهاية الحصّة.

أقف أمام الحائط وقبعة من الورق فوق رأسي تثبت ما لا داعي من إثباته، فالكل يعلم منذ قديم الزمان أنني حمار القسم. تسترجع الذات بسرعة عاداتها القديمة مع كل الحيطان التي أوقفوني أمامها. ستكون جولة ممتعة في الشروخ والبقع. لكنني الآن في غير العالم الذي كنت أقف فيه أمام الحائط أكفّر عن ذنب لم أرتكبه. هذه حالة خاصة جدا يتوقف فيها العقاب حال بدايته، على فرض وجود العقاب فيه وحتى فكرته.

– تلميذ «با»، عد إلى مكانك ولا تقرص تفيحة مرة أخرى... لا، من الأحسن أن تجلس على الأريكة شريطة ألا تغافلنا فتنام.

تصرخ تفيحة: أنا المعلّمة. تثب على أختها تفتكّ منها العصا. تبدأ في إعطاء الأوامر. تنهمك تفاحة في قراءة النص الذي أمرت بقراءته. تغتنم «ما» الفرصة للانسحاب وأغتنمها لدخول قوقعتي.

تقطع عليّ عودة الإغفاء معلومات متفرّقة عن نشوب شجار آخر بين سيدتي وتلميذتها المشاكسة، عن يد ترفض بقوّة تسليم أناملها الخمسة لحريق المسطرة، عن لسان يخرج في ظهر المعلّمة يستفزّها. لا شيء جدّي في هذه الخصومة فنحن في عالم لا نريد به ولا يريد بنا شرّا وإنما من الخير أقصاه.

وفي هذا العالم– بل قل: طوال حالته المباركة هذه– يكبر آدم فيدفع محراثه يخصب الأرض السوداء ليحصد يوما ما زرع راضيا عن نفسه وعن سنابل القمح. ينحني أمام الخبز الساخن شاكرا حامدا. يدخل الإسطبل ببالغ البطء، يمسح بعطف على ظهر البقرة الوالد يهنّئها، يشكرها ويعدها ألا يأكل أحدٌ لحمها ولا لحم مولودها.

وفي هذا العالم– بل قل: طوال حالته المباركة هذه– يجلس آدم وقد هدّه تعب يوم حافل على باب الحوش مع أبنائه وأبناء الأعمام والأخوال والمروحة في أيديهم. إنّها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة، كم من مواضيع ستشدهم بالحديث إلى آخر هزيع من الليل وهم مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح. ووسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تواصل العمات والخالات تبادل آخر قصص القرية ومن تزوجت من ومن أنجبت ومن فطمت و يا لشقاوة الأطفال ونبوغهم المبكّر، أما الرجال فالله وكيلك، لكن «الله يخلي لنا رجالنا».

كل الأفعال في هذا العالم –أو قل في حالته المباركة هذه – هادئة ،سهلة ،بسيطة بلا تكلفة أو رهان...بلا أهمية في عرف ذلك العالم الآخر الذي سنواصل التعفّف عن وصفه.

لا غرابة أن تكون القصص عن جيران وصلوا مواعيدهم متأخرين... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس...عن ربّات بيوت أطار الريح غسيلهن فجاءهن به الجيران...

عن الزواج الذي تأخّر أكثر من مرّة لعدم توفّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أمرضتها يوما قبل الامتحان فقبل المعلّم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان.. عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

وفي هذا العالم – أو قل طيلة حالته المباركة هذه –تواصل المذيعة الحلوة قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خرير ماء السواقي "من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال ولدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفوهم بكل ما يقدر عليه الآدميون من حب ومن عطف...أن وأن وأن ".

ماذا ؟ خبر عاجل.حتى في هذا العالم – أو قل طيلة حالته المباركة هذه– ثمة مفاجآت ليست دوما سارّة.

"بعد شهرين من دخوله اضراب جوع احتجاجا على ما آلت إليه أمور الوطن، قرّر المفدّى تعليقه علما وأن هناك من يدّعي– والله أعلم –أن فخامته كعدد قد يكون أكبر مما نتصوّر من مضربي الجوع ، كان يأكل خفية والدليل أن استدارة بطن فخامته لم تنقص بل ربما تكون زادت بعض الشيء. المهمّ أنه توقّف عن إضرابه الحقيقي أو الإعلامي بعد أن توقف– في هبّة ضمير جماعية غير مسبوقة– أهل الإعلام عن التضليل وأهل السياسة عن الوعود الكاذبة وأهل المال عن الفساد والإفساد وأهل البيروقراطية عن العرقلة والتعطيل ناهيك عن عودة الشعور بالمسؤولية للمواطنين الذين كفّوا عن التظاهر وقطع الطريق مقدّمين الحلول بدل طرح المشاكل وهم أكبرها "

بقية الخبر: "للأسف كل هذا لم يقنع المفدّى لاعتقاده أن الأمر مجرد مناورة خسيسة وأن حليمة ستعود لعادتها القديمة حال تعليقه الإضراب، فقرر علاج المشكل من أساسه. هكذا رفع شعار ارحل في وجه الشعب– الذي رحل مكسور الخاطر– يعضّ أصابعه ندما على ما فوّت من فرص وما اقترف من ذنوب خاصة في حقّ قائده ووليّ نعمته. لكن المفدّى بفطنته الشهيرة انتبه أنه بحاجة لمحكومين حتى يكون حاكما. هكذا قرّر بعزيمته المعهودة تعيين شعب جديد يختاره وفق ذوقه، فانتقى له من أقصى الشمال خيرة بشره المعروفين بحبهم للعمل المتقن ومن أقصى الشرق خيرة بشره المعروفين بانضباطهم وتواضعهم ومن أقصى الغرب خيرة بشره المعروفين بحبّ البحث والتجديد ومن أقصى الجنوب خيرة بشره المعروفين بحسّ الفكاهة وحب الرقص والموسيقى. ما لم يتوقعه فخامته أن أول قرار

اتخذه الشعب المثالي حال تشكّله عزله هو لأن الكامل لا يحكم بالناقص. مباشرة بدأت الخصومات وبشر الشمال يصرخون أن جنسهم الراقي لن يتقاسم السلطة مع جنوبيين لا يجيدون إلا الرقص والعيش على حساب كل من يعمل.. ثم مرّوا مباشرة للحرب آخر همّهم اضراب الجوع الجديد للمخلوع .

القارئ المجهول (في قمّة الانفعال) : ألم تقل أنه العالم في حالته المباركة، من أين لشعب مثالي في عالم مثالي أن يستهلّ تاريخه بانقلاب وأن يواصله بحرب أهلية قذرة جديدة!

ملاحظة وجيهة إن دلّت على شيء فعلى أنك ما زلت مستيقظا.

طيب، لنعدّل نصّ النشرة : "علّق المفدّى إضراب الجوع هامسا لنفسه : هل لي من خيار آخر غير مواصلة تحمّل هذا الشعب اللعين.حقّا هو غير الذي أستأهل لكنه في آخر المطاف ليس بالبشاعة التي أتهمه بها لحظات الغضب وعلى كل حال، ألم يصدق من قال "شدّ مشومك لا يجيك ما أشوم ". أما الشعب فقد كان يواسي نفسه هو أيضا : هل لي من خيار آخر غير مواصلة تحمّل هذا الزعيم اللعين. حقّا هو ليس الذي أستأهل لكنه في آخر المطاف ليس بالبشاعة التي أتهمه بها لحظات الغضب وعلى كل حال ألم يصدق من قال "شدّ مشومك لا يجيك ما أشوم".

تحمّل ! أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا نفعل طوال الرحلة ، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل الحياة والموت ؟

تحتج أنني انغّص عليك تجربة لحظة تخفّفنا فيها من هذا الفعل البائس بل ونسينا حتى وجوده. معك حق. لنواصل الفسحة في العالم وهو في حالته المباركة هذه لا نتحمّل إلا فكرة أننا سنورّق قريبا صفحات هذا المقطع من النص.

نواصل الاستماع وقد انزاح عن الصدر القلق الساخط الذي تعودنا عليه ونحن لا نسمع من ذلك الجهاز إلا اسوأ الأخبار.

"بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت وسالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطف غير مصطنع ، وكذلك القطارات وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصّي الموضوع صرّح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرون وافترشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة

استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رفع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل الخلل الحاصل هنا وهناك. والآن نمرّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان ".

*

لا خشية عليك في شوارع العالم- أو قل طيلة حالته المباركة هذه-خاصة والآدمية مجنّدة (إن صحّ التعبير وهو لا يصحّ) لنزع فتيل العنف البغيض وفرض السلام ليصبح الآدمي أخيرا إنسانا.

تنطلق المظاهرة ضد حماقة تكرّر السيناريو الرهيب من ساحة دنفر روشرو إلى ساحة الباستيل. تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حذوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع علمه الخفّاق في وجهي. أدردش معه وأنا في قمة الحماس والجذل، أليس يوما رائعا؟ حتّى الطقس يريد السلام. هل تتصوّر أنها أوّل مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقعوها.

وفي هذا العالم – او قل طوال حالته المباركة هذه – يخترع الجنود الاضراب عن القتل مغتنمين فرصة عيد الميلاد للخروج إلى العدوّ الغارق مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفئرانا. يرتمي الأخوة الأعداء يحضنون بعضهم البعض يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال يأكلون من زاد بعضهم البعض وهم يصبّون سخطهم على أكل لا أبشع منه إلا ضباطهم الارستقراطيين وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة فتنقلب ساحة القتال إلى ساحة لعب يتدافع فيها كهول استعادوا إنسانيتهم باستعادة قدرة اللعب. يتعالى صراخ المرح والضربات البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين مرمى الخصم بما أنه لا أحد يعرفه ولا يعرف حتى من هو الخصم. المهم الجري وراء الكرة ودفعها في كل اتجاه ليفيق الطفل داخل الكهل. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمّرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السموات واحد. ثم يعودوا ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع هؤلاء المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

وفي هذا العالم – أو قل طيلة حالته المباركة هذه –تتبخّر من أذهاننا قناعات مسمومة عمّن يمتلك الحقيقة وعمّن لا يعرفها ، عن تصرفات محببة وأخرى مكروهة ، عن بشر أحسن من بشر . هنا والآن لا مكان إلا لعقول وقلوب مفتوحة «ترى» فجأة ما كان محجوبا عن البصر والبصيرة.

شاهدت بحانة عجوزا ثملا   (عمر الخيام)

قد غطّ لنومه بلا إحساس

أصغيت له يقول في سكرته

الله لطيف بجميع الناس

وفي هذا العالم–أو قل طوال حالته المباركة هذه – يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صوره الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة «ممنوع الدخول». ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذا. تبدأ المباراة بتصفيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداس نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغشّ. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

الفرح!... الحالة التي نخرج فيها للشارع وثبا ورقصا، تفجرت داخلنا طاقة جبّارة تفجّر بركان طال خموده...الحالة التي يتعطّل فيها الكلام لينقلب صراخا عند الذكور وعند إناثنا زغاريد...الحالة التي تتوهّج فيها الروح وقد أصبحت شعلة من النار والنور... أثمن ما يكافئك بها العالم على طول صبرك على محنه.

في هذا العالم– بل قل طوال حالته المباركة هذه– يتصاعد صراخ الصبية من كل أرجاء المعمورة يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبّون شيئا قدر شدّ شعر البنات. والله– يا سيدتي– لست أنا، لا بل أنت بشهادة الجميع. يكذبون علي، يا سيدتي. آه يا أذني. والآن كفّ عن الركض أصبتني بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك. لكنها هي التي دفعتني، وأنت كفي عن إخراج لسانك لأخيك ومزيد تهييجه، يكفي ما فيه من الهيجان.

نعم، صورة هناء في مستقبل لا زال بعيدا وهي تركل برجلها اليسرى كرة من المطاط راكضة ورائها تصرخ في قمة الجذل... أبلغ صور الرؤيا لنجاح هذه المغامرة التي نسميها الحياة.

أنا قلت لا أشرس من الآدميّ وهو طفل، لا أعنف من الآدميّ وهو طفل، لا أظلم من الآدميّ وهو طفل، ولا أشدّ أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم . تقول لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قراصنة

الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات – خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية ببلدي–والله تقديمي كمعارض بدائي للرضع غير صحيح رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم والدليل على ذلك أنني ارتكبت منهم اثنان ثابتان،ناهيك على أنه بوسعي اثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بتفيحة من النافذة حتى عندما تبولتا عليّ . أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة – على الأقلّ هذه اللحظة–أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مضحك منعش مفرح إلا وكان وجه طفل.

على الطرف الآخر من المدينة لي موعد آخر مع جحافل خارجة لتوّها من ملعب لن نحمّله وزر بقية الملاعب وسنمتّعه هذه الليلة فقط بالعفو العامّ .تتدافع الجماهير بعد انتهاء مباراة لعبة يسمونها كرة القدم لتفجّر في الشوارع والساحات كل الفرح المطمور داخلها. الدافع سخيف! وهو كذلك. إنها عبقرية الآدميين في صنعهم كل هذا الفرح انطلاقا من حدث تافه يدركون تفاهته كما أدرك. إنها نفس العبقرية التي يظهرونها في توليد أعمق مشاعر التهيب والتقديس من صور وطقوس ساذجة . لألحق ببقية الركب أصرخ مع الصارخين. يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحرجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودت على وجودهم في الصورة بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهراواتهم الموجعة.

بخصوص الاحتفالات لا تنتهي في العالم – أو قل وهو في حالته المباركة هذه– ثمة أيضا حفل تتراشق فيه جماهير، ضاحكة هازجة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر والبرتقالي فلا تعود تفرّق بين رجل وامرأة ، بين فقير وغني ، بين نبيل و «وضيع». بداهة ثمة في العملية سخرية من الحرب والناس ترمي بعضها البعض لا بالرصاص والغازات السامّة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد . فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسمّم حياة الآدميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفس الألوان وانتشت أرواحهم بنفس الفرحة .

وفي هذا العالم–أو قل طوال حالته المباركة هذه– ثمة أوقات تصل فيها فرحة الحياة عند الآدمية ذروتها .حقا إني لمسافر جدّ محظوظ فقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة ولم أبتل كالملايين قبلي بالرحيل في أزمنة بليدة ركيكة ليس فيها ما يستحق السفر . الدليل أنني مدعوّ هذه الليلة لأضخم حفلة نظّمتها الآدمية في تاريخها الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس. إنها الليلة التي سنجرّب فيها من جديد كل ما نختزن من نعمة الفرح نتشارك فيها أيا كان المكان الذي نوجد فيه . كم غريب أن تكون مخصصة للاحتفاء بيوم من أيام الرحلة شاءت الصدف أن يرمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين لدخول ألفية جديدة –ومستبقين الحدث بسنة كاملة–لقرن جديد .

يفتتح الحفلة ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها «تونجا» متقدما بأولى مظاهر التبجيل للضيف الكبير. ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيف تسلّله غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئا فشيئا. تتصاعد الهتافات من مكان يدعى موسكو. يواصل الشبح زحفه نحو الغرب ليغمر مدينة اسمها روما. يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الآدميين عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها . كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذا وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا ثم أجلس شاخصا للسماء كأنني سأرى الألفية الجديدة على شكل ضباب خفيف يمرّ فوق رأسي.

في فضاء خيالي وعلى شاشة التلفزيون أنا الآن في كل مكان يحتفل فيه الآدميون بزمان يعلّقون عليه كل الآمال وليس لديهم بخصوصه أدنى وهم.

فجأة تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهارا. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: أنهم ما زالوا أحياء يرزقون. يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجّبا وإعجابا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

تصل الألفية الجديدة مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر هي أيضا سكرانة بالأنوار والصخب. ترسم نفس الشماريخ على ستار الليل آلاف الشموس فإذا السماء سبورة لوّنها أطفال. بداهة قرّر هؤلاء القوم الإفراط في مظاهر الترحيب.

قرن محمّل بكل الأخطار التي يتحدثون عنها في الجرائد ويهلّل له هؤلاء الأغبياء: على كل حال لماذا أحمّلك أكثر مما تتحمل فهل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟. لكن أكيد أن برنامج العالم تغيّر وأنك قرن ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء... يكفي أن ينظر أي إنسان لوجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية لآل نبات وآل حيوان... هل رأيت كم نحتفي بك؟ إن لم تمطرنا بخيراتك طوال الألف سنة المقبلة فأنت زمان قليل الأدب عديم الذوق، قرن ابن كلب .

ربما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا عاصفة النور والنار في سماء المدينة المتعجرفة. ألم تكتسب طوال سنوات الحرب الماضية خبرة في إسقاط كل مغير آت من فوق؟ هل نحن أمام مؤامرة بالغة الذكاء لإسقاط الزمان المغير علينا ؟

تصل سنة الألفين الشواطئ الغربية دون أن تسقط فوق المحيط وقد فعلت الصواريخ فعلها فيها فوق مدينة اسمها لندن، أوتنزف كل دمها فوق جزيرة تدعى ايرلندا. تستقبلها في

ساحة تايمزسكوار نفس الحشود الآدمية بنفس الفرح. ثم ينتهي الزمان الجديد ببسط ظلاله على كل الآدميين وهو يصل أقصى نقطة الغرب في الفضاء الحسي.
أخيرا سكتت كل الأصوات ولم تبق فوق رأسي سوى ما رسمته من الأزل فرشاة الفنّان الأعظم.
هل سيفيق من الغد كل البشر بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر.
من حسن الحظّ ومن سوئه أن المستقبل لا يتمخض عمّا نرغب أو عما نرهب، وإنما عمّا لا نتوقّع وكأنه ليس للتاريخ وجهة قارة نحو الأفضل أو نحو الأسوأ لأن وجهته دوما المختلف.

*

القارئ المجهول : عالم رائع حقا ، اي مكان فيه الأجمل لأضع فيه رحلي أقضي بقية العمر أجرّب كل أنواع والفرح ؟

في عالمي –أو قل في حالته المباركة هذه –كل مكان هو أجمل الأماكن على الاطلاق. بماذا نبدأ الاستعراض ؟

تقول لتجعل على رأس القائمة لغايات شرفية فحسب السيرك. ألف والعياذ بالله ! مكان يضحك فيه الأطفال من مهرّج حزين وتُضطرّ فيه حيوانات أسيرة للقيام بحركات سخيفة مهينة خطرة عليها ! كلاّ ثم كلاّ، لا مكان لمثل هذا المكان في العالم طوال حالته المباركة هذه.

نعم لا وجود له في عالم تخلّص منه ومن ساحات المعارك، من السجون، من المحاكم، من المدارس، من القصر الرئاسي، من مجلس الشعب، من أكاديميات العسكر والبوليس، من إدارات الضرائب، من البورصة، من مراكز ترحيل الأجانب، من علب الستربتيز، من نوادي الملاكمة، من مواخير الأطفال ومن المجازر البلدية

تقول الملعب إذن ! الملعب! مكان بشع كالملعب في العالم إبان حالته المباركة هذه ؟

يا شقيّ (ة) الوجه الآخر للعالم، إنه المكان الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مرّ العصور... المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب... المكان الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة... المكان الذي تتدافع إليه جماهير مقموعة لتفجّر ما بداخلها من عنف مكتوم... المكان المطوق بالاسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر اندلاعه... المكان التي تشاهد فيه القطعان المرعوبة تهرول نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد عفسا بالأقدام وآنذاك تتضح لك طبيعتهم الحقيقية... المكان الذي ينظمون فيه مسابقات الغرور... المكان الذي يمشون فيه بخطى عسكرية حاملين أعلامهم...المكان الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى... المكان الذي تنتهي فيه كل الألعاب بهزيمة هذا وانتصار ذاك... نعم سأذهب لملاعبهم ومعي تفاحة وتفيحة يوم يخترعون ألعابا تنتهي بمنتصر وبمنتصر، أما والحال على ما هو عليه فالاقتراح مرفوض، مرفوض ومرفوض.

السوق؟ بدأت مقترحاتك تلقي صدى في النفس. كيف لا وهو المكان الذي تتجمع فيه كل الألوان الروائح والأذواق التي نحبها للعالم... المكان الذي يتقابل فيه الآدميون لتبادل أحسن ما عندهم منذ قديم الزمان... المكان الذي لا صراع فيه إلا حول الأسعار...المكان الذي لا أخرج منه إلا على أمل العودة إليه يوم السوق المقبل.

تقول غيّرت رأيي ، الأول بين المتساويين مسرح» الباليه» . اليس المكان الذي نخرج فيها اللسان لمن فرض علينا أجسادا للمرض والحرب والموت فجعلنا منها أدوات لاستكشاف الخفة والرشاقة والجمال. نحتفظ بهذه الفكرة.

يا رجل، أو يا امرأة لماذا كل هذا الحياء السخيف ؟ تريد المرقص على رأس قائمتنا ، لم لا؟ هل ثمة مكان أروع للرقص من فوهة البركان وهذا الوجه الذي نصف العالم ما قبل وما بعد الانفجار.

يتربّع الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون. ينحني ملك الزولو بمئزره الأحمر وطاقية جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل تراقصينني ؟تقبل بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدوران على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجليه خشب الركح. تتقدم الراقصة البالينية لتتثنى على الأنغام. تقرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكّر الليالي الأولى فيتدافع للساحة أمراء الصين وأميرات اليمن السعيد وعمّال الأهرام وبحارة قرطاج وشباب الغجر للرقص إلى قيام الساعة. تقطّعت أنفاسك؟ برافو... أنا أيضا. كم مؤسف انتهاء ليلة السبت. عزاؤنا أن أمامنا يوما كاملا مخصص لكسل لا تخالطه مشاعر الذنب تخلينا وتخلّت عنا المشاريع.

هنا تصرخ تفيحة أن القصة قصتها وليست قصة القارئ المجهول وأنها لن تقبل إلا بمغازة لعب أطفال مركزا للعالم في حالته المباركة هذه. موافق. لنطلق داخله الصغار نضحك لانبهارهم أمام ما يزخر به من دببة ونمور وفيلة من الصوف ودمى من كل الألوان. هل تأملتهم وأفواههم مفتوحة دهشة وجشعا. كم تغفر لهم أنهم كانوا رضعا وأنهم سيذهبون يوما إلى المدارس.

على كل حال العالم كله في حالته المباركة هذه حديقة ألعاب للصغار والكبار على حدّ السواء. ألم يصنع لنا الأمواج نسرجها ألواحا نمشي فوقها كالمسيح بلا عنت؟ ألم يخلق لها سطحا وأعماقا نسبح فيها كالدلافين نسابقهم ونبزّهم في القفز فوق تلاطم الزبد؟ ألم يشيّد لنا جبالا نتسابق من يصلها الأول ننزل منها تزحلقا على الجليد يدفعنا الريح والجذل.

ماذا لو أخذنا برأي حواء : حديقة عمومية تدفع فيها أم جميلة عربة رضيعها تجلس بالقرب من البركة الصغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء

الحيّ يتبادلن آخر الأخبار. لنضف للصورة العجوز التي تأتي كل صباحٍ وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تتدافع لنصيبها من الحَب ومن الحب.

تقول: لا تنسَ أن للرجال أيضا حقوق. لنخصّص لهم مقهى صغيرا على الضفة الأخرى للبركة يسعدون فيه بارتشاف القهوة الساخنة واحتساء البيرة المثلجة وتبادل آخر النكت. حتى أكون داخل الصورة سأجلس على العشب والظهر مسنودا بجذع أرزة أملأ عيني من كل هذا الجمال الوديع، أتنفس ملء رئتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوّه. آه نسيت حق قدمّي المنتفختين. هل ثمة أحسن من الجلوس على الربوة بلا حذاء بعد أن أبليت على الطريق كم من حذاء.

حقا القصة قصة تفاحة وتفيحة، قصة كل آدمي ذكرا أو أنثى لكنني كاتب هذه السطور ناهيك عن كوني الأب والزوج ولي حقوق غير قابلة للتصرف في هذه القصة وفي غيرها.

أقولها وأتحمّل كامل مسؤولياتي: لا وجود لمكان يستأهل أن يكون مركز عالمنا وهو في حالته المباركة هذه إلا ذلك الذي يعبق برائحة القهوة الساخنة وبعطر نسائي خفيف... المكان الذي تتوسطه ثلاجة عامرة تطمئننا أن عهد المجاعة ولّى إلى الأبد.

المطبخ؟

طبعا! المطبخ وما أدراك .

تنقضّ «ح» على الثلاجة بحماس منذر بتهاطل الأمر والنهي. تستولي على ما بداخلها من بيض وزبدة. تخلط كل هذا بالسكر ثم تضيف قدرا محترما من الشوكولاتة الساخنة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلّي صلاة الجنازة. على الكعكة أن تسيل الشوكولاتة من وسطها عند القضم وأن تكون في نفس الوقت متماسكة. كيف يمكن للشيء أن يكون صلبا وسائلا في نفس الوقت؟ إنه التحدّي الذي أصبح بمرور الأيام- وبتعدّد الاخفاقات- هاجسا عند "ح" وبالعدوى عند عاشق مرطبات "ح". تضع رفيقة الطريق مشروع الكعكة في إناء خاص والإناء في فرن لا تفارقه بالبصر الحذر مترقبة بعصبية لحظة الحسم. يأتيها أمر من داخلها بأن الوقت حان. تبادر بسرعة لإخراج كعكة إثبات الذات. فشل جديد وعلى طول الخط. الكعكة جافة ولا شيء يسيل منها عند القضم. أسارع للمديح. لا تهتمّ «ح» بكلام معسول تعرف أن نصفه مواساة صادقة ونصفه سخرية شامتة، أما نصفه الثالث فمحض استراحات خوفا من إبداء رأي لن يزيد الا في توتّر الأعصاب.

تعود «ح» إلى كتبها تبحث عن الوصفة الصحيحة وكم من وصفات ستجد وستجرب والفشل هو الفشل. ثمة دوما خلل ما، إما في نسب المواد وإما في درجة الحرارة أو في مدة الطهي. شيئا فشيئا يتسلل إليّ قلقها. أكتشف يوما أن مشاكلي مع خصم حقير، واستعصاء العالم على الفهم وتسارع السنين ومشاكل الأمة والبشرية، وموعدي الذي أرجئه باستمرار مع طبيب الأسنان، وبقية المشاغل الأخرى، بدأت تتراجع إلى الخلف أمام هذا

الملف الضخم والموضوع محل نقاش مسترسل وتجارب لا تنتهي.

تعود «ح» ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر.

– أنقذتِ حياة مريض ؟

– أحسن من هذا.

– اكتشفتِ خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحتِ المسكين عند الجميع بابتسامة مشفقة.

– أحسن حتى من هذا.

–غير ممكن. لا ألذّ من فضح جهل زميل.

– ثمة أيضا حلّ معظلةكعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقتنا الأرجنتينية. تعرف كم هي طباخة ماهرة. هيّا اتركني أعمل.

– الآن؟ في منتصف الليل.

– الإعداد الأولي فقط لأن العملية مراحل. يجب أن أذوّب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبادي وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.

الحياة اليوميـة (رانبو)
بأعمالها المتواضعة السهلة
مهمة بامتيـاز
كم تتطلب من الـحب»

من الغد تعود «ح» لتجاربها. تصب نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة.

– فهمت العملية ؟

– تظنيني غبيا ؟

– فسّر.

– إذا اعتبرنا أنه قد توجد سرعة للضوء أكبر من التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول ل«بوزون» هيجز، فإن...

– لا تكن سمجا. سيصبح سائل الكعكة يابسا بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج لوقت أطول ليصبح يابسا هو الآخر.

– هذا بالضبط ما فهمت وسأهنئ نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة . على كل حال ، ليس لي ما أخسر . متعة الكعكة إن نجحتِ أو متعة الشماتة إن فشلتِ.

تتنهد "ح"، بداهة غير مستعدة على غير عادتها للدخول في أي مزح.

– أتساءل أحيانا ما الذي حبّبني فيك ؟

– عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقض مضجعي منذ بداية قصتنا ...متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ ؟

– هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟

– لا.

– إذن تفضّل على برّه.

– نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح .

– انتبه سأضربك .

– إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.

تهاجمني "ح" بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعيّ . لا تنطلي الحيلة. تدفعني برقة خارج المطبخ مصفّقة الباب ورائي .لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح "ح" الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بالشوكولاتة الساخنة السائلة.

وفي بعض أجمل ملفات الرحلة، تقدم "ح" لحبيبها كعكة شوكولاتة تحثّه- وكل الحب الآدمي يلمع في عينيها- على ألا يترك منها فتاتا وقد أعدتها له خصيصا... هل ثمة لذّة تضاهي لذّة قضم آخر قطعة من أفضل أنواع المرطبات لديه وهي تسيل على القميص والذقن والحبيبة تفتعل عدم الانتباه للأمر، كل همها مزيد من المدح ؟

وفي بعض أفظع ملفات الرحلة تتنهّد "ح":

– حلمت البارحة حلما بالغ الغرابة والإزعاج... بل قل إنه كابوس لم أعرف مثله منذ طفولتي.

– أنني طلبت يدك من أبيك؟

– أن نملة عملاقة بثلاثة رؤوس دخلت فراشي، وأن هذا الكائن المقزّز حضنني بعنف، يقبّلني بأفواهه الثلاثة الملطخة بشوكولاتة ساخنة شعرت بها تحرقني وهي تسيل على ذقني.

– نملة عملاقة بثلاثة رؤوس ؟ المسكينة! تصوري نوبات الشقيقة عندها.

شوكولاتة ساخنة تسيل على الذقن! يستيقظ الحالم من كابوس أوشك فيه على الموت مختنقا بكعكة شوكولاتة تسيل عند القضم و "ح" تحثّه- وكل المكر الآدمي يلمع في عينيها- على ألا يترك منها فتاتا وقد أعدتها له خصيصا... يتفاقم الرعب والرجل ينتبه أنه ليس بصدد الإفاقة من كابوس وإنما بصدد التوغّل فيه... أنه فعلا بصدد الموت مختنقا بأفضل أنواع المرطبات لديه.

لا بدّ من عودة النصّ لنسقه ومواصلة سرد الوقائع في العالم الوحيد الذي يتوهّم التحكم فيه وإلا تفجّر إلى أحداث لا رابط بينها أو تبدو هذيانا صرفا.

تواصل رفض الاعتراف بالدور الهائل للمطبخ في ملحمة البشرية! بربّك أليس أول مختبر تمعّن فيه الآدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه علومنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخّنها ونتمعن في النتائج تارة كوارث وتارة ألذّ المفاجئات؟ حقا لا يمكن القول أن ما جربناه على الدجاج والأرانب كانت غاية في الأناقة أو اللطف، لكن من يجادل أنه المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنساخ.

هنا لا يفوت النص تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطررنا- لبالغ الأسف- لالتهامها وعلى رأسها الدجاج لما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظّة معتبرا زلّة لسان لا تغتفر مقولة «ح» أن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثا. بالغ الأسف أيضا على كل ما سرق لها من بيض وما تعرّض له هذا الأخير من غلي في الماء الساخن وقلي في زيت أفظع سخونة.

كل هذا لا يمنع من القول أنه- من وجهة نظر الآدمي طبعا- كل الأفعال التي تمارس في المطبخ حلال لا غبار عليها قانونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخص بالذكر منها أفعال أكل، تذوّق، مضغ، التهم، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالم عبره أغلبُ المسافرين وفعل جاع أكثر الأفعال تصريفا. خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروص، بريك بالتن، طاجين جبن، بسيسة بزيت الزيتون والحلوى الشامية والمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بريك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها لما وضعته الرحلة تحت تصرفك من كلمات أخرى مثل البقلاوة والكنافة والبسطيلة والمعكرونة بفواكه البحر والسوشي والكرّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيبوجن؟

يحضرني أن هذا النص الذي قد يسقط في فخّ تقديم وصفة خلاص للبشرية، مطالب بتقديم وصفة طبخ ليغفر له القارئ المجهول زلته هذه- إن حدثت- و كنوع من التعويض عن الثمن الذي دفعه في اقتناء الكتاب أو في نسخه بصفة غير شرعية.

انتبه أن وصفة التورتيلا التي تعرف لا تليق بالمقام لأن البطاطا والبصل وحدهما يعطيانها مذاقا باهتا. أحسن وصفة هي التي يتكرّم بها النص عليك وهي كالآتي: قلي رطل من البطاطس والبصل كما في الوصفة الكلاسيكية... قلي رطل من الباذنجان والطماطم والقرع والفلفل، كل على حدة... تنشيف ما قلي بالورق الأبيض لتخليصه من فائض الزيت... تقطيع كل هذا ومزجه بعناية مع الملح والتوابل. قلت: تقطيع ولم أقل عجن... خضّ ثماني بيضات على الأقل وإضافة ملعقة من الماء الساخن. لماذا الماء الساخن؟ الله أعلم وكذلك عمّ «ح» الذي أوصى قبل موته بعدم جواز خلط البيض دون إضافة ملعقة من الماء الساخن... وضع الخضر في مقلاة بها قليل من الزيت الساخن... سكب البيض (هل أضفت ملعقة الماء الساخن؟) على عجين الخضر هذه واسمه الكفتاجي. هنا تبدأ

لصعوبات حيث لا بدّ من التجسس بملعقة من الخشب على قاع التورتيلا حتى لا تلتصق وقلبها في صحن دون إراقتها ثم إعادة قلبها من جديد حتى ينضج ما كان فوق. (في حالة عدم فهم ما أقصد إعادة القراءة لأنني واضح كل الوضوح وما عليك إلا أن تشغّل دماغك).
نسأل ماذا أفعل بالشيء إذا رفض الأطفال وأمهم أكله. ثمة حلول عدة منها سكبه على رأسهم، ومنها رميه من النافذة، لا يهم على رأس من تسقط. ما ينصح به النصّ توخّي الحذر والاستسلام للقضاء والقدر بمحاولة أكله مغالبا أي ردّة فعل غير محسوبة من بطنك.
قلنا إذن كعكة "ح" وتورتيلا–كفتاجي كاتب السطور تتويج قائمة الكلمات الشهية المذكورة أعلاه.

أمام هذه الكلمات التي تسيل اللعاب ويخفق القلب لذكرها، أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج!

مواصلة في نفس النسق الذي قد يعتبره البعض استفزازا... ألا تفسر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟ أليس صحيحا أنه إذا مات المستهلك بالتسمم فإنه لا يتّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟ أخيرا لا آخرا، في الحالة المذكورة (التسمّم) ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون تجرّب بإصرار تقتل الناس وتصيبهم بالإسهال الحادّ ولا من مجال للتخلص منها ومن أصحابها إلا بحرب لا تبقي ولا تذر؟

بحقّ سكابي وبوكوز وأمّك صنّافة وبقية المحسنين للآدمية، ألا تشعر أن النصّ وضع أخيرا الإصبع على الخلل الرئيسي في الملحمة البشرية؟ ألا تصف كلمات الطبخ أشياء موجودة بصفة لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والباذنجان والبصل والثوم والبقدونس...أشياء ثابتة الوجود ولا قدرة لمسافر أن يستغني عنها؟

على فكرة ...كل هذا الكلام المعسول عن خروجنا لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثا عن الذات والله، تبرير نختفي وراءه أننا ما كنا نغادر حضن نسائنا لولا جشعنا للشاي والقهوة والسكر واللبان والتوابل والفواكه النادرة، نبحث عنها وراء ألف محيط لا يهمنا للحصول عليها استعباد قارة وحتى عالما بأكمله.

هنا لا يفوتني التقدّم بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أظهرت حسّ تعاون مع البشرية الجائعة له بالغ الأثر في نفوسنا جميعا، وأود أن أخص بالذكر التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال. تقول نسيت الفلّ والياسمين والحبق والنعناع حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ.

من منعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مهدين لكل جزار تسبب في آلاف قتلاها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة. بجدّ من أعانك أكثر أوقات الشدّة؟ البقلاوة والمقروض والغريّبة والشباكية وقرن غزال وأم علي والكنافة النابلسية وبصفة عامة السكر والعسل والزبيب والفستق واللوز والبندق... أم خالد بن الوليد وطارق بن زياد وأبو عبيدة الجراح؟ شارع البرغل، ساحة الطماطم، زقاق القرع! كم جميلة هذه الأسماء! وبالمناسبة أضف لإثراء الخريطة جبال الملح- بدل الهملايا سابقا- وجبال السكر- لنقُل بدل جبال الأنديز- والمحيط المائي للهادي، والمحيط الحليبي للأطلسي، وقطب القهوة الشمالي وقطب القهوة الجنوبي، وبحيرة صغيرة في مكان معزول لذلك المشروب الذي يسمونه الشاي. قرّرت فيما يخصني طالما ما زلنا في هذا الوجه المبارك من العالم إعادة تسمية البلد الذي ابتليت به، حيث سيفقد من هنا فصاعدا اسم بوليسستان ليصبح زيتونستان وعاصمته دقلاية (القاف منطوقة على طريقة البدو). تسأل ما دقلاية هذه؟ اعلم يا جاهل أنها النخلة-الملكة وأنها بالرغم من أنف بشر أصقاع يسمونها العراق ومصر وإيران وكاليفورنيا وبقية الشعوب المتطفلة على تعهد النخيل، الشجرة المباركة التي تعطي أحلى التمور، أحلى فواكه عالم مرير.

تصرخ فيّ: هل نسيت أنها أيضا نخل صحراء وادي صوف وأن دقلتها أحسن من دقلتكم. يا رجل اتقِّ الله في إثارة النعرات. أتريد لهذا النص- خاصة في هذا المقطع الذي حرصت على أن يكون بالغ الوداعة- أن يتسبب في حروب قد يسميها المؤرخون «حروب التمر» ويعطونها أرقاما. هنا تحتجّ أن الخصومة ليست فقط عن النخيل، أن عليّ أن أتنازل حتى عن الزيتون والكل يعلم أن زيتون بلادك أحسن من زيتون بوليسستان ومن ثمّ لا مجال للاستئثار باسمه وإلا فسأرى ما سأرى. تمالك نفسك يا هذا وكفى خلطا فهذا خطاب الوجه البشع من العالم، ونحن نتحرّك الآن في الوجه الذي لا يحكم فيه الأغبياء الخطرين وإنما الطباخون وتلامذتهم الروحيين من أمثالي. إذن أعزائي القراء ممن فضّلتم بالشجرة المباركة الأخرى من بين كل الشجرات- اتفقنا إذن على أن يكون اسم بلدي «ياسمين-زيتونستان»، واسم بلدانكم المختلفة «فلّ-زيتونستان»، و»برتقال-زيتونستان»، و»أرز-زيتونستان» و»زعتر-زيتونستان»، و»أوزوتاراما-زيتونستان»، و»صالصابومودور-زيتونستان» و»أولي طورو-زيتونستان». آه تحتجّ أن «أولّي طورو» صرختهم في ملاعبهم الهمجية يحرضون على قتل ثور بريء. معك حق، لا يجوز في عالمنا الآن- أو قل في حالته المباركة هذه- إطلاق اسم كهذا. لنسمّ البلد بايبلا-زيتونستان. تصرخ فيّ أن البايبلا ملآنة بقتلى البحر وحتى ببقايا الدجاج المخنوق. طيب ما رأيك في تورتيلا-زيتونستان. آه التورتيلا لا تكون إلا بالبيض المسروق للدجاج الآنف الذكر. اللعنة، ما على أهل ذلك الجزء من الفضاء الحسّي إلا أن يجدوا زهرة أو شجرة يختصون بها وحدهم لتسمية بلدهم وما على سكان

المناطق الأخرى إلا أن ينهجوا نفس المنهج. الحمد على كثرة الأشجار المثمرة والنباتات العطرة.

مكان أخير سأضعه على رأس القائمة وفقا لحقّي في فرض رأيي في نصّ هو نصّي غير آبه بتواصل التعليقات الساخرة على تواصل تناقضاتي... مكان أنا فيه– ولو للحظة– بمأمن من أي إحساس أو شعور.

إنّه نادي اقتطعه مراهقون داخل عاصفة الضجيج والصخب ينُزع فيه كل ما يشحذ الانتباه والفعل الوحيد المسموح به عدم الفعل.

ألا نجرّب أن كل ما زاد عن حدّه ولو كان الفرح يصيب بالقرف .

أخيرا يمكنني أن اضع رحلي ، أن استلقي على أريكة وثيرة

لا أفكّر في شـــــيء (فرناندو بسّوا)

وهذا الفـــــــراغ

لذيذ كنسيم ليــــل

بعد يوم قائظ الحرّ

تتسأل ماذا يجري هنا؟ قلت لا شيء . تقول لكنني أسمع اصواتا غريبة .إنها أرقى أنواع التثاؤب والشخير لا غير . أنه يوم التصفية في مباراة خطبة الجمعة وقدّاس الأحد، والحوارات التلفزيونية وأيها الأسرع بتنويم المحلفين الساهرين على توزيع الجوائز لمن لا زالت تهمّهم الجوائز.

والآن اتركني أنام بقية الرحلة إلى أن يأتي زمن النوم الأطول.

يا بشر ذلك الوجه البشع للعالم، تصارعوا، تنافسوا، تصايحوا، تخانقوا، تقاتلوا، لكن رجاء ، لا تفسدوا عليّ هذه اللحظات خاصة والقصة تعود لبدايتها لتتشكّل من جديد في ذهن اصبح سليما...آن أوان الصمت...الصمت الضروري للإنصات أخيرا لما يريد العالم أن يسرّ به لعقولنا، لما يهمس به لأرواحنا فلا ننتبه ونحن مستسلمون للغو لا يعني شيئا.

على ذكر الشيء .تقول أرني كيف نموت في عالم كهذا من المفروض أن تكون آخر خدماته من مستوى كل ما قدّم إلى حدّ الآن.

يلاحظ نصف العالم البشع باستغراب وقلق متزايدين فراغا غير مسبوق في المحاضن والمدارس والأسواق والشوارع. المسكين! كان يستعدّ لنا بالطوفان والوباء والجفاف والمجاعة وجدّة أم المعارك ولم تأته الأخبار أنه تقرر مواصلة تلاقي الأجساد للمتعة لا للإنجاب. يتسلّل للفضاء الحسي هدوء غير معهود وعدد الآدميين يتناقص تدريجيا يومن بقي منهم يتمتّع بعالم لم يعد فيه فقر أو حرب. آخر يوم فراق جدّ وحفيد.

يختار الكهل الموفور الصحة موقعا مريحا وسط الأعشاب والأزهار. يستلقي على ظهره يتابع– كما فعل دوما– مرح قطعان السحاب. ينتبه لشبح عجوز منحن على الأرض ومسحاته القصيرة المعقوفة بجانبه يعدّ أرض " طينية" لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر. يرفع الشبح رأسه يجيل حوله البصر انتبه لوجود الخيال الحبيب. يمسح جبينا بللّه العرق ثمّ يعود لمسحاته يضرب بها الأرض ببالغ اللطف كأنه يخشى عليها من الوجع. ينتصب مجددا ينظر للذي يلاحقه بالنظر. يرفع يده يحيّ ويودّع ثم يختفي بلا أثر .

نعم ، ثمة شيء محبب (شيكي)

في هذا العـــــــالم

الذي جئناه للمـــوت

تأخذ سحب عابرة كل ألوان الورد تحضّر لمراسم الغروب. تضع السماء نقاب الليل وتلمع في الأفق أولى النجوم . يتضح مغزى الوصية التي حاول الطفل فكّ رموزها يوم كان واثقا أن سماء الليل سبورة الكون والنجوم أحرف رسالة كتبها له صديقه الله.

يغمض الرجل عينيه وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكار قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل الصلاة ذروة الجمال والجلال تتضرّع للربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه : "ابق معنا ، ابق معنا " كأنّ الصدى نفسه ينفخ بقوة في منديله هامسا : تطالبونني بالبقاء لا تعلمون أنني كنت دوما " بين الضلوع تقلّبه الأنفاس جنبا إلى جنب ."لم يبق على المرتحل غير تحّين لحظة القفز فوق آخر نوطة عائدا لبيته الذي اسمه العتمة والمطية نغم.

على شاهدة كل قبر في هذا العالم ، أو قل في حالته المباركة هذه، ستقرأ :

لا أيأس من رحمة ربي أبـــدا (عمر الخيام)

مهما عظم الذنب وساءت حالي

إذا مت بيومي وبشرابي فـغدا

يرعى بحنانه رميمي البـــالي

* * * * *

عثورها أخيرا على ما خرجت تبحث عنه

على القصة أن تتواصل ، لكن في أي اتجاه ؟

كل ما جرى لحدّ الآن لا يعطينا أدنى فكرة عن الهدف الذي خرجت من أجله الآدمية، إما مطرودة من بيت أبيها كما تدّعي الرواية السائدة أو بمحض إرادتها كما قرّره النصّ . كل ما نحن متأكدون منه، آمنا بالرواية الأولى أو بمنافستها ، أنها مشت ولا تزال على طول الطريق تصارع كائنات لها أنياب وأظافر أطول من أنيابها وأظافرها وتتخاصم وتتقاتل بينها بشراسة كادت تفنيها ، أن العالم الخبيث ما انفكّ ينظّم لها استراحات تستعيد فيها أنفاسها ومعنوياتها حتى تواصل التمسّك بالوجود ربما لإنجاز مهمة لا يعلم أهميتها إلا الصدى.

-تفاحة وتفيحة انتبها .يجب أن نجد عقدة للقصة. علينا أن نقرّر ما المهمة الخطيرة التي ستنجح العائلة في تحقيقها.

تتثائب تفيحة تجاهد للبقاء مستيقظة.

- «با» نجعل العائلة تبحث عن كنز وهذا الكنز موجود في غابة مليئة بالعفاريت لكن تفيحة الشجاعة تهزم كلللللّ العفاريت وهي التي تجد الكنز الذي تهديه إلى «با» لأنه أحسن بابا في العالم .

ترحل إلى حيث لها موعد شبه مؤكّد مع العفاريت ومع صورة مبهمة ما لكنز الكنوز.

مع كامل احترامي لتفيحة العقدة ضعيفة . ألم يهربوا من جنة يفترض أن فيها كل الكنوز ...اللهم إلا إذا كان كنزا لا يوجد حتى في الجنّة ...ماذا ؟

فجأة تستقيم القصة خيّل لي أن الشيء يمكن أن يلعب الدور .

يتوقف المراهق العصبي عن العبث بمفتاح الراديو وهو ينتبه لأنغام بالغة الرقة والهدوء أغرب ما فيها أنه لا كلمات فيها عن الحب وآلامه .تنتهي اللحظات السحرية فجأة على صوت مذيعة تهمس بلغة أجنبية : استمعتم إلى...

تضيع بقية الجملة في هجوم كاسح لصوت آت من إذاعة محلّية يبكي على الحبيبة التي لم تأت للموعد فيشبعه المراهق سبا وشتما. ها هو عازم على معرفة ما هذه المعزوفة التي بثت فيه هدوء غير معهود وحركت فيه أحاسيس ومشاعر لم يجرّبها من قبل.

يتضح أن تفيحة لا زالت مستيقظة.

– "با"، هل وجدت اسم المقطوعة؟

– لا أعرف إلى اليوم اسمها. كان البحث عن عنوانها بمثابة البحث عن الإبرة الشهيرة في كوم التبن. ما أذكره أنني بتّ على سعادة فائقة وعلى غيظ مكتوم، أنني نزلت من الغد إلى ساحة المدرسة أسأل كل من يقابلني عن موسيقى غريبة بثّتها البارحة في آخر هزيع من الليل إذاعة أجنبية ليس فيها إلا أنين الكمنجات ولا يتخللها غناء بكلمات ركيكة وتأتي باسترخاء لذيذ مشيعة في النفس كآبة عابرة وفرحا غريبا بلا سبب .

يومها ضحك زملائي من سذاجة السؤال.

– قد تكون معزوفة من ألبوم فرقة الخنافس أو جيل الجيلالة.

يبادرني صديق متعوّد على فهمي.

– قد تكون قطعة من الموسيقى التي يسمونها كلاسيكية. سأسأل أختي . إنها تتعلّم العزف على البيانو وتحبّ هذا النوع من الموسيقى.

ومن الغد آخذ بخناق الولد:

– ماذا قالت أختك؟

– لا يمكن أن تعرف. قالت ربّما تكون قطعة لبتهوفن.

– من؟

– بتهوفن، بتهوفن، هل طرشت؟ إنه رجل يؤلّف موسيقى مملّة لا يستطيع أي شاب يحترم نفسه أن يرقص عليها.

– دقيقة، لأسجّل. ألم يكن بوسع والديه تسميته بهيّ أو بهجت أو أي اسم قابل للنطق والتذكّر.

ها أنا أطوف بكل محلاّت بيع الموسيقى للمدينة صارخا بأمر واحد:

– هاتوا لي كلّ موسيقى بتهوفن.

– من؟

– بتهوفن، ربما برهوفن أو شيء من هذا القبيل.

– ليست لدينا أشرطة لهذا المغنيّ. لكن عندنا كل أشرطة عبد الحليم. يا ولد كفّ عن الصراخ، قلت لك: لا نبيع أغاني هذا الرجل. ربما تجدها عند الإسبانية العجوز في مستوى الصيدلية على الكورنيش. إنها متخصصة في بيع الموسيقى الأجنبية.

– سيدتي أريد كل موسيقى بتهوفن.

تبتسم العجوز برفق:

– بتهوفن يا بني ليس مغنّيا...

- يا سيدتي أرجوك. أعلم أنه ليس مغنيًا.

تغيّر العجوز نبرة كلام لا زال مشوبا ببعض الاستغراب.

- أتريد السمفونية الخامسة؟ هي الوحيدة المتوفرة.

تلتهب وجنتيّ بالنار.

- سمفونية؟ الخامسة؟ آه طبعا الخامسة، نعم الخامسة.

تنطلق من الجهاز الضربات الثلاث المشهورة. أوّل مفاجأة أن هذه القطعة ليست التي سمعت وأبحث عنها بلا كلل. ثاني مفاجأة والذات ترتجّ كأنها أرض ضربها الزلزال، أنّ فيها شيء أخطر وأهمّ. لم أكن أعرف يومها أنه بداية انتصاب الدعامة الثالثة التي بنيت عليها ذات ستصوغها إلى الأبد شعر لغة الضادّ وفلسفة الشرق والموسيقى الكبرى للغرب.

تحتجّ «ما» دون وهم كبير.

- ألم تمّل من هذه الاسطوانة تسمعها ليلا نهارا؟ يا بنيّ إنك تصمّ آذان الجميع والجيران يتذمّرون.

- ليذهبوا للجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.

أسمعها تردد لنفسها «اسم الله على ولدي» وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئني نصف عار، منتصبا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان أقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه لا هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.

- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقّا بدأت أخشى أنك...

لوثة من الجنون؟ كلاّ وإنما موجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع مستويات مجهولة من الموجود.

تعبر المراهق يوما فكرة غريبة، الوحيدة التي نجحت في إخراجه من الإدمان على نفس الأنغام الساحرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر...لكن ماذا لو!

- سيدتي، هل لك سمفونيات أخرى لبتهوفن؟

- آه، أنت الولد الذي... أذكرك جيدا، آسفة فليس لي اسطوانات أخرى، لكن لي الكثير من سمفونيات موزار وهايدن وتشايكوفسكي و...

- من؟ لا أريد إلا بتهوفن.

- انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.

تتسع ابتسامة العجوز وهي تمدّ لي كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلّف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ.

- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغني ليس بتهوفن.

تتجدّد المعجزة .يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن لمن يتوجه بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما جزء من الشكر لامرأة رحلت منذ زمن بعيد ورفضت إلى النهاية أن تصدّق أن صبيا بهذا العمر ومن أمّة أخرى يمكن أن يهيم حبّا ببتهوفن، أن يعرف أنه ليس مغنيا مصريا، أن يجعل من السمفونية الثالثة والخامسة والسادسة والتاسعة ملاجئه المختارة للفرار ممّا يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.

*

ثمة بشر يكرهون الموسيقى ويحرّمون سماعها...حتمية القانون القاضي بأنه لا يوجد شيء إلا وكان له نقيض... على العين والرأس قوانينك الرهيبة يا عالم، لكن بشرا يكرهون الموسيقى ويحرمون سماعها! على حذائي قانونك هذا، أما هم فيا ليتهم ما وجدوا.

تعال اتبعني داخل المحراب أين سيتضح لك ماذا تفعل الموسيقى بالآدمي. لندخل قاعة غارقة في صمت متهيّب ولنجلس في أول صفّ نحاذر من الدوس على الأقدام ومن السعال أو العطس ، نتأهب للغوص في أعماق السمفونية التي نبهتني العجوز أنها الوحيدة التي فيها غناء والتي تدفع فيها ثمن علبة تبغ وهي ككل ثمين بلا ثمن.

تقول عدت للحديث عن الآدميين المسالمين الجالسين جنبا لجنب لا يتخاصمون الخ. رأينا هذا في المسرح . نعم ، لكن ثمة إضافة بالغة الأهمية لا يوفّرها حتى هو. أصخ السمع.

فجأة يرتفع صخب مثير للأعصاب يدشّن به العازفون كل حفل، ربما ليذكّروا بما تصدره الآلات من أصوات منكرة عندما لا يفرض عليها الآدميون الانضباط لأفكارهم.

يصمت النشاز لتتصاعد من آلات بالغة البساطة أنغام لم ولن تفقد سحرها أيا كان المكان والزمان.

يا للمهندس الألمعي الذي جمع هذه الأصوات وفرض عليها النسق والنظام مستخرجا من فوضاها شكلا، من تفرقها وحدة، من تنافرها تجانسا، من بلاهتها ذكاء، ومن انعدام الحساسية والمعنى، ما يزخر به العالم من حساسية ومن معنى!

تتلوّن الذات بألوان شدو الأصوات والآلات، تتحرّك بنسقها، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى حيث لا يوجد إلا النور. انطلقي يا روحي إلى ما وراء الحواس، إلى ما وراء الرموز، إلى ما وراء أحلام النوم واليقظة، حلقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترفعي، توهجي، أضيئ لي ما بقي من الطريق.

بهذه السمفونية ، ما بناه الآدمي بتهوفن معلم لا من الحجر وإنما من الأصوات، بلورها من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور آخرون كاتدرائيات الحجر من ممكن الصنع الذي تزخر به المادة الصماء. العمل الفني الآن على مستوى ما حققع الإبداع البشري في كاتدرائية سترازبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محلّ ورباعيات الخيام ومعادلات ماكسوال. الفارق معدن الصنع، القاسم المشترك توق آدم إلى ما لا يستنفده اسم أو صفة أو فعل.

ظاهرة قلما نعيرها ما تستحقّ من الاهتمام ونحن ننصت للجوق: فعل المخلوق في الخالق، فعل الموسيقى في الموسيقار. تأمّل العازفين. هم خلافا للمثلين لا يواصلوا صراعات ما تسميه الواقع لأنهم خرجوا منه وعليه. تأمل تلك المرأة التي تعزف على الناي. إنها لم ولن تغرس أظافرها في عنق زميلة لم تعد في هذا المكان منافسة. ستواصلان الانتباه كل واحدة لما تفعله الأخرى وستتعاونان تعاونا وثيقا صامتا. لا وجود الآن وهنا لصراع نرجسيات. لا عازف ضرب أو سيضرب عازفا آخر لأنه يشوّش عليه ويسرق منه الأضواء. لا أحد خرج أو سيخرج غاضبا بعد رمي آلته على الأرض لأنّه لم يأخذ حقّه من العزف. المهمة الأن وهنا موزعة بكيفية مرضية لا تحتاج لقاض أو محامي. هي مبنية على انضباط حرّ، على ثقة متبادلة، على تظافر الجهود وكل فرد يعلم أن نجاحه مرتبط بقدرته على التناغم مع كل الآخرين.

تأمّل الآن الآدمي الواقف مديرا ظهره للمستمعين وعصاه المرفوعة إلى الأعلى ترسم في الفضاء أوامره ونواهيه.

لا أحد يصرخ أنه غير متفق على ما يأمر به .لن ينهض أحد ليفتك عصاه بحجّة أنّه أصلح للقيادة. هو لا يستبدّ بقرار أو بأحد عندما يأمر هذا بالنطق وذلك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعا بخفضه. هو مطاع لأنه يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده همه الوحيد مهمته الكبرى إبراز المواهب والتنسيق بينها. إنه السيد الخادم الكفء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون هذا الآدمي الذي تنفذ أوامره ونواهيه وهو لا ينطق حرفا ولا يهدّد أحدا نموذج كل من يملك سلطة.

كم هم مدهشون هؤلاء البشر المنغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان! كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون ! أين ومتى ترى شيئا كهذا في علاقات الآدميين ببعضهم البعض ؟

وحدها الموسيقى قادرة على مثل هذه المعجزة .على أقصى طيف التجربة البشرية :صراخ الرعب والألم المتصاعد من ساحات الموت....على أقصى الطرف الآخر أنغام الموسيقى المتصاعدة من ساحات الابداع والخلق. .مطلق الفشل قمّة النجاح.

في آخر المطاف ما هذه الأصوات التي نتجمع لإصدارها ولسماعها ونحن في أحسن حال من الانسجام ومن الخشوع ؟

لا وجود للموسيقى إلا في صلة بآلامنا ، بكآبتنا ، بحزننا ، بتفجّر الفرح فينا، بالتغيير المتواصل في مزاجنا ونحن في صراعنا مع العالم. ما من شكّ أنّ أول أغنية كانت أول صرخة ألم موزونة والأم تبكي رضيعها الميّت لتوّه اللهم إلا إذا كانت أول همس موزون ونفس الأم تهدهد رضيعا عصبيا يبكي رافضا النوم.

يمكن للجنة أن توفّر كل شيء إلا الموسيقى...وهي المكان الذي لما قُضي فيه على الحزن قُضي فيه على الفرح ؟...المكان الذي لم تعد لنا فيه حاجيات لا تتحقق وآلام

تنهـش أرواحنـا فنصـرخ بالآهـات الموزونـة وبالمووايـل .... هـل هـذا سـبب هروبنـا منهـا ؟ نعـم ، الموسيقى هي الشيء الإيجابي الوحيد الذي أضافه الآدمي للعالم ...الذي يغفر لـه ذنوبـه ويبرّر وجـوده... كـم غريـب أن يخلـق مثـل هـذا الجمـال هـو الـذي حمّـل العـالم مـا لا يطيـق بـذاءة وقبحـا ... كيـف يسـتطيع هـذا الناقـص أن يأتـي بمثـل هـذا الكمـال !؟

لم يبـق علـى السـمفونية إلا إعـلان نهايـة الحـداد. عـاد الفـرح سـيّد العـالم. تصالحنـا أخـيرا مـع ذاتنـا ومـع كل ذات بـل وحتـى مـع العـالم والصـدى مرتـاح لنجـاح تجربتـه، راض عـن أدائنـا وفخـور.

تتعالى الأصوات بالنشيد الرسمي للبشرية.

«تقدّمـــــــــــــــــــــــــــــوا (شيلّر)

تسارعـــــــــــــــــــــــــــوا

بزغت الشـــــــــــــــــــــــمس

وهذه قبلة باسم الأرض كلهـــــــــــــا

تأتيكم من وراء القبة السماويـــــــــة

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

اسلموا أرواحكم لغامر الفـــــــــــرح

وأنتم، اركعوا أمام الأب الـــــــــمقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماويـــة.

ابحثوا عنه. ابحثوا عنه...ابحثوا عنه... ابحثوا عنه».

ابحثوا عنه أو... عودوا إليه بالبشرى التي ينتظر : أصبح الآدمي أخيرا إنسانا.

* * * * *

رجوعها مظفّرة إلى بيت أبيها

للعودة إليه، شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس وشعوب الإغريق إلى دلفت وقبائل البريطانيين لستونهانج-درنتون، وقبل هؤلاء شدّت الرحال قبائل لم يحفظ التاريخ اسمها لأماكن عفا رسمها منذ زمن سحيق. ثمة من الآدميين من يتدافعون إلى اليوم نحو تلّ مربّع تائه وسط الصحاري الحمر، أو فوهة بركان، أو جبل يدعى طايشان، أو آخر يسمى إيماي، أو بحيرة اسمها كايلاش،أو معبد بوذي على قمة جبل من بورما اسمه بوبا أو مدن وقرى اسمها كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، كياف، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك... وللقائمة بقية طويلة.

في روايتي لقصة القصص لا تطيق حواء- ككل أنثى- فراق أهلها طويلا فتختلق الأعذار للعودة إلى بيت أبيها تجرّ إليه أولادها بفخر صامت ليباركهم الشيخ. وفي قصتي هذه يأتي الآدميون مكان الموعد ليقولوا للصدى: حققنا لك الهدف الذي أردته منّا. دفعنا في ذلك أغلى ثمن لكننا نجحنا. لم نعد عصابة ذئاب أو قطيعا من البقر. نحن اليوم كما أردتنا: جوقة.

في القصة التي هي قصتي، المكان السحري الذي تتجه إليه الآدمية لتزفّ البشرى يدعى أم القرى، قدّر لي أخيرا أن أصله ولو عن غير قصد.

تتنهد ما:

– كم أنا سعيدة أنّك ظفرت بما كنت أتمناه لك دوما.

لي فقط؟ كان الحج حلمها طوال حياتها...الحلم الذي رفضت البوح به حياء من أن يعتبر طلباً وتكليفا. لم تجد لإرضاء غريزتها لمناطق التماس مع الربّ الذي تمسكت به طوال حياتها تمسّك الغريق بالقشّ ، غير التوجّه إبان المناسبات والمصائب الكبرى إلى سفح جبل صغير تزور ضريح وليّ اسمه سيدي بوريقة أو قبر وليّ آخر في المدينة الكبيرة اسمه سيدي بلحسن.

يجب أن أقول شيئا. لكن ماذا أنا الذي رددت لنفسي نعم، سآخذها للحج السنة المقبلة فأنا جدّ مشغول هذه السنة. نعم السنة التي تليها فما زال أمامنا متسع من الوقت. هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن .....

– السنة المقبلة الدور عليك . هذه المرّة كلمة رجال.

– فات الأوان يا بني، فات الأوان.

– ماذا؟ أي أوان هذا الذي فات؟

من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها. على باب الخروج فاجأتها المناظر التي غابت عنها أسابيع، فاستلت منها الأزهار والأشجار وسحب السماء صرخة مكتومة: يا وجه ربي!

– نعم. يا بني لم يفت أي أوان، هوّن عليك.

كيف أهوّن عليّ والسرطان ينهش جسدها والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم «ما» الذي يختلج في صدري.

– هوّن عليك يا بنيّ... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيرا كل تفاصيل حجّك... لست مستعجلا، أليس كذلك؟

نعم، لست مستعجلا هذه المرة.

– قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تعرف الإدارة وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

ربما عيّنوني للمهمّة لأتنسّك واعتكف فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء.

– بعد الشرّ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوما أسئلتي عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟

خجلان ؟ بعض الشيء... قرفان بعض الشيء الآخر ؟ أصف كل ما حدث أم أنافق أنا أيضا؟ تداهمني الذكريات.

يبدأ السعي لمكان أهمّ المواعيد بالوقوف ساعات مضنية في طابور تسوده الفوضى لتسجيل حقائب ملآنة بالثياب وبما أعدّته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعا.

تحشرني مضيفة الطائرة في مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها ليواصل الشيطان المكلّف بالسخرية من أحلامي التنكيل بي، فالشيخ– وهو بالصدفة الجالس قرب النافذة– مصاب بمرض البروسطات ومضطرّ للهرع للمرحاض كل ربع ساعة يسحقني ببطنه الضخمة ويدوس على رجلي كل مرّة لا يكلّف نفسه الاعتذار أو حتى بسمة الحرج.

بعد ساعات قليلة تلفظني الطائرة المكتظة في مطار أعاني فيه الأمرين من الزحمة والفوضى وعنجهية صغار الموظّفين. يفتشني شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقيبتي عن الكتب الممنوعة. أحشر وسط التدافع الشرس داخل حافلة مكتظة تتوجه لأولى مدينتي الحج .

إغماض العينين. انفصال عن الصخب والحرّ والروائح .الفرار.

عميقا داخل فضاء خيالي...المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى... ممتطيا ظهر ناقة بيضاء عُلّقت في عنقها الأجراس والتمائم...النوم بالنهار والسفر ليلا تحت القبّة

المرصّعة باللؤلؤ...خُطاي في خُطى أجداد كان حجمهم مغامرة العمر...عائد إلى وطني فهذا الطريق هو الذي أتى بهؤلاء الأجداد ...رحلتي عودتهم إلى ديارهم والطريق كان أطول مما توقّعوا والزمن أقصر مما تمنوا...أولى المحطات قبل مكان الموعد. مارّة يتغامزون: درويش من بلاد المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن أخبار ذلك الزنديق..هنا أركبوه البغل. عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة الذبح. هنا جلدوه ألف سوط وهو يردّد: أحد، أحد. هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى. هنا صلبوه. هنا انتظر ينزف إذن الخليفة. هنا علّقوا رأسه .هنا حرقوا جسده. هنا تصاعدت روحه لتلتحق بروح الأرواح...عشية الرحيل معتكف في المسجد . ورائي ملثّم يهمس: يقول لك الشيخ الشهيد هوّن عليك سيقتلك كل هذا الألم. لا تأسى على ما وقع ، للنّاس حجّ ولي حجّ إلى سكني، وجدت سكني ، أنت أيضا وحتى الذين ذبحوني ...عشية الرحيل من مسجد يصفونه بالأموي في محطّة أخرى،يقف خلفي ملثم هامسا: يقول لك شيخنا الأسمى هوّن عليك سيقتلك كل هذا الألم ، لا تأسى على ما يقع ، علّمهم أن قلب الحكيم قابل بكل صورة له ولا دين له أين توجهت به ركائبه إلا الحبّ والإيمان ...ثم المكان المقدّس أين ضُرب لي الموعد. اللقاء أخيرا . نهلت من النبع القدسي. رويت. أتممت المهمة .لم يبق إلا للرجوع لأبشّر «ما» أن المنزّه عن كل صفة قبل منّي انسانيتي... قافلتي محملة بتوابل سرنديب وحرير الصين وعطور حضرموت وسقطرا ...البحث عن قطّاع الطريق لإعطائهم منابهم مما تنوء بحمله الإبل...على تخوم صحاريّ أطلق سراحها... أنا الآن داعية الشيخين أواصل جهادهما العبثي ... السلاطين والدهماء وفقهاء السلطان في صفوف متراصّة والشرر يتطاير من عيونهم.دمي مهدر. الفرار ! إلى أين والسلاطين والدهماء وفقهاء السلاطين في كل مكان زعيق الفرامل . صراخ الركّاب. من كوابيس فضاء الخيال إلى كوابيس فضاء الحواسّ.يصرخ أحدهم.

– حقيبة سقطت من سطح الحافلة!

يتوجه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن حوائجك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتي. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة حلمت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلا على بشر أو إله. ثمة في داخلي من الغضب ما يكفي لأمسك بالحقيبة مديرا ظهري للكل ومتجها نحو المطار .

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل»ما» لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها لحقيبة لم تنفجر لحسن الحظ رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجارة من بعيد فإذا

بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهرول نحو الحافلة لأحتمي يها والحقيبة اللعينة تركض ورائي والقمر يحرّضها علي نهش ساقي والقفز فوق كتفيّ.

تضع «ما» يدها أمام فمها تمنع تفجّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدّق فيّ مطولا.

– يا بني المهمّ الوصول إلى بيت الله والعودة منه سالما وليس كيفية الذهاب والإياب.

– الطريق بالنسبة لأمثالي أهمّ من...لِنقُل إن للطريق أهمية كبيرة.

بل هو لي كل شيء... آه يا أولى خطوات المغامرة المقدّسة تحملني نحو آفاق مفتوحة على اللانهائي والأخطار كامنة في كل منعرج، متى تعودين... متى تعودين ؟

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشّر لأقصر الطرق المؤدية إليه.ومما رويته للمحتضرة أنني لم أصبر على اللقاء، أنه حال وصول « المنوّرة» آخر ساعات الليل رميت بالحقيبة اللعينة. على فراش النزل ، أنني هرعت للمسجد أترنّح من التعب وبي أمل ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرهم.

زحمة مخيفة .تدافع فظّ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان. حملني تيار الأمواج الآدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون. فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه ، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط!

لكن هل يساس هذا الجنس اللعين بغير السوط تلوّح به في وجوههم وتشوي به أجسادهم كلما تجاوزوا حدّا لا يحبون شيئا قدر حب تجاوزه؟ لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط يسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم لا يتركون حجرة أو عظما ليبنوا حولها في شتى أصقاع الأرض قبابا وزوايا يضعون داخلها ما سرقوا وأن لصوصا سيسرقون ما سرقوا ومزيفون سيزيّفون ما فاتهم من غنيمة. من يتذكّر أن مدينة باري بنت مجدها طوال النهضة على الحج لرؤية رميم القديس نقولا...أو أن هذا الرميم سرق من مدينة قديمة اسمها ميرا كان القديس أسقفها و أن أهل البندقية سرقوا اللصوص ليزينوا به كاتدرائيتهم وأن كل المسروق كان مزيفا ؟ من يتذكر اليوم في بلدان الغرب العلماني رواج تجارة العظام المزيفة والمسامير المزيفة لصليب المسيح وكل الآثار التي كانت حيازتها جزءا هاما من سلطة الدنيا؟ نعم ربما ثمة ضرورة السوط للوقوف في وجه جشع لا يشبع. المهم أنني حاذرت لأبقى بعيدا عنه لأقترب ما أمكن من مثوى الذي كانت «ما» تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي من تؤمن أنه الشفيع الذي لا تردّ له شفاعة.

يصرخ فيّ أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟ لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة. هنا يرقد من سيتسمّى باسمه الملايين عبر العصور...الإنسان الذي ستعبر كلماته الصحاري والجبال والبحار والغابات يتردد صداها من جيل إلى جيل...الإنسان الذي طلع على

الآدميين وأتاهم بالخبر اليقين، الإنسان لذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعنا وطنا اسمه لغة الضاد والأغبياء مصرون على أنه قطعة فضاء حسي مطوقة بالأسلاك يحرسها العسس.

«ونودي اقرأ. تعالى الله قائلها لم تتصل قبل من قيلت له بفم (أحمد شوقي)
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثك الشهد عند الذائق الفهم»

أجيل البصر مطولا بينه وبين صديقه الصدّيق هو الذي :

«بالحزم والعزم حاط الدين في محن أضلت الحلم في كهل ومحتلم».

وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، هذا الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء، المنارة التي ما انفكّت تضيء لي الطريق، «ومن في البرية كالفاروق معدلة».

يا لهؤلاء الموتى، يعلّمون الحشود وهم صامتون، يحرّكون الجحافل لا حراك بهم، يطاعون ولا أمر يصرخون به.

– عد إليّ... كيف كانت الساعات الأولى ؟

– تواصلت المهزلة بل كادت تتحول لفضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي . قالوا وقد حان وقت الصلاة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان أنني نسيت قواعدها منذ زمان بعيد ولا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يرتل في الأثناء، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ونسيت العودة لتعلّم الطقوس. كان حقّا موقفا محرجا للغاية. النجدة يا كل من يهمّه أمري.

تتّسع ربع ابتسامة "ما".

– لا تقل إنّك لم تجد مخرجا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

– من استجاب لندائي؟ «الغوث»، «المحجوب»، «سيدي الخافي» مدعوما بـــ«سيدي محرز» وبقية الأسياد والسيدات... بركتك أنت؟ المهمّ أن ربّنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا انتبه لممرّض يكسو الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفا متينا. تنحنحت بوقار ثمّ توجّهت إلى مساعديّ قائلا: من شيمنا تبجيل أكبرنا سنّا، فليتقدّم فلان يؤمّ بنا هو الصلاة، لا فضل لطبيب على ممرّض إلاّ بالتقوى.

لا تقوى «ما» على التماسك فتنفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

– يا بني، عيب أن تذهب لـــــــــــ... دون أن...

– إنها غلطة "با" لما فرض عليّ الصلاة بالقوة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلاّ ما جرّني إليها بالقوّة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمتم بالآيات وأتمتم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاغية يأمر وينهى،

لا يكلّف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولما ابتلعه المجهول من جديد فسخت كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.

تتنهد «ما»:

– لم أعرف طفلا عنيدا مثلك، تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنت المخطئ وهو المصيب.

– لأنه آمن بأن العصا لمن عصى... لو علم ماذا ستكلّفه عصاه الملعونة... آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبّين هذا الرجل و ما تزالين.

– هو أيضا كان يحبّك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

– وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تخلّف إلا الرماد... النار لا تخلّف إلا الرماد.!

– وأيضا كان يردّد لي وأحيانا لنفسه : أنا الشرارة وهو اللهب.

– بجدّ... أم الجملة من اختراعك؟

– عد للموضوع، إذن وبعد الورطة الأولى كيف تطورت الأمور؟

– من سيء إلى أسوأ، لكن، هل حقا نطق بالجملة ؟ طيب، لنفترض . المهمّ .كانت حياتي صراعا يوميا مع المرضين والأطباء لا يفهمون لماذا أغضب من تغيبهم عن المستوصف أو أن أرفض لهم سيارة الإسعاف للتسوّق. كان الحج بالنسبة إلى أغلبهم سياحة تجارية تحت ستار تأدية واجب ديني لم أرَ منه إلاّ طقوسا قشورية كالتي عرفتها لهم دوما.

لا يبغّضك في السياسة قدر السياسيين إن عارضوا وإن حكموا... لا يكرّهك في العدالة إلا القضاة والمحامين... لا يبعدك عن الدين غير الكهنة والمتدينين... كأن هناك لعنة مصاحبة لكبرى المؤسسات والقضايا تجعل حراسها لصوصها ومدّعي حمايتها ألدّ أعدائها.

– آه يا بني من شدتك على الناس !

شدتي على الناس؟ هل أنا من قال فيهم :

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا (المعري)
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون عن غّي لمن سجدوا
والعدم أروح مما في عوالمهم وهو التكلّف إن هبوا وإن هجدوا

وفي أماكن وأزمان وقصص أخرى، منع أكثر من حجّ لصغار القديسين والمغمورين من الأولياء والصالحين لأن الكواليس فاضت على الركح والحجّ يصبح سوقا ولفجور. كم من هؤلاء الحجّاج جاءوا هنا للعفو عن خطاياهم الحقيقية والموهومة ولضمان الحجز المسبق في

إحدى ضواحي الجنة وتفادي الفرك بالنار والقطران، لكن أيضا بحثا عن البضائع القابلة للتهريب والربح الوفير.

نعم كم منهم من يذهبون للحجّ لصفقة مع الآخرة دون أن يغفلوا لحظة عن صفقات الدنيا وجلّهم عادوا بالبضائع المهربة وبلقب قد يعينهم على قضاء الحوائج.

-أتتذكرين يوم عاد ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتّى ملفّات القضايا القديمة واضعا لقبه الجديد أمام اسم كان يدّعي دوما أنه بغير حاجة لألقاب الغرور .

تضع «ما» يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.

- يا بني حرام عليك. أبوك صلّى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.

- شريطة أن يوجد أحد يصلّي أمامه، بل قولي: يمثّل أمامه ولو كان القطّ.

- يا ولد أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.

من النبرة والقسمات، الأمر ليس الكف عن اغتياب «با» وإنما مواصلته.

حتّى «ما» تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الآدميين مهما عرفتهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت. من كانت حقا «ما»؟ من أنت يا "تفاحة»؟ من أنت يا تفيحة ؟وأنت التي قاسمتني الفراش سنينا، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدمت لي دوما تحت اسم «با» ؟

لا أحبّ إلي من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

- تظنين أنني أغتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد دوما : كن أسدا وكلني.

لم يكن لي غيره خصما وغريما ومنافسا...كل من لعبوا الدور لم يكونوا إلا اشكاله الباهتة ...اللعين ! يوم خيّل لي أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية اكتشفت إنني لم أحقّق إلا مطامحه ولم أجري إلا وراء الأهداف التي حدّدها.

-واصل ، لا أريدك أن تسكت...أصبحت أخشى الصمت.

-كيف! ألا تعرفين القصة ... لما وصل «أين في الناس» الأراضي المقدسة...

- يا ولد...

- عفوا لما وصل زوجك الأراضي المقدّسة.

- يا ولد!

- عفوا لما وصل زوجك وأب أولادك الآخرين ...

- يا ولد! !

- طيّب يا للّة، لما وصل أبي الأراضي المقدّسة ونقلا عن الذين رافقوه أنه نزل في أفخر

فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ للاحتكاك- هو الذي لم تحمل أمّه غيره- برعاع القارّات الخمس و مدّعيا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد. تذكرين كم مرّة أتى البيت معلنا أنه دخل النزع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة وإن كان أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئا نتقاسمه.

تواصل «ما» منع ربع ابتسامتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- آه يا بنيّ من أمراض أبيك!

- ما أحلى تلك الأيام . كأني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرفة؟ هل تظنون أنني عجوز حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم. كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه ومتمتعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير

آه لو كان مرضك مثل مرضه!... اللعنة لم لا تثبي على رجليك صارخة مثله اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجدّدا، في ماذا تفكّر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحج في مثل هذه الظروف والحال أن موعدا مع الذات في غرفة الحمام تواجهها مطولا أمام المرآة جدّ كاف؟

تسلّط عليّ «ما» نظرتها الثاقبة .

- لست بحاجة لأوصيك بالناس أو بإخوتك، لكن... عدني أن تصالح والدك.

ثمة الآن في لهجة «ما» أمر صارم بأن أطمئنها لترحل واثقة أن الحرب التي أرهقتها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

-اطمئني، غفرت له منذ زمن طويل والفضل لمشاغلي مع عصا أثقل ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.

ليكن في علم كل من يهمّه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام يوقّع عليها «با» باسم كل الآباء الطغاة وأنا باسم كل الأبناء المتمرّدين، تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبوفيه سنتبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همّهم

تنفيذ الاتفاق علما وأن الممضين والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.
لم أكن أعلم يومها أني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي سميته دوما "أين في الناس"، يظنوني أسخر منه وأنا أقصد كل كلمة... أن دمعة حارقة ستسيل على خد سكنه إلى الأبد الصقيع يذرفها أصعب ابن على أصعب أب... أن كل روحي ستصرخ فيه : لماذا لا تثب على رجليك تنهرنا : اغربوا عن وجهي، تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب! كم سيخيّب الرجل ظني أنا الذي آمنت دوما أنه قادر على ليّ ذراع أي عدو فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجرّده من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يقاوم ولا ينتصر.

طاف النعاس على ماضيك وارتحلا **(بشارة الخوري)**

حدائق العمر بكيا فاهـــدأ الآن

كان الوداع ابتسامات مـــبللة

بالدمع حينا وبالتذكار أحيانـــا

حتى الهدايا وكانت كل ثروتنـــا

ليل الوداع نسينا هدايانـــــا

يا رحلة في مدى النسيان موجعـة

ما كان أغنى الهوى عنها وأغنانـا

*

المرأة التي تحتضر الآن طفلة تخاف أن يحرمها هجوم النوم من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها أب عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها .
– كفانا حديثا عنه وعن الحجاج. أريد تفاصيل دخولك أكرم مدينة ثم بيت الله ، لا تخش إطالة ولا تنس حادثة.
أخيرا أومفالوس عالم الآدميين الذين ارتحلت في قافلتهم.
«لبيّك اللهم لبيك». نُفخ في الصور للمثول أمام صاحب الأمر.
أقوام آتية من كل آفاق الفضاء الحسي بإناثها وذكورها، بشيبها وشبابها، بأقزامها وعمالقتها، بمرضاها وأسويائها. تكاد تشعر بكثافة حضور كل من تدافعوا في هذه الساحة طوال القرون الغابرة. ربما يوجد بيننا أشباح لحجاج من المستقبل السحيق استعجلوا الحضور لا صبر لهم على طول الفراق. الثابت أن الشمل التام منهيا ولو للحظة حالة التشتت والتشرذم التي عانت منها عائلة ممزقة تاه أفرادها في خضم عالم الانبهار والرعب. فقبل أن يكون مكان الموعد مع الله هذا مكان الموعد مع أطفال الأم الذين أخذهم الطريق في كم من اتجاه والذي لا بدّ من حضورهم وقد وضعوا أسلحتهم جانبا لتتشكل الجوقة وبعدها نتقدّم «للأب الذي في السماوات» متحدين ، مسالمين آمنين من بعضنا البعض نزفّ له بشرى نجاح تجربته .

تهمس "ما": حدثني... حدّثني عنها...الكعبة !

– أبصرتها من آخر الصفوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ. مشهد ليس كمثله في عالم الآدميين. مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء للملايين وعليها أخشاب الشيوخ والمرضى طافية والمرفأ مكعب أسود ....بحر أمواجه لا تتدافع نحو الشاطئ لتتكسّر على حاجزه وإنما تحاصره وتدور حوله لا تتوقف لحظة.

إنّه طواف الآدمي حول بيت ربّه الآن طواف الكواكب حول الشمس...طواف القمر حول الأرض... طواف الشوارد حول نواة الذرّة... طواف الأحياء حول الموت وطواف الأموات حول الحياة...الحركة الدائرية التي هي أساس كل شكل هندسي كامل مكتف بذاته... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة بمثل هذا الجمال والجلال؟

ثمة من المرتحلين في القوافل الأخرى وحتى من قافلتنا من يدّعي أن ربّ العائلة الكبرى في كل مكان بل وفي كل شيء وفي كل كائن ومن ثم شرعية الحج لأي بقعة من الأرض والطواف حول أيّ معلم بل وحتى حول قطّة البيت.

فإن رمت شرقا انت للشرق شرقه وإن رمت غربا أنت نصب عيان (الحلاج)
وإن رمت فوقا أنت في الفوق فوقه وإن رمت تحتا أنت كل مكان
وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّه وأنت بكلّ الكلّ ليس بفان

في هذه الحالة ، لماذا لا يكون هذا المكان مكانه بما أن كل مكان هو دوما المكان ؟

– سهوت مرة أخرى يا بني، عد إليّ ؟

هل أحدثها عن الوجه الآخر للحجّ عن تحول أنغام الجوقة حتى في هذا المكان إلى صراخ الصراع من أجل البقاء ؟

إنه عالم تناظري لا تكتشف فيه مطلق الروعة إلا وداهمك بنصفه المكوّن الآخر: مطلق الفظاعة.

ها أنا لأول مرة في حياتي أتحرّك بأقدام غيري وعضلات صدري تدفع الأجسام الضاغطة بحثا عن النفس. أنا الآن في خضمّ جحافل تتدافع نحو ساحة الطقس الاجباري وهي كأمواج أودية جافة انقلبت في لحظة أنهارا جارفة من الماء والطمي. تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتحما بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقي اليسرىٍ معه إلى جاوا. كيف هو يوم الحشر إذن؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسب الشيطان الرجيم الذي يرمز له النصب. لم لا أنخرط في الطقس ونحن أمام أقدم وسائل علاج الذات؟

يبدأ الطفل في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيذ منه «ما» طول الوقت. أما المراهق النائم بعين واحدة، فهو على مزاج آخر ورأي جد مختلف. كيف لا يتعاطف هذا المتعطش للعدل والمنطق مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طولب، كما طولب آدم، وكما نطالب دوما، بالشيء وبعكسه، وكأنّ بممتحننا نيّة مسبقة لإسقاطنا في الامتحان أيا كانت الإجابة على السؤال. فلو عصى أمر الله بالسجود لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر. لو أطاع لسجد لغير اللّه فكان الذنب أعظم؟ ثم تحميله هو مسؤولية الشرّ!... لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقّا لما سمح لموظّف عنده أن يغويهم؟ أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لما أغواهم غاوٍ.

تتدافع أفكار المراهق الساخر تتوّجه للكهل المحرج : كفّ عن رمي هذا البريء وإن أردت الرمي فصوّب حجارتك لهؤلاء المجانين ولصدرك أنت بالذات... أليس إبليس كبش فداء ضحية سلطات عليا تحاول عبره التغطية على فشلها ثم بربّك هل ثمة شيطان غير الآدمي. ؟ نسيت أنّ من تلعن أوّل معارض وقف في وجه أوّل قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لست أداة أو بوقا؟ أليس جدّك الأكبر وجدّ كل الثوار على مرّ العصور ؟

«رباه لو أن في طول انتظار غد جدوى	لما أسمعتك الريح شكوانـــا (السياب)
وما كان حتما علينا أن يعذبنــــا	طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا
النار أشهى فهات النار تصهرنــا	يوم الحساب ومتعنا بدنيانــا
إن كان لا يدخل الجنات داخلهـــا	إلا شقيا على الأولى وغرثانـــا
وكان أمرك أن ترضى بما صنعـــوا	فأحفظ عبيدك فالشيطان مولانا»

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج.

–ما هذا الكفر ؟ إنه الوسواس الخنّاس...هذا ما علّمني سيّدي الشيخ وما كتبته على لوحي في الكتّاب... ثم لماذا تلعنه "ما" لو كان بريئا ؟

يرفض المراهق الجدل على أتمّ قناعة أنه المصيب. لكن ما رأي الكهل؟ ما زال مبهما في هذا الموضع من النص والرؤيا بالكاد تكتسب أولى ملامحها.

كم هي معقّدة هندستها وبداخلي من المهندسين ثلاثة لا يتفقون أبدا على رأي ... كم سيكون صعبا مواجهة الآدميين بالحقيقة المفرحة المفزعة. ...أيها الناس لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعتم فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز للخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجذّر فيكم ،أزلي ، متجدّد، لا يجتثه عنف أو إفساد... ايها الناس لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه : الشيطان الذي وضعتم فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز للشر الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجذّر فيكم ، أزلي ، متجدد لا يصلحه دين أو فنّ أو علم... أنتم منذ البداية وإلى الأبد "شياطينملائكة.

التفت حواليّ وقد داهمني الخوف من أن تمسك أيادي فضّة بأطرافي، ترفعني في الهواء لاعنة ساخطة باصقة ليرتطم جسدي بالعمود الحجري الذي تصوّب له كل الضربات. لا يبقى عليّ سوى إطلاق أحدّ صراخ لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا وأننا لسنا هنا لشتم أنفسنا والتخلّص ممّا بداخل الذات من نجاسات. لا يلتفت لحماسي وصراخي أحد وكل مشغول بتصفية حساباته مع كبش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية لبرّ الأمان انطلق وأولوية الأولويات الآن الخروج حيّا من هذه الزحمة المرعبة، إن أمكن بكل أطرافي. وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للآدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون لألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب وإن لم يكن لك منها نصيب سمّوك سيّدا. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتّى إن لم تكن أنثي يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين للعجوز مكانهم في الحافلة .يعتذرون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرّد تصنّع. طبيعتهم الحقيقية الآن وهنا ...أو عند التهاب النار في مكان مغلق... أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيونا متجهّمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدّة للمشي فوق خدّك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمع فيه اللّه و إبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه نحن أيضا حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

تسقط المرأة البدينة أمامي مغشيا عليها بين أقدام، بل قل حوافر قطعان بشرية فقدت كل ضابط أو هدف باستثناء البقاء على قيد الحياة. كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة ...وهو ينوء بثقل الحشود المتسلقة جسده ...وهو يختنق ويسحق ويمحق ويتفكّك ؟ من أين للّغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟ ترنّ صرخة استغاثة إلى اليوم في أذني، والضحية تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوّح بالوداع لعالم غير مكترث. ترى ما الذي شعرت به وهي سجينة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟

اللعنة ، كانت مريضة في عهدتي لكني فشلت في منعها من دخول حلبة الموت التي خرجت منها لا أدري بأي أعجوبة حيا بل وبكل مكوناتي عدا النظارات .

كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه لشيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من لبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع لنجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكانك، هذا إفطاري وكلّكم اليوم صيدي .

تضع «ما» يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.

– هوّن عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذّب نفسك دوما؟ لست مسؤولا عن موت المسكينة.

تنظر لي مطوّلا وفي عينيها مرح خفيف.

– ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟

تضيف تحاول المزح لتخرجني من حزن متفاقم :

–ثمة من قال لي أن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

– نعم لثمته ثمّ ...دخلت... البيت وصليت بين جدرانه.

تنتصب تفاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت «ما» بنفس الانتباه المندهش وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحة عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها. :

– «با»، ماذا قالت جدّتي لما بحت لها بالسرّ...

– لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك .قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لـــــ...

ليلة بعد ليلة كنت كذرة الحديد تتجه حيث يجذبها المغناطيس. تحملني قدماي المثقلتان، هدني التعب إلى المكان الذي لا يضاهيه مكان، أتأمل مشهدا لا يضاهيه على سطح الأرض مشهد.

يواصل الطفل الصراخ داخلي: هيا ندفع مع الناس لنرى الله، إنّه موجود هناك ...هناك تحت الستائر السود ينتظرنا.

ليلة بعد ليلة ونصيبي رؤية مكان لا مجال للوصول إليه إلا بالمشي على مليونين من الأجساد. على قرب بضعة مئات من الأمتار وأبعد من الجوزاء .

من عادة العالم أنّه إذا بخل تجاوز حدود البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذات صباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. يفتح الرجل الهامّ بابها هامسا في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين. مجددا بباب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدّدا بنفس بالجدران الآدمية ؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة . مشهد لا تصدُّقه عيناي.

دهشتك وأنت تدخل بيتك أفرغه اللصوص من كل أثاث. الساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبدا...فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- يوم غسل الكعبة . الملك بنفسه من يقوم بالعملية . يُفرغ فيه الحرم باستثناء نخبة من المدعوين تدبرت أمري لتكون بينهم .

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكّد من الهويّة والدعوة . دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألثم الحجر الأسود.

يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عجّلا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفل المراهق الكهل فمه داهمته دهشة فاقت الدهشة الأولى وهو وسط أقدس مكان بني قومه . في أماكن الآدميين الأخرى، يعبّرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه وتزلّفهم إليه بتشييد أعلى وأعقد المباني ، بحشوها بكل ما يقدرون عليه من روائع الفن، لا يتراجعون أمام الافراط وسوء الذوق في تكديس الرخام والعاج والذهب.

إلا هنا. لا شيء على أحجار الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض .لا شموع تضيء ولا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرّد. الفراغ. فراغ عين الاعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته ، للعلم على فهمه وللفنّ على تصوّره ؟

تنهار فجأة كل الحواجز فإذا بي أصلّي.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل...الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد... .الحمد لك والشكر على الصحاري ، على الغابات ، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر...الحمد لك والشكر على الياسمين ،على الورد ، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم...الحمد لك والشكر على الغناء، على الضحك،، على الصداقة ، على الحب وحتى على المحن التي تصلب عودنا...الحمد لك والشكر على هديّتي الحياة والموت.

فعل الأفعال؟ طبعا عبد، صلّى، قدّس، تبتّل.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجرا: الحمد على الجراد، الحمد على القمل، الحمد على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه حتى هو التهيبّ .

يعود الطفل للصراخ : كيف ، في بيته وبين يديه ولا تطلب منه شيئا!

خاصية قارّة في الآدميين. تراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم ، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلّمت أن هناك خارج الذات قوة محبّة تستجيب لكلّ طلب يدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم تشمتّت في كل المسؤولين وهو يعودون من حصص الاستجداء بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها وكم حسبت نفسي من غير طينتهم . أواصل افتعال التعفّف . متى تكففت بشرا أو إلها ؟ إنها أنفتي أمام البشر وحيائي أمام الله.

يواصل الطفل صراخه وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

–هل من كبرياء أمامه «هو» ! ألم يقل ادعوني أستجب لكم ؟

من أحوج للإعانة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف ؟ تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة :

يا تربة شجرة الوجود، يا جذورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها و يا كل ما أثمرت من ثمار...النجدة، إنني يائس إنني بائس، إنني تائه، دلّني على الطريق.

يعبق الفضاء باختلاجة امتعاض فيها من المداعبة أكثر مما فيها من السخرية، من العتاب أكثر مما فيها من التقريع ، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجدينني. !

يرفع لحاجب من نبرة همسه الصارخ: أسرعا، وصل جلالة الملك ، يا الله برّة، برّة. «هو» لا غير الذي يطردني من حضرته وعليّ القبول بأنني أستأهل الطرد.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يستجدى بسماجة، هو الذي وهبنا الحياة والحرية لنعبر العالم سادة لا متسوّلين... كم غريب أن نستجدي التراب ممن أعطانا التبر بلا حساب.

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمنّ، يا من تكرم فلم يتبجّح، يا من أغدق عطاياه لا يهمّه نكران أو عرفان.

أنا الآن وسط ساحة وداع .ينفرط العقد .تتفكك اللحمة . تتفرق الأجزاء ليركض كل واحد في كل اتجاه. تتحرّك الشرطة بحثا عمن تخلفوا عن المغادرة لا يفهمون أن المكان نقطة عبور فقط وإلا أفرغتها العادة من كل سحر.

*

تستحثني "ما" كما كانت تفعل تفاحة وتفيحة لمواصلة القصة لا تتحمل مثلهما أن أتوقف وقد شرد مني البصر بعيدا.

– كادت طائرة الرجوع ألاّ تقلع بنا لمشاكل الحمولة. الم أقل لك أن المساكين اغتنموا فرصة الحجّ للتسوّق وفرصة التسوّق للحج. حجّ وحاجة مثلما يقولون. كانت سنة الفيديو خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة...بالطبع مع محاولة خداع موظفي الجمارك عند الرجوع وإن صعب الأمر شراء ذممهم.

– أنت أيضا يا بني رجعت بفيديو.

– أنا ! أنا ابن «أين في الناس» هرّبت فيديو !وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة ! وخرجت من المطار أزفر من الغيظ لا فقط لأنني دفعت الرسوم والغرامة ولكن لأنني كنت الوحيد الذي دفع ! من أين سمعت هذا الافتراءات الجديدة عليّ؟

– نسيت أنك جئتني بالفيديو مع اللبان والمسبحة وماء زمزم ؟

– تقصدين أن شخصا يشبهني انتحل هويتي وجاءك بالشيء للتجسّس عليك وعليّ.

– ويعلم ما أحبّ الأفلام إليّ، فأتاني بشريط "الرسالة" لندشّن الجهاز العجيب .

– الحمد لله ، اعترفت أخيرا وبعظم اللسان أنه كان فيديو ثقافي وليس كالذي يأتي بها الآخرون لمشاهدة لأفلام الركيكة.

قد لا نجرّب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن نفجر ضحكا أو نحن نقهقه أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تمسح المحتضرة دموعها وابتسامة كاملة كالبدر ليلة اكتماله تضيء وجهها بنور آت من الأعماق المجهولة. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لآخر مرة.

– أتعرف لماذا قدّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

– الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير شغلي لا أكثر... بالليل وبالنهار... بكل جوارحي... بكلّ ما أوتيت من علم ومن جهد... بالقليل من التفاني الذي أخذته عنك.

– هل كان يريد منك شيئا آخر؟ اطمئن ، هو راض عنك مثلما أنا راضية عنك ...دنيا وآخرة.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت ذمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل تربيتي وشدّ أزري حتى وهو يلفظ أنفاسه . من أين لي أن أنسى آخر نصائح «ما» يوم دخلت المستشفى لا شكّ لديها أنها بداية النهاية : إياك أن تجرح كائنا، انتبه لرقة الناس وهشاشتهم، خاصة من يبدون لك أقوياء، هم أهش الناس قاطبة... لا تحقد ولا تنتقم؛ لا كفر في هذا العالم إلا الحقد والانتقام... والآن سر على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تخشَ أحدا ما دمت في خدمته وخدمة عباده .

ها هي ترحل قائلة : "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها .

تفتح «ما» عينيها على أقصى اتساع. تجيل نظرها لتسلّطه على وجهين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلها الآخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئا لذاتها وإنّما تدعو فيها للباقين على قيد الحياة . ترفع الأمّ

الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.

قبلة على يد لن ترتفع لتعمل وتبارك. شكرا على كل شيء.

تنطفئ الشمعة التي احترقت من طول إضاءتها لطريق الآخرين.

«نفد الزيــــــت   (كبير)

صمت الطـــــــل

استرخى الـــــراقص

انطفأت النـــــــار

لن يتصاعد منها دخـــان

لم يعد هناك اثنـــــان.

دخلت الروح في الواحـد».

كلا لم يمسح الموت من شفتي «ما» ابتسامة بوذا وموناليزا بل كأنه زادها وقارا وعمقا.

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الرمزي طقوس فرائض الحج الأكبر.أحرمت لموطنها الأصلي. عادت لبيت أبيها.

تتلقى «الباتشاماما» رفات «الماما» والداخل للأحضان المفتوحة دوما سماد الحصاد المقبل.

هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

ولو حفروا في درّة ما رضيتها   لجسمك، إبقاء عليه من الدفـن   (المعري)

ولو أودعوك الجوّ خفنا مصيفه   ومشتاه، وازداد الضنين من الضنّ

فيا قبر واه من ترابك، ليّنـا   عليه وآه من جنادلك الخـشن

آخر حفنة من الثرى ثمّ صوت المرتّل: اللّهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردّد كل روحي: آمين.

حولي كلّهم يردّدون : إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنّا لله!... وإنا إليه راجعون!

من إنّا هذا ؟... هذا الذي هو من الله والذي إليه يرجع ؟

* * * * *

الكتاب السادس

الغريب

جبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي ولا
وجدت من يعرفني ولا يسمع بي وسأبقى غريبا حتى
تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني.
جبران خليل جبران



عبث ما نسعى إليه والذات التي نحاول استحضارها شبح تلاشى داخل ضباب الزمان لم يترك إلا بعض الأثر ؟ طبعا... لكن ، أليس هذا التحدّي هو الذي طوّر كثيرا مفاهيمنا وتقنياتنا منذ انطلقنا في معالجة هذا النصّ ؟

المعلّق

يحدّق في الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: «بونيول»، تفه !

الوغد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ استثمرها في صدقة تعود عليّ بالدعاء لا بالشتم بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا اللص الأجنبي ! لا يبق علي سواء الفرار وكأنني السارق وهو المسروق.

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟ ما يجهله هذا الشقي أنني أجنبي قانوني رسمي ومعترف به وليس كالغرباء الذين يختبئون في الأقبية خوفا من اكتشاف أمرهم وترحيلهم خارج الحدود. لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم.

لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربائي. هم لا يملكون بطاقة هويتي الوطنية التي تسمح في بلادي باعتبارهم هم الغرباء.

كم مشيت في شوارعهم لا وهم لي حول ما يدور ببال من يلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الارهابيين، خطر، مهدّد للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا يرجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

على كل حال، توجد في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على هاجس فقدانها أو سرقتها مدّتني بها سلطات البلد –ببالغ الامتعاض– تحفظني مؤقتا من عنف الذين يدعون أنهم ليسوا الغرباء في هذه المدينة الحافلة بالأجانب أمثالي.

قد يكون من مزايا هذه البطاقة - بجانب التي مدتني به سلطات بلدي – تطميني حول من أكون، ففيهما معطيات مكتوبة وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي. عجيب ! البيروقراطية تعرف من أنا والحال أنني لا أعرف من هذا الذي تدّعي معرفته. بطاقة الهوية ! هل اخترعنا الشيء لنسخر من أنفسنا ؟

نعم من هذا الغريب الذي وجد نفسه يوما على الطريق فاقد الذاكرة يسأل كل من حوله: من منكم يعرفني، فيهزّون الاكتاف يسألونه وهم أكثر منه حيرة وأنت... هل تعرف من نحن ؟

محكوم عليك أن تعبر العالم غريبا يجاور غرباء والأغرب أن تعيش غريبا داخل ذاتك وفي أعماقها سيّد مجهول.

على طول الطريق هو الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والحب والنوم والحلم ناهيك عن وجهة المسار. هو من يكره ومن يحبّ ، من يغضب ومن ينتقم ولا قدرة لك على التصدي لأهوائه...هو من يفكر ومن يتذكّر.. هو من يمرض ومن يبرأ .

لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و "هو" يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي كأنك مجرّد طرد يسلّمه مجهول لمجهول. من قال له أنني قررت الموت الآن أو أنني أريد أن أموت أصلا ؟

كيف لا يتعمّق الإحساس أن داخلك أناءان (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف ولومي لعدم تفكيرهم في إيجاد مثنى وجمع للأنا) واحد رسمي ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان.

من هذا الذي نسميّه الأنا ولا نعرف من هو ؟

«من يبادر داخـــــــلي **(روبرتو جياروز)**

عندما لا يكون الأنــــــــا؟

من يحلم داخلي عندما أحلــم؟

من يوقظني على الـــــــعدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتهــــــــــــــا

وكأننا كنا يوما أصحابهــــــا»

أليس من المدهش أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو ضيف لمضيّف مجهول !

طوال بحثك عن وفي هذا الحاضر الغائب تفاجأ ببعده اللاّمتناهي وبقربه الشديد. تفاجأ أنه أنت يتأمل صورته في المرآة، أنه صورتك في المرآة تتأملك أنت. تفاجأ أنّه يفاجئك إلى آخر لحظة. تفاجأ أنّك تعرفه أصدق المعرفة وأنك تجهل عنه كل شيء.

كم مرّة تحايلت على صمته بشتمه والتملّق الرّخيص فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق للبحر !كم مرّة صرخت في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء ليعرّف بهويته فكنت كمن يحدّث الجبل!

تكلّم يا من يسكن بين الضلوع دون عقد كراء وموافقة من صاحب المحل. ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القربى بيننا ؟ غير مقبول أن أخرج من هذا العالم وليس لي عنك سوى هذه الأفكار الناقصة المشوهة الباهتة.، هل تقبل لذات، أنت في

آخـر المطـاف جوهرهـا، بمثـل هـذه المظلمـة؟ طرقنـا بابـك بالعلـم فلـم ينفـع، بالتفلسـف فلـم ينفـع ، بالفنّ فلـم ينفـع، بالرّجـاء فلـم ينفـع قـل لـي علـى الأقـل أيّ بـاب أطـرق.

لا فائـدة والشـيء أطـرش لا يسـمع ،أبكـم لا يتكلـم .أواصـل مـع هـذا معابثتـه وتعذيـبي :هـل يمكـن علـى الأقـلّ أن تحسّـن خدماتـك؟ اتفقنـا إذن. لا تصاعـد مـن بعـد اليـوم مـن أعماقـك المخيفـة لألم أو أمـل ، لغضـب أو لإحبـاط، لخـوف أو لحـزن.

يخيّـل لـي أنـه "هـو" الـذي يبتسـم ولسـان حالـه يقـول: مرفـوض، مرفـوض، كل شـيء مرفـوض، لا داعـي للإلحـاح .مـا يواسيني بعـض الشـيء أنـني لسـت الوحيـد في مثـل هـذه الورطـة. كـم سمعـت رفـاق الرحلـة يشـكون مـن أناهـم: جرّبـت إغراقـه بالخمـر، إطفـاء لهيبـه بهـذا المخـدّر أو ذاك، ترويضـه بهـذا الديـن أو بتلـك الفلسـفة، بالحكمـة أو الفـن... عبثـا. مـا الحـلّ وقـد استعصى التفاهـم والتعايـش؟ الطـلاق طبعـا. كمـا يفعـل كل الأزواج الذيـن أرهقهـم الخصـام واسـتحال بينهـم الوفـاق. أيـن القاضـي الـذي سـيصدر الحكـم، ؟ مـا الوثائـق الـتي سـأقدمها ضـدّه هـذا الأنـا الآخـر الـذي يعاكسـني ؟ مـاذا لـو سـارع «هـو» بتقديـم القضيـة ضـدي عمـلا بمبـدأ كل الخبثـاء: ضربـني وبكـي وسـبقني وشـكا.

كأنـي أسمعـه وهـو يقـدم للقاضـي وثائقـه المزيفـة: يبصـر ولا يـرى شـيئا، يسـمع ولا ينصـت أبـدا. لا ينتبـه إلا لأقـلّ الأشـياء والأمـور شـأنا. أسـرّ في أذنـه بألـف حقيقـة فـلا يفهـم واحـدة، وإن فهـم، فبالصدفـة أو علـى وجـه الخطـأ. لـه في كل موضـوع رأي سـخيف. لا يثبـت علـى موقـف إلا إذا كان الهذيـان عينـه. ذهنـه قمامـة أنظفهـا دوريّـا فيسـارع لملئهـا بـكلّ أصنـاف الوهـم والهـوس. ذاكرتـه لا تحفـظ لروائـع الرحلـة أثـرا. أشـير عليـه فـلا يسـمع. أنبّهـه فـلا ينتبـه. أعلّمـه فـلا يتعلّـم. أهدّئـه فـلا يهـدأ. أحـاوره فـلا يفهـم لـي قـولا أو نصحـا. آمـره بمـا هـو في مصلحتـه فيتنطّـع. أدفـع عنـه الأذى فيؤذيـني. أبريـه مـن الألم فيوجعـني. أحميـه مـن طيشـه فيمعـن في النـزق. أريـه الطريـق المفتـوح فـلا يتوجّـه إلا للهاويةأفتـح عينيـه علـى الروائـع فيغلقهـا بعنـاد الطفـل المدلّـل. ألـف لعنـة علـى هـذا الشـكل الـذي قبلـت التجسّـد داخلـه. لا بـدّ مـن نقـاش معمّـق مـع الهندسـة العامّـة حالمـا تنتهـي هـذه المغامـرة. أي جـدوى لتبذيـر الجهـد في مثـل هـذا الكائـن السـخيف؟ نعـم يجـب إنهـاء تجربـة بمثـل هـذا الفشـل.

لا أتحمّـل مزيـد التجـنّي. أبـدأ في تصفيـف هـذه الاتّهامـات الظالمـة لأدحضهـا الواحـدة بعـد الأخـرى وقـد قـرّ القـرار أن أكـون أنـا الشـاكي لـدى الهندسـة العامّـة بـل والمطالـب بتعويضـات ضخمـة.

عبـث كل هـذا التفكـير ؟ طبعـا ، لا طـلاق ممكـن و الأنـا الظاهـر و الأنـا المخفـي توأمـان مشـدودان مـن عظـم الصـدر.

تدخـل فـراش النـوم هاربـا مـن سـيّدك الوحيـد فتجـده يتربّـص بـك داخـل ألـف كابـوس. تسـتيقظ علـى أمـل أن يكـون قـد انحـلّ أو تغـيرّ فـإذا بـه هـو الـذي يوقظـك. تتنكّـر علّـه لا

يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي.

اللعنة ، ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضجّ بالشكوى وجزء في الأعماق لا يتكلم... لجزء ينفّذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلّف عناء التفسير ...لجزء يجهل. تقريبا كل شيء وجزء يعلم تقريبا كل شيء ...... لجزء بلا ذاكرة تذكر وآخر يبدو وكأن له ذاكرة العالم بأسره ؟

* * * * *

الحاوي

نعم ، من أنا هذا الذي هو من الله وإليه يرجع ؟

في جلّ الرؤى غير المتقنة هو شيآن : حاوٍ من لحم ودم تدركه الحواس اسمه الجسد ومحتوى اسمه النفس أو الروح لا يدرك إلا بالفكر والخيال ...والمآل عاجلا أو آجلا الطلاق بالثلاثة بين الاثنين والمحتوى يخرج من الحاوي خروج الهواء من بالون مثقوب لا يترك بين يدي الطفل إلا أشلاؤه.

كل الأشلاء بين يدي الآن . أوّل تشريح كامل لمريض كان في عهدتي والطبيب الشرعي الذي سأعمل معه صديق قديم من بلاد الشام يبادرني ضاحكا وأنا أحكم لبس القفّاز.

– اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته. لكن لا تضيّع وقتي. أنظر ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تقدرون عليه انتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.

– الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تظهر الصور شيئا. أريد التأكد.

كم من أطباء طلعوا إلى المشنقة لأنهم ارتحلوا في عصور حرّمت البحث في جسد الآدمي وتجاوزوا المحظور وهم يشرحون في الأقبية جثثا مسروقة من المقابر أو حتى لمساكين ذبحوا لأن القتلة يعرفون أنهم لن يعدموا شاريا للبضاعة الثمينة. يا لبختي وأنا أشرّح هذا الجسد المسجى على الجليز لا مشاكل لي مع شرطي وجلّاد بل وأنا متأكّد أنه لا أحد قتل المسكين باستثناء عزرائيل خلافا لما يمزح به هذا الغبي .

أغالب مشاعر فيها رهبة وتقزّز وفضول جارف .

– هيا يا جزّار ، أرني ما تقدر عليه.

يرسم زميلي بسكينه أخدودا عميقا ينطلق من تحت الحلق إلى الصرّة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلاً بفظاظة ودفعة واحدة اللّسان والحنجرة والمريء والقصبة الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله عضلة بحجم اليد. أخلع القفّاز لأمسكها بيدي لأعرف بحاسة اللّمس هذا العضو الذي تقول قصص العصر إنّه آلة امتصاص وضخ للدم، وقصص قديمة إنه معقل الحبّ.

ننزع بغلظة كيسين من الهواء يحتلّان جانبي قفص من العظام يمتلئان بأوّل نفس يستنشقه القادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عندما تحين ساعة الرحيل.

يرمقني الزميل ساخرا.

- مالك ؟ هدّئ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.

كأنّ هذا الغبي يعلم... كأنّه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي ! ما الذي يتصاعد من أعماقي ويمنعني من التركيز ؟

- أتريد أن أنادى لك طبيبا ؟

- ها ها، نكتة بائخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك !

يواصل الزميل هذرا يغالب به اضطرابا لا يتلاطم كأمواج السطح مثل اضطرابي وإنما كالتيارات السرية في عمق المحيط. يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:

- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد ...السيد من؟ انظر لاسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

المسكين لم يتوفّر مثلنا جميعا إلا على النسخة الوحيدة التي تفضلت بها عليه الإدارة العامة عند الاحرام ولسان حالها يقول : ذنبك على جنبك إن أعطبتها باكرا أو أصابها مكر الدهر وخبث الزمان.

يواصل المسكين تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتلاع والتقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شفتاه آه واحدة . لم يثب شاهرا في وجهنا سكاكيننا مدافعا عن حرمته الترابية. لكن هل نحن أوّل من اعتدى عليها هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا ؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك تفعل به ما تشاء، هو منذ الإفاقة ملك للأبوين والمجتمع والثقافة والدولة والزوج والأطفال ، للطبيب والغاسل وحافري القبر... ثم للجراثيم والدود.

السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة (عبد اللطيف الإدريسي)
كم هي اللحظات التي انتبهت فيها إلى جسدي
الذي سيغدو الجثة- المأوى لكل الحشرات السافلة

بداهة ثمة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر ليست كلها تصنّع واستفزاز.

-يا ولد منظرك يرثى له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظة لتنفس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.

- قلت لك : واصل.

- انظر للكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم.

- بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد ؟.

يغمزني مرافقي وكأنه فهم قصدي :

– لا يهمّك، فكبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف وبعض «الكوتليت» لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج ألا تسقط القفة من يديك أمام المرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت الشاورمة.

– قلت لك كفى ثقل دم . افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء .كل الأعراض كانت السرطان في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

– ترى شيئا؟ وجدت هذا الورم اللعين؟

– الورم، لا، وإنما وجدت كثير من الخرا. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لننتظر المعلّم، إمّا يبرئك وإمّا... الويل لك من لسانه...والآن ما رأيك في فتح الجمجمة ؟ اغتنم فرصة رَوَقان مزاجي لسياحة في أعماق المسكين.

تبدأ السياحة بقطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم بالإمساك بمنشار ونشر الجزء الأعلى من العظم، ثمّ اقتلاعه من القحف لنواجه أخيرا بعضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة لا زال مغلّفا بغشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكّين.

ينقضّ صاحبي بحماس مفتعل على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبأه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

إذن هذا هو إذن العضو الذي تقول عنه قصص العصر انه معقل "النفس" و "الفكر" و "العقل".

انتهى التشريح. لا يبقى داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. الشيء المبتذل الفريد الآن مثل كتاب مزّقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل اسطوانة محيت منها كل الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقير...مثل أثمن لوحة زالت منها الأشكال والألوان ولم يبق منها إلا إطار الخشب وقطعة القماش... مثل لعبة نجح الطفلان الكبيران في فتحها وبعثرة كل مكوناتها. ها هي أشلاء الجسم مصطفّة على الجليز الأبيض ونحن أمامها كأطفال أطلقوا على آخر كمبيوتر أنتجته أكثر الصناعات تطورا، فهشّموا غلافه وبعثروا محتوياته لرؤية ما ينغلق عليه والهاجس الكشف عن موطن وطبيعة هذا الذي يحركه .

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة تبحث داخلها عن سبب إخفاق الطبيب والمريض على حدّ السواء

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحّصها من وراء نظّاراته السميكة باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلّف المثل. كان

يقلّبها بقضيب حديدي يتأكّد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجلّهز الأبيض، أننا صففّناها وفق أوامره. كانت دقّة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل الشكل في المحافظة على ذاته أو فشل الذات في المحافظة على شكلها.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة.

– انظر هذه الحبّة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول الأشعة لم تكشف عنه. غريب إنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد أخصائي العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبان...آه كم مؤسف ....

لم تبق إلا الجملة المعهودة ، خاصة النبرة التي يتفكّه بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيب مجاهل مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

– «مون بون مسيو»، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت.

يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مقيم وقح. يلتفت لزميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملي عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

– يا حيوان لقد جرحت « المعلّم» وقد ينتقم مني.

هل يظن هذا البليد أنني لم أُجرح ؟

– اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكنشتاين !

– وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجانا بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. المعلّم لم يقصد تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

– جزارون وخياطون أيضا. يا له من تخصص!

– تظن أننا لا نهتم بأناقة جثثنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.

– نسينا الجرائد. لا بد منها لملء الفراغ.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحيةً. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم

فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق. ينصرف طفل في الرابعة أو الخامسة تنكّر في ثوب طبيب شاب، يد فارغة وأخرى لا شيء فيها ، والهاجس الذي يلاحقه منذ ذلك اليوم نفس الهاجس الموجع والسرّ المنغّص لراحة البال نفس السرّ.

* * * * *

المحتوى

تفتح الذاكرة أقدم الملفّات المتعلّقة بالموضوع وفيه تطلق «ما» صرخة مدويّة وقد وصل العويل من بيت الخال والجار منذرا بحدث جلل. ترمي كل ما بين أيديها ,تهرع للبيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء تلطمن خدودهن ووسطهن رفيق اللعب مسجى بلا حراك.

أجيل البصر حائرا في المشهد ، ثم أركّزه على امرأة توقّفت عن العويل وكلام ملحّن عن جمال الطفل ولوعة أمّه... لتتثاءب بصوت عال. تفاجأ المرأة بالطفل ينظر إليها مستغربا. يلمع شيء كالكره في عينيها. تشيح عنه البصر عائدة إلى التحسّر بأعلى صوت على الروح التي عادت إلى خالقها.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة .ما الذي يحدث هنا ؟ هل يحمل على محمل الجدّ إعراض رفيق اللعب عنه ؟ مؤكّد أنّه سينهض صارخا من مرقده ليقفز معه من فوق كل هاته الإناث جريا نحو أشجار الزيتون واللوز. هذه المرّة هو الذي سيكون الأسرع.

ثم ما هذه الروح التي عادت لخالقها وهل خروجها سبب سكون رفيق كل مقالبه؟ غريب، كيف خرجت منه وهل سيستطيع كل هذا الصراخ إقناعها بالعودة إليه لتنتهي أزمة قد لا تكون إلا مرضا جديدا لا يعرفه؟

يواجه لأوّل مرّة باحتمال إن ابن خاله لن يلعب معه لا هذه المرة ولا أي من المرات القادمة ـ أن الروح الهاربة لن تعود لوكرها . يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمة متزايد الخوف والحيرة والهمّ.

وعند الرجوع للبيت تتزاحم أسئلة أخرى: هل من المكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضعونه في خرق أبيض وتأتي خالته لتولول ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بدّ من إجابة تطفئ القلق الذي شبّ فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.

- «ما»، أنا لي أيضا روح ستخرج مني ؟

- بعد الشرّ على وليدي. وسبعة ألطاف و خمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل أعوذ برب الناس من الشيطان الخنّاس.

قا الحب تلطّف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعنت في مكوناته جدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من ونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

لأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن أمراض القاتلة التي تتهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهبت روح حسين ؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

ضع الأم إصبعها على شفتي الطفل . يفهم من نظرتها أنّها لا ترغب في الخوض في وضوع . أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- «ما»، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

حاول الأم منع ربع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روحي.

تزيد الإجابة الطّين إلا بلّة. وهل يكون للشخص الواحد روحين؟

صرّ "ما" على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصّد ظهور الدليل الآخر. هو يعرف ا تجهله أو تخفيه «ما».

- "با"، لماذا تخرج الروح هل تعود عندما تخرج؟

تغيّر نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون بل القبل ويتحدث باقتضاب مريب عن حضور «السّاعة" دون أن يتكلّف عناء شرح ما لسّاعة «ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمّى الساعة وليس الدقيقة.

- "با"، ما هي الروح؟

ممّا بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها منّة من الله حبانا بها دون الحيوانات، نها موجودة داخل قلوبنا، تحرّكنا وتتحكّم في كل ما نفعل ونقول. كم كان الرجل يغالط فلا جاهلا وهو يتبحّر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، الحال أنّه كان يخلط بين المفاهيم ويبني عليها تصورات شكلت بدورها مادة قصص

ساذجة أشاعتها الرؤى غير المتقنة. يوضع الملفّ على رفّ من رفوف الذاكرة . تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه لإضافة بعض المعطيات .

تصرخ المرضة : أسرع يا سيدي ! صرع متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود للانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقزّز الرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى. البنت في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء «الفاليوم» سائلا في الشرايين أنفع من التعاويذ.

– يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل . ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي ؟

–. بالتباعد وبالغرابة. كأنني في حلم. تقول أمّي أنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكّر أنني مشيت. تقول أنني أتكلّم ولا أتذكر أنني تكلمت.

كيف لا تأتي الآدميين فكرة التقمّص وكأن الذات التي تسكن الجسد تخرج في هذه الحالة من وكرها، أو كأن ذاتا أخرى خرجت من وكر مجهول لتحلّ محلّها ؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متثاقل الخطى :

– سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن ؟

يلقي الجرّاح المحنّك على الصور نظرة المهني مقيّما ما سيلقاه من صعوبات.

– المسكينة ! سأحاول أن أفعل شيئا. أدخلها حالاّ لغرفة العمليات.

وحول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبنّجة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوّها من عالم آخر. يحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شفّاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الذات وعرينها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن، منتبها أشدّ الانتباه، حذرا أشد الحذر، حاضرا بكل حواسّي، خاصّة و«المعلّم» مشهور بصرامته لا يرضى إلاّ بمطلق الإتقان والانضباط.

ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث. كم من علماء جهلة من الماضي علّموا بكل جديّة أجيالا من الطلبة أن بطيناته معقل الروح. البطين الأوّل والثاني معقل الإحساس باللّذة وبالألم .البطين الثالث مركز الفكر والعقل. الرابع موطن الذاكرة... والحال أنها لم تكن ملآنة إلا بالماء!

مسكين أيضا ذلك العالم الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدعيا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدّة يتيمة تتوسّط العضو الرّخو ومنها تخرج كالهواء من

الوننا المثقوب لتذهب لمكان آخر يواصل فيه المحتوى قصته دون الحاوي الذي أصبح جـأة بغير حاجة إليه.
وما نموذج العلبة. في الرؤى غير المتقنة العالم نفسه أكبر العلب وكل كائن علبة داخله لبة على طريقة الدمى الروسية... من الطبيعي أن يضع فكر التعليب الروح داخل ـذا العضو. وضعها في السابق في علبة القلب وعلبة الكبد. قد ينقلها غدا داخل علبة لخلية ،فعلبة الصبغيات فعلبة شوارد الذرّة. في أي علبة سيضع أصغر العلب؟.

كل هذا التفكير من بقايا تصورات بدائية فصمت الذات لكيانين من طبيعتين ختلفين... ثنائية الروح والجسد إرث السحر مرّرها للفلسفة التي لوّثت بها العلم... كيف الخلاص منها بعد كل هذه القرون من الجدل العبثي ؟ بالعودة إلى البديهيات... هل ثمة موسيقى دون آلة تبلور هذه الموسيقى ؟ هل ثمة فكر دون دماغ سليم ؟... جعل هذا الفكر الوظيفة القصوى للدماغ وهو في أوج عطائه ، تنتفي ثنائية الفكري والمادي ... بجعل الروح الخاصية الأرقى والأعقد للجسد الحي - أي جسد حيّ - تتبخّر ثنائية السحر والروح لم تعد شيئا مضافا إلى الجسد مستقلا عنه ومن طبيعة أخرى وإنما خاصية. منه وإليه لا توجد إلا بوجوده.

يلاحظ "المعلّم"، ونحن نقترب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهرني بفظاظة لأنتبه محرجا. تتصاعد الحدّة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل له هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.

ينفصم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتّرا. بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحقّ كل جهل الآدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم و براءتهم، لتعطى لهذه الفتاة فرصة!

كأنّ العالم هو الذي هزّ كتفيه .

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ «المعلم" وهو يهرول لقاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

-سيدي ، هل من الممكن أن تخبرهما أنت ؟

- لا تتهرّب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت. ألوذ بالفرار لأرمي بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممرّ. أخلع حذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قدميّ. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولاهما؟ هل تمتّعت

يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدّعي بكل صلف الجهلة أن القدمين هما معقل الذات ؟

نعم، لنردّ الاعتبار لهذا الجزء المظلوم من كيان الآدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تنحت لهم التماثيل، ليقتصر تمثالي على قدمين التحمتا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّف في أروع أعماله عند قصبة الساق لا يعنيه كل ما فوق. ...كل ما فوق ؟ المحمول على هذين القدمين ...جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه. كم يطمئنني أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة الفكّ وتقديمه غذاء للكائنات السافلة. كم يسعدني أنه لا زال النمر الذي أروّض، الخروف الذي أحمى، الحمار الحرون الذي أدفع إلى الأمام ، الخنزير الذي أمنع من التمرّغ في الوحل، الجمل الذي يحمل كل الأثقال وحتى القشة التي قصمت ظهر كم من بعير ، النسر الذي أحلق به عاليا لأرى العالم من أرفع موقع.

فجأة يمرّ أمامي عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى موعد لفحص ما . يتضح لي طريق آخر لمواصلة الجري وراء الفرس التي أركب.

* * * * *

السطح والأعماق

وصلت مرحلة العمر التي تتسرّب فيها طاقات الذات تسرّب الماء من قربة تكاثرت فيها الثقوب.

بالقرب من كوخـــــــي «إيسا»

ضفادع تزعق بلا انقطاع

هرمت، هرمت، هرمت

من طبيعة الكوابيس - قل من مهامّها- فضح أخشى ما تخشاه الذات...ما تحاول عبثا رميه بعيدا في أعماق اللاوعي.

في أحدها ، يتوجّه عجوز ذاهل نحو نافذة الغرفة ليتسمّر محدّقا في شجرة زيتون علاها الغبار.يلتفت لباب يفتح وامرأة ترتدي الأبيض تبادره مفتعلة المرح :

-صباح الخير يا سيدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلاّ تبعتني لمقابلة الطبيب.

من هذه الأنثى ؟ لماذا تبتسم لي ؟ من أين تعرفني ؟ ما الذي أتى بي لهذا المكان ؟ أين أنا ؟

تواصل المرأة المجهولة كلاما لا يعني بالنسبة للرجل شيئا :

- انتبه دوما إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. انظر إلى أسماء الأطبّاء والمرّضات فهي مكتوبة بوضوح على أعلى الصدر. هذا اسمي. ردّد معي : الآنسة زهور. وصلنا العيادة. لن أقدّم لك بنتيك طبعا، ستحضران معك الكشف للردّ على بعض أسئلة الطبيب .

طبيب؟ ما معنى طبيب ؟ من هذا الشاب الأسمر بربع ابتسامة تفضح تهكّما مزمنا يحاول اخفائه اللهم إلاّ إذا كانت تتستّرّ على بقايا خجل قديم ؟من هذه المرأة ذات الشعر القصير الفاحم ومن التي تمسك بذراعه كأنها تتشبّث به خوفا من غرق ؟ لماذا تتفحّصانني بهذه النظرات الدامعة؟

تجيل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز تداخلت الحدود وامّحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان . هو وحده العليم بأنهما تجيلان البصر بين الشاب الذي لم يلدهما بعد ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء بأفظع كيفية.

يتفحّص الطبيب الشاب المريض المرتعش مغالبا قلقا لا يفهم تفاقمه ثمّ يستجمع شجاعته.

-هل يمكن، يا سيدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللعنة على هذا الغبي، ماذا يقول ؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكا وتوتّرا :

-كيف يحصل شيء كهذا،...لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخّل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

-خطيب مفوّه لا يجد اليوم أبسط الكلمات فيستشيط غضبا ويدخل في حالة من الهيجان تبثّ فينا الرعب. لا أصدّق أنه «با». كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفيحة:

-معقول ألا يتذكّر أنه قابلنا البارحة ! أننا نحن من أتينا به لهذا المستشفى! أينسى رجل كهذا اسمه واسمي.

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاحة:

-الشهر الماضي رأيته يمزّق ديوانه المفضّل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضا.

يريدون العجوز مهذّبا وهو يتبع لحظة بلحظة تسلل الظلام وانطفاء الأنوار في فكره وذاكرته تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من الدم.

ذاته تعيش اللّحظة بعد اللّحظة ولا رابط بين اللّحظات. أصبح كلّ فعل يمسح ما مضى من أفعال، وكل شعور يمسح الذي سبقه، ، لتتجمّد تجربة الوجود في جليد حاضر أزلي لا يسبقه قبل ولا يتلوه بعد. محت يد غير مسؤولة تجربة يتيمة فريدة لم تحصل ولن تتكرّر على كثرة ما عرف العالم وجرّب من القصص. مزّقت صفحات كتاب رمتها في كل اتجاه فإذا بالنصّ غير مفهوم لا للقارئ أو لكاتبه. . تبخّرت الحمولة من ظهر الحامل وهو لم يصل بعد إلى حيث يجب أن يوضع الحمل. هل من نهاية أفظع لرحلة ظن الآدمي أنه خبر كل فظائعها؟

كابوس البعض، حالة الكثيرين : تلاشي الذاكرة شيئا فشيئا ومعها تلاشي الذات. في آخرة المطاف ما هذه الذات دون الملفات التي أودعت فيها تجاربها منذ بداية فعلها في العالم وتفاعلها معه ؟. أليست هي التي تحفظ عقد اللغة متماسكا ومعها تصوراتنا للعالم، للآخرين ولذاتنا ؟.أليست هي التي تفرض الترابط والتواصل بين معطيات الحواس والفكر والخيال ولولاها لأصبح واقعنا مثل ضوء تشتّت ألوان طيفه ولم يعد يضيء شيئا ؟ أليست هي التي تنظّم هذه المعطيات وفق خطّ زمني فيه القبل والبعد ، الحاضر والماضي ، لتكون لنا قصّة ببداية وسلسلة من الأحداث وخاتمة نرجو دوما أن تكون سعيدة.؟ بداهة

ـي كفعل(التذكّـر)، وكمـادة (المعطيـات المحفوظـة)، الشـرط الضـروري لوجـود الـذات حيـث لا وجـود لفكـر أو لمفكّـر في غيابهـا ؟

جـب أن أنعـزل في مـكان قصّـي مـن القـارب أصـمّ أذنـي عـن صخـب السّـيل، عـن هـرج مـن ـم معـي علـى المركـب غـير عابـئ بصـراخ مـن ألقـت بـه الحركـة الهوجـاء في الأمـواج المتلاطمة، تجنيـد هـذه الذاكـرة في آخـر جهـد، علّهـا تشـعّ بـكل نورهـا وتضـيء الأعمـاق الـي خرجـت نهـا قبـل أن يطفـئ المـوت فتيـل وعـي حائـر أو أن ينفـخ عليـه قبـل حلـول الآجـال ممـرض حقـير اسمـه العتـه.

* * * * *

ذاكرة ورقة الشجرة

والعالم يأمر الفكر والخيال باسكتشاف ممنهج للفضاء الخامس للذات .

أنا الآن ضيف «مكتبة» فتحت لي كل أروقتها وكل خزائنها أدخلها لاستعراض ما تملك من الوثائق وليس لاستدعاء هذا الملفّ أو ذاك كما دأبت على الأمر منذ بداية التدوين.

«هنا» تحفظ القوة المجهولة معطيات حان وقت التمعّن فيها علها تقول لي شيئا ذا معنى عن الغريب الذي أتخبط داخله أو يتخبّط داخلي.

تحضر موظّفة مثقلة بطلباتي الأولى. تسرّ في أذني وهي تضع القهوة فوق المنضدة وترمي فوقها بحزمة من الملفات.

– التعليمات ألا نزعجك وأن نتركك تأخذ الوقت الذي تحتاج.

–نعم ولو أنني أتساءل كيف سآخذ كل وقتي والحال أنه لم يبق لي منه الكثير ...بالمناسبة ماذا تفعلون بهذه الملفات عندما ...عندما تحين الساعة. هل ترمونها في الزبالة ؟ هل تحفظونها في أماكن خاصة ربما لاستعمال قادم ترفضون البوح به رفقة بي.

– معرفة لا يملكها أحد غيرك يا سيدي .

– النوع التي بموجبها لا أعرف ما أعرف وأتوهم معرفة ما لا أعرف. أعنتني كثيرا .والآن اتركيني أصارع أول كومة.

هذه آخر الملفات التي حفظتها الذاكرة اللحظات السابقة لجلوسي لمكتبتي الخيالية ... آخر المعطيات عن احتكاكي بالعالم! هل من الممكن أن يستوعب ذهني كل هذا كل هذا الشلاّل الصاخب من الصور والأحاسيس والمشاعر ولا ينفجر؟

كم أنا محظوظ أن وظيفة المحو لا زالت سليمة وإلا كان مصيري كمصير أولئك المساكين الذين يسمونهم العباقرة المتخلفين ذهنيا. الواحد منهم قادر على استرجاع أجزاء كاملة من الموسوعة البريطانية بعد قراءتها مرة واحدة، أو حفظ كل أرقام الهاتف لمدينة كاملة، أو رسم شكل مدينة كاملة بعدد نوافذ عمارتها بعد المرور مرّة يتيمة فوقها بحوامة، لكنه عاجز عن ارتداء ملابسه أو تناول طعامه دون إعانة.

الذاكرة أكثر من مستودع خزن . فيها عمال مهرة مهمتهم الانتقاء ولهم كل سلطة القرار : هذا للحفظ وهذا لسلة المهملات . ما أريده طبعا الوثائق التي اعتبرتها الأيادي الخفية جديرة بالحفظ والأمان.

أغلظ الملفّات : انسياب الزمان. صور مبعثرة عن تطور الشكل الذي لبسته أو لبسني...

ملامح الطفل بما فيها من كآبة وخجل أمّه والحزم الغاضب لأبيه... المادّة الخامُ التي ستعمل عليها يد نحات فظّ اسمه «الدهر»، تضرب بغلظة هنا وهناك لتخلق وجه الشاب والكهل بتجهمه المتعالي، ولهب نظرته، والتواء شفتين يحسبه الناس تكبّرا وهو إخفاء لضحك متواصل أمام كثرة مهازل الحياة أو نفاذ صبر أمام تجدد مآسيها . ثمة صدى بعيد لكلام شيخ جليل يوم سألني عن سنّي وفاجأني بقوله: ما زلت شابا. ستعلم أنك شخت يوم تلحظ لأوّل مرّة وأنت تدخل للمحاضرة ثبات طلبتك سنة بعد سنة على نفس العمر وأنت وحدك الذي يكبر. كم من سنوات قبل أن تسجّل في الملف صرختي الصامتة لحظة دخلت مدرج السنة الأولى لأول درس : يا إلهي وجوه رضّع ثبّتت على أجساد عمالقة!

الكومة الثانية من الملفات و كتب عليها بالأحمر الغليظ أحاسيس.

تتضوّع الأعماق بعطور الصنوبر والنعناع والياسمين والبرتقال والصوف والبطيخ والبحر والقرنفل والفلّ والخبز الساخن.... تملأ لساني أحاسيس المرارة والحموضة والحلاوة.... جسدي الآن في قبضة الزمهرير. .. الدفء وهو تحت الغطاء الثقيل ...رقة شعر حريري تداعبه الريح ويداعب وجنتي... رطوبة رمل الليل مقارنة برطوبة عشب الصباح ...حرارة كثبان الرمل وهي تحت وهج أشعة قدّت من الفضة المذابة... قشعريرة الارتياع عند الانتباه لانسياب ثعبان على جسدي...التهاب نار الشهوة والضغط على شفة مكتنزة لأول قبلة الحبّ الأول يرتفع من شفة نافدة الصبر.

مؤكّد أن الأيادي الخفية لقيت من كل هذه المادّة عناية خاصة وهي توثقها بنظارتها وحدتها وتحافظ عليها كما لو وقعت البارحة. طبيعي .أعمق معرفتنا بالعالم. هي التي تقول لنا أنه دفء وبرد ، صخب وصمت ، ألوان وظلام ، متعة وعذاب ، أن بوسعنا أن نثق فيه في بعض الظروف وأن نخشاه في ظروف أخرى. هل للعالم ذاكرته الخاصة أين يحفظ قصة تعرفه علينا وعلى قدراتنا وهو ينقر على أوتار الذات كالموسيقي على أوتار العود يستخرج منا ألحانا منها التي نرجو أنه طرب لها ومنها التي نخشى أنها أصابته بالاحباط والقرف ؟

سواء تعلّق الأمر بذاكرتنا الثابتة أو بذاكرته الفرضية ثمة إشكالية تواجهها الذاكرتان ألا وهي الزخم وامتداد الطيف. كم من أنواع من اللون الأحمر داخل اللون الذي نظنه واحدا ..كم من درجات داخل المتعة والألم ...كم من حالات داخل الحالات داخل الحالات ونحن في احتكاك لا يتوقف ،مستيقظين ونيام، مع عالم فاحش الثراء محبط التعقيد يتحسّسنا مجاهلنا بفضول جشع ونتحسّسه مجاهله بفضول خائف!

وفي الرؤيا هذه الأحاسيس البكر هي اللبنات التي تبني بها حالات أرقى من التواصل والتفاعل بين الذات وعالمها، بين العالم والذات التي تبلور فيها...حالات تسميها اللغة المشاعر.

من الملفات التي كتب عليها بالأحمر الغليظ : رعب حضور الموت أو توهّمه.

ملفّ يوم اليوم العاصف الذي ذهبت فيه للبحر وكدت أغرق لو لم ينتشلني محسن

وأخفيت الأمر عن «ما» لكن الخبر وصلها بسرعة فأغمي عليها ...وهذا ملفّ ليلة ليلاء مشيت فيها مع الجدّ تحت نجوم الصحراء يلفنا ظلام وديع وصمت مهيب... وهذا ملفّ يوم حاصرنا السيل أنا و«با» في سيارة على وشك الغرق فأحسست كم ضيّعنا من وقت ثمين في الخصام العقيم.

ملفّ يوم أمسكوا بي وأنا طفل في الرابعة يضحكون ويهزجون لا يبالون بصراخ ورعب يتمتمون بتعاويذهم الغريبة أيقنت أنني تجاوزت كل حدود الشيطنة المقبولة عندهم. لكن لماذا يريدون ذبح أخي الصغير وهو مثال التعقل والطاعة؟ يتوجه الرجل الفظيع الذي خلته جزّارا، بمقصّه لا لعنقي وإنما لشيء بين فخذي لم أعرف له سوى وظيفة إخراج دفق قوي من السائل الأصفر، أوجّهه حيث أريد وخاصة حيث لا يجب، المهم أن يصل أبعد نقطة. هل يريدون أن يجعلوا مني بنتا لأكون هادئا ومطيعا ؟ لا تعي بما يعنيه لك هذا الجسد إلا وهو مهدّد والتهديد الآن في أوجه. أرجح الظنّ أنّ الرجل الفظيع لم يجد في زبونا سهلا ذلك اليوم لأنّني أتعبت طول حياتي كل من أرادوا إقحامي في أساطير لست كاتبها أو على الأقل صاحب رأي مسموع فيها. تدوّي الزغاريد والأم أرفع النسوة صوتا. بمن نستطيع أن نثق في هذا العالم المليء بالغدر والغدّارين ؟

ثمة أيضا ملفّ كتب عليه «تعليمات وأفكار» ... التي طبعتني بطابع لا يمحى

لا تضع إصبعك في أنفك... قل للمعلّم: صباح الخير يا سيدي. أغسل أسنانك قبل الذهاب للفراش ...أورام البطين الرابع عند الطفل تؤدّي مبكّرا إلى ظهور ارتفاع الضغط داخل القحف... لا يخلّص هذا العالم مسيح واحد... كل دون إحداث صوت خاصّة مع كبار القوم. ..جئت لا أعلم من أين لكنّي أتيت وسأبقى ماشيا قدّامي شئت هذا أم أبيت... إنّما يخلّص العالم كلّ واحد منّا شريطة أن يتذكّر أنّه هو الآخر المهدي المنتظر... ثلاثة في ثلاثة يساوي تسعة، تسعة في تسعة يساوي واحد وثمانون... يولد جميع الناس أحرارا وقد وهبوا عقلا وضميرا على الأقلّ في النظرية... إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابدّ للقيد أن ينكسر، المشكلة أنه سلّم أنه لا حياة بلا قيد... الحوامض الأمينية واحد عشرون منهم ثمانية لا بدّ أن ننهشها من لحم كائنات حيّة أخرى... كل هذا غلطة الحجارة الكبرى التي ضربت الأرض لخمسة وستين مليون سنة خلت، وحكمت على الديناصورات بالانقراض مما سمح لكائنات خسيسة مثلنا بالتكاثر متسببة في كارثة لنفسها وللعالم... لا تريَنّ الناس إلاّ تجمّلا نبا بك دهر أم جفاك خليل... البقاء للأصلح في النظرية وفي الواقع للجبناء الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف... السمك أغنى بالفسفور من بقيّة لحوم الكائنات... انطلاق الرحلة الآدمية كان من الساحل الشرقي لإفريقيا... تفتح قبضة الباب من فوق إلى تحت... سرعة الضوء أعلى سرعة ممكنة... العنف مظهر من مظاهر القسوة عند من هم فوق، ومظهر من مظاهر التمرّد عند من هم تحت... خطّ البنطلون المكوي يمرّ من فوق وسط الركبة لا من جانبها... نبحث عن الحبيب ثلاثة أشهر ، نحبه ثلاث سنين ونتخاصم معه ثلاثين سنة ثم

يأتي دور الأطفال لتكرار السيناريو... السيّد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر... الاعتدال فضيلة الفضائل وهو تنازل من موقع القوة عن الكبرياء والمصالح، لكنه رذيلة الرذائل وهو تنازل من موقع الضعف عن الكرامة والمبادئ... معدّل السكّر في الدم غرام في كلّ لتر... المافيا دولة بصدد التكوين والدولة مافيا نجحت... الرجال قوّامون على النساء لأسباب يعرفونها هم وحدهم... كلما اقترب العدل من قطب التعويض وابتعد عن قطب العقاب، كلما كان راقيا... كلما ابتعد عن التعويض واختزل نفسه في الانتقام القانوني ، كلما اتضح ما ينضح به من إرادة التنكيل ، من قسوة و من عجز عن المغفرة.. اللغة هي النور الذي يضيء لنا الطريق والظلام الدامس الذي يمنعنا من الرؤية... كن ودودا وانبذ العنف مهما كان مأتاه... من صفعك على خدّك الأيسر افصل رأسه عن الجذع.... الاستبداد مصادرة أوباش لحرية ومصالح شعب بكل وسائل العنف المادي والرمزي...رهان خاسر والمستبدون يحفرون دوما قبورهم بالوسائل التي أوجدت مؤقتا تسلّطهم... الديمقراطية توهّم امكانية انبثاق الصالح العام من الارادة الحرّة لشعب تتناقض فيه المصالح ويتجاور فيه بنسب مجهولة الأذكياء والأغبياء، المتعلمون والجهلة ، الأخيار والأوباش، الأحرار والعبيد...رهان خاسر وهي تفرز أغلب الوقت خيارات تضرب الصالح العام وتهدّد الحرية...الخيار بين الرهان الخاسر دوما و الرهان الخاسر أغلب الوقت. تبّا له من خيار...من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟... أنا سرجاي بافلوفيتش، جئت من بيتي وذاهب إلى خمارة البلد حيث أرخص أنواع الفودكا وأقلها غشّا... أين هذا من كفر الذي قال "لا أؤمن بالله، أؤمن بما هو أعظم"، أو استفزاز الآخر " الله موجود لكنه ما زال غير جاهز لمهامّه. "..أو الذي تجاوز ألمه كل الخطوط الحمر «موجود أو غير موجود ،الموضوع ليس هذا وإنما أنه من الأفضل له ألا يكون موجودا ، من يغفر لربّ شقاء كل هذه العوالم ؟...فاز باللّذة الجسور ...«لا تستوحشوا المشي على طريق الحق لقلّة سالكيه» ...هذا عالم غير قابل للتنبؤ، للفهم، للتطويع وكل محاولة لا تزيد إلا من عصبية الفرس ومن علوّ سقطة الفارس الغبيّ.... الأحمر اللّون المفضّل عند الصينيين وأبغض الألوان إليّ... لا شيء يدفعك إليه العالم بكل قوة قدر العمل على تغييره ولا شيء يرفضه لك بكل إصرار غير تمكينك من شيء كهذا... وجد الأوروبيون طريق قارّة قديمة اكتشفها الآسيويون قبل عشرين ألف سنة وسموها مع هذا «العالم الجديد»....يا بني ستكون كارثة لو كسّرت مرّة أخرى نظّاراتك...واحد زائد واحد يساوي اثنين مهما كانت سرعة الريح...العين بالعينين والسنّ بكامل الفكّ... الحياة مرض خطير والموت علاجه الوحيد... الأنانية ليست أن تحب أناك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... العنف ليس قوّة والقوّة ليست عنفا... حافظ على نظّارتك لأنه ليس لي ما أشتري لك به بديلها... «لا تنسَ سوطك عندما تذهب إلى المرأة»... كرة القدم هي اليوم أفيون الشعب... لا تستفزّ الأقوياء إن لم تعدّ لهم ما يجب من القوّة... الأسبرين دواء رائع لا

يؤخذ مع قرحة في المعدة.. في كل لحظة قد تنقلب الأمور رأسا على عقب في الاتجاه الذي ترغب والاتجاه الذي ترهب... الماضي الذي تترك وراءك، نسيج من الأساطير... المستقبل المفتوح أمامك نسيج من الأوهام... حاضرك نقطة نور تتحرك من الضباب إلى الضباب ووضعك دوما أسوأ مما تعتقد وأحسن مما تظنّ... أحسن لون لطلاء بيوتنا، الأبيض لأنّه يمتصّ أشعّة الشمس...يوجد في العنف من قوّة ما يوجد في البورنوغرافيا من حبّ... التاريخ رواية المنتصرين... أنا السجين والعالم سجني وسجّاني... أفضل ما اخترع الآدمي الكسكسي بالسمك... يا بني ستكون كارثة الكوارث لو كسرت مرّة أخرى نظّاراتك... من عرف الدهر يخشى شدّاته ويرتقب... يجب على المرأة إرضاع طفلها على الأقلّ ستّة أشهر... من عارض السلطان زهد في الدنيا... الخطأ الهيكلي في الدين افتراضه قابلية الآدمي للإنقاذ وكل التاريخ دحض لشيء كهذا... الديناصور كائن انقرض منذ خمسة وستين مليون سنة بضربة لحجارة من سجيل جاءت من الفضاء وأفسحت المجال للجنس الوبش الذي حشرت في شكله... يجب أن أترك بصمات لا تمحى... يجب ألاّ أترك أثرا على أرض ولا حتى ظلا على حائط.. الكوكب الأزرق في خطر من آلاف الأجرام التائهة حوله وهي أملنا الأخير لنرتاح ونريح ....من قال الملل كثيرة مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف: قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه وآخرون يبتغون به الدنيا..إذا كان قانون لاوتسو صحيحا وأن كل اسم له ليس الاسم، فمعنى هذا أن كل طريق إليه ليس الطريق ولو كان الطاو، أن الحقيقة ليست الحقيقة، أن الخطأ ليس خطأ، أن الخطيئة ليست الخطيئة أن الشيطان ليس الشيطان، أن الأنا ليس الأنا.،ما الدعامة التي يمكنني إذن أن أبني عليها الرؤيا؟... قل الحق ولو على نفسك... كن ولدا طيبا ونطاسيا و تقدميا وثوريا ومناضلا وصادقا ومخلصا ونزيها لتنتهي فقيرا مشرّدا ووحيدا... حذار من الصداع عند الأطفال فاحتمال ورم الدماغ كبير... لا هدف نصل إليه لأن الحياة دورة في حلقة مفرغة ولا منفذ في هذا العالم لأحد... لا تضع إصبعك في أنفك... لا عيش لكريم في بلد شعبه غنم وحاكمه ضبع... أين أضع هذا الحبّ الذي بداخلي والذي لا يريده أحد؟...نعم الشفقة، لا شيء نستأهل ويجب أن نعطيه لبعضنا البعض قدر الشفقة ومشتقاتها... قل للمعلّم: يا سيّدي... إياك أن تكسر نظاراتك مرة أخرى ...نعم كم صدق أناكرسيس: القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزّقها الكبار... لا يوجد شيء أو كائن في هذا العالم إلا وله- بالضرورة- ضرورة ما... ما ضرورتي أنا؟...

تهمس الموظفة الجميلة.

-أيريد سيّدي مزيدا من مثل هذه الملفّات؟

خلاصة تجربتي هذه الفوضى!؟ أريد زبدة هذا الزبد.

-هذا أمر لا يقدر عليه سواك يا سيدي.

نعم لكن ما الذي أبحث عنه حقا ؟ أن تنتنظم بالفكر وبالخيال كل هذه الأحداث

المتلاحقة منذ الخطوة الأولى ، كل هذه التصورات المتراكمة منذ الحيرة الأولى...أن تتشكل أخيرا في قصة لها معنى...أن تكون حبة في عنقود قصة القصص الذي تفرّعت منه ولاتزال قصص كل الكائنات..أن تكون قصة القصص هذه أجمل رواية تحكيها الذات لذاتها أو لطفل تطمئنه وتشجّعه حتى لا يخشى الحياة أو يرهب الموت.

تعود الموظفة الجميلة للهمس تريد إخراجي من كابوس أحكمت عليه الإغلاق وتدبّر أمره للخروج من القمقم

-أيريد سيدي مزيدا من الوثائق

– قلت أريد زبدة كل هذا الزبد.

– وأنا قلت هذا أمر لا يقدر عليه سواك يا سيدي.

نعم مهمة الذاكرة الحفظ أما الاستنتاجات فمهمة العقل. أولها أن الذات تاريخها وهذا التاريخ حصيلتها من الأحاسيس والمشاعر والأفكار والقصص... اللبنات التي تبني بها الذات ذاتها وهي مثل تمال ينحت نفسه بما يوفرّه له المحيط من موادّ .

أيضا أن الذاكرة تعطي للذات وحدتها وهي تجعل كل مكوناتها حاضرة لبعضها البعض متفاعلة بينها وكل حالة تستند على حالة سابقة وتمهّد لحالة لاحقة. لولاها لانفرط العقد ولتوقف سيل نهر الزمان.

خشية تتعاظم وأنا أستعرض بقية الملفات وكأنني كالمقدم طوعا على فتح جروح غائرة كم جاهدت سنينا لتندمل .

ملفّ مرارة الحياة وأقسى ما تجرّب به الحيّ من آلام. أثقل الملفات . طفلة وصلت محطة اسمها المراهقة... المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الآدميّ أذنيه عن كلّ نداء اقتنع أنه لا ذكاء يبّرر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقّة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولا. ..المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضّل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم الأزلية :

-إنّها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تحرّك ساكنا.

دخلت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟

أحاول فتح منفذ للقلعة المغلقة

-يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها .

تدير لي تفيحة وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

—سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تحرج فتصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.

–طبعا البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبها بالوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميتة وموتها على حسابك وحدك.

كذبوا، من شابه أباه فقد ظلم. هل للرجل ما يدافع به عن نفسه ؟

تنتهي تفيحة في غرفة إنعاش قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي المرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم . أفظع ما في العالم لامبالاته لا ما يلحقه بنا من ألم.

الألم. ! نادرا الإنذار بخطر... غالب الوقت عقاب عبثي على خطأ وخطيئة وأحيانا على جريمة لم تفترف ... الحالة التي تشعر فيها بقبضة عالم قاسي يسخر منك ولا يمزح معك... التي تكتشف فيها الذات كم هي هشّة، ضعيفة، وحيدة... التي ينحسر فيها الانتباه إلى أضيق مجال لم يعد موجودا إلا بؤس الروح والجسد... أكبر محنة... أصعب امتحان.... أطول تجربة لسيلان نهر لزمان... أنت والألم كالهارب الذي يركض وراءه كلب مسعور همّه الأوحد الخدش والعضّ... أنت والألم كالبحّار والمحيط، إن كان هادئا تراك تنتظر قلقا تجدد هجوم الموج ، إن ولولت الريح ها أنت تتخبط وسط الأنواء... مساكين كل الذين حاولوا ترويض الوحش بالخمر ، بالحشيش ،بالدين أو بافتعال الجلد والحال أنه الضريبة الباهظة للوجود.

هذه المرّة فاقت الضريبة قدرة الدفع. لينتهي كل شيء. لتمت تفيحة ولأمت حذوها.

الموت ! وهؤلاء الأغبياء الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه والحال أنه وليمة من اللافكر واللاشعور... «شبعة» من اللاوجود... تخمة من العدم... طفرة من السلام... الراحة الأبدية.

لم نجن بدنيا الكرب دنيا المحنِ (عمر الخيام)

الا غصص الروح وغم النـــــفسِ

ما اهنأ من مات بهذا الزمـــــنِ

ما أسعد من لم يرى نور الشمتسِ

أي معلّقة سأضع على بابه وأنا اصفقه ورائي خلصني منه الموت أخيرا؟

حذار، حذار. عالم مخيف، خطير، صعب، قاس، فظّ، لئيم، بخيل، خادع، مرهق، محبط.. حذار، حذار، عالم يضع أمامك العقبة فالحاجز فالحفرة فالمستنقع فالدهاليز فالحائط الشاهق، وعلى طول الطريق إلى لحظة السقوط في البئر التي ليس لها قاع... حذار، حذار عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها، مضيّعا ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن... حذار، حذار عالم قدرك فيه جوع لا يشبع، ظمأ لا يطفأ، حبّ لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح

فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار عالم لا يعبأ بك، لا يلتفت إليك، لا يهمّه من أمرك شيئا، سيّان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار كل معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان في آخر المطاف مهزوم.

أقرّب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفّق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلاّ جلد أصفر على عظم بحجم القلم ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدّم غير كل ما يقدر عليه الإنسان من حبّ عاجز.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تمنينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفظع ما أعيش من آلام. على العكس حبي لآن لها لا تسعه السماوات والأرض..

ما الحبّ إذن ؟ قد يكون أحسن من فهم طبيعته الأعرابي الذي سئل أي أطفالك أحب إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث ؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاظم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سعينا لحمايته بأثمن ما نقدر عليه : الحبّ.

حتى المعلّم الأسمى لم يدرك طبيعة من يسميه الحقّ وهو يربط الايمان به بحبّه... الحقّ ليس هشا ضعيفا مهددة حياته لا ضمان لتواصله إلا حبنّا له.... اللهم إلا إذا قبلنا أن حياة كل حيّ حياته هو وأنّ حب الذوات التي تبلور فيها، طريقتنا الوحيدة للتقرّب ممن هو فوق كل عبادة وكل حبّ.

أتوجه للراقدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرّضع.

– طاطوطاطي...طوطو...تبيتي...

كأنّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أثّر في شيء ما... غيرّ وجهة المسار. أيكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيرا من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة لتأكيد.ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعمق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة وإلا فإن الكارثة ستجرف الاثنين.

لا أصدّق أذنيّ وأنا أسمع تفيحة تهمس مبتسمة : طيطوطاطا. شرم برم.

تتجدّد فيّ شهوة الحياة والطفلة تطيل لي النظر وتبتسم.

–هل... هل؟

–ن...، ن...، نعم. نعم. نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عينين بدأت تدب فيهما الحياة من جديد.

«–با»، هل ستبقى معي هذه الليلة ، كم أكره هذا المكان الموحش.

– وبعدها نعود للمنزل وقد فكّ الاضراب؟

– نعم

– لمواصلة المشوار؟

– لمواصلة المشوار.

– على علاته ومصاعبه ومتطلباته؟

–على علاّته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفيحة للحياة وأعود لمشاغلي لا أريد شيئا قدر فسخ الكابوس من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يحصى من القصص عن آلام الآدمي المزمنة وطيفها الواسع . إنها قصة من بين ما لا يحصى من قصص المراهقين والآباء وحب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لآبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فرص تدارك ما مضى من أخطاء.

هذه التجربة بتفاصيلها وبالتفاصيل داخل التفاصيل لم تحدث إلا لي... لي أنا فقط. مما يعني أن ما يعطي للذات خاصيتها التي تميّزها عن الذات الأخرى جملة من والأفعال والتفاعلات مع جملة من مظاهر وكائنات وحالات العالم لم تحدث في تفاصيلها الدقيقة وفي تتابعها الزمني إلا لها هي . هذه الفوارق البسيطة والجذرية في آن واحد هي التي تصنع تباين القصص ومن ثمة تباين الذاكرات أي في آخر المطاف تباين الذوات .

لنسمّ هذا المستوى من الفضاء الخامس : ذاكرة الأنا دون سواه ...وإن استهوتنا صورة الذات كشجرة : ذاكرة ورقة الخريف.

* * * * *

ذاكرة الغصن والجذع

القاعدة أن الذات الأخرى حاضرة بقوّة في قصتنا ومن ثم المكان الخاص الذي تحتل في ذاكرة نظنها ملآنة بالأنا وهي تفيض بالآخرين يواصلون فيها وجودهم وهم لا يعلمون .

لنقل أن ذاكرة الشخص هي النواة أما الثمرة وقشرتها فهي ذاكرة الذوات القريبة والبعيد مكانا وزمانا وأداة الحفظ دوما صاحبة الجلالة اللغة.

اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق (القرآن الكريم).

منهم من يفسّر علق بجلطة الدم وأفضل تفسير القائلين أنها تعني علاقة. نعم خُلق الإنسان من علاقة لأنه غير قابل للوجود خارج وجود الذات الأخرى وما تحفظه ذاكرته من أفعالها وتفاعلاتها معه.

تتفحّص الذاكرة ملفّ الذات الأكثر تأثيرا في صياغة قصتي لتكتشف أنها هي نفسها قصة صنعتها كم من قصص ، التي أعرف والتي أجهل. لا تستحضر هذه الذاكرة صورة «با» إلا وكانت دوما مقرونة بصورة الرجل الذي قلّده إلى درجة الإسفاف، الرجل الذي جعل من قصائده الكلام المقدّس، شاعر السيف والرمح والقرطاس والقلم ...»المنتقِم منه والمنتقم. لماذا جعل من هذه الذات بالذات قدوته ؟ هل لتعرّفه في آلامها على الآلام التي عذبته طوال حياته؟ ترى هل سأجد منبع آلامي في منبع آلام دليل الدليل؟

أعود لقصائد لا تلقى وإنما تزمجر، باحثا عن السبب الدفين لعربدة التفاخر و الغضب

هل ذروة مأساة الرجل وقوفه اضطرارا على أبواب الملوك يستجدي من يحتقر، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوته المزعومة أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقتير؟

ينتبه للسبب أديب أعمى عرّيف بالآلام وما تفعله بالمعذّبين في الأرض. غريب! كيف لم يسترع انتباهي يوما أن الرجل فاخر دوما بنفسه لا بقومه خلافا للمألوف... أنه بكى وأبكى الأجيال على جدّة، لا على أب أو أم أو أخ أو ابن... أن ديوانه لا يبدأ بذكر حسبه ونسبه.ثمة إذن منطقة مظلمة في قصة الرجل ربما وجد فيها «با» شيئا عزّز به الصلة. لكن «با» كان معروف الحسب والنسب وكان له أب معروف وأم معروفة

أم معروفة. ! لم أسمع «ما» على كثرة مدحها للناس تمدح هذه المرأة... لم أسمع كلمة عنها من جدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها...أخيرا لا آخرا، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي:

أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته ... أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه!

كل ما يحتويه ملفّ هذه المرأة اسم يحفّ به صمت مشبوه. تحين فرصة الحفر في سرّ قد تملك «ما» بعض مفاتيحه.

-ألا تعتقدين أنه لو كان له أشقاء علّموه باكرا أن يقاسم لما أفرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمه المكلفة بتدليله.

تقاطعني «ما»:

-لم تدلّله يوما أم.

تصمت عاضّة على شفتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

قد أحرّك أشياء لا يجوز تحريكها، لكن فضولي أهم من ترفّق يحضر ويغيب.

-لم تدلّله!؟ ربما كانت مريضة وأن مرضها أثّر في طبعها وفي طبعه...ربما المرض السبب أنها لم تنجب غيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة الاستهجان.

-كلاّ لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان.

-لا تغيّري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتياب ميتة. حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكين «ما» للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهره للحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

-كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! لا أصدق أذنيّ. كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل «با»، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مقنع أو غير مكتمل. يجب أن يكون رفضها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شدتها التي التصقت باسمها؟ حرمانه من حب بقي طوال حياته يركض وراءه؟ هل هذه الجدّة التي لم أعرفها سبب الوجع الذي جعل «با» طول حياته كائنا متألما مؤلما كم تسبّب لي وللآخرين من أوجاع؟

-ماذا أيضا ؟ تكلّمي.

تنسحب»ما» داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث .بداهة ثمة شيء لا يمكن لأمّ أن تحادث فيه ابنها... شيء ربما تهامست به النساء يوما بعيدا عن آذان الأطفال!

لأحاول الجمع بين مختلف قطع "البوزل. ثمة مفاخرة"با" المشبوهة بأن لا أحد تخبط في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداوة للنساء وتنكيله بكل أنثى رماها

الحظّ العاثر بين ذراعيه مكدسا الخليلات والحليلات يشبعهّن إذلالا وخيانة وطلاقا. هل محبّتي للنساء وترفّقي الدائم بهن مجرّد ردّة فعل على ردّة فعل على ردود أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت ا؟

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جدّ مستبعد. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزغاريد.

مفهوم رجال ذلك الزمان والمكان للشرف... يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة لا يهمّ أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة إن لم يكن بالفعل فبالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهامست به النساء وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

هل تقديسي للأخوّة مواصلة قصّة حزينة لطفل حرم أخوة بقي طول حياته لا يكف عن البحث عنهم؟ هل غضبي صدى لغضب طفل وجد نفسه يتخبط في مشاكل لم يكن له أي دخل في وقوعها ولا ناقة لي ولا جمل فيها ؟

ما أغرب أن تشكّل أحداث لا دخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب! ما أغرب أن يقول البعض بحريته وكلنا مسيرون بأحلام وكوابيس من سبقونا .

توقف عند بعض الاستنتاجات النظرية.

ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مكوّن من الأنا الآخر.

الآخر موجود خارجي حقا لكنه موجود أيضا داخلي أواصل تاريخه وقصصه .

هذا الذي بداخلي ليس صورة طبق الأصل للآخر الذي خارجي والذات تعمل باستمرار على ملامحه وخصائصه ومراميه حذفا وإضافة وتحويرا، سلبا وإيجابا. إنها مثل مرآة تعكس الصورة حسب خصائصها وحاجياتها هي آخر همه "موضوعية"الآخر أو «حقيقته».

وفق نفس القانون فإنني آخر الآخر مما يعني أن ذاتي ضرورة المادة الخام التي يتكون منها نسيج كم من ذات تواصلني وتصارعني وتقلّدني ولا تشتهي إلا ما أشتهي ومني تتعلم وتدخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءا من قصتها.

وأيضا ...أن أفكاري ومواقفي وتصرفاتي، كما أراها وأريد الناس أن تراها، تتحول داخل هذه الذوات إلى صور فاعلة مستقلة عني منها التي في صالحي ومنها التي أفضل جهلها.

كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي وذاتك، لا البيت يعلم ولا الأشباح... تري أي أشباح لي تسكن كم من ذوات لا علم لي بتأثيري فيها ولا علم لها بمن كنت حقا!

*

إذن أثّرت قصة جدتي بكيفية جذرية في تكوين شخصية «با» لتطبعني بها من خلاله إلى الأبد. لكن ماذا عن الأحداث التي صنعت قصتها هي وتفسرها؟ على أي أوجاع كانت تنام جدّتي "كالي"؟ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافّة ؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبط بطبعها ، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عرفت بها صدقا ، أو تجنيا ، أو عن قلة فهم وتفهّم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا البعض؟ الأهمّ من هذا كلّه ، هل كانت اللعينة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبّب في سلسلة من المصائب لكم من نساء وأطفال أبرياء على امتداد أجيال ؟

حتى لو عرفت تفاصيل قصة الجدة المعذبة بسرّ ما وبوجع لم يفهمه أحد، لأحالتني قصتها بالضرورة على قصة الذوات التي صنعت قصتها، مما سيحيلني على الذوات التي صنعت القصص التي صنعت الذوات التي صنعت قصتها مما يحيلني على...إلى آخره ثمة أيضا قصة الجدّة الأخر أم «ما» وقصة جدّتها وجدّة جدّتها الخ ...طريق يأتيني من تصور طوله وتعقيده شيء يشبه التخمة قبل الجلوس لمائدة الطعام, من الأحسن تطليق التفكير فيه أصلا. لا أكثر راحة للفكر ولا قدرة أثمن من القدرة التي يضعها تحت تصرفنا رحمة به وبنا : التجاهل.

المهمّ أنّ قصتنا كقطعة نسيج نسجها مجهولون من مواقع جد متباينة زمانا ومكانا، صنعوها عبر ما لن نعرفه يوما من مخططات سرية، من طموحات مخفية، من آلام عبثية، من جرائم منسية، من خيارات كارثية ومن نجاحات عرضية... ولا أحد منهم واع بتبعات أفعاله على بقية حلقات السلسلة.

الأنا هو النواة الصلبة للذات وأداتها المستقلة لغزو العالم؟ ماذا لو كان مجرّد أداة تنسيق بين اشباح تتصارع داخلها ؟

لكن إذا كانت ذاتي نسيج من الذوات الأخرى فذاتي موزّعة بالضرورة داخل كم من ذات.

اللعنة، هذا كل ملفي في ذاكرة "ح" وكنت أظنّني مركز عالمها، ثم كيف تراني بهذه الكيفية؟ آه هذا ملفي عند "با"! كم أسأت به الظن دوما ! يا للدور الهائل الذي تلعبه قصتي في قصة تفاحة وتفيحة؟!كم من ذات أخرى أوت أو ستأوي جزءا من ذاتي لا هي ولا الأنا يعلم بالتفاعل الصامت الغريب؟

نحن ضحايا تصورات بيروقراطية للذات... نتخيلها مثل بلد له حدود واضحة وعاصمة تحت حكم سلطان واحد... السلطان هو الأنا المكلف بالقيادة والتنسيق والتمثيل الدبلوماسي لدى الكيانات الأخرى المبنية على نفس النموذج...استبدال التصور أو تطويره لتصبح الذات أشبه بأمة الإغريق في العصور الكلاسيكية...حقا واحدة، لكن موزّعة على قارة وجزر ومستعمرات مبعثرة على كم من ساحل بعيد.

*

ومما أمكن اعتصاره من الخليط المبهم للروايات عن أجداد الجدّة التي رفضت أن تلد بعد «أين في الناس» ، أن ملك الماشين وراء أذناب البقر، أهل الماء والطين، أطعمهم يوما في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء، فيها سبايا بيض البشرة لهن عيون بلون البحر بارعات في فنون الحبّ... أن هؤلاء الأجداد افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجرّون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير... أن جدّة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمرَ اسمه من اسم الهلال جمع الجرأة والدهاء... أنه رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم... أنهم كانوا يؤوبون لخيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدّقون أنّهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة... أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثَم فكل مكان هو المكان ولا بد من حط الرحال.

كيف لا يكون "با" الرجل الذي لا يستقرّ في أرض وقد ولد من كل هذا التشرّد؟ كيف لا يتواصل حبّ اللرحال داخلي أنصب في فضاء الخيال خيمة سوداء على سطح أبعد كوكب والكون برمته صحرائي رمله النجوم وكثبانه المجرّات؟

لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي.

ومما حفظت الذاكرة الجماعية، أو توهمت تذكره، أن أجداد الأجداد كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيع في مجاهل لا يتخيلها خيال ...أنه كان بينهم جدّة شاعرة لا تشبهها شاعرة اسمها الخنساء.

الخنساء! لم يعطي أين «في الناس» صدفة لابنة له ماتت في سنتها الأولى اسما سقط منذ قرون من التداول، مثلما لم يعطني صدفة اسم ملك مات منفيا. مما يقال عن هذه الجدة الأسطورية الأخرى أنّها ظلّت تندب طول حياتها موت أخيها البطل ،أنّها ظلّت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محو اسم صخر من ذاكرة القبيلة.

يقيني أنّ «با» قرأ الخنساء ، أنّه انبهر بما قرأ ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أنّ مناهج ومسالك فتحت داخل ذاته، أنّ أهدافا قاهرة تحدّدت لها والشعر منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع ذوات أطفال الصحراء.

«يا عين ما لك لا تبكين تسكاب	إذا راب دهر وكأنّ الدهر ريابا
فابكي أخاك لأيتام أرملـــــة	وأبكي أخاك إذا جاورت أجنابا
يغدو به سابح، نهد مراكلـــه	مجلبب بسواد اللّيل جلبــاب
حتى يصبح أقواما يحاربهـــم	أو يسلبوا دون صفّ القوم أسلابا

هو الفتى الكامل الحامي حقيقــــته ... مأوى الضرير إذا ما جاء منتابــا

يهدي الرعيل اذا ضاق السبيل عنهم ... نـهد التليل لصعب الأمور ركابـا

المجد حلّته والجود علّـــــــته ... والصدق حوزته إن قرنه هابـــا

خطّاب محفلة فرّاج مـــــــظلمة ... إن هاب معضلة سنّى لها بابـــا

حمّال ألوية قطّاع أوديـــــــــة ... شهّاد أنجية للثأر طلاّبـــــا

سمّ العداة وفكّاك العــــــناة إذا ... لاقى الوغى لم يكن للموت هيّابا».

بداهـة الشـاعرة البدويـة هـي الـتي رسمـت لـ«بـا» نموذجـا اسـتبطنه طيلـة الرحلـة يأمـره أن يكـون الجـريء، الجميـل ، سـمّ العـداة و فـرّاج كلّ مظلمـة.

ذاكرتنـا إذن مصنوعـة مـن ذاكـرة مركّبـة أداتهـا الوحيـدة: اللغـة. الـتي تحفـظ لقـوم عاداتهـم وأخلاقهـم وتاريخهـم وداخـل كل كلمـة مـن كلماتهـا رؤيتهـم للعـالم وتفاعلهـم معـه.

هـذه اللغـة العظيمـة يمكنـني مواصلـة السـفر بحثـا عـن أجـداد الأجـداد وعـن قصصهـم الـتي مهّـدت عـبر ألـف طريـق ملتـوي للقصـة الـتي صنعتـني.

كـم تغـيرت وتراكمـت مفاهيمنـا وصورنـا للرحلـة منـذ انطـلاق الكتابـة...سـفرة في فضـاء الأحلام...استكشـاف للفضـاء الحسـي –الرمـزي –الخيـالي –الافتراضـي ...بحـث الـذات في ذاتهـا وفي الـذوات الأخـرى....هـا هـي تصبـح سـفرة في الزمـان والوجهـة المنبـع وليـس المصبّ.

مـا تجـود بـه ذاكـرة اللغـة روايـات تعلـم أنهـا مصنوعـة بنسـب مجهولـة مـن الحقائـق والخيـال كلهـا تتحـدث عـن إبـل وخيـام وصحـراء متراميـة الأطـراف ورجـال يبتهلـون لآلهـة اسمهـا ذو الخلصـة وهبـل والـلات والعـزى. مازالـت الملفـات تـرنّ بقعقعـة الشـعر وتـرنّم السـلاح. مـا زالـت الصـور لنسـاء لهـنّ عيـون المهـا وشـعر يغـار مـن سـواده اللّيـل .مـا زالـت لرجـال لهـم وجـوه كأنّهـا نحتـت بالسـكين، صـور قـوم إذا شـجعوا تهـوّروا، إذا أكرمـوا أسـرفوا، إذا ظلمـوا أفرطـوا، إذا ثـأروا كفـروا وإذا حنّـوا ذرفـوا الدمـع مـدرارا، لا يضاهيهـم بشـر رقّـة وتوحشّـا.

في استكشـافنا لهـذا الفضـاء الزاخـر بالأشـباح ، نحـن كمـن يجـذب خيـط كبـة الغـزل، كبّـة لا نهايـة لهـا مهمـا جذبـت مـن الخيـط.

ممـا ترويـه الذاكـرة الخارجيـة أن أجـداد أجـداد الأجـداد خرجـوا منـذ عشـرات آلاف السـنين مـن ربـوع سـواحل قـارة اسمهـا أفريقيـا، أنهـم ولّـوا وجوههـم نحـو الشـمال بحثـا عـن صيـد يأكلونـه وهربـا مـن صيـاد يأكلهـم، أنهـم مشـوا قرونـا وقرونـا يتبعـون الشـواطئ متوغلـين مـن حـين لآخـر في أعمـاق الأراضـي البكـر، حافـز الـروح الفضـول، وحافـز الجسـم الخـوف والجـوع والعطـش.

أي قصـة سـأنتقي لـي مـن بـين كل الـتي تمـلأ الفضـاء المثـير ؟ لنختـر تلـك الـتي فقـد فيهـا جـدّ مـا مـن سلسـلة الأجـداد رجلـه اليسـرى في معركـة مـع الفهـد. وهـذا جـده قبـل أن يأكلـه الأسـد وهـو في ريعـان الشـباب. أيـن في النـاس جـدّ مثـل جـدي ذلـك الصيـاد الـذي كانـت تفـرّ أمامـه

الأسود ؟. انظر لهذا البطل الذي كان جدّه وهو رابض وراء أكمة ، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطّاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة .

لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتك وذاتي. يقال أنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يلقون بنظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الآفاق... أن أشجعهم انتصب واقفا لأوّل مرّة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية... أنه ألقى بنظرة جشعة على جيفة تعد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصّد بها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم.

لا بدّ من مواصلة الحفر، فلهؤلاء الأجداد أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتك ذاتي.

تتعطّل كل أدوات الفكر والخيال وقد استنفدا كل الوثائق واعتصرا كل ما فيها ولم يبق أمامهما إلا الإبهام داخل الغموض داخل طبقات متراكمة من ضباب التاريخ ومع هذا يجب المواصلة.

إلى أين؟ إلى بقعة من الأرض يقال أن أطفال حواء انطلقوا منها بعد أن أكملت ملايين السنين إنضاجهم...إلى غرفة في الطابق الرابع ، لا يدخلها من زوار المتحف إلا الباحثين وعلياء القوم.

على طول الحائط خزائن حديدية كالتي تُخبّأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها بلا ثمن وهي تحتوي على رميم أوائل أوائل الأوائل :الكائنات التي انتصبت يوما على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريق ستتابع عليه أجيال العابرين على جسر الوجود .

الذاكرة الآن شيء جدّ مختلف عمّا نتعارف عليه. هي ليست داخل الذات وإنما خارجها. هي ليست بقايا تجربة عاشتها وحافظت على وهجها طويلا وإن ولّت الأحداث التي ولّدتها. هي بقايا تجارب وأحداث عاشها الأوائل وسجلوها على الحجارة ، على الطين، على الورق وسيواصلون تسجيلها على أي مادّة تحفظ ذكرى أشخاص وأحداث وقصص من قصص أقدم.

تقاطع جديد بين فضاء الحواس وفضاء الخيال...معطيات جديدة من ذاكرة الخيال وخيال الذاكرة.

تقترب أنثى وجلة بحذر من غدير تربض التماسيح على ضفته.إنها لوسي وربما بِسلام جدة كل الأجداد...تلك التي تسميها القصص حوّاء... في وجهها قسمات تنذر

بقرب بروز ربع ابتسامة على وجه هادئ وقور، وملامح ابتسامة واسعة وضحكة مرحة دائمة كأن صاحبتها سمعت لتوها نكتة أعجبتها.وكل الأحاسيس والمشاعر التي سنتوارثها جيلا بعد جيل لا نتصرف إلا في طريقة الأداء أو في تفاصيل التفاصيل.

مواصلة الحفر والأداة عمل جماعي تتجنّد له كل الطاقات الذهنية لخيرة المستكشفين تواصل جمع معطياتها من كل حقول المعرفة تنقّب في صخور الجبال وفي رمال أعماق المحيط وفي الهواء المحبوس في جليد العصور الماضية وفي رميم كم من حيوان خرافي، ذاكرة تجمع قطع «بوزل» ماضي سحيق تخلق منها بما تكتشف من آثار وما تتخيّل شكلا آخر لما حدث لما وجدنا وحتى قبل هذا الوجود...

كم غريب أن ترتيب الذاكرة ليس من فعل الماضي فقط وإنما من فعل المستقبل وكل اكتشاف جديد وكلّ نقلة نوعية في خلق التصورات تقلب رأسا على عقب كل ما تراكم داخلها.

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة «نحن جميعا» أو في صورة الشجرة ذاكرة الغصن والجذع.

* * * * *

ذاكرة الجذور

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة ،يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلاّل من سائل أحمر لزج ساخن كريه الرّائحة يخرج الأمّ من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. قالت «ما» تبرّر دخوله علينا في الظلام أنّها هي التي طلبت من الجارة أن تهتف له أن اسمه دكتور وأنه وحده القادر على إيقاف السائل الأحمر من التدفّق خارج طفلها وإلا رحل كما فعل قبله ابن الخال. وممّا بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلّم معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عبس وقطّب الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّني كرهت الرّجل لما أحدثه في "ما" من حرج وأنّني قرّرت تلك اللّحظة أن أعرف كيف أوقف تدفّق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال. كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفّق من أخي إلاّ بعد تدخّل الغريب، والحال أنّه خرج منّي أكثر من مرّة ثمّ توقّف دون حاجة لأحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفّق ولماذا لا يتخثّر في الأوعية، وكيف يرتبك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات، أصخت السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حواليّ انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.له

فجأة يميد العالم بي وقد أصبح بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. كأنّ الجسم أسلم قياده لعاصفة هوجاء تكونت داخلي ترفعني مرّة إلى عنان السماء وترميني أخرى في أعمق هاوية. عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرّب لذّة دوار حضر هذه المرة ولا لذة تصحبه. إن كان لا بدّ من الموت فليكن وقوفا في معركة وإن استعصت رصاصة العدو فسمّ عدوّ يقي من كل هذه المهانة. هيهات ،لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي ترميني كل مرة على الفراش: تأتيني أوامر "الشيء» بالكفّ عن التدخّل في ما لا قدرة لي عليه. أشعر به يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرّف. لست من الآن فصاعدا غير مجرّد مشاهد يتابع قوى تتصارع داخله منتظرا حسمها.

شيئا فشيئا ودون تدخل طبّ أتى اليوم الذي استطعت أن أقف فيه مجددا على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنّحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على

الطريق. كل هذا لأن" الشيء" شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مصلحا ما أفسده عطب غبي وأنه هو صاحب القرار في موتك أو في مهلة إضافية من الحياة.

فجأة تبرز دابّة الحديد من الاتجاه المعاكس للطريق بسرعة مرعبة. وبينما الأنا في حالة ذهول وشلل مسلّما بنهاية الحياة، وثب «الشيء» من الأعماق كأنه نمر يتمطّى داخلها يترقّب. في لحظة فاصلة بين الحياة والموت، شعرت به يملي على العضلات المتشنّجة أوامره لا يخطئ الحساب ولا هي تتوانى عن طاعة، تعرّفت على سيّدها الحقيقي، على سيّد تعوّدت منه سوء التقدير وفشل التصرّف.

هي لا تخطيء أو ترتبك ، تتدافع لعمل سريع، فعال، منسّق، ناجع، منفذّة بدقة فائقة تعليمات صادرة من مجهول.

تنصاع الآلة التي كنت أقودها وجفوني مثقلة بالنوم، كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات. هكذا شعرت بها تثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، تستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثمّ تتوقف بالضبط أين يجب التوقف.

ليلتها تراجع الموت كالنسر انقض على شحرور لم يلمسه إلا بجناح. في ظلمة اللّيل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت الآلة التي كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيه... لترتعد الفرائص، لتعمّ الفوضى حيث كان الهدوء سائدا. ..ليتجدّد الانتباه ومعه الاعجاب والعجب .

من لم يسمع بمقولة سقراط «كل ما أعلمه أنني لا أعلم شيئا».

لم أحمل يوما على محمل الجدّ مقولة منتفخة زهوا بتواضع كاذب لا لشيء إلا لإدراكي الغريزي أن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بكثير من الأشياء، وإن كان كل علم بالضرورة نسبيا وناقصا و أغلب الوقت... لا واعٍ؟

انتبه لحظة للحجم الهائل من المعلومات التي يختزنها أكبر جاهل فينا. هو يعرف كيف يشغّل بكل سهولة أعضاءه كما لو كان أعظم المهندسين، أو كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، أو كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة فيمشي مستقيما لا مترنحا كالسكران.

ذكّر كل متحذلق ينشد "يا من تدّعي في العلم معرفة" بعمق المعرفة الهائلة التي نختزنها كلّنا .

السؤال ما هذا الذي يعلم داخلك ويمنع علمه من الوصول إلى فكرك الواعي؟

يا ما حلمت أنه فتح لي خزائنه، أنني وجدت طريقة ما لأقنعه أو لأجبره على صبّ ما تعلّمه في وعيي فيعود الارتباط بين العمق والسطح . كم مرة نفد صبري لا أتحمل أن أكون الحمار يحمل أسفاره، فأعود لصراخ العقيم ولمشاكسة العبقري الصامت داخلي

أضحك مني ومنه : سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم اللعين وآخذ الصفر الرنان في فرض الفيزولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدّل . لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فأصبح أنا العبقري وليس أنت فقط.

ثمة في الأمر مفارقة قد تكون بسبب أخطاء في بناء تصوراتنا للذات وفي مفهومنا الضيّق للذاكرة .

لم تعرف الذات طريقها إلى الوجود ولم تحافظ عليه إلا لأنها تعلّمت كيف توقف النزيف وتصنع العين وتشغّل الذهن ...مما يعني أن لها ذاكرة توجد فيها كل الوصفات وكل التعليمات.

ثمة إذن طبقة أعمق للذاكرة التي نحملها ...طبقة ثالثة ترتفع فوقها ذاكرة «نحن جميعا» وفوقها ذاكرة «الأنا دون سواه», هذه الذاكرة بالضرورة أوسع وأدقّ ذاكرة موجودة في عالمنا وهي تختزل كل ما تعلمته الحياة ...هي ذاكرة هذه الحياة لا غير.

هنا علينا أن نعي أن هذه الحياة لا توجد فوق أو خارج الأشكال التي تتبلور فيها...أنّ الكائن الحيّ الذي هو الآدمي لا ينطوي على نوع منها ، أو على جزء منها، أو على حياة خاصة به. هو ينطوي على نفس الحياة التي تحرّك جميع الأحياء ....الحياة الموجودة فيهم جميعا بكامل مقوماتها، بكل عبقريتها المذهلة،... بنواقصها وإخفاقاتها... مرة أخرى بكلّ ذاكرتها .

نعم ، هي موجودة بنفس الكم والكيف في الجرثومة والفيل، في الوردة وفي الزيتونة، لم تقتّر على أحد ولم تميّزه بشيء، وإن اختارت في هذا وفي ذاك تجربة هذه الاستراتيجية أو تلك .

هي لا تتوزّع على كل الكائنات الحية كما تتوزع تركة محدودة على كمّ هائل من الورثة... **هي التركة التي يقتسمها كل الورثاء بالعدل والقسطاس فتكون ولو قسّمت ملايير المرات كاملة من نصيب كل وريث.**

قد كان يدور دوما في خــــلدي **(عمر الخيام)**

ان اخرق درع الفلك الـــــدوار

كي اعرف معنى قلم يسطر مـــا

باللوح وسر جنة ونـــــــار

حتى هتف العقل بأن قد جمعت

في نفسك كل هذه الأســـــرار .

ذاكرة الحياة موجودة داخلي بتمامها وكمالها !يا للروعة وأنا أختزن تجربة ملايين السنين !... يا للقهر وهي محرّمة عليّ! ما أغربها وضعية والمرء كالجالس على كنوز قارون، يقضّي عمره في البحث عن المفتاح والمفتاح في جيبه لا يفتح شيئا!

هل أنغلق أيضا على ذاكرة ما قبل الحياة ؟

بديهـي أن الشكل الـذي اسميـه الأنـا لم يتكـوّن مـن عـدم ولم يـبرز دون تهيئـة طويلة...كلّـه ذرات طُبخـت علـى مـا يقـال في أفـران النجـوم ثـم تجمعـت في كوكـب ثـم في جمـاد ثـم في كـم كائنـات حيـة قبـل أن تتشـكّل في الكائـن المؤقـت الـذي أسميـه الأنـا ... أي كائنـات سـتتلقّى دون علـم مـني ومنهـا المـواد الذكيـة الـتي كونتـني قبـل ان تتفـرّق كأنـوار الشـماريخ ؟... ثمـة إذن قصـة –ذاكـرة كل ذرّة–لبنـة علـى حـدة ، ثمـة قصة–ذاكـرة تلاقيهـا فيّ... وغـدا قصـص– ذاكـرات تفرقهـا وكـم مـن طريـق سـتتخذ وكـم مـن مصـير سـتعرف ... أي فكـر قـادر علـى رصـد كل هـذه الرحـلات ، أي ذاكـرة قـادرة علـى خـزن كل هـذه الذاكـرات ؟...كان مـوزارت يقـول "مهنـتي أن أضـع جنبـا لجنـب النوتـات الـتي تحـبّ بعضهـا البعض"...هـل تلاقـت وتماسـكت فيّ بعـض لبنـات العـالم، هكـذا بمجـرد الصدفـة، أم لأنهـا هـي الأخـرى أحبّـت قبسـا مـن الزمـان بعضهـا البعـض؟

إن في صدري يا بحرُ لأسراراً عجـابا (إيليا أبو ماضي)

نزل السِّتر عليها وأنا كُنت الحِجابا

قـد يكـون للشـيء أسـبابه الوجيهـة في إسـدال سـتار كثيـف بـين مسـتويات الذاكـرة . أي جـدوى لذاكـرة مطلقـة قـد تغمـر وعينـا السـطحي كمـا تغمـر موجـة التسـونامي سبّاحا غـير ماهـر.؟ مـن بجاجـة لأسـفار المكتبـة الوطنيـة يحملهـا علـى ظهـره كل لحظـة مـن السـفر بحجـة إمكانيـة احتياجـه لهـذه المعلومـة أو تلـك. ..جهلنـا الـذي نشـتكي منـه خيـار العلـم الـذي فينـا... لحمايتنـا ؟!

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة الحياة أو في صورة الشجرة ذاكرة الجذور

كـم مـن صـور أخـرى !...البحر....طبقـات الجيولوجيـا... العـود –الفنـان –المعزوفـة والوتـر– اليد–الإلهـام شـيء يتلعثـم في حضرتـه كلّ سـائل وينكفـئ مرتبـكا مـن قصـوره كلّ سـؤال.

«لمّا رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنـــــــــــــــا

أصبحت كل العالم الشاســـــــــع»

* * * * *

الكتاب السابع

الرؤيا

لا نفع لأحد من هذه الحياة إن غادر
الدنيا ولم يخلق عالمه الخاص.
بريهادارانياكا اوبانيشاد

ساذجة رؤيا الكائنات الغريبة للوجود؟ هل ثمة رؤى- ومنها رؤانا- لم تبسّط المعقّد، لم تجزّئ الموحّد، لم تجمّد المتحرّك، لم تحاول استنفاذ ما لا يستنفذه فكر؟ ألا نطبخ نحن أيضا تصوراتنا لتلبية نفس الحاجيات وبنفس الآليات الذهنية ؟ أي غرابة الأمر ومهمّة كل رؤيا تحمّل الواقع لا وصفه. يبقى أهم سؤال: ما الذي يمكن لهذا الصدى القادم من أعماق الماضي السحيق أن يعلّمنا عن وجودنا نحن ؟

المعلّق

صنفان من الرؤى يتنافسان في السوق الفكرية منذ عصور لكشف عقدة قصة القصص. القاسم المشترك على تباعدهما الظاهري الإيمان بوجود الحقيقة المطلقة ... حجر الزاوية في تفكير الخياليين والواقعيين على حد السواء.

ثمة من يتسولونها بالصلاة منتظرين أن يقذفها الله في صدورهم. ثمة من يحاولون السطو عليها بما يسمونه العلم يتصورون أنفسهم اقتحموا عنوة المكتبة السرية لله أو للطبيعة مهمتهم كسر الأقفال وفتح الأدراج وتصوير التصاميم السرية والعودة بها للمتاجرة والربح الوفير.

يصرخ فيك الجميع بالتهديد وبالاتهام بالكفر بالدين وبالعلم والحال أنك من أشدّ المؤمنين بضرورة الأول والثاني.

القانون أن نسبة العنف التي نحتاجها لفرض الرؤى، أي لإسكات كل شكّ بخصوصها، موازية للضعف الذي يستشعره أصحابها فيها وهو أيضا أنه لا أدلّ على ضعف «حقيقة» من كونها لا تحفظ بقائها إلا بالقضاة والجلاّدين.

لقائل أن يقول إذن المعطيات العلمية حقيقة بما أن «مرتدّا» لم يقتل لأنّه كفّ عن الإيمان بقانون الجاذبية ...أو أن "زنديقا" لم يحرق لأنّه جاهر برفضه لقوانين النسبية العامة.

خطأ، فالعنف هو دوما نفس العنف عند كل الحقيقويين . كل ما هناك أنه مسلّط في ميدان ما يسمونه العلم لا على الأشخاص وإنما على الطبيعة نفسها .هي مطالبة بالبوح بأسرارها ولو بثمن شدّها إلى المخلعة حسب تعبير بايكون أب المنهجية العلمية.... والمخلعة أداة تعذيب في القرون الوسطى.

هو الذي قال أيضا «الطبيعة بنت هوى يجب اغتصابها واعتصار كل اللذات التي تنطوي عليها» جاهلا أن بنت الهوى هذه هي الأم لا غير، أن اغتصابها يجعل منا مجرمين زناة.

من غير المستغرب أن تكون وسائل البحث العلمية «اغتصابية». هي تبدأ بكسر الجماد وتفتيته وصولا إلى تفجير نواة المادة، مرورا بتمزيق أوصال الكائنات الحية في مختبرات البيولوجيا. حتى الآدمي جُرّب عليه كما جُرّب على الحيوان. هذا ما يجعل من

«الحقيقويين» أيا كانت توجهاتهم والميدان الذي يصولون فيه أخطر البشر على البشر وعلى العالم.

انتبه أيضا لدوافعهم الحقيقية ، تلك التي يخفونها بكثير من السذاجة وراء ادعاء الجري وراء المعرفة في المطلق. نقّب جيدا وستجد أنهم لا يسعون إلا لنوع أو آخر من السلطة... السلطة على الجسد، على الآخرين وعلى العالم...أن الحقيقية بالنسبة لهم ليست غاية وإنما وسيلة لمزيد النفوذ.

تقول هذا موقف يمكن تسميته بالنسبية المتطرفة. قد نقبل منك النسبية لكننا لا نقبل الغلوّ فيها .الغلوّ مكروه عند من تصفهم تهكما بالحقيقويين...و عندك أنت أيضا.

ماشي. معذرة أيها الحقيقويين التعساء .

تضيف محاولا حشري في الزاوية : أليس الطحال حقيقية مخفية داخل الجسد لا نكتشفه إلا بفتحه ؟ كيف تنكر أننا اكتشفنا هرمون الانسولين وقبله كان المرضى يموتون كالذباب ولولاه لما قدّمت لمرضاك إلا أدوية سحرية عاقبتها الموت؟ أليس هذا أبلغ دليل على أن هناك "حقائق" مخفية عنا زمنا ثم نكتشفها كما يكتشف الطفل الفضولي كل ما تخفيه عنه أمه في خزائنها المغلقة.

نعم لكن ما تناسيته يا قارئ المشاكس أنه لا وجود للطحال إلا بحواسنا التي تمكننا من رؤيته ولمسه. أما هرمون الانسولين فلولا وجودنا ووجود الباحثين وما أنفقوه من جهد ومن مال لما تبلور من المبهم الأصلي .

كم غريب أن أكبر الماديين المؤمنين بوجود أشياء خارجية يكتشفونها بالبحث هم من صنعوا في مختبرات البرد الأقصى حالة رابعة للمادة هي لا غاز، لا سائل ولا صلب، يسمونها مكثفة بوز-انشتاين.

في نفس السياق متى كانت الثلاجات والحواسيب أشياء موجودة في خزائن محجوبة بألف جنّي داخل مطلق مستقل عنا دخلناها عنوة ثم نقلنا منها تصميمها ؟ أليست أشياء خلقناها بفكرنا وبسواعدنا لتسهيل حياتنا لا أكثر.

تقول: أتشكّ في وجود الذرّة والجزئيات والقوى الكهربائية والمغناطيسية والجاذبية والثقوب السوداء والخارطة الجينية وباقي الاكتشافات الباهرة؟

نعم لا جدال في وجودها، لكن بالنسبة لمن ؟ دوما بالنسبة للذهن البشري. هل لكل هذا وجود في أذهان لها خصائص وتوجهات وحاجيات أخرى ؟

خذ مفاهيم الخلق والخالق والمخلوق التي تلعب دورا محوريا في تصوراتنا. هل يمكن للخيل التي لا تصنع شيئا أن تطرح إشكاليات فلسفية بنفس الكيفية التي تطرحها كائنات تصنع أشياء بأيديها فتأتيها بصفة طبيعية مفاهيم الخلق والخالق والمخلوق.

ساكين الذين يصرّون على مواصلة الجري وراء الزمان في المطلق. قولهم أن عجزنا عن لتحكم فيه دليل على وجوده خارجنا. حجة ضعيفة إذ يكفي أن يطلق المفكّر الإطلاقي صاصة على رأسه المرهق لينهي هو الزمان قبل أن ينهيه.

خر معاقل التصورات الرديئة الصنع الاحتجاج بالقوانين التي يكتشفها الفكر وتبدو أنها مفروضة عليه فرضا، مما يدعّم بالنسبة لأصحابها وجود الواقع المستقلّ والعالم "الموضوعي" الذي نحن فيه كالسمكة داخل المحيط.

حتجّ : أليست الجاذبية حقيقة قاهرة والدليل أن رمي الآدمي من الطابق الثالث يتسبب ـه في بعض المشاكل الصحية أيا كانت الرؤيا التي يتحرّك داخلها ، ونهاية مشاكله لصحية وغير الصحية إن رميناه من الطابق العاشر.

ـن أنكر العلاقات المحددة والقارة في تفاعل الآدمي مع عالمه؟ لكن من يستطيع إنكار أن لجاذبية ظاهرة لا وجود لها إلا بوجود الجسم الذي يوجد العلاقة وبذهنه الذي يكتشف لصلة .

لقاعدة التي لا تجاوز لها أنه في حالة انعدام الجسم والفكر، هذا القانون- وغيره- هو العدم سيان. حتى محاولة تصوره في غياب الفكر الآدمي ليست إلا محاولة تنطلق من فس هذا الفكر وترتطم بحدوده.

لإدراك صحيح لمفهوم القوانين "الموضوعية" وعلاقتها الفعلية بالذات أحسن مثال اللغة. ـي الأخرى تخضع لقوانين صارمة يجب على كل متكلّم الخضوع لها ويتطلب الإلمام بها مشقة كبرى لا يعرفها إلا من جرّب تعلّم لغة أخرى غير لغة الأم التي تُسوّق لك دفعة واحدة بكلماتها وبقواعدها. كونها موضوعية وقاهرة ومتقدمة على كل طفل لا ينفي أنها لم توجد يوما بصفة مستقلة عن الفكر في فضاء هلامي أو أن هذا الفكر الذي استكان ليس صانعها وبدونه لا جدوى لها ولا وجود.

معنى هذا أننا عندما نكتشف أغرب القوانين الحسابية التي تحكم حركة المجرّات وأعقدها فإننا لا نتوغّل داخل ملفات اللّه أو الطبيعة وإنّما نعتصر من أدمغتنا ما تزخر به من قدرات التنظيم والتسمية والتعليق مبلورين بعض طاقات الذهن البشري في الخلق ومواصلين بناء العالم الذي نعيش فيه.

ثمة من يتصوّر أن التقدّم في المعرفة هو بمثابة المشي نحو هذه الحقيقة المطلقة وأننا نقترب منها شيئا فشيئا والحال أنه العملية مجرّد استبدل تصورات ساذجة بأخرى وأنه ليس للعملية نهاية حيث لن نكفّ عن استبدال «حقائق» بأخرى إلى أن ننقرض ونترك هذا العالم لكائنات أخرى قد تكون أقدر منا على نسج أغرب التصورات عن عالم لم ولن يستنفذه تصوّر.

إن القول في ميدان الفيزياء بنظرية الأوتار والأبعاد غير المرئية والأكوان المتوازية ليس اكتشافا لمستوى أعمق من طبيعة العالم «الموضوعي» الذي فسرناه من قبل بنظريات أخرى

تخلينا عنها الواحدة بعد الأخرى، وإنما الأمر مثل الانتقال من بناء أكواخ الطين إلى القصور فإلى ناطحات السحاب. نحن بمثل هذا التطور لم نقترب من أي حقيقة ثابتة ومكتملة لما يجب أن يكون عليه البناء المعماري "الصحيح" وإنما طوّرنا خيالنا وطاقاتنا الفكرية وإمكانياتنا المادية لنبني أجمل وأرحب وأغلى العمارات..

المسبار فوق سطح المريخ، أدويتنا ضدّ السرطان، تجاربنا على مكونات الذرة، كائنات مثل الاهرامات ولوحات فان جوج ووصفات الطبخ الجيدة وأشعار شيكي وشكسبير وسمفونيات بتهوفن مخلوقات من فكرنا ووجودها مرتبط بوجودنا ويوم نختفي ستختفي هي الأخرى .إنها شبيهة إلى حدّ كبير بالتي تتولّد من مخيلة الحياة التي تخلق نماذجها بالتجريب المتواصل في إطار القوانين التي وضعتها لنفسها كما الأمر في اللغة. الدليل على أنها لا تملك أي حقيقة مسبقة كثرة الأخطاء وتعلمها منها. ما يصمد أطول وقت ممكن من أشكالها ليس المبني على الحقيقة الأزلية– أي مرّة أخرى على تصوّر يفترض وجود شيء كهذا– وإنما على مدى استجابة الشيء لحاجيات محددة وعلى قدرته على مواجهة قوى الدمار التي تسعى لتفكيكه وتجاوزه. نحن كجزء من الحياة لا نفعل إلا ما تفعل. مثلها وعلى مستوانا ، نحن لا نكتشف وإنما نخلق .

كم تبدو خصومات الحقيقويين مضحكة وهي كخصومة عمّال بنوا دارا بأيديهم العارية وعمّروها بكل أصناف الأثاث الفاخر والحقير، الصالح والفاسد، الجميل والبشع، ثمّ انطلقوا يتخاصمون حول بانيها المجهول وأي من العمّال نال رضاه.

تعود للمشاكسة : هل معنى هذا أنه ليس لنا أي ثوابت معرفية نستطيع التشبث بها تشبث الغريق بالقش ؟

بلى .صحيح أنني لم أنتبه لكل الأسس التي بني عليها عالمي، كما لم أنتبه لكل قواعد اللغة التي أتكلم بها تلقائيا، لكنني انتبهت إلى بعضها... مثلا أن في العالم الذي أفقنا فيه ثوابت ومتحركات... أنه محكوم بقوانين أزلية كتواجد الأضداد... أنّ من خصائصه التعقيد، التغيّر، الخلق المتواصل، المفاجأة تلو المفاجأة تلو المفاجأة... أنه دوما أغرب من أغرب تصوراتنا له... أننا نعي أننا نخطئ ونصيب. أليست هذه معارف لا تقدّر بثمن وينتهي إليها كل واحد منا مهما كان نصيبه من المعرفة، لأننا درسنا كلنا وتخرجنا من نفس أرقى جامعة: الحياة!

ثابت أيضا أن كلّ رؤيا للعالم نتاج مجموعة بشرية محددة في الزمان والمكان...أن كل رؤيا تعكس جهلها ومعرفتها مثلما تعكس مخاوفها و آمالها...أنها تبدو لأصحابه نهاية طريق البحث وهي مجرّد منعطف فيه...أنها مبوّبة في أحسن الأحوال لتغييرات جذرية. وإما لدخول متحف الفكر يوما .

تقول أليست هذه الحقائق التي تنفي وجودها ؟

أن تكون هناك معارف ثابتة مؤكدة بالنسبة للفكر البشري فأمر لا يكابر فيه عاقل... أن تكون هذه المعارف اكتشاف حقائق في المطلق فإنكار لمعطى ثابت ألا وهو أنه ليس لنا إلا تصورات يصنعها الذهن البشري.

يصبح السؤال لا ما حقيقة العالم في المطلق ولكن ماذا نستطيع أن نخلق له من تصورات تحسّن وتعمق وتضيف أو تنقل تصوراتنا لمصاف جديد من الخلق والابداع.

أنظر الآن ما تقدمه الرؤى غير المتقنة من خدمة عندما يتعلّق الأمر بإعدادنا لمواجهة الموت. هو بالنسبة لأغلبها ترحيل قسري وطرد من عالم شبع منا ولم نشبع منه... عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية وهي متمسكة بالبقاء... المرض العضال الذي لم يكتشف له العلم دواء... النهاية المطلقة... الكارثة الأخيرة... تتويج ممشى الآلام.

نهار أتيت للدنيا **(نزار القباني)**

وجدت قرار إعدامي

ولم أرَ باب محكمتي

ولم أرَ وجه حكامي

كيف يمكن للآدمي المسكين أن ينهي رحلته على خير كما صلّى مريضي وقد تسمّم فكره باكرا بهكذا صور وأفكار؟ من يريد أن يسكن مثل هذه الرؤى فهو حرّ ومعذور. أما بخصوصي، فلقناعة راسخة أن طريقة عيشنا وموتنا محكومة بعمل ذهننا وبخيالنا فإنني لن أقبل إلا برؤيا تسهّل عليّ الحياة و الموت. كيف صنعها ؟ بموادنا نحن.

الوظيفة الأولى للرؤى ليست اكتشاف الحقيقة وإنما صنعها.

تخلق الذات وجودها بخلق ظروف هذا الوجود ويوم تعجز عن ذلك تذوب أو تتبخّر في تعقيد وغموض المبهم الأصلي وأن عالمها الذي تبلوره منه مكوّن من حواسها ومن فكرها ومن خيالها تكوّن الطوب من الماء والقشّ والطين . ولأنها تبلور وتتبلور في مثل هذا الواقع المركّب فإنها مطالبة بتوفير حاجياتها في فضاءاته المختلفة.

هي بحاجة لبيوت في الفضاء الحسي توفّر لها متطلباتها الحسية من حماية وراحة وطمأنينة . هي بحاجة لبيو «الجسد» و «الروح» وإنما في تعدّد الفضاءات التي تحقق فيها الذات متطلباتها. فالطمأنينة في الفضاء الحسي أن تنام شبعانا في بيت محمي بسور عالي وكلب شرس والطمأنينة في الفضاء الرمزي الخيالي أن تؤمن بوجود نظام وحكمة ومعنى للعالم أو أن هناك قوة غيبية تحميك وتضمن لك تواصل الرحلة في عالم خير وأبقى.

هكذا خلقت الذات المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية الحاجيات الحسّية وخلقت مهندسين معماريين في الفضاء الرمزي لتلبية حاجياتها الفكرية الخيالية. كل

فلسفاتنا ودياناتنا وعلومنا وفنوننا وآدابنا، كل ما نقوله بصفة أو بأخرى عن أنفسنا، عن الآخرين وعن العالم، بناءات فكرية جادت بها وستجود بها عقول هؤلاء المهندسين الرمزيين الخياليين. كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم بيوت الفضاء الرمزي لأنه لا طاقة للآدمي على سكن نفس البنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتوفّره على مواد بناء أمتن ، أو لتزايد خبرته في فنّ البناء ، أو لتغيّر ذوقه...عادة لحبّه استكشاف وخلق الجديد .

يصبح الموضوع يوما لماذا لا يكون لي ردّي عن سؤال ماذا نفعل هنا ؟ لماذا لا أبلور تصورات خاصة بي في كل ما يتعلق بما أسماها دستويفسكي الأسئلة اللعينة ؟ لماذا لا أبني بيتا خاصا بي في الفضاء الرمزي الخيالي علّني أجد فيه أخيرا الطمأنينة والسلوى والجمال وكل ما لم أجده في بنايات الآخرين ،كل همّي يكون مفصّلا على ذوقي ومستجيبا لحاجيات قد لا تكون حاجيات الآخرين.

ذات يوم تبدأ الأفكار بالتزاحم وتتكدّس فوق مكتبي وفي سلّة المهملات نماذج البيت الجديد.

بنيت على الرمل (أدولف ستاف)

لكن كل شيء انهار

بنيت على الصخر

لكن كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفئة

سأبني.

* * * * *

لبنة البطل

كما تبنى أحسن البيوت في الفضاء الحسّي، تبنى أحسن البيوت في الفضاء الرمزي الخيالي باختيار أجود المواد واتباع أحدث طرق البناء وقبل كل هذا بالعمل طويلا على النموذج الهندسي ليأتي البناء جامعا بين الجمال والفعالية والاقتصاد.

هذا البناء بالضرورة قصّة لا بدّ فيها من كل إبداعات الخيال لتأتي آية في التشويق ... قصة فيها بداية محفوفة بالغموض ونهاية تكشف كل الأسرار.. قصة مقبولة من عقل له هو الآخر حاجياته ولا يمكن أن تبيع له بضاعة مغشوشة.

قصة تقول لنا من الغريب وما العالم الأغرب الذي تبلور فيه ، ما سبب إفاقته فيه وما هدف المحن والامتحانات التي يسلطها عليه وما الذي يحضّره للمغامر الصنديد عند وصوله آخر منعطف في الطريق.

قصّة تبثّ وراء الوصف والسرد الرسائل الخفية لتي ننتظرها: التبرير والتطمين والتشجيع والمواساة وتثمين جهد الحياة.

طبعا قصة بطلها بطل الأبطال بما أنها قصة القصص.

بطل الأبطال ؟ طيب لكن من ؟

على عادة بناة كل العصور في السطو على آثار الأوائل مع طمس كل ما يوحي بسرقتنا لها، يمكننا الانطلاق من اسطورة اغريقية شهيرة لاختيار من سيلعب الدّور.

في هذه الأسطورة يرضى الآدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة التمثيل.

ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع. تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت...فثالث فرابع فخامس فسادس فـــــــ...

تتراكم عند قدميك الأقنعة والذات الأخرى تتباعد تباعد الأفق عن الراكض.

آخر قناع. ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب. تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف... وجهك أنت لا غير.

لأتثبّت من الأمر. ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأقنعة التي يختفون وراءها وفي الأخير لأكتشف وجهي كل مرة. ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرّة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما ...وجههم في مرآة وجهي.

مغزى الأسطورة؟ بسيط وبالغ الغرابة: كل آدمي أنا، لكن في قصة أخرى... أنا كل آدمي لكنه يتخبط في ورطتي.

تصوّر الأسطورة الإغريقية من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور بكلمات أخرى.

أجمل إخراج الذي تجده عند المتصوفين و الشعراء.

وتخفق في قلبي قلوب كثيرة **(بدوي الجبل)**

فقد كان شعبا واحدا فتشعبا

الطريف في الأمر أن علم الحقيقويين-الإغتصابيين أعاد اكتشاف الفكرة الموغلة في القدم ليخرجها بلغته هو.

فالآدمي في رؤياه مصنوع وفق «وصفة» تحتل ألف صفحة من كتاب- يسميه برنامج المورّثات- والاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.

من حسن الحظ أن البرنامج الجيني أوجد التشابه شبه المطلق وأوجد أيضا ما يكفي من الفوارق ليكون الجمع باقة ورد أو شوك، لا تجاور روبوات أو هريسة خلق.

المهمّ: أنا، أنت، هو، هي، نحن ... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة وفي ظروف وحالات متباينة

قد يتسبّب لنا قبول هذا التصور- والتصرّف على أساسه- في لخبطة حياة لا تنقصها اللخبطة. تخيّل.

ها أنا أتوجه لموظفة النزل: ما أحلى لون عينيّ هذا الصباح. هل هاتفني أنا ؟

ثمّ إلى النادل الذي طلبت منه عاشر فنجان قهوة: قلت دون سكر، ألا تعرف عاداتنا بعد كل هذه السنين.

ليس من الصعب فهم اندهاش «نسختيّ» أو «أنائيّ» إذ يكفي أن أتصور موظفة النزل تواجهني من الغد: هذه قهوتك، آن الأوان لتغيير هذه النظارات، ما أبشعها على أنفي. أو أن أتصوّر موقف النادل: هذا كل البقشيش؟ اطلع بكل ما في جيبي.

ماذا لو صرخ فيّ كل عابر سبيل:

- ما هذا التهوّر؟ متى ستكفّ عن كل هذه الحماقات؟

- وما دخلك أنت، شؤوني الخاصة.

- يا رجل احترم الآراء التي تتلهى بها على الورق ولا تقدّر عواقبها. كيف تتصرف في أناي بهذا الطيش وتقول شؤوني الخاصة؟

انتبه هنا للتغيير الجذري- أو لما يسميه البعض «القطيعة الابستيمولوجية»- مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات.

هي جعلت من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت، أحسنها من تحثّنا على حبّ "أخينا" الإنسان وأردأها من تجعله العبد والأنا سيده مع تبادل متواصل للدورين اللعينين.

بالتصوّر الجديد-القديم ينتقل التركيز من فوارق الصفحة الواحدة إلى تشابه ال999 صفحة.

معنى هذا إنك عندما تنظر للآخر واضعا على أنفك نظارات هذا التصوّر فإنك لن ترى إلا نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك «المتوحش» العاري بجهازه التناسلي في غمده الأنيق. يفرض عليك التصوّر الجديد القديم الاقرار بأن كل الاختلافات أقنعة على نفس الوجه... وأنه دوما وجهك أنت أيا كان القناع الذي يوضع عليه.

المرّة المقبلة التي تلقي فيها بقطعة نقد لشحاذ- أرجو لك أن يكون مؤدبا لا كالذي شتمني - تأمله لحظة دون إطالة قد توتّر أعصابه. انتبه أنه آدمي محدّد بقصته والتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل التي تعطيها طرافتها وتميّزها عن بقية القصص... **أنه كلّ آدمي وكلّ الآدمية.**

اليس هذا ما تعنيه أجمل وأبلغ آيات القرآن الكريم : "مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا". (سورة المائدة)

تهزّ كتفيك: أفكار ردّدت على مرّ العصور ، هل ثمة إضافة وتجديد.

برافو. يمكنني أن أواصل لكن ببالغ الحذر .

نعم عندي لك بعض الإضافات.

القول بأن أي آدمي هو كل آدمي وكل الآدمية لا يجيب إلا على جزء من سؤال من نحن .

هو لا يردّ على الجزء الأهمّ : من هذا الذي نقول عنه أنه [أيّ آدمي-كلّ آدمي - كل الآدمية] ؟

ماذا لو كان هو الآخر قناعا يجب خلعه لكشف من أو ماذا يوجد تحت القناع ؟

*

عودة لصورة الشجرة بأوراقها النضرة فهي أثرى- ولسبب بديهي أقرب للقلب- من صورة الأقنعة التي نزيح أو نقتلع مع ما يخفيه الفعل من عنف وفضول مرضي.

لنتصوّر أن أي آدمي - أو كلّ آدمي-بمثابة ورقة على غصن...أن الغصن هو الآدمية... أن هذا الغصن واحد من أغصان عديدة ...أن كل غصن من هذه الأغصان جنس من الكائنات التي نعرف والتي لا نعرف...أن كل هذه الأغصان تنطلق من نفس الجذع ...أن هذا الجذع هو الذي نسميه الحياة ...أن الجذع يرمي بجذوره في فضاء تسميه الرؤيا العتمة.

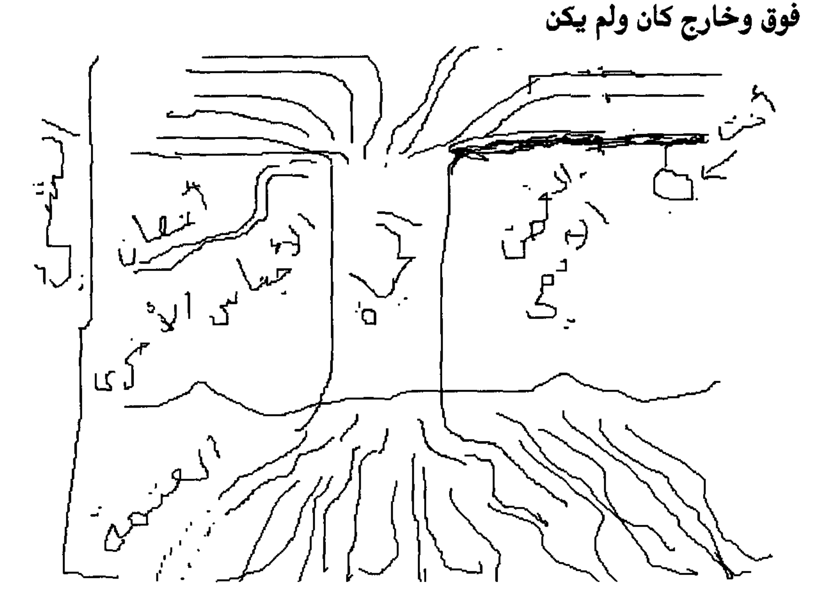
إنه «الفضاء» المحمّل بكل الممكن من الأنظمة، لا ككيانات صلبة تنتظر في المخازن شحنها

إلى الموجود، إنما كاحتمالات من بين ما لا يحصى من الاحتمالات المتروكة لمشيئة تدفق الأحلام وأهواء الحالم... الفضاء الفارغ الزاخر بكل الامكانيات ...البركان الذي تتدافع منه الكائنات كما تتدافع الحمم من براكين فضاء الحواس....الرحم الذي لا ينفكّ عن الولادة... مكتبة المكتبات التي تحفظ فيها ذاكرة الذاكرات كل الملفات... المقبرة التي يتحلل فيها كل ما بلوره الرحم وقذفه البركان... «الشيء» نفسه، قبل اتخاذه الأشكال-الحالات التي يتّخذ... الشيء المنقلب إلى لا شيء واللاشيء المنقلب إلى كل شيء.

مظلم وبلا قـــــــاع (لاو تسو)

سابق للزمان والمـــكان

فوق وخارج كان ولم يكن



ما توحي به صورة الشجرة أننا أمام كائن واحد بأوراقه وأغصانه وجذعه وجذوره...أو أن هذه المكونات ليست إلا «جسده» أو الحالات الضرورية لوجوده. ندرك تلقائيا أن ما يوحّد هذه الأجزاء هي العصارة التي تغذّي وتحيي وتربط الجذع بالجذور والأغصان بالجذع وكل ورقة بغصنها.

لننتبه للخطر الكامن في الصورة المغرية : الإيحاء بأن الغصن الآدمي قد يكون الأرفع ، الأقوى، الأنبل.

لعدم الوقوع في الفخّ ، ثمة صورة كرة التنّس، وكل نقط الغلاف المطاطي (الأجناس الحية ومنها الآدمية) على نفس المستوى والبعد من المركز. ثمة صورة هذه الأجناس الحية كبالونات يوم العيد التي هي على اختلاف الأحجام والألوان والأشكال ، ملآنة بنفس الهواء .ثمة صورة القِرَب والأجناس الحيّة كقِرب بأشكال وأحجام وألوان مختلفة لكنها ملآنة بنفس الماء.

بطل الأبطال عندما نذهب إلى أبعد ما يمكن أن نذهب إليه، إذن هو هذه "العصارة"، هذا "الهواء"، هذا "الماء"...شيء يغذّي ويحفظ ويأخذ شكل ما لا يحصى من الكائنات منها الشكل الآدمي .

إذن لم يكن الرجل يستهزئ بي وهو يضمّ راحتيه يسلم عليّ كأنّه يصلّي... كان يعرف ما كنت أجهله أو كان يتذكر ما نسيت. كم أساءوا فهم المعلّم الأسمى وكم ظلموا الشهيد الأعظم... لكن لماذا يفتعل الرهبان البوذيون التفتيش في قرى التبت أشهرا وأشهرا عن طفل معين تقمّصته روح المستيقظ ليجعلوا منه الدالاي لاما الجديد والحال أن كل طفل يفي بالغرض ؟

خلاص ، عرفنا من هو بطل قصة القصص بل وحدّدنا له مسقط الرأس سميناه العتمة.

لم يبق إلا أن نعمّده :

ما الاسم الذي سنطلقه عليه ؟

نبّهنا لاوتسو لاستحالة أن يكون له اسم واحد وهو كل الأسماء... أن يكون له شكل وهو كل الأشكال... أن تكون له صفة وهو كل الصفات... أن تكون له حالة وهو كل الحالات...وحتى أن يكون كائنا وهو كل الكائنات.

إنها حقا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهام وجود مسمَى خارج المسمِي، حتى لا نتوهّم اسما يستنفذ ما لا يستنفذه اسم...ومن جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا ببطل محدّد الهويّة.

المخرج الوحيد الذي وجده الخوارزمي وكبار علماء الرياضيات: تسمية الشيء «الشيء»

القارئ المجهول (وهو يهزّ كتفيه) : تحايل ساذج على قانون لاوتسو و" الشيء" هو أيضا اسم من بين الأسماء.

طيب ، لكن أي خيار غير أن نملأ الفراغ بالفراغ ؟

«الشيء» هو الحائط الشاهق الذي يرتطم به الفكر عاجزا والخيال قاصرا... «الشيء» هو المنطقة الحرام، المنطقة المظلمة التي لا يضيئها شعاع أي تصوّر...ماذا يبقى ؟ حريتنا وحقنا في أن نصنع لنا من غموضه الأفكار والقيم التي تعيننا على الحياة والموت ...لم لا ولا شيء أو أحد سيخرج من وراء الحائط الشاهق ليسفّهنا.

* * * * *

لبنة محنة بطل الأبطال

لم يبق لنا غير أن نحرّك «الشيء» لينخرط في صنع قصة القصص.

المشكلة أنه يبدو على رأي آخر.

هيا يا بنت اخرجي من جحرك، يكفي من هذا الانتظار المزعج ومن طول الدلال. ماذا؟ هذه المرة لن تنفع توسلاتي ولا ضرورة للإلحاح السمج. ما الذي يحدث ؟

كأنّ الذي غامرنا بتسميته «بطل الأبطال» محجم عن دخول الحلبة شلّ حركته نحو النور خوف داهم. هل هاله العالم الذي سيبلوره وسيتبلور فيه ؟

هل رأي نفسه تائها في فضاء أخرق الاتساع، طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خائفة؟ هل رأى نفسه جالسا يبكي حبيبا خانته قواه مجبرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا؟ هل رأى كم من جيف سيأكل، كم من جثث سيخرج من قبورها أيام المجاعات، كم من قمامات في شوارع مظلمة لمدينة مترامية الأطراف سيبعثر بحثا عمّا يسدّ به الرمق؟

هل رأى نفسه يوم ذُبح وبيع لحمه على أنه لبقر طازج والأم تنظر بشره لرضيعها أفقدت المجاعة البشر كل صواب؟

هل رأى نفسه مرتعا للقمل وللجراثيم حيا وعند الموت وليمة للدود ؟

هل رأى نفسه يرعبه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين ؟

هل رأى نفسه بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم حتى لا يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الغداء والماء ؟

هل رأى نفسه جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية وأطفال جياع يفتّشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما ؟

هل رأى نفسه عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة نتنة عائما في البول والبراز والقيء، يسأل الله الموت فلا يعاقبه إلا بمزيد من الحياة ؟

هل رأى نفسه لاجئا تتقاذفه الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع ؟

هل رأى نفسه مجذوما يساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم؟

هل رأى نفسه مريضا يمشي بين تلال الجثث وراء قافلة طويلة من المهووسين يضربون صدورهم أفقدهم حجم كارثة الوباء كل صواب يستصرخون رحمة إله يعتقدون أنه عاقبهم بالطاعون ؟

هل رأى نفسه الشحّاذ على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء ؟

هل رأى نفسه قبلة كل الأنظار والحشود تتشبّث بجلبابه وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه ؟

هل رأى نفسه شاعرا معلّقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون ؟

هل رأى نفسه إمبراطورا مجنونا ماتت له حبيبته فرأى شبها لها في شاب من حراسه فأخصاه ليتزوجه؟

هل رأى نفسه شابا أخصاه إمبراطور مجنون وألبسه كسوة العرس عنوة ليغتصبه فوق كرسي العرش؟

هل رأى نفسه جارية تذبح في ليلة ليلاء مع مئات الجواري لأن إمبراطورا مجنونا آخر صدّق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين ؟

هل رأى نفسه مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يبقر البطون مفتّشا عن بطيخه وسط الأمعاء الدامية ؟

هل رأى نفسه مريضة عجوز تمتم بكلمات غير مفهومة وتأتي بحركات غريبة لا تستطيع لها دفعا فساقوها للشنق بتهمة السحر لظنّهم أنها مسكونة بالشيطان ؟

هل رأى نفسه قاتل زوجته بعد اثنتي عشرة سنة من الزواج لأنه لم ينس أبدا أنها ليلة الزفاف لم تكن عذراء؟

هل رأى نفسه قتيلة بعد اثنتي عشرة سنة من الزواج لأنها ليلة الزفاف لم تكن عذراء؟

هل رأى نفسه فلاّحة اختطفها تجار الآثار المزورة وقتلوها وحنّطوها ووضعوها في تابوت رسموا عليه اسم أميرة بلغة ماتت منذ آلاف السنين ودفنوها في مكان بعيد ثم بعد "اكتشافها" حاولوا بيع جثتها بثمن غالٍ لمتحف كبير؟

هل رأى نفسه امرأة وُضعت في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم، أوصى الراجمون بعضهم البعض ألاّ تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا يملّوا طول زفّة الاعدام؟

هل رأى نفسه طفلا يساق عبر مسارب جبال مرعبة، حراسه يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في كوابيسهم؟

هل رأى نفسه يتيما سملوا عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسوّل المنظّم ؟

هل رأى نفسه طفلة قال والداها أمام الشرطة لتبرير موتها أنها سقطت من السلم وكل الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر علقة، مات منها الجسد تحت اللطم واللكم بعد أن ماتت منها الروح بنقص الحب ؟

هل رأى نفسه جارية سجينة إلى آخر العمر في حريم بمشربية تطلّ كل صباح على شواطئ محرّمة عليها إلى الأبد ؟

هل رأى نفسه يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم ينه بعد تخبّطه؟

هل رأى نفسه يوم شُنق على غصن أول شجرة لأن له لون الليل ولأنه حاول الفرار من جحيم اسمه العبودية؟

هل رأى نفسه يوم جُرّ إلى أعماق الأرض ورئتاه تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثمن معدن؟

هل رأى نفسه يوم دُفع لمواجهة الكواسر يضحكون من رعبه وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين؟

هل رأى نفسه يوم قُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارق سارقي قوت أطفاله ؟

هل رأى نفسه يوم جُدع أنفه وقُطعت أذناه ليؤكد الحاكم المجنون لقطيع العبيد أنه السيّد؟

هل رأى نفسه يوم ساقوه للإعدام شنقا وسحلا وخنقا وحرقا وقطعا للرأس بالفأس والسيف؟

هل رأى نفسه يوم عذّبه رهبان مجانين يتّهمونه بالتستّر على دينه المضطهد ؟

هل رأى نفسه يوم كُدّس الحطب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظن أنه عرف كل الممكن من العذاب؟

هل رأى نفسه يوم ساقوا والده إلى المقصلة ثم أتبعوه بأمه بعد اتهامها أنها كانت تضاجعه؟

هل رأى نفسه جنديا يقتل دقيقة قبل وقف إطلاق النار؟

من يدري ؟ ربما رأى نفسه يوم خرج محرجا وهو كهل من غرفة موصدة يرمي لامرأة مخمورة ورقة نقد ضخمة ثمن أنكر فعلة... يوم بكى وهو المرأة المخمورة التي أجبرها الفقر على المتاجرة بجسد طفلها...، يوم كتم صراخه وبكاؤه وهو الطفل الذي يُغتصب... يوم ترك النص جانبا وهو الكاتب ليضع وجهه بين يديه يشهق بالبكاء لم يعد يتحمل مزيدا من آلام البشر.

هل رأى الكمّ الهائل من القصص الفظيعة التي سيعيش فداهمه أوّل رعب ؟

تشعر كلّ آدمية حبلى بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعوّدت عليه في أحشائها فجأة يتوقّف.

*

أنت أيضا تشعر بقلق مفاجئ. معك ألف حقّ صدّقني، لا خير يرجى من هذه المغامرة ومن الأحسن "للشيء" أن يستثمر في كائنات ومغامرات أخرى. لنترك المسكين ينعم براحة العدم وكلنا معه.

تنفجر وأصبع الاتهام مرفوعا في وجهي: كم من مرة حاولت طوال النص إجهاض الآدمية أو دفعها للتقاتل حتى الفناء. كل محاولاتك التخريبية آيلة للفشل .أنا وأنت وكلنا هنا بالرغم من أنفك ومن الأحسن لك أن تجد مخرجا لنصّك لتحافظ على ما بقي لك من مصداقية.

نعم يجب أن أجد سببا يرضي به القلب والعقل لتتواصل القصة ولم لا إيهام قرائي أنني صاحب الفضل في تواصلها.

ماذا ؟ كأنّك أنت المتردّد الآن . تقول قبل المواصلة وليطمئن قلبي عليك البتّ في مشكلة ضخمة: كيف نقبل تجسّد "الشيء» في كائن يعذب ويغتصب الأطفال؟. ألا يعني أن تصورك يجعل منه شريرا أو غير مبال بالشرّ أي أكثر من شرير. هل يمكن القبول بكائن كهذا ليسند قصتك العرجاء؟

تبادل الأدوار. ها أنا من يسعى لإقناع هذا الجبان.

لكن القصة تجعل منه المغتصِبُ والمغتصَبِ...الكائن الذي تألم وهو الطفل، الكائن الذي تألم وهو أم الطفل، الكائن الذي تألم وهو المجرم ، الكائن الذي تألم وهو كاتب النص . آنذاك من أين لنا محاسبته وهو الذي حكم على نفسه بتحمّل آلام كل المخلوقات...بتحمّل كل التضحيات على مرّ الأجيال والأجيال حتى يوجد عالم كعالمنا ؟

اقتنعت ؟ المشكلة أنه هو، غير متحمّس كثيرا لدفع فاتورة مثل التي أبصر طولها وثمنها. لأفاجئه بالبحار والبراري والجبال المكللة بالضباب التي ستستخرج منه صرخات الاعجاب والعجب. يا لها من بطاقات بريدية رائعة يمكن أن يبعثها لنفسه تذكارا عن آخر ما جرّب من العوالم. ثمّ النقر على وتر ألذّ الأحاسيس . طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبلّلة بالمطر والحطب فوق النار ودخان قطار أسود يركض خببا عبر حقول الزيتون والعنب.

بقية الروائع. حفيف الأشجار، خرير الماء، همس النسيم، صفير الرّيح، شدو الناي، زقزقة العصفور، ثغاء الماعز ونقر قطرات الماء على نافذة غرفة النوم.

تتّسع «الابتسامة» لتختفي بالسرعة التي ظهرت بها. اللعنة نسيت أنه يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب..أنه يسمع بكاء الأطفال. بكاء ذلك الطفل.

لأدفع بصورته وهو طفل آخر ونفس الطفل يُضحك كل من حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال...وهو طفلة متقطعة الأنفاس تقفز بالحبل...وهو مسافر في الرابعة من العمر أنفه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرا أشجار نخيل خضّبت هاماتها حمرة الشفق...وهو الأب العطوف ، الأم الحنون ، الصديق الوفي، الحبيب المحبّ، المصحّح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كبوة، المترفق بأضعف الكائنات، المشيّد معابدا للخير والحق والجمال.

طيب، شكرا على محاولة رفع معنوياته ومعنوياتي لكنّنا لم نربح بعد القضية.

اسمع يا هذا . لو قدّر لك الاختيار، أكننت أرضى بغير المصاعب مادة وهي التي تصنع وحدها الملاحم وعكسها لا يصنع إلا أخبار الصالونات؟...ما الذي كنت ستشعر به لو كان الطريق سهلا والسهل هو الطريق؟... بالطبع أن العالم يستصغرك، إذن لماذا الاحجام وهو سيعطيك ما يلزم للمواجهة وللنصر؟

ما زالت فيه بقايا رهبة؟ لألعب ورقتي الأخيرة وبعدها لا مناص من الاعتراف بالهزيمة.

يهمس النص في "أذنه": تأمّل الشكل الذي سترتحل فيه...خاصة أصابع اليدين. صمّمت بدقّة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهمّ قدرتها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمعّن في ما ستخلق من الأصوات.

تداهم الفكر المعن في الصمت أنغام تتصاعد لؤلؤا منضدا من بيانو شوبرت. تتمازج أصوات العزف مع أصوات البشر لتتعالى إلى عنان السماء أناشيد كتبها "باخ" وموزارت. ثم تلحقها "قوالي" فاتح خان لتنتهي الوليمة آذانا بصوت فيروز.

أصبت المرمى. ينتبه "الشيء" أنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه . يسرّ لنفسه وهو لا زال تحت وقع سحر الأنغام: ثمّة في هذا العالم ما يستحق أن ...

يتبلور في فكر مبهم قرار لا رجعة فيه: يسجّل متعهّد شؤون العتمة، أنّه قبل بالمغامرة الجديدة، أنّه سيركب الشكل الآدمي لا لشيء إلا لأن فيه قدرة خلق الموسيقى.

لم يبق على بطل الأبطال إلا أن يفسخ من ذاكرته كل تجاربه تاركا في أعمق أعماق اللاوعي عمدا، بعض الإشارات المبهمة لتذكّره من حين لآخر أنه غير ما سيلبس من أقنعة وما سيمثّل من أدوار.

تعود الطمأنينة لتفاحة وكم من حبلى قلقة تشعر من جديد بحركة في أحشائها تكاد تقسم أن فيها إيقاعا لجنين يرقص.

*

القارئ المجهول مفتعلا التهكّم : ربما جاء بطلك ليذهب إلى الكازينو، أو للعربدة في العلب الليلة، أو كما قال فان جوج: أنا على هذه الأرض للرسم ولا لشيء آخر. يا هذا، لا بدّ أن يكون السبب مقبولا ممّن يحبون الموسيقى وممّن يكرهونها، ممّن يرسمون ومن لا يفقهون في اللوحات شيئا، ممّن قضوا عمرهم في جمع طوابع البريد أو البحث عن إصلاح الدنيا. لا بدّ أن يكون هدف الخروج مقبولا حتى من المقتنعين بأنه لا وجود لأي هدف.

فعلا. يجب تفحّص السؤال وتقليبه كما يتفحّص المرء ويقلّب ثعبانا.

يتضح أنّه لم يكن يوما متقدّما على الأجوبة التي أعطيت له- ومنها أننا جئنا لاكتشاف الموسيقى- بل أنه وُضع بعد أن تقرّرت الإجابة عنه مسبقا؟

تصرخ غير معقول. نعم، لكن داخل تصوراتك لا داخل تصوراتي .

انظر الطرفين المعنيين بالإجابة.

ثمة المجموعة التي تصارع من أجل البقاء سميتها عصابة أو قبيلة أو شعبا أو أمة. السؤال السابق للسؤال عندها هو كيف تدفع أفرادها الشرسين المشبعين أنانية وهمجية لاتخاذ التصرفات التي تحمي وجودها ووجودهم. الردّ؟ بأن يُزرع في الأدمغة البكر أن قيمة الفرد وقيمة حياته في خدمة هذه المجموعة. بعدها يرمى السؤال بخبث في فضاء الرموز والخيال لكي ينتهي بقرارات "حرّة" تصنع الأبطال والمصلحين والمواطنين الطيبين وكلهم على أتمّ الاقتناع أن هدف وجودهم أن يكونوا نافعين للمجموعة ولو تطلب الأمر التضحية بحياتهم من أجل حياتها.

ثانيا ،الأفراد المكونين لهذه المجموعة.

السؤال السابق للسؤال عندهم كيف نستطيع تحمّل آلام صراع البقاء ومن أين نستمدّ القوة لمواصلة الطريق؟ الردّ بأن يبلور كل من يؤرقه الهاجس ايمانا بهدف ما يجعله يقبل بكل ما يعاني بل ويجد في معاناته لذّة. معرفته الهدف، أو توهّم معرفته ،المهمّ اقتناعه به ، توفّر لهم آليا الراحة النفسية الفكرية بما أن الاقتناع بالردّ- أيا كان- يزيح مصدر قلق مزمن إن بقي بلا حلّ.

توضيح ضروري عن علاقة الهدف والمعنى.

لا أحد يؤرّقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح : غسل أسنانا حتى لا تصاب بالتسوس . هنا يفرض الهدف المعنى ويستمد المعنى من الهدف معناه. الخيط الرفيع الرابط بين المفهومين : نفع الشيء ....للآدمي . لكن هل بوسعنا ربط معنى الحياة بشيء مثل المنفعة .

إن قلت أن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟ نفعه لإله ما؟ ما نفع الإله؟ حتى الموسيقى... في آخر المطاف، ما نفعها ؟

ثمة خطأ في سحب طريقة تفكير تخصّ مستوى معيّن على مستوى آخر لا يستقيم فيه الطرح . بطل الأبطال أكبر من أن يأتي ليكون نافعا لشيء أو أحد .هو فوق هذا وذاك.

يجب أن يكون دافعه إذن مشتقّا من فعل أشمل وأوسع وأبعد أفقا من اي فعل ولو كان نفع أو استنفع.

يجب أن يكون هذا الفعل جذر كل الأفعال التي اشتقت منها كل الأهداف التي حددناها لرحلتنا على مرّ العصور.

لا بدّ لهذا الفعل-الجذر أن يكون متقدما على كل الأفعال المذكورة، أن يكون متحكما فيها، محددا لها، مانعا ظهورها في حال غيابه، منهيا فعلها بانتهائه هو.

طبعا فعل الأفعال الذي انطلق البحث عنه صبيحة إحدى أثرى سهرات الجدّ واللعب مع تفاحة وتفيحة.

لا وجود لفعل كهذا إلا للذي يُوجد الوجود بكل ما فيه من أفعال وتفاعلات.

فعل وُجد؟ لكنه يصف الانبثاق مبقيا وراء الستار من أوجد هذا الذي وُجد فجأة.

ماذا كتبت؟ أوجد؟

طبعا إنه الفعل الجذر الذي يجري وراءه النص منذ عقود.

أوجد !

أوجد ماذا ؟ عالما بالطبع... عالما آخر... عالما جديدا...العالم الآدمي.

*

القارئ المجهول(مستهزئا): تظنّ أنك تخلصت من الصعوبة والحال أنك ترتطم بها من جديد بل ولم تزد الطين إلا بلّة....إذا جاء بطل الأبطال لإيجاد العالم الآدمي كشكل - حالة للوجود، فلأي غاية ؟ ما نفع الوجود يا فهيم ؟

دوري للاستهزاء. الوجود هو الذي يوجد النافع وغير النافع، الصالح والطالح، المفهوم وغير المفهوم، المنطقي والعبثي، التصور وعكسه، الموقف ونقيضه والفرع لا يقيّم الأصل وإنما الأصل هو الذي يحدّد له مكانا داخل شبكة الأفعال والتفاعلات التي يخلقها.

مما يعني أن بطل الأبطال بلور العالم الذي تبلور فيه لا ليكون نافعا لشيء أو لأحد وإنما ليكون. فقط. ومن هذه الكينونة تفرّعت كل الحالات وكل الأوضاع وكل المفاهيم وكلّ الأسئلة ومنها اسئلة المراهقين والفلاسفة حول سبب الوجود.

قصة القصص لا تحدّد لبطلها هدفا وإنما هو الذي يخلق له كل الأهداف التي يريد. مما يعني على مستوانا أننا لم نأت لمهمة واحدة ،ولو كانت تحسين الآدمية، ولم نأت لتجربة حالة واحدة والثبات عليها ،ولو كانت السعادة، ولم نأت لنكتشف حقيقة أصلية، ولو كانت اللغز المفترض للعالم، وإنما لتجربة الوجود..على امتداد طيف إمكانياته... بروائعه...بفظاعاته...بنجاحاته ...بإخفاقاته...بقناعاته وبحيرته.

تقول وقد بدأ التصوّر يستهويك: هل لك حجج؟ تذكّر. ألا نصاب بخيبة الأمل عندما نصل الذي ركضنا وراءه ونحن نكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمّنا؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، منطلق طريق جديد. هذا ما كان يعنيه «با» يوم قال لي اقتحم أنت الدنيا لمتعة النصر، أمّا أنا فتكفيني منها متعة الصراع.

في الرؤى غير المتقنة لنا دماغ وجسد لترويض العالم ومعرفة ما هدف الحياة.. ماذا لو كانت "الحقيقة" أنه ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه وليس للدماغ من مشروع غير اكتشاف إمكانياته؟.. ماذا لو كانت كل الأهداف التي تضعها الذات حوافز لكي لا تستقرّ على حال...لكي لا تتوقف عن استكشاف العالم ؟... أهدافنا في الظاهر غايات وهي وسائل لا غير ...وسائل لتعتصر من ذاتنا كل طاقات الفكر وكل أحاسيس ومشاعر الطيف.

يحضرني الآن أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثا عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أوهموني وأوهمت نفسي زمنا طويلا، إنما للكتابة نفسها لا غير.

كم هدفا، يتضح لاحقا أنه كان طُعما وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيف الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءه. كم صدق من قال : عندما تحقق هدفك اعلم أيضا أنك ضيّعت كل الباقي.

كم من أهداف جرينا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

في هذا التصوّر لم يعد محكوم علينا أن نقيّم حياتنا بدرجة نفعها لقضية ولو كانت قضية الذات، أنه لم يعد محكوما علينا اختلاق أهداف نتخاصم حولها ونركض ورائها متكلفين في تحقيها أبهض ثمن. أخيرا يمكنني أن أجري وراء أي هدف وأنا أعرف أنه مجرّد تعلّة لتشغيل جسدي وفكري... أو أن أخرج من الطريق لأجلس على قارعته مسندا ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصت من رواسب ترويض ماكر وبروبغندا خبيثة وعقدة ذنب مغروسة بدهاء منذ نشأتي لأكون لهم خادما لا يطلب جزاء أو شكورا.

أخيرا يمكنني أن أتنفس الصعداء ونفسي لا تطالب نفسي بشيء. أخيرا الحرية... أخيرا السفر.

كالـموجة **(لاو تسو).**

على سطح المحيط

كالـريح

بلا وجـهة.

* * * * *

لبنة الموت والبعث

«الشيء» إذن لم يتبلور فينا إلا ليخلق ويجرّب عالما جديدا: العالم الآدمي.

هو يستكشف منذ البداية وسيواصل إلى النهاية استكشاف كل ما يمكن أن توفرّه الآدمية كحالة من حالاته، كتجربة من تجاربه، شأنه شأن موسيقار موهوب يريد أن يستخرج كل الممكن من الموسيقى من أداة ذات خصائص معينة اسمها البيانو . هو لا غير الذي يلبس كل الأجساد على مرّ العصور، الذي يكتب كل المسرحيات ، الذي يمثل كل الأدوار مستخرجا منها أفظع النشاز وأروع النغم.

المشكلة أنه لا يستطيع التواصل والتجدّد إلا عبر تجربة بالغة الازعاج اسمها الموت.

تأتي اللحظة التي يكتشف فيها المسافر الذي نسي عمدا من هو ، أن الموت ليس إشاعة وإنما حقيقة ، إنه ليس خيارا وإنما ضرورة ،أن الرحلة على وشك الانتهاء ، أن الساعة دقّت لحزم الأمتعة والتأهب للمغادرة. لكن إلى أين؟

يتوجّه الملك «بيرانجي» بابتهاله للأموات: «من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علّموني، أعينوني»

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر : «لا تتمسّك بأظافرك بهذه الحياة إنها منفى وأنت الآن عائد للوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكّر أنك ستتخلّص من هموم الدنيا».

هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! ما أحلى تذليلها، الإخفاق! السوط الذي جلدني به العالم لأتسلّق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغبيّة ؟ عليّ أن أن أسلّم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كثبان الرمل!

كيف نقنع هذا الغبيّ بالرحيل دون ندم وخوف ؟

لنسأله ماذا لو كنت ترتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الرموز ووضعناها في فضاء الخيال فترعرعت فيهما لتعود إلينا بمخالب وأنياب؟ اعتبر أنه من الممكن أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل- عبّيثة الكبار- يصوّره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا.

القارئ المجهول: من تريد اقناعه؟ الغبيّ أم أنت الغبي الأخر؟ أنا ، أنت ، هو ، نحن. كلنا معنيون بالأمر ولكل واحد منا طريقته في مواجهة الامتحان الأخير...التجربة الأخيرة التي بدونها لا معنى ولا طعم لما نسميه الوجود.

تتصاعد يوما أفكار وصور من الأعماق المجهولة التي تُطبخ فيها بصمت تصوراتي، وكان موضوع الموت آخر اهتماماتي آنذاك. ثم تلاها أمر حازم: حبّر على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة.

تدافعت الأوصاف. : **غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجدّدة م.ح.د.و.د.ة.**

خاصية الحياة إذن أن تكون محدودة !

لحسن الحظ. لم يهاجمني التبلّد يوما إلاّ وسارعت لاستحضار فكرة الموت، فيعود لكل قضية حجمها وتتجدد من الأعماق الطاقة المجهولة التي تجعلني أتوقّد حيوية.

الموت إذن ليس حالة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة. كيف يكون جزء من طبائع الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

السؤال المزعج ماذا سنفعل بكره الذات لخاصيّة محدوديتها هذه وهو كره الأحدب لحدبته؟

هذا الرفض القوي الغريزي المتأصل في أعمق أعماقنا هو الذي خلق لنا الرؤى التي صنعت من قلقامش بطلا وهو أغبى الأغبياء. كيف لا يكون كذلك وهو يريد الحياة دون أهم خصائصها بل قل دون أهمّ شروط وجودها؟

المشكلة أنني كمهندس معماري مطالب، إن أردت أن يكتب لي بعض النجاح، اعتبار ذوق الذين يريدون الحياة لا محدودة ومنهم كل من يكذبون على الآخرين وعلى انفسهم بادعاء القبول بالأمر المحتوم.

ولأنه لا بدّ من الأمر **(إيسا)**

فلنتمرّن على الموت

في ظلّ الزهـــور

نعم، من أين للرؤيا تجاهل حاجة بمثل هذا العمق وإن تبدو لا منطقية ومستحيلة التلبية، هي التي تريد تلبية كل الحاجيات؟

ثمة طريقة ملتوية بل ولا تخلو من قدر من الخبث: جعل زبائني يخشون الخلود أكثر من خشيتهم الموت ؟

*

في قصة تفتح على أخصب الأفكار، ينجح الآدميون بفضل العلم والتكنولوجيا في تخليص الحياة من خاصيتها المزعجة هذه. أين سيعيش الخالدون الجدد؟ التكنولوجيا القادرة على

علاج الحياة وتخليصها من مرض الموت قادرة على خلق جنّة اصطناعية ،محمية تتحصن منذ قرون وراء أسوار شاهقة ومخصصة لنفس الأقلية التي عبرت التاريخ محمولة على أكتاف العبيد تأكل من لحم رقابهم وتقضي حاجاتها الطبيعية على ظهورهم. عقدة فيلم زاردوز أن تكون بخدماتها الراقية ، بخلودها وشبابها الأزلي ، محرّمة على الأغلبية التي تموت جوعا ومرضا قهرا على مرمى حجر من أسوارها. حقد ولا كأي حقد.

الجنة داخل الأسوار، جهنم خارجها.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز بالصدفة– أو هكذا خيّل له– منفذا للقلعة فيدخلها هو ومحاربيه شبه مقتنع أن ساعة الثأر قد حانت.

يواجه بجوّ غير الذي يتوقّع. ثمة شيء غير طبيعي حوله. أين قوى الدفاع هو الذي كان يظنها أم المعارك؟

المشهد الأول

الصياد الهمجي في أوج الحيرة يرى عجوزا يتقدم نحوه باسما ممدود اليدين. عجوز! كيف؟ الا تؤكّد الأسطورة المقدسة لبني قومه أن...

يبادره بصوت لا يخفي حيرته:

– الأسطورة التي تقول أنكم لا تشيخون إذن كاذبة !

– ليست كاذبة . لكنني في غرف الخالدين مذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه البطل رنة الحزن في كلام الشيخ. يتراجع حقده تاركا مكانا لفضول جارف. يجب أن يحثّ هذا الكائن المقزّز على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعة استعصت على الأجداد. لا حاجة لتهديد فالعجوز لا يريد إلا هذا.

قال الشيخ: اسمع منّي القصة أيها المنقذ. متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري. هنا لا أحد يعبأ بالزمان. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الآدمية وأن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعددنا لها العدّة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا تراث الفكر وفررنا به. انعزلنا في هذا المكان. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما خلناها المدينة الفاضلة... الجنة، كما كان الأوائل يتخيلونها... العالم الذي تعرف نظُف من الموت ومن المنغصات الأخرى... العالم المثالي الذي كنا نودّه فضاء للرحلة.

يواصل الشيخ عرض أطوار القضية

– أمكن هذا بفضل الزمردة السوداء التي وضعنا فيها كل طاقاتنا الذهنية والتي استقلت فيما بعد لتضيف للعلم علوما. وضعنا فيها من البداية التعليمات بأن كل من يخرج عليها أو يهددها، يعاقب بالشيخوخة الأبدية ليعيش المذنب إلى الأبد بكل موبقات الكبر لا أمل له في راحة الموت. الزمرّدة هي دعامة هذه الجنة وضمان وجودنا. هي حارسة خلودها

وخلودنا. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها ومنه تسيّر كل شيء وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أفظع موتة.

غريب ! اللسان يأمر بشيء وما وراء اللسان يحثّ على العكس.

الصياد الهمجي محادثا نفسه:

الزمردة مقتلهم إذن! لحظة أدمرها سيتهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ وسيكون أعظم نصر. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! أعينيني يا ربّة القبيلة.

كأن المعنية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه– هكذا دائما بمجرد الصدفة– فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بالدمقس والمجوهرات. تتوجه له الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تصلي وتبتهل:

– من هنا أيها المنقذ.

المنقذ؟ لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا رنّة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوت الساحر: تعال أيها المنقذ الذي فرغ الصبر من طول انتظاره كل هذه القرون. اتبعني، أنا دليلك في هذه الدهاليز. الطريق للوصول للحرم من هنا. استعدّ .ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنجح.

تنطلق الفتاة تقود البطل في الدهاليز الغريبة وورائها من بعيد ذكور وإناث يرفلون في الحلي والحلل لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّسا قلقا. من أول خطوة أحسّ بألم لا يطاق ينهش لحمه وقوى الدفاع المجهولة تنصب له الفخ بعد الفخ. ضاع هو والدليل الجميل أكثر من مرّة. ثم ّوجدا الطريق وضاعا من جديد وفي كل مرّة تزداد حدّة آلام فظيعة لم يجربها من قبل. كانت تضمّه كل مرة إلى صدرها تغطيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك، ستصل وأصبح لك زوجة. عند اجتياز عقبات لا تدركها كانت تضحك كأنها تتشفّي من عدوّ ستنتقم منه ألذّ انتقام.

من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوا يواجه من خلف ألف ستار بأسلحة لا يتصوّرها عقل.

– من نحارب؟

– قوى الدفاع التي تجندها الزمردة لكي لا يقترب منها أحد.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفرج أساريرها: من هنا.

حتى في الجنة مؤامرات ومتآمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلّونها حين تختلط عليها الطرق، وما دوره في كل هذا؟

قالت له بعد أن قطعا شوطا طويلا: ابتداء من هذا الحاجز لن أنفعك في شيء. هنا حرم الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا لا يدخلونه. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها الآن. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتنا.

ها هي الزمرّدة أخيرا في قبضته. علم الكون وقدرة الخالدين في راحة يده! رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته! لحظة تردّد. ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل الزمردة لمصلحته ولمصلحة قومه؟ كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء المخنثين.

يطبق براحته على الزمردة فتنطفئ كل الأنوار. تتهاوى الأسوار ليقتحم الزمان المحمية كما يقتحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ

المشهد الرئيسي

يسمع الصياد الهمجي صراخا غريبا يتعالى من كل الأرجاء: صراخ اللذة أم صراخ الرعب والألم؟ يهرول نحو مصدر الضجيج. آه إنهم رجاله تدفقوا للقتل والنهب والسبي.

غريب!. إنه لا يعرف أزياءهم وجلّ أسلحتهم وإن تعرّف على السيوف. كم عقودا مرّت عليه وهو في هذا المكان؟

يشدّه منظر الخالدين وهم... يركضون باتجاه الغزاة.

الخيل تفرّ منهم فيجرون وراءها، يتدافعون تحت سنابكها وهم يتضرعون إلى الفرسان: أنا، من فضلك!... الذكور يتدافعون للرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون لاختطاف هدايا العيد... الغواني يمزقن القميص ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلاّل الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه يوما. إنه تعجّب من يرى غزالا يركض صوب الأسد...إنها دهشة من يرى قمران وشمسا مربعة تشرق من الغرب.

يتقدّم الشيخ للهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حيّة شاهدها آدمي.

– بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

– ستتكلم قبل ذلك. من أنت ؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟

– هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية. اسمع مني أغرب قصص الآدمية المجنونة. حقّقنا في هذا المكان كل ما حلمت به منذ بداية التاريخ. حكمنا بالموت على الموت. كانت الجنة حقا مكانا ممتعا في البداية. عرفنا كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شبعنا جنسا وعلما وصلاة وموسيقى. لم تدم سعادتنا طويلا. جاءت التخمة فالغثيان بأسرع ما توقع أكثرنا ذكاء وتشاؤما. لما ألغينا الألم ، لم يعد للذة معنى ولم يبق للجمال قيمة بما أننا قضينا على

القبح. اختفت الحكمة بما أننا صفينا الغباء. أصبح الخير كلمة غثة وقد انقرض الشر. لم تعد بنا حاجة للشعر والموسيقى ونحن نعد نعرف لوعة الأسى. ما الذي سنسعى لمعرفته وقد عرفنا كل شيء ثم بماذا سنملأ فراغ الزمان الواقف الممتد أمامنا إلى ما لا نهاية وقد استهلكنا كل ما في العالم من متعة ومتاع... وقد جعلنا من النهر بركة آسنة لم تلبث أن تصاعدت منها الروائح.

يواصل الشيخ الرواية: كنّا كالأطفال الذين يحلمون بأكبر مصّاصة ممكنة. لما صنعنا المصاصة اكتشفنا أنها مسمومة. كنا نعتقد أننا أحكم البشر ونحن أغبى المجانين. كنت أول من قال يجب إنهاء هذه الموبقة. كذّبوا آذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا أدرس أكثر، اسمع الموسيقى أكثر، مارس الجنس أكثر وتعبّد أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفاقم إلى درجة لا تطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بلادة حسّ متزايدة العمق وأنا لا أكفّ عن الصراخ في آذانهم : ألم تفهموا أننا نعيش أفظع عقاب لرفضنا أول قوانين العالم السويّ.

حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنت أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الألم المؤبد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا يطاق. شيئا فشيئا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زنزانة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت.

كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

بصفتي أول متحرّر عهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الذي وجدته اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة وبالضرورة من خارج المحمية.

كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، لا من أجل ما توفرّون. ولكن كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذاك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلت يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة وذكاء وحقدا وتصميما على تدميرنا ثم ندخله القلعة وندلّه على مكمن الداء. كنت يا زاردوز آخر حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. كم تطلبت من جهد حتى تكون جاهزا. ها قد نجحت حيث أخفق قبلك كم من مغامر صنديد. بوركت، بوركت أيها المنقذ.

تعديل النص لنفس الرواية

وبصفتي أول متحرّر، عهد إليّ بالبحث عن حلّ. ما العمل وأنا أكتشف في آخر رحلة تفقدية أن الآدمية انتحرت على أسوار الجنة وانقرضت كليا. لم يبق غير البحث عن حلّ

داخلنا. لم يكن الأمر سهلا والأغلبية تعيش في حالة ذهول دائم. ذات يوم واجهته هو الرجل الذي أعاد لي الأمل. كان، لسبب ما، غير واقع تحت تأثير التخدير العام وكان يتكلم بصفة غير معهودة. يوم اكتشفت أنه يخطط للفرار للعودة إلى حيث الزمان، قلت لا بدّ أن أعينه، لكن يجب إقحام تلك المرأة المسماة حواء في العملية حتى تلد آدمية جديدة تعطينا ولو بعد آلاف من الأجيال العاقرة المنقذ الذي ننتظر... أنت.

مواصلة الرواية الأصلية

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاد صبر دام كم من أبدية :

– والآن هلمّ، خلّصني من كابوس هذا الخلود اللعين. هنا الطعنة التي ترجيتها كل هذه الأحقاب. تمهّل لأشعر ببرودة النصل وهو يغوص بين ضلوعي. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيرا حرا طليقا من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنا لزجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطعة الشيخ برقّة ويدها على ذراع المنقذ: أنا التي قدته داخل الهيكل .نصله لي قبل كل واحد منكم .

يتردّد المنقذ ثم يأخذ قراره. يغرس خنجره في صدر الشيخ بلطف فائق وهو ينظر إليه مبتسما فيلفظ المتمرّد الأول أنفاسه وكأنه في ذروة الجماع. يلتفت للفتاة ليعلمها أنه يفضل تزوجها على قتلها. تتردّد الغادة في قبول مواصلة البقاء. ثم تنتبه أن الزمان الحبيس سيعود للتدفق وأنها ستعرف يوما نهاية الحياة بعد تجربة عودة تتابع الحلو والمرّ إلى آخر العمر. تأخذ بيد حبيبها وتخرج للحياة لتعاني وتتمتع بكل ما عاني منه الآدمي وتمتع... لتنجب الذرية الصالحة والطالحة... لتعيش إلى العمر الذي يصبغ الشعر ببياض المهابة والجلال... لتعرف اللحظة المهابة المهيبة وهي ترحل كما رحل الآدميون يتقاسمهم فرح الراحة الموعودة ورهبة القفز في المجهول.

ولأنه لا بدّ لكل قصة من عظة فعظة هذه القصة أنه إذا اعترضك بائع لبق يريد بيعك الخلود في الجنّة بآخر درهم لك.، فكّر مليّا. مؤكّد أن هناك استثمار أحسن لدرهمك الأخير.

*

القارئ المجهول: هذا ما عندك؟ نفس الأسطورة التي تسوّقها منذ عقود وفي أكثر من نصّ. أين التجديد الذي وعدتني به؟

حقا ثمة مشكلة فيها. هي لا تتوجّه إلا للجزء من الذات الراغب في الخلود. لكن ثمة جزء آخر لا يرغب إلا في راحة العدم. ألم تجعل واحدة من كبرى الثقافات الآدمية هدف الرحلة تجميع أكبر عدد من نقط الأعمال الصالحة للتحلّل في المبهم الأصلي؟
ثمة للاعتبار إذن حاجتان لا واحدة ...وهما على طرفي النقيض.

كيف أوفرّ للآدمي الخلود والفناء في نفس الوقت؟ حقا أفرط علينا الزبون بالدلال. لكن أليس هذا هو التحدّي ؟

عودة لتصميم البناية.
لنخصّص فيها جناحا الانطفاء النهائي .على بابه نضع لافتة تطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدّد المحنة الكبرى. «لا استدعاء للخدمة من جديد». تعطى للحارس التعليمات بتفحص سطحي ل»دهارما» كل الموتى وتمتيعهم بالمعدّل وإنجاحهم بعلامة متوسّط، مما سيمكّن ذاتنا من الراحة الأبدية التي تصبو إليها وتستأهلها.

كيف سنحقّق الآن الحاجة الثانية؟

مما يروى عن رابعة العدوية أن الناس رأوها تركض حاملة سطل ماء بيد وبالأخرى شعلة نار فسألوها إلى أين أيها السيدة، قالت إلى جهنم أطفئها بمائي والجنة أحرقها بناري فلا تعبدون الحق خوفا من نار أو طمعا في جنة.

كم أودّ أن أكون حاضرا و المضاربون في أسهم الدنيا والآخرة يفاجَئون بالخبر العاجل يتصدر كل الصحف وتصرخ به أبواق المدن الكبرى وشاشات تلفزيونات العالم: "بلغنا من مراسلنا في الآخرة أن الحقّ ضاق ذرعا بكل الذين يتسولونه ولا يأتون عملا صالحا إلا خوفا من جهنمه وطمعا في جنّته ، فأمر بتنفيذ فكرة الجليلة ، ففاضت أنهار الجنة على جهّنم التي ردّت عليها بالمثل ملتهمة ما فيها من أخضر ومن يابس فلم يبق من هذه ومن تلك إلا بعض الدخان وشيء من الوحل.

بوركت يا رابعة ، يؤمنون بأنه الرحمان ثم يجعلونه منتقما وإلى الأبد فاتهم إنه إن كان هناك ألف سبب نبرّر به عقابا فإنه لا يوجد سبب واحد يبرّر أن يكون أزليا خاصة وأن هذا التصوّر يلغي للحقّ أروع خصائصه : الرحمة والغفران.

لننطلق من خليط البخار والوحل الذي تركته لنا السيدة الجليلة.

على الركام لافتة: «نأسف، لم تبق هنا لا جنة ولا نار، الأعمال جارية حاليا لبناء مكان آخر تعبدون فيه الحق كما يجب أن يعبد.

من باب توارد الخواطر ما السبب الذي حدا بالله لتدبير فرار آدم وحواء من الجنة في الرواية الأخرى لقصة القصص؟ لنقل أنه أراد لهما الفعل على اللافعل ...أنه أراد لهما خلق عالمهما الخاص ولو كان ناقصا بدل التعيّش على عالم مفروض ولو كان كاملا... أنه أراد لهما الخروج من وجود بلا أفق إلى وجود يواصل الخلق ولو بثمن الألم والموت... أي أنه أهداهما -عدا الثقة - أجمل هدية يمكن لخالق أن يهديها لمخلوق: الحرية والمسؤولية.

طيب أغلقت الجنة ، أين سنحقق حاجة الخلود ، خاصة كيف ،حتى لا نسقط في الفخّ الذي سقط فيه خالدو زاردوز؟

للتذكير بالمواد- المعطيات- التي تصنع بها الرؤيا بنايتنا الرمزية الخيالية, قلنا أن هذه الرؤيا تعتبر أن أنا السطح في صورة الشجرة الورقة التي تذبل وتنفصل ، لكن للذات أبعاد أخرى هي الغصن الحامل للورقة، والجذع الحامل للغصن والجذور التي ينبثق

منهـا الجـذع. قلنـا أيضـا أن الورقـة وعـاء أهمّ مـا تحتويـه العصـارة، وهـي واحـدة في الجـذور والجـذع، في الأغصـان وفي الأوراق.. نفـس السـيل المتدفـق الـذي لا ينتهـي بسـقوط هـذه الورقـة أو تلـك، بقطـع هـذا الغصـن أو ذاك.

هذا ما يسمح للرؤيا بالتوفيق بين ما لا يبدو قابلا للتوفيق.

من جهة لا ثبات لنفس الورقة على الغصن، وهذا يمكّن من احترام محدودية الحياة.

مـن جهـة أخـرى ثمـة تواصلهـا لا في غلافهـا – الـذي تتخلـص منـه تخلّـص الجلـد مـن قشـرته السـطحية– وإنمـا في أهـم شـيء الـذي هـو العصـارة الـتي سـتتنقل لتغـذي أوراقـا جديـدة أكثـر نظـارة وجمـالا.

القـارئ المجهـول (متهكّمـا): خلـودك مغشـوش بمـا أنـه محـدود بزمـن العصـارة أي بحيـاة الشـجرة !

لا تكـن ثقيـل الظـلّ، إنهـا فـترة مـن الزمـان تجعـل حتـى الزمـان يصيـح كفـى طلعـت روحـي أريـد التقاعـد أنـا أيضـا.

تضيـف لكـن كل ورقـة فريـدة متميـزة وهـذا التفـرّد وهـذا التميّـز الـذي يضيـع بالمـوت هـو الـذي نريـد الحفـاظ عليـه.

أردّ أليـس التجديـد والتغيير أولى خصائـص العـالم الـذي نحـبّ ؟ مـا الـذي كنـت سـنجني منـه لـو حافـظ علـى نفس الأشـكال، نفـس الحـالات، نفـس الأجسـاد ؟

أنظـر كيـف حقّقـت دون التعسـف علـى منطـق ، كل مـا تريـده الـذات : القيلولـة الأبديـة للجـزء المرهـق– الورقـة الـتي تسـقط– وقـد جفّـت فيهـا العصـارة ... التجـدّد والتواصـل لـلأوراق الـتي تغذيهـا نفس العصـارة

مـاذا تزمجـر ؟ أن أخشـى مـا يخشـاه السـاعون لجمـع أكـبر عـدد مـن نقـط «دهارمـا» هـو تواصـل الحيـاة وأنـت تفـرض تواصلهـا علـى المسـاكين.

مهـلا يـا صاحـبي. هـم أيضـا، بحاجـة لمراجعـة نوعيـة البنـاء الـذي رضـوا بـه ملجـأ لأرواحهـم وعليهـم تحمـل مسـؤولياتهم وأولهـا خطيئـة محاولـة الفـرار مـن هـذا العـالم دون الاهتمـام بـكل العالقـين علـى سـطحه وكأن الصرخـة لينجـو كل واحـد ب»دهارمـاه «.

علـى كل حـال، «الجـزء» العائـد للوجـود في الرؤيـا لا يتجسّـد للتكـرار وإنمـا للتجديـد وتجـدّده لا علاقـة لـه بنقـط الأعمـال الحسـنة والسـيئة الـتي جمعـت في عقوبـة الحيـاة السـابقة وإنمـا فرصـة أخـرى تمنـح مجانـا لتجربـة تنطلـق مـن الصفـر ولهـا كل إمكانيـات أي تجربـة أخـرى.

تواصـل محاولـة حشـري في الزاويـة فتصـرخ في: أنـا الـذي أخشـى مـن المـوت مـرة واحـدة سـأموت مـا لا يحصـى مـن المـرّات في رؤيـاك.

نعـم لكـن بالمقابـل يـا سـيد المحظوظـين، الرؤيـا لا تخرجـك مـن النافـذة إلا لتدخلـك مـن كللّللـل الأبـواب لكللّللـل الممكـن مـن الفـرص.

أليس رائعا أن طاولة القمار ترجع لنا خسائرنا وتسمح بمعاودة اللعب ولا حدّ للمرات أو للمبالغ التي نستطيع الرهان عليها؟ أليس منعشا للأمل أن يعيد لك الزمان كل مرة عقارب الساعة إلى الصفر الأول؟

لم يبق لك إلا أن تتغنّى معي :

«أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزبد وإن لم يزبد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي

أو مخرجي منه ولا بمبدّدي»

* * * * *

آخر اللمسات

كل شيء تمام. من اين للزبون أن يجد في السوق قصة أجمل من هذه القصة؟

بجدّ أليست الرؤيا بناية يستأهل أن يسكنها أصحاب الذوق الرفيع والمنطق السليم. أتتركها لتسكن البيوت التي تزيد من أوجاع المفاصل وتصيبك بأمراض لا تحصى سنذكر منها فقط ربو ما سميته يوما الروح .

ماذا تزمجر؟ أنني خدعتك منذ البداية وأنا أتكلّف الانتباه لحاجياتك والحال أنني لا أستمع إلا لهواجسي. يا مسكين، هذا موضوع انتهينا منه، والرؤيا تنطلق من كونك أنا وأنا أنت، ومن ثمّ هواجسي هواجسك وحاجاتك حاجاتي. تستدرك، نصف مقتنع بما تقول إنما لمجرّد التأكّد مما أنت واثق منه، أنني لعبت معك منذ البداية دور الباحث الذي افتعل كل معاناة البحث وهو يعرف النتيجة التي يريد الوصول لها. خطأ. تدافعت الأفكار في فوضى موجعة واستقامت بالكتابة وكانت دهشتي من تشكلها لا تقلّ عن دهشتك وأنت تطالعها.

اللّعنة ، نسيت الأهمّ. الباب الخلفي للبيت... الباب الذي يفتح على فضاء الأسرار.

تصرخ فيّ من أين طلعت علينا بهذا الفضاء الجديد والنص على وشك الانتهاء. آسف، لست مخوّلا من قبل السلطات العليا للإجابة عن هذا السؤال ولن أخضع لتهديد أو إلحاح. ثم كيف تريد مني ردّا والأمر يتعلّق بفضاء، بالضرورة محفوف بالغموض. أليس هو الذي تتفجّر منه على مرّ الزمان كل مفاجئات الخلق والإبداع تفجّر الماء الزلال من نبع لا ينضب. كيف تريد مني أن أقول ما المفاجئات التي ستخرج منه وهي مفاجئات؟ وهل ستغفر لي كشفها لو كان الأمر بيديّ؟

اعتبر أن فضاء الأسرار هذا هو الاسم الآخر للعتمة التي جعلنا منها الفضاء الذي تغرس فيه كل فضاءات العالم الآدمي وبقية العوالم الأخرى جذورها.

تقول لكنك لم تترك تعليمات التهديم للبناية يوم تتقادم كل لبناتها أو يوم أغيّر ذوقي . أليس كل بناء مؤهلا للسقوط وعلى كل مهندس معماري له الحد الأدنى من المهنية استباق الأحداث وتصور ما يلزم لأرخص تهديم؟

لا ضرورة لمثل هذا الأمر، الزمن ليس بحاجة لتعليمات.

والآن، بعد إذنك، بوسعي غلق ورشة الأشغال نهائيا مرتاح الضمير والبال ودعوتك للاستقرار في البيت الجديد. **بيت جديد ؟ ماذا لو كانت الرؤيا صياغة طريفة في أحسن الأحوال لأحد تصورين مغرقين في القدم وكل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين**

فرقعة الواحد إلى العدد وإرجاع العدد إلى الواحد؟... استحالة التفكير خارج الثنائية أم الورطة مجددا من صنعنا لأن العالم بطبيعته واحد- عدد، عدد- واحد؟

المهمّ أن البيت- وإن كان مفصّلا على ذوقي ومجعولا لتلبية حاجياتي- مفتوح على الرحب والسعة لمن يجدون فيه

راحتهم .أما من لا يستجيب لذوقه ولا يلبي حاجياته فهو حرّ أن يُسكن روحه وفكره أينما شاء. على كل حال

وكما قال أحد الحكماء "هذا أحسن ما قدرنا عليه ومن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب".

ماذا قلت: اطمئن، ثمة أشياء مغرية في بضاعتك حتى ولو أن قرار الشراء ما زال معلّقا. شكرا لكن ما الذي تخفي وراء هذا الكلام المعسول.

تهمس في أذني على استحياء لا مبرّر له : افرض هكذا أنني...أنني أنا أيضا أريد بناء بيتي - علما وأنني أجد بيتك كما قلت رائعا - لكن هكذا لمجرّد المزح.

لا داعي للطلب بكل هذا الاستحياء .خذ هذه القواعد وطوّرها:

لا تكابر حول من يملك الحقيقة ومن لم يملكها... لا أحد يملكها ...هذا على فرض وجودها في مطلقهم الوهمي..

اترك لذّة فرض الرأي لمن يرضى بلعب دور الغبيّ.

احذر من أفكارك قبل الحذر من أفكار الآخرين.

استعمل أذهانهم كمطرقة لتفحص متانة آرائك، التي تصمد لأشرس نقد في ملف القناعات المؤقتة... للمراجعة التي يتضح ضعفها... والفاسدة لسلة المهملات غير مأسوف عليها.

اترك لخيالك العنان ، لا معنى للحدود في فضاء الخيال.

أنصت للهمس الذي لا يتوقف داخلك.

اترك الأفكار تنضج ببالغ البطء والحذر.

لا تعجل عليها وإلا فرّت نحو الأعماق تعابثك وتعاقبك على نفاذ صبرك بالاختفاء طويلا.

لا تتوقّف عن تفحّص تصوراتك.

إن تماشت مع العقل والعاطفة، وإن لم تكذّبها التجربة، اقبلها مرحليا.

إن ناقضتها، اتركها غير مأسوف عليها.

انتبه عند عرض أفكارك... الجزء المضيء فيك يريد تعريضها لأقسى الامتحانات

للتأكد من صلابتها... الجزء المظلم فيك يقدّمها طالبا القبول غير المشروط تحت غطاء تواضع كاذب.

كن عاقلا لا ناقلا، مجددا لا مردّدا، مبدعا، لا معلّقا.

التصورات كائنات حية تزرع في فضاء الرموز، بعضها تنبت فيه كالريحان وبعضها كالشوك.

تساءل: هل بوسع التي أنشر أن تقلّل من معاناة الكائنات.

إن كانت الإجابة بنعم، تعهّدها بالسقي كما لو كانت أندر الأزهار

اجتثها كالشوك بلا تردّد إن كان الردّ بالنفي.

كن دوما تلميذ نفسك النجيب، أستاذها العطوف وممتحنها الصارم.

عد باستمرار لحمية السؤال ، هي لصحّة الفكر أضمن.

ثق في الصدق لا في الحقيقة.

*

يعضّ الزمان ذيله من جديد. يتعالى صوت الأم الأزلية من وراء باب الغرفة ضاحكا نافذ الصبر يصرخ بأوامر لا يعيرها أحدا اهتماما ولا حتى صاحبتها. أهمس في أذن البنت:

– حبيبتي حرّة، انتبهي، ستدلف علينا "ما" معلنة حظر التجوّل. على فكرة، ماذا لو توقفت عن الصراخ، قد توقظي هناء لا تغتري بعمق نومها !

– جدّي! جدّي! جدّي ! هناء شرّيرة تأخذ دائما أقلامي الملونة و...

– نعم، نعم، تأخذ أقلامك وفي السيارة تنظر من نافذتك بدل النظر من نافذتها. بالمناسبة ما رأيك في عدم وضع أصبعك في فمك. أنت الآن طفلة كبيرة.

–جدّي! جدّي! جدّي ! لا أريد أن تموت .أبدا! أبدا !أبدا !

– ماذا قلت ؟ أعيدي

– لا ، لا ، جدّي! جدّي! جدّي ! أريد أن تروي لي أططططول وأجججمل قصة.

– عندي لك قصة أروع من قصة الجازية وشهرزاد . عندي لك قصة القصص ، لكن شريطة التوقف عن الصراخ والقفز على هذا السرير المسكين.

هل جئت لغير هذا بعد أن نضجت تصوراتي عن هذا المبهم الأصلي الذي أسميه "الشيء"... عن مخيلته التي لا يستنفذها وصف والتي أسميها العتمة... عن تبلوره في ما لا يحصى من الأجناس الحية، اللاحيّة، الميتة، اللاميّتة، الواعية، اللاواعية والتي على تخوم الوعي واللاوعي... عن خلقه–استكشافه لعوالم لا تعدّ واضعا بينها حدودا لا تُخترق ليبقى لكل عالم طرافته...عن الأشكال–الحالات التي يتخذها في كل هذه العوالم ، التي نعرفها والتي لا نتخيل حتى امكانية وجودها... عن مغامرته في عالم–كائن، في كائن–عالم اسمه الآدمي...عن وضعه في هذا الكيان الشيء والنقيض لكي

توجد أحداث مادتها النقص ومحركها خلل يبحث دوما عن توازن... عن الشرّ الذي تحمّل داخله ومارس ثمنا للتجارب القصوى التي كان لا بدّ منها لتحرير الحركة من جمود الكمال... عن رحلته فيه عبر مقطع طويل من الزمان يستكشف عبر ما لا يحصى من القصص، كل الطيف من إمكانيات الأحاسيس والمشاعر والأفكار والأفعال... عن تبلوره في قصتي وفي كل القصص ونحن فصول كتابه اللامتناهي... عن اكتشافه الهائل أنه يجرّب في الآدمي عدا متعة الوجود من أجل الوجود إضافات لم يعرفها في أي من عوالمه الأخرى : الضحك والرقص والموسيقى.

تهزني حرّة من كتفي

– جدّي! جدّي! جدّي ! هّيا، عجّل. !

– طيب، خذي في حضنك «إيتي» لتسمع هي أيضا كل التفاصيل . شيء بداخلي يقول لي أنها متلهفة أكثر منك لسماعها. ربما تتجسّس علينا من البداية. على كل حال ليس لدينا ما نخفي. إذن...

على عادة العالم ،يعاد فجأة خلط كل الأوراق.

– جدّي ! جدّي ! جدّي أنا أروي القصة، أنا، أنا.، أنا ! !

– من أين لطفلة صغيرة أن...؟

– لا، لا، أنا، أنا، أنا !

– يا بنت أستحي، عمر كامل وأنا أجمع لك الموادّ وأنت تريدين بأعوامك الثمانية أن...

تعود حرّة للقفز فوق السرير تغنّي صارخة أو تصرخ مغنية: أنا، أنا! أنا أروي كلللللللّ أحداث القصة.

لم لا؟ كل تصوراتنا للعالم قصص يرويها أطفال من كل الأعمار لأطفال من كل الأعمار. ما الذي يدعوني للاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟

– إن أيقظت هناء تتحملين وحدك مسؤولية تدخّلها المتواصل. الكلمة الآن لأميرتي الجميلة. تفضلي .الرجاء عدم الاختصار وأخذ كلللللللّ الوقت .

تسلّط البنت نظرة متوجّسة على أخت مغمضة العينين. ترتسم على ملامحها علامات الرضا وهي ترى رفيقة الخصومات واللعب تواصل التنفّس بهدوء. تضع رأس إيتي على المخدّة بكثير من العناية. تحدّق فيّ مبتسمة ثم تهمس: كان يا ما كان...

* * * * *

المنعطف المهيب

يتصاعد من مكبّر الصوت همس رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حالاً إلى بوابة المغادرة.

ينهض المسافرون من مقاعدهم متوجهين إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه تجهّم ووجوم وحتى قلق لا ينجحون في إخفائه. كلهم يجرّون حقائب مثقلة بالذكريات وربما بأشياء يريدون تهريبها. يصادرها الموظفون بحزم، لا يقبلون رشوة ولا يستثنون أحدا. ابشروا السفر في رحلتي المقبلة سيكون دون عفش، وأول عفش سنتخلى عنه الجسد.

أغرق في مقعدي أتأمّل الطابور الطويل. عبد فارّ من مزارع قطن فرجينيا والحبل في عنقه... جندي روماني مخضّب بدم آخر معركة... حنّبعل يدردش مع سقراط بخصوص أحسن أنواع السموم... صياد إفريقي مردف غزالة تقطر دما على كتفه وسهم «الذي منه كل نقمة» في ظهره...

ماذا لو قمت لأسالهم واحدا واحدا: هل أنت مؤمن يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم ملحد مطمئن لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدّد الأزلي؟

على فكرة، هلاّ أشبعت فضولي، أنت الذي ارتحلت طوال هذا النص في عالمي. هكذا كانت رحلتي فهل وجدت نفسك فيها ؟ هل تعلّمت شيئا من رحلة ذات في المتغيرات وفي الثوابت رحلة كل ذات.

القارئ المجهول (بخبثه المعتاد) : ماذا تعلمت أنت نفسك من رحلتك؟

–كل شيء ولا شيء.

القارئ المجهول (بمزيد من الخبث) : أما أنا فتعلمت منها لا شيء ولا شيء

أما والله إنك لناكر للجميل...ككلّ من فرّخت حواء.

اللعنة! تجربة لا نفع منها للآخرين لأن على كل مسافر أن يخلق عالمه بنفسه...ولا نفع لي منها لأن القاعدة أنك عندما تنضج للحياة تنضج للموت.

يعود الصوت المخملي لترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيص يبدو مقصودا وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء :الرجاء من السيد غريب التقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم الغريب. أواصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة. ما هي إلا لحظات وإذا بالنداء يتجدد بحدّة تنمّ عن توتّر عصبي في بدايته: المطلوب من المدعو غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون أن يزيد في إضاعة وقتنا.

ترى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا زال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو يتسوّق في المغازات المعفاة من الجمارك، أو أن المنبّه لم يرنّ في غرفة النزل، أو أنه رنّ فهشّمه بقبضة يد نافذة الصبر، أو أنه مثلي، لم يكمّل بحثه ولم ينته من تدبيج تقريره. كم من أعذار للمسكين تفسّر تلكّؤ الوقوف في الطابور.

يتصاعد من جديد من البوق صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا : يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالاّ فسترى ماذا سنفعل بك.كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبنا حتى والنداء يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار يا ابن الكلب، وبعدها تتحمّل مسؤوليتك.

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع ما كنت أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحت في علاج أغلب أمراضي بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد منها لم يتبخر بمحاولة إيهامه أنني لست أنا المعني بأعراضه المزعجة.كل القصص عن نهاية الرحلة إذن جدية؟ كنت أظنها إشاعات لا تعنيني. يصرخ ذكر يبدو أنه أخذ الملفّ على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلّعت روحنا، الله يطلّع روحك. يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص :من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لشتمه. ثم ينفجر بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة :أنه من قوم حاول نبيهم أن يعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع ، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع وفي كل الحالات هو لا يريد ترك المأدبة .

هذا التعيس يفتعل الجهل بأن الآدمي ابن أمه يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول وإن قال ما يفعل وفعل ما يقول فبالصدفة أو لعطب طارئ في السلوك. ابن الكلب، يفتعل الجهل بأن الآدمي ابن ابيه يأكل طول الوقت وإن شبع وضع اصبعين في حلقه ليتقيّأ حتى يعود للذة الأكل. الكلب ابن الكلب ، بعد نهاية الدوام سيعود هو وكم من غبيّ آخر لبيته وأنا من سيقضّي ليلته في القبر.

على كل حال لن أتحرّك من هذه الأريكة الوثيرة مهما همسوا أو صرخوا. أتحرّك وكل الطرق تتدافع نحوي؟ ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا ضد العجلة في كل شيء وخاصة الآن. ثم أي تقرير جدي يمكن كتابته وهذا عالم عبرته كمن يزور مدينة سياحية بين طائرتين... عالم مثل فيلم ندخله بعد بدايته نحضر عرضه ثواني معدودات ونخرج منه قبل نهايته ومع هذا ثمة من يدعي أنه يعرف ما العقدة...

لكن أيضا عالم مثل قصة حبّ، يكفي أن ننغمس في تجربة واحدة لكي تغنينا عن كل قصص الحبّ... خاصية لا يتميز بها إلا هو الذي لا يعطينا شيئا ويعطينا كل شيء.

صراخ. تهديد. بداية تجمّع حواليّ.

كم مرّة يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة لوقت أطول للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعامات مختلفة، فيهزون الأكتاف باستخفاف بل ويصرخون في مكبّر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمّك طلّعت روحنا. نعم ما زال لي كثير من الأسئلة أود طرحها على كل المسافرين الذي تتابعوا لحدّ الآن لأجمع المادة الضرورية علّي أجد أفكارا أخرى أدعم بها الرؤيا أو أنسفها.

لا أنت ولا أحد من الواقفين في الطابور مهتمّ بمشكلتي. من هذا الغبي المنتصب أمامي ؟

الغبيّ المعني بالشتيمة، كائن من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي : يا الله أمامي يا فخامة الحاج الاستاذ الدكتور ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوّة.

القارئ المجهول (صارخا هو الآخر) : ألم تقل أن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، لبنة مشقوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود للحديث عنه كالآخرين. كيف تريدني أن أحملك على محمل الجدّ ؟

ما لكم كلّكم معي هذا اليوم ؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا مع آرائي حتى أطالب الآن بشيء كهذا ؟

ربما جاءت الرؤيا متأخرة لتخلّصني من بقايا سموم رؤى سقطت فيها باكرا كالذبابة في شبكة العنكبوت... يا رؤيا، حان وقتك... ألم أعدّك طيلة هذه السنين لهذه اللحظة... لا تخذليني.

هنا أسلّط عليك نظرة أتكلّف فيها كل الممكن من البرودة علّها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا. لست متأكدا أنك دفعت ثمن هذا الكتاب، أنك لم تستعره نهائيا من صديق، أنك لم تسرقه من مكتبة عمومية أو أنك لم تنسخه على ناسخة المكتب على أوراق مخصصة لأغراض مهنية بحت. مما يعني أنك تسافر داخل عالمي مجانا وكان حريّا بك أن تكون أكثر تأدبا وأن تظهر الحدّ الأدنى من العرفان. إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في ظهره، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شرّ طردة تركله عند الباب في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبّر أمرك معه وحاول تكذيبي إن ترك لك الوقت.

كل هذا الكلام لا يؤخّر ولا يقدّم .عليّ أن أنهض وأن أتوجّه أنا أيضا لباب الرحيل ولا داعي من ادعاء ضرورة أخذ كل وقتي لإتمام وصيتي والتأكد من خلوّها من الأغلاط.

وصيّة ؟... كم من مواعظ الجمعة والسبت والأحد ذهبت أدراج الرياح !...كم أريق من حبر على كم من أوراق بريئة والنتيجة حالة العالم الذي أغادر !... لكن في المقابل ألم أجد عند بعض كبار الرحالة ما وفّر عليّ كم من مشاق وما هداني لكم من هدف

كنت أموت غمّا لو لم ينبهني أحد منهم لوجوده... تقصد أن المطلوب ليس هداية بالجملة ووصفة جاهزة ؟ بالضبط.. أنني لن أحثّهم على السهر على أحلامي وإنما ألا يكفّوا هم عن الحلم؟ بالضبط.. أن الهدف تمكين من يريد من تجربة يأخذ منها تاركا ما لا يحتاج وناسيا ممن أخذ إذا أخذ ؟...بالضبط..وإن ضرب بها كلها عرض الحائط فلا أهمية للأمر وكل التجارب تجارب «الشيء»؟... بالضبط..في هذه الحالة وفي هذه الحالة فقط، لا مانع لديّ أن أترك لهم وصيّة أنا الذي ردّد دوما لا أنصح أحدا، كلهم يعرفون كيف يخطئون دون حاجة لناصح .

خلاص فرغنا من الأمر. لم يبق سوى الاستئذان. الخيار بين روايتين.

[الأولى التي يجب أن يكذّبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعت إكمال كتابة الورقة... أنني أدرت البصر باحثا عن مهرب... أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البائسة... أنه رمى بيده على عنقي آخذا بخناقي... أنني أفلت منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته...أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ العمل ويريد التقاعد أو تغيير وظيفته، كل هذا وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا آه يا ظهري ومعه كل مضيفات خطوط الآخرة فوقي بالسبّ والصراخ وأنا أستغيث: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتخفي بكاء الغيظ والقهر...أنني ،وقد أخرجوني بالقوّة ،قفزت على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقي وأنا المسك بخناقه... أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأنني بقيت أبحلق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شغلهم كذبها] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعت إكمال كتابة الورقة مصافحا عزرائيل بلامبالاة مفتعلة، أنني دعوته للمشي أمامي فقال بل تفضّل فأنت المدعو الشرفي، فتفضلت قاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية ...أن المسكين ركض ورائي غير مصدّق أنني لم أعضه كما كان يتوقع، هو الذي صدّق مثل الكثيرين كلّ الإشاعات عني.

العالم الآن يرمي في وجهك قفّاز التحدّي الأخير: بعد نجاحك لا أدري كيف في مواجهة صعوبة الحياة، ها هي صعوبة مواجهة الموت، أرني براعتك ...هل ستجعل الخاتمة نهاية أم تتويجا؟.... آخر فشل أم آخر نصر ؟

*

المشهد.

طبيب شاب أمام فراش شيخ يبادره وكأنه هو الذي يواسي: الشكر لك وللممرّضات على كل ما تحاولون، لكن توقّفوا لا فائدة. يتنهّد هامسا لنفسه: اللهم لك الحمد وقد تمت الرحلة على خير.

حمدا له أيضا لأن التعجب والإعجاب تواصلا في " من بداية الرحلة لنهايتها... لأن شهواتي لم تنطفئ أبدا... لأنني لم اصب بالحكمة... لأنني ازددت انتباها والطريق يتوغل بي داخل أعماق العالم وأعماقي.

يتوقّف الطبيب عن كتابة الوصفة محدّقا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبيات لشاعر فيلسوف أعمى عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسر آن أوان عبوره ؟ينصرف لا يخفي تأثّره ، تتبعه ممرضات تخفين حزنا غير مبرّر.

في ذهن الشيخ تتدافع مواويل العراقيين وأنغام باخ وفيفالدي وهاندل وموزار وبسم الله خان وهاريبرازاد شورازيا .

كفى من هذا النواح. إنها لحظة فرح الوعد بالراحة الأزلية وبالتجدّد القريب. كفى حتى من أنغام الرقص وأناشيد الجذل. كفي من الوسيقى فهي ليست في آخر المطاف إلا أجمل إخراج لصراخنا... صرخنا باللذة أم صرخنا بالألم.

لوداع هذا العالم لا شيء أحسن من الرحيل على أصواته «هو.»

تمسك اليد المرتعشة بالجوّال والعجوز يبتسم لأحلى الذكريات لما كان يقدّمه للبحر، للريح والمطر ليحفظ له هدير الموج وصفير الريح ووقع القطرات ترتطم بالأرض أو بنافذة غرفة النوم . يضع على أذنيه السماعة غفر أخيرا للشيء ما تقدم وما تأخّر له من رنين . فجأة يختلط صوت المطر بضجيج قويّ لمحرّك دراجة نارية. كم أزعجه الأمر عند التسجيل وكم من لعنات صبّها على رأس مراهق مستفزّ يمزح بإزعاج الجيران. لكنه الآن يتابع بمنتهى الانتباه تلاشي دوي يبعث فيه حنينا مفاجئا مسدلا على الروح ضلالة من شوق عابر.

يتسارع التوغّل داخل أعماق ذات بصدد إطفاء الأنوار داخلها...ذات كقطرة تبخرت من المحيط ،عبرت السماء سحابا ، عاشت مغامرات السقوط على الأرض والارتحال عبر الجداول والأنهار وها هي تعود لمسقط الرأس...ذات تتسارع لتذوب ، لتتحلل ، لتضيع وتجد نفسها أخيرا في الذات الأوسع.

الغريب العائد لوطنه الآن أمام باب مهيب يفتح ببطء وجلال . على ماذا ؟ لنقل في البداية على شيء يشبه

بهو انتظار...تقاطع كل الطرقات ...نقطة الفصل والتواصل بين مختلف العوالم ، بين مختلف المهامّ والأدوار.

من أين لي العـــــــلم ؟ (لاو تسو)
لأنني أنظر داخلي... فأرى

شبحا يسأل أشباحا : هذه وثائق المأمورية الجديدة!إنه ملفّ ضخم! لماذا لا تعطوني ذلك الأصغر؟ آه لا مجال للتغيير وعليّ التحرك فلست الوحيد في الطابور؟ بماذا أوصي

بخصوص الملفّ القديم وكم من زمن يحفظ؟ تصرّفوا وإن شئتم من الآن رميه في سلة المهملات فلا تخشوا متابعة في حالة ندم... عزيزتي ، كيف كانت غرغرة الموت؟ لم يكذبوا علينا عندما قالوا الجسم مهيأ للأمر ويفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهّل العبور... أنت هنا! كنت أظنك ما تزال تناضل...وأنت ؟ ما زلت على عداوتك لي ؟ كنت تمثّل! طبعا وأنا أيضا. كلّنا كنا نمثل على أنفسنا مع بعضنا البعض ... كلنا كنا نمثل الواحد المتعدّد ، المتعدّد الواحد... آه أنت من كنت «ما»، ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لستِ الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أو بالتذكير وهل للأمر معنى «هنا»، على كل حال برافو، أحببت أداءك....من منكم رأى «أين في الناس»؟ أخذ ملفّه غاضبا وشتم الموظفين واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة العقرب... أنت من لاعبني دور «ح»! لماذا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد. ولو. والآن إلى أين؟. صعب عليّ فراقك. تقابلنا في حلم،عشنا في حلم، نفترق في حلم. لما لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ غير مجدي التكرار. خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك، رجاء لا عودة للتدخين وجملة إنها سيجارتي الأخيرة... آه هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق اللوز، إذا كانت هناك أشجار للسرقة في عالمك الجديد فلا مانع عندي من مرافقتك. لا تدري هل سيكون عالما فيه أشجار وأشياء للسرقة، إذن حظ سعيد حذار من حصباء العوالم المجهولة... من أنت، لا أتذكّرك ؟ المسكين عرض عليّ الزميل أكْلَ كبدك ونحن نشرّحك ؟كنت تسمعنا!... حتى الخرفان هنا! كيف ؟ تركتك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخيبت ظنّك لما فررت أغالب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مال كاف لشرائك أنت وكل العائلة ثم ماذا كنت تريدني أن أفعل بخرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهامّ !... على فكرة أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريدتك أو أن تنقض عليها نمرا من خلف الأعشاب وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمر مفهوم، لكن ما الذي دهاك لتجرّب شيئا بغباء الوجود خروفا؟... تقول لم يكن مشروعي الأخرق الوحيد. سأفتعل عدم فهم التلميح... بالمناسبة تهانيّ وأنت تلك السلحفاة المولودة الجديدة تركض نحو البحر والموت يرفرف فوقك وأنت الطيور الجائعة . يا ما أظهرت من قوّة، من دهاء، من شجاعة تلك الليلة وبقية العمر وأنت تصارع محيطا كاملا للبقاء. أجمل أدوارك ، أروع مهامّك على الاطلاق... ماذا تهمس ؟ أنك وللأمانة عرفت عبر الآدمي من التجارب ما لم تعرف... كم من أفكار جديدة بلورت ، كم من لوحات رائعة رسمت ، كم من قصص مثيرة عشت . حقّا كانت وليمة الولائم... شكرا باسم كل الآدميين ولو أنك حمّلتنا حمّلت نفسك في هذا الدور الكثير ؟ تتنهّد أن الوجود لم يكن أسهل في أي من عوالمك الأخرى لكنك ستواصل التجربة حتى بالشطط في

ثمنهـا لملاحـم أكثـر إثـارة وخطرا...موافـق ، موافـق، موافق، خاصـة أكثـر خطـرا. لا شـيء أحـبّ لـديّ مـن الأخطـار...والآن ؟آه قـرارك الأول ، قـرارك الأخـير : أمامنـا الأبديـة ومـا وراءهـا لمشـاريع لا تخطـر علـى بـال أيّ خيـال.

شـيئا فشـيئا تخفـت أصـوات قطـرات المطـر وهـي ترتطـم بزجـاج النافـذة. يتوقـف عـازف البيانـو عـن النقـر. يبهـت تدريجيـا بريـق النجـوم. تمّحـي ربـع ابتسـامة خجـول مـن الأفـق. يتعمّـق صمـت الصحـراء. تتفـكك القصـص إلى كلمـات ثـم لأحـرف فلمـداد تمحـوه يـد خفيـة. تنحسـر الأوجـاع والمخـاوف كالأمـواج لمـا يأتيهـا الأمـر مـن القمـر.

انتهـي العـالم العجـوز مـن جمـع أشـيائه وكل أدوات الإغراء.يـزداد اسـترخاء شـيخ لم يعـد يعنيـه عـالم آيـل للـزوال . ارتبـاك آدمـي عاكـف علـى إنعـاش محتضـر تعلـو محيـاه ربـع ابتسـامة تشـعّ بالطمأنينـة والرضا.

دمعـة حارقـة تسـيل علـى خـد سيسـكنه إلى الأبـد الصقيـع تذرفهـا أصعـب بنـت علـى أصعـب أب.

تمّ الاتحـاد. لم يعـد أحـد في حاجـة لمشـي علـى خـدّ والحبيـب لا يشـاء إلا مـا شـاء المحبـوب والمحبـوب لا يشـاء إلا مـا شـاء الحبيـب. تتبلـور آخـر فكـرة كآخـر شـعاع لآخـر شمعـة ترتعـش قبـل التسـليم بـإرادة الظـلام.

«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً» ....(القرآن الكريم).

افتحـي بـاب شسـاعتك يـا عتمـة، إنـني جاهـز... يـا قـوى الدمـار ترفقـي بأنـآتي الـتي أتـرك ويـا قـوى التـوازن والتعـافي أعطهـا شـجاعة المواصلـة إلى أبعـد نقطـة علـى الطريـق.

يدخـل البحّـار في إغفـاءة تـدوم اللحظـة والأبديـة، عـاد ملتحمـا بالـزورق بالسـماء والبحـر. ثـم ينتبـه لعـودة المـدّ انتهـى جـزر الزمـان.

مـا أن تنفسـت الصعـداء ...(محاولـة هايكـو مهـداة لذكـرى إيسـا ، مشـروع رباعيـة مهـداة إلى ذكـرى عمـر الخيـام)

وأنا أجذب كفني على عيني

حتى تصاعد صراخي

من حنجرة كل مولود جديد

عالم الآدميين

350.000 جيلا بعد طوماي،

69 حولا بعد هيروشيما

الـمعلّقة التي اكتشفها عمّال التنظيف على باب غرفة الرحيل رقم خـمسة

أنـت لا ترتحـل في عـالم في المطلـق وإنمـا في واحـد مـن بـين مـا لا يحصـى مـن عـوالم متدفّقـة باسـتمرار مـن خيـال «الشـيء» و مـن إرادتـه

هـذا العـالم مصنـوع مـن حـواس الآدميـين ، مـن فكرهـم ، مـن خيالهـم ، مـن عملهـم ...كالطـوب الـذي لا يكـون إلا بالطـين والقـشّ والمـاء ومهـارة الصانـع.

هـو كل الموجـود ووجـوده هـذا مبنـي علـى تكامـل الأضـداد و صراعهـا : لا حيـاة دون المـوت ، لا نـور دون الظـلام، لا جمـال دون القبـح ،لا خـير دون الشـرّ ،لا سـلام دون الحـرب... يـا لعبـث مطالبتـه بمـا ليـس مـن طبيعتـه أو مـن أهدافـه !

قوتان تحركانه : التي تخلق والتي تهدم.

قـوة الهـدم فيـه لا تتوقـف لحظـة لذلـك لا تأمـل منـه كثـيرا. قـوة الخلـق عنـده لا تتوقـف أبـدا لذلـك لا تيـأس منـه طويـلا. القـوة الـتي تنتصـر مؤقتـا هـي الـتي تنتصـر لهـا أنـت.

ولأنه خلق وهدم متواصلان فالمفاجأة الدائمة خاصيته وأسلوبه.

هـو في كل لحظـة علـى أحسـن حـال ودواليبـه تعمـل بسلاسـة ونجاح...هـو في كل لحظـة علـى أسـوأ وضـع ودواليبـه تعانـي شـتى أصنـاف الخلـل سـاعية بـكل ذكائهـا لاسـترجاع تـوازن علـى الـدوام مهـدّد.

هو جنة وسط الجحيم ... جحيم وسط الجنّة.

هو مشروع لا معطى، هل لأعظم المشاريع أن يكون سهلا ؟

استكشفه كالنسر المحلّق من الأعال، يمسح بصره الشساعة ومثبّت على أدق التفاصيل.

لا تحـاول حشـره في تصـوّر مـا، لا قـدرة لأي رؤيـا علـى اسـتنفاذ مـا في حراكـه الدائـم مـن فاحـش الثـراء.

الأخطر من الأفكار الثابتة في التعامل معه القيم المتحولة.

غيّر أفكارك، فالأفكار، كالثياب الداخلية، تتّسخ و تبلى ولا بدّ من تجديدها باستمرار.

تمسّك بالقيم تمسكك بجلدك فالقيم تجربة الأجيال تنبهّك للطريق الأسلم.

قيمة القيم في التعامل مع كل أشكاله وحالاته التهيّب والاحترام.

ثـق في القـوة الـتي وضعهـا داخلـك فهـي قوتـه. توجّـه لهـا عنـد ذروة الصعوبـات، وحدهـا المعـين.

انتبه، إن لم يكن كل الوقت فأغلبه، ما بذّرت من العمر فرصة إلا وكان التبلّد السبب.

المجازفة الكبرى ألاّ تجازف. يجب الخروج دوريا من الطريق لاكتشاف الطريق.

أثمن ما في الرحلة ليس أن تجد ما تبحث عنه وإنما أن تلاقي ما لا تتوقّع.

أنت كل ذات .كل ذات أنت. نحن نفس الذات توزّعت على خطّ الزمان لا يتغيّر منها إلا الشكل

الروح هي المحصّلة والخاصيّة القصوى للجسد الحيّ – لكل جسد حيّ–،كما الفكر المحصّلة والخاصيّة القصوى للدماغ النشط – لكل دماغ نشط–، ومن ثم تساوي الكائنات–العوالم في القيمة و الكرامة وهي كلها تمظهرات الواحد المتعدّد.

أنت شيء كلا شيء لأنك الجزء في الكلّ...أنت شيء ليس كمثله شيء لأنك الكلّ في الجزء.

لا هدف للوجود غير الوجود... لا هدف للرحلة غير الرحلة.

الموت عودة إلى السطر في نص يكتبه الذي كلنا حبره وورقه.

عند هذا المنعطف من الطريق الذي لا ينتهي، انصرف بلا حسرة، وقد أتممت رحلتك على خير بلورت عالما بأسره ارتحلت فيه وأنت شيء من "الشيء" يمشي على قدمين.

* * * * *

السؤال الآن وقد أتممنا معالجة النص، كيف سيواجه صاحبه صدمة إفاقة جديدة؟ هل سيقبل اعتذارنا لإخراجه من راحة العدم ؟

هل سيرضيه الشكل الذي بلورناه فيه وقد جاهدنا لنقل أوصافه للآدمي بأكبر قدر ممكن من الدقة مستعينين بالرسم الوحيد له في النصّ...رسم العبيثة.

هل سيصدّق- حتى وإن كان من المدركين بأن الموجود دوما أغرب من أغرب تصوراته له- أننا لسنا آلهة أساطير بني جنسه وإنما علماء من مستقبله البعيد، أصبح بوسعهم إعادة تركيب كائن من مقاطع متفرّقة لنصّ أو لصور أو لرميم له ملايين السنين...أننا نريد منه مدّنا بما ينقصنا من معلومات لبعث عالمه ومهنتنا ترميم العوالم المندثرة وبيعها لعشاق الآثار سعيا لتحسين ميزان المبادلات التجارية للعش المقدّس الذي باركته من بين كل الأعشاش ملكة ملكوت النمل.

هل سيرضى بالتعاون معنا ونحن نعرف موقفه تجاه أوائلنا ، خاصة ماذا سيطلب في المقابل ؟

كم أودّ أيضا أن يمدّني ببعض المعطيات الشخصية التي تنقصني قد أحتاجها لبعض الأمور التي تهمّني لوحدي.

أخيرا إلى أيّ مدى يمكنه، وهو بالطبع الذي نعرف، تشكيل تهديد للأمن الروحي وللنظام العام وما الاحتياطات التي يجب اتخاذها من الآن تحسبا لكل احتمال ؟

المعلّق

ملاحظات القارئ المجهول

ترى ما الذي حصل بعد توقّف الكاتب عند آخر كلمة ؟ هل عاد لهواجسه في نصّ آخر ربما قال فيه عكس ما قال...أم قرّر أن مسؤولية مواصلته ملقاة على عاتق الشريك الصامت، هو الذي ردّد دوما أنه لكل نصّ كاتبان: مؤلفه وقارئه ؟

هذا ما يعطيني حق التصرّف في بعض الأفكار والأحداث أعيد صياغتها كما أشاء .

داخل فضاء خيالي بوادر لبقية القصة وفيها راوٍ توقف عن التنفس عند إفاقته الثانية وفشلت كل محاولة لإنعاشه... صيغة أخرى عن قبوله بالعرض وغشّه للكائنات الغريبة واستيلائه على السلطة ثم تفصيله عالما على ذوقه... اغراء لا يقاوم طويلا والنص هو الذي يدعو إليه عن غير قصد أو بخبث ساخر ... البطل نملة عملاقة بثلاثة رؤوس- هي التي سماها المعلّق- خرجت على قوانين العش المقدس لملكوت النمل مغتنمة فرصة جادت بها الأقدار لتقمّص شكل آدمي واستكشاف عالمه والسيطرة عليه، لكن الشكوك راودت "ما" ومع هذا رفضت هواجسَ تأمرها بخنق الرضيع فكانت كارثة الكوارث...وحدها "ح" انتبهت لخطر هذا الذي تقاسمه الفراش فسمّمته بكعكة شوكولاتة تسيل على الذقن لعلمها أنه لا يقاوم لها اغراء... بخصوص الدمية ايتي ، سأجعلها تتجسس لحساب كائن تحمل ملامحه يسكن في جوف إحدى نجوم مجرّة «السومبريرو» ، زرعها في عائلة آدمية كان يدرسها في إطار إعداد أطروحته لكن الاطروحة رفضت لأنه خرج عن قواعد البحث العلمي وهو يتعاطف مع تفاحة وتفيحة ويتدخل أكثر من مرة لحمياتهما.

أي تغييرات جذرية أخرى سيعرفها النص في فضاء خيال قرّاء آخرين ؟

ثم ماذا عن التصورات والأفكار التي حاول الكاتب تسويقها وقد استقلت عن إرادة صاحبها وبدأت صراع الوجود في الفضاء الرمزي ؟...هل ستكون مرهما على كم من جروح ولقاح ضدّ كم من آفات؟... هل ستعدّ العقول والقلوب لظهور قانون يجبر كل المحرضين على الحقد، كل صناع وتجار الأسلحة، كل أصحاب القرارات المجنونة، على النزول بأجسادهم وأجساد ذويهم إلى "ساحة الوغى"، والشعوب تتفرّج عليهم وتتهكّم؟ ...هل ستحثّ «الرؤيا» على اكتشاف ألعاب تملأ الملاعب حبورا والقانون الذي لا خروج عليه، رغم طرافة الحلول وتباينها، أنه على كل مباراة أن تنتهي بمنتصر ومنتصر ؟ هل ستسّرع في البحث عن بديل للحم حتى نوجد نحن البشر عالما أقلّ فظاعة من عوالم ليس فيها إلا قاتل ومقتول ؟

ماذا لو صدر في يوم من الأيام قرار بحرق النص في حفل ليلي لعدم توافقه مع تصورات توصف بالمقدّسة ؟ هل سيتناقله شفاهيا رواة محترفين قرونا كما فعل الهوميروديون مع ملحمتي هوميروس؟ هل سيقحمون فيه أجزاء من عندهم؟ كم من مقاطع ستسقط منه

سهوا أو عمدا وهل سينتهي صدى لصدى؟

حتى الحفظة سيندثرون بمرور الزمن هم وما بقي من نسخ تناقلهتا الأجيال بحرص شديد .

متى وفي أي ظروف ستختفي آخر نسخة مهرّبة من جيل لآخر ؟ أي فأر سيقضم آخر صفحة من آخر كتاب يلمّ شتاته ومتى سيلقى في الزبالة بآخر قرص سُجّل عليه وبآخر حاسوب قادر على فكّ الرموز التي شفّر بها الكاتب؟

نهايات غامضة والبدايات لا تقلّ غموضا.

متى ولد النصّ وأين توضع نقطة انطلاقه ؟ الحرف الأوّل الذي خطّه الكاتب؟ الكلمة الأولى؟ الجملة الأولى؟

كل هذا ليس بداية وإنما تواصل ، فالنص حلقة من سلسلة إن تتبّعناها وجدنا نصوصا غذّت نصوصا غذّت النصوص التي غذّت النصوص التي غذّت النصوص التي غذّته . كل هذه النصوص المتزاحمة على امتداد تاريخ الفضاء الرمزي زبدة حدث سابق متقدم عليها وشرط من شروط وجودها : الكتابة. حتى هذه ليست بدايتنا وهي إمكانية من إمكانيات اللغة التي لم تظهر بدورها إلا بعد تعلّم الذات طوال أحقاب لا تحصى الانتباه والملاحظة والتساؤل.

مهما توغّلنا في عمق الماضي، نحن لا نستطيع التوقف عند أي محطة لنقول هنا منبع السيل ،فكل بداية لا تنبثق من فراغ. لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بدّ للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها ...وهكذا إلى... إلى أين ، إلى ماذا؟ إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية... إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهومين. ربما هما– مع كم من مفاهيم أخرى– سراب من صنع اللغة.

كل ما هو مؤكّد أن النص انبثق من المجهول ثم سيختفي فيه...مصير كل الكائنات قدّت من المادّة أو من الفكر...ما المؤسف في هذا وأفضل رؤيا ليست التي تكشف الأسرار وإنما التي تعمّقها...ليست التي تقول ما «الشيء» وإنما التي تعمّق الاحساس بغرابته ثم تتلاشى فيه وهي لغز آخر من عالم كان وسيبقى إلى الأزل مصنوعا من الألغاز.

* * * * *

جزيــل الشــكر للمريــض الــعجوز الــذي أوحــى لــي بفكــرة هــذا العمــل وعنوانـــه.

جزيــل الشــكر أيضــا لــكل الذيــن أعانونــي علــى الإصلاحــات الــتي لم تتوقــف لحظــة علــى امتــداد قرابـــة عقديــن وأخــص بالذكــر محمــد حمــدي، مختــار العربــاوي، نــور الديــن بــن خــود، ريــاض البــدوي، محمــد علــي البــدوي، عبــد الله بــن رمضــان، ربيــع بــن رجــب، عبــد الجليــل النومــي، عامــر بوعــزّة، إســلمو ولــد دلاهــي ولــد المعلــوم، محمــد فــال ولــد سـيدي ميلــه، محمــد الأمــين ولــد الفاظــل.

أخــيراً وليــس آخــراً جزيــل الشــكر للقــارئ الكريــم الــذي شــرّفني بقــراءة هــذا العمــل وكلّــي أمــل أن يكــون قــد وجــد فيــه بعضــاً ممــا نفتــح كلّنــا مــن أجلــه الكتــب.

الفهرس



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+




الرحلة في التفاصيل وفي
المتغيرات سيرة ذات...
في الجوهر وفي الثوابت
سيرة كل ذات.
الرّحلة
مذكّرات آدمي
المرزوقي
ISBN : 978 - 9938 - 864 - 33 - 5
9 789938 864335
www.mediterraneanpub.com